الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي

مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام

الجزء الثاني

دار الفكر

الفصل الخامس

يوسف (ع) يعرف بحاله و يمهد للدعوة للتوحيد

آ (٣٧) ﴿ قالَ : لايَأتيكُمَا طَعامٌ تُرزَقانِهِ إلاَّ نَبَّأتُكُما بِتَأويلِهِ قَبلَ أنْ يأتِيَكُما ، ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمَني رَبِّي ، إنِّي تَرَكتُ مِلَّةَ قَومٍ لايُؤمِنُونَ بَاللهِ ،وهُمْ بالآخرةهم كافرون﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون فقام السيد عبد الحق الداغستاني وقال:

(قال) يوسف ، بلسان المعرف بنفسه تمهيداً لما بعده ، مخاطباً الفتيين في السجن (لايأتيكما) ولايحمل اليكما في هذا السجن (طعام ترزقانه) تأكلانه وتشربانه من أي نوع كان من المأكولات والمشروبات . وهذا العموم مستفاد من وقوع النكرة وهي ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي ، ومن كلمة ترزقانه أيضاً التي قصد بذكرها تأكيد إفادة العموم والشمول . أي لا يُحضر لكما وقت الصباح أو وقت الظهر أو المساء طعام ، أي طعام كان ، ترزقانه ويجلب لكما من الحكومة أو أو من بيوتكما ﴿ إلاّ نبأتكما بتأويله ﴾ أي بعبارته لو فرض أنكما رأيتماه مناماً ﴿ قبل أن يأتيكما ﴾ تأويله ، أي قبل مايقع مصداقه ، و ﴿ ذلكما ﴾ التأويل والتعبير ﴿ مما علمني ربي ﴾ سبحانه وتعالى ، وكيف لايكون لي ذلك و ﴿ إني تركت ﴾ أي اجتنبت ﴿ ملة قوم ﴾ كأهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ونحوهم ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾قائماً بذاته ،غير منتشر في ذرات هذا العالم ، ولاحالّ ، ولا منبث في أحد من المخلوقين ، وليس له شريك ولاوسيل ، سوى عبادته وطاعته وحده ، ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي بدار الجزاء ﴿ هم كافرون ﴾ منكرون وجاحدون.

قال : ﴿ لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل ... الخ الآية ﴾

— ١ —

ههنا وقف الرئيس وترجى ثلاثة علماء كبار من علماء المؤتمر بأن يقولوا كل واحد بما يفتح الله به عليه في تفسيرهذه الآية ، فنهض الأول وهو العلامة الطرابلسي[1] وقال :

يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية

بدأ يوسف « ع » في هذه الآية والتي بعدها . يذكر للفتيين شيئا من ترجمة حياته الشخصية . والحياة العائلية ، العلمية والدينية ، بساطاً وتمهيداً للعظة ، التي أزمع على إلقائها عليهما ، فكأنه جرى في كلامه على مايسمونه بسياسة (المراحل) أي التقدم مرحلة مرحلة ، ومن كلامه ظهر لهما أمران :

(١) أن هذا السجين بعدما كان في أعينهما مجهول الأحوال ، دمعص النسب ، إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة .

(٢) أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرماً ، ظهر أنه هاد مرشد واعظ معلم للخير .

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره ، وكأنه عليه السلام ، رام أجراً على تعبيره رؤييهما ، ولكن ماهو هذا الأجر ياترى ؟ ليس هو ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً ما من الأمور المادية ، ولكنه إصغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه .

وهذه طريقة لطيفة ، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والارشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه الى ما هو أولى به وواجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه ان العالم

---

(١) نسبة الى طرابلس من بلاد الشام (لبنان)

إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ، لم يكن من باب التزكية .

ثم ان ماعمله يوسف (ع) يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشيرية ، فانهم يطببون المرضى ، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم ، ولكن هذه الأجرة هي إصغاؤهم للكرز الديني ، الأمر الذي يشجعنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل ، ويدعونا أن نفترص الفُرَص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجَحَدة للايمان ، ونرشد العصاة للطريق القويم .

كان السكوت سائداً في غرفة السجن التي فيها الرئيسان ، فوقف يوسف أمامهما وقال بملء فيه : سأشرح لكما تعبير رؤييكما . ولكن أحب أن تنتظرا قليلاً ، ريثما أتكلم معكما بنبذة صالحةمن تعريفكمابشخصي ، ومن العظةوالذكرى .

قبل كل شيء إنني أشكر الله على أنه لايأتيكما طعام ترزقانـــه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نبأتكما بما يؤول ويصير اليـه ولو فرض أنكما رأيتما مناماً ، قبل أن يحدث لكما مصداقه وعاقبته يقظة ، فأنا مستعد أن أخبركما عنه قبل وقوعه وحدوثه ، وهذا الذي أذكر اني أعلمه في عبارة الرؤيا هو مما علمني إياه ربي فعلمته ، فهو شيء استفدته من قِبَل السماء ، لا من قِبَل الأرض — وأتي بكلمة ﴿ ترزقانه ﴾ ونكر ﴿ طعام ﴾ في سياقالنفيلافادةالعموم — كأنه يقول :

إن علمي بتأويل الرؤى عام . وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام ، بل إني قدير على تفسير أي رؤيا كانت ، في أي طعام يكون ، مما يرزق عادة ، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الانسان في منامه أقدر أن أفسره . فأنا قدير على تعبير رؤيا طعام الخمر ، ورؤيا طعام الخبز ، كما إني قدير على تفسير ماعداهما من صنوف الطعام عموماً .

ولست أريد المكاثرة بذلك ، ولكن التعريف برجل مجهول الهوية (عندكم)، إني تركت منذ دبيت الى أن شببت ملة قوم لايعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا ،

وسببه انهم لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، أو بوحدانيته ، لأن من لم يؤمن بالوحدانية ليس مؤمناً بالله الإيمان المطلوب شرعاً ، وهم كافرون بيوم الجزاء ، وان إنكار الصانع ووحدانيته مع الكفران بيوم الدينونة هو العقبة الوحيدة في سبيل تلقي العلوم اللدنية من السماء .

فقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ ، ومنه نعلم أن جزاء الإنسان على عقائده الحقة وأعماله الصالحة قد تتعجل لشيء منه في الدنيا ، ثم ذلك الشيء المتعجل في الدنيا قد يكون مادياً ، وقد يكون معنوياً كما هنا ، فان الله تعالى جازى يوسف على عدم ابتداعه باجتناب ملة الكفران ، وعلى اتباعه لملة التوحيد بأن علمه مما يشاء : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنْ تتقوا اللهَ يجعلْ لكم فرقاناً ﴾ (٨ : ٢٩)

ويريد يوسف بقوله ﴿ إني تركت ﴾ الى آخر آية ٣٨ ، إن الدين الذي هو عليه اليوم ليس دين « تعيين » عيّنه فيه أبوه مثلا . ولا هو دين « تقليد » [illegible] فيه الأسلاف ، بل هو دين « انتخاب » انتخبه هو لنفسه ، بالدليل والبرهان ، واعتنقه مختاراً له من دون سائر الأديان .

وقد يكون قد أشار بقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ الى أنه [illegible] أنه سيشير بقوله : ﴿ واتبعت الخ ﴾ الى أنه « [illegible] » [illegible] . هذا ماتيسر لنا الآن . واتباع الحق أسلم ، والله تعالى أعلم .

ثم نهض العالم الثاني وهو العلامة الحمصي وقال :

يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتهما للتوحيد

يقول يوسف مخاطباً الفتيين السجينين ، إنني بحمد الله على استعداد تام بوجه عمومي لتفسير كل ماترون ، فعلى الخبير سقطتما — فقالا له : ذلك الظن بك ، أيها الانسان المحسن — قال : ياسائليّ أما وأبيكما اتنبآن ، فمن كان له منكم أذنان

للسمع فليسمع ، ومن كان له قلب فليحضره ، لا يأتيكما في اليقظة طعام مأكولاً كان كالخبز الذي رآه أحدكما ، أو مشروباً كالعصير الذي رآه الآخر ، ترزقانه ـ(عبر بذلك لإفاده العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ (٦ : ٣٨) فزاد « في الأرض وجناحيه » لافادة التعميم والاحاطة ، وكذلك ههنا زاد كلمة « ترزقانه » لافادة الاستغراق والشمول ، فكأنه قال : أي طعام كان مما عادته أن يرزقه الانسان في هذه الدنيا) ـ إلا نبأتكما تأويله ، أي مصداقة ومرجعه ، وهو نفس الشيء المخبر عنه . أي أنبئكما بالتأويل بلفظي وبياني ، قبل أن تريا التأويل بالذات ذلكما مما علمني ربي ، ولا فخر ، فما أنا إلا سفير من سفراء الحق ، ولسان من ألسنة الصدق ، ولهذا فتأويل الرؤى مهما عظمت هو أهون عليّ من قطع الخيط ، ولا أقول ذلك مفتخراً ، فان آفة الحسب الفخر ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى .

جعل يوسف (ع) العلم اللدني ثواباً على تركه ملة من لم يؤمنوا بالله ولا بيوم الدين ، ثم أخذه بملة التوحيد (انظر التعليق الرابع من خطاب مولانا عمر البيلاني على قوله ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ : ٢٢) .

ثم قال الصديق عليه السلام تتميماً لوعظه للفتيين : ولا اكذبكما ، ولا أخفي عنكما ، ما كان عرض لي أني استعملت عقلي ، واستخدمت أفكاري ، وجعلت البرهان رائدي ، والتبصر مطيتي ، وتفكرت في سائر الملل والنحل ، حتى وصلت لنور الحق ، وعرفت ماهي الملة التي ينبغي طرحها ، وماهي النحلة التي يجب اعتناقها ﴿ فتركت ملة قوم .. الخ ﴾ ، وأنتما لو سلكتما طريقتي هذه لكفيتما شر التقليد ، ووصلتما الى نور الاستقلال الفكري ، الذي هو أصل كل خير ، وكنتما بعده تصلان الى الملة الحقه فتعتنقانها .

هذا مرمى كلام الصديق (ع) ونري أنه قدافترص فرصة سؤالهما له ، فحول مجرى الحديث الى عظتهما ، وأخذت جمل الوعظ تنثال على شفتيه .

آنس منها ارتياحاً ، فأحب أن يطيل معها الحديث ، جريا على رأي من قال :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلاً فقل

اقتحم هذه الفرصة لإرشادهما ، لأنه رجل ديني ، وأهل الدين يكرسون حياتهم لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب ، حتى إنهم ليطوفون السجون ويتعرفون الى المسجونين ، ويترددون اليهم ، ويعظونهم ويدعونهم إلى الحق ، ويحرضونهم على التوبة ، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله .

سألاه فعول على اغتنام السانحة ، لعله يستطيع التسلط على أفكارهما ، ويكاشفهما بأنه هو على عقيدة التوحيد ، خلافاً للمصريين ونحوهم ، ووفاقاً لعائلته الكريمة .

أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها بحديث ذي شجون ، منه مايتعلق بترجمة شخصه ، ومنه مايتعلق بترجمة أصوله ، ومنه ماله علاقة بالدعوة الدينية والوعظ والارشاد ، ومنه ماهو جواب على سؤالهما .

المراد « بالترك » الامتناع

والمراد بكلمة « الترك » في قوله ﴿ إني تركت ﴾ الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله الآتي : ﴿ما كانَ لنا أن نُشرِكَ باللهِ مِن شيءٍ﴾ (آ:٣٨) ، لا تركها بعد ملابستها — حاشا — وانما عبر بهذا التعبير لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به (ع) فهو للاستجلاب لهما أن يتركا ملتهما ، وقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ أول غمزة ، ولكن في الحاشية . وقوله الآتي : ﴿ ماتعبدون الخ ﴾ هي الغمزة الثانية ، ولكن في الصميم .

القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف

وأما هؤلاء (القوم) الذين ذكرهم السيد الصديق فلم يبين المفسرون رضي الله عنهم من هم ، وكأنه لأن بيانهم من هم ليس مهماً ، ولكننا نحن نظن أنهم

سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به ، وهم الأمم التالية :

(١) ــ القَينيّون : ، وهم قبيلة من العرب كانت متفرقة في الجنوب ، بين العمالقة .

(٢) ــ الحِثّيون : وهم قبيلة قوية ، استولوا على سوريا ، وكانت عاصمتهم مجاورة لبلدة (حماة) .

(٣) ــ الفِرِزّيون : وهم إحدى قبائل فلسطين ، سكنوا في الجبال في داخلية البلاد ، وكانوا رعاة لا مُدن لهم .

(٤) ــ الأموريون : وكانوا في الدرجة الثانية بعد الحثيين في القوة ، كانوا في اليهودية الجبلية ، وفي شرقي الأردن .

(٥) ــ الكَنعانيون : وهؤلاء ينقسمون الى خمسة أمم ، (صيدوني) سكان صيدا وصور ، و (عرقي) سكان لبنان ، و (أروادي) سكان جزيرة أرادس ، و (حماتي) سكان حماة ، و (حوّيّ) سكان شكيم أي نابلس .

(٦) ــ اليَبُوسيون : سكان أورشليم وهي بيت المقدس .

(٧) ــ الكَلدانيون : سكان العراق .

(٨) ــ القِبط : سكان مصر .

(٩) ــ الفلسطينيون : سكان البلاد التي بين نهر الأردن شرقاً ، والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

فهؤلاء الأمم كانوا وثنيين ، ولا يعتقدون بحقيقة يوم الدين ، وكانوا معاصرين لابراهيم فاسحاق فيعقوب عليهم السلام ، وبالطبع كان يوسف قد عرفهم ، لأنه تولد في العراق ، وبقي فيه الى أن بلغ من العمر عشر سنين ، ثم هاجر مع أبيه

يعقوب وسائر الأسرة اليعقوبية الى سوريا ففلسطين ، وبقي في فلسطين سبع سنين ولما بلغ من العمر ١٧ سنة أخذ لمصر ، وعاش فيها الى أن توفي ، وانما قلنا : نظن أنه عنى بلفظ (قوم) هؤلاء الأمم لأنه عاش فيهم واختلط بهم وجاورهم وعرفهم حق المعرفة . وهنا فوائد مهمة ، لابد من التنبيه عليها :

الادوار التي سكت فيها يوسف والادوار التي تكلم فيها

الفائدة الأولى — نعلم أنه كان أتى على يوسف منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار (الدور الأول) أخذ (السيارة) إياه لمصر كسلعة تجارية ، (الدور الثاني) — حالة الخدمة والعبودية للعزيز فوطيفار ، ونراه في هذين الدورين ساكتاً ، لم يهتف بشيء من مدح شخصه ، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ ، ذلك لأنه لم يجد داعياً لذلك ، ولكنه الآن وقد انتقل الى (الدور الثالث) — دور الاعتقال في أعماق السجون ، مع المجرمين ، منهماً [illegible] ، فقد رأى من اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه ، و[illegible] أسرته وأصوله بعض التقريظ ، شأن كل واحد ، دون [illegible] في نظر الناس وتصوح غصن فضله في أعينهم ، وابتدىء بثلبه ، و[illegible] عنه ، فانه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ماتستدعي الحاجة [illegible] ويستند على أثيل منبته ، وكريم أصله ، ويأوي الى سياج من [illegible] ضربه من حوله ، ولله در هذا الصديق ، ما أحكمه في [illegible] وحال التكلم .

معنى ترزقانه

الفائدة الثانية معنى (ترزقانه) تعطيانه وتنتفعان به ، جعل الخمر رزقاً لأنهم لم يكونوا يعتقدون تحريم شربها . والرزق هو كل ما انتفع به مطلقاً ، سواء أكان حلالاً أم حراما .

معنى ذلكما مما علمني ربي

الفائدة الثالثة — قوله (ذلكما مما علمني ربي) كما أن الله علّم يوسف تأويل الرؤيا في قديم الأيام ، كذلك علّم (ابن سيرين) تأويلها في العصور الحديثة ، (فابن سيرين) هو يوسف (البصريين) كما أن (الصديق) هو يوسف المصريين ، فان ابن سيرين رزق من علم (عبارة الرؤيا) العجب العجاب .

مصدر فضل يوسف

الفائدة الرابعة - قوله : (اني تركت ملة قوم الخ الآية الى أن يقول : واتبعت الخ الآية) يبين أن ليس مصدر فضله كونه ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، بل جعل مصدر فضله تركه ملة أولئك الجاحدين ، واتباعه ملة آبائه الموحدين ، ففضل الانسان بأعماله لا بنسبه ، قال أبو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي : على امرىء من آل بربرْ

فالحــق يحلف ماعليّ عنده الا كقنبر

(ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاولة)

ثم هو يريد بقوله : (تركت) رفضت بدون سبق مزاولة ، كما ان (العَود) قد يطلق على الصيرورة ، بدون سبق المزاولة أيضاً ، ومنه : ﴿ أوْ يُعيدُوكم في ملّتِهِم ﴾ (١٨ : ٢٠) معنــاه يصيروكم ، لأن هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقوا ملة التثليث ، ومنه حديث معــاذ : (أعُدْتَ فتّاناً يا مَعاذُ ؟) ، أي أصرتَ ، ويقول كعب : (وددتُ أنّ هـذا اللبَن يعودُ قطراناً) أي يصير ، فقيل له : لِمَ ذلك ؟ فقال : (تتبعت قريش أذنابَ الابل ، وتركوا الجماعات) ، فكما ان العود الى الشيء قد يستعمل بمعنى الصيرورة اليـه ، بدون سبق مزاولة

له ، فكذلك ترك الشيء قد يستعمل بمعنى رفضه وعدم معاناته ، بدون سبق التلبس به كما هنا ، وإلا فالأنبياء معصومون من الكفر والشرك ، حتى قبل النبوة .

ويعجبني ما رأيته لبعض المحققين من تعليل آخر لتعبيره بكلمة (الترك) ، وهو أنه لما كان يوسف مختلطاً بالوثنيين بالعراق ثم في فلسطين ثم في مصر ، وكان مكثورا بهم ومغمورا بينهم عبر «بالترك» نظرا للظاهر لهؤلاء الجهلة بحاله ، ولا ريب منه ما في قوله تعالى : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال : أولو كنا كارهين ؟ ، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ الخ (٧: ٨٧ و ٨٨)

وقد عثرت لبعض العصريين (١) على تحقيق مهم في هذا المقام ، خلاصته :

(العوامل التي تجذب البشر الى السعادة او الشقاء)

(يوجد في هذا الكون عوامل تجذب البشر الى السعادة أو الشقاء ؛ ومن أمثلة تلك العوامل ، أولا (الحكومة) التي تسيطر على الناس ، وثانيا (المجتمع أو النادي) الذي يحتشد فيه القوم للحديث ، أو السمر أو اللهو أو [illegible] أو مختلف الأعمال والمصالح ، وثالثا (العائلة) التي تربي الأبناء [illegible] (الوراثة) التي تنتقل من الآباء والأمهات والأجداد والجدات . سواء من جهة الأب أو من جهة الأم ؛ وخامسا (الاقليم) الذي يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون محصولاته ، وهذا المؤثر الخامس هو ما يسميه علماء النفس (بالبيئة الجغرافية) وأما العوامل السابقة فيسمونها (البيئة الاجتماعية) اهـ .

البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها

إذا تقرر هذا نقول : إذا كان الانسان [illegible]

(١) وهو العلامة الشيخ عبد القادر المغربي [illegible]

سيطرة (الحكومة) التي تعتقد تلك العقيدة ، أو (المحفل) الذى يؤثر بالاختلاط أو (العائلة) التي منها الجد والجدة لأم ، ومنها الخال ، أو (الاقليم) ، ثم قاوم تلك المؤثرات ، واتخذ لنفسه عقيدة استحسنها ، فانه يصح له أن يعبر بقوله :(تركت كذا واتبعت كذا) لأنه كان بسبيل أن ينفعل ويتأثر وينجذب لبعض هذه الجواذب ، ولكنه قاوم هذه كلها أشد المقاومة ، فيوسف الصديق كان عاش في العراق عشر سنين ، تحت سيطرة (حكومة) وثنية على دين الصابئة ، وكانت عيشته تلك المدة في بيت جده لأمه (لابان) الذي كان وثنياً ، ثم عاش سبع سنين بفلسطين الوثنية ، ثم عاش بمصر في بيت (فوطيفار) نحو عشر سنين ، وأصحاب هذا البيت وسكانه كلهم وثنيون ، ثم دخل (السجن) مع سجناء من الشعب المصري الوطني وشعب الاحتلال الهكسوسي ، وكلهم من أهل التوثن ، وكل من كان كذلك كان بسبيل أن يكون على ملة هذه البيئات ويخشى عليه من وراثة طريقة أحواله ، ولكن يوسف الصديق بما أوتي من عقل وافر ، وحفظ إلهي ، تغلب على كل هذه المؤثرات ، ولم يجذبه شيء من هذه الجواذب ، ولم يتمسك إلا بعقيدة التوحيد ، والايمان بالنشأة الآخرة ، لاسيما وأن ذلك هو ملة آبائه الكرام ، كان كل هذا قبل النبوة ، وأما بعدها فالأمر ظاهر .

الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً

الفائدة الخامسة ـ قوله : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ يحتمل معناه : لا يؤمنون بالله واحدا ، بل يشركون معه غيره ، وذلك (كالقوم) الذين عاصرهم يوسف ، من عراقيين وفلسطينيين ومصريين ، لأن هؤلاء كلهم وثنيون ، لا يجحدون وجود الله ، بل يعترفون به ، ولكنهم لا يؤمنون به الايمان الحق ، الإيمان المطلوب ، وهو ايمان التوحيد ، بل يشركون معه غيره من الآلهة التي يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، ويحتمل أن معناه موجوداً ، وذلك كالماديين ، ، مع أن المادة جاهلة ، لا يمكن ان

ينشأ عنها هذا الابداع في الكون ، وارتباط المصالح في سائر العوالم ، مع وجود الحكمة في كل مانرى ونسمع ونحس ، فكل صُنع لغرض صحيح وقصد معقول ولايمكن للمادة — وهي لاتعقل شيئاً وانما تُحدِث عنها التفاعيل آثاراً صماء — أن توجد عقولاً مدبرة مفكرة ، تعمل بالحكمة وبمقدار في هذا الوجود .

الادلة على وجود الله تعالى

كان يجب أن لايختلف الناس في العقيدة بوجود الله ، لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم ، والعقل المحكم على الحكيم — بديهية ، بل قالوا ، إن دلالة مما يدركه الحيوان ، فضلا عن الانسان ، فانك إذا ضربت الحمار مثلا ، التفت ليرى من ضربه ؟ لأنه مركوز في فطرته ان الأثر لايكون بلا مؤثر ، والفعل لايكون بلا فاعل ، قال تعالى ﴿ ألم ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَنْ في السموات والأرض والطيرُ صافّاتٍ ، كلٌّ قَدْ علِمَ صَلاتَه وتَسْبِيحَهُ ﴾ !!! (٢٤ : ٤١) وأنت إذا رأيت كلمة من ثلاثة احرف لم تشك فى أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير الى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعاً ، رتب اجزاءها واعدها لتلك الغاية ، وما مَثلُ من ينكر وجود الخالق — وهو أظهر من الشمس — إلا كمن رأى (خزان اسوان) بالقطر المصري ، أو (برج إيفل) بباريس ، فقال : ان ذلك على فخامته وضخامته لايحتاج الى (مهندس) ولا (صانع) !!! ، أو كمن رأى (كتاباً) بديعاً في مبانيه ، بليغاً فى معانيه ، وفيه من الفلسفة العالية ، والأفكار السامية ، مايفوق أفكار (أفلاطون) وفلسفة (أرسطاطاليس) وفيه من الأدب الرائع ، والشعر البارع ، مايسمو على شعر (المتنبي) ، فلما نظر فيه قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق ، وكان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية ، فوجد ذلك الكتاب على ماترون ، فهلا ترمي صاحب ذلك القول بالجنون ؟ .

وإذا كنت لاتسلم أن (ساعة) توجد بلا صانع ، وأن (باخرة) توجد

بلا مهندس ، بل لا تسلم أن « كلمة صغيرة » توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا « الكون » العظيم ، الذي يبهر العقول ، ويحير الألباب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم ، وكان كل مافيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار ، الى أنواع لا يحصيها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، وقد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم ، وينوعها الى مالا يحصى من الأنواع ، ويعمها بما شاء من الخصائص المختلفة ، والمزايا المتباينة ، والصفات المتقابلة ؟ وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الدلالة على الله وجود ـ الأنثى ـ بجانب ـ الذكر ـ فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود « المرأة » فأوجدتها ؟ وغايرت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها ، فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومنّعتها بما يجذب الرجل اليها ، من صفات الجمال ، حتى في صوتها ، ومنحتها مايحتاج اليه طفلها الصغير ، وقال أفلاطون : « يكفينا مافي ـ العين ـ من التدبير الذي جعلها في مكان مكين من الحَجَاج[1] ، وجعل لها ـ الحاجب ـ ليقيها من العرق أن يتساقط فيها ، و ـ الهدب ـ ليقيها من الغبار ، ولا يمنعها الضوء » ، وهذا الباب واسع جداً ، وفيما ذكرناه كفاية .

عقيدة ابراهيم (م) واولاده وعقيدة العرب الجاهليين

والاعتقاد بوحدانية الله تعالى هو دين ابراهيم وأولاده من جهة إسحاق ومن جهة إسماعيل ، غير أنه كان وجد في العرب مشركون لله في العبادة لا في الخلق والإيجاد ، يعني أن هؤلاء الصنف من العرب كانوا مع اعترافهم بوحدانية الربوبية ، مشركين في الألوهية ، قال تعالى : ﴿ لَئِنْ سأَلْتَهُم مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمرَ لَيقولُنَّ : اللهُ ، فأنَّى يُؤفَكُون !! ﴾ الى أن يقول : ﴿ ولَئِنْ سألتَهُم مَنْ نَزَّلَ من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ

(١) هو الحفرة العظيمة التي فيها العين ويقال لها وقب .

بعدَ موتِها ؟ ليَقولُنَّ : اللهُ ، قلِ الحمدُ للهِ ، بلْ أكثرُهُم لايعقلون ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) وقال تعالى : ﴿ قلْ مَنْ يرزُقُكمْ منَ السماء والأرض ؟ أمْ مَنْ يَملِكُ السَّمعَ والأبصار ؟ ؟ ومَنْ يُخرِجُ الحي منَ الميّتِ ويُخرِجُ الميّتَ مِنَ الحيّ ؟ ومن يُدَبِّرُ الأمرَ ؟ فَسَيَقولونَ : اللهُ فقلْ : أفلا تَتّقُونَ ؟ ﴾ (١٠ : ٣١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تصرح بأن مشركي العرب إنما كانوا مشركين في الألوهية ، دون الربوبية ، وهكذا وحد فى اليهود أناس كثيرون كذلك كما يعلم من البيان الآتي :

بيان سقوط اكثر بني اسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بأيديهم

(١) في عصر يعقوب : كان (على ذمة التوراة) يوجد فى بيت يعقوب اناس وثنيون في بعض أيام حياته ، كما نستفيده من قول التوراة : (وقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم) (ت ٣٥ : ٢) . وقولها (فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) (ت ٣٥ : ٤)

(٢) في مدة إقامتهم بمصر ـ « كانوا عبدوا آلهة المصريين » (لا ١٧ : ٧) و (يش ٢٤ : ١٤) و (حز ٢٠ : ٧ و ٨) و (أ ر ٤٤ : ٨ - ١٩)

(٣) في أول مدة الخروج « عبد بنو إسرائيل العجل في البرية بعدما خرجوا من مصر في مقاطعة جبل سيناء حتى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل » (خر ٣٢ : ٢٧ و ٢٨)

(٤) في آخر مدة الخروج ـ « عبد بنو اسرائيل بعل فغور وذلك حين كانوا في الغور فغضب الله عليهم وأمات منهم بالوباء ٢٤ الفا » (خر ٩ : ١٥)

(٥) في مدة التيه ـ وقع أكثر بني إسرائيل فيوهدة الشرك في جميع مدة

التيه البالغة ٤٠ سنة لافرق بين الآباء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ولا بين أبنائهم الذين تولدوا في البرية ، فالجميع عبدوا الأصنام في البرية ، وقربوا لها القرابين (خر ٢٠ : ٧ — ٢٦) و (تث ٩ : ٧)

(٦) في عصر يشوع — وقد وقعوا في وهدة الشرك ، وهم تحت قيادة يشوع لآخر أيام حياته (يش ٢٤ : ١٤ و ٢٣)

(٧) من موت يشوع إلى أول قاضي — وقد رجع بنو إسرائيل للسقوط في أودية الوثنية في الجيل الذي بعد يشوع إلى أيام أول قاض قام فيهم وهو «عثنيئيل» بن قناز (قض ٢ : ٨ — ٢٣ وقض ٣ : ٥ — ٩)

(٨) بعد موت القاضي الأول — مات القاضي « عثنيئيل » فعاد بنو اسرائيل لشركهم المعهود (قض ٣ : ١٢ — ١٤) مع ملاحظة مافي (قض ٢ : ١٩)

(٩) بعد موت القاضي الثالث — وقع بنو إسرائيل في أودية الوثنية بعدموت القاضي « شمجر » بن عناة (قض ٤ : ١ مع ملاحظة مافي قض ٢ : ١٩)

(١٠) بعد موت دبورة وباراق — عاد بنو إسرائيل لشركهم وأدخلوا عبادة البعل الى وسط البلاد وأقاموا له مذبحاً وسارية (قض ٦ : ٦٥ و ٢٨ و ٣٠) واعتقدوا أن البعل إله، وبقوا على هذا الحال حتى قام القاضي جدعون (قض٦:١)

(١١) في أيام جدعون — ثم وقع بنو إسرائيل بواسطة مخلصهم جدعون في الوثنية في أيام جدعون ، على إثر مقاتلته المديانيين (قض ٨ : ٢٤ — ٢٧)

(١٢) على أثر موت جدعون — كان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزَنَوْا وراء « البعليم » وجعلوا لهم بعل بريث إلهاً (قض ٨ : ٣٣)

(١٣) بعد موت يائير — بعدما مات « يائير » الجلعادي الذي كان قاضياً ثامناً على بني إسرائيل عادوا يعملون الشر ، وعبدوا « البعليم والعشتاروت » وآلهة « آرام » وآلهة « حيدون » الخ ما في (قض ١٠ : ٦ و ١٠ و ١٣ — ١٦)

(١٤) بعد موت عبدون ـ بعد ما مات القاضي « عبدون » عاد بنو إسرائيل يعملون الشر المعهود بينهم وهو التوثن (قض ١٣ : ١) مع ملاحظة ما في (قض ٢: ١٩)

(١٥) شرك بعض اللاويين ـ ثبت إن بعض اللاويين كان يكهن في بيت الأصنام (قض ١٧ : ٤ ـ ١٣) في قرية « الطيبة » التابعة لقضاء « طول كرم »

(١٦) شرك سبط الدانيين ـ ثبت أن سبط « الدانيين » صعدوا الى جبل أفرايم ، ونهبوا من بيت (ميخا) الذي في قرية (الطَّيبة) التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك التي هي آلهة (ميخا) ، وأقاموا لأنفسهم التمثال المنحوت للعبادة (قض ١٨ : ١٧ و ٢٤ و ٣٠ الخ) .

(١٧) في عصر صموئيل — ثبت أن بني إسرائيل سقطوا في حفرة الشرك أيام النبي (صموئيل) ، فكانوا يعبدون في عصره الآلهة الغريبة و (العشتاروت والبلعيم) (١ صم ٧ : ٣ و ٤) .

(١٨) في عصر مُلْك شاول — ثبت انه كان يوجد في عصر (شاول) أول ملوكهم في بيت ابنته (ميكال) أصنام صغيرة ومجسمة ، على هيئة الانسان ، بحيث من رآها يظنها إنساناً ، وتسمى هذه الأصنام (ترافيم) (١ صم ٢٩ : ١٣) وهي في شريعة اليهود وحسب كتبهم قرينة الوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) .

(١٩) في عصر سليمان — تقول اليهود إن نساء سليمان أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب وراء أربعة آلهة ، وهم « عشتروت » و « ملكوم » و « كموش » و « مولك » (١ مل ١١ : ٤-٨) وكان يوجد في الرعية في عهده توثن ، فتركوا الرب وسجدوا للإله « عشتروت » وللاله « كموش » والإله « ملكوم » (١ مل ١١ : ٣٣) وكانوا يقربون أبناءهم وبناتهم للاله « مولك » وهو محمي بالنار (٢ مل ٢٣ : ١٠) .

(٢٠) أيام رحبعام — ثبت من التاريخ ان أهالي المملكة الجنوبية مملكة يهوذا أيام ملكها « رحبعام » بن سليمان ، عملوا الشر وعبدوا الآلهة الباطلة ، وبنوا

لها مرتفعات وأنصاباً وسواري (١ مل ١٤ : ٢٣و٢٣) وكذا هم يقولون إن نفس الملك رحبعام أشرك بالله (١مل ١٥ : ٣ و ١٢) .

(٢١) أيام أبيّا — سار « أبيَّا بن رحُبعام » في جميع خطايا أبيه الذي تقدم آنفاً أنه كان مشركاً ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الله (١ مل ١٥ : ٣) ولم تنزع الأصنام في مدته ، ولكن في مدة أبيه « آسا » (١ مل ١٥ : ١٢).

(٢٢) أخزيا توثن « أخزيا » ملك يهوذا بن « يهورام » (٢ مل ٨ : ٢٦) وأما الرعية فكانوا سقطوا في الوثنية بهمة أبيه « يهورام » أيام ملكه عليهم (٢ أي ٢١ : ١١ — ١٣) .

(٢٣) عثليا — « عثليا » ملكة يهوذا كانت مشركة ، لأنه هي التي أدخلت عبادة « البعل » إلى يهوذا (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) .

(٢٤) أيام يواش — رجعت يهوذا وهم أهالي مملكة القدس إلى السقوط في الوثنية أيام الملك « يوآش » (٢ أي ٢٤ : ١٨ و ١٩) حتى انه لما قام النبي زكريا ينصحهم رجموه بالحجارة ، بأمر الملك « يوآش » في دار بيت الله (٢ أي ٢٤ : ٢٠ و ٢١) .

(٢٥) أيام أمصيا — وسقط أهالي مملكة يهوذا أيام « أمصيا » في القدس الشريفة في هوّة الوثنية (٢ مل ١٤ : ٤ و ٢ أي ٢٥ : ٢٠) كما أن ملكهم « أمصيا » كان كذلك (٢ أي ٢٥ : ١٤ — ١٦) .

(٢٦) أيام آحاز — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الوثنية أيام ملك القدس آحاز ، هم وملكهم جميعاً (٢ مل ١٦ : ٣ و ٤ و ٢ أي ٢٨ : ٢ — ٤ و ٦ و ٢٣ — ٢٥) .

(٢٧) أيام منسى — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الشرك أيام ملكهم « منسى » ملك أورشليم (٢ مل ٢ : ٢ - ١٦ و ٢ أي ٣٣ : ٢ - ١١) .

(٢٨) أيام آمون — عبد « آمون » ملك يهوذا الأصنام التي عبدها أبوه « منسى » وسجد لها ، وترك الرب إله آبائه (٢ مل ٢١ : ٢١) وهكذا الشعب (٢ مل ٢٢ : ١٧ و ٢ مل ٢٣ : ٤ — ٢٦) .

(٢٩) أيام يوشيا — وسقطوا في الوثنية أيام «يوشيا» ملك يهودا (٢ أي ٣٤: ٣ — ٧) ولكن الملك كان موحداً مصلحاً .

(٣٠) أيام يهوياقيم — سقط « يهوياقيم » ملك أورشليم وشعبه في الوثنية (٢ مل ٢٣ : ٣٧ و ٢٤ : ٢ و ٣) .

(٣١) أيام صدقيا — سقطوا في الوثنية كل أيام الملك « صدقيا » ملك يهودا (٢ أي ٣٦ : ١٢ ١٧) .

هذا ما يتعلق بمملكة أورشليم التي هي مملكة يهوذا الجنوبية ، وأما الكلام على مملكة الأسباط العشرة الشمالية التي عاصمتها « شكيم » — وهي نابلس اليوم — فانهم بالاجمال من دون استثناء قد سقطوا جميعهم في الشرك من أول أن تشكلت المملكة الى أن زالت ، كما يعلم ذلك صريحاً من أسفار العهد العتيق ، ولا حاجة الاطالة بذكر تلك المواضيع ، ثم أيام سبي اليهود الى بابل كانوا سقطوا في الوثنية أيضاً (حز ١٤ : ٢٢ و ٢٣) .

الايمان بالله واليوم الآخر

الفائدة السادسة — عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابلة ان الإيمان بالله واليوم الآخر، هو مصدر كل خير ونفع، قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ ، يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورسولَه ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشِيرتَهم ، أولئكَ كَتَبَ في قلوبِهم الإيمانَ ، وأيَّدهم بِرُوحٍ منه ، ويُدخلُهم جَنَّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ، أولئكَ

حِزبُ اللهِ ، ألا إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المفلحونَ ﴾ (٥٨ : ٢٢) وقال تعالى : ﴿ فاذا بَلَغْنَ أجلَهُنَّ ، فأمسِكوهُنَّ بمعروفٍ ، أو فارِقوهُنَّ بمعروفٍ ، وأشهِدوا ذَوَيْ عدلٍ منكم ، وأقيموا الشهادةَ للهِ ، ذلِكُم يوعَظُ به مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٦٥ : ٢) وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ ، لِمَن كانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾ (٣٣:٢١) وقال تعالى : ﴿ لقَدْ كانَ لكم فيهم ــ أي في ابراهيم والذين معه ــ أسوَةٌ حسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾ (٦٠ : ٦) وقال تعالى : ﴿والمطلَّقاتُ يتَرَبَّصْن بأنفُسِهِنَّ ثلاثةَ قُروءٍ،ولا يَحِلُّ لهنَّ أنْ يَكتُمْنَ ما خلَقَ اللهُ في أرحامِهِنَّ ، إنْ كُنَّ يُؤمِنَّ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾(٢:٢٢٨) وقال تعالى : ﴿ وإذا طلَّقتُم النساءَ ، فبلَغْنَ أجلَهُنَّ ، فلا تعضُلُوهُنَّ أنْ يَنكِحْنَ أزواجَهُنَّ ، إذا تَراضَوْا بينهم بالمعروفِ ، ذلكَ يُوعَظُ به مَنْ كانَ منكم يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٢ : ٢٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولِي الأمْرِ منكم ، فإنْ تنازَعْتُم في شيءٍ ، فرُدُّوهُ الى اللهِ والرسولِ ، إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٤ : ٥٨) وقال تعالى : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِئَةَ جلدَةٍ ، ولا تأخُذْكُم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ ، إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٢٤ ٢).

يوم الآخرة

الفائدة السابعة ــ قوله : ﴿ وهم بالآخرةِ هم كافرون ﴾ الآخرة هي اليوم الأخير الذي يبتدىء حين ترفع الشمس جاذبيّتها عن الكواكب ، بإذن الله تعالى ، والأدلة متضافرة على وجود هذا « اليوم » المنتظر ، وأقربها تناولاً أنه اذا لم يكن آخرة ولا عقاب ولا ثواب ، كانت الحياة ضرباً من العبث ، لأن العدل في

هذه الدنيا غريب تائه ، لا يعرف مأوى ، ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة ، نرى الأشرار في رغد وهناء وسعادة ، بينا نرى الأبرار يقاسون مُرَّ العذاب ، وما كان ربك ليثيب الظالمين ، فستأتي ساعة تلقى فيها كلُّ نفسٍ ما كسبت ، إن خيراً وإن شراً ، ﴿فويلٌ للذين كفروا مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عظيم﴾ (٣٧:١٩) ﴿ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقِينَ﴾ (١٦ : ٣٠) .

الايمان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به

الإيمان بالآخرة هو دين ابراهيم وأولاده سواءاً كانوا من سلالة إسحق ، أو من سلالة إسماعيل ، إنما وجد من سلالة إسماعيل طائفة من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة : ﴿وقالوا ماهِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا ، نموتُ ونحيا ، وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ﴾ (٤٥ : ٢٣) ، كما أنه وجد من سلالة إسحق طائفة يقال لهم « صَدُّوقيُّون » نشأوا كما قاله « يوسيفوس » نحو سنة (١٥٠) ق.م أنكروا القيامة ، لأنهم أنكروا خلود النفس ، أي اعتقدوا أن النفس تموت مع الجسد ، فاذا كانت النفس قد تلاشت عند الموت ، لم يبق باب لحياة الجسد ، وهؤلاء طائفة صغيرة في اليهود ، وسطوتهم قليلة بين الشعب ، وكان لهم ميل شديد الى الفلسفة وكانت أفكارهم دنيوية ، وكان اعتبارهم للديانة الموسوية اعتباراً سطحياً ، وهم اذا رفضوا تعليم « القيامة » سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب ، وهم يرفضون الاعتقاد بالملائكة والأرواح . (هذا مايؤخذ من قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) ومن « الكنز الجليل » في تفسير الانجيل للدكتور وليم أدي الاميركاني .

وقد كان يوجد شيعة في الاسلام يقال لهم « الخطابية » زعموا أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هي ما يصيب الانسان في الدنيا من خير ، وأن النار هي مايصيبهم من شر ، وقريب منهم فرقة يونانية ، يقال لها « التناسخية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن لا بعث ولا آخرة ، وأما اليوم فيوجد فرقة ، يسمون

أنفسهم « بالبهائية » ، مركز تبشيرهم بدينهم عكا وحيفا ، وهم لا يعتقدون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه ، بل يأولون ذلك بأن الآخرة هي آخرة الأفراد أو الأمم في الدنيا ، وأن الملائكة هم خيار الناس وملحاؤهم ، هذا ماتيسر لنا الآن ، والله تعالى أعلم . (مرحى)

ثم نهض العالم الثالث وهو العلامة الحموي وقال :

اتباع يوسف من آبائه بعد التفكير

يقول السيد الصديق عليه السلام : انه قبل أن يتبع ملة آبائه وأجداده ، كان تحرر واستقل وافتكر في ملل الناس ونحلهم فلم ترق له ولم تعجبه ، فلزم ملة آبائه وأجداده ، لأنه رآها بالبرهان الساطع أحسن من غيرها من ملل المعاصرين ، ونحل المجاورين ، فلم يكن متبعاً لملة آبائه لمجرد التقليد المحض ، حسب العوائد المطردة ، عند أكثر الناس ـ حاشا له من ذلك ـ بل إنما كان ذلك بعد الإيغال في التأمل والتفكر العميق ، ذلك لأنه كان تولّد فيه منذ الصغر الميل الى البحث عن الأسباب ، والتماس البرهان عن كل شيء ، فنشأ لا يبالي إلا بحقائق الأمور ، ولا يحترم سوى العقيدة التي يطمئن لها القلب ، ويثلج بها الصدر ، وذلك لا يكون إلا غبّ الاستقلال ، وبعده التفكر ، ثم الانتحال، فكأنه يقول:

إني حررت نفسي من كل تقليد ، وركنت الى الاستقلال الفكري ، واستخدمت العقل ، وتعمقت في التفكير ملياً ، حتى وصلت بالبرهان والتعقل لملة التوحيد ، التي هي ملة آبائي وأجدادي ،وانا إذا لم أكن قد حررت نفسي سابقاً من كل تقليد ولم أركن الى الاستقلال الفكري ، فلست مستحقاً أن أقوم بالدعوة الدينية ، التي أطلب فيها من المدعو أن يعمل نظير ماعملت ، يتحرر ويستقل ويعتمد على البراهين ، حتى يصل للعقيدة الحقة .

الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له

وقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أي لا يؤمنون بوجوده مطلقاً كالدهرية والمادية والطبيعية ، ولكن الاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد إله ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، ولذلك فيمكن أن يكون قد عنى بقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ انهم لا يؤمنون به كما يجب له من « الانفراد » خلافاً « للوثنيين » ، ومن « الاختيار » خلافاً لفريق من « علماء الهيئة » ، ومن « إحاطة » علمه بكل شيء ، حتى الجزئيات ، خلافاً « للفلاسفة » ، ومن أنه « خالق كل شيء » خلافاً « للمانوية » ، ومن كونه هو الذي تقدم له وحده أنواع « العبادات » كلها ، وأنه هو « الشارع » ، لا غير ، خلافاً للمشركين له في « الألوهية » ومن أنه « لم يتولد من شيء . ولم يتولد عنه شيء » ، خلافاً « للنصارى » ومن أنه تعالى واحد ، ليس اثنين هما الأب والابن ، خلافاً « للمكدونيين » الذين يقولون بالوهية الآب والابن فقط ويرفضون ألوهية الروح القدس ، فهم لذلك نصارى مثنية وإمامهم في ذلك مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته الألوهية ، خلافاً للنصارى « الملكانية » الذين يقولون بالثالوث وبطبيعتين ، « فالثالوث » معناه الآب إله والابن إله والروح القدس إله ، والكل إله واحد ، ومعنى الطبيعتين أن لأقنوم الابن طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو طبيعة الانسان وطبيعة الاله ، وكل طبيعة على حدتها لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، وهؤلاء مثل اللاتين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت ، فهؤلاء يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو باقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم : « إنها أم الاله ، أو أم الله ، أو والدة الاله » .

ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته ، ولكن طبيعته ليست تمتزج بطبيعة الانسان ، خلافاً للنصارى « اليعاقبة » مثل السريان القديم والأرمن والأقباط بمصر وكانت اليعقوبية منتشرة في « غسان » وسائر قبائل الشام ، وكذا في نصارى « نجران » ، فهؤلاء الطوائف يعتقدون أن المسيح طبيعة واحـــدة متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أوبالعكس ، وهؤلاء هراطقة [1] في نظر الملكانية .

ومن أنه تعالى واحد ذو أقنوم إلهي واحد، خلافاً «للنساطرة» القائلين بأقنومين أقنوم إلهي ، وأقنوم بشري ، كلاهما ممتاز عن الاخر ، والأول مشرق على الثاني إشراق الشمس على الكون تقريباً ، وبناء عليه هم لايقولون عن السيدة مريم انها أم الله ، بل أم الانسان فقط وهم على كل حال على غير حق ، وان كانوا أقرب اليه بالنسبة لمن سواهم ، حتى مؤرخي النصارى اعتبرهم « كالأريوسيين » ولذلك وقع اتفاق النصارى الملكانية واليعقوبية على ان هؤلاء النسطورية هراطقة ومعظم أهالي هـــذا المذهب في العجم وفيما بين النهرين (دجلة والفرات) « في جبل النساطرة » وعند منابع نهر الزاب وبحيرة أرمية ، وبين الفرات وحدود إيران وجنوبي الهند وفي الموصل على دجلة ، وفي أذربجيان ، ويسمون « الكلدان » ، وكانت النسطورية منتشرة في « الحيرة »

ومن أنه تعالى واحد ولا دخل فيه للانوثة والذكورة ، خلافاً « للمريميين » من النصارى ، فانهم يقولون بربوبية العذراء . وهؤلاء كانوا بجزيرة العرب وهم معدودون في نظر جميع الطوائف النصرانية هراطقة ومن أهل البدعة .

ومن أنه تعالى ليس إله جمال فقط ، ولا إله أرياح فقط ، ولا إله قبيلة

---

(١) الهراطقة الخارجون على الدين عند النصارى .

واحدة دون أخرى ، ولا أمة واحدة دون سواها ، خلافاً لقدماء اليونان ، و . . . و . . . الخ الخ .

عقيدة الايمان الكاملة بالله

تلخص عقيدة الايمان الكاملة بالله بأنه : (هو اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم يلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدٌ) (١١٢)،(وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ) (٦٨:٢٨) وهو (خالقُ كلِّ شيءٍ) (١١٢:٦) ، (إياكَ نعبُدُ وإياكَ نستعينُ) (٤:١) وهو (ربّ العالمين) (١:١) ، (ولله ما في السمواتِ ومافي الأرضِ) (٣ : ١٠٩) ، (هُوَ الذي خلقَ لكم مافي الأرض جميعاً) (٢٩:٢) (الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما) (٥٩:٢٥) (اللهَ ربَّكمْ وربَّ آبائكم الأوّلينَ) (١٢٦:٣٧) (اللهُ الذي سخّر لكم البحر) (١١:٤٥) ،(وألقى في الأرضِ رواسيَ أنْ تميدَ بكم) (١٥:١٦) ، (اللهُ الذي رفعَ السموات بغير عمَدٍ ترَوْنها) (٢:١٣) . (وهو الذي يرسلُ الرياحَ بشراً بين يَديْ رَحمتِهِ) (٥٦:٧) ، (جعلَ لكم الأرضَ بساطاً) (٧١ : ١٩)، (واللهُ جعلَ لكم منْ أنفسِكم أزواجا) (٧٢:١٦) (واللهُ أنبتَكم منَ الأرضِ نباتاً) (١٧:٧١) ، (وعندهُ مفاتِحُ الغيبْ لا يعلمُها الا هو ، ويَعلمُ مافي البرّ والبحر ، وما تَسقطُ منْ ورقةٍ الا يَعلمُها ، ولا حبة في ظلماتِ الأرضِ ، ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ) (٦ : ٥٩)، (إن اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ) (٢٠:٢) ، (إنّ ربكَ هو القويُ العزيزُ) (١١ : ٦٦)

« أحسنت »

يوسف (ع) يبدأ بالدعوة الى التوحيد

آ (٣٨) ﴿ واتَّبعْتُ مِلّةَ آبائي ، إبراهيمَ واسحاقَ ويعقوبَ ، ما كانَ لنا أنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شيءٍ ، ذَلكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشكُرونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثلاثون فقام السيد فتح الله اليماني وقال:

يقول يوسف : (واتبعت) مع تمسكي بالدليل والبرهان (ملة آبائي ابراهيم و) ابنه (اسحق و) ابنه (يعقوب)الأنبيـــاء الكرام ، المعروفين في العراق وسورية والحجاز وفلسطين ، فأنا بحمد الله من بيت نبوة وتوحيد ، (ما كان) ما صح (لنا)نحن معاشر الأنبيـــاء (أن نشرك بالله من شيء) لا شيئاً من الشرك ولا شيئاً من الشركاء ، فلا نشرك في عبادته ، وهو شرك الألوهية ، كما لا نشرك معه غيره ، وهو شرك الربوبية ، و (ذلك)التوحيد (من فضل الله علينـــا) معاشر الأنبياء الهادين (وعلى الناس) المهتدين ، فلذلك نحن وهؤلاء الناس شاكرون له فعلا بتمسكنا بالتوحيد ، وشاكرون له قولاً بتقديرنا هذه النعمة واعترافنا بهذا الفضل ، وثناءنا لله عليه (ولكن أكثر الناس) مع الأسف خاصة هؤلاء المصريين (لا يشكرون) نعمة التوحيد ، لا فعلاً باتباعهـــا ، ولا قولاً بالثناء على مجديها . ووجه كون التوحيد من فضل الله انه تعالى نصب الأدلة التي ينظر فيهـا الانسان ويستدل بها ثم لطف بمن لطف حتى توفق للتوحيد ، وقـد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكنهم لم ينظروا ولم يستدلوا اتباعاً لأهوائهم فبقوا كافرين غير شاكرين ، قال تعالى : (وقليلٌ مِنْ عبادي الشكور) (٣٤ : ١٣) والشاكرون في المائة لا يتجاوزون عدد الأنامل ، ولا حركات العوامل .

واتبعت ملة آبائي ، ابراهيم واسحق ويعقوب

— ١ —

وقام صنع الله الصيداوى [1] وقال :—

ملة آباء يوسف

كان يوسف عليه السلام تابعاً لملة آبائه ، عقيدة وشريعة ، وكان تابعاً في ذلك لأبيه يعقوب ، التابع لأبيه اسحاق ، التابع لأبيه ابراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، (فالملة) هي في البدء لابراهيم ، وأما أنساله المذكورون ، فتابعون له فيها ، وإن كانوا أنبياء . ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام، تابعون له في شريعة التوراة وعقيدتها ، مؤيدون لها ، مفسرون لمعانيها ، حاثون على العمل بها والرجوع اليها ، مع ان كل واحد منهم ، نبي ، وقد يكون البعض منهم رسولا أيضاً ، وقد يكون كثير منهم أصحاب أسفار جديدة .

اصول الدين الموجودة في كل ملة موحدة

نعلم من سابق قوله : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ولاحق قوله (واتبعت ملة آبائي الخ) ان ملة آبائه هذه التي اتبعها هي الايمان بالله وبالآخرة ، ثم بالطبع كل من آمن بالله والآخرة لزم أن يعمل عملا صالحاً ، وهذه الثلاثة هي أصول دين الله تعالى الموجودة في كل ملة ، لا يتباين فيها دين ودين ، بل الأديان فيها سواء ، قال تعالى :(إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والنصارى والصابئينَ ، مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وَعمِلَ صالحاً ، فلهُم أجرُهُم عندَ ربِّهِم ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنُون)(٢:٦٢) وقال تعالى:

---

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

﴿ يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ ، ويأمُرونَ بالمعروفِ ، وينهَوْنَ عنِ المُنكَرِ ، ويُسارِعُون في الخيْراتِ ، وأولئكَ مِنَ الصالحينَ ﴾ (٣ : ١١٤) ، وقال تعالى: ﴿وماذا عليهم لَوْ آمَنوا باللهِ واليومِ الآخرِ وأنفَقُوا مِمّا رَزَقهم اللهُ ؟، وكانَ اللهُ بهم عليماً ﴾ (٤ : ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿ إنَّما يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ، ولم يَخْشَ إلاَّ اللهَ ، فعسى أولئك أنْ يكونوا مِنَ المُهْتَدين ، أجَعَلْتُم سِقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ كمَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وجاهَدَ في سبيلِ اللهِ ؟ لا يَسْتَوونَ عِندَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِي القومَ الظالمين ﴾ (٩ : ١٩و٢٠) وقال تعالى : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَنْ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ويتَّخِذُ ما يُنفِقُ قُرُباتٍ عندَ اللهِ وصَلَواتِ الرسولِ ، ألا إنها قُرْبَةٌ لهم، سيُدخِلُهُم اللهُ في رَحْمَتِهِ ، إنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ ﴾ (٩ : ١٠٠) ، وقال تعالى : ﴿قاتِلوا الذينَ لا يُؤمِنونَ باللهِ ، ولا باليومِ الآخرِ ، ولا يُحرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ، ولا يَدينُونَ دِينَ الحقِ مِنَ الذينَ أوتُوا الكتابَ ، حتى يُعطُوا الجِزْيةَ عن يَدٍ ، وهم صاغِرُون ﴾ (٩ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيْباً ، فقالَ : ياقومِ اعبدوا اللهَ ، وارْجُو اليومَ الآخِرِ، ولا تَعْثَوا في الأرضِ مُفسِدينَ ﴾ (٢٩ : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وذَكَرَ اللهَ كثيراً ﴾ (٣٣ : ٢١) ، هذا ما يحضرني الآن من الآيات التي تجمع الأصول الثلاثة المهمة ، وهي الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح .

اركان الايمان الستة

ويزاد على هذه الثلاثة ثلاثة أيضاً ، وهي : الايمان بالملائكة والأنبياء والكتب السماوية ، ومجموع الستة هو أركان الأيمان ، وهذه الستة مذكورة في نحو قوله

تعالى : ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبلَ المَشرِقِ والمغربِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، والملائكةِ والكِتابِ والنَّبيِّينَ ، وآتى المالَ (على حُبِّهِ) ذَوي القُرْبَى واليتامى والمساكينَ ، وابْنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفونَ بعهْدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصابرينَ في الباساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ ، أولئكَ الذينَ صَدَقوا وأولئكَ هم المُتَّقُونَ ﴾ (٢ : ٢٧٦)

العمل بأركان الايمان شرط مهم في الدين

فالعمل شرط مهم لا ندحة عنه ، إذ ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب اليه ولا مجرد فهمه ومعرفته حق المعرفة ، فان ذلك لايهدي إلى خير ، ولا يدفع شراً ، وإنما العمل الانتفاع بكل ماجاء فيه ، هو الذي يرقي صاحبه إلى ذرى الكمال ، وذلك « كالطب » ، فانه لا يكفي أن يعتقد الإنسان أنه نافع ، ويبرأ من مرضه وأوصابه ، وإنما يحصّل ذلك باستعماله والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، ولذلك حرصت جميع الأديان على تبيان هذه الحقيقة للناس ، قال تعالى : ﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورسولهِ ، ثمَّ لمْ يَرْتابوا ، وجاهَدوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم في سبيلِ اللهِ ، أولئكَ هُمُ الصادقون ﴾ (٤٩ : ١٥) ، وقال تعالى: ﴿ ليسَ البرَّ أنْ تولُّوا وُجُوهَكُم ﴾ الخ الآية التي تقدمت ، فالبار الصادق التقي هو بحكم هذه الآية من جمع بين العقيدة الصحيحة ، والأعمال البدنية والمالية والأخلاق الحميدة ، وقال تعالى ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أماني أهلِ الكتابِ ، مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ ، ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ وَليّاً ولا نصيراً ومَنْ يعملْ مِنَ الصالحاتِ ، مِنْ ذكرٍ وأنثى ، وهُوَ مؤمنٌ ، فأولئكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، ولا يُظلَمُونَ نَقيراً ﴾ (٤ : ١٢٢ و ١٢٣) وفي القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لَن تمسَّنا النارُ إلاّ أياماً معْدُودَةً قلْ : أتَّخذْتُم عِندَ اللهِ

عَهْداً ؟ فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أمْ تقولونَ على اللهِ مالا تَعْلَمونَ ؟ بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئةً وأحاطتْ به خطيئَتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ ، هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ ، هُمْ فيها خالدونَ ﴾ (٢ : ٨٠ – ٨٢) وفي القرآن الكريم : ﴿ وقالوا لَنْ يَدخلَ الجنةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أو نصارى ؟ تلك أمانيُّهُمْ ، قُلْ : هاتوا بُرهانَكم إن كنتم صادقينَ ، بَلَى مَنْ أسْلَمَ وجهَهُ للهِ ، وهو مُحْسنٌ ، فَلَهُ أجرُهُ عِندَ ربهِ ، ولا خَوفٌ عليهم ، ولا هم يَحزَنون ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢)

ونقل عن المسيح مامعناه : « كل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر ، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها ، يُشبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيما »(مت ٧ : ٢٤ – ٢٧) ونقل عنه أيضاً مامعناه : « ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال يابني ، اذهب اليوم اعمل في كرمي ، – فأجاب وقال : ما أريد ؛ ولكنه ندم أخيراً ومضى ، وجاء الى الثاني وقال كذلك – فأجاب وقال : ها أنا ياسيد ، ولم يمض ، فأي الاثنين عمل إرادة أبيه ؟ قالوا له : الأول – قال لهم يسوع : الحقَ أقول لكم ، إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » . (مت ٢١ : ٢٨ – ٣١)

عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد

كان نسب يوسف عليه السلام غامضاً عند المصريين ، وكان يحسب أنه من غمار

الناس ، سواء أيام وجوده عبداً في بيت العزيز ، أو في أزمنة سجنه ، ولكنه لما وجد أنه اضطهد اضطهاداً زائداً ، وقد حانت له الفرصة ، أظهر نسبه أمام الفتيين فبغتا عند سماعهما كلامه ، وعظم في أعينهما أكثر من ذي قبل ، إذ قال لهما إني متولد من سلالة الموحدين ، دعاة التوحيد ، وقد اتبعت ملتهم وهم إبراهيم وإسحاق عليهما صلوات الله ورحمته وبركاته ، ويعقوب حفظه الله : فان كنتما ممن سمع بهم فقد كفا كما ماسمعتماه وإن كنتما لم تسمعا بهم ، فسلوا عنهم من أهل « ما بين النهرين » وأهل مملكة « آرام » ومملكة « أبي مالك » .

وغني عن البيان أنه لايريد بهذا القول الفخار بذكر سلسلة النسب ، لأن سائر الشرائع السماوية جاءت تدعو لمحو التعصب للقبيلة والتمسك بالأنساب ، ففي الحديث الشريف : « المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ، ولكن يوسف عليه السلام ذكر آباءه ضمن ذكره اتباع عقيدة التوحيد ؛

أو تقول : ذكر ذلك على سبيل التحدث بالنعمة ، لا على سبيل الفخر والعنجهية وعلى كل فهو « ديمقراطي » صميم ، وليس فيه شيء من « الثيوقراطية » .

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول إن إبراهيم عليه السلام ولد سنة (٢٦٢٠)ف.ه وكل حياته (١٧٥) سنة ، وبعد (١٠٠) سنة من عمره ولد له إسحاق عليه السلام فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه (٧٥) سنة ، وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة ، وبعد ٦٠ سنة من عمره ولد له يعقوب عليه السلام ، فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه (١٢٠) سنة ، وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة ؛ وبعد (٩٣) سنة من عمره ولد له يوسف عليه السلام ، فيكون يوسف قد عاش مع أبيه (٥٦) سنة ، وبذلك أمكن ليوسف أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيداً من أبيه يعقوب ، كما أمكن ليعقوب أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إسحاق ، كما أمكن لاسحاق أن

يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إبراهيم ، فضلا عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبياً ورسولا كريماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

إذا تقرر هذا ، فقوله : ﴿ واتبعت ملة آبائي .. الخ ﴾ يحمل على اتباع فرد من أفراد الأمة لنبيها ، بالنسبة لمدته التي قبل نبوته ، حينما كان من أمة أبيه يعقوب تابعاً صرفاً له ، ثم صار بعد ذلك رسولا ، كما قال : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ من قبلُ بالبيناتِ فما زِلتُم في شك مما جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ ، قلتم : لن يَبْعثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف في هذا مع أبيه نظير « لوط » عليه السلام مع عمه إبراهيم ، حيث كان قبل نبوته فرداً من أفراد أمة عمه ، تابعاً له ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٢٩ : ٢٦) ، ثم صار لوط من بعد ذلك نبياً ورسولاً ، كما قال تعالى ﴿ وإنَّ لوطاً لَمِنَ المُرسَلِينَ ﴾ (٣٧ : ١٣٣) وهكذا كان « يوشع بن نون » فتى موسى بالنسبة لموسى ، وسليمان بالنسبة لأبيه داود ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾

— ١ —

وقام مولانا صنعة الله الهندي وقال :

يوسف ينهي عن الشرك بالله واسلوب القرآن في

استعمال النفي بمعنى النهي

يقول يوسف عليه السلام : (إن كل شيء من أمر الجاهلية والتوثن هو تحت أقدامنا ، هو موضوع ليس له قيمة ، هو خلاف قضية العقل ، ولا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً أن نجعل لله شريكا في عبادته وطاعته ، كما في ربوبيته) أو هو نفي بمعنى

النهي ، أي لننته عن الشرك . ويوجد في القرآن من هذا الأسلوب الشيء الكثير ، واليكم بعض الشواهد :

(١) قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجِدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمُهُ ، وسَعَى في خرابِها ؟ .. أولئكَ ما كانَ لهم أن يَدخلوها إلا خائفين ﴾ (٢ : ١١٤) ، أي لاينبغي للمؤمنين أن يمكنوا هؤلاء من دخول مساجدهم، إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين ، فهذا النفي كناية عن نهي المؤمنين من أن يمكنوا أحداً من الحاق الأذى بمساجدهم .

(٢) قوله تعالى ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) ، أي لايباح لكم ذالكم ، فهو نفي للاباحة ، أو هو نهي بمعنى لاتؤذوا ..الخ .

(٣) قوله تعالى ﴿ لايمَسُّهُ إلا المُطهَّرونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) ، أي لايجوز لهم مسّه بغير طهر ، أو هو نهي في المعنى أي لايمسّه إلا المطهرون .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ ، على المؤمنينَ سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) أي لم يكن ليجعل من أحكام شريعته ، مايلزم المسلمين بالخنوع والانقياد لأحكام الكافرين ، ولا يوجب عليهم السكون والطمأنينة لسلطانهم ، لأنه يريد أن تكون كلمة الذين كفروا هي السفلى ، وكلمته هي العليا، أو هو محمول على النهي ، والمعنى لاتجعلوا أيها المؤمنين سبيلا عليكم للكافرين ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فكلمة « منكم » صريحة في أنه ليس المؤمنين أن يطيعوا أولي الأمر من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة ، الى غيرذلك من الشواهد والأمثال القرآنية.

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الانبياء

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء حتى المسيح ، فالمسيح

ماجاء لينقض الناموس ، الذي أساسهالتوحيد ، بل ليتمم ، ولكن « بولس »الذي هو أفضل مقدس عند النصارى ، نقض الناموس حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ، مع انه يوجد عندهم نصوص واضحة في عقيدة التوحيد ، وإنما هم مع الأسف ـ أهملوها وأولوها وحرفوها .

نصوص عقيدة التوحيد في الانجيل

منها ـ قول المسيح : (وهذه هي الحيـــاة الأبدية أنْ يعرفوكَ أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يو ١٧ : ٣) فبيّن أن الله تعالى هو الإله وحده ، وأن يسوع المسيح إنما هو رسوله فقط ، وهـذا هو الذي دعا إليه القرآن ، وهو عندهم بمثابة ماهو عندنا ، من قولنا : « لا إلهَ إلا اللهُ، محمدٌ رسولُ الله » ، وكان يجب أن يكون هذاالنص أساس عقيدتهم ، يرد اليهبالتأويل كل مايوهم خلافه ، لأجل المطابقة بين المنقولات بعضها مع بعض ، ولأجلموافقة المنقول للمعقول .

ومنها ـ أن احد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا ، فأجابه يسوع : أول الوصايا « إسمعْ يالإسرائيل : الرب آلهنا رب واحد ـ فقالله الكاتب : جيداً يامعلّم بالحق نطقت ، لأنه واحد ، وليس آخر سواه ... فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له : لست بعيداً عن ملكوت السموات » (مر ١٢ : ٢٩ و ٣٢ و٣٤) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدةالمعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلاتأويل، فان فرضنا أنه ورد ماينافيها ، وجب رده اليها .

الشرك في الربوبية والشرك في الالوهية

والمراد من قوله : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ نـفي جواز نوعي

الشرك في الربوبية ، أي الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية اما الشرك في الربوبية فهوان يطاع غير الله في أمر ونهي ، وتشريع وتحليل وتحريم ، وبعبارة أخرى : ان ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم لذاته، فهذا هو الشرك في الربوبية ، المشار إليه بقوله : (أأرباب متفرقون خير ؟) الخ وقد فسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً بطاعتهم فيما يحلون ويحرمون .

والشرك في الألوهية ، هو أن يعبد مع الله سواه ، وبعبارة أخرى ، أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية العامة ، فترجو نفعه وتخاف ضره ، وتدعوه وتذل له . سواء شعرت في توجه قلبك إليه بأنه ينفعك بذاته ، أو بتأثيره في إرادة الله تعالى ، بحيث يفعل لأجله مالم يكن يفعله لولاه ، بمحض فضله ورحمته ، فهذا هوالشرك في الألوهيه ، المشار اليه بقوله تعالى: ﴿ماتعبدون من دونه الا أسماء .. ﴾ الخ (آ ٤٠٠) .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس)

— ١ —

وقال جمال الدين البغدادي : —

ـ(التوحيد فضل من الله على عباده)ـ

يقول يوسف : إن ماذكر من الترك والاتباع ، الذي حاصله ملة التوحيد ، هو من فضل الله علينا ، لأنه وإن يكن بكسبنا وأعمال أفكارنا وسعينا ، ولكنا إنما وصلنا اليه ، وحصلنا عليه ، بتوفيق الله تعالى ، أو إن (ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا) وليس علينا نحن خاصة ، بل (وعلى) عموم (الناس) لأنه الوسيلة العظمى ، لجمع كلمة الخلق ، والذريعة الكبرى لانتظام أمور معاشهم ، فحسن العاقبة في معادهم . وكيف لا .. وان فكرة الحب الانساني العام هي ناشئة

عن الاعتقاد بوحدانية الله ، الله الذي نحن جميعاً (رعيته)وهو (الملك) الواحد الأكبر لجميع هؤلاء (الرعايا) فاذا (المملكة) واحدة و (مليكها) واحد و(الراية) واحدة ، و (التابعية) واحدة ، اذاً فنحن (إخوة) في الدين ،وليس بيننا (أجنبي) في هذه (المملكة الدينية) ، أو إن (ذلك)التوحيد (من فضل الله .؟ الخ) فهو مائدة مباركة منصوبة لمن يريد الجثو حولها ، والتناول منها، فنصب هذه المائدة هو من محض كرم الله على عباده ، وأما التوجه اليها وتغذية الروح بها ، فهو متعلق بكسبنا ، ولا ينال إلا بعمل الفكر وسعي العقل ، ومع كل ذلك ، فهذا التوجه لهذه المائدة ، يحتاج الى لطف وتيسير ، من الله تعالى ، فعلى كل نحن أسراء فضل الله تعالى الموهوب والمكسوب ، قال الشاعر :

فله سبحانه الحمد دوماً　　　ولـه الشكر بكرة وعشية

وهذا القول (ذلك من فضل الله علينا ..) يذكرنا بقوله تعالى : (يابني اسرائيلَ : اذكروا نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم ، وأنّي فضّلتُكُم على العالمين) (٢:٤٦) ، فهذه التفضلة التي فضلهم الله بها على عالمي زمانهم ، أي على الأمم المعاصرة لهم هي (التوحيد) الذي ذكر انه من فضل الله على بيت ابراهيم .

ومع ذلك فهو لم يخص شخصه ولا بيته بهذا الفضل ، بل قال : (وعلى الناس) فعممه للجميع ، موافقة للواقع .

المؤمنون اخوة

فالشرائع السماوية تهدم (الوحدة القَبَلية) (والوحدة العنصرية)وتكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس والعنصر ، فالمؤمنون كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره ، قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) (٩:١٠) وقال : (إنّ أكرَمكُم عند اللهِ أتقاكم) (٤٩:١٣) ،

وقال عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية) وقال ﷺ : (من دعا الى عصبية فمات ، مات ميتة جاهلية) ، وقال أيضاً : (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) ، وقال (ﷺ) : (الناس سواسية) ، وقال : (ربّ أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبرّه) ،

(المرء بأعماله لا بنسبه)

وثبت في الصحيح انه ﷺ قال : (من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه) ، رواه مسلم ، وخطب النبي (ﷺ) في خطبة الوداع : (أيها الناس ، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى).

وقال الشاعر :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من قبل ذا نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

وقال :

وإني وإن كنت ابن سيد (عامر) ... وفي السر منها والصريح المهذب

فما سوّدتني (عامر) عن ولادة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتّقي ... أذاها ، وأرمي من رماها بمنكبي

فهذا مع إمكانه أن يفتخر بالآباء ، لم يفتخر إلا بنفسه ، وقد أخذ هذا المعنى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

فقال :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ورآى (المأمون) يوماً رجلاً ، من أبدع النـــاس زياً ، ووقاراً وهيبة ، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فسأل عنه المأمون ، فقيل له : « إنه عالم من العلماء» فأنشد عند ئذ قول الشاعر :

كن ابن من شئت واتخذ أدباً ... يغنيـك مأثوره عن النسب
إن الفتى من يقول :ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبي

وتكلم رجل عند (عبد الملك) بكلام ، ذهب فيه كل مذهب ، فقال له وقد أعجبه : (ابن من أنت ياغلام ؟ — فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التي نلت بها هذا المقعد منك ، — قال : صدقت) واخذ هذا المعنى (ابن دريد)فقال:

كن ابن من شئت وكن مؤدباً ... فانمـا المرء بفضل حسه
وليس من تكرمـه لغـيره ... مثل الذي تكرمـه لنفسه

قالت عائشة (رض) مامعناه : (اذا كرمت أفعـــال الانسان لم يضره لؤم آبائه ، واذا لؤمت ، لم ينفعه كرم آبائه) وقال المعري :

لو يعلم الانسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبـده
لولا سجاياه وأخلاقه ... لكان كالمعدوم في وُجْده [١]
ومجده أفعاله لا الذي ... مِنْ قبله كان ولا بَعـدِه

وقال الحريري : تباً لمفتخر ، بعظم نخر ، انما الفخر بالتقى ، والادب المنتقى.

وما الفخر بالعظم الرميم وانما ... فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

وهذا (عصام) الجرمي ، الذي ترقى الى أن صار حاجباً عند (النعمان بن المنذر) ، لم يكن شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، فصار أقربهم الى النعمان ،

(١) في وجده في وجوده

قال له رجل يوماً : (كيف بلغت هــــذه المنزلة من الملك ، وأنت دنيء الأصل ؟) ــ فقال :

نفس عصام سوّدت عصامــا وعلمته الكرّ والاقدامـــا

وصيرته سيداً هماما

وبذلك صار يقال : (كن عصامياً ، ولا تكن عظاميـاً) أي افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم .

وللسيد رئيس المؤتمر :

إني وإن أكُ فرع بيت طاهر ما ينبغي لي أن أكون بفاخر

لكن فخاري بالوداعة والتقى والعلم والقلب السليم العامرـــي[١]

﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾

— ١ —

وقال الاستاذ فكرة التركي :

الغمز من قناة الفتيين ، ادب الانبياء في الخطاب

يقصد يوسف من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ أن العدد الجم من الغفلة لايشكرون الله بتوحيده ، بل يكفرون به إذ يشركون ، فان كـفـرَةَ النِعـَم أكثر من الحصى ، وقد أراد يوسف (ع) بقوله هذا غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من الشكر في شيء ، ولكنهما بالعكس كفرا بنعمة التوحيد ولم يستعملا فيها قواهما العقلية .

ويلاحظ أنه لم يقل (ولكن أكثركم لاتشكرون) كما أنه قال : (ياصاحبي

---

(١) قوله العامري فيه تورية لأن اصول السيد رئيس المؤتمر القدماء من محلة بني عامر في بلدة غزة هاشم .

السجن) (آ : ٢٩) ولم يقل (أيها المسجونان) وقال ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (آ : ٤٠) ولم يقل (ولكن أكثركم لاتعلمون) تحسيناً للجواب ما أمكن ؛ وتلطيفاً للخطاب ماتيسر ، كما قال تعالى : ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ﴾ : (١٦ : ٢٥) وقال : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ ، لانفَضّوا من حولِكَ ﴾ (٣ : ١٥٩) وقال تعالى : ﴿ وإنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ (٦٨ : ٤) ؛ وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ومظاهر أمره ، كلهم حكماء رحماء لطفاء أصحاب أخلاق كريمة وذوو خطابات أدبية ، خلافاً « للبولسيين » الذين نقلوا (كما في مت ١٥ : ٢٢ — ٢٨) أن امرأة كنعانية صرخت للمسيح ليشفي ابنتها المجنونة ، وكانت تقول له : (ارحمني ياسيد يا ابن داود) ، فلم يجبها بكلمة ، فصارت تصيح وراءه ، حتى طلب تلاميذه منه صرفها ، فقال لهم : (لم أرسل إلا الى خراف إسرائيل الضالة) فجاءت وسجدت له قائلة : (ياسيد أعني) — فقال لها : (ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) — فقالت له : (نعم ياسيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها) — حينئذ شفى لها ابنتها بعد هذا العناء العظيم ، والالحاح الكبير . فانظر الى هذه الجوابات القاسية ، والخطابات اليابسة ، في مقابلة كلام تلك المرأة اللطيف ، وخطابها الأديب ؛ بل إنهم نقلوا عنه أيضاً أنه كان يخاطب قومه بني اسرائيل بالسب واللعن بأفحش الألفاظ ، كقوله : (أيها المراؤون ، والقادة العميان والجهال والحيات أولاد الأفاعي) (مت ٢٣ : ١٣ — ٣٦) ، وقوله : (إن العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله) (مت ٢١ : ٣١) ، كل هذا نقوله ، ونحن بريئون منه الى الله ، ولا نعتقد أنه صدر من السيد المسيح ، وإنما ننقله الزاماً للخصم ، وإظهاراً لما

تجر اليه قصص هذه الأناجيل ، وبياناً لكمال وأدب البولسيين مع السيد المسيح عليه السلام ! ! (هـذا ماأعطانا الله وألهم ، وهو بالحقائق أعلم)

يوسف (ع) يدعو الى التوحيد

آ (٣٩) ﴿ ياصاحِبي السِّجْنِ ، أأرْبابٌ مُتَفرِّقُونَ خَيْرٌ أمْ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ ؟ ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثلاثون فقام العلامة التونسي وقال :

يقول يوسف (ع) بلسان الهادىء الداعي مخاطباً الفتيين السجينين : (ياصاحبي السجن) أي ياصاحبي في السجن ، وقد أضاف صاحبيه الى السجن كما تضاف الليلة للسارق في قولك : ياسارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف ، خاطبهما بذلك تحبباً اليهما وتودداً لأن النصح علاج مر فليصحبه شيء من حلو الكلام ، مثل : يابني اسرائيل . ياأهل الكتاب . ياأيها الذين آمنوا التي صدرت بهـا جمل الوعظ في كتاب الله المجيد ، (أ أرباب متفرقون) في العدد والتكاثر ، أو مختلفون ، أي أن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هـــذا ، ويستعبدكما هذا (خير) لكما (أم الله الواحد) أي أم يكون لكما الله الواحد الذي لا يشارك في ربوبيته ولا في الوهيته (القهار) الذي لايغالب بل هو الغالب ؟ أفتوني مأجورين ، أفيقوا من نومكم وأجيبوني ـــ وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام المصرية كالفراعنة والعجول ، أبيس وبوخيس وغيرهما ، والشمس والتماسيح ونحوها من معبودات قدماء المصريين : الذين كانوا يعتقدون

بالحلول السام . وانبثاث الروح الالهي في العالم ، انبثاثاً متفاوتاً على قدر مافي المخلوق من مزايا وقوى .

ياصاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ؟!

— ١ —

وقال السيد عبد العال البحريني[1] وقال

يوسف يهدي الفتيين بالمحاجة والاقناع

وقف يوسف ، وقد القى على صاحبيه الفتيين نظرة الجد والحماس ، وقال : أيها الصاحبان . واحد منكما رأى نفسه في (المنام) أنه يحمل الكأس في يده للملك ، وثانيكما رأى نفسه في « الحلم » « يحمل الخبز على رأسه ، وأما أنا بدوري فاني أراني في « اليقظة » أحمل بين جنبي قلباً ملىء غيرة دينية ، وتوفرت لديه أسباب الدعوة والارشاد ، ولذلك وبهذه المناسبة أقول لكما : « ناشدتكما الله أأرباب متعددون متشاكسون ، متعادون ، مختلفون ، أفضل يا ترى ؟ أم الله الواحد القهار ؟ افتكرا وأجيباني ، إذ يجب أن يكون لنا أدمغة ، كما لنا رؤوس ، فابحثا فيما بعد هذه الجلسة ، في ذات أنفسكما ، هل تريان ضميركما يشهد أن الأرباب المتعددة ، سيما المتشاكسة المختلفة ، خير من الواحد ؟ أظن أن جوابكما سيكون باختيار الشق الثاني ، فان لم يحضركما شيء في هذا الموضوع الآن ، فأجيباني فيما بعد.

ياشريكيّ في عواطفي وبلاي ، ياشريكيّ في هذا السجن الذي هو مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، ومحل الهوان ، ياشريكيّ في السجن الذي تصفو فيه المودة ، وتخلص النصيحة ، ياشريكيّ في هذا السجن الذي تصير فيه الأعداء أصدقاء والبُعَداء أنسباء ، أفتياني في سوآلي .

(١) نسبة الى البحرين احدى الامارات العربية في شرق جزيرة العرب .

أنا لا أزيد كما علماً في ذلك ، فانتما تعرفان حق المعرفة ، وتحسنان أن تجيبا عنه الجواب الشافي ، فأترك الجواب في ذلك لكما ، لتحكما بما يوحي به اليكما الوجدان الطاهر ، والعقل الكامل ، أنتما فطنان عاقلان ، فلا توقعا نفسيكما فيما يخالف العقل السليم ، والنقـــل الصحيح ، فسى أن تصغيا الى نداء الضمير ، وتعطيا جواباً يرضاه الواقع .

أنا لا أريد أن أصادركما فيما تعتقدان ، ولا أقصد أن أهجم عليكما هجمة قاهرة بل كل الذي أريد منكما أن ترجعا الى عقولكما ، وتستفتيا ضمائركما ، وتسألا وجدانكما ، أطالبكما بالحاح أن تتأملا . فان الحقيقة بنت الفكرة ، والتدبر قنطرة الصواب ، والاستدلال بريد اليقين .

انظرا بعقولكما ، ولا تدوساها تحت أقدامكما ، فان الله إنما أنعم عليكما بها لتستعملاها ، انظرا لاتستبد بكما رجال دينكما الكهنة المصريون ، كما يستبد رجال الأديان الأخرى بعقول عوامهم ، ليكن دينكما عقلياً منطقيا ، ولا يكون دين تقليد وجمود ، غير موافق للعقل والمنطق .

هـذا مايرمي اليه كلام يوسف عليه السلام ، وقد أبرز وعظهما في صوره الاستفهام ، حتى لاتنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام ، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخـــذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بقبلها ، فاذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذلك الى أن يصل الى الاذعان بالحق .

وأما الفتيان فلم يجيبا يوسف على سوآله بشيء ، كيف وهماقد يؤلمها ويكوي غرورهما وكبرياءهما أن يكون جوابهما : ﴿ الله الواحد القهار خير ﴾ .

وليسمح لي السادة أن أتكلم الآن كلمة عن الديانة الوثنية بمصر .

الديانة الوثنية بمصر

علمنا أن يوسف عليه السلام ، جرى في خطابه للفتيين على طريقة الاختصار

وأجمل الكلام إجمالاً ، ولم يشأ أن يتوسع في تسمية آلهة المصريين الدنيئة ، مثل العجل (أبيس) والتماسيح والهرر ، بل وكل الحيوانات المنحطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في قباحة اعتقادهم (بالثالوث) الأقدس ، المركب من أب وأم وابن ولهم ثواليث متعددة، أي مجموعة آلهة ثلاثة، ثلاثة ، كما في الثالوث المسيحي ،إلا أن المسيحيين ليس لهم إلا (ثالوث واحد) وأيضاً ان المسيحيين يعتقدون أن الثالوث هو إله واحـــد ، ولكن المصريين لايعتقدون أن ثالوثهم إله واحد ، بل ثلاثة ، غير أنهم يعملون معاً ، وكان لكل مدينة معتبرة (ثالوث) يحرسها ويستحق عبادتها على نوع خاص ، ومن أشهر ثواليثهم (اوسوديس وايسيس وهورس) .

إن ديانة المصريين هي الشرك كباقي الأمم القديمة في فينيقية وأشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة والعرب ؛ والمصريون يعتقدون بآلهة كثيرة فائقة العدد ،ويعتقدون بانبثاث الآلهة في كل العالم ، فعندهم ان كل شيء فيه جزء من الألوهية بحيث يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، وأجازوا أن يكون الانسان إلهاً ومألوهاً في وقت واحد (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) (٧ : ١٢٦) ، ﴿ماعلمتُ لكم من إلهٍ غيري﴾ (٢٨ : ٣٨) ، ﴿ أنا ربكم الأعلى﴾ (٧٩ : ٢٤) .

كان لكل مدينة في مصر معبود لايشبه معبود ما يجاورها من المدن ، وكانوا يسمون الإله في هليوبوليس(را) وفي منفيس (أمون) ، وكان لهم في منفيس ثور يدعى (أبيس) وفي جهة أخرى ثور يدعى (بوخيس) وكانوا يعبدون الشمس والايل والفجر والاسد والكبش وابن آوى وغير ذلك من الحيوانات .

(مرحى)

ياصاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟

— ٢ —

وقام الأستاذ الازهري (من علماء الأزهر) وقال :

سأسرد على مسامع أعضاء المؤتمر الفوائد التي تضمنتها هـذه الآية الكريمة :

واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن

الفائدة الأولى ــ نجد أن يوسف (ع) قد خاطب الفتيين بأنهما رفيقاه في السجن ، وعشيراه في هـذه المحنة ، تزلفاً اليهما ، وارتباطاً بهما وإيناساً لنفوسهما ، واحتراماً لشخصهما ، ذلك كله تمهيداً لما سيذكره من وعظهما ودعوتهما ، وهذا أسلوب لطيف في الوعظ ، كما تقول الوعاظ اليوم .

(أيها الاخوان) مثلاً ، ومنه نعلم أنه ينبغي لـكل واعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تشف عن ارتباطه بالموعوظين واحــــترامه وتنزله لهم ، وحفظ كرامتهم « لـكي يستعدوا بذلك لقبول الموعظة ، الأمر الذي يشفع الواعظ بسبب مايستلزمه الوعظ من فطنة الاهانة ، فعندئذ يسهل على الناس احتمال الوعظ ويقرب قبولهم إياه ، وقد قال صاحبنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان : « النصح علاج مر ، فليصحبه شيء من حلو الـكلام » وهذه طريقة القرآن الـكريم الـتي جرى عليها كثيرة جداً ، واليك بعض أمثلة ذلك :

أولاً ــ قال تعالى : ﴿ يابَنِي إسرائيلَ ، اذكُروا نِعْمَتِيَ التي أنعمتُ عليكم وأَنِّي فضَّلْتُكُم على العالمين، واتقوا يوماً لا تَجزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا يُقبلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخذُ منها عَدْلٌ ، ولاهم ينصَرون ﴾ (٢ : ٤٧) ،

أراد تعالى أن يأمرهم بالتقوى فاستهل ذلك أولاً بتشريفهم بأنهم سلالة يعقوب ، وأنهم مهبط نعمة الله ، وأنه تعالى فضلهم على معاصريهم .

ثانياً — قال تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل ، اذكروا نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم وأوْفُوا بِعَهدِي أوفِ بعهدِكم ، وإيايَ فارهبونَ ﴾ (٢ : ٤٠) .

ثالثاً — ﴿ يا أهلَ الكتابِ ، لِمَ تَكفُرونَ بآيات اللهِ ، وأنتم تَشْهَدون؟ يا أهلَ الكتاب لِمَ تَلبِسُونَ الحقَّ بالباطلِ ، وتكتُمونَ الحقَّ ، وأنتم تَعْلَمونَ ؟ ﴾ (٣ : ٧٠ و ٧١) .

رابعاً — ﴿ يا أيها الذين أوتُوا الكتاب ، آمِنُوا بما نَزَّلنا مُصدِقاً لما مَعَكم ﴾ الخ (٣ : ٤٦) .

وتراه إذا أراد وعظ المؤمنين وإرشادهم يقول : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا ، لا تقولوا « راعِنَا » وقولوا « انظُرنا » ﴾ (٢:١٠٤) ، ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ، استعينوا بالصبر والصلاةِ ، إنَّ اللهَ مع الصابرينَ ﴾ (٢ : ١٥٣) ، ويقول : ﴿ يا أيها آمَنُوا ، ادخُلوا في السِّلْمِ كافَّةً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ ، إنَّهُ لكم عَدوٌّ مُبين ﴾ (٢ : ٢٠٨) .

كما إنك تراه إذا خاطب كفار أهل مكة ، ناصحاً ومرشداً لهم يقول : ﴿ يا أيها الناسُ اعبُدوا رَبَّكم الذي خَلَقكم والذين مِنْ قبلِكم لعلكم تَتقون ﴾ (٢: ٢١) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ ، كلُوا مما في الأرضِ حلالاً طيِّباً ، ولا تتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ إنّه لكم عَدُوٌّ مُبينٌ ﴾(٢:١٦٨)، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلَقكم مِنْ نفسٍ واحدةٍ ، وخلق منها زوجها ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام ، إنَّ الله كان عليكم رقيباً » (٤ : ١) .

هذا .. وأما نحو «قلْ يأيها الكافرونَ لا أعبُدُ ماتعبُدون »(١٠٩ : ١و٢)
الخ فهو ليس من باب الوعظ والارشاد ، ولكنه من نوع التنصل والانفصال ، ولم
يرد في القرآن الكريم « يأيها المنافقون » قط ، فافهم دقائق كتـــاب الله ، والا
فالسلام عليك .

واجب المصلح المرشد

الفـائدة الثانية ــ نتعلم من هذه الآية أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن
لا يفتر عن تعليم الناس وإرشـادهم في كل حين ، وفي أي مكان ، وعلى أي حال ،
من عسر أو يسر ، من ضيق أو فرج ، من سرور أو حـزن ، فهذا النبي يوسف
الصديق قام بالنصح والارشاد وهو في سجنه ، قياماً بحق الانسانية ، ووفاء بواجب
الدين ، نصح ولم تمنعْهُ ضيقة السجن ، ولا زور التهمة عن أن يقشع عن النـاس
سحب الضلال ، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، ويجلوها بجلاء المعلمين والحكماء ،
فكان بذلك من المحسنين ، فليقم العلماء والمرشدون ، الى انتشال الأميين من وهدة
الجهل ، وليرفعوهم الى سماء الفضيلة ، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة

كما نتعلم من كلام السيد الصديق درساً آخر ، وهو أنه ينبغي للعالم المرشد أن
لا يبخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً ، حتى لو كان غريباً في الوطن أو الجنسية ،
فقد نصح عليــــه السلام للمصريين ، وهو غريب عن وطنهم وعن جنسيتهم ، فلا
ينبغي للعالم اذا وجد في بلد غير بلده ، أو بين أقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يقرأ
درس الوعظ والارشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ؛ بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي
الصديق وباقي الأنبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل
وطنهم ، وذوي جنسيتهم ، بل عمموا العلم للجميع . . .

الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين

الفائدة الثـالثة ـــ نتعلم من هذه الآية مع ماقبلها وما بعدهـــا ، أن الدعوة الى

الحق . لا تكون بالسيف والسنان ، ولكن بالدليل والبرهان ، وذلك كما قال تعالى : « فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ ، لستَ عليهم بمصيطرٍ » (٨٨ : ٢١ و ٢٢) وقال تعالى : « مَنْ يطع الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ، ومَنْ تولّى فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً » (٤ : ٧٩) وقال تعالى : ﴿فإنْ أعرَضوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً ، إنْ عليكَ إلا البلاغ﴾ (٤٢ : ٤٨) وقال تعالى : ﴿ قد جاءَكم بَصائرُ مِنْ رَبكُم ، فمن أبْصرَ فلِنفسهِ ، ومَنْ عَميَ فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال تعالى : ﴿فإنْ تولوْا فقُلْ حسبيَ اللهُ ، لا إلهَ إلا هو ، عليه تَوَكّلتُ ، وهوَ ربُّ العَرْشِ العظيم ﴾ (٩ : ١٣٠) وقال تعالى :﴿ وكَذّبَ به قومُكَ وهوَ الحقُّ ، قل لستُ عليكم بوكيل﴾ (٦ : ٦٦) وقال تعالى : ﴿فمَنِ اهتَدَى فلنفسِهِ ، ومَنْ ضلَّ فإنما يَضلُّ عليها ، وما أنتَ عليهم بوكيل ﴾ (٣٩ : ٤١) ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيتَ مَنِ اتّخَذَ إلههُ هواه ، أفأنتَ تكونُ عليه وكيلاً ؟﴾ (٢٥ : ٤٣) وقال تعالى : ﴿ قل ياقوم أرأيتم إنْ كنتُ على بَيّنَةٍ مِنْ ربّي ، وآتانِي رحمةً مَنْ عندهِ فعُمّيَتْ عليكم ، أنُلزِمُكمُوها ، وأنتم لها كارِهون ؟ ..﴾ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى :﴿ قلْ يا أيها الكافرونَ ، لا أعبُدُ ما تَعبُدُونَ ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدْ ، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم ، ولا أنتم عابدونَ ما أعبُدُ ، لكم دينُكُم ، وليَ دينِ﴾ (١٠٩ :) وقال تعالى : ﴿ وإنْ كَذّبوكَ فقل لي عَمَلي ولكم عَمَلُكُم ، أنتم بريئون مما أعملُ ، وأنا بريءٌ مِمّا تعمَلُونْ ﴾ (١٠ : ٤١) وقال تعالى : ﴿ الله ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ، لا حُجّةَ بينَنا وبينَكُم ، الله يجمعُ بيننا واليه المصير ﴾ (٤٢ : ١٥) ، فمعنى قوله (لا حجة) لا خصومة ، لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به ، فلا حاجة الى المحاجة ، وهو على نية

مضاف ، أي لا ايراد حجة ، وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢:٢٥٦) ، وسبب نزول هذه الآية مارواه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون مقلاة (أي لا يعيش لها ولد) ، فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده ، فلما اجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبنائنا) ، فأنزل الله (لا إكراه في الدين) ، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : (نزلت « لا إكراه في الدين » في رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرهما ؟ ، فانهما قد أبيا إلا النصرانية) فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير انه حاول إكراهما ، فاختصموا الى النبي ﷺ فقال : (يارسول الله ، أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات ، في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا ، وان المسلمين بعد الاسلام أرادوا (إكراه) من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب — على الاسلام فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال عندما أنزلت :(قد خيَّر الله أصحابكم ،فان اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم)

هذا هو حكم الدين الذي يزعم كثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة ، قالوا : (إنه كان يُعرض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه) ، هذا كلام أعداء الإسلام ، وهو تعنت أو جهل وإلا فهل كان السيف يعمل عمله في « إكراه » الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجدون رادعاً ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون : إن ذلك « الاكراه » وقع في المدينة بعد أن اعتز الاسلام ؟ ، وهذه الآية قد نزلت

في غرة هذا الاعتزار ، فإن غزوة « بني النضير » كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، وقال البخاري إنها كانت قبل غزوة « أُحد » ، التي لا خلاف في أنها كانت في شوال ، سنة ثلاث للهجرة ، وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .

لقد نقض « بنو النضير » عهد النبي ﷺ فكادوا له وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه « باكراه » أولادهم المتهودين - على الاسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين « الاكراه » على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (٢ : ٢٥٦) .

وقبل أن نختم هذا الموضوع نريد أن نذكر قوله تعالى : ﴿ وقلْ للذينَ أوتوا الكتابَ والأميّينَ ، أأسلمتم ؟ ، فان أسلَموا فقداهتَدَوْا ، وإن تَوَلّوْا فإنما عليكَ البلاغُ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾ (٣ : ٢٠) ، فبهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله .

هذا وأما حديث : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فاذا قالوها ، عصموا مني دمائهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله) فليس بالاكراه على تلك الكلمة ، لأنهم يمكنهم المهاجرة ، والرسول لا يمنعهم منها ، ولأن المراد (بالناس) العرب في الجزيرة الذين كانوا استحقوا القتال باعتداءاتهم المتوالية على المسلمين ونقضهم المواثيق والعهود التي جاء ذكر نقضها في الآيات التي قبل هذه الآية ، وجرت القاعدة الإلهية غالباً ، أنه متى قيل في القرآن : (ياأيها الناس) مثلا ، فالمراد قريش وسائر عرب الجزيرة .

أو أن المعنى حتى يقولوها ولو ظاهراً بلسانهم ، غير مكلفين أن يعتقدوها بدليل التعبير « بالقول » ، وبكلمة « وحسابهم على الله » ، فيكون الغرض كف شرهم فقط ، لأنهم اذا تظاهروا بالاسلام ، لم يقدروا على إيذاء المسلمين المخلصين ؛

وهناك وجه رابع في الجواب عن هذا الحديث ، وهو أنه وقع فيه اختصار من الراوي له ، إذ الأصل : (أمرت أن أقاتل الناس — أي قريش — حتى يتمكن مريد الاسلام من قوله لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ لله ﴾ أي حتى يصلوا في الضعف الى أن لا يقدروا أن يفتنوا المؤمنين ، وهو يدل على أن الغرض من القتال كان ايجاد الحرية للمسلمين في العقائد الدينية ، قال تعالى : ﴿ ما كانَ لِنبيٍّ أنْ يكونَ له أسْرى حتى يُثخِنَ في الارض ﴾ (٨ : ٦٧) .

والذي يضطرنا الى نحو هذه التأويلات قرائن منها رواية الترمذي في سننه عن جابر انه بعد أن أتم الحديث السابق قرأ قوله تعالى : ﴿ إنما أنتَ مُذَكِّر ، لستَ عليهم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٨٨ : ٢٢) ، فهذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ تؤيد ما قلناه في معنى الحديث ، وإلا فأي مناسبة بينها وبينه ؟ ومنها التوفيق بين الحديث المذكور وبين الآيات القرآنية الكثيرة مثل قوله : ﴿ وقل الحقُّ من رَبِّكُم ، فمَنْ شاءَ فليؤمِنْ ومَنْ شاءَ فليكفُرْ ﴾ (١٨ : ٢٩) و (ليسَ عليكَ هداهُم) (٢ : ٢٧٢) ﴿ إنكَ لا تَهْدي مَنْ أحبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهدي مَنْ يشاء ﴾ (٢٨ : ٥٦) و ﴿ وَلو شاءَ ربُّك لآمنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً . أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ ﴾ (١٠ : ٩٩) و ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم ، لا يَضُرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتُم ﴾ (٥ : ١٠٨) و ﴿ لا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ ،

﴿فيسبّوا اللهَ عدْواً بغيرِ علمٍ ، كذلكَ زيّنا لكلِ أمةٍ عملَهم ، ثم إلى ربهم مرجعُهم ، فينبّئهم بما كانوا يعملون﴾ (٦ : ١٠٨) و ﴿وإنْ أحدٌ منَ المشركين استجارَكَ فأجرْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ ، ثم أبلغْهُ مأمنَهُ ، ذلكَ بأنّهم قومٌ لايعلمون﴾ (٩ : ٧) وهذه الآيات وأشباههاليست منسوخة كما قال بعض الناس ، وقد ورد في الحديث الشريف : (سيكون أناس يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه ويتبعوا ماتشابه منه ، ولكل دين مجوس وهم مجوس أمتي وكلاب النار).

انطباق الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على معتقدهم في ألوهية المسيح

الفائدة الرابعة — ماأصدق هذه الآية الشريفة على «الثالوث» معتقدالبولسيين فانه يحتوي على أرباب متفرقين في الجوهر ، متفرقين في العمل ، أما كون هذا الثالوث مركباً من أرباب ، فلأنهم قالوا ، إنه مركب من الآب وهو رب وإله ، والابن وهو رب وإله ، والروح القدس وهو رب وإله ، والثلاثة واحد ، وأما كون هذه الارباب الثلاثة ، أو الاقانيم الثلاثة أو الجواهر الثلاثة ، أو ماشاءوا يقولون — متفرقين في الاصالة ، فلأن أصل الجميع أقنوم الآب ، وأما الأقنومان الآخران فمشتقان منه أو متوالدان منه ، أو ماشاءوا يقولون ، وأما كون هذه الثلاثة متفرقين في الجوهر ، فلأنهم قرروا أن جوهر الآب شخص مستقل قائم بنفسه وكذا جوهر الابن ، ومثله جوهر الروح القدس ، وأما كون الثلاثة متفرقين في العمل ، فلأن الآب هو خالق ما كان وما يكون ، والابن به كان ما كان وبه يكون مايكون ، والروح القدس ، هو الذي يبث العلم والنورالهدى في قلوب الناس كما كان هو الناطق بالانبياء .

هذا ومن المدهشات استدلال النصارى على معتقدهم في ألوهية المسيح بقوله خطاباً لله تعالى: ﴿ أنت فيَّ وأنا فيك ﴾ (يو ١٧ : ٢١) ولكن هذه الجملة مقتطعة من مقال طويل، لو سمعه الانسان لم يقدر أن يستنتج منه معتقدهم، وإليك نقل هذا المقال، في دعائه لأتباعه هكذا: (ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مكمّلين الى واحد، وليعلم العالم انك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني) (يو ١٧: ٢١ - ٢٣)، وينقلون أيضاً عن المسيح عيسى أنه قال: (إني أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم)(يو ١٤ : ٢٠)، فهذه العبارات ان ادعوا أنها تدل على ألوهية المسيح، فلا شك أنه يلزمهم أن يقولوا، إن تلاميذه أيضاً آلهة، لأن ما عبر به عن نفسه، عبر به أيضاً عنهم بلا فرق، وقريب من هذه التعابير، قول النبي ﷺ لعليّ (رض): (أنت مني وأنا منك) أخرجناه في الصحيحين من حديث البراء بن عازب، وفيهما عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّت نفقة عيالهم في المدينة، جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد، ثم قسموه بينهم بالسوية، هم مني وأنا منهم) وكذلك قاله ﷺ عن جليبيب: (هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه)، رواه مسلم في صحيحه عن أبي برزة.

التثليث عند المصريين القدماء

الفائدة الخامسة — كان المصريون القدماء، ومنهم المعاصرون ليوسف عليه السلام — من أهل «التثليث»، ولكن ليس لهم «ثالوث» واحد، بل كل مقاطعة تعبد «ثالوثاً» وكان أصحاب هيكل «منفيس» يعتقدون بثالوث مركب من «الله» قبل كل شيء، ثم «الكلمة» ومعها «روح القدس» ولهؤلاء الثلاثة طبيعة

واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » : (لاريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس « كلمة » هو من أصل وثني مصري ، دخل في غيره من الديانات كالمسيحية ، و « أبولو » المدفون في بلدة « دهلي » في الهند يدعى « الكلمة »،وفي علم اللاهوت الاسكندري الذي كان يعلّمه القسيس « بلاتو » قبل المسيح بسنين عديدة ، « الكلمة هي الإله الثاني » وتدعى أيضاً « ابن الله البكر » ، فالمصريون يقولون بلاهوت الكلمة ، وان كل شيء صار بواسطتها ، وانها «منبثقة» من الله ، وانها هي الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية ، وكذلك «أرسطو» وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون (كذا قاله «بونويك» في كتابه « عقائد قدماء المصريين ») ، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل«يوحنا» بلا فرق ، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين « مقدس » ، واعتقاد قدماء المصريين « نجس » !!! وبمناسبة ذكر التثليث عند قدماء المصريين سأذكر التثليث عند باقي الأمم :

١ — (التثليث عند البراهمة) : « البراهمة » من الهند يعبدون « ثالوثا » مركباً من « برهما وفشنو وسيفا» ، وعندهم أن هذه ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك عن الوحدة ، فهي إله واحد ، وعندهم أن « برهما » هو « الآب » و « فشنو » هو « الابن » و « سيفا » هو « الروح القدس » .

فبرهما الآب — هو الممثل لمبادىء التكوين والخلق ، وفشنو الابن — يمثل حفظ الأشياء المكونة — من الزوال والفساد ، وهو منبثق عن اللاهوتية ، وسيفا الروح القدس ـ هو الذي له التصرف والتحويل في الكون ،ويرمزون له بصورة « حمامة » (كذا قاله « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » ج ٢) وهذا هو نظير اعتقاد مبشري المسيحيين في « ثالوثهم » من

كل وجه . ولكن ثالوث البراهمة نجس ، وثالوث مبشري المسيحيين مقدس !!! ..

٢ — (التثليث عند البوذية) : البوذية يعبدون « بوذا » ويسمونه « خو » ، ويقولون إنه إله ، له ثلاثة أقانيم ، هذا بالنسبة لبوذيي الصين ، وكذلك بوذيو « جيسنت » يقولون إن « جيفا ــ) مثلث الأقانيم » وكذلك شيعة « تاوو » التي ابتدأت قبل المسيح بنحو ٦٠٤ سنين ، وكانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، قال « تاوو » عندهم هو العقل الأول ، انبثق منه واحد ، ومن الثاني انبثق ثالث ، ومن هذا الثالث انبثق كل شيء ، وهذا القول بالتولد والانبثاق أدهش العلامة « موريس » لأن قائله وثني ، ولكن الانبثاق عند هؤلاء الوثنيين باطل ، بخلاف الانبثاق عند مبشري المسيحيين فانه حق !!! ..

٣ — (التثليث عند الكلدانيين) : الكلدان قوم ابراهيم لهم ثالوث مركب من « إل » و « بعل » و « حيا » وعندهم أن « إل » هو الله ، وأما « بعل » فتعريبه (كما في قاموس جورج بوست) رب أو سيد ، وهما اللفظان اللذان يلقب بهما المسيح كثيراً ، وأما « حيا » فيرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة ، فهو قريب من « روح القدس » ؛ وعليه فيكون ثالوث مبشري المسيحيين ، الأب والابن والروح القدس تفسيراً لثالوث الكلدان « إل وبعل وحيا » ولكن ثالوث الكلدان غير صحيح وثالوث مبشري البروتستانت هو الصحيح !! ! ..

٤ — (التثليث عند الفرس وأهل آسية) : قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، ويسمونها « اوزمرد ، مترات ، أهرمن » فاوزمرد الخلاّق ، ومترات ابن الله المخلّص والوسيط ، وأهرمن الملك ، ودين مبشري البروتستانت يشبه دين هؤلاء ولكن عقيدة المبشرين صحيحة وعقيدة أسلافهم الفرس باطلة !!! ..

٥ — (التثليث عند اليونان) : كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ، ولكنه ذو ثلاثة أقانيم ، كذا في كتاب « سكان أوربا الأولين » ؛ وإن اليونان كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، ونقل « دوان » عن « اورفيوس » أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : « كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم » ، هـذا اعتقاد اليونانيين القدماء . الذين جال « بولص » في بلادهم جولات واسعة ، وامتزج بهم امتزاجاً شديداً ، ثم إن الكنيسة المسيحية بعد دخول نصرانية « قسطنطين » فيهم ، اقتبست منهم هذا التعليم ، ولكن يوجد فرق جوهري بين عقيدة هؤلاء الوثنيين ، وبين عقيدة مبشري البروتستانت المحققين ، وهذا الفرق ينحصر كله في قولنا : إن عقيدة وثنيي قدماء اليونان باطلة ، وعقيدة هؤلاء السادة المبشرين حقة !!!.

٦ — التثليث عند الرومان : كان الرومان الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ، ثم « بالكلمة » ثم « بالروح » ، (كـذا في كتاب الخرافات ومخترعوها) تأليف « فسك » ص ٢٠٥ ، وهل هذا سوى عقيـدة مبشري البروتستانت اليوم ؟ غير أنهم نزلوا « الكلمة » على السيد المسيح .

٧ — (التثليث عند الفنلنديين): كان للفنلنديين البرابرة الذين كانوا في شمال روسية ـ إلـه اسمه « تريكلاف » ، وقد وجد له تمثال في « هرتونجرج » ، لـه ثلاثـة رؤوس على جسـد واحد ، قاله « بارخوست » في القاموس العبراني ، وتريكلاف مركب من كلـمة « تري » ومعناهـا ثلاثة ، وكلـمة « كلاف » ومعناها إلـه .

٨ — (التثليث عند الاسكندناويين) كان الاسكندناويون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، يدعونها « أودين ، تورا ، فري » ويقولون : الثلاثة الأقانيم إله واحد ، وقـد كان أهل اسوج ونروج والدنيمارك يفاخر بعضهم بعضاً في بنـاء

الهياكل لهذا الثالوث، وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالوث، ويدعون «أودين» باسم الأب، «تورا» باسم الابن البكر «فري» باسم مانح البركة والنسل والسلام والغنى، (كذا قاله «دوان» في كتابه «خرافات التوراة» ص ٣٧٧»، وغير خاف ان هذا الثالوث الاسكندناوي قريب من ثالوث مبشري البروتستانت الأذكياء، فما أشبه الليلة بالبارحة، ولكن عقيدة هؤلاء المبشرين الكرام صادقة، وأما عقيدة أسلافهم الاسكندناويين فهي كاذبة !!! ..

هذا ما تيسر لنا نقله في بحث الثواليث.

فرق النصارى الشهيرة

الفائدة السادسة ـ فرق النصارى الشهيرة ستة :

الفرقة الاولى الأريوسية : ـ «يقولون بإله واحد، هو الله، وينفون الالوهية عن المسيح وعن الروح القدس، ويحملون ما ورد في الأناجيل من تسمية الله بالرب وتسمية المسيح بالابن ـ على المجاز، فهم من أهل التوحيد الصرف ولأجل رد قول رئيسهم «آريوس» بأن المسيح إنسان فقط، ليس فيه لاهوت فقد انعقد أول مجمع في «نيقية»، وهو محل قريب من الاستانة سنة (٣٢٧) مسيحية، ويقال له «المجمع النيقاوي» وهو الذي قرر عقيدة «الأمانة» أو «قانون الإيمان» وسمّى الآريوسيين «هراطقة» ولكن فكرة آريوس هذه، وهي عقيدة التوحيد ونفي الالوهية عن المسيح، قد انتشرت في أوربا في أواسط القرن السادس عشر، لا سيما في ايطاليا وبولانده وترانسلفانيا، وقد اشتهرت هذه البلاد الأخيرة بأنها صارت مهد القول بتوحيد الله تعالى، ثم انتشرت كنائس الموحدين من النصارى في أوربا وغيرها، وكذلك اقيمت لهم المدارس في كبريات

المدن العلمية ، وفي كل مملكة من الممالك الاسلامية، وآريوس هذا يعتقد في المسيح عين ما يعتقده فيه المسلمون ، ويقول عن المسيح إنه ابن الله مجازاً ، وقد كان كاهناً للكنيسة الاسكندرية ، وكان معه على هـذا الاعتقاد أتباع من النصارى ورجال الدين كثيرون ، خصوصاً في الشرق ، خصوصاً في مصر وفلسطين ،وكان على مذهبه من ملوك الرومان الملك « قسطنس » والملك « فالنص » ولما فتح القوط الغربيون « اسبانيا » في القرن الخامس للميلاد كانوا يدينون بالأريوسية ، وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن ، وفي أواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » ، اتبع المذهب الكاثوليكي سنة (٥٨٧) للميلاد ، فتبعه الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية ، ولقد كان المذهب الأريوسي مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية وقضوا نحو مئتي سنة ، وهم على مذهب آريوس ، والذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر إنما استبدلوه مسايرة إلى « ريكارد » ، لا عن اقتناع البرهان لأن مذهب آريوس أقرب إلى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية » قاله « جين » مؤلف تاريخ المملكة الرومانية ، وهذه الفرقة من النصارى « موحدة » .

وقد حكم المجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنة (٣٢٥) ميلادية بمقاومة آريوس وإحراق كتبه وتحريم اقتنائها ، ولما انتشر تعليمه من بعده قضى « تيودوسيوس » الثاني باستئصال مذهبه وإبادة الأريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٢٨ مسيحية ، وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً .

الفرقة الثانية المكدونية ــ يقولون بألوهية المسيح دون الروح القدس ، نسبة إلى « مكدونيوس » اسقف القسطنطينية ، وقد انعقد المجمع الثاني القسطنطيني سنة (٣٨١) مسيحية ، لأجل الرد على مكدونيوس الذي أنكر ألوهية الروح القدس وهذه الفرقة من النصارى « مثنية » .

الفرقة الثالثة الملكانية — يقولون بالثالوث وبطبيعتين وأقنوم واحـــد ، أي للمسيح طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو تقول : طبيعة الانسان وطبيعة الإله وكل طبيعة على حدتها ، لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، ومن هؤلاء اللاتين والروم الارثوذوكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت فجميعهم يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم إنهـا أم الإله أو أم الله ، أو والدة الاله أو الرب ، وهـؤلاء طبعاً « مثلثة » .

الفرقة الرابعة النساطرة — يقولون بالثالوث وأن المسيح له أقنومان ، أقنوم ناسوتي وأقنوم لاهوتي ، وان أقنوم اللاهوت ليس متداخلا معه ، بل هو مشرق عليه إشراقاً فقط ، ولذلك فليس للمسيح عندهم سوى طبيعة واحـــدة بشرية ، وأن السيدة مريم لم تلد إلا أقنوم الناسوت ، فليست هي أم الإله ، بل أم الانسان فقط وهم عند باقي طوائف النصارى أشبه بالزائغين ويسمونهم هراطقة ، وكان معظم أهالي هذا المذهب موجوداً في العجم وفيما بين النهرين أو حوالي ذلك ، ويوجدون عند منابع الزاب ، وبحيرة اورمية ، وما بين العراق وحدود الفرس وجنوبي الهند ، ويسمون « الكلدان » ، ويوجدون في الموصل على نهر دجلة وفي أذربيجان ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الثـــالث الاقسوسيّ سنة (٤٣١) ميلادية ، وينسب هذا المذهب الى «نسطوروس» أسقف القسطنطينية الذي لا يقول بالتجسد ، أي تجسد أقنوم الكلمة ، ولا يقول بالاتحاد ، أي اتحاد أقنوم الكلمة بناسوت المسيح ، خلافاً للملكانية ، وقد قرر المجمع المذكور أن أصحاب هـذا المذهب هراطقة ، ولكنهم على كل حال « مثلثون » .

الفرقة الخامسة اليعقوبية — يقولون بالثالوث ولكن المسيح له طبيعة واحدة

واليعاقبة هم اليوم عبارة عن اربع طوائف ، السريان غير الكاثوليك أو إن شئت قلت : السريان القديم ، والأرمن والأقباط بمصر والحبشة ، فهؤلاء يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أو بالعكس ، وهم عند غيرهم من النصارى هراطقة ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الرابع الخَلْقِيدُوني في سنة (٤٥١) م وقرر الطبيعتين .

الفرقة السادسة المريمية — تقول بربوبية العذراء ، وانهـــا أقنوم آلهي ، وهؤلاء أصحاب بدعة في نظر طوائف النصارى ، (راجع خلاصة تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي تعريب الخوري يوسف البستاني المطبوع في بيروت ، وغيره وغيره من تواريخ الكنيسة تقف على العجب العجاب من الخلافات والتفصيلات الكثيرة) وقبل الختام وعلى ذكر « الاقباط » نقول كان الأقباط أيام أجدادهـم الفراعنة في التوثن ، وما زالوا كذلك الى سنة (٣٨١) ب . م[١]، ومن هـذا التاريخ اعتنقوا النصرانية بأمر « ثيودوسيس » ولكن على مذهب يعقوب البرادعي كما علمت ، وأما الرومان الذين كان لهم الانتداب على مصر فكانوا « ملكانية » ، ولذلك كان يوجد حزازات بين الحكومة الرومانية المنتدبة ، وبين القبط الوطنيين المنتدب عليهم .

شرك المصريين القدماء في الربوبية والالوهية

الفائدة الثامنة — نعلم من قوله « أأرباب ... الخ » ومن قوله الآتي « ماتعبدون ... الخ » أنه كان يوجد عند المصريين القدماء شرك في الربوبيـــة وشرك في الألوهية ، فشرك الربوبية كان عندهم باتباع رؤساء دينهم الكهنة فيما يحلون لهـم وما يحرمون عليهم « وشرك الألوهية كان عندهم بعبادة غير الله تعـالى كالعجل أبيس وسواه ، وقد أخذ النصارى عن المصريين وسواهم هـذين النوعين من

(١) أي بعد المسيح .

(٢ : ٤٤)، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولونَ مالا تَفْعَلونَ، كَبُرَ مقتاً عندَ الله أنْ تقولوا مالا تفعلونَ ﴾ (٦١ : ٢ و٣)

سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد فقط

الفائدة الحادية عشرة ـ الدعوة الى اصلاح العقائد، ووضع التوحيد محل التوثن: أمر مهم يقصد منه نقل النفوس من ملة الى ملة، ومعلوم أن تحويل النفوس من عقيدة الى أخرى صعب جداً على الداعي وعلى المدعو، ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هرون، فقال: ﴿ واجعلْ لي وزيراً مِنْ أهْلي هرون أخي، اشْدُدْ به أزْري، وأشرِكْهُ في أمْري ﴾ (٢٠ : ٢٩ ـ ٣٢): وبعث عيسى عليه السلام الى أهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم الى الايمان، فقابلوهما بعناد وتكذيب، فأضاف اليهما ثالثاً يؤيد بعثهما، قال تعالى: ﴿ واضرِب لهم مَثَلا أصحابَ القرية إذْ جاءها المُرسَلون، إذ أرسَلْنا اليهم اثنين فكذَّبوهُما، فعَزَّزْنا بثالثٍ، فقالوا: إنَّا اليكم مُرسَلون ﴾ (٢٦ : ١٣ و ١٤)، وبالنظر الى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد، وأما الارشاد الى أحكام الدين العملية ـ مثلا ـ فهو أيسر من اصلاح العقائد ووضع الايمان موضع الجحود، أو وضع التوحيد موضع التوثن، على أن التوحيد هو الأساس، فيجب البدء بالدعوة اليه أولاً، وأما الأعمال الفرعية فينبغي تأخير الدعوة اليها بعد اعتناق الأصول، وبهذا تعلم نكتة كون يوسف لم ينه رئيس السقاة عن سقي ربه خمراً، فتفهم هذا، والا فالسلام عليك.

مثل من يعبد عدة آلهة والهاً واحداً كمثل العبد المملوك لشركاء متعددين أو لمالك واحد

الفائدة الثانية عشرة ـ نظير هذه الآية التي نطق بها يوسف عليه السلام قول

الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلا ، رجلا ، فيه شُركاءُ مُتَشاكِسُونَ ، ورجلاً ، سَلَماً لرجلٍ ، هلْ يَسْتَويانِ مثلاً ؟ ﴾ (٣٩ : ٢٩) ، فالرجل الأول مملوك من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي انه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتماورونه في مهنٍ شتى ، ومشاده (أشغال)متنوعة ، واذا بدت لهم حاجة تدافعوه ، فهو سادر (متحير) في أمره ، قدتشعبت(فرقت) الهموم قلبه ، وتوزعت (فرقت) أغراضهم أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ؟

والرجل الثاني قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع ، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً ؟ ، والمراد تمثيل حال الرجل الأول الذي يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه ، من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، ويبقى هو محيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد ؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفقه ؟ فهمّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وحال الرجل الثاني الذي لم يثبت إلا إلـها واحداً ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما يرضيه ويسخطه ، لا يذل إلا لهذا السيد الفذ ، ولا يعتمد إلاّ عليه ، منه يطلب حوائجه ، وهو مع غيره حر ، مهما مسه الضر .

فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها

الفائدة الثالثة عشرة ـ لقد فتح لنا يوسف الصديق بهذا المقال باب الوعظ والتبشير على مصراعيه ، والقرآن الكريم لا يزال يرشدنا الى هذه الفكرة الحميدة ، فكرة الدعوة والارشاد ، كما قال تعالى : ﴿ ولْتَكُنْ منكمْ أمّةٌ يَدْعونَ الى الخير ، ويأمُرونَ بالمعروفِ ، ويَنْهونَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٣ : ١٠٤)وهذا الأمر والنهي هو التواصي في قوله تعالى : ﴿والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ

إلا الذينَ آمَنوا وعَملوا الصالحات ، وتَواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبْرِ ﴾ (١٠٣ :) ، ثم إن لهذه الدعوة الى الخير والأمر والنهي مرتبات ، فالمرتبة الأولى هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى الخير ، وأن يشاركوهم فيا هم عليه من النور والهدى ؛ وعليه فالخير والمعروف هو الاسلام ، والمنكر هو الشرك والكفر ، ودعوة يوسف ههنا من هذا القبيل . والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي - هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، وعليه فالخير والمعروف هو الواجبات ، والمنكر هو الحرام .

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَروا مِنْ بني اسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ ، ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُونَ ، كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكرٍ فَعلوه ، لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعلونَ ﴾ (٥ : ٧٨).

صفات الداعي الى التوحيد

وإننا بمناسبة دعوة يوسف لهذين الوثنيين نريد أن نذكر ما يجب أن يكون عليه « الداعي » من الصفات :

(١) العلم التام بما يدعو اليه ، وهو العلم بالقرآن والسنة والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين . وسلف الأمة الصالح ، وأهم ما يجب أن يعلمه « الداعي » من القرآن معاني الآيات المتعلقة بالنصارى والمسيح وأمه والحواريين ، والآيات التاريخية التي لها علاقتها بتاريخ اليهود .

(٢) العلم بحال من توجه اليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

(٣) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمة ، ليتيسر « للداعي » بيان ما فيها من الباطل ، فان المدعو إذا لم يتبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت الى الحق الذي عليه غيره ، وأهم شيء في هذا الباب ، الوقوف على ما عند النصارى (مثلا) من

المذاهب والتقاليد الدينية ، وأهم هذا الأهم ، مطالعة كتب تواريخ الكنيسة وكتب الجدل التي لنا ولهم ، والوقوف التام على شرح ما بأيديهم مما يسمونه بالتوراة والانجيل والتمكن من مواطن الخلاف بين فرق النصارى الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وما تعتقده كل فرقة في غيرها ، مع الوقوف التام على عقائد الروم الأرثوذكس والروم اللاتين والبروتستانت ، وما تقوله كل فرقة في شأن غيرها .

(٤) — يجب أن يكون « الداعي » نزيهاً عن السباب والشتائم والصخب ، دمث الاخلاق ، وديعاً ، حمولاً ، حريصاً على مراعاة العواطف ، واحترام من يناظره أو يدعوه ، لا ينطق ببنت شفة تمس كرامة مدعوّه ، أو تجرح عاطفته ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ الى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والمَوْعِظَةِ الحسَنةِ ، وجادِلْهُمْ بالتي هيَ أحْسَنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) وأحسن شيء يربي في «الداعي» هذه الملكة ، مراجعته للآيات القرآنية الحاوية على الجدل المتبادل ، بين الأنبياء وأممهم ، والتأمل في ذلك تأملاً عميقاً ، لكي يتخلق بأخلاق الأنبياء ، ويتأدب بآدابهم ويتحمل كما تحملوا ، ويتلطف كما تلطفوا ، فان في القرآن من ذلك العجب العجاب ، والكنز الثمين الذي لا يقدر بثمن .

اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين

الفائدة الرابعة عشرة ـ لقد حث يوسف صاحبي السجن في هذه الآية وما بعدها ، على التوحيد ، ولم يحثهما على الايمان باليوم الآخر ، لأن ذلك كان من أكبر عقائدهم العتيقة ، من وجود يوسف بينهم ، ولولا اعتقادهم بالدينونة في اليوم الآخر ، ما قال عزيز مصر لامرأته ، لما وجدها خاطئة : ﴿ واستغفري لِرَبّكِ إنّكِ كنتِ مِنَ الخاطئينَ ﴾ (آ ٢٩) والظاهر أن هذه العقيدة ، أتت للمصريين ، من طريق الوحي إليهم ، ولذلك كانوا يعرفونها قبل اليهود ،

وكانوا يعتقدون أن قلب الانسان ، سيوزن يوم القيامة ، لمعرفة إن كان يستحق الرحمة أو العذاب ، ولعل مرادهم من ذلك هو كمراد القرآن عند المحققين ، مما ذكره مشابهاً لذلك في قوله : ﴿ وَنَضعُ الموازينَ القِسطَ ليوم القيامَةِ ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ ، أتينا بها ، وكفى بنا حاسبينَ ﴾ (٢١ :٤٧) ، فالمقصود المبالغة في بيان دقة الحساب وكمال العدل الإلهي ، في ديتونة الخلائق ، كأن أعمالهم أو قلوبهم ، توزن وزناً دقيقاً .

فالمصريون القدماء ، كانوا يعتقدون بيوم الدين ، وكذلك بنو اسرائيل « طبعاً » كما يفهم من قول يوسف : ﴿ إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ (آ ٣٧) .

وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة

لم يذكر يوم الآخرة في اسفار العهد القديم ، لأن وجود بني اسرائيل بين المصريين مدة (٤٣٠) سنة على ذمة التوراة (خر ١٢ : ٤٠) أو مدة (٢١٥) سنة على ما حققه علماء التاريخ المدني ـ استدعى اقتباسهم منهم هذه العقيدة ، التي كانت عالقة كثيراً بأذهان المصريين ، فانتقلت منهم لبني اسرائيل ، وأصبحت من الأمور التي لا يترددون في قبولها ، فلذا لم يحتاجوا للتذكير بها كثيراً .

وهناك وجه ثان لعدم ذكر اليوم الآخر في التوراة ، هو أن اليهود، كانوا في تلك الأزمنة ، قصيري الإدراك ، بلداء الشعور ، وكانوا ذوي رقاب صلبة (خر ٣٢ : ٩) ، فلذا ما كانوا يتأثرون ، ولا تنفعل نفوسهم بالمواعيد الآجلة، انفعالها بالمواعيد العاجلة، التي أكثرت كتبهم من ذكرها لهم ، لغلظ قلوبهم وقساوتها.

ولنا وجه ثالث في الموضوع ، وهو أن كتبهم كالتوراة والزبور دخلها نقص كثير ، ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ، فلعل عدم ذكر اليوم الأخير ، هو من أمثلة هذا النقصان ، ومن أفراد ذاك الحظ الذي نسوه .

عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين بيوم الدين

لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الأخير في كتب العهد العتيق، ضعف هذه العقيدة في اليهود، وكأنها مع طول الزمن، تلاشت من بين كثير منهم، حتى أن اليهود انقسموا الى قسمين، قسم يُعرفون باسم «فرّيسيّين» يعتقدون بيوم الدين، وقسم يعرفون باسم «صَدُّوقيّين» ينكرون البعث والقيامة (مت ٢٢ : ٢٣، أع ٢٣ : ٨) وههنا نتذكر قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا، لا تتولّوا قوماً غضبَ اللهُ عليهم، قد يئِسوا مِنَ الآخرةِ، كما يَئِسَ الكفارُ من أصحابِ القبور ﴾ (٦٠ : ١٣) فهؤلاء «القوم المغضوب عليهم» هم يهود المدينة، وهؤلاء «الكفار» الذين يئسوا من أن يلاقوا أقاربهم وأصحابهم، لأنهم لا يعتقدون بالآخرة، وهم الدهرية من العرب.

إذا تقرر هذا، فكيف نقدر أن نفهم أن اليهود، لا يعتقدون بالآخرة، كالدهرية من العرب؟ والجواب فيما يظهر لنا أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا للحجاز كانوا من «الصدوقيين» الذين يقولون «لا بعث ولا قيامة» أو كان بعضهم «صدوقياً» وبعضهم «فريسياً» ولكن إذا طال عليهم الأمد، وامتزج «الفريسي» بكل من «الصدوقي» اليهودي والدهري العربي، ضعف في جميعهم الاعتقاد بالقيامة، فيئسوا من الاخرة، كما يئس دهريو العرب.

ضعف عقيدة اليهود بيوم الدين كانت سبباً في كون اكثر معجزات المسيح (ع) تدل على هذه العقيدة

قال الدكتور توفيق صدقي: «وكأنه لهذا ـ أي لضعف هذه العقيدة في اليهود ولكثرة الشك بين الناس فيها ـ جاء المسيح عيسى عليه السلام، لتبيين هذه العقيدة.

العظمى ، واشتهر بالتصريح بها ، أكثر من جميع من سبقه من أنبياء بني إسرائيل ، وقد بين قدرة الله تعالى على البعث والنشور بمعجزاته العظيمة ، كإحياء الموتى ، وخلقه من الطين طيراً ، وبوجوده هو نفسه بدون أب ، خلافاً لما اعتاده الناس ، فالله تعالى الذي أجرى على يديه كل هذه الآيات البينات (آع ٣٠ : ٢٢)لا شك أنه قادر على احياء الموتى يوم القيامة .

لذلك نرى أن أكثر معجزات السيد المسيح عليه السلام هي مما له علاقة باحياء الميت ليدل بذلك كله على قدرة الله التامة على البعث ، فان الذي خلقه بدون استيفاء أهم الشروط المعتادة ، في خلق الأحياء الراقية ، ثم احيا على يديه الموتى بل الجماد ، لاشك أنه قادر على بعث الخلائق يوم القيامة ، مهما طرأ عليهم من الفساد والانحلال والتغيير ، ومهما فقد من الشروط المعتادة أو اللازمة للحياة في هذه الدنيا ، لذلك قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ ولِنَجْعَلَهُ آيةً للناس ﴾ (١٩ : ٢٠) وجاء عن لسانه مكرراً في موضع واحد (٣ : ٤٩ و ٥٠) قوله : ﴿ إنّي قد جئتكُم بآيةٍ من ربّكم ، فاتّقوا اللهَ وأطيعونِ ﴾ أي إذا علمتم مما جئتكم به من الآيات ، ان الله موجود ، وانه سيبعثكم للحساب ، يوم القيامة ، كان واجباً — عليكم إن كنتم تعقلون — أن تتقوه كل التقوى وتطيعوني .

وجود المسيح (م) من غير أب آية على وجود القيامة

وقبل ختم هذا البحث ، يجب أن لا ننسى قوله تعالى في شأن المسيح : ﴿ وإنهُ لَعِلمٌ للساعةِ ، فلا تَمْتَرُنَّ بها ﴾ (٤٣ : ٦١) ، وقد قرئ ﴿ عَلَمٌ ﴾ — بدون لام — أي هو سبب للعلم بها ، فانه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل ، على إمكان البعث ، وهذه العبارة في الآية مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، فانه تعالى أطلق المسبب ، وهو العلم ، وأراد السبب ، وهو عيسى ومعجزاته ، كقولك

أمطرت السماءُ نباتاً ، وقرىء (عَلَمٌ) ومعناه ان تولد عيسى من غير أب ، دليل على جواز قيام الموتى من قبورهم ، وذلك لأن فرقة من اليهود ، وهم (الصدوقيون) كما قدمته لكم ، كانوا ينكرون القيامة (مر ١٢ : ١٨) فجعل الله تعالى ولادة المسيح من غير أب ، آية لهم على وجود القيامة ، أي كما جاء أن يولد شخص بدون أب ، يجوز أن توجد الناس يوم القيامة ، بدون وساطة آباء ، بل بمحض ارادة الله تعالى .

هذا هو الاحتمال الأول لهذه الآية الكريمة ، وفيه الشاهد هنا ، ولبعض المتأخرين احتمال ثان ، وهو أن المسيح عيسى ، كان علماً لساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ، ونقلها الى بني اسماعيل ، ولهذا قال لهم المسيح : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ، ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه ، يسحقه) (مت ٢١ : ٤٣و٤٤) .

التعليق على قوله « ام الله الواحد »

الفائدة الخامسة عشرة : تعليقاً على قوله :﴿ أم اللهُ الواحدُ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ قُل هو اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم يَلِد ولم يُولَد ، ولم يكُن لهُ كُفُواً أحدٌ ﴾ (١١٢ : ١ — ٤) (فالله أحد) إشارة لتوحيد الربوبية ، (والله الصمد) إشارة لتوحيد الألوهية ، الذي كان العرب على خلافه ، وقوله (لم يلد ولم يولد . . الخ) رمز لتوحيد الكمية ، الذي مشى النصارى على خلافه ، إذ أن اليعقوبية من النصارى والاوتوخية ومنهم السريان القديم والأرمن والأقباط ، يقولون ان ليس للمسيح الاطبيعة واحدة لاهوتية فقط ، وليس له طبيعة بشرية ، ومن نتائج هذه العقيدة القول بان المسيح هو الله ، وان العذراء هي أم الله ووالدة

الإله ، وأما الملكانية ، ومنهم الانكليز والفرنسيون والألمان والايطاليون والروس فيثبتون له طبيعة بشرية مع الطبيعة اللاهوتية .

التعليق على قوله القهار

الفائدة السادسة عشرة — تعليقاً على قوله = (القهار) ، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله ، فهي مقهورة وضعيفة : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ ، كمَثَلِ العنكبوتِ اتخَذَت بيتاً وإنّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ ، لو كانوا يعلمونَ ﴾ (٢٩ : ٤١) فمثل المشرك الذي يعبد الوثن ، بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل العنكبوت تتخذ بيتاً ، بالاضافة الى رجل يبني بيتاً بآجر وجبص أو ينحته من صخر ، وكما أن وهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً ، بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان ، إذا استقريتها ، ديناً ديناً ، عبادة الأوثان ، قال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربُها للناسِ ، وما يعقِلُها إلا العالِمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣) .

هذه الكلمة (القهار) تشير الى أن الرب الإله المعبود ، لا يجوز أن يكون ذليلا مقهوراً ، بل يجب أن يكون عزيزاً علاماً ، لأن المؤمن يجب أن يكون عزيزاً ، فبالأولى يجب أن يكون معبوده عزيزاً .

يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد

آ (٤٠) ﴿ماتَعبُدونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ أسْماءً ، سَمَّيْتُموها أنتُم وآباؤكُم ، ما أنزلَ اللهُ بها مِنْ سُلطانٍ ، إنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ أمَرَ أنْ لا تَعبُدوا إلاّ إيّاهُ ، ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لايَعْلَمونَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الأربعون فقام الشيخ مصطفى الطنطاوي وقال :

مالبث يوسف أن وجه خطابه لصاحبيه في السجن ولمن على دينها من أهل مصر بقوله : لاأخفي عليكم أيها المصريون القدماء إنكم ماعبدتم و (ماتعبدون من دونه) أي من غيره تعالى ذات إله جوهرية مشخصة ، سوى وهم صرف وعدم محض ، بل لاتعبدون (إلاّ أسماء) لاغناء فيها ، أربأ بكم أن تعبدوها ، إذ سميتم مالا يستحق الالوهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لاتعبدون سوى أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات ، وهذه الخيالات المعبودة (سميتموها) سميتم بها(أنتم و) من قبلكم (آباؤكم) آلهة ، وهذه المسميات في الحقيقة والواقع مألوهة لاآلهة ، فما أشبه ذلك منكم بتسمية العرب للاناء الفارغ ملآنا ، وللسيارة الذاهبة قافلة ، وليست هذه التسمية في محلها ، بل هي كما قال القائل :

أسماء مملكةٍ في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

(ماأنزل الله بها) ولا ينزل ولن ينزل أبداً بتسميتها (من سلطان) من حجة ، إذ ليس بيدكم برهان على صحة عبادتها ، ولا عقل يسلم بذلك ، وانما هي الشبهة تزوجت بتسويل الشيطان فحبلت بهذه المعبودات فولدتها ، فاذا هي تماثيل سيئة

المثال ، فمعبوداتكم وليدة شبهة ، ونتيجة تقليد ، فأي باطل أخذتم ؟ ! وأي حق رفضتم ؟ ! . . والحق الحق أقول : (ان الحكم) في أمر العبادة والدين (الا لله) وحده لايعدوه لسواه ، ثم بين ماحكم به فقال : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) خاصة (ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين ، والذي يقوم ويثبت به الحق ، والذي هو وحده الكفيل باصلاح الانسانية ، والذي يحمل في كيانه العزاء للمكدودين في الحياة ومن انتابتهم مصائبها ، وحلت بهم أرزاؤها ، وهو الذي يحمل في كيانه مايرضي النفس ويحقق لها مطامحها وآمالها في حياة أخرى ، تقوم على العدل بين الناس ، ويرتفع فيها الغبن وعدم المساواة ، وهو الذي وحده يغرس الفضائل في النفس ، وينشر العواطف الكريمة ، وأمهات الأخلاق الحسنة (ولكن أكثر الناس) أي السواد الأعظم من الناس في كل زمان ومكان (لا يعلمون) من أمر التوحيد شيئاً ، فالجهلاء على وجه الأرض أكثر من الجراد ، ولا يخلو معظم الناس أن يكون من أهل الخُرق (١) والثوَل (٢) لأنهم تبع لكل ناعق وناعر ، والعوام كالأنعام ، لو كانوا عبيداً لأبي يوسف ، صاحب أبي حنيفة ، لاعتقهم وأسقط ولاءه عنهم .

(ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)

— ١ —

وقام السيد الحسام المقدسي وقال :

لي ههنا عدة مسائل بها يتم تفسير الآية وهي :

اعتناق المصريين الاقباط النصرانية

المسألة الأولى — كان المصريون القدماء وثنيين منذ أول عهد الفراعنة ،

(١) الخرق بالضم والتحريك ضد الرفق ، وان لايحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور.
(٢) الثول الجنون يصيب الشاة .

وبقيت الوثنية فيهم الى أن دخلت النصرانية في الديار المصرية بأمر « ثيودوسيس » (سنة ٣٨١ ب.م) فاعتنقها المصريون ، وهـــم الأقباط ، فصاروا على دين الدولة الرومانية الحاكمة في مصر وانقرضت الديانة الوثنية ، وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها ، ولكن كان «الأقباط» متمذهبين بالمذهب « اليعقوبي » وكان«الرومانيون» أصحاب الانتداب في مصر متمذهبين بالمذهب « الملكاني » ، فالمصريون الأقبــاط كانوا نصارى يعاقبة ، والرومان الحكام كانوا نصاري ملكانية .

وجوب الجهر بالدعوة الدينية

المسألة الثانية ــــ رمى يوسف صاحبيه وغيرَهما من المصريين بحجر واحد ، فقال « ماتعبدون » الخ بصيغة الجمع ، أو يقال : هو لم يرد التحكك بشخصية واحد منهما ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية، وهو عبادتها لغير الله تعالى، والمخاطبان يدخلان في كلامه دخولاً أولياً ، رآهم استعبدوا للأهواء، وخضعوا للأوهام ، وحصروا عقولهم في مضايق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم.

تعرض للطعن عليهم في دينهم ، ولم يبال بمـا يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد ، ثم من الجماعات ، ثم من الدولة نفسها التي يمثلها الملك وبلاطه ــــ لم يبال بذلك لأنه يجب على الانسان الصدع بالأمر الديني والجهر بالدعوة الدينية على كل حال ، شأن أنبياء الله وهداة دينه .

الأمور الداعية لعبادة المعبود

المسألة الثالثة ــــ عبــادة المعبود نتيجة لأحــد أمرين : الأمر الأول شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه ، فهو لذلك يخضع له ، رغبــة فيما عنده من

الخير ، ورهبة مما يقدر عليه من الشر ، ولذلك تراه يفزع إليـــه عند الشدة ، لتخفيف ماألم به من الكروب .

والأمر الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يده من عظائم الأمور ، فالانسان يتخيل لذلك أن تلك القوة التي بهـا تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة له من الإله القادر على كل شيء ، لأنه يحبه حباً جماً ، وترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته إياه ، يرجو بها رضا المعبود الأول ، الذي هو وحده خالق العالم ، وهو وحده رب السموات والأرضين ، فان كان حياً فهو الوسيلة ، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه ، أو جعلت له صورة تمثله ، وقد تكون من حجر أو صفر أو ماشا كل ذلك ، وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطي صاحبها في حياته .

وقد يكون التعظيم أو العبادة لحيوان من الحيوانات النافعـة أو الضارة ، أو لجماد نافع أو ضار ، لأن القوة التي أعطيها ، وبها ضر ونفع — أثر من آثار الخالق الوحيد ، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل ، وتجعل صورته أو تمثـاله مما يُقرّب من خالق القُوى ، ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر أو فضة أو ذهب « صنماً » ؛ ويسمون الحجر الغُفْل من الصنعة « وثناً » ، وعلى ذلك ورد فى القول المأثور عنه ﷺ : (لا تتخذوا قبري وثناً يعبد).

العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته

المسألة الرابعة — العباده ضرب من الخضوع بالغ حـــد النهاية ، ناشيء عن استشعار القلب بعظمة للمعبود لايعرف منشأها ، وعن اعتقاده بسلطـــة له لايدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى مايعرفه منها ، أنها محيطة بـــه ، ولكنها فوق

إدراكه ، فمن ينتهي الى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبل موطىء أقدامه . مادام سبب الذل والخضوع معروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية ، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، أو يعتقدون حلول حصة كبيرة من الالوهية في الملوك ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الشرك ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية ، كما هو الحال في المصريين مع فراعنتهم ، والحقيقة أن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له تعالى دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد ، فيعظم تعظيم العبادة ..

ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت

المسألة الخامسة — يريد بقوله « الاسماء » انكم سميتم مالا يستحق الالوهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات لأن معنى الالوهية فيها معدوم ، محال وجوده ، وهذا كقوله : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾(٧:٧٠) ، وقوله: ﴿ مايدعون من دونه من شيء ﴾ (٢٩:٤٢) ، فنتعلم من هذه الآية الكريمة انه لا لاهوت في شيء من المخلوقات ، ما عبد منها وما لم يعبد ، لافرق فيها بين الضار والنافع ، ولا بين القوي والضعيف) خلافاً لقدماء المصريين وأمثالهم.

وقريب من هذا ، وان يكن ليس من نوعه ، احترام الناس على اسمائها ، لا على أفعالها ، فتجد الانسان متى فهم أن جليسه هو من الاسرة الفلانية أهال عليه الاحترام ، وقدم له الاكرام ، جزافاً بلا كيل .

وجوب علم امور الدين علما استقلاليا استدلاليا

المسألة السادسة — سبق في الآية التي قبل هذه أن يوسف (ع) أحال المخاطبين الى غرائزهم وفطرهم، والآن أقحم في هذه الآية كلمة «وآباؤكم» ليذكرهم بتأثير التربية التقليدية في أنفسهم، ومناشىء عروض الشبهات لأذهانهم والزامهم الحجة بمحاسبة عقولهم، ومخالفة التقاليد والمسلمات، للغرائز والملكات وهم في الحقيقة تابعون لآبائهم في ذلك، كما قال تعالى في إخوانهم من مقلدة قريش :

﴿ واذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله — قالوا : بل نَتَّبِعُ ما ألفَيْنَا عليه آباءنا — أوَ لَو كانَ آباؤهم لا يَعقِلون شيئاً ولا يَهْتَدون؟ ﴾ (٢:١٧٠) وقال تعالى : ﴿ إذ تَبرّأ الذينَ اتُّبِعوا مِنَ الذينَ اتّبعُوا ، ورَأوا العذابَ ، وتقَطَّعَتْ بهم الأسبابُ ﴾ (٢:١٦٦) ،ومن هذا نعلم بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء، لأنه جهل وعصبية جاهلية، فيجب على الانسان العلم الاستقلالي الاستدلالي في أمور الدين، لاسيما الأحكام الأساسية الاصولية، وان في تحريم الأخذ بالدليل افتياتاً على دين الله، ونسخاً لكتابه، وشرعاً لم يأذن به الله، خلاصته تحريم العلم وايجاب الجهل، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل. وهو أقطع الهُدَى لأوصال الحق. وأفعل المعاول لهدم قواعد الأديان، وعلة العلل لانتشار البدع التي تذهب بهداية الدين، وتستبدل بها الخرافات ودجل الدجالين.

هذا ما تيسر لنا في هذا المقام، فتفهمه بإمعان وإمعام، واتباع الحق أسلم، والله تعالى بالصواب أعلم

مرحى

وتكلم بعد ئذ رئيس المؤتمر مشيراً الى أنه لم يسمع من السيد المحاضر مايشفي

الغليل في بيانه على جملة قوله تعالى : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ، فتقدم عندئذ ستة من العلماء الحاضرين طالبين التكلم على هذه الآية فدون أسماءهم ، وقام أولهم وهو الامام الزقازيقي وقال :

(ما أنزل الله بها من سلطان).

— ١ —

اصطلاحات القرآن اللفظية

كل (سُلطان) في القرآن هو بمعنى (الحجة) كما انه — والشيء بالشيء يذكر — كل فعل في القرآن من (الإمطار) فهو العذاب ودائماً بدون استثناء كما قاله البخاري ، وكل كلمة (صَيْحة) في القرآن هي بمعنى (الهلكة) كما قاله البخاري والكشاف ، وكل (ظُلل الغَمام) في القرآن هو عذاب ، كما يعلم من البخاري أيضاً ، ويعلم من الكشاف انه متى قيل : (أتاهم الله) مثلاً فهو أيضاً العذاب ، كما اذا قيل (أتاهُم أمرنا) ، (فأتى الله بُنْيانَهُمْ) ، (أو يأتي أمرُ ربك) ، (الا أن يأتيهم اللهُ) وكل (وليّ الله) في القرآن ، فهو المؤمن التقي ، وكل (أهل الكتاب) فهو اليهود والنصارى ، وكل (يا أيها الناس) فهو كفار أهل مكة .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٢ —

ثم قام الشيخ المنصوري [١] وقال :

"سلطان والحجة وتعظيم شأنها"

« السلطان » الحجة والبينة والبرهان ، وسميت الحجة سلطاناً ، لأن لها

١) نسبة الى المنصورة من البلاد المصرية .

سلطة على العقل والقلب ، أو ان اشتقاقه من السليط ، وهو الدهن ، لإضاءته ، وغني عن البيان أن الشرك بالله أبطل الباطل ، فلا يمكن أن تقوم عليه حجة من العقل ، ولا بينة من الوحي ، وإذاً فما معنى قوله هنا : ﴿ ماأنزل الله بها من سلطان ؟﴾ والجواب عن ذلكم انه تعالى عظم شأن « السلطان » في دينه ، وناط به تصديق دعوى المدعي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن من جاء « بالسلطان » على الشرك يصدق فيه ، وهو من قبل فرض المحال ، مبالغة في مدح البرهان ، وفضل الاستدلال ، وقد قال تعالى في سياق إقامة البراهين على توحيده : ﴿ أإلهٌ معَ اللهِ ؟ قُل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢٧:٦٤) ، على انه صرح بأنه ليس لديهم برهان فيما أقام على كذبهم فيه البرهان ؛ وكيف يكون لديهم ماهو في نفسه محال ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ! ، سبحانه هو الغني ، له ما في السموات وما في الارض إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟﴾ (١٠ : ٦٨) أي ليس لديكم أدنى دليل بهذا القول الفظيع الذي تقولونه ، مع أن مثله مما تبطله البراهين والدلائل البينة يحتاج مدعيه الى أقوى البراهين والحجج ، وأعظمها سلطاناً على العقول ، ومن قبيل مقالة يوسف قول سلفه هود عليهما السلام : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، مانزّل الله بها من سلطان ؟﴾ (٧:٧٠) ، وقول جده ابراهيم : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ ﴾ (٦:٨١) ، وقوله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم ، وما للظالمين من نصير ﴾

(٧١:٣٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم — إن في صدورهم إلا كبر ، ماهم ببالغيه ﴾ (٤٠:٥٦) ومن أمثلة استعمال لفظ « البرهان » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مع الله إلهاً آخر — لا برهان له به — فإنما حسابُهُ عِندَ ربِّهِ ، إنَّه لا يُفلِحُ الكافِرونَ ﴾ (٢٣ : ١١٨)ومن أمثلة استعمال كلمة « حق » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْفُرون بآياتِ اللهِ ، ويَقتُلونَ النَبيّينَ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ الخ (٣ : ٢١) ، فهذا القيد يقرر لنا أن ذم الشيء ومدحه يدوران مع « الحق » وجوداً وعدماً ، لا مع الأشخاص والأصناف ، فهو تعظيم لشأن الحق ، حتى كأنه من قتل نبياً بالحق لا يؤاخذ ، وهو من باب فرض المستحيل ، مبالغة في احترام الحق ! ! ! ونحوه قوله تعالى : ﴿ سأَصْرِفُ عن آياتي الذين يَتَكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقّ ﴾ (٧ : ١٤٥) ، فلا ريب أن التكبر لا يكون مرة بحق وأخرى بغير حق ، ولكن رمزاً لاحترام الحق ، من حيث هو حق ، وفرضاً للمحال قيل : لو كان التكبر في الأرض بالحق ، لكان مقبولاً ، ولكنه مستحيل ، لأن التكبر لا يكون إلا باطلاً ، ومن أمثلة استعمال لفظي الحق والسلطان قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّما حرَّم رَبّيَ الفواحِشَ — ماظَهَرَ منها وما بَطَنَ — والإثمَ والبَغْيَ بغيرِ (الحق)، وأنْ تُشْرِكوا باللهِ مالم يُنَزِّلْ به (سلطاناً) ، وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تَعلَمون ﴾ (٧ : ٣٢) ، وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿ نحنُ نَقُصُّ عليكَ نبَأهُم (بالحق) ﴾ (١٨ : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نبَأَ ابنَيْ آدم (بالحق) ﴾ (٥ : ٣٠) فهذا ونحوه تعظيم للحق ، وإلا فالله تعالى لا يقص على نبيه نبأ دائماً إلا بالحق ، والنبي لا يتلو على قومه أيّ نبأ كان إلا بالحق .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٣ —

ثم قام الحافظ البصري[١] وقال :

الدين مبني على الحجة والعلم

يقول هنا « ما أنزل الله بها من سلطان » وسيأتي له أن يقوله : ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون ﴾ فمن هاتين الكلمتين وأشباههما نتعلم أن الدين مبني على (الحجة) ، ومؤسس على (العلم) قال تعالى : ﴿ قلْ هاتوا بُرهانَكم إنْ كنتم صادقينَ ﴾ (٢ : ١١١) ، ﴿ وتلكَ حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ﴾ (٦ : ٨٣) ، ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادِلُ في الله بغيرِ علمٍ ﴾ (٢٢ : ٣) ، ﴿ إنْ يَتّبِعونَ إلا الظنَّ ، وإنّ الظنّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئاً ﴾ (٥٣ : ٢٨) ، ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به عِلمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) هذا ما يصرح به القرآن ، وهذا ما تشهد به العقول النيرة ، فمن قال ان التقليد يكفي في الدين ، فقد غمس لسانه في حمأة الأغاليط .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٤ —

ثم قام سيدي حسام آغا الفيومي[٢] وقال :

المسميات لا تتبدل بتبدل الأسماء كما أن الجبل والشمس والتماسيح

لا تصير آلهة بتبدل أسمائها

يقول : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ويريد أن المخاطبين على ثقة من ذلك ،

---

(١) نسبة الى البصرة من بلاد العراق

(٢) نسبة الى الفيوم من البلاد المصرية .

يعقلونه بعقولهم ، ولكنهم يميلون الى التقاليد المصرية ، الموروثة عن الآباء الأقدمين التي يسميها العلماء « الحركة المستمرة » فيقلبون الحقائق ، ويغيرون النواميس ، ويرون المألوه إلهاً ، والضعيف قوياً وما كانوا يدعون له في الصلاة عليه يوم وفاته، صار يُدعى بعد نزوله في حفرته !! ، واذا بلغ الناس في حالتهم العقلية الدينية ، الى هذه الدرجة ، فقولوا : على عقولهم السلام .

ومعلوم أنّ المسميات لاتتبدل بتبدل الأسماء ، لاذواتها ولا أحكامها ، ولا وضعيتها ، فالعجل « أبيس » الذي يعبدونه هو مازال عجلاً ولو سمي إلهاً ، و « آمون » إله « ثيبة » الموقر عندهم مازال مألوهاً ولو دعي إلهاً ، و « را » أي الشمس وهو الاله الشمسي عندهم هو في الواقع كوكب مخلوق ، وهكذا يقال في تماسيحهم وفراعنتهم وغيرها وأسْخِفْ بالعاقل إن عبد اسماً بلا مسمى ! وأجْهِل بالانسان إن خضع لشيء موهوم ! حقاً إنّ هذا الحال ليذيب لفائف القلب ويقضي بالعجب العجاب !..

(ماأَنزل الله بها من سلطان)

— ٥ —

ثم قام سميح المكي وقال :

سكوت صاحبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إن عبادتهم للشمس وللعجل « أبيس » وغيرهما لا تستند على برهان ، ولا تدعم بعقل ، فهل تظنهما بعد ذلك أصغيا الى نداء الضمير ، إذا كان لهما ضمير ؟! ـ على أنك لو سبرت غور قلبيهما وهما يسمعانه خطاب « الصديق » لرأيتهما يتناجيان نفسيهما ليدفعا عنهما تبكيت الضمير

بشبهة أنهما — كغيرهما من المصريين — إنما اعتقدا تعدد الآلهة ، مشياً مع القول الشائع عندهم ، وهو أن الله « روح عظيم » منبث في هذا العالم ، انبثاث الكهرباء في الاجسام ، أو الأشعة في الفضاء ، أو الأثير في العالم ، وكل واحد له من هذا الروح حصة تناسبه على قدر الاستعداد والتأهل ، وعلى كل فلا نحسبهما إلا قد رأيا شخصيهما مغلوبين ، وأنه قد سدّ عليهما أبواب الجواب والدفاع لسطوع البرهان ، وظهور الصبح لذي عينين ، ولهذا نراهما قد سكتا ولم يفوها بكلمة ، مع أن لهما نفوذاً أن يتكلما مع يوسف ، إذ هما من أهل المناصب المعتبرة في بلاط الملك ، وأما يوسف فانما هو عبد عبراني غريب قد اعتقل بتهمة تمس العرض والشرف . وقد كان معهما في السجن كخادم لهما ، إذ أقامه رئيس الشُرَط عندهما لأجل هذه المهنة ، فسكوتهما والحالة هذه حكم صامت واعتراف بصحة كلام هذا الصديق عليه السلام .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٦ —

ثم قام الاستاذ المدني وقال :

الاستدلال مطلوب في الدين

حكي أن حامد بن العباس ، سأل قاضي القضاة أبا عمرو عن أداء « الخُمار » وعن دوائه ، فتنحنح القاضي لاصلاح صوته ثم قال : قال الله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخُذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (٥٩ : ٧) وقال النبي ﷺ : (استعينوا على الصناعات بأهلها) والاعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة ،

وقد قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أني امرؤ أتيت المروءة من بابها

ثم تلاه ابو نواس في الاسلام فقال :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فقد استظهر في جواب المسألة بآية قرآنية ثم بحديث نبوي ثم بين الفتيا وأدّى المعنى وتقصّى من العهدة [1] ، فاذا كان الاستدلال مطلوباً حتى في أتفه الامور فما بالـكم بالدين ، خصوصاً عقائده ، ولذلك طالبهما يوسف الصديق بالسلطان على مايعتقدان ان كان لهما سلطان .

ولما انتهى الاستاذ من كلامه قام السيد الرئيس وشكر الاساتذة الستة على ماذكروه من تفسيره قيم لهذه الجملة بحيث لم يتركوا زيادة لمستزيد .

(إِن الحكمُ الاّ لله)

قال عبد الملك الكري :

الحكم الشرعي والحكم الفعلي

حكم الله نوعان : حكم شرعي وحكم فعلي ، فالحكم الشرعي هو بوحي الله الي رسله بأمره ونهيه وايجابه وحظره ، وهذا يكون في العبادة والدين ، وماهنا من هذا النوع ، بدليل ماقبله وهو قوله : (ما أنزل الله بها من سلطان) وما بعده وهو قوله : ﴿ أمَرَ أن لا تَعبُدوا إلاّ إيّاهُ ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿

(١) شرح الشريشي على الحريري .

الذين آمنوا ، أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد ﴾ (٥ : ١ر٣)

والحكم الفعلي بمعنى القضاء والنفوذ ، يفصل فيه بين الخلق ، تارة في الدنيا ، وتارة في الآخرة ، كما سيقول يعقوب عليه السلام ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (آية ٦٧) أي القضاء والنفوذ في الدنيا كالآخرة لله وحده ، وكما يقول الله : ﴿ واتبع ما يوحى اليك واصبر ، حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ﴾ (١٠ : ١٠٩) وحكمه هذا في الدنيا بين المسلمين وغيرهم بنصر الاقرب للعدل والاصلاح في الارض ، ومثل حكمه في الآخرة قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، - وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، - وهم يتلون الكتاب : كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٢ : ١١٣) فالحكم هنا القضاء والفصل بتصويب قوم وادخالهم الجنة وتخطئة قوم وادخالهم النار .

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه)

قال نادر الزمان الافغاني :

وحدة الالوهية ووحدة الربوبية

وهذه هي وحدانية الالوهية ، وهي ترجع الى عبادة الله وحده ، السؤال منه وحده ، والاستعانة به وحده ، ودعائه وحده ، (فالاله) هو المعبود الذي تولته العقول في معرفته ، وتدعوه وتصمد اليه ، لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده ، كما لنا وحدة في الالوهية فلنا وحدة في الربوبية ، وهي الاعتقاد بأن مصدر الخلق والرزق والاحياء والاماتة وكذا التشريع والحظر والاباحة وسن الأحكام

انما هو لله وحده الذي يربي العالم بقوانينه السماوية ، التي ينزلها على رسله ، والى الوحدتين ، وحدة الربوبية ووحدة الالوهية الاشارة بقوله تعالى : ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ ، تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ، أنْ لا نعبُدَ إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ، ولا يتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ الله ، فانْ تولَّوا ، فقولوا : اشهدوا بأنّا مُسلمون ﴾ (٣ : ٦٤) .

(ذلك الدين القيم)

وقال عبد العظيم التركي :

الدين والعلم اخوان

نرى في هذه الآية الكريمة ان الدين والعلم أخوان ، متى ثبت أحدهما ثبت الآخر ، ومتى انتفى أحدهما انتفى الآخر ، ولا يقول قائل : إنه يوجد تباين بين الدين والعلم يتنافيان به ، فان ذلك غير صحيح ، وانما جاء ذلك لهم من أجل انهم جعلوا من الدين ماليس به ، أو أخطأوا مقاصده ومعناه ، قال الفيلسوف (هربرت سبنسر) : (العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو للدين الحق ، الذي كثيراً ما تحاول هذه الاوهام ستره عن الأبصار ، نعم إنه يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ، ولكن هذا أيضاً من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، اذ العلم الحقيقي الذي يغوص وراء حقائق الأشياء لا يناقض الدين) . وقال إمام الفلسفة الحديثة (باقون) : (القليل من العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب منه) ، وقريب منه قول ابن تيمية : (أضر شيء على الناس نصف فقيه ونصف مفسر ونصف محدث ونصف مؤرخ ونصف طبيب وهكذا الى آخر الأنصاف) ، وقال (هكسلي) الحكيم الكبير :

(الدين والعلم كنو أمين متلاصقين، فصلهما يؤدي الى موتهما، فان العلم ينمو، متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً) — مرحى —

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قاله شيخنا اليوغوسلافي

يوسف يكرر الفخر من قناة صاحبيه في السجن

كان يوسف فخر من قناة الفتيين المصاحبين له في السجن بقوله لهم في الآية (٣٨): (ولكن أكثر الناس لا يشكرون)، وهنا في هذه الآية كررا الفخر من قناتها بقوله لهما: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعرفون حقاً، ولا تنكر عقولهم باطلاً، وأما أنتما أيها الفتيان فلابد أن تكونا قد عرفتما وجه كلامي اليكما، ولا أحسبكما إلا مسلمين لي اعتقادي على طول الخط، وهذه هي أهم مادة في برنامج (دين التوحيد) قد ألفت نظركما اليها، وعسى أن تصادف كلمتي معكما آذانا صاغية، وقلوباً واعية، وهذه هي الحقيقة الراهنة، فالحواها ولا تمحواها، واكشفاها ولا تكسفاها، واتبعاها ولا تبتدعاها:

لعمري لقد نبهت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذن

هذا رأيي بثثته لكما، وأما أنتما فما رأيكما؟ وهذا قولي، فما قولكما؟ .. أترك الجواب عن ذلك الى وجدانكما الطاهر، وضميركما الحر، وذوقكما السليم، وليس من المتعذر على الباحث الذي يحمل مصباح عقله في يده اليمنى ونبراس علمه في يده اليسرى أن يصل الى نتيجة صالحة تكفل له السعادة الدينية.

(عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد)

هذه عظة يوسف التي أتى بها هنا استطراداً قد تمت ، وهـــذه دعوته التي قدمها انتهازاً للفرصة قد كملت ، ويظهر انها انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، لأن الكتاب والتاريخ لم ينقلا لنا عن ايمانهمـــا شيئاً ، لا سيما (رئيس الخبازين) الذي لم ينقل عنه الكتاب أقل كلمة تشعر بميله ليوسف ، وأما(رئيس السقاة) فقد أشار الكتاب الى أنه مدح يوسف للملك الريان ، وخاطبه بلقب (صديق) ، ولما كان مأمور تحقيق في حادثة النسوة مع يوسف ظهر له براءته ، وطهارته ، الأمر الذى لا بد أن يكون نتج عنه محبته ليوسف ، وحسن اعتقاده فيه ، هذا الذي نقدر أن نستنتجه من الكتاب ، وأما ان (رئيس السقاة) ترك دينه واعتنق دين التوحيد فلا صراحة فيه لا في كتاب ولا في حديث .

(وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال)

وبعد فهذا الوعظ والتعليم من يوسف اقدام عظيم على بث عقيدة التوحيد على رؤوس الاشهاد ، مع انه في محيط كله متوثن منذ أجيال : فدين الحكومة الرسمي هو التوثن ، وكذلك دين الشعب المصري الوطني ، وهكذا دين المستعمرين الهكسوس ، وقد أراد يوسف بما قال غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من العلم في شيء وانما هو تقليد محض وتخرص وظنون وان الظن لا يغني من الحق شيئاً .

جهر يوسف بهذه الدعوة ، دعوة عقيدة التوحيد ، وهو طريد من بلاده ، وغريب في مصر ، ومعدود من عبدان بعض رجال الحكومة ، وسجين بدعوى جريمة شائنة ، ومع هذا كلـــه لم يسعه سوى إعلان عقيدة التوحيد ، ودعوة الفتيين اليها ، والطعن في عقيدة التوثن التي عليها الفراعنة والامة المصرية والامة الهكسوسية ، وكأن الارض — والحمد لله — لا تخلو من قائم لله بحجة في

عبادة ، حتى أرض السجون ، وهكذا كان يفعل الإمامان أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، وهما في سجنهما ببغداد أيام العباسيين يعلمان المسجونين معهما ، ويرشدانهم لما فيه خيرهم ، رغماً عما هما فيه من السجن .

وقد قال بعض المصريين : « لعمري إنه إذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته ، فإن دعوته تموت ، مهما كان واثقاً من صدقها ، بل مهما كانت حقاً في نفسها ، وكم من دعوة حق ماتت في مهدها ؟ وكلمة صدق أطفئت في مشكاتها ؟ بسبب تهيب الداعي من المقاومين ، وما ينقص من الشجاعة الأدبية في تحمل الكوارث والشدائد التي تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة « الحرية الفكرية » ركناً من أركان مدنيتهم ، وعماداً قوياً لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدنية الغربيين وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم في العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم في العزة والصولة والغلبة الى الأوج الذي وصلوا اليه اليوم إنما هو أثر من آثار « الحرية الفكرية » — لو قال ذلك لما كان غالياً ولا مبالغاً . ومن أحب أن يسمع محبوساً في أعماق السجون يقف في سجنه خطيباً ، ويجلس في مجالس الوعظ والدعوة الى الله ، فليقرأ هذا البحث من قصة يوسف عليه السلام ، ولعمري إن هذا مما يجب أن يحملنا على الذهاب لدور السجناء ، لأجل وعظهم وارشادهم ، وتذكيرهم بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، وتشويقهم للتوبة ، وترغيبهم في الصبر الجميل .

حكم القرآن بالاحكام الرديئة على الاكثرية الساحقة من الناس

نقرأ في القرآن المجيد ، فنجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة ، كالجهل والكفر — الى الفسق والشرك — الى

الإعراض والغدر والجدل ونحو ذلك ، وها كم بعض الشواهد على ذلك :

﴿ وكثيرٌ منهم ساءَ مايعملونَ ﴾ (٥:٦٩) ، ﴿ ثم عَموا وصَمّوا كثيرٌ منهم ﴾ (٥:٧١)، ﴿ وكثيرٌ حقَّ عليه العذابُ ﴾ (٢٢:١٨) ، ﴿ لاخيرَ في كثيرٍ مِنْ نجواهم ﴾ (٤:١١٣) ، ﴿ ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لمسرفونَ ﴾ (٥:٣٥)، ﴿ وترى كثيراً منهم يُسارعون في الإثم والعدوان وأكلِهِم السُّحت ، لَبِئسَ ما كانوا يَعملونَ ﴾ (٥:٦٥).﴿ ولَيزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ اليك مِن ربِّك طغياناً وكفراً ﴾ (٥:٦٧)،﴿ ولا تَتَّبِعوا أهواءَ قومٍ قدضَلّوا مِن قبلُ،وأضلّوا كثيراً ﴾ (٥:٨٠)،﴿ ترى كثيراً منهم يتَوَلّونَ الذينَ كفروا — لبِئس ماقدمت لهم أنفسُهم — أنْ سَخِطَ اللهُ عليهم، وفي العذاب هم خالدونَ ﴾ (٥:٨٣)، ﴿ وإنَّ كثيراً ليَضِلونَ بأهوائهم بغير عِلم ﴾ (٦:١١٩)، ﴿ ولقد ذَرَأنا لجهنمَ كثيراً من الجنّ والانس؛لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها ، ولهم آذانٌ لايسمعون بها ، أُولئك كالأنعام بل هم أضَلُّ ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٧:١٧٨)،﴿ إنَّ كثيراً من الأحبارِ والرهبانِ ليأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ ، ويصدون عَن سَبيل اللهِ ﴾ (٩:٣٥) ، ﴿ ربِّ إنّهن أضْللن كثيراً من الناسِ ﴾ (١٤:٣٦) ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ (٣٦:٦٢) ﴿ وإنَّ كثيراً من الخُلَطاءِ ليَبْغي بعضُهم على بعضٍ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ وما أكثرُ الناسِ ـ ولو حرَصْتَ ـ بمؤمنين ﴾ (١٢ : ١٠٣) ، ﴿ فأبى أكثرُ الناسِ إلاّ كُفُوراً ﴾ (١٧ : ٨٩) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايشكُرُون ﴾ (٢ : ٢٤٣) ، ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَعلَمون ﴾ (٧ : ١٨٦) ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضلوكَ عن سبيلِ اللهِ ، إنْ يتَّبِعُونَ إلاّ الظنَّ ، وإنْ هم إلاّ يخرُصُونَ ﴾ (٦ : ١١٦) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَهُم

للحق كارهون ﴾ (٤٣ : ٧٨) ، ﴿ وأكثرهم لايعقلون ﴾ (٥ : ١٠٤) ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ (١٠ : ٣٦) ، ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (١٢ : ١٠٦) ، ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (٣٤ : ٤١) ، ﴿ فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون ﴾ (٤١ : ٤) ، ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ (٧ : ١٠١) ، ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ (٦ : ١١١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

حكم القرآن بالاحكام الحسنة على القليل من الناس

كما إنا نقرأ في القرآن الكريم ، فنجده يصوره مطردة إعطاء نسبة الطاعة والايمان والعلم والشكر والفقه وما أشبه ذلك من المحامد للقليل من الناس ، واليك البيان : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (١١ : ٤٠) قيل كانوا ثمانين نفرا ، ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ (١٨ : ٢٢) ، ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾ (٢ : ٢٤٦) ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ (٢ : ٢٤٩) ، ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ﴾ (٥ : ١٤) ، ﴿ لئن أخرتني الى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ (١٧ : ٦٢) ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ (٣٣ : ١٨) ، ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ (٤٨ : ١٥) الى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم ، والحالة الطبيعية تؤيد كل ما ورد من هذه النصوص ، فان أهل الشر أكثر جدا وجدا أكثر من أهل

الخير في كل مصر وعصر ، وكل كوخ وقصر ، (راجع كتب الملل والنحل وانظر كتب الجمراافية . تجد صدق ماقلنا) .

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم

آ (٤١) ﴿ياصاحِبَي السِّجْنِ أمَّا أحَدُكُمَا فيَسْقي رَبَّه خَمْراً ، وَأمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ ، فتأكُلُ الطَيْرُ مِنْ رَأسِهِ ، قُضِيَ الامْرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيانِ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والاربعون فقـــام اقاي حسن جم الهمذاني[١] وقال :

قال يوسف لصاحبيه بلسان المفتي المجيب (ياصاحبي السجن) لكل حادث حديث ، اسمعا تأويل رؤييكما (أما أحدكما) وهو « بنو » رئيس السقاة (فيسقي ربه) سيده (خمراً) حيث يخرج من هذا المعتقل بريئاً ، ويرجع مقامه الأول عند « الريان » ، (وأما الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (فيصلب) على الجذع فيموت (فتأكل الطير من رأسه) ، لأنه يتهم بمقاومة الملك (قضي الأمر) قطع وتم (الذي فيه تستفتيان) ، ولو كنت أعلم أن التمني سينفع أحدكما الخباز لتمنيت له السلامة ، ولكن التمني لايدفع مقدوراً ، والأمل لا يقضي على الحقيقة.

هذه فتوى يوسف التي خلاصتها هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

---

(١) نسبة الى همدان من البلاد الايرانية .

درس الوعظ قد امتد أكثر مما كانا يتوقعان ، وقد كان قلباهما متمشقين بالأكثر لسماع تأويل حلميهما ، فكانا يقولان في نفسيهما :

لك الحمد لم نسمع عبارة حُلمنا ونسمع مالا نشتهي فلك الحمـــد

وكان كل منهما يهم بأن يقطع على يوسف سلسلة حديثه ، لولا أن ملكا نفسيهما ، فما شعر إلا وهو يقول : ﴿ ياصاحبي السجن أمّا أحدكما .. الخ ﴾ ذلك لأن الناس منذ القديم الى اليوم ، لا يعتنون باللب عنايتهم بالقشور .

استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة

التكملة الثانية ـ كأنك بيوسف عليه السلام وقد وجد له في معتقله أخاً مظلوماً مثله ، تبرأت ساحته ـ كأنك به أنه تمنى أن يكون هو أيضاً قاربت آلامه النهاية ، والعامة من الناس تقول : « إن مطرت بلاد بشر بلاداً » .

الحجر الاول في بناء مجد يوسف

التكملة الثالثة ـ كان تعبير يوسف لهذين الحلمين هو الحلقة الاولى من سلسلة الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن لدست وزارة الماليـة ، فتم ماقيل: « سعادتك بين شفتيك » .

وبعبارة أخرى : كان تعبيره لهـذه الرؤيا هو (الحجر الأول) في أساس خروجه من السجن وبناء مجده الخالد العظيم ، وأما (حجر الزاوية) فهو تعبيره رؤيا الملك الآتية ، وأما (ثالثة الأثافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل مارُمي به ، حتى خرج من معتقله عزيز الجناب ، ناصع الجبين .

حال الفتيين حين سماعهما تعبير رؤيبهما

التكملة الرابعة ـ كأنك (برئيس السقاة) لما سمع بشارة يوسف له ثمل من

الفرح وصار نشوان بخمرة هذه البشرى ، وكأنك (برئيس الخبازين) بغت ووجم[١] وعض على سبابته ، وصار مُشْتَرَكاً[٢] مشدوهاً[٣] لا يحير جواباً ، ولا يعرف صواباً ، وسُقط في يده ، وندم ولات ساعة مندم .

النواة والشجرة والثمرة

التكملة الخامسة ـ كان هذا التعبير الابتدائي (نواة) لمجيء (رئيس السقاة) ليوسف مندوباً من جانب مليك مصر الريان ، ليعبر رؤيا الملك ، كما أن تعبيره رؤيا الملك أخيراً كان (شجرة) من تلك النواة ، وبالتالي كان خروج يوسف من السجن الى البلاط الملوكي هو (الثمرة) لتلك الشجرة .

تسمية الملك رباً عند المصريين

التكملة السادسة ـ تسمية الملك (رباً) اصطلاح للمصريين كالكلدان والعبران ونحوهم وقد بحث عن ذلك سابقاً بما فيه الكفاية .

لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة

التكملة السابعة ـ لما وصل يوسف الى تعبير رؤيا (رئيس الخبازين) تنازعه عاملان عامل السكوت عن تأويل رؤياه ، لئلا يفزعه ويكدره ، ويكون قد واجهه بما يكره ، وعامل الصراحة ليكون ذلك الرجل على بينة من أمره ، وبصيرة من شأنه ، فيجري مايجب أن يجريه قبلما يصلب ، فربما كان عليه أوله دين ، وعسى أن يكون عنده أو له عند غيره أمانات ، ولعله يريد أن يوصي أهله بشيء ، أو يقيم على قاصر وصياً ، أو لعله اذا عرف أمره أن يتوب من جرائمه

(١) سكت　　(٢) هو الذي يحدث نفسه كالمهموم الموسوس
(٣) من دهش وتحير

وأوزاره ، فلهذا ولما كان كاتم العلم ملعون ، أو لأن الله يرسل الرؤيا لصاحبها ليعرف تأويلها ، ويعمل مايجب عليه عمله بحسبها ، أو لأن يوسف ألهم أن هذا الرجل كان مجرماً ولا بد ، فحنق عليه ولم يتمالك أن أخبره ، فلاجل ذلك لم يجد بداً من أن يبين له تأويل رؤياه ، وكان هذا هو أصل مايفعله حكام اليوم من تبليغهم المجرم ، الحكم الذي حكمت به عليه المحكمة ، ليكون على بينة من أمره .

ومامثل تعبير هذه الرؤيا الا كمثل الفتيا التي تصدر من المفتي يسأل عن حكم شرعي ، فيجيب مطلقاً ، أعني سواء أكان في جوابه حظ ومنفعة للسائل ، أو كان فيه منع من إرث مثلا أو غرامة ، حتى لو اقتضى الحال أن يجيبه أنه يستحق القتل أجابه بلا مواربة .

تحقق وقوع تعبير رؤيا الفتيين

التكملة الثامنة ـ كل ما أخبر به يوسف وقع ، فبعد ثلاثة أيام أرجع (رئيس السقاة) الى عمله في قصر الريان ، ثم أخذ بتلبيب (رئيس الخبازين) ورفع على الصليب ، ونادى المنادي : « هذا جزاء من يدخل في المؤامرة على الملك أو التعدي على حياته » ، وجعل في اذنه رقعة مكتوب فيها (هذا جزاء من ثبتت عليه المؤامرة ضد الملك) ، وهذا الجاني هو (مجلث) ، كان أنه حينما أخرج من سجنه لشنقه ينظر الى قصره ، ولسان حاله يقول :

يامنزلا لم تبقَ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلَى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولّى

وعندنا انه بالنظر لكونه أطاع المؤتمرين على الملك فتآمر معهم عليه بشر ، أو سم خبز ، كان حقيقاً بأن يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ ربنا إنّا أطعنا سادتنا

وكُبَراءَنا فأضَلّونا السبيلا ، ربَّنا آتِهِم ضِعفَيْنِ مِنَ العذابِ ، والعَنْهُم لَعْناً كبيراً ﴾ (٣٣ : ٦٧ و ٦٨) .

خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى

التكملة التاسعة ـ نقرأ في كتب التفسير أن (خباز) فرعون يوسف ، واسمه (مجلث) قتل صلباً ، ثم نقرأ في تلك الكتب أيضاً ، عند قوله تعالى : ﴿ ودخلَ المدينةَ على حينِ غَفْلةٍ مِنْ أهلِها ، فوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ، هذا مِنْ شيعَتِهِ ، وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فاستغاثَهُ الذي مِنْ شيعَتِهِ على الذي مِنْ عَدُوِّهِ ، فوكَزَهُ موسى فقَضَى عليه ﴾ (٢٨ : ١٥) فنرى أن هـذا المصري كان خبازا لفرعون موسى ، واسمه (فانون) وكزه موسى فمات فطمره تحت الرمل ، فسبحان الله ! خباز علق فوق الاعواد ، وخباز طمر تحت الرمل ، وعلى كل فالنتيجة واحدة ، وهي الاماتة غير الطبيعية ، فما أسوأ حظ (الخباز) منذ القديم !!!

من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم

التكملة العاشرة ـ القول بأن الطير ستأكل من رأس هذا المصلوب ربما يدل على صحة ماقاله مؤرخو مصر : أن من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم فلا يبقون منها شيئاً ، وربما كان يوجد عندهم عادة متبعة فيمن يراد صلبه وهي تجديد حلق شعر رأسه ولحيتـه . والذي يحدونا لأحد هذين الاحتمالين هو أنه لو كان المصلوب موفر شعر الرأس واللحية كما هي العادة التي كانت مطردة في العبرانيين والعرب والفرس لما كان يتسنى للطير بسهولة أن تأكل من جلدة الرأس أو جلدة العوارض ، لكونها محجوبة بما يحوطها من الشعر .

الصلب عرفاً هو الاماتة على الصليب

التكملة الحادية عشرة - إذا قيل : « صلب فلان » فمعناه عرفاً أنه أميت على الصليب ، فالصلب عرفاً لا يطلق إلا إذا كان معه إزهاق روح ، فاذا صح هذا فلعل مرمى قوله ههنا « فيصلب » فتزهق روحه عليه ، ولذلك رتب عليه قوله « فتأكل الطير من رأسه » ، لأن الطير لاتحوم حوالي رأس الحيّ على الصليب ولكن على الميت فقط ، والقرآن الكريم دائماً لا يستعمل « الصلب » إلا بهذا المعنى العرفي ، كما يقول في شأن عيسى عليه السلام ﴿ وماقتلوه وماصلبوه ﴾ (٣ : ١٥٦) أي لم يقتلوه على الأرض بأيديهم ولا على الصليب بواسطة ما كدوام التعليق وطول مدته ، أو بنحو المسامير والحراب والجوع والعطش والألم وما الى ذلك ، مما يقتضي الموت فوق الصليب .

معنى الصلب في القرآن

فاذا صح هذا فلعل المنفي عن المسيح إنما هو الصلب المقرون بالموت ، ومن هذا النوع قول الكتاب الكريم : « ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُم أجمعين ، قالوا : إنّا الى ربنا لمُنقَلِبُونَ » (٧: ١٢٣ و ١٢٤) ، فهم قد فهموا من تصليبهم موتهم لا محالة ، فلهذا قالوا : إنهم حينئذ يذهبون الى ربهم ، وكذا قوله تعالى : « إنما جزاءُ الذينَ يحاربونَ اللهَ ورَسولَهُ ويَسعَونَ في الارض فساداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصَلَّبوا ..» الخ (٥: ٣٦) فلعل معناه : يقتلوا باليد على الارض بدون تصليب، أو يشدوا على الصليب حتى تزهق أرواحهم ، بسبب ما من أسباب الموت ، فمادة « صلب » في القرآن الكريم لم ترد إلا فيما فيه إزهاق الروح فعلاً .

استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين

آية (٤٢)﴿ وقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنهما : اذْكُرنِي عِندَ رَبِّكَ ، فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السِجْنِ بِضْعَ سِنِين .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والأربعون، فقام الحاج موسى النابلسي وقال:

(و) بعد ذلك (قال) يوسف بلسان الرجاء والاسترحام (لِـ). رئيس السقاة (الذي ظن انه ناج منها) من الصلب والحبس والتهمة (اذكرني عند ربك) أي صفني عند الملك الريان بصفتي ، وقصّ عليه قصتي ، لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ، فان العلاقة بينك وبين الملك ستكون وثيقة والصلة متينة ، (فأنساه الشيطان) أي فأنسى الشيطان رئيس السقاة (ذكر ربه) أي أن يذكر يوسف لربه الذي هو الملك الريان (فلبث) يوسف (في السجن بضع سنين) أي سنتين وشيئاً من السنة الثالثة على التحقيق ، والبضع من واحد الى أربعة .

(وقال الذي ظن انه ناج منها ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ بدر الدين الحمصي :

استشفاع يوسف بالفتى الناجي

مل يوسف وسئم من طول مدة سجنه ، وصار يشعر ان نفسه سجينة في صدره ، كما سجن جسمه في معتقله ، فزفر زفرة من زفرات الضيق ، فلذلك ولكونه قد رأى أن « الانصاف » أخذ يدخل في السجن ، ليخرج المظلومين —

صار له أمل قوي أن تشمله المدالة ، ويفوز بنعمة الخلاص ، ثم لكون « رئيس السقاة » على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك ، أدلى برجائه اليه قائلاً له :

(أيها الشرابي ، إني مع احتفاظي بالاتكال على الله ، والاستمداد من معونة الحق ، أقول لك : المعروف صيد ، هنيئاً لمن صاده ، والمعروف قروض ، ومع اليوم غدٌ ، وهذه فرصة لك فانتهزها ، تذكر ما كان بيني وبينك من اخوّة الضيق ، فاجعل ذلك شفيعي اليك ، وذمامي لديك ، أنت قد جربت الظلم ومرارة طعمه ، والقلوب التي عرفت الآلام هي التي تشفق على المتألمين ، والأفئدة التي احترقت بنار ظلم الحكام ، هي التي ترثي للمظلومين ، فأرغب اليك أن تجعلني منك ببال حينما تقف بين يدي (الريان) وأن تذكرني بكلمة إسعاد عنده ، وها أنا ذا سألتك حاجتي ولم أُصنْ وجهي عن ذلك ، فأنت لا تَصُنْ وجهك عن التعب في تتميم هذا الأمر ، أنت صديقي ، وليس الصديق الذي يقبل عليك والدنيا في إقبال ويدنو منك ماحامت حولك الآمال ، انما الصديق هو الذي يذكرك في الضيق ، أو ينقذك من ظلم الظالمين ، ولا مثوبة يقدمها المرء بين يدي الله تعالى ، يوم جزائه أفضل من إسعاد البائس ، وتفريج كربة المكروب (ومن فرّج عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، والدال على الخير كفاعله ، وان خيراً من الخير فاعله) وتذكر اني أسمعتك صوتي ، متخللاً في أعماق قلبك ليسرك ، ويحمل اليك البشرى بخروجك من هذا السجن ، فرقيك عند الملك ، فأنت بالمقابل ، أسمعني صوتك ، حاملاً اليّ — على الأقل — بشرى خروجي من السجن ، وخلاك ذم) .

هذا مرمى كلام يوسف الروحي ، وكأني (بالشرابي) قال له : (لبيك ،

سمعاً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فقد تفضلت بما لا طاقة لي على شكره ، فلا أبرح أذكر إحسانك الى آخر نسمة من حياتي ، فثق إني لسوف أقوم بواجبك ، الذي هو حتم عليّ ، وأحسبني سعيداً إذا خدمتك .) قال ذلك ثم خرج يتعثر في أذياله لسرعته وفرحه بلقاء أهله وذويه ، وهو بحال السلامة كأنما جاء وليداً ، وأعطي عمراً جديداً .

نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك واسبابه

هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف للملك ، بدليل قوله : (وقال الذي نجا منها وادكر) ، فان الادكار إنما يكون بعد النسيان ، هذا هو الصواب ، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره ، إلا أن يكون قد اعتزل العقل والذوق ، بحيث هو لا يعرفها ، وهما لا يعرفانه .

وانما نسي الشرابي ذكر يوسف للملك ، لوسوسة الشيطان اليه بما شغله عن ذكراه له ، حتى ذهب عنه وزل عن قلبه ذكره ، فقربه من الملك أنساه بوعده السابق ، وقصر الملك أنساه السجن . وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء ، وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه ، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق والذل ، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه ، وبأهله وذويه ، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك ، أصبح شغله الشاغل ، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان ، حتى غفل (الشرابي) عن يوسف ، ولكون هذه الأشياء وما اليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء اليه ، ولو أن يوسف عليه السلام استقبل من أمره ما استدبر ، لما كان قدم للشرابي رجاءه ، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل .

وهذا النوع من النسيان معهود، وليس ببدع ولا مستبعد، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء، فكأي من يصحبك حال شدته وضيقه، ينساك يوم الرخاء والفرج، بل كثيراً ماينسى الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء، فلا عجب من أن ينسى (الساقي المصري) (يوسف العبراني) العبد السجين :

وكثيراً من أن الأولاد لايذكرون أتعاب والديهم عليهم في صغرهم والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لهم عمالة ما، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن، ونرى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم، الى آخر ماهنالك من الضروب والأشكال، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٩٦ : ٦) وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ ؟! ﴾ (٨٠ : ١٧) ثم إن أنس لاأنسى ان من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرابي) ذكر (يوسف) الملك، معاطاته شرب الخمر، فان شربه، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والاجرام، وفي المال وفي قوة الافتتاح فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لاصابات بالجنون .

وهذا وان الفاء في قوله : (فأنساه) ليست تفريعية بمعنى ان الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين، إذ المعنى على مانفهم أنه حصل أن يوسف قال كذا وكذا، ثم فوراً حصل أن الشرابي نسي ماتكلم به معه، هـذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام، والمناسب للواقع، لا أقل ولا أكثر، فكن لما ذكرناه من الحافظين وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين .

مدة بقاء يوسف في السجن

وعلى هذا النسيان لبث يوسف في سجنه بين أربعة جدران ، صابراً محتسباً ، سنتين وشيء من الثالثة كما ذكره المؤرخون ، إذ يستعمل البعض فيما دون العشرة كما حكاه ابن جرير ، ووجهه إن البضع هو البعض ،لأن الحروف واحدة،والبضع الطائفة من الليل ، كما في القاموس ، يعني قلت أو كثرت .

وههنا فوائد لها علاقتها بتفسير الآية الكريمة :

التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً

الفائدة الأولى — كان هـذا الطلب من يوسف « لرئيس السقاة » من بابه الأخذ في الأسباب المأمور به شرعاً وعقلاً وعادة وطبعاً ، إذ لولا الواسطة لذهب الموسوط ، والتوسط (وإن شئت قل التوسل) على أربعة أوجه:

(١)توسل الانسان الى الله تعالى بايمانه به وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى ، وهذا صحيح جائز باتفاق العلماء.

(٢) توسل الانسان الى الله بدعاء إنسان آخر وشفاعته ، بأن يطلب منه الدعاء الى الله تعالى ، وهذا أيضاً صحيح جائز باتفاق الجميع ، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما ذهب ليعتمر : « أشركنا ياأخي في دعائك » وفي رواية « لا تنسنا ياأخي من دعواتك » .

(٣) التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات نبيّ أو وليّ أو مَلَك ، فهـذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم المأثورة عنهم ، وهذا النوع هو الذي قال « أبو حنيفة » وأصحابه « انـه لا يجوز » ونهوا عنـه قائلين :

« لا يُسأل تعالى بمخلوق » وهذه الأنواع الثلاثة هي فيما إذا كان المتوسَّل (بالفتح) اليه هو الله تعالى .

(٤) أما إذا كان المتوسَّل اليه إنساناً ، فلا مانع من أن يتوسّل اليه بإنسان آخر ، كما هو ظاهر ، ظهور الشمس في رائعة النهار ، ولا يخفى أن الذي صدر من يوسف هو من هذا القبيل ، فانه استشفع عند مليك مصر برئيس السقاة ، وهو عمل معقول ومعقول جداً لأن الحامل عليه الكفكفة من ظلم « عزيز مصر » وتخطيه حدود العدل في سَجنه يوسف ، فعزيز مصر جار وظلم في حكمه على يوسف ، ويوسف يريد أن يرفع عنه هذا الجور بشفاعة هذا « الساقي » ولا مانع من ذلك ولا حرج فيه أصلاً ، وما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في توسطه « بالشرابي » دليل على أنه أغفل الدعاء الى الله تعالى ولكنه سعى في كف الظلم عنه بالوسائط المشروعة في كل دين .

الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ـ التوكل

هـــذا وان من الأسف انه وجد من الناس من انتقد عمل يوسف هذا بما في دماغه ، عكساً للازم ، لأنه يلزم أن نزن ما في أدمغتنا من عقائد بالقرآن وبما ورد عن أنبياء الله تعالى ، لا أن نزن القرآن وأعمال الأنبياء بما في أدمغتنا مما تلقيناه عن المشايخ ، فنجعل الموزون ميزانا ، والميزان موزوناً ، قلباً وحقيقة ، فنحن ههنا بدلاً من أن ننتقد و نستشكل عمل يوسف يجب أن نستنتج منه عقائدنا ، فنقول : بما صدر من يوسف نحتج على من يقولون أو يفضلون ترك الأسباب ، اتكالاً على القضاء والقدر ، وهو جهالة صرفة ، لأن هذا ليس من قبيل التوكل ، بل من قبيل العجز والكسل ، إذ التوكل هو الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه واعتقاد أن الأمر منه وإليه ، مع الأخذ بالاسباب ، وهكذا ينبغي لكل عاقل متشرع أن

يدخل لكل أمر من بابه ، ويطلب كل رغبة من أسبابها ، ولا يقدح في التوكل تعاطى الأسباب ، اتباعاً لسنة الكون وسنة الرسول ﷺ فقد ظاهر الرسول عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة الي الحبشة ، ثم الى المدينة ، وهاجر هو بنفسه ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه القوت من السماء ، وقد ورد : « أأعقل ناقتي أم أتركها وأتوكل ؟ ـ قال : اعقلها وتوكل » وقال ﷺ : « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » مع انه سيد المتوكلين. وقد روي انه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يحرسه ، حتى جاء سعد بن أبي وقاص ، فنام .

وقال في القرآن على لسان المسيح عليه السلام : « مَنْ أنْصَارِي الى اللهِ ؟ » (٣ : ٥٢) هذا وانه لا خلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق وما الى ذلك .

وانا لنرى رجاة يوسف من رئيس السقاة نفعته في الجملة لأنه وان لم ينفعه في الحال فقد نفعه في المآل ، إذ حين رأى الملك حلميه وأعوزه من يعبرهما له تذكر رئيس السقاة يوسف . وتذكر اقتداره في عبارة الرؤيا ، وتذكر أنه كان قد رغب اليه أن يذكره عند الملك فذكره حينذاك ، وعلى كل فيوسف لم يعمل بدعاً . وليس ما أتاه غلطاً ، فعلى الانسان الاجتهاد ، وعلى الله قضاء المراد :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه　　　وليس عليه أن يساعده الدهر

تحقق رجاء يوسف من الشرابي

الفائدة الثانية : كانت فكرة يوسف الاولى وجوب استعمال الأسباب العادية ، تذرعاً لخروجه من السجن ، ولكن كان عدم وجود واسطة ترفع شكواه للملك

يعترض مجرى هذه الفكرة ، فلذلك كان ما كتاماً سا كناً ، ولكن «مكررة أخاك لا بطل» فالآن حيث وجد «الشرابي» يريد أن يخرج من السجن الى البلاط ، فضل نشاطه على جموده ، وسعيه على كسله ، منتهزاً الفرصة لانتداب هذا الرجل لهذه المهمة لا سيما وأنه كان أفاده تعليماً دينياً ، وبشره بعبير رؤياه ، وانعقدت بينهما أخوة السجن وآلامه ، فكلمه أن يصفه عند الملك بصفته ، ويقص عليه قصته ، لعله يرحمه وينتاشه من هذه الورطة .

تأمل يوسف أن تنفرج أزمته بواسطة هذا «الساقي» ومع أن هذا الرجل نسي يوسف وأمله فيه ، فقد حقق الله رجاء يوسف ، وجعل ظنه في محله ، ولكن بأعجوبة أعني بسبب الرؤيا التي رآها الملك ، بعد حين من الدهر ، ولم يجد من يعبرها له ، وعليه فيصدق على يوسف أنه ماقال رأيه فيها فصل ، وماخاب ظنه فيما رجا ، فان هذا «الشرابي» الذي نجا وادّكر بعد أمة ، — أخبر الملك بشأن يوسف ، فأرسله الملك إليه ، وبالنتيجة كان هذا من أكبر أسباب خروج يوسف من معتقله .

الاستعانة بالوسائط في قضاء الحاجة

الفائدة الثالثة — احتياج الانسان للواسطة والرجاء في قضاء حاجته أو رفع الظلم عنه عادة قديمة ، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة ، لا يُعمل فيها بموجب الشرائع والأنظمة ، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة ، وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية الهكسوسية ، هي سائدة في جميع الأمم ، بنسب تتفاوت تبعاً للتربية والأخلاق .

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال : (إن الشريعة كما حصرت «العبادة» في الله تعالى فقد حصرت «الاستعانة» فيه أيضاً ، إذ ورد : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نستعين ﴾ (١ : ٤) فكما أمرنا تعالى أن لانعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فكذلك أمرنا أن لانستعين بغيره أيضاً) . فأجبته :

إن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب ، التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤداة اليه ، وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكّن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في اتقان أعمالنا كل مانستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ، ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ثم نفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ماوراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء ، إلا مسبب الاسباب ورب الأرباب ، فقول يوسف هنا (اذكرني عند ربك) هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى ، وجعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود ، وهذا الضرب لامانع منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتعاوَنوا على البِرّ والتقوى ﴾ (٥ : ٢) ، ولنضرب لذلك مثالاً :

الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الارض وريّها ، يفعل ذلك بنفسه ويستعين عليه بغيره ، ثم يستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، وإشراق الشمس وإنزال المطر الكافي ، على سبيل التعاقب بين الشمس والمطر بمقدار اللزوم ، فالاستعانة بالعبد على القسم الأول جائزة طبعاً ، وشرعاً ، وأما الاستعانة على القسم الثاني فانما هي بالله وحده .

هل قام الشرابي بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن

الفائدة الرابعة — كان رئيس السقاة رجلاً شريفاً مصرياً من أشراف مصر

(الاصطلاحيين) أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، فنظراً لذلك ونظراً لكون يوسف كان قد أوّل له رؤياه بما يعود عليه بالغبطة والسرور ونظراً لكونهما قد انعقدت بينهما أخوة السجن والاعتقال ظلماً ، وأقرب ما تكون النفوس الى النفوس اذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، نعم انه قد وحّد ما بينهما ما صب فوق رؤوسهما من الظلم ومازَجَ بين نفسيهما ما كان من الوحدة والعزلة عن العالم ، الى الذكرى المؤلمة ، الى البؤس المشترك ، فهما أخوان في المساءة والأحزان ، تجمعهما صلة الجرح التي ذكرها الشاعر في قوله :

قد قضى اللهُ أن يؤلّفنا الجرحُ وأن نلتقي على أشجانه
كلّما آنّ « بالعراق » جريح لمس « الشرق » جنبه في «عُمانه»

نظراً لذلك كله حسب يوسف أن مجموعة هذه الأمور تصلح لأن تشكل سبباً يدفع صديقه (رئيس السقاة) لأن يهتم بأمره ، ويرفع مظلمته للملك ، ويأخذ على عاتقه إطراءه والثناء عليه ، متخيلا ان العظماء في دار الحكومة ، عظماء في المعروف ، عظماء في مقابلة الاحسان بالاحسان ، عظماء في تقدير الرجاء ، يقدرون القصد ويحسبون ان المعروف صيد ، لا ينسون أصدقاءهم ، ولا يخلفون إذا وعدوا ، ولا يبخلون بجاههم — كان قد خيّل اليه ذلك كله ، فاذا هو قد خاب فأله ، واستسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم ، ولم ينتفع منه على الفور ، ولكن بعدما دقّ العظم ، ورقّ الشحم ، وبلغ السيل الزبى ، ثم حدث ما أوجب أن يتذكره قسراً ، ويطريه بسببه عند الملك قهراً ، وللمفسرين ههنا كلام ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه أقل من أن ينظر اليه الناظرون ، ويعلق عليه المعلقون .

اسباب عدم اخبار يوسف اباه بسجنه

الفائدة الخامسة — ان قال قائل : « لماذا لم يكتب يوسف لأبيه يعقوب عليهما

السلام بطاقة يخبره فيها بهذا الحادث عساه أن يأتي ويسعى في مساعدته واخراجه من سجنه ، وقد جرت العادة ان الانسان عند الشدة يفزع لأقاربه ويستنصر بهم ، وان رجاء يوسف لوالده أفضل من رجاء الأجنبي ؟ » قلنا ، يظهر لنا في جوابه وجوه :

(١) أن خصيمه هو الحاكم ، فشكوى حاله لأبيه لاتجديه شيئاً ، وقد قيل « إذا كان غريمك القاضي . فلمن تشتكي ؟..» وقال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرقٌ　　كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(٢) ربما كان يخشى من سوء سمعته في فلسطين . لعدم وقوفهم على براءة ساحته مما اتهم به وحبس لأجله .

(٣) ربما كان لا يزال يخاف من اخوته وكيدهم إياه فيأتون لمصر ويتداخلون لأجل كيده مع الحكومة . فيزيدون الطين بلة .

(٤) ان يوسف كان رآى ان أحد عشر كوكباًوالشمس والقمر سيسجدون له . وهذه الرؤيا تفيد انه لابد أن يأتي يوم تسجد له فيه إخوته الأحد عشر وكذا تسجد له الشمس وهي أبوه . والقمر وهو مربيته بلهة . إن قلنا إن(الواو) في قوله تعالى : (والشمس والقمر) عاطفة . فان قلنا إن هذه (الواو) واو المعية أفادتنا أن سجود الاخوة الأحد عشر ليوسف لا بد أن يكون اجتماع يوسف بالشمس والقمر أمراً مؤكداً عنده ، منتظراً له . كما كان أيضاً منتظراً لأبيه يعقوب . وعلى ذلك فكان يعقوب يترقب اجتماعه بولده يوسف وينتظر ذلك اليوم المعهود . وكان يوسف يترقب اجتماعه بوالده يعقوب ، وينتظر ذلك اليوم الموعود أيضاً ، وكان الاثنان على مثل اليقين ، بل على حق اليقين من اجتماعهما فيما بعد ، مهما طال الوقت ، فلذلك لم يسع يوسف في تعريف والده بوجوده ولم يجتهد على

إحاطـة و الده بأنه في مصر ، لتحققه ان الاجتماع سيقع أو سوف يقع بكفالـة سماوية ، ووعد رباني لن يتخلف ، هذا أقصى ما أمكننا من الاعتـذار عن سيدنا يوسف عليه السلام .

فصول مأساة يوسف (ع)

الفائدة السادسة — كانت مأساة يوسف عليه السلام ذات فصول سبعة :

(١) القاؤه في الجب (٢) نقل السيارة له من موطنه لوطن آخر (٣) بيعه لفوطيفار كرقيق ، (٤) اتهامه زوراً بالفحشاء (٥) محنته بالنسوة المصريات (٦) سجنه ظلماً (٧) وأخيراً نسيان صديقه له وقد تشفع به أن يذكره للملك فكانت هذه الحادثة الأخيرة المؤلمة خاتمة هذه الفصول وتتمة تلك الذكريات المحزنة .

على من يريد انتقاد احد ان يتمهل حتى تستوفي البينة نصابها

الفائدة السابعة — (وقال للذي ظن .. الخ) ههنا يحشر المفسرون أحاديث تحتوي انتقاد يوسف في هذا وفيما ذكر في آية ٤٧و٥٠و٥٥ ، وياليتهم تريثوا وتمهلوا وتأملوا ، ولم يكونوا سراعاً في ايراد الطعن من نبي في نبي ، كأننا نحن المسلمين لم نكتف بايقاد نار الفتنة بين رجل ورجل من غمار الناس وغوغائهم ، حتى وسعنا في هـــذا الباب وفتحناه على مصراعيه ، وجعلنا ننقل مافيه إيقاد نار الفتنة بين الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وياليت المفسر حينما يريد أن ينقل انتقاد نبي على نبي ، واعتراض رسول على رسول ، يصبر حتى تستوفي البينة نصابها ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب استشار الناس في دية الجنين ، فقال المغيرة بن شعبة : (شهدت رسول الله ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمة) — فقال عمر : (إئتني بمن يشهد معك) فشهد معه محمد بن مسلمة رواه ابن ماجه في سننه ، وفيها أيضاً أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب من راوي الحديث شاهداً آخر ، في حادثة

ميراث الجـدة ، فقد روى ابن ماجه : جاءت الجـدة الى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها ، فقال لهـا أبو بكر : (مالك في كتاب الله شيء ، وما علمت لك في سنة رسول الله شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس) فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة: (حضرت رسول الله أعطاها السدس ــ فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ ــ فقام محمد بن مسلمة الانصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر)

تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية

الفائدة الثامنة ــ إنما قيل (ظن) في قوله (وقال للذي ظن أنه ناج) ، ولم يقل (عَلِم أو جَزَم) لأن عبارته لرؤيا الشرابي ، ليست مبنية على حس أو تواتر أو وحي ، ولكن على ملكة ومقدرة ، وتوضيح المقام يحتاج لشيء من بسط الكلام:

للعقل أحكام قاطعة ، وهي ماتستند الى يقينـــات كالمشاهدات والمتواترات والأمور الموحى بها من الله ، وللعقل أحكام غير قاطعة ، وهي ماتستند الى ظن ، وقد رفع الله الظنون بعضها فوق بعض درجات ، فمن الظن مايقوى ، فيوشك أن يكون علماً ، ومن الظن مايضعف ، فيوشك أن يكون شكاً ، وقوة الظن وضعفه يرجعان الى تفاوت الامارات والدلائل التي توجده وتربيه في النفس ، فلهذا ولمـا كان اعتقاد يوسف بنجاة « رئيس السقاة » ليس مستند على حس أو تواتر أو وحي، بل على مجرد ملـكة في عبارة المرآئي ، ومقدرة وهبها الله له ، ناسب أن يعبر في جانبه « بالظن » هذا هو الصواب في تعليل تعبيره بكلمة « ظن » خلافاً للمفسرين ،

فدع كل صوت غير صوتي فـإنني		أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدي

اطلاق لفظ (رب) مضافاً للعاقل على غير الله تعالى

الفائدة التاسعة ــ نتعلم من قوله « عند ربك » ان إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل على غيره تعـالى كان جائزاً عند يوسف وفي عصره ، نظير السجود ، أي

سجود الانسان للانسان على جهة الاحترام والترسم ، فان كان جائزاً في ذلك العصر وما قبله لعهد آدم عليه السلام ، كذا قالوا ، وهو حسن ، ولكننا نزيد عليه ماهو أحسن انشاء الله تعالى وهو أن هذا النوع من التعبير مبني على اصطلاح عند المصريين والعبرانيين ، وهو اعتبارهم الملك سيداً ، وكل رجل من رعاياه عبداً له ، وهم كالعرب يعبرون عن السيد بالرب ، مضافاً للفظ العبد أو لضميره . فيقولون : رب العبد وربه ، وهذا ، أي اضافة لفظ الرب للعبد جائز لغة ، كما نص عليه (الاساس).

علاقة الشر بالله تعالى

القائدة العاشرة : — نتعلم من قوله : ﴿فأنساه الشيطان﴾ أن ننسب ما كان من نوع الشرور ، الى غير الله تعالى ، كانفسنا والشيطان ، ولاننسب لله عز وجل إلا ما كان من نوع الخير ، قال موسى عليه السلام ، لما قتل القبطي : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطانِ ﴾ (٢٨:١٥) ، وقال ابن مسعود لما سئل عن الفريضة :

﴿ أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً ، فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ﴾، وكذلك قال أبو بكر في الكلالة ، وقال عمر نحو ذلك ، ومرادهم ان الصواب ، قد أمر الله به وشرعه وأوجبه ورضيه ، والخطأ لم يأمر به ولم يحبه ولم يشرعه ، بل هو مما زينه الشيطان لنفسي ، ففعلته بأمر الشيطان ، فهو مني ومن الشيطان ، وتوضيح ذلك : أن الله تعالى وان كان خالقاً لكل شيء ، ولكن لا يضاف اليه الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في العموم ، واما أن يضاف الى السبب ، كالشيطان والنفس الخبيثة مثلاً ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى: ﴿ اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ ﴾(١٣:٩٨) والثاني كقوله : ﴿قلْ أعوذُ بربِّ الفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ ﴾(١١٣ :١و٢) أي من شيطان و نفس

خبيثة ونحوها ، كما قال تعالى :﴿وإمّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ ، فلا تقعدْ بعدَ الذِكْرَى مَعَ القومِ الظالمين ﴾(٦٨:٦) ، وقال فتى موسى :

﴿وما أنسانيه إلاّ الشيطانُ أنْ أذكُرَهُ﴾(١٨: ٦٤)،ولما نام النبي وأصحابه في الوادي عن الصلاة ، قال : (هذا وادٍ حضرنا فيه الشيطانُ) ، وقال : (إن الشيطان أتى بلالاً ، فجعل يُهَدِيهِ ، كما يُهَدّى الصبي ، حتى نام) ، والثالث كقول الجنّ : ﴿وأنّا لا ندري أشَرٌّ أُريدَ بمن في الارضِ ، أم أراد بهم ربُهم رَشَداً ؟﴾(٧٢: ١٠) وقد قال تعالى: ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيمَ ، صراطَ الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾(١: ٥—٧) فذكر انه فاعل النعمة ، و حذف فاعل الغضَبِ ، وأضاف الضلال اليهم ، وقال الخليل عليه السلام :﴿ وإذا مَرِضْتُ فهو يَشفين ِ﴾(٢٦: ٨٠)وانما يذكر الشر في المفعولات كقوله تعالى:﴿اعلمَوا أنَ اللهَ شديدُ العِقاب، وأنّ اللهَ غفورٌرحيمٌ﴾(٥:١٠١) وقوله : ﴿إنَ ربَّكَ لسريعُ العِقاب ، وإنهُ لغفورٌ رحيمٌ﴾(٧:١٦٦)، وقوله : ﴿نبىءْ عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ ، وأنّ عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾ (١٥: ٤٩)، ﴿وقوله : حَم ، تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ ، غافرِ الذّنبِ ، وقابِلِ التوبِ ، شديد العقاب﴾(٤٠: ٣) (منهاج السنة).

معنى قوله « ذكر ربه » تذكير ربه

الفائدة الحادية عشرة — معنى قوله :﴿ذكر ربه﴾تذكير ربه ، فهو من إضافة المصدر لمفعوله ، فان الذكر مصدر ، تارة يضاف الى الفاعل ، وتارة الى المفعول ، كما يقال : دَقُّ الثوب ، ودَقُّ القصار ، ويقال : أكلُ زيدٍ وأكلُ الطعامِ ، ويقال : ذِكْرُ اللهِ : أيْ ذِكْرُ العبدِ اللهَ ، ويقال ذكرُ اللهِ : أي ذَكْرُ اللهِ منْ ذَكَرَهُ ، وكل هذا في إضافة الذكر اضافة المصادر ، وقد

يضاف الذكر اضافة الأسماء المحضة ، كقولك ثوب زيد : أي الثوب المختص بزيد وذكر الله : أي الذكر المختص بالله ، ويحتمل المعنيين قوله تعالى: ﴿ومَنْ أعرضَ عن ذِكري ، فإنّ له معيشةً ضنكاً ، ونحشُرُه يومَ القيمةِ أعمى ، قال ربِّ ، لِمَ حشرتَني أعمى ، وقد كنتُ بصيراً ؟ — قال كذلك أتتْكَ آياتُنا فنَسيتها ، وكذلك اليومَ تُنسى﴾(٢٠: ١٢٤—١٢٦) ، فقوله ﴿ذكري﴾ إن أضيف إضافة المصادر ، كان المعنى : الذكر الذي ذكرته ، وهو كلامه الذي أنزله ، فهو من اضافة المصدر الى مفعوله ، وان أضيف إضافة الأسماء المحضة ، فذكره هو ما اختص به من الذكر ، والقرآن هو ما اختص به من الذكر ، قال تعالى : ﴿وهذا ذِكرٌ مُباركٌ أنزلناه﴾(٢١: ٥٠) وقال أيضاً: ﴿إنْ هو إلا ذِكرٌ وقرآنٌ مُبينٌ﴾(٣٦: ٣٩) (منهاج السنة).

سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين

الفائدة الثانية عشرة — قوله : ﴿فَلَبِثَ في السجنِ بِضعَ سنينَ﴾ هو مرتب على قوله : ﴿فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ رَبّه﴾ ولا علاقة له بقوله : ﴿قالَ اذكرني عند رَبّكَ﴾ ، حتى يظن أنه مجازاة ليوسف ، كما توهمه بعض من ليس عنده دقة وإدراك للأمور ، وليس عنده كبير احترام لأنبياء الله الكرام.

التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن

الفائدة الثالثة عشرة — « البضع » هو من واحد الى عشرة ، نقله الطبرسي في (مجمع البيان) عن ابن عباس ، ونقله الشريشي في شرحه على مقامات الحريري عن الأخفش والفراء ، ونقل صاحب القاموس أن من معاني البضع ما بين الواحد الى الأربعة ، أو أن البضع ما بين العقدين من واحد الى عشرة ، ومن أحد عشر الى عشرين وهكذا ، قال تعالى : ﴿وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهِم سيَغْلِبُونَ في بِضعِ

سنين ﴾ (٣٠ : ٣) وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر « الروم » على « فارس » لأنهم أهل كتاب ، والمشركون يميلون الى « فارس » لأنهم أهل أوثان ، فلما بشر الله المسلمين بأن « الروم » سيغلبون ، سُرّ المسلمون بذلك ، ثم أن أبا بكر رضي الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم ، فقال له « أمية بن خلف » : « خاطرني على ذلك » فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بخطاره مع « أمية بن خلف » فقال له النبي : « ما حملك على تقريب المدة ؟ » ـ قال الثقة بالله ورسوله ، ـ فقال له : عُدْ اليه فزوده في الخطر ، وازدد في الأجل » ـ فزادهم قلوصين ، وزادوه سنتين ، فظفرت (الروم بفارس) قبل انقضاء الأجل الثاني ، ولكن كان (أُبَيّ بن خلف) ، قد مات ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية (أُبَيّ) وتصدق به ، وهذه الحكاية تدفع القول بأن (البضع) ما بين الثلاثة والعشرة ، وهل كان (أبو بكر) لا يعرف معنى البضع في اللغة العربية ، وهو من صميم العرب ؟ إذ لو كان البضع كما قالوا لم يخاطر في مدة ثلاث سنين بل في مدة بعد الثلاث سنين ، ولكان النبي ﷺ ينتقده من هذه الجهة ، بل أقره على فهمه ، ولكن أراد النبي الاحتياط بازدياد الأجل ، والخلاصة وبالنتيجة يصح لنا أن نقول ان مدة إقامة يوسف في السجن إنما هي سنتان وشيء من السنة الثالثة كما يستفاد من (تك ٤١ : ١) وكل ما يروى في تحديد مدة سجن يوسف بأكثر من ذلك فهو غير حائز على شروط الصحة ، ومبني على حب المبالغة التي هي عادة في الناس .

هذه هي كلمتي في هذا المحل وهي آخر كلمة فأرجو الاصغاء اليها ، وآمل من السامعين قبولها .

لا تحقر الرأيَ يأتيكَ الصغيرُ به ... فالنحلُ وهو ذبابٌ طائرُ العسل

الفصل السادس

حلما الملك

آية (٤٣) ﴿... وقالَ المَلِكُ: إنِّي أرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ، وأُخَرَ يابِساتٍ، يا أيها المَلأُ، أفْتُونِي في رُؤْيايَ، إن كنتم للرؤيا تَعْبُرون﴾.

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والأربعون فقام الشيخ ناصر الدين الأفغاني وقال:

لقد تم الكلام في اعتقال يوسف وذيوله، ولنتركه في سجنه كما قدر الله، ونذهب بالقارىء الى الملك الريان وحلميه، واليك البيان: (وقال الملك) الريان بلسان المتفهم المستفتي (إني أرى) في المنام (سبع بقرات سمان) جمع سمينة (يأكلهن سبع) من البقرات (عجاف) جمع عجفاء، والعجف الهزال الذي ليس بعده، (و) أرى أيضاً في حلم آخر في ذات الليلة (سبع سنبلات) سنبلات (خضر) سبعاً (أخر يابسات)، هـــذا ما رأيت في حلمي فهيّا (يا أيها الملأ) الأعيان من العلماء والحكماء والكهان (أفتوني في رؤياي) علموني تأويلها وبينوه لي، بينوا الي حكم هذه الحادثة (إن) كان عندكم ثروة علمية و (كنتم للرؤيا) المنامية (تعبرون) وتعرفون عاقبتها ومآلها.

(وقال الملك : اني أرى سبع بقرات . . . الخ)

— ١ —

وقال العلامة الروحاني البخاري :

الملك الريان يقص حلميه على الملأ طالباً تعبيرهما له

شاءت العناية الالهيــة أن يخرج يوسف من سجنه بسبب شريف علمي . . فقد آن للمظلوم أن ينتصر على الظالمين ، وحان للحق أن يدمغ الباطل ، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسباباً ، ولذلك لمـا أراد الله اخراج يوسف من معتقله ، واسناد وزارة المالية وحاكمية مصر لعهدته ، أرى ملك مصر رؤيامنامية ذات بال ، إذ بينا الريان نائم رآى رؤيا أكبرها جداً وأفاق من نومه وهو خائر النفس ، وأصبح من جرائها في اضطراب لم ير قبله مثله ، ولن يضطرب بعده مثله ، وأوجس منهـا خيفة ، وأجفل أيما إجفال ، ولذلك جمع الكهنة والكتبة المقدسين والحكماء ، وقال لهم بلهفة وهو مضطرب الحواس ، محطم من آثار مارآى في منامه : إني أرى حلماً ذا بال ، إذ رأيت فيه سبع بقرات سمان وحسنة الصورة ، طلعت من النهر ، فأرتعت في روضة كثيرة الـكلأ ، ثم رأيت سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورفيعة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، فأكلت البقراتُ الهزيلةُ القبيحةُ البقراتِ السبعَ الأولى السمينة ، فدخلت أجوافها ولم تظهر علامات ذلك ، وكانت كأنها لم تأكلها ، وعليه فبقي منظرها قبيحاً كما في الأول ، وههنا استيقظت ، ثم نمت فرأيت في حلمي سبع سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، ثم رأيت سبع سنابل يبض يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نائية وراءها ، فابتلعت السنابلُ الرقيقة السنابلَ الحسنة :

فيا أيها الكهنة ويا أيها العلماء والحكماء والكتبة المقدسين أنيروا ظلمة نفسي ، وبينوا لي بفجر أفكاركم ، الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فقد التبس علي أمر هذه الرؤيا ، والتوى عني مآلها ، ياأيها الملأ الذين يملأون بهيئآتهم عيون الناس، لله أبوكم ، بينوا لي مرمى مارأيت ، إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا ، وتعرفون مآلهـا ومرجعها

قال ذلك ، ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه ، وظواهر العناية تبدو على لسانه.

وههنا نسرد ثماني مسائل لها علاقتها بتوضيح معنى الآية :

من هو « الملك » في قوله : وقال الملك . .

المسألة الاولى — ان هذا « الملك » الذي يعنيه القرآن هو « الريان بن الوليد» كما ذكره مؤرخو العرب ، وكما وجد اسمه منقوشاً على بعض الأحجار الأثرية ، وهو من العمالقة ، وبعبارة أخرى من الاسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لدولة الرعاة العربية بمصر ، أي الهكسوس ، إذ لما كانت السلالة الرابعة عشرة من الفراعنة المصريين تحكم في وادي النيل سنة (٢٠٠٠ ق.م) ، كانت الأقوام السامية تنتقل في شرقي مصر (مديرية الشرقية المسماة في التوراة أرض جاسان) ، على حدود البادية ، وهذه الأقوام هي التي كان المصريون يسمونها « شاسو » أو « هكسوس» أي البدو ، وهم قوم من البدو يشبهون العرب ، ويتكلمون لغة يظهر انها كانت قريبة جداً من العربية ، وكانت هذه الاقوام تترقب ضعف الفراعنة في مصر ، فتسطو على المصريين في مدنهم ، أو يقطعون عليهم السابلة للغزو ، وكانت الفراعنة تخافهم وكثيراً ماسالمتهم واستعانت بهم في حروبهم ، لقوتهم وشجاعتهم ، شأن أهل البادية في كل عصر ، ومازالوا كذلك حتى سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر السفلى ، وامتلكوها ، وكيفية ذلك انه لما حدثت الاضطرابات والفتن ،

منذ السلالة الرابعة عشرة ، اغتنم الهكسوس ضعف دولة النيل ، فوثبوا على مصر السفلى ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب ، واستعمروا الوجه البحري ؛ وجزءاً من الوجه القبلي ؛ واستولوا على مدينة « منفيس » وضبطوا « الدلتا » بكاملها ، وولوّا عليهم ملكاً منهم ، فتقهقرت الفراعنة الى الجنوب ، ثم بدأوا يجبون الضرائب من الأهلين ، ومازالت مصر في حوزتهم حتى أول القرن الثامن عشر ق . م ودامت سيطرة العمالقة (الهكسوس) على مصر نحو أو أكثر من خمسة قرون ثم طردهم المصريون .

دولة الهكسوس في مصر

وكانت دولة الهكسوس عندما انحسر تيارهم وقت ورود يوسف الصديق تقع في المثلث الذي تتألف منه رؤوسه ، من « مينا القمح » و« بوبسطه »(القريبة من الزقازيق) وصان الحجر ، وهي المسماة « صوعن » ، ثم لما تقدم ، لما بيع يوسف لم يجد أقل مشقة في محادثة الأهالي ، لأنهم كانوا منه ، وهو منهم ، يتكلمون كلهم لغة سامية ، فيوسف لم يخدم أحداً من فراعنة مصر ، لأن هؤلاء كانوا في « طيبة » في ذلك الوقت ، وكانت لغتهم مصرية لايفهمهايوسف.

تعبير القرآن بلفظ « ملك » ولفظ «فرعون» لحكام مصر الاقدمين

المسألة الثانية ــ عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان فيعهديوسف بلفظ «ملك» ولم يعبر بلفظ «فرعون» ، لان هذا الملك «الملك الريان » لم يكن من « القبط » بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين في نظرهم ، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لايطلقوا كلمة « فرعون » إلا على من كان مستولياً على مصر استيلاءً شرعياً وكان مصرياً قحاً ، وليس دخيلاً أو مستعمراً وعلى هذا جرت عادة كتاب الله تعالى أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها،

وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بلفظ «ملك» في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة ، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ومنها قوله تعالى:﴿ وقال الملك : آئتوني به ﴾ وقوله : ﴿ وقال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ وقوله :﴿ نفقد صواع الملك ﴾ وقوله :﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فهذه خمسة مواضع اطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متمادية لقب « ملك » لا لقب « فرعون » ، ولكنه في سائر السور سمى ملوك مصر الوطنيين « فراعنة » جرياً على اصطلاح «القبط» كما في قوله تعالى في فرعون التسخير «رمسيس الثاني» من السلالة التاسعة عشرة: ﴿فالتقطه آلُ فرعونَ﴾ (٢٨:٨) ،وقوله تعالى في فرعون الخروج «منفتا» ، الابن الثالث عشر لرمسيس الثاني : ﴿ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري ﴾ (٢٨:٣٨) ، وقوله تعالى في بعض فراعنة مصر : ﴿وضربَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ ﴾ (٦٦:١٠) وهذا لا نعلم من أي سلالة، وفي أي عصر هو؟

غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر »

في زمن يوسف باسم « فرعون »

وبعد كل ذلك نعلم غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى ، وكذا المفسرين والمحدثين ، في تسميتهم «ملك مصر» في زمن يوسف باسم « فرعون » لانه مخالف للواقع والاصطلاح أهل ذلك الزمن ، ولكتاب الله تعالى ، وقد تبع التوراة في هذه التسمية، جمهور المفسرين والمؤرخين ، أو كأن المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالفراعنة ، ممن دخل في الاسلام من أهل الكتاب ، فقلدوهم في ذلك ، حتى اتصل بالمفسرين، والناس — كما قال ابن تيمية — اسراب طير يتبع بعضهم بعضاً ، وليحذر في القارىء

الكريم في مخالفي لجميع من ذكر ، فالهدهد رد على سليمان ، والمرأة أصابت دون التهان ، والفاروق يقول : «اخطأ عمر وأصابت امرأة » والسمكة ردت على الشيخ محي الدين الأكبر .

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

وعندنا ان هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحي يوحى ، وليس من تأليف البشر ، لأنه لو كان كذلك ، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب ، المتداول على ألسنتهم ، المكتوب في أسفارهم ، من تسمية « ملك مصر » في زمن يوسف باسم (فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم .. (مرحى مرحى)

عدد سبعة في تاريخ يوسف

المسألة الثالثة — كثر عدد « السبع » في تاريخ يوسف ، فالبقرات السمان سبع ، والعجاف سبع ، والسنبلات الخضر سبع ، واليابسات سبع ، وسنو الخصب سبع ، والسنو الشداد سبع ، والحفلة النسائية التي تشكلت في قصر العزيز ، لكي تلتف حوله وتراه ، كانت مؤلفة من سبع نسوة ، والأبواب التي غلقتها امرأة العزيز كانت سبعاً ، والاخوة الذين تبعوا مشورة شمعون في قتل يوسف أو طرحه أرضاً كانو سبعة ، ولما ماتت « راحيل » حضنت « بلهة » يوسف سبع ستين ، وكان عمر يوسف حين قام أبوه من حاران سبع ستين .

احتياج الملوك للعلماء

المسألة الرابعة — نتعلم من قول « الريان » للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكماء ـ ان الملوك مهما كانوا من ذوي الأيد والشدة ، لا يستغنون عن أهل العلم ، يستنيرون بنور علومهم ، في دياجي الحوادث ، فكم من ملك بنى القلاع والحصون ، وقاد

الجيوش ، واستكثر من السلاح والكراع ، وأوغل في الفتح ودوخ البلاد ، واستعبد الأمم ، وعاش في الغبطة والسرور ، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء ، والاستفادة من معارفهم ، فقول «الريان بن الوليد» ههنا : « يأيها الملأ أفتوني في رؤياي » قول يتضمن احتياج الملوك للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله !

الملأ جماعة من رجال البلاط والعلماء

المسألة الخامسة — «الملأ» جماعه يجتمعون على رأي فيملأون العيون ، أو ينظرون فيملأون بهيئتهم العيون ، كذا قالوا ، وعليه يكون «ملأ» بمعنى مالىء ، ويحتمل عندنا أن يكون « ملأ » بمعنى مملوء ، لأنهم مملوؤن من الرأي ، ومملوؤن من الهيئة الجميلة ، فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول ، وقد عهد مجيء فَعَل بمعنى مفعول أكثر من مجيئه بمعنى فاعل ، فمن ذلك :

حسب ، نقض ، صمد ، سكن ، ولد ، حصب ، نفض ، ذهب ، جلب ، سرب ، خرز ، ملك ، نعم ، طرح ، الى غير ذلك .

وربما كان هذا « الملأ » من رجال البلاط ومن العلماء اصحاب المناصب في الديوان الملكي ، الذين ليسوا أخصائيين في عبارة المرائي المنامية ، ولذلك قال : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فان هذه الجملة تفيد ان الملك « الريان » لم يكن على بينة من أنهم يعبرون الرؤيا ، وليسوا مشهورين ولا أخصائيين في عبر المنام ، هذا ما فتح به المولى الكريم ، وهو بكل شيء عليم .

يغلب على الحالم أن يرى ولا يسمع

المسألة السادسة — تعليقاً على قوله «إني أرى» قلما يحلم الانسان حلماً تحتوي مادته على لغة وكلام ، وانما الاكثر أن «يُرى» الحلم ولا يسمع ، وهو لذلك يسمى « رؤيا » فنحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وانما نرى فقط ، كما كان

الانسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من الطور الحيواني أخرس لايتكلم، ويوجد في هذه السورة المجيدة خمسة مرائي : الأولى رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، والثانية رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً والثالثة رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه،والرابعة والخامسة، رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل،وكل ذلك رؤيالم تحتوما دته على لغة وكلام ولكن على شيء منظور، نعم في ذلك أفكار مجسمة ،وتجسيم الافكار هو الاصل في الرموز، ففي الرؤيا الأولى ، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها ، وخضوع اخوته مجسم في ذوات اخوته الساجدين ، وأما في الرؤيا الثانية فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته ، عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك ، وأما في الرؤيا الثالثة فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه ، وأما في رؤيي الملك ، فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضر ، والجدب مجسم في أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات ، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء ،

الفتوى

المسأله السابعة — (أفتوني) بمعنى علموني تأويل تلك الرؤيا ، ففي حديث رويناه ، في سنن ابن ماجه : (سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فاذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ، وأفتوهم) قال محمد ابن الحارث للحكم بن عبده : (ما أفتوهم قال علموهم) وأفتاه في الأمر أبانه له ، والفتيا والفتوى وتفتح: ما أفتى به الفقيه (قاموس) .

تعبير الرؤيا

المسألة الثامنة — حقيقة (عبرت الرؤيا) ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما

تقول : عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه أولت الرؤيا، إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها ، وعِبْر الوادي وعِبْر النهر ويفتح : شاطئه وناحيته ، وعبّرت الرؤيا عبْراً وعبارة فأنا عابر ، أفصح من عبرت بالتشديد ، والتعبير والمعبر ، ثم لفظ (تعبرون) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة ، في هذا الموضع لا غير . .

امكان رؤية حلمين في نوم واحد

وقبل الختام فعندي كلمة لابد من التصريح بها ، وهي أن بعضهم سُئِلَ : هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مرادواحد يتكرران في ليلة واحدة : فأجاب بأن هذا من الممكن ، بل من المرجح ، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله ، فإذا كان هذا الشاغل قوياً تكرر حدوثه بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصر وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة ، قلنا إنه واقع وثابت ، هذه هي كلمتي الختامية والسلام عليكم . (مرحى)

جهل الملأ بتأويل احلامهم وجوابهم

آية (٤٤) — ﴿ قالوا : أضغاثُ أحلامٍ ، وما نحنُ بتأويلِ الاحلامِ بعالمينَ

افتتحت الجلسة وتليت الاية الرابعة والأربعون فقام الشيخ أسعد الحوراني (١) وقال :

(قالوا) أي الملأ بلسان الجهل أو المكر (أضغاث أحلام) أي تخاليطها

(١) نسبة الى منطقة حوران من بلاد الشام (سورية)

وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ماجمع من أخلاط النبات وحُزَم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة بمعنى مِنْ ، أي أضغاث من أحلام ، فان قلت : لم قالوا أضغاث أحلام بصيغة الجمع ؟ هو جمع ، لأنهما حلمان ، فالسبع بقرات حلم ، والسبع سنابل حلم بعده ، إنما كلاهما في ليلة واحدة ، وقد قيل أقل الجمع اثنان ، (وما نحن بتأويل الأحلام). أي المنامات الباطلة (بعالمين) فليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل انما هو للمنامات الصحيحة ، ويحتمل أن المعنى : هي أضغاث أحلام ومع ذلك فلسنا في تأويل. الأحلام الصحيحة بنحارير ، وههنا يظهر الفرق بين العالم والجاهل .

(قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الحق الاخصائي في علم النفس :

طعن الملأ في رؤيا الملك على اعتبار انها غير صحيحة

سبق أن الملك الريان دعى « الملأ » الذين عنده في البلاط وقد حسن فيهم ظنه واستفتاهم في أمر حلميه ، وهم كانوا في اثناء استفتاء الملك جالسين جلوس الاصنام. وقد جمد الدم في عروقهم ، لأنهم رأوا أن جهلهم لا يساعدهم على تأويل رؤياه ، فلذلك أجابوه وقد علاهم الاصفرار والخجل واكتنفتهم ظلمة الجهالة : أيها الملك ، علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ، إن هذه الرؤيا التي رأيت ، لا يعول عليها في تصاريف الايام بل هي تخاليط أحلام وأباطيلها ، اقتضتها هواجس الملك وشكوكه ؛ أو هي منامات باطلة ليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة .

فترى أنهم طعنوا في الرؤيا بأنها غير صحيحة، وليست رؤيا رحمانية، بل هي حُلُم من الاحلام الشيطانية التي لاتستحق النظر، أرادوا أنهم وان يكن عندهم علم بتأويل الرؤى، لكن هذه الرؤيا إنما هي حُلم شيطاني ليس له تأويل مطلقاً، لاعندهم ولا عند سواهم.

جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة

وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون معنى الأحلام في قولهم: (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) الرؤى المنامية الصحيحة، كانوا يقولون: ومع ذلك فلسنا هناك، فاننا غير أهل لتأويل الرؤى المنامية مطلقاً، حتى على فرض انها صحيحة صادقة، فقد نصدق إن قلنا: «خير أرأيت»، وقد نصدق إن قلنا «عكس ذلك، لاسمح الله»، فنحن لانعلم إلا أننا لا نعلم، وان من العلم أن نقول: «لا نعلم، بل الله أعلم». وعلى هذا فيكونون قد اعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في تأويل الاحلام بنحارير، ويكون كلامهم هذا اعترافاً بالجهل أو العجز، وانسحاباً من ميدان القدرة على التعبير مطلقاً، واعلاناً لا فلاسهم من العلم والمعرفة، وبهذا يكونون قد استراحوا من حيث تعب الكرام، كما أنهم بهذا قطعوا آخر خيط كان في نفس الملك من خيوط الرجاء بوقوفه على تأويل رؤياه بواسطتهم، وهذا الاحتمال الثاني قوي جداً، وقول الملك لهم أولا: (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في اعتقاده عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج الاستفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أو غير عالمين، وقول الفتى الذي نجا ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ... الخ الآية ﴾ دليل أيضاً على ذلك.

ولنا هنا خمس فوائد :

كذب الملأ وصدقهم في جوابهم للملك

الفائدة الاولى — نرى أن هؤلاء « الملأ » قد كذبوا في جوابهم للملك وصدقوا أما كذبوا ، ففي قولهم : « أضغاث أحلام »، فان هذه الرؤيا ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، بل هي من الرؤى المعتبرة ، وأما صدقوا ، ففي قولهم : ﴿ ومانحن ... الخ الآية ﴾ الذي حاصله الاعتراف منهم بالجهل .

جواب الملأ للملك يدل على جهلهم تعبير الرؤى

الفائدة الثانية — يوجد في هذه الآية نكتة ، وهي أن هؤلاء « الملأ » جمعوا في جوابهم بين قولهم ﴿أضغاث أحلام﴾ وقولهم ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ ذهاباً منهم الى إرادة عدم الجواب على كل حال ، فهم يقولون : هذه الرؤيا لاتخلو من أحد أمرين ، فان كانت أضغاث أحلام فيما نظن ، فليس لها عندنا ولا عند غيرنا تعبير ، وإن كانت من قبيل الحُلم الذي له تأويل فلسنا هناك ، لأننا لسنا من العلماء بتفاسير الأحلام ولو صحيحة ، فعلى كل حال لا تكلفنا أيها الملك بتعبير هذه الرؤيا.

معنى الضغث

الفائدة الثالثة — الضغث من العمل ما كان مختلطاً غير خالص ، فهو فِعْلٌ بمعنى مفعول ، كالذِبح والحِمل ، من ضغث الحديث إذا خلط ، وأتانا ضَغِيثَةٌ من ناس : أي جماعة ملتبسة ، داخل بعضها في بعض ، ومنه قولهم للحُزمة من كلأٍ أو غيره « ضِغْث » والأحلام الملتبسة « أضغاث ».

طاف عمر رضي الله عنه بالبيت فقال : ﴿ اللّهُم إن كنت كتبت عليّ إثماً أو ضِغثاً فامحه عني ، فانك تمحو ماتشاء وعندك أم الكتاب ﴾ ، وفي حديث أبي

هريرة رضي الله عنه أنه أردف غلامه خلفه ، فقيل له : ﴿ لو أنزلته فيسعى خلفك فقال : لأنْ يسير معي ضِغثان من نار ، يحرقان مني ما أحرقا ،أحب إليّ من أن يسعى غلامي خلفي ﴾ ، (الفائق) .

وقد جاء هنا « أضغاث أحلام » بصفة الجمع والمقصود ضغثا أحلام ، لأنهما ضغثان اثنان فقط ، ولكن من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما تقول عند ذكر الحسنين : « كرّم اللهُ وجوههما » ، وكما قال عز وجل: ﴿ إن تتوبا إلى اللهِ .. فقد صغَتْ قلوبُكما ، وإنّ تظاهرا عليه .. فإنّ اللهَ هوَ مَوْلاهُ . الخ الآية ﴾ (٦٦:٤) ولم يقل « قلبا كما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ والسارقُ والسارقة ُ فاقْطعُوا أيْديهما ﴾ (٥:٣٩) ، فلم يقل «يديهما» فقه اللغة.

الحِلْمُ والحُلُم

الفائدة الرابعة – « الأحلام » جمع حُلْمٌ بالضم بمعنى الرؤيا المنامية وهو من الباب الأول ، مثل حكم يحكم حكماً ، واسم الفاعل منه حالم ، ويقال : حَلمُ يَحْلُمُ كحَسُنَ يَحْسُنُ من الباب الخامس ومصدره الحِلم بالكسر ؛ ومعناه صفح وستر وتأنى وتروى وتعقل ، واسم الفاعل منه حليم ، وجمع الحِلْم بمعنى العقل حلوم وأحلام أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ أمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ؟ ﴾ (٥٢:٣٢) وقال حسان :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر   جسم البغال وأحلام العصافير

احتمال تجاهل الملأ تعبير رؤيا الملك وسببه

الفائدة الخامسة – كل ماتقدم من أن هؤلاء « الملأ » جهلوا تأويل حلم الملك جهلاً حقيقياً ، لاتجاهلاً صنعياً ، هو ماذهب اليه جميع مفسري القرآن الكريم ، ومفسري التوراة ، وهو حسن ؛ وعندي أنه يجوز أيضاً أن يكونوا غير جاهلي

تأويل هذه الرؤيا ، ولكنهم تجاهلوه ، تذكروا ماانطوت عليه الصدور ، وانحنت فوقه الضلوع ، من الحقد القديم ، والضغينة السياسية ، بين القبط الوطنيين ، الذين منهم هؤلاء « الملأ » ، وبين أمة الهكسوس الذين منهم هذا الملك ، ولا بدع في كون الوطنيين كانوا يعدون الهكسوس غريبين عنهم ، مغتصبين لبلادهم ، مع حلولهم بمصر نحو مدة (٥٠٠) سنة ، فهذه بلدة سلانيك ، ظلت في قبضة الترك (٤٨٢) عاماً ، ومافتيء أهلها يعدون الأتراك أجانب ومغتصبين ، وترام عند كل فرصة كانوا يثورون على دولة « آل عثمان » حتى سلمت اليهم .

وغني عن البيان ان تأويل هذه الرؤيا بسيط وبسيط جداً ، ولكن هؤلاء « الملأ » لايريدون أن يبينوا التأويل لهـذا الملك الغريب المغتصب ، ولم يكونوا يريدون نصحه والاخلاص له ، لمكان الاختلاف بينه وبينهم في اللغة والعنصر والوطن والدين ، فلغتهم وجرثومتهم قبطية ، ولكن الملك الريان ساميّ في لغته وجرثومته ، وأما وطنهم فافريقية وهو من آسية ، وأما معبوداتهم فهي قطعاً غير معبوداته ، وإن كان كل من الفريقين وثنياً .

فهل بعد هذه المخالفات يمكن أن يخلصوا لهذا الملك ، أو لأيّ واحد من سلالته ، أولأي سلالة من سلالات الهكسوس الثلاث ؟ — حاشا —

وعندي أنه بهذا الفهم ينحل إشكال ، صورته مايلي:

كيف ان « الملأ » الذي يجمع بين السحرة والحاذة والمنجمين والمفكرين والمعبرين لم يجيبوا عن سوآل الملك ، مع بساطة الجواب لا سيا على المصريين.

فاذا صح هذا يكون المعنى هكذا : سألهم الملك الريان عن رؤياه،فتفاوضوا فيما بينهم: ﴿ إن هذا الملك العماليقي الغريب المغتصب قد استبد هو وأجداده بمقدرات الشعب المصري ، والآن (يستفاد من رؤياه) ، سيحدث بمصر حوادث هامة حيوية اقتصادية ، ربما أوجبت اضطراباً في مملكته وأنهكت قواه وزلزلت أقدام هؤلاء

الغرباء ، وعليه فالأوفق أن لا تنصح له ، ولا نجيبه على سوآله لئلا يستدرك ويلطف هـذه الحادثة التي ستحدث ، ولذلك قالوا له بأفواههم فقط دون قلوبهم ، لأنهم لا يعتقدون مايلفظون : (أضغاث أحلام) تجاهلاً منهم ، والا فهم أهل لتعبير هـذه الرؤيا وغيرها ، وأما قول الملك لهم : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) فليس هو من قبيل الشك في مقدرتهم ، ولكنه من قبيل الحث والتحضير لكي يؤولوا هـذه الرؤيا بجد وسرعة ، أو لكون الملك هو قد استصعبها في نفسه ، وإن لم تكن صعبة عليهم في الواقع ، هذا ما نذكره على سبيل الاحتمال ، والله تعالى أعلم .

وقبل الختام ، فلا ندحة لنا من أن نقول : جل الله القدير ، إن هؤلاء الملأ ، أطبقوا وتمالئوا على ماقالوا ، جهلاً منهم بمراحي الرؤى النامية أو كراهة منهم للملك ، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان كان قال في حادثة : (إن لله جنداً من العسل) ، فنحن هنا نقول : (إن ليوسف جنداً من جهل هؤلاء الملأ أو مكرهم بالملك) لأن يوسف انتفع بذلك ، ولو لا جهلهم أو تجاهلهم ، لم يحتج اليه في تفسير رؤيا الملك ، فكان يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته ، ولكن هكذا أراد الاله القدير ، ولله تعالى في خلقه شؤون . مرحي

وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين

أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب اليه ليؤول له حلمي الملك :

آ (٤٥) ﴿ وقالَ الذي نجا منهما ، وادّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : أنا أُنَبِّئُكُم بتأويله ، فأرسِلونِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والاربعون فقام الجان عبدالسلام التركماني وقال :

سمع الملك الريان جواب (الملأ) فقال : سبحان الله ، ما هـذه الحادثة التي

هي أعقد من ذنب الضب ، وإن أعجب ، فعجب أنكم تقولون عنها انها أضغاث أحلام ، ثم تقولون ما أنتم بتأويل الأحلام بعالمين (و) عند ذلك (قال) الفتى ، رئيس السقاة (الذى) كان في السجن مع يوسف ثم (نجا منها) من الفتيين من القتل (وادّكر) تذكر يوسف وما شاهدَ منه ، ولكن مع الأسف انما كان تذكره (بعد أمة) بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين حكى الملك الريان رؤياه واستفتى فيها الملأ ، وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه رئيس الخبازين ، كما تذكر أيضاً طلب يوسف اليه أن يذكره عند الملك ، قال : (أنا أنبئكم) أخبركم (بتأويله) بواسطة من عنده علمه وهو الفتى العبراني خادم فوطيفار رهين السجن (فأرسلون) أي فابعثوني اليه لأسأله ومروني باستعباره .

(وقال الذي نجا منها . . . الخ)

— ١ —

ثم قام الحاج عبد القهار الألباني [1] والقى المقال التالى :

تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب اليه ليستعبره حلمي الملك

سمع رئيس السقاة (نبو) سوآل الملك الريان وجواب (الملأ) السلبي ، فصار يضحك في قلبه على جهلهم ، ويقول بينه وبين نفسه : (إن هؤلاء الملأ ، هؤلاء العلماء الرسميين ، لهم أضعف من أن يقدروا أن يعبروا رؤيا الملك) ، ثم ماعتم أن تذكر يوسف العبراني ، فقام ووقف أمام الملك وركع بين يديه وكفّر وقال : (أيها الملك المعظم ، ماهؤلاء وذاك ؟ . اعط القوس باريها ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) .

---

(١) نسبة الى بلاد الالبان الكائنة بين اليونان وايطاليا .

(أنا) بصفتي كوسيط (أنبئكم بتأويله) بكل تدقيق وتفصيل ، على أهون سبيل ، فان في معتقل الخاصة كهلاً فاضلاً صالحاً ، كثير العلم كثير الطاعة ، كنت معتقلاً معه أنا ورئيس الخبازين (مجلث)(١) ، وكان كلانا رأى حلماً ، فقص كل منا حلمه على هذا الانسان ، فذكر لنا تأويلهما باسرع من لمح البصر ، وليس هذا هو العجيب ، بل العجيب أنه صدق في تأويل كليهما ، وما أخطأ في حرف واحد فان رأى جلالة ربي الملك أن يبعثني إلى سجن الخاصة ، ويصحبني بمن يسمع ويعي معي مايقوله ذلك السجين فعلت ورجعت بالجواب الوافي الذي يبرد الغلة ، ويشفي من العلة .

وهكذا هتف الشرابي بمدح يوسف وأفاض فيه ، حتى ألبسه ثوباً فضفاضاً من الاعجاب والتقدير ، وكانت تلوح على فمه آيات الصدق والاخلاص ، فلذلك قال له الملك : (ليكن كما تحب ، وليذهب معك من أردت ، دونك ما بدا لك) فسار في كوكبة من رجاله الى يوسف السجين .

وهنا ملحوظات أربع :

ثمرة الاحسان

الملحوظة الأولى — نتعلم من هـــذه الآية أنه مادل مليك مصر على يوسف الصديق ، وعرّفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) ، لما سبق أنه سمع منه الحكمة والفوائد الجليلة ، مع ما عهده إليه يوسف من ذكره الميكه ، فأثمر عنده الاحسان ووفى بالوعد ، وإن كان بعد طول العهد .

الحكمة من صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك

الملحوظة الثانية — لقد صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك ، وجمّد أفكارهم

(١) وفي رواية يسمى « ملحب » .

عن فهمها ، وألجم ألسنتهم عن بيانها ، حتى يسمع « الساقي » فيطير بها ليوسف ويقضى الله أمراً كان مفعولا .

التدابير الالهية وجهل الملأ

الملحوظة الثالثة — ياللبلاهة والسذاجة ! ألهذه الدركة يكون الجهل في هؤلاء الملأ ؟.. أين علماء « صوعن » ؟.. أين سحرة « تانيس » ؟.. أين حكماء «الوجه البحري» ؟ أين فلاسفة «الوجه القبلي» ؟.. أين حازّة «المديرية الشرقية»؟.. أين عافة « بوبسطة » ؟.. أفلا يوجد واحد على الأقل في هؤلاء يقدر أن يعبر حلمي الملك ؟.. لكن هي التقادير والتدابير الالهيـة صرفت هؤلاء عما هو بسيط ، وجعلتهم يجهلون ماهو غاية في السهولة ، حتى يحتاج الريان لمراجعـة ذلك السجين العبراني ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

الفتى الناجي يتحدى الملأ

الملحوظة الرابعة — رأى « رئيس السقاة » أن هؤلاء « الملأ » حوّلوا رؤيا الملك عن جهة كونها رؤيا معتبرة قيمة تستحق التعبير — الى جهة كونها حلمـاً ليس له قيمة ، وليس له اعتبار ولا تعبير ، بل هو تخاليط وخيالات ، ثم رآهم أيضاً يتنصلون من معرفة التعبير مطلقاً — فلذلك قال : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون).

استعبار رؤيا الملك من يوسف

آ(٤٦) ﴿... يوسفُ ، أيها الصِّدِّيقُ ، أَفْتِنَا في سَبْعِ بقراتٍ سِمانٍ ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ ، لَعَلِّي أَرجِعُ الى الناسِ لَعَلَّهُم يَعْلَمونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والاربعون فقام مولانا احمد حسن الهندي الكلكتي(١) وقال :

وافق الملك وحاشيته على إرسال « رئيس السقاة » الى يوسف ، ولما أتاه ، قال له : يا(يوسف أيها الصديق) البليغ في الصدق ، لقد تعودنا أن نسمع حديثك اللذ وفتواك الصحيحة ، التي ذقت أحوالها وتعرفت صدقها في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي ، حيث قد جاءت كما أولت لنا ، فنرجوك الآن (أفتنا في سبع بقرات ..الخ) وان أمكنك أن تكون الفتيا في هذه الجلسة فذاك هو المطلوب ، حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة ... (لعلّي أرجع الى الناس) وهم الملك وحاشيته (لعلهم يعلمون) التأويل أو يعلمون فضلك ومكانتك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان .. الخ)

— ١

وقال السيد محسن السامرائي(٢) :

الفتى الناجي يقابل يوسف ويعتذر ويستعبره رؤيا الملك

قام رئيس السقاة يعدو في ذهابه ، حتى لتراه يكاد يخرج من إهابه ، ودهب

(١) نسبة الى كلكتا احدى مدن الهند . (٢) نسبة الى سامراء بلدة في العراق .

الى سجن يوسف ودخل عليه قائلاً :

« يوسف » قبل كل شيء أطلب إليك الصفح ، فقد كنت أدنبت حيالك ، لأنني أُنسيت أن أذكرك لربي ، وما أنسانيك إلا الشيطان أن أذكرك ، (أيها الصديق) لله أبوك ، لك الله من رجل صدق ، رجل حذق ودكاء ، لك الله من رجل جمع الى الاحسان في عمله ، الصدق في رأيه وقوله ، أريد أن أجتديك ، وأعتني فضلك ، فقد أتيت لك بمهمة ذات بال : أفتنا وأزِ ظلمة نفوسنا ، وبين لنا المرمى في رؤيا سبع بقرات سمان اللحم وحسنة الصورة ، طلعت من النهر فأرتعت في روضة فأكلتهن سبع بقرات مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، طلعت البقرات الرقيقة القبيحة من النهر وراء تلك السبع الأولى فأكلتها ودخلت أجوافها ، ولم يُعلم أنها دخلت أجوافها.

ثم أفتنا في رؤيا ثانية أيضاً ، رؤيت بعد الأولى في ليلة واحدة وهي سبع سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، وسبع سنابل أُخر يابسات ورقيقات نابتة وراء تلك ، ملفوحة بالريح الشرقية الجنوبية، المعروفة بريح الخمسين تأتي لمصر من صحارى بلاد العرب اليابسة ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة ؛ هذا هو الحلم الذي استعجم علينا مآله ، والتبك تفسيره ، فأمدني من فضلك وخلاك كتمان العلم ،لأني سأرجع الى الملك « الريان بن الوليد » و«الملأ» الذين من حوله ، فأطلعهم على علمك وفضلك ، فتصير بالطبع تحت الطلب ، وأنا لا أكلفك بتوقيع الجواب عن سؤالي اعتباطاً ، بل لداع هام منحصر في دائرة وهي علم الملك وحاشيته بتأويلك ، فعلمهم بفضلك ، فخروجك من السجن ، فهذه الفتوى ليست مجانية ، بل مأجورة ، وأجرتها ما قد علمت ، فقد عودتنا الاحسان منذ القديم ، فجدد بفتواك اليوم سالف إحسانك ، وألحق النعمة

الأخيرة بأولها ، وأنت تعلم أن (الساكت بين النائم والاخرس) فنرجوك الجواب، ولك من الله الثواب .

فلما سمع يوسف ذلك رأى وهو في ظلمات السجن ، دنو سلامته يشرق عليه كالقبس في الديجور ، وتفاءل من مجيء رئيس السقاة خيراً وفرجاً قريباً .

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات .. الخ)

— ٢ —

وقال مولاي عبد الحفيظ التونسي :

سوف أقتصر كلامي على هذه الآية بالملحوظات التالية :

الشرابي ينبه يوسف الى سابق صحبته له بدعوته اياه باسمه ولقبه

الملحوظة الاولى — نجد أن « الشرابي » قد بدأ يوسف بذكر اسمه ولقبه ، لينبهه الى صحبته له سابقاً ، ومعرفته به وحاله ، وليلفت فكره الى ما كان سبق من عبارته رؤياه ، وصدقه فيها .

كرم اخلاق يوسف بعدم معاتبته الشرابي لعدم قيامه بما طلبه منه

الملحوظة الثانية — كان « الشرابي » يتوقع أن يوسف سيذكره عما كان رغب اليه فيه ، ويعاتبه على عدم قيامه به ، ولكن يوسف عليه السلام لم يفعل ، إما ترفعاً عنه ، أو كرم أخلاق منه .

القاب يوسف

الملحوظة الثالثة — لقبه « بالصديق » لأنه كان جربه في عبارة حلمه وحلم رئيس الخبازين ، فوجده صادقاً وصادقاً ، ولقد حفظ له التاريخ هذا اللقب ، واعتبره منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، فكلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي تأتي دائماً بعد كلمة (يوسف) ، عندما يراد ذكره ، أو ترجمة حياته الشريفة ،

وفي صدد تلقيبه (بالصديق) نرى إخوته لقبوه (بالعزيز) حيث قالوا له ، لما دخلوا عليه في السفرة الثالثة (يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر . . الخ) (آية ٨٨) ولا بد أن يكون هذا . قد صار لقباً رسمياً له من حين أن جعل في الحكومة المصرية ثاني الملك ، كما كان قبله (فوطيفار) ، ثم هو بجعله على خزائن الأرض طبعاً قد صار (ناظر مالية عاماً) ،ونرى في بعض كتب التاريخ القديم أن ملك مصر وجّه له لقب (صفنات فعنيح) حينما رآه قد أحيا أهل مصر ، وخلصهم من عذاب الجوع ، لأن هاتين الكلمتين مصريتان ، معناهما على ماقاله (القانون كوك) : (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) ،وفسرها آخر (بمخلص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط ، فهذا هو رابع الألقاب ، ونرى ليوسف عليه السلام في القرآن الكريم لقباً خامساً ، وهو (رسول) ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جاءَكُم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبَيِّنَاتِ ، فما زِلْتُمْ في شكٍ مِمّا جاءَكُم به،حتى إذا هَلَكَ ،قلتُم : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ومما يستحق الالتفات أن هذه الالقاب الخمسة كانت مؤسسة على أعمال صدرت منه استحقها بحق ، بدون سعي منه ، أو توسط بمن يلزم ، أو دفع رشوة لأولياء الأمر أو ابتياع الاسماء والألقاب والرتب كما يفعل كثيرون من المتمجدين من أهل اليوم ! ! . .

اخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف

الملحوظة الرابعة — مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا ، وتتميماً لهذا التستر ، تجده ذيل استفتاءه بقوله (لعلي أرجع إلى الناس ، لعلهم يعلمون) عبر بهذا بدلاً من أن يقول : (أفتنا في

رؤيا رآها الملك وهي كيت وكيت ، ثم يذيل سؤاله بأن يقول : لعلي أرجع إلى الملك لعله يعلم) ، فما هي النكتة يا ترى في ذلك ؟ . . وعندنا أن الداعي لذلك هو أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن ووقوفه أمام الملك ، مشترطاً ذلك ، توصلاً لخروجه من معتقله فلما ظن ذلك ، وهو حريص على تأويل الحلم ، وحريص أيضاً أن يسمع الملك تأويل حلمه ليس من فم يوسف ، بل من فمه ، لينال حظوة عند الملك بذلك ، فلهذا ستر الحالم ستراً ، ودحى تفصيل الواقعة دحراً .

معنى الإفتاء

الملحوظة الخامسة ـــ أفتاه في الأمر : أبانه له ، وأخوات هذه المادة تشير للكشف والظهور ، وذلك مثل فتّ ، فجّ ، فرّ ، فضّ ، فتق ، فتك ، فتن ، فكل ذلك يرمي لمعنى البيان والوضوح والكشف ، وبعد لم يقل كما قال هو و (الخباز) أولاً (نبئنا) لما عاين من سمو رتبة يوسف ، وجرب من علو فضله سابقاً ، لأن هذه المادة تشعر بذلك ، فان (الفتى) يطلق على السخي الكريم ، (والفتوة) هي الكرم .

معنى الصديق

الملحوظة السادسة ـــ الصديق : من غلب عليه الصدق وعرف به كالسكير لمن غلب عليه السكر ، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق ، كما هنا ، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق ، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكمال الايمان بهم ، وذلك كما في لقب « الصديق » لأبي بكر رضي الله عنه ، ومن اطلاق « الصديق » بالمعنى الأول ، قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ (١٩:٤١) . وقوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب

إدريس ، إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نبياً ﴾(١٩:٥٦) ومن قبيل إطلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وأمُّهُ صِدِّيقةٌ ﴾ (٥:٧٨) بدليل : ﴿ وصَدَّقَتْ بكلمات ربِّها و كُتُبِهِ ﴾ (٦٦:١٢)

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسل كما قال تعالى : ﴿والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشهداءُ عند ربِّهم،لهم أجرُهم ونورُهم﴾ (٥٧:١٩) فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة « صديق » اطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم ويوسف ، بمعنى ، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسل بمعنى آخر .

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى ، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية ، ولقب من ألقاب أربعة سماوية ،وهي نبيّ ، صديق ، شهيد ، وصالح ، وهؤلاء الأربعة هم المنعم عليهم في قوله تعالى : ﴿ صِراطَ الذينَ أنعَمتَ عليهم ﴾(١:٦) والدليل على ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطعِ اللهَ ورسُوله فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النَّبيينَ والصِّديقينَ والشُهداء والصالحينَ ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ؟﴾(٤:٦٨) .

وجوب التزام الادب عند مخاطبة النبي (ص)

الملحوظة السابعة — قال علماؤنا : يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه، أخذاً من قوله تعالى :﴿ لا تجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً ﴾ (٢٤:٦٣) ، فلا يجوز أن يخاطب بيامحمد أو ياأحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما مما فيه احترام له عليه السلام ، ولو قيل : يامحمد خاتم النبيين مثلاً ، جاز ، لأنه وإن يكن نداء باسمه ، لكنه قد أتبع بلقب احترام .

ولقد التزم « الشرابيّ » الآن هذا الأدب مع يوسف عليه السلام حيث اتبع لفظ العلم بلفظ اللقب .

قوله لعلهم يعلمون بدل اشتمال من قوله لعلي ارجع الى الناس

الملحوظة الثامنة — ربما كان قوله ﴿لعلهم يعلمون﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿لعلي أرجع الى الناس﴾، والله أعلم.

الإيجاز في القرآن

الملحوظة التاسعة — يوجد بين قوله: ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ وقوله: ﴿يوسف، أيها الصديق .. الخ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود، والمعنى:

أنا أنبئكم بتأويله، فاني أتذكر اليوم ان حضرة الملك لما سخط عليَّ وعلى «الخباز» وحبسنا، رأى كل منا حلماً، وكان في الحبس غلام عبراني، عبد «لعزيز مصر» فقصصنا عليه ما رأينا فعبره لنا، وكما عبر حدث، إذ ردني الملك الى مقامي، وأما «الخباز» فقتل، فلا أعلم أحداً أصدق منه عبارة للمرائي، فارسلوني اليه لأستعبره، فأرسل إلى يوسف، فأتاه فقال له: «يوسف أيها الصديق الخ»، ولهذا نظائر في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، لاتحصى كثرة، وهي في القرآن نحو الـ ٥٠٠ أو تزيد، واليك بعض الأمثلة.

١— قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (٢: ٣٤ و٣٥).

٢— قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه: ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم، إنه هو التواب الرحيم﴾ (٢: ٥٤)، والمعنى ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم.

٣— قوله تعالى. ﴿وإذ استسقى موسى لقومه، فقلنا: اضرب بعصاك

الحَجَر ... فانفجرتْ منه اثنتا عَشْرةَ عيناً ﴾(٢:٦٠)والمعنى فضرب فانفجرت.

٤ــقوله تعالى : ﴿ ياأيها الناسُ ، قد جاءَكم بُرهانٌ مِنْ ربِّكم ، وأنزَلنا اليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا باللهِ واعتَصموا به ، فسَيُدخلهم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ، ويهديهمْ اليه صِراطاً مُستقيماً .... ﴾ (٤:١٧٣و١٧٤) والمعنى وأما الذين كفروا بالله واعتصموا بالطاغوت ، فسيدخلهم في نقمة منه وغضب ، ويسلك بهم الصراط الأعوج .

٥ــقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لكم .... أنْ تَضلُّوا ﴾ (٤:١٧٥) ومعناه كراهة أن تضلوا .

٦ ــ قوله تعالى: ﴿ لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغوِ في أيمانِكم،ولكنْ يُؤاخِذُكمْ بما عَقَّدتُم الأيمانَ . . . فكَفَّارَتُهُ . . الخ ﴾ (٥ : ٩٢) ، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان اذا حنثتم ، فكفارته الخ .

٧ ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ افتَرَيْتُهُ ، فعلَيَّ إجْرامي . . . وأنا بَريءٌ مِمَّا تُجرِمُونَ ﴾ (١١ : ٣٥) يعني ولم يثبت ذلك ، وأنا برىء من إجرامكم في اسناد الافتراء اليّ .

٨ ــ قوله تعالى : ﴿ فلمَّا ذهبوا به وأجْمَعُوا أنْ يَجْعَلوه فى غَيَابةِ الجُبّْ . . ﴾ (آية ١٥) ، جواب « لمَّا » محذوف ، ومعناه فعلوا به مافعلوا من الأذى .

٩ ــ قوله تعالى : ﴿ واللهُ المُستَعانُ على ماتَصِفُونَ . . . وجاءَتْ سيارة الخ ﴾ (آية ١٨ و ١٩) ، فهنا كلام محذوف تقديره ، وبعد أن ذهب أباء الأسباط لأبيهم ، ونعوا له أخاهم ، وقال أبوهم ماقال ، ومضى مدة من الزمن ويوسف في الجب « جاءت سيارة الخ » .

١٠ ــ قوله تعالى : ﴿ فأرسلوا وارِدَهُم . . . فأدْلى دَلْوَهُ . . . قال يابُشرى هذا غلام ﴾ (آية ١٩) ، والمعنى أرسلوا واردهم ، فذهب حتى وصل الجب ، فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالرشاء ، فلما خرج إذا هو بفتى أحسن مايكون ، فقال يابشرى الخ .

ويوجد في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا القبيل الذي لو تتبعناه لخرجنا عن الصدد وفيما ذكرنا كفاية للمستبصرين .

تأويل يوسف لرؤيا الملك

آية (٤٧) « قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ، فَمَا حَصَدْتُم فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُون » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والأربعون فقام السيد صدر الدين الدمشقي وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الشرابي : أريد أن آتيك بالتعبير على وجهه (تزرعون) أي ازرعوا جميع أراضيكم (سبع سنين دأباً) ــ بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدرا دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين إما على تدأبون دأباً ، وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى ذوي دأب فتأتي بزرع أخصب زرع وبربيع أحسن ربيع حتى أن قطعان الغنم تختفي عن الأبصار بين أعشاب الربيع وحتى أن الجاموسة بطولها تحتجب في المراعي بين الأعشاب ذلك لعظمة قوة الانبات وجودة التربة وكثرة الإبليز في تلك السنين (فما حصدتم فذروه) اتركوه وأبقوه (في سنبله) لئلا يتسوس (الا قليلا مما تأكلون) ، فهذا لا بأس أن تدرسوه وتذروه وتخرجون

حبه وتميزوه من تبنه تهيئونه لأجل أكلكم وقوتكم ، وبما أن هذه المسألة مسألة أساسية ، حيوية ، ينبغي لكم أن تعتنوا بها ولا تخالفوا ماقلت لكم .

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

— ١ —

ثم ألقى العلامة الديري[1] البيان التالي :

تعبير يوسف لرؤيا الملك يبسط التدبير اللازم

جاء الشرابي بمن معه من الجند ، وقص على يوسف تلك الرؤية ، فلما سمع منه يوسف ذلك ، لم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، حتى أمعن في بيانه وجوابه وقال : على الخبير سقطت ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن هاتين الرؤيين ستحدثان تبدلات خطيرة في الموقف الحاضر ، اذ السماء نظمت برنامجاً جوياً أرضياً وسوف تطبقه عليكم ، ولا مفر من ذلك ولا محيص غيرأنه يمكن تخفيف وطأة مواد هذا البرنامج السماوي ، فاذا كان قدراً قابلناه بقــــدر مثله ، وهو العمل على تلطيفه ما أمكن ،ولذلك أقول لكم تأتي على مصرأولاً سبع سنوات هي سنو" جدبوقحط هي موت زعاف ، تفعل في الناس ولا فعل الحروب والأوبئة ، إلا إذا تُدُورِك هذا الخطب الجلل ، وتُلُطِّفَ هذا البلاءالعظيم ، بحسن التدبير والحكمــــة ، والاقتصاد القويم ، فهذهطريقتي تضمن لكم الفوز ، وتؤمنكم من الخطر الذي يريد أن يحدق بكم فازرعوا كعادتكم سبع سنين دأباً ، عادة مستمرة ، كما كنتم تزرعون سائر السنوات السابقة قبلهــــا ، بدون أن يتخلل تلك السبع سنة واحدة بغير زراعة بأن تتركوا الأرض بوراً مثلاً فما جززتم وقطعتم بالمنجل فذروه في سنبله

---

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام « سورية » .

لئلا يتسوس إلا قليلا ، أي يسيراً ، فانه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه منه لأجل أكله ، الأمر الذي يعوزكم لوجود عامل صاحب همة عالية ، ينشطكم للأعمال الزراعية و تعميمها وتقوية أصحاب الأراضي وتفهيمهم مايلزم عمله .

سرعة اجابة يوسف بتعبير رؤيا الملك دون قيد ولا شرط

وتابع العلامة الديوي قوله : إن لي على ماسبق ذكره ملحوظة واحدة وهي أن يوسف (ع) أجابهم على الفور ، ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك ، لأنه كريم ، وشأن الكريم عدم الابطاء والاخلاص في الاعطاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه) ، وعن علي كرم الله وجهه : (ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا) ، وقال المسيح عليه السلام للحواريين : (مجاناً أخذتم ، مجاناً اعطوا) وبعبارة أخرى : إنما أفتاه يوسف مع إنه كان عهد إليه بتوسطه له عند مليك مصر ولم يفعل ، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين ، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً ؛ لأن النصيحة من الايمان ، وكاتم العلم ملعون ، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد فقط وهو « فوطيفار » ، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو أيضاً واحد ، وهو « الشرابي » ، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير ، بذنب رجل أورجلين .؟ (مرحى)

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

— ٢

ثم قام المحقق الانطاكي [1] وقال ليسمح لي السادة الافاضل بالتحقيقات

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام « سورية » .

التالية لشأن سياسة يوسف في مجاعة مصر وفي بعض الالفاظ التي وردت في هذه الآية الكريمة :

تدبير يوسف الاقتصادي لاهل مصر

١ً — وضع يوسف هذا التدبير الاقتصادي لأهل مصر ، في ذلك العصر لقلة طرق المواصلات ، وضعف وسائط النقل البرية والبحرية ، إذ لم يكن أمن مستتب بين مملكة وأخرى ، كما لم يكن هناك سفن بخارية في البحر ولا سكك حديدية في البر ، فلذلك كان إذا حصل قحط في جهة من الجهات أثر عليها تأثيراً كبيراً ، أما لو كانت الحال على ما نحن عليه اليوم من اتصال الممالك بعضها ببعض ، وتسهيل طرق التجارة براً وبحراً وجواً وتيسير أسباب النقل بسرعة ، لما كان لذلك القحط تأثير يذكر .

ملكية الحاصلات في مصر

٢ً — تنص هذه الآية أن يوسف أمرهم بادخار جميع الحاصلات في سبع سنيّ الخصب في سنابلها ، والظاهر أن هذه الحاصلات هي ملك لأربابها الأهالي ، وأما الحكومة فلا سيطرة لها عليها إلا بأن أجبرتهم على هذه الطريقة أو شوقتهم اليها وحببتهم فيها ، هــــذا ماتتعلمه من كلام الله تعالى ، وللمفسرين ههنا نقول في كيفية خزن الحكومة لهذه الحاصلات ، ثم بيعها للاهالي بالفضة حتى نفدت ، ثم بالمواشي والخيل والحمير حتى نفدت ، ثم بيعت لهم بأرضهم وأنفسهم بأن صارت الأرض ملكاً للحكومة ، وصاروا هم عبيداً للحكومة ، فكتاب الله تعالى لايشير لشيء من هذا ، بل ظاهره ينافي ذلك ، وإنما هو شيء نقلوه من (تك ص ٤١ : ٣٤ — ٣٧ و ص ٤٧ : ١٣ — ٢٦) ونحن إذا تعارض كتاب الله مع سواه من التواريخ يجب علينا الرجوع لكتاب الله فقط ، ورفض مايخالفه ، والله أعلم .

الخبر في معنى الامر والانشاء في قوله (تزرعون)

٣ ـــ قوله (تزرعون) خبر في معنى الأمر والانشاء كقوله : ﴿ تؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ ، وَتجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ ، ذلِكُمْ خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ ، يَغفرْ لكم ذُنوبَكمْ ويُدخلكم جنات . . الخ الآية ﴾ (٦١ : ١١ و ١٢) ، فهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيبه بقوله : (يغفر لكم) ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : (فذروه في سنبله) .

وهذا أسلوب عربي قد جرى عليه القرآن كثيراً ، لو لاحظه المفسرون لما وقعوا في كثير من الآيات في حيص بيص ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَما تُنفِقُونَ إلا ابتغاءَ وجهِ اللهِ ﴾ (٢ : ٢٧٢) وقوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) وقوله تعالى : ﴿ أولئك ما كانَ لهم أنْ يَدخلُوها إلا خائفين ﴾ (٢ : ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ وما كانَ لكم أنْ تُؤذُوا رسولَ اللهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلًا ﴾ (٤ : ١٤٠) وقوله تعالى : ﴿ فإن اعتَزَلوكم فلم يُقاتِلوكم ، وألقَوا إليكم السَّلَمَ ، فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً ﴾ (٤ : ٨٩) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، هل أدُلكُمْ على تجارةٍ تُنجيكم مِنْ عذابٍ أليمٍ ؟ تُؤمِنُونَ باللهِ ورسولِهِ ، وتُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالكم وأنفسكم ﴾ (٦١ : ١١) وقول النبي ﷺ : (لايزال هذا الأمر في قريش ، ما بقي من الناس اثنان) .

ادخار الحنطة

٤ ـــ أشار بقوله (فذروه في سنبله) إلى رأي نافع بحسب طبيعة طعام مصر ونواحيها وحنطتها التي لاتبقى عامين بوجه ، إلا بحيلة إبقائها في السنابل ، فاذا بقيت فيها . حفظت ويكون قصبه علفاً للدواب .

السنين والاعوام

٥ ـــ أراد (بالسنين) السنين الشمسية ، لأن الموضوع موضوع زراعة ، وهي مركبة على السنة الشمسية ، فالمصريون هم أول من عرف بالسنين الشمسية ، لأنهم أول أمة اهتدت إلى معرفة الزراعة ، فلما مارسوها احتاجوا إلى سنة فلكية لاتتغير فيها أوقات الفصول ، فعرفوا السنة الشمسية ، وقد كانت الزراعة ولاتزال هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم ، وكان أهم ما زرعوه الشعير ثم القمح ثم الكتان والذرة ، وبعد ذلك صاروا يعتنون بزراعة القطن .

ثم إن لفظ (السنين) يستعمل لسني الجدب والقحط ، ولفظ الأعوام يستعمل في أعوام الخصب والخير ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاّ خمسينَ عاماً ﴾ (٢٩: ١٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعونَ بالسنين ونقصٍ من الثمراتِ ، لعلهم يَذّكرون ﴾ (٧: ١٣٩) ، ومنه الحديث في صحيح مسلم : ﴿ إذا سافرتم في الخصب ، فاعطوا الابل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم في السنة فاسرعوا عليها السير ﴾ ، وانما لم يعبر يوسف بكلمة « أعوام » هنا ، بل عبر بكلمة « سنين » ، مع ان هذه السنين هي سِنوّ خصب وخير ، لان هذه القاعدة انما يجرى عليها في غير مقام العدد والاحصاء ، أو لأن اللغة العبرانية ، لاتعنى بهذا الفرق الدقيق الذي هو من مزايا اللغة العربية ، أو يقال : إن هذه القاعدة غالبة لا مطردة .

اقسام الاحلام الصحيحة

٦ـ قد علم من تعبير يوسف لحلمي « الملك » وحلمي « الشرابي » و« الخباز » إن الأحلام الصحيحة على ثلاثة أقسام : منها مايَسُرّ حتماً ، نظير حلم رئيس السقاة السابق ، ومنها ما يسوء صاحبه قطعاً ، وليس له رد ولا فيه حيلة ، ومثاله مارآه رئيس الخبازين ، ومنها مالا يدعو الى السرور ، وربما خيف منه إذا لم تستعمل فيه الحكمة ، ويفعل فيه مايلطفه ، مثل حلمي « الملك » المذكورين ، فهو كما قلنا لايدعو الى الفرح والاطمئنان ، ولايرتاح له القلب ، لكن إذا وفق فيه الانسان لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث العام ، تلطفت هذه النازلة ، فما رآه « الملك » هو من قبيل القضاء السماوي الذي يمكن تخفيفه بالألطاف الالهية ، على يد عبيده الحكماء ، أهل البصر والبصيرة ، على حسب ما أشار اليه يوسف عليه السلام .

معنى الدأب

٧ـ أصل الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه واجتهد ، وعليه فمعناه تجدون في هذا الأمر ، وتصرفون فيه عنايتكم ، وتفرغون فيه مجهودكم ، وقد يوضع موضع ماعليه الانسان من شأنه وحاله ، فيكون بمعنى العادة والديدن ، وحينئذ تفيد المادة الدوام والاستمرار ، أي تزرعونه سبع سنين ، على حسب عادتكم وشأنكم وسابق عملكم ، قال تعالى : ﴿ كدأب آل فرعونَ ﴾ (٣:١٣) وقال : ﴿ مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ ﴾ (٤٠=٣١) أي مثل عادتهم الجارية المستمرة الدائمة ، ويجوز أن يكون لفظ « دأبا » هنا ، ظرفاً زمانياً ، بمعنى دائماً لأن « الدائب » هو الدائم والمعنى : دائماً في كل مدة السبع سنين ، كما قال : ﴿ وسخّرَ

لكم الشمسَ والقمرَ دائبَين ﴾ (١٤:٣٣) أي يدأبان في سيرهما ، ويجدان على مدى الأيام .

والحاصل إن لكلمة « دأباً » ثلاثة معان في اللغة : المعنى الأول ، الجدوالتعب ، والمعنى الثاني « السّوق الشديد ؛ والمعنى الثالث ، الشأن والعادة ؛ وهـذا المعنى الثالث هنا ، يرجع للمعنيين الأولين ، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة ، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد .

فالمصريون أول من عُني بالزراعة ، كما ذكره المؤرخون ؛ وبالنتيجة ، فكل واحـــد من المعاني الثلاثة للكلمة « دأباً » يرمي الى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع ، وهذا أمر لازم وضروري جـــداً لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي.

(إذا ذكر المحققون فيهلاً بالفاضل الانطاكي)

تتمة تعبير يوسف لرؤيا الملك

آ (٤٨) ﴿ثُمَّ يأتي مِنْ بَعْدِ ذلكَ سَبْعٌ شِدادٌ ، يأكلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لهُنَّ ، إلاّ قليلاً ممّا تُحصِنُونَ ﴾

استمر انعقاد الجلسة وتليت الآية الثامنة والاربعون فقام مولاناناصر الدين التونسي وقال :

أضاف يوسف الى قوله السابق قوله : (ثم يأتي من بعد ذلك) سنون (سبع شداد) جمع شديدة (يأكلن) أي يأكل أهلهن من الاسناد المجازي أي جعل أكل أهلهن مسنداً اليهن — ، (ما) كنتم (قدمتم) وادخرتم (لهن) وهو الذي

تركتموه في سنبله سابقاً (إلا قليلاً مما تحصنون) تحرزون وتخبئون لأجل بذر الأراضي في العام الخامس عشر .

في هذه الآية تابع يوسف عليه السلام تعبير رؤيا الملك بقوله تأتي بعد سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حر، و بين بيض ، تجدب فيها الأرض ، ويقل ماؤها ، وتغار عيونها ، ويذوي قبتها ، وييبس شجرها ، فلا وابل ولا طل ، ولا رش ولا رذاذ ، سنون سبع شداد تأتي باللازبة ويعم الناس فيها العدم ، سبع شداد حالقة ، حارقة ، تأتي على الزرع والضرع ، ويحبس فيها القطر ، ويجف النيل ، ويسوء أثرها في الانسان والحيوان ، أرض جرز وغمام جهام ، سبع سنون شداد ، يحر فيها الشجر وتهلك الاصواف ، وتتقطع السبل ولا يرى في السماء قزعة ، سبع شداد ، يأتين على الاخضر واليابس ، ويهلكن الحرث والنسل ، ويضعفن الاقتات والحيوان ، حتى كأنه يخيل للانسان أن مواد الارض المتبخرة ، اصطدم بعضها ببعض ، فتداعى وفتح فيها فوهات ، فخرج لهبها ونارها ، من هنا وهنا ، فحرق كل ما سيلاقيه من نبات وشجر وحيوان . سبع شداد هي البقرات السبع العجاف والسنابل السبع اليابسات ، كما أن السنين السابقة ، هي البقرات السبع السمان ، والسنابل السبع الخضرات ، سبع شداد ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ ويذهب ادراج الرياح كأنه ما كان الا قليلاً مما تحصنونه في الحصن الحصين الذي لا يوصل الى جوفه تحرزون فيه أو تخبئون أو تخزنونه او تدخرون لبذر الزراعة وللاعالة أيام الشتاء .

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع و براثن الجهد ، فان عملتم بما اوضحت لكم ، كفيتم شر هذه السنين الاوازم ، ولا يكون هذا الا بواسطة مرشد يهديكم سواء السبيل ، وعبقري يصلح من شؤون حاصلات الارض .

تكلم يوسف عليه السلام بهذا الكلام والسكوت سائد في تلك الجلسة لا يبدأ

احدهم بكلام ، ولا ينطق ببنت شفـة ، ولكنهم كانوا يتطاولون باعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك ، وارشاده لهم ماذا يعملون ؟. ولقـــد اعتقدوا ان فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبير الاحـلام ، ولا لتعليم أحد من الناس ، ولكنها صوت من أصوات السماء ، فتقبلوه بكل اخلاص ،وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك بورك في بطن حواك ؛وثدي سقاك،وحجر طواك ، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً ، فلك الشكر مرتين ، كما تفضلت اثنتين.

وحاصل القول ان يوسف عليه السلام علمهم أن يقتصدوا من السنين الاولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس : « إخبأ درهمـك الابيض ليومك الاسود »، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد ، وهكذا فنحن نرى ان « لـــــلاقتصاد » اليوم شأناً من شؤون بني اسرائيل (أو اليهود) حتى في حال اليسر فضلاً عن العسر.

وبعد فهل كان تدبير يوسف عليه السلام رافعاً للشدة من أصلها ، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً ، أو ياترى انما كان تدبيره عليه السلام مصلحاً ومخففاً فقط من شدة وطأة الجوع؟

لا بل كان الشق الثاني ، بدليل حديث البخاري : ﴿ اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف ﴾،

يوسف يبشر بانتهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب

آ(٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ، فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ، وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

تابع الرئيس انعقاد الجلسة ثم تليت الآية التاسعة والاربعون فنهض الشيخ الأرزنجاني[1] وقال :

قضى يوسف كلامه بقوله : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عـــام ﴾ خصيب مريع ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ الفلاحون — من الغوث أو من الغيث ، والغيث المطر ، وغاث الغيث الأرض أصابها ، وغـــاث الله البلاد ، وبابها باع وغيث الأرض تغاث غيثاً ، فهي أرض مغيثة ومغيوثة — ، ﴿ وفيه يعصرون ﴾ العنب والزيتون والسمسم ونحو ذلك . يشرهم يوسف بعد فراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي أو من جهة الفهم والذكاء ، إذ من المعلوم أن السنين المجدبة اذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب (اشتدي أزمة تنفرجي) ، و (إن مع العسر يسرا) ، ومعلوم أن السماء كانت في سني الجدب ضغطت بشدة ، على السحاب الذي هو امفتجة المطر ، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار ، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشرة هي عام خير وخير عام.

(ثم يأتي بعد ذلك عام ..)

— ١ —

ثم قام العلامة الدمشقي وقال : عندي على هذه الاية الكريمة عدة مسائل:

عزو اخبار يوسف بحسن عاقبة الازمة الى ذكائه

المسألة الأولى — لما كانت السنون المجدبة سبعاً ، لكون « العجاف » سبعاً ،

(١) نسبة الى مقاطعة ارزنجان الواقعة في شمال غرب ايران .

وقطعاً لاتزيد على هذا العدد ، صار من المعلوم بالضرورة أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب ، إذ مابعد الشدة إلا الفرج ، فلذلك فهم يوسف أن العام الخامس عشر هو عام خير ومَيْر وهصر وعصر . ولكن المفسرين لايريدون أن يحملوا ذلك من يوسف عليه السلام على مجرد الذكاء ، بل نسبوه الى الوحي السماوي كأنما الانبياء الكرام يحتاجون الى الوحي في أبسط الأشياء التي يفهمها أقل الناس فهماً ، قال الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه : له كل يوم في خليقته أمر
عسى ماترى أن لايدوم وأن ترى له فرجاً مما ألح به الدهر
اذا اشتد عسر فارج يسراً فانه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين

المسألة الثانية — كان المصريون القدماء يعنون بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق ، تكثر به الفواكه وتَفُرُه ، وكان العنب والبلح أكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية (عمر الاسكندري) .

وعليه فكانوا يعصرون العنب والبلح ومما يعصر أيضاً الزيتون والسمسم والمشمش والرمان والليمون والوردوالزهر والخرنوب والقراصيا والتوتوالتفاح، وهكذا الضروع تعصر لتحلب .

بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا

المسألة الثالثة — وجد يوسف هذه النهزة فأحب أن يغتنمها ، وقدم له هذا السؤال ، فأحب أن يستثمر من جوابه ، فلم يقتصر على تأويل رؤيا الملك ، تأويلاً بسيطاً حسب عادة العابرين للاحلام ، بل علمهم ، بما سبق من الآيتين ، ماذا يصنعون ، ودبر لهم المخرج مما عساه أن يصيبهم ، وأخيراً ، ههنا ، بشرهم بحسن

الخاتمة » اذ قال لهم : « ثم بعد انتهاء هذه السنين السبع يأتي عام خير يبشر فيه بغياثه الناس بالامطار، كأنما جادت عليهم مياه المحيط ، وفيه يعصرون ما يعصر لاستخراج عصيره ؛ وعند ذلك يتبدل درهمكم ديناراً ، وتنقلب أتراحكم أفراحاً ، وتستحيل أصوات الاضطراب الى أصوات سرور وطرب ؛ هذا أكبر علمي الذي وهبنيه ربي في هذا الموضوع الذي سألتم عنه ، أو هذا الجواب الذي أستنبطه باجتهادي حسب الأسس والقواعد التي علمنيها ربي ، وهذه وصاتي إليكم ، فعليكم أن تأتمروا بها ، وإلا .. فعلى مصر السلام ، فان هذا أمر قد قدر وفرغ منه ، وصار عند ربكم حتماً مقضياً » .

لطف الله بالمصريين عن يد يوسف

المسألة الرابعة — كأني بالمندوب « تيبو » لما سمع جواب يوسف عليه السلام جزاه خيراً ، وقال له : (سأحمل جوابك هذا الى جلالة الملك ، وسيكون ذلك السبب الوحيد في خروجك من هذا المعتقل) .

نعم إنه سمع جوابه كأنه وحي صادر من أفواه الملائكة ، وبالعمل على ذلك يكون الله قد لطف بالمصريين بلطفه فيما جرت به المقادير ، ولكن عن يد يوسف عليه السلام .

إغفال يوسف تأكيد ذكره عند الملك في هذه المرة

المسألة الخامسة — لم يقل يوسف في هذه المرة الثانية « للشرابي » : (اذكرني عند ربك) ، ربما لكونه تصور أن سيكون حظه في هذه المرة بقول « للشرابي » : (لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) ، فان في هذا القول ما يطمئن يوسف أنه سوف لا ينساه ، ومع ذلك فهو في هذه المرة اعتمد على أنهم بالطبع سيحرصون على علمه

وقضله ، ويضطرون لاخراجـه من معتقله بدون رجاء ولا شفاعة ، للاستفادة من إرشاده ومشورته لهم .

تدبير يوسف ازمة المصريين بنفسه

المسألة السادسة — هكذا أرشد يوسف المصريين ، وبين لهـم المخرج من المصيبة التي ستحل فوق رؤوسهم ، ودبر لهم طريق النور فيما يعملون ، ونصح لهم بكلامه فيا يجرون ، ثم نصحهم بفعـــله بأن باشر هو بنفسه تدبير شؤونهم وحمل على عاتقه الاتعاب ، لأجل راحتهم وسلامتهم ؛ قال هذا ثم فعل هو حسبما قال:

مقابلة بين « الملأ » الجهلاء وبين يوسف العالم

المسألة السابعة — ههنا يتجلى الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم — بين العـالم والجاهل — بين النور والظلمة ، فأولئك « المـلأ » بعدم فهمهم نزلوا للحضيض الاسفل ، وترك ذكرهم كأنهم أموات ، وهذا العبد العبراني بفهمه وعلمه ترقى الى أعلا الدرجات ، ولا بدع ، فعبارته رؤيا مليك مصر ، أكسبته حبه إياه ، وحسن اعتقاده فيه ، وسرعة الاتصال به ، واستخدامه في البلاط كوزير مالية ، وكعزيز مصر ، وكوكيل عن جلالة الملك ، فكان في البلاط ثاني الملك .

أين فوطيفار في هذه الازمة

المسألة الثامنة — يجدر بنا ههنا أن نفتقد « فوطيفار » ونتساءل عنه أين هو ؟ فان أزمة الملك وحيرته في رؤياه المنامية لم تحلّ الا على يد عبده العبراني السجين ، وأما ذاته « الشريفة » ! ! فكأنها في هذه الضيقة لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ ويميناً إنه لو جرد من لقبه وثروته ووظيفته ، لم يبق في اليد منه شيء ، قال المعري :

لو يعرف الانسان مقداره	لم يفخـــر المولى على عبده
لولا سجـــاياه وأخلاقه	لكان كالمعدوم في وجده

الرؤيا على ما عبرت أولاً

المسألة التاسعة — نقل الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) عن البلخي أن هذا التأويل الذي وقع من يوسف يدل على بطلان قول الناس: «إن الرؤيا على ماعبرت أولاً » قال: لأن الملأ كانوا قالوا : « أضغاث أحلام » ، فلو كان ماقاله هؤلاء الناس صحيحاً ، لكان يوسف لا يتأولها ، أقول : هو وهم ، لأن قول الملأ : « أضغاث أحلام » ليس من قبيل التأويل ، ولكنه من قبيل التنصل من التأويل كما هو ظاهر فافهمه . . .

الفصل السابع

القصر يطلب يوسف (ع)

آ (٥٠) « . . . وقالَ المَلِكُ : ائتُوني بِهِ » ، فلما جاءَهُ الرسولُ . . . قالَ : ارجع الى ربكَ ، فاسألهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ؟ ، إنَّ ربي بِكَيدِهِنَّ عَليمٌ . »

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخمسون فقامت السيدة انصاف الدمشقية وقالت:

القصر يطلب يوسف

كان رئيس السقاة قد رجع أدراجه من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقتص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ،

وأحب يوسف ، « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة : مرحى ! ، اذهبوا حالاً ، و (ائتوني به) فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لاسيما في الشئون الاقتصادية . فآض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك المسمى « نبو » أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأنى يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب الي ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (الى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) ياللعجب ! ! (مابال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم مادعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي) الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن .

وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : مامكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسيهما يقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ، وأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، في الحديث : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم) .

(وقال الملك : ائتوني به . . . الخ)

— ١ —

وقال العلامة قمر الدين من علماء بلدة كراتشي في الهند(١) :

الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته

بعدما رجع رئيس السقاة (نبو) من عند يوسف الصديق عليه السلام وقص على مليك مصر تأويل حلمه ، كما كان قص عليه حادث اعتقاله ظلماً ، مع بيان ترجمة حالة ، أكبر (الملك الريان) يوسف وأعجبه منه حسن عبارته الرؤيا ، ولا سيما بعدما عبرها له ، عرفه ماذا يصنع ، كما أقه أكبر اعتقاله قائلاً : ياللظلم ويا للعار ! رجل كهذا يحبس دون تحقيق أو إقامة دعوى ، بل دون إثبات جريمة ، بل بعد براءته من تهمة الجريمة ، وأخيراً دون أن يكون لي علم بحبسه ، ؟ ! ! يظهر أن في الأمر دسيسة ، انهضوا واذهبوا حالا دون توقف ، وائتوني به ، فإني أراه حسن الرأي ، يستدا ليه في الأمور ، وتلقى اليه مقاليد الأحوال ، ويؤخذ رأيه في الحوادث والنوازل ، ولا عرو . فالملك لا يستطاع ضبطه إلا بالوزراء والأعوان ، ذوي الرأي الصائب ، والتدبير البالغ ، وإن هذا العبراني خليق أن يكون (المستشار الاقتصادي) في البلاط أو في رجال المعية ، ليرجع اليه في الشئون وليذاكر في المهام .

فعاد رسول الملك إلى يوسف ، ووجهه يتهلل فرحاً وبشراً ، فبادره يوسف قائلاً : أهلاً بالمندوب الكريم ، أراك أسرعت الرجعة ، قل ماوراءك ياأخا القبط — قال المندوب : أبشر يا أخا العبرانيين فقد آن أوان الفرج ، وآن أوان خروجك من المعتقل ، فان ربي عاهل الديار المصرية المليك الريان أنفذني اليك لأجل

---

(١) وحالياً في جمهورية باكستان .

شخوصك اليه ، وانه يريد أن تكون عنده ، وعند ذلك ثارت في يوسف عزة النفس ، وجرى في عروقه دم الشرف والمحافظة على العرض وحسن السمعة ، وأخذ يراجع المضايقات التي مرت به في بيت (العزيز) ويستعرض تلك التهمة التي أتت عليه ، فكادت تهدم شرفه من الأساس ، واستحضر تلك الدعوى المزورة المشؤومة ، بمقابلة اخلاصه لهم ، وافتكر في اعتقاله ظلماً أمام أمانته ومحافظة على شرف (العزيز) وزوجه ، فرآهم قد قابلوا إحساناً بإساءة ، ومعروفاً بمنكر ، وأمانة بخيانة ، فشعر بدبيب ميله للانتقام للمرة الأولى في حياته ، وقال في نفسه : (إذا كانت الشريعة المصرية ، والقوانين الوضعية ، قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس ، فلينتصف الناس لأنفسهم بأنفسهم) ، فاعتقد أنه لا بد أن يقتص بشخصه من شخصي العزيز وامرأته ، كما اعتقد أنه لا بد من أن يسعى في براءة ذمته ، فلأجل هذين الغرضين لم يشأ أن يخرج من الحبس ، وتوجه بالخطاب الى المندوب قائلاً له أيها المندوب :

« أقول لك بكامل الحرية ، قد آن لي أن أعيش أو أموت ، فللملك أن يلبس التاج ، ويحمل الصولجان ، له أن يجلس على عرش الملك ويسيطر على جميع البلاد والرعايا ، له أن يوجه الرتب والأوسمة والانعامات لمن يشاء ، له أن يبتز الأموال ويحكم على الاجسام ، له أن يعزل ويولي ، له أن يقرب ويبعد ، له أن يعتقل المجرمين ، ويجزر الخائنين ، له كل ذلك ، ولكن ليس لعدالته وانصافه أن يكرهني على خروجي من السجن ، وعلى جبهتي غبرة الاجرام ، بل أرغب اليه وأستميح فضله ، أن يصبر علي قليلاً ، حتى تجرى التحقيقات اللازمة عما نسب اليّ ، فان تبين أني مجرم ، مكثت في معتقلي هذا البقية الباقية من عمري ، والا .. خرجت برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة

من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب الركس ، بحيث لا أهاب ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء ، فمع احتفاظي بالمطالبة بالتحقيق عن الاسباب التي دعت لاعتقالي ، سأمتثل أمر الملك ، وأخرج اليه شاكراً حسن رعايته وعنايته ، غير أني أرجوك أن ترجع الى ربك ، جلالة الملك الريان ، وقص عليه ماسمعت ومارأيت من حالي ومن أمري ، واسأله مابال الطغائن رسل الشيطان ، نساء بعض امراء البلاط ، اللاتي كن منذ بضع سنين جرّحن أيديهن ، يوم ضيافتهن في قصر « العزيز » فأنا أريد أن أنقل الدعوى من محكمة « العزيز » الى محكمة « الملك » إذ أن ربي الذي كان قال سابقاً : (إنه من كيدكن) هو اليوم أيضاً بكيدهن المعروفات به « عليم » بل هو أعلم أهل الارض بذلك ، فهو كان عرف كيد امرأته يوم حادثة « قد القميص » وهو إذا أنصف ورجع الى مايعلمه حجة لي على سلامة شرفي ومكر سواي ، وإني أطالب بإلحاح الإمعان في البحث عن أسباب ذلك .

وأقول هنا نعم مافعل يوسف عليه السلام ، وقد أصاب فيما أتى ، لأنه يريد أن يخرج من السجن موسوماً بالبراءة ، لابساً تاج الأمانة ، وهذا هو اللائق بالحازم العاقل ، إذ لو خرج في الحال ، ربما بقي في قلب الملك من تلك التهمة أثر .

هذا وأما مايذكره المفسرون من « حديث » يشم منه الانتقاد على عمل يوسف ، وعدم تحبيذه ، فعلى فرض صحته فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة يوسف عليه السلام ، حتى من الغلط في عدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن ، وعلى كل حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث الذي يحتوي طعن نبي في نبي الى الله تعالى .

« وقال الملك ، ائتوني بـه ... الخ »

— ٢ —

وقال السيد المراكشي ليسمح لي السادة المستمعون بالقاء التعليقات التـالية على هذه الآية الكريمة :

البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً

اولاً ـــ جعل يوسف « براءته » في المقام الأول « وخروجـه » من السجن في المقام الثاني ، فـلم يكن طلب الملك له والافراج عنه ليهمه بمقدار مايهمه براءة ساحته مما الصق به من العار .

تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته

ثانياً ـــ لم يقل يوسف « مابال امرأة العزيز » بل قال : « مابال النسوة » تأدباً معها وحفظاً لما رآى منها من معروف واكرام مثوى، عندما كان في بيتها وتحت يدها لأنـه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم ، لم يسعه عليه السلام إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها ، قال الشاعر :

ماوهب الله لامرىء هبـة　　أفضل من عقله ومن أدبه

هما كمال الفـتى فإن فقـدا　　ففقـده للحياة أحسن بـه

سؤال يحفز البراءة

ثالثاً ـــ وقال يوسف للمندوب سل الملك : « مابال النسوة » أي ماحالهن ، ولم يقل : « سله ان يفتش عن شأنهن » لأن السؤال ممـــا يهيج الانسان ، ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة

القصة ، وأراد قصّ الحديث ، حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل .

هوية الرسول الذي ذهب الى يوسف

رابعاً — عندنا أن هذا « الرسول » هو رئيس السقاة الذي كان قال « فأرسلون » فهذه أول قرينة ، وقرينة أخرى ، وهي قوله : « الصديق » فهو يدل على انه كان اختبره سابقاً وعرف صدقه في تأويل الأحلام ، و« الرسول » بمعنى المرسَل أو البريد أو السفير أو المحضر أو المندوب أو المبعوث .

تسمية الملك رباً

خامساً — جرى اصطلاح الشعوب والممالك القديمة ، مثل مملكة مصر وبهوذا واسرائيل وأشور والكلدان حتى العرب في الجزيرة — على أن يسموا الملك رباً ، وكل من سواه عبداً ، وقد سبق تفصيل ذلك .

العلماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك باغنياء عن العلماء بالملك

سادساً — باحتياج مليك مصر ، وهو على أريكة ملكه ، الى يوسف وهو في معتقله ظهر جلياً أن العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عنهم بملكهم . قال الشاعر :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

صبر اصحاب صديق

سابعاً — رأى يوسف أن « زليخا » غدرته باتهامه إياه ، وأن « قوطيفار » ظلمه بسجنه طيلة بضع سنين ، رأى ذلك ورأى أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، فلماذا يسكت عن غدره وظلمه ؟...

فلا بد من أن يسأل عن سبب سجنه ، ويفتح باب البحث عن تلك الحوادث الاولى على مصراعيه ، ليحيط « البلاط » بها علماً ، ويكون بذلك رمى حجراً فاصاب صيدين ، الأول وصوله لظهور براءته مما الصق بـــه ، والثاني اظهار ان « عزيز مصر » و« امرأته » كانا قد غدراه وظلماه ، فاهتبل فرصة توجه « الريان » نحوه وحبه إياه فطلب ماطلب وهذا ماأعثرنا عليــه الفتاح العليم ، وللمفسرين ههنا كلام أستطيع أن أقول عنه إنه موجب للأسف .

الاجتهاد في نفي التهم واجب

ثامناً ــ الذي سهل على يوسف عــدم المبادرة الى امتثال أمر الملك بالخروج اليه ، والذهاب عنده انه تصور في كرم أخلاق الملك أن سيعذره ويغتفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه ، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته .

وقد ذكروا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب ، فقــد أخرج مسلم من رواية أنس :(ان رسول الله ﷺ كان مع احدى نسائه فمر به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي .) ــ (فقال يارسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك) ــ فقال رسول الله : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وكانه لهذا كان الزمخشري رحمه الله ــ وكان ساقط الرجل ــ قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار ، وكان رحمه الله يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء .

ديموقراطية حكم الملك الريان

تاسعاً ــ إنه لأمر معلوم أن الملك (الريان) أرسل مندوبه ليوسف ليأتيه بــه ، ولكن يوسف أبى الخروج إلا بعد إجراء التحقيقات عن سبب سجنه ،

فنأخذ من هذا انه قد كان مطلق فرد من أفراد الناس بمصر، حتى العبيد الدخلاء كانوا يعيشون بمصر عيشة حرية شخصية تامة بأجلى معانيها وأبعد مراميها ، حتى مع نفس الملك القابض على مملكة مصر ، سيدة ممالك العالم إذ ذاك ، وإن هذا الملك كان ديموقراطياً بحتاً ، يأمر بشيء في حق عبد دخيل ، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره إلا بعد إجراء التحقيق ، مع انه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وبين إجراء التحقيق ، بأن يبادر يوسف للخروج ثم يطلب من الملك ذلك، ولو فعل اليوم نظير هذا الأمر مع «مدير شرطة» لأخذته العزة بالاثم ، وقامت قيامة كبريائه ، وعدل عن إخراجه من السجن ولانقلب له عدواً لدوداً فلو قارنت هذا الملك (الريان) بأمير مقاطعة صغيرة ، أو اهبط قليلاً فقل بوزير من وزرائه ، أو اهبط قليلاً فقل بوكيل الوزير ، أو اهبط قليلاً فقل بالمحافظ أو المتصرف أو المدير ، أو اهبط ثم اهبط ثم اهبط فقل بمأمور الانضباط ...اذا حاولت أن تقارن بين هؤلاء وبين مليك مصر الريان ، وجعلت الكبرياء ومحبة النفوذ وقوة النفس مقياس التمييز بين الفريقين لوجب أن يعتلي هؤلاء عرش مصر ووجب على « الريان » الوديع المنصف أن يحتل كرسي مأمور الانضباط .

سبب نزول الملك الريان عند رغبة يوسف بعدم خروجه

من السجن قبل اجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه

عاشراً — ترى أن ملك مصر « الريان » منذ ما سمع « بيوسف » وخبره وعلمه ، بادر تواً لاطلاقه من معتقله ، واسترسل في ذلك استرسالاً يفوق عوائد الملوك في تؤدتهم وترويهم ، وهو أمر يستوجب دقة النظر ، وما هذا الحب والاخلاص الذي أظهره ملك مصر ليوسف قبل أن يراه ؟! فقابل يوسف ذلك بالرفض ، إلا بعد التحقيق عن التهمة التي وصم بها !! فهذا الرفض من يوسف

بدلاً من الشكر والامتثال ، كان يجب أن يتجم عنه حقد «الملك » عليه .و كدره منه ، ولكن الأمر أتي على عكس ذلك ، إذ أمر بالمساعدة اللازمة بإجراء التحقيقات نزولا على رغبة يوسف !!! فما سبب ذلك ياترى ؟

وعندنا أن الجواب عن ذلك ، هو أن ملك مصر اسيوى أجنبي عن القبط الافريقيين ، ويوسف كذلك ، (وكل غريب للغريب نسيب) فلذلك استرسل في اطلاق يوسف من معتقله استرسالاً ، وتساهل معه إذ رفض امتثال أمره بالاتيان اليه إلا بعد التحقيق وآثر التمشي مع العاطفة الوطنية على التمشي مع نزعة الصلف والكبرياء ، على أننا نظن قوياً أن هذا الملك (الريان) هو من العقلاء الرصناء الذين ليسوا من ذوي العجرفة فلذلك نزل على إرادة يوسف عليه السلام .

دواعي عدم خروج يوسف من السجن

حادي عشر — إن لعدم خروج يوسف من السجن دواعي عديدة منها (١) انه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين ، وحاله غامض ، وعاقبته مجهولة ، ومجال الغض منه واسع ولذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعدأن يتكشف أمره ، وتزول التهمة عنه بالكلية — (٢) انه بهـذا العمل لايقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلطخه بتلك الرذيلة ، وأن يتوصل بها الى الطعن فيه ، (٣) انالانسان الذي بقي في سجنه بضع سنين ، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه ، فالظاهر أن لا بد أن يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج ، عرف منه أنه في نهايةالتعقل ، وأعلى درجات الصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يُعتَقَد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يُحكم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتـان . (٤) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، ووثوقـه بكسب الدعوى ، وبعبارة أصح : وثوقه بالبراءة ، اذلو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان يخاف من ذكر ماسبق ، ولا يريد أن يخطر ذلك على بال (٥) كان يوسف يخشى

أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً ، ويسكت عن أمر تلويثه ، فيراه الناس بتلك العين ، يقولون « هذا الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها ، انظروا له كيف صار من أهل البلاط ، انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك » .

كيف لم يخش يوسف من النسوة ان يكتمن حقيقة امره

ثاني عشر — لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال (مابال النسوة .. الخ) ، بما لا يحب كما رمته إحداهن من قبل ، لأنه (١) رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع ، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل و (٢) هو قد ظن فيهن خيراً ، واعتمد على شرفهن قائلا في نفسه : إن لهن ضميراً سوف لا يتصامن عن ندائه و (٣) لأنه كان يعتمد على « الشاهد » من أهل امرأة العزيز و (٤) كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، وأشد اعتماده على امرأة رئيس السقاة ، التي كانت مدعوة فيهن ، ولا بد أن تكون أفشت لزوجها اعتراف امرأة العزيز و (٥) كان يعتمد أيضاً على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وحصر التهمة في زوجه ، ولذا قال عنه ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ ، وانما كان حبسه يوسف حبساً إدارياً لأجل إبعاده عن زوجته ، و (٦) اعتمد على توجه نظر مليك مصر عليه ، وتمكنه من محبته ، وثقته بعلمه ودرايته ، ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس ، وأعظمته الرعية ، وأكبره الموظفون الذين هم تحت إدارة ذلك السلطان القاهر ، فصار بذلك آمناً من مكر هؤلاء السيدات ، نساء المستخدمين بمعية الملك .

كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ولم يقع منهن شيء من ذلك

ثالث عشر — إن قال قائل : إن هؤلاء النسوة لم يكن من الكيد في عير

ولا نفير ، ولم يكنّ من المراودة في ورد ولا صـــدر ، فكيف ينسب لهنّ يوسف الكيد ، ويطلب سؤالهن ؟.. وكيف يسألهن مندوب الملك عن مراودتهن ليوسف ؟ ولم يقع منهن شيء من ذلك ؟..

والجواب عن ذلك يعلم بمراجعة ماقيل في الآية ٢٨ والآية ٣٣ فراجعوه إن شئتم.

لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلب التحقيق بل ظهور براءته

رابع عشر — لاريب أن يوسف عليه السلام لايريد لأحـــد الرجال ، ولا لاحدى النساء ، أن يفتضح وتشيع فعلته ،ولكن لامندوحة له عن السعي في ظهور براءته مما اتهم به ، وحبس من جرائه ! حتى لايخرج من السجن ، وهو مخفوض الرأس بين الناس ، فلذلك شرع في طلب التحقيق عن هذه الحادثة ، تذرعـــاً للحصول على ملاك شرفه ، وقوام حسن سمعته ، وهو ظهور طهارته من كل دنس الصق به زوراً . فلذلك رأى أن خروجه من السجن سابق لأوانه ، إنما أوانه بعد ظهور براءته ، وبهذا يسقط ماعساه أن يقال : كيف سعى يوسف في اشاعة الفاحشة ، وأحب تشهير تلك المرأة ؟

فضل يوسف ذلك على خروجه وشيكاً ، ضناً بشرفه ، وحسن سمعته ، لأنه تصور في نفسه وصمته بإرادة السوء والفحشاء مع أهل « العزيز » وحبسه من جراء ذلك ، لايزالان عقبة كؤوداً في طريق خلاصه وحسن سمعتـه ، وانها من أعظم الموانع لوصوله لما تطمح اليه همته .

تنازع يوسف عند طلب الملك له عاملان : عامل النزول على إرادة عاهـــل مصر ، ومحبة النفس لمبارحة الحبس ، وعامل الشهامة والعزة ومحبة ظهور البراءة من كل لوث ، ففضل المشي مع العامل الثاني ، فقال للرسول (ارجع .. الخ)

سعة صدر الملك الريان

خامس عشر — لم يغضب الملك على يوسف ، لأنه رفض نعمتـه عليه ، ولم

يطع إرادته السمية التي صدرت من لدنه، لإتحاف يوسف بخروجه من معتقله حالاً بل تناسى ذلك لطفاً منه وكرماً، وليس ذلك فقط، بل زاد عليه — كما سيلي — انه نزل على ارادته في اجراء التحقيق عما كان وصم به، والعنقيل من جرائه، ولعمري إن هذا من الملك لتضحية كبرى لأخفته وكبريائه يستحق ذلك الملك العمليق . من أجلها أعظم الثناء .

قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته

سادس عشر — نسمع الملك يقول هنا (ائتوني به) ، وسنسمعه يقول بعدئذ (ائتوني به أستخلصه لنفسي) ، فالطلب الثاني أرقى من الطلب الأول ، وسببه أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بعلم يوسف وفهمه فقط ، وأما الطلب الثاني فكان مبنياً على ذلك وعلى تيقن الملك بسلامة يوسف من الجريرة ، وبعبارة اخرى كان ظهر للملك أولاً تحلية يوسف فحسب ، ولكن بعده ظهر له أيضاً تخليته ، ولا ريب أن التخلية مع التحلية ، أهم من التحلية وحدها ، وهكذا جرت السنة ان في قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظهر براءته كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ عُصبَةٌ منكم لاَ تحسَبُوه شَراً لكم ، بل هو خيرٌ لكم ﴾ (٢٤ : ١١) .

على الباغي تدور الدوائر

سابع عشر — لاريب أن « العزيز » وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة « المرأة » بتوجيه التهمة اليه ، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة ، لأن سجنه سبب تعرفه الى « الساقي » فالتقدم اليه بأن يذكره عند الملك ، ولما رأى الملك رؤياه ، ذكر الساقي يوسف فحمل اليه تلك الرؤيا فأولها يوسف ، فنتج عن ذلك طلب الملك إياه فلم يرد أن يخرج الا بعد التحقيق ، فكانت

النتيجة حصر التهمة في « المرأة » وبراءته مما نمي اليه ، فكان « العزيز » بحبس يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدها ، أو كمن حول الضرب الى سقف جاره ، فاذا الضرب في سواء داره ، ولا غرابة في ذلك ، ففي المثل السائر:

« على الباغي تدور الدوائر » .

المراد بالكيد

ثامن عشر — أراد انه كيد عظيم لايعلمه الا الله لبعد غوره ، كما قيل : « وهن شر غالب لمن غلب » ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه وأنه بريء مما قرب به ، أو أراد الوعيد لهن ، أي هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه ، أو أراد بربه « عزيز مصر » — كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد حسن صديق وغيرهما ، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانيين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد ؛ وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن ، فهو يشير بذلك الى سابق قول العزيز : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ، فكأن يوسف يقول : « اسألوا سيدي — عزيز مصر — الذي سبق منه انه حكم على زوجته بالكيد ، ووصفها به ، فإنني أقبله شاهداً عليّ وأرضى به حكماً ، بل واحتج به وبعلمه الحقيقة على كيدهنّ لي » فعلى هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهن كواذب « بعزيز مصر » وما يعلمه فيهن ، وهذا ممكن ، وفيه فائدة عاجلة وتقوم به الحجة، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهد بالله وعلمه بكيدهن ، وهذا لافائدة فيه ليوسف في الدنيا ، ولا يدفع عنه المؤاخذة عند رجال الحكمة وفي نظر الشعب ، ولا يبرىء ساحته من الجزاء الدنيوي بوجه ، لأنه من يعرف علم الله فيهن ؟　　(مرحى مرحى ولا فض فوك)

اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ(٥١) [. . . قالَ ماخَطْبُكُنَّ ، إذْ راوَدْتُنَّ يوسفَ عنْ نفسِهِ ؟« ـ قُلْنَ : حاشَ للهِ ، ماعَلِمنا عليهِ مِنْ سوءٍ » ـ «قالتْ امرأةُ العزيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحقُ ، أنا راوَدْتهُ عنْ نفسِهِ ، وإنهُ لَمِنَ الصادقينَ »] .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والخمسون فقامت الانسة أسماء الغوية وقالت :

كان « بنو » مندوب الملك « الريان » رجع اليه من عند « يوسف » عليه السلام وقص عليه القصة ، فقال له الملك : « أما قلت لك أن في الأمر دسيسة ، فالآن اذهب واعمل كما أحب هذا السجين ، وائتني بنتيجة » فصدع « نبو » بأمر الملك ، وقفل راجعاً ، و (قال) للنسوة : ناشدتكن الله ياسيدات «منفيس» ، (ماخطبكن)[١] وما شأنكن ، (إذ راودتن يوسف) العبراني السجين (عن نفسه) فيا دولة الجنس اللطيف ، لله دركن ، هل وجدتن منه ميلاً اليكنّ ، هل رأيتن منه غمزة ، هل سمعتن منه رمزة ، هـــل ضحك لكن وداعبكن ، حتى أقدمتن على مراودته ، وتجرأتن على مطالبته بما لا ينبغي لأمثالكن أيتها السيدات ؟

وأما السيدات فأجبن و (قلنَ حاش لله) ـــ تعجباً من عفته ومن نزاهته عن الريبة ـــ ووالله (ماعلمنا عليه) قط ، (من سوءٍ) ، ووالله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، هذا جوابنا عما يسائل عنه جناب المحقق ، وخلاك ذم .

---

(١) الخطب : الأمر الذي يعظم شأنه فيخاطب الانسان فيه صاحبه .

هذا ولما كان العاشق يفادي بنفسه وشرفه عن طيب خاطر مرضاة لمعشوقه (قالت) زليخا (امرأة العزيز) فوطيفار ، معترفة بجلية الواقع ، تذود عن يوسف وتنتصر له على نفسها : أنا أخبرك بواقعة الحال ، وأطلعك على جلية الواقع (الآن حصحص الحق) والحق على مضاضته يقال ، واني إنشاء الله لا اكذبك شيئاً (أنا راودته عن نفسه) ، وعلى المكشوف ، أنا براقش التي جنت على نفسها ، أنا المذنبة ، وله العُتبى[1] ، ووالله اني لم أراود قط أحداً قبله ولا بعده ، ولا يمكنني التنازل لأحد سواه ، وأنا الآن أستغفره على هذا الذنب ، (وانه من الصادقين) في قوله منذ سنتين : « هي راودتني عن نفسي » ، فهو لم يلوث لسانه بالكذب والفرية قط ، وإنه لمن الصادقين في العمل ، حيث أبى علي ، وامتنع من النزول على إرادتي ، وتمسك بدينه ، وثبت على متانته ومروءته ، وكأنها خافت أن تثبت عليها التهمة ببعض البراهين إذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو ، فسبقت الى الاعتراف على حد قول القائل : « بيدي لا بيد عمرو » أو على حد قول الشاعر : « وليس لمخضوب البنان يمين » ، أو كما يقولون في المرأة :

« إن الأمومة عودتها عادات إنكار النفس والتضحية والرغبة في مصلحة الآخرين ، أكثر من الرجل » .

(قال ما خطبكن إذ راودتن ..الخ)

— ١ —

وقامت السيدة لُبنى البغدادية وقالت : يستفاد من هذه الآية الكريمة عدة فوائد سأتلوها على مسامعكم :

استنطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات

ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

الفائدة الأولى — تعليقاً على قوله : (ماخطبكنّ) ، نسب « ابن كثير »

(١) العتبى : الرضاء .

و« البغوي » هذا القول الى الملك الريان ، وقالا إنه هو الذي جمع عنده هؤلاء النسوة واستنطقهن ، وقال ما خطبكن ، وهو يريد امرأة العزيز خاصة .

وقال بعضهم : إن القائل هو مندوب الملك ، ذهب اليهن وجمهن في محل واحد بما فيهن امرأة العزيز ، وسألهن هذا السؤال ؛ ويجوز أن يكون قد سأل كلاً منهن على انفراد في بيتها ، ثم للاختصار حكى الله ماحدث جملة واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢٣=٥٢ و٥٣) . فهذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، كيف والرسل إنما رسلوا متفرقين ، في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك ، وَوُصِّيَ به .

نسبة المراودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة

الفائدة الثانية — قال : (إذ راودتن) بصيغة الجمع ، والمراد منه واحدة ، وهي امرأة العزيز ، وقريب منه ما في قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ (٣=١٧٣) ، فقد قيل لفظ الناس الأول عبارة عن شخص واحد ، هو « نعيم بن مسعود الأشجعي » ، ولفظ الناس الثاني هو عبارة عن « أبي سفيان » ، ذلك لأنه من جنس الناس ، كما أن امرأة العزيز هي من جنس المراودات ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحدة ، وبرد واحد .

شهادة النسوة ليوسف بالعفة والطهارة

الفائدة الثالثة — مع تسبب يوسف تجريح أيدي هؤلاء النسوة ، وتأثير جماله الباهر ، ومع أنهن لم يرين منه عطفاً نحوهن ، حتى ولا ابتسامة واحدة على الأقل ،

دية لتلك الأيدي المجرحة ، وتعويضاً على تلك العقول المذهولة — مع هـــذا كله فهؤلاء السيدات لم يشهدن في يوسف إلا بما يجب له من العفة والطهارة ، ذلك لأنهن كن من النساء الداجنات والمسالمات ليوسف ، ومن صواحب الوجدان والشرف ولعمري لامزيد على شهادتهن وشهادة زليخا له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن بأنه لم يتعلق بشيء يشينه ، مـــع أنهن خصومه ، واذا اعترف الخصم بأن خصيمه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ، خلافاً لحشويي المفسرين ، الذين قالوا: (نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته) !!..

حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه

الفائدة الرابعة — كأني «بامرأة العزيز» قالت وهي تتلعثم في كلامها ،وتضطرب مما لحقها من الخجل والخوف ، وترتجف من حراجة الموقف :

« الآن .. حص .. حص .. الحـ .. ق .. أنا المشدو .. هة .. راود ... ته ... عـــن نفـ .. ـسه .. واحـ .. ـسرتاه ! وانـــه .. حر .. ـصه .. الله ... لمن الصا ..دقين .. في ..سابق ..قوله : هي راودتني عن نفسي،ذلك ليعـ .. ـلم ..أني.. لم أخنـــه .. بالغيـ .. ـب كما خنـ .. ـته بالحـ .. ـضور .. واويلاه ! وان الله .. لا يه .. ـدي .. كيد .. الخا .. ئنين .. وا .. ندماه ! .. وما ابرىء .. نفـ .. ـسي إن النفـ.. ـس .. لأمـّ .. ـارة ..بالسوء .. واسوأتاه ! إلا .. مارَ ..حم .. ربي.. إن ربي .. غـ .. ـفو .. ر .. رحيم .. واخجـ .. لاه ! » .

وما أكملت هذا النطق إلا وقد زاد صوتها في التقطع ، وصارت رجلاهـــا تصطكان ، فوقفت عند هذا الحد من البيان والاعتراف .

دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها

الفائدة الخامسة — عندي لدواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ثلاث نظريات :

النظرية الأولى: ان النسوة قد أجبن المستنطق بقولهن (ماعلمنا عليه من سوء) وسببه أن امرأة العزيز لما أرسلت إليهن، وهيأت لهن متكأً، رأينه في جماله الذاتي والنفسي، حيث لم ينظر اليهن نظرة سوء ، كأنه ملك كريم ، ثم ان امرأة العزيز اعترفت لهن بأنها كانت راودته ، ولكن هو استعصم ، فما رأينه في تلك الجلسة وما سمعنه فيها كان دليلاً على براءة يوسف عليه السلام ، فامرأة العزيز ، بما دبرت من دعوة النسوة ، وبما قالت أمامهن كانت كالباحث عن حتفه بظلفه ، خصوصاً لما سمعت قولهن: « ماعلمنا عليه من سوء » فكانت هذه الجملة هي الطعنة النجلاء التي أثبتت « زليخا » « وقطعت بها جهيزة قول كل خطيب» . فعند ذلك رأت زليخا من الحكمة والتعقل أن تعترف بالواقع ، لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها ، شهد عليها هؤلاء النسوة بأنها كانت قالت : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (آية ٣٢) فهي بذلك اعتقدت أنها ألقيت في فم المدفع ، وقد وضعت السلسلة في رقبتها وانتهى الأمر ، وانه لا مندحة لها من الاعتراف ، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار شرعت تكشف السر ، كمن يريد الاقرار أمام المستنطق في محكمة ، أو « الاعتراف » أمام قسيس في بيعته .

فاهت بتلك المقالة العصماء التي في آيات (٥١ و ٥٢ و ٥٣) والسكوت سائد في تلك الجلسة ، جلسة التحقيق السرية ، لا واحدة تتكلم ببنت شفة ، بل كنّ جميعاً مصغيات لمقالتها ، منصتات لخطابها .

النظرية الثانية : هي انه مهما بلغ الحقد بالقلب الانساني ، وغلبت الشهوة شعوره

ووجدانه ، فلا بد أن تهب عليه من حين الى حين ، نفحة من نفحات الفطرة الالهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود الى طهره وصلاحه ، وما انطوى عليه من صدق وأمانة ، فهي في هذه الجلسة ، نسخت ما كانت قالته سابقاً ، والنفس الانسانية كما يقول « روسو » مرآة ، تتراءى فيها مختلفات الصور والألوان، ومن خَبَر عقلية المرأة ، لا يستبعد هذا التطور العجيب :

إنما المرأة مرآة بها　　كل ماتنظره منك ولك
فهي شيطان اذا أفسدتها　　واذا اصلحتها فهي مَلَك

وكأنه قد صار الحال بحيث يخيل اليك أن هناك سيدتين ، واحدة ابتلعتها نار الذنوب والتهتك ، والأخرى ولدتها التوبة والاخلاص ، تلك كانت كاذبة فاجرة عيّابة ، وهذه صادقة مدافعة متواضعة .

النظرية الثالثة : جلست زليخا في مجلس « الاستنطاق » وجعلت تراجع فهرس حياتها الماضية مع فتاها العبراني ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب الخطأ الذي كان صدر منها ، فحكمت بنفسها على نفسها ، انها مجرمة آثمة ، وانها لم تستفد من كل ماعملت سوى سوء السمعة ، وانحطاط المنزلة ، وانها لم تسيء الى فتاها بمقدار ماأساءت لنفسها باحباط شرفها ، وكأن حياتها الحاضرة — حياة الشيخوخة — قد أنستها حياتها الماضية — حياة الشباب — فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة، كما لا أثر فيه للعشق والغرام ، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح فلفظت كلمتها الأخيرة ؛ هذا مايظهر من حكاية القرآن المجيد توبة زليخا .

وإنما قلنا ان حياتها الحاضرة حياة شيخوخة ، لأننا نظن انها لما تكلمت بهذا القول ، كانت في سن الاربعين أو تزيد ، ذلك لأن يوسف عليه السلام حينما وقف بين يدي الملك الريان بعد خروجه من السجن ، كان ابن ثلاثين سنة ، ويظن أنها كانت أكبر منه بعشر سنين أو أكثر ، وعليه تكون دخلت في غرة سن

الشيخوخة ونسيت الحب وآلامه ، والغرام وأيامه ، ودخلت في سن الوقار والكمال، سن التوبة والانابة الى الله ، فسلسلة هذه الأسباب هي التي خلقت هذه الاعجوبة، وأتت بهذه الخارقة ، حتى نفضت زليخا لمندوب الملك جملة حالها ، وصارحته بكشف المعمى .

معنى حصحص

الفائدة السادسة ــ حصحص ، ظهر ، برز ، ثبت ، استقر ، كلها ألفاظ متقاربة ، وهي من حصحص البعير : إذا ألقى ثفناته للاناخة ؛ وأصل حصحص حصّ ، كما في كفكف ، أصله كفّ ، وكُبْكِبوا أصله كُبُّوا ، وردرد أصله ردّ ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الا في هذه السورة .

الاجماع على سلامة شرف يوسف

الفائدة السابعة ــ تعلمون أن الذين لهم علاقة بحادثة يوسف ثمانية ، وهم : الله سبحانه وتعالى ، وابليس ، والعزيز فوطيفار ، وامرأته زليخا ، والشاهد من أهلها ، والنسوة المصريات ، ويوسف نفسه ، وثامنهم الخادمة ، وكلهم متفقون على سلامة شرف يوسف .

فأما « الله » سبحانه وتعالى فانه يصف يوسف بأنه لما بلغ أشده آتاه حكم نفسه بنفسه ، وما نشأ عنه من العلم اللدني ، ويقول : ان زليخا هي التي راودته عن نفسه ، وهي التي غلقت الابواب ، وهي التي قالت : « هيت لك » ويقول : ان يوسف أجابها جواباً سلبياً فقال لها : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » ، ويقول : « ولقد همت به وهمَّ بها » ، أي قتلاً ، وعلى الأقل لكماً وضرباً ، لولا أن رأى برهان ربه العزيز ، وهو أنه أحسن مثواه ، ويقول : « إنه من عبادنا المخلَصين » ، وحسبنا هذا وكفى .

وأما « ابليس » ، فان الله تعالى حكى عنه أنه قال يوم موآمرة « سيلان » : « إلا عبادك منهم المخلَصين » (١٥ : ٤٠) فأجابه الوكيل المفوض بقوله على حساب الله : ﴿ هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ ، إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطان ﴾ (١٥ : ٤٠ ـ ٤٢) فحالته مع يوسف كانت سلبية تماماً .

وأما « فوطيفار » عزيز مصر ، فقد كان قال لما ظهرت له الأمارة : « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » ، وخاطب امرأته بقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

وأما « زليخا » امرأة العزيز ، فقد اعترفت أمام النسوة بالحقيقة ، قائلة : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، ثم توعدته إن لم ينزل على إرادتها بقولها : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ ، ثم أقرت في محكمة التحقيق بجلية الواقع فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا مارحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

وأما « الشاهد » من أهلها ، فانه استدل بالامارة قائلاً : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ، فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين ﴾ ، وأخيراً رؤي قميصه مقدوداً من دبر ، فإذن يوسف في نظره من الصادقين في دعواه أن المراودة إنما كانت منها لا منه .

وأما « النسوة » المصريات ، فانهن إنما نسبن المراودة والحب والضلال لامرأة العزيز ، إذ قلن : ﴿ امرأة العزيز تراودفتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنالنراها في ضلال مبين ﴾ ، ثم لما رأين يوسف قلن : ﴿ حاش لله ، ماهذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ، ثم اليوم في جلسة التحقيق قلن : ﴿ حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء

وأما «يوسف» نفسه، فانه كان واقفاً مع امرأة العزيز موقفاً سلبياً، إذ قال ﴿معاذ الله! إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون﴾، حتى انه في الدرجة الثانية هم بها قتلاً أو لكماً وضرباً، وأخيراً في الدرجة الثالثة هرب من أمامها طالباً الباب، وقال بحضورها وحضور العزيز: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ثم قال يوم الضيافة النسائية: ﴿رب، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه﴾، ثم لما جاءه رسول الملك، وطلب اليه الخروج من المعتقل، أبى ذلك إلا بعد التحقيق والتمحيص قائلاً ﴿ارجع الى ربك فاسأله: مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهن عليم﴾.

وأما «الخادمات» في قصر العزيز، اللاتي لا بد أن يكن قد حضرن، عندما استبق يوسف وزليخا الباب، هرباً وطلباً، ثم سمعن حكم «الشاهد» ثم خطاب «العزيز» لزوجه: ﴿استغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين﴾ فانهن حينما نقلن هذه الحادثة لقصور الاميرات المصريات، لم يتكلمن إلا بأن «المراودة» وقعت من «امرأة العزيز» بدليل كلام السيدات المصريات، اللاء ماعلمن بالحادثة، إلا من أفواه هؤلاء الخادمات، فلو كان صدر من يوسف شيء ينافي شرفه، لنقلنه لهؤلاء النسوة.

هذا خلاصة الكلام، في تحقيق هذا المقام، ولعله يكفي لرد مازعمه (غلطاً) بعض المفسرين، مصرحين بما تتحامى عن سماعه آذان المتأدبين، مع أنبياء الله المخلصين.

تحقق صرف الكيد عن يوسف

الفائدة الثامنة — نرى «نسوة المدينة» قد ﴿قلن حاش لله، ما علمنا عليه من سوء﴾ ونرى «امرأة العزيز» قالت: ﴿الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه الخ﴾ وكل هذا كان مصداقاً لقوله تعالى ﴿فصرف عنه كيدهن، انه هو السميع العليم﴾.

الاعتراف بالخطأ فضيلة

القائدة التاسعة — لقد رأيتم أيها السادة أن هذه « المرأة » زليخا قد تناست منزلتها ، وتغافلت عن عظمتها ، ونطقت بكلمة الاعتراف ، والاعتراف بالخطـــأ فضيلة كما تعلمون ، وهو خير من التمادي فيه ، ونظن أن هذه المرأة لولم تعترف ، ثم أتت بشهود زور ، ممن لهم بها علاقة محسوبية (مثلاً) لطالت ذيول « الحادثة » وتشعبت كثيراً ، لاسيما لو ظهر فيما بعد انها مبطلة في تقديم أولئك الشهود ،فتكون العاقبة أدهى وأمر ، ولكن الله هداها « للاعـــتراف »، فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ماحكاه القرآن الكريم ، واقتصر في عقاب هـذه المرأة [و]زوجها على مجرد الطرد من الوظيفة الرسمية ، وجعلها نسياً منسياً .

« مرحى ، مرحى »

(قال ما خطبكن اذ راودتن ...الخ)

— ٢ —

ثم قام الامام القلقيلي وقال : نشكر اختنا البغدادية على ما اتحفتنا من فوائد قيمة وأرجو أن يسمح لي السادة بسرد الفرائد التالية :

انصياع الرسول ليوسف بمراجعة الملك

الفريدة الأولى — انصاع « نبو » رسول الملك ، لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف الى الملك ، فأمره باجراء التحقيقات السرية ، لأنها « دعوى » متعلقة « بالعرض » .

عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته

الفريدة الثانية — قال النسوة : « حاش لله ... الخ » وشهدن في يوسف الطهارة

والعفة ، مع انه في تلك الجلسة القديمة لم يعبأ بهن ، ولم يلتفت اليهن ، كما نعلم ذلك من أنهن ﴿لما رأينه أكبرنه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا الا ملك كريم﴾ ، وكذلك كان حال « زليخا » معه ، ثم انه لم ينزل على إرادتها شهدت فيه شهادة طيبة إذ قالت : ﴿أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين﴾ . الخ ، فهذا كله نتيجة ان في المرأة عاطفة ليست في الرجال ، فالنساء أشد تأثراً وأرق شعوراً من الرجل ، لأنهن أطوع للفؤاد منهن للعقل ، ومن كان يتكلم تحت تأثير الدماغ ، كان أقرب للكذب ممن يتكلم تحت تأثير الفؤاد ، لأن عاطفة المرأة تملك عقلها ، بخلاف الرجل ، فان عقله يملك عاطفته ، فهو الى الكذب واخفاء الحقيقة أقرب ، وأما المرأة ، فهي الى الصدق واظهار الواقع أقرب .

داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف

الفريدة الثالثة — إن وجه اندفاع « زليخا » لهذا « الاعتراف » الذي أعلنته بكل وضوح وصراحة ، مسبب عن أمور اذا اجتمعت صلحت ان تشكل سبباً قوياً حدا بها أن تعلن اعترافها ، وذلك عدا عما سبق ذكره في الفائدة الخامسة من فوائد السيدة لبنى البغدادية وهي :

(١ً) — تعلمون ان المندوب « نبو » كان قال : ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ فلا بد انه إذ ذاك كان بيّن « للملك » الريان » ولأهل « البلاط » ماذا سمع من يوسف من تأويل رؤياه ورؤيا الخباز « ملحب » وماذا رأى من أعماله وذكائه .

و (٢ً) — تعلمون أن المندوب « نبو » كان رجع من عند يوسف بعبارة رؤيا الملك ، التي كان ألقاها على « الملأ » فأظهروا جهلهم بتعبيرها ولكن « يوسف » عبرها تماماً ، وزاد على ذلك انه بيّن لهم ماذا يجب أن يعملوه .

و (٣ً) — لا بد أن يكون الشرابي « نبو » أفهم الملك عن يوسف أنه

من « العراق » تولداً ، ثم من « فلسطـــين » منشأً ، فهو « آسيوي » صرف ، يعني من « آسيا » التي منها جـلالة الملك ، ومن « العنصر السامي » الذي ينتمي اليـه الملك .

و (٤ً) — لا بد أن يكون الملك زاد ثقته بيوسف وحسن اعتقاده فيه جداً حينما أرسل اليه ليخرج من معتقله ويكون عنده فلم يقبل إلا بعـد التحقيق عن سبب اعتقاله.

فلهذه الوجوه ، ومااليها ، لابد أن يكون شاع واشتهر في « البلاط » الملكي أن « يوسف العبراني » المعتقل ، سيصير مقرباً عند الملك ، وسيكون له شأن ذو بال ، وبالطبع لا بد أن يكون عزيز مصر « فوطيفار » قد بلغه كل هـذه الحوادث وانه حكى ذلك لزوجه « زليخا » وعليه صار لسان حالها يقول:

ستُبرَى مـالكُ رقيّ	مالـكاً رقّ الرقـابِ
لم يـكن ياأحسن العـا	لم هـــذا في حسابي

فلذلك كله تغيرت حال امرأة العزيز ، وتبدلت خُطتها ، واعتدلت أفكارها عن ذي قبل ، فاعترفت بجلية الواقع ، لاسيا اذا لاحظنا انها علمت ان هذه المناظرات والتفحصات ، إنما هي بسببها ، ورأت أن النسوة قـــد نزهن يوسف ، وان التهمة انحصرت فيها ، وانها كانت في ذلك التاريخ قد تقدمت نوعاً في السن ، فتقدمت في العقل والاستقامة ، وانها قد حيل بينها وبين يوسف بضع سنين ، خمدت فيها ثورة الحب ، وان طبيعة النساء سرعة التحول والتطور ، فمجموع هذه الأشياء يصلح أن يشكل سبباً كافياً لاندفاع « امرأة العزيز » لهذا « الاعتراف » الصريح ، فعند ذلك أخذت كلمات الدفاع عن يوسف تنثال من شفتيها ، انثيال المـاء من السماء ، هذا ما أفهمه في (آ ٥١—٥٣) ، وللمفسرين ههنا كلام رجميّ ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه لايستحق أن يلتفت اليه طفل صغير .

عجباً لهذه المرأة ! وقفت هنا بروح جديدة ، موقف المدافع عن شرف يوسف ، واتفقت في هذا النطق كل ما تملك من قوة وبيان ، صار هذا بعد تلك الوقفة الطويلة التي حفظها عليها التاريخ ، وقفة الاتهام المشين، وهي أمام زوجها بالفضيحة وبعد تلك الوقفة التي وقفتها أمام النسوة ، ترعد وتبرق ، وتوعدتاها بالعقاب الأليم ، إن لم ينزل على حكمها ، فهذه « الحسنة » التي صدرت منها الآن ، هي في جانب مضايقاتها ليوسف سابقاً ، كالغرة البيضاء في الأديم الأسود ، وهذا « التقريظ » الذي نسمعه منها اليوم ، هو في جانب ماسبق من « الهجاء » كالكهرباء أمام الظلام القاتم .

فياله من تطور مدهش ! ويا له من تغير غريب !

فهي بمقدار ما اجتهدت أولاً أن تلصق به العيب ؛ فاليوم اجتهدت أن تبرىء ساحته من العيب ، فسبحان من ألهمها فجورها وتقواها ، وصدق من قال : « إن للباطل صولة ، ثم يضمحل ، ولريح الضلالة عصفة ، ثم تخفت » وصدق صاحبنا الأمير شكيب أرسلان إذ قال : « لا تطلب الثبات من ثلاثة أشياء : البورصة والتفوق والهواء ، وإن شئت فضم قلوب النساء » .

واليكم سبباً ثانياً قد ألهمته الآن وأنا ماثل بين أيديكم بين وجه تغير فكر « زليخا » :

كانت قد بقيت بقية من مرارة الحب في أعماق قلبها حتى بلغها أن حبيب قلبها قد انقلب في السجن من « شاب » الى « كهل » ومن « فاتن » الى « مفتي » يُستفتى فيُفتي ، ويُسأل فيجيب ، بل الى « واعظ » يجلس على كرسي الوعظ » يعلم المسجونين ، عقائد الدين ، كما علمنا انه صار في السجن طويل « الفرع » طويل « اللحية » ، والمصريون في ذلك العصر كانوا يعتبرون اللحية علامة « الذل » والدناءة ، فقد شوهد على الآثار المصرية ، « الأسرى » والأدنياء مصورين بلحى ،

وأما المصريون فكانوا عموماً يرون وجوب حلق لحاهم ورؤوسهم ، فكانت امرأة العزيز كلما يبلغها عنه شيء من هذا القبيل ، تتضاءل شعلة محبتها له، شيئاً فشيئاً:

ومَن يَدْه يوماً «عارضٌ» وجناتِهِ فكبر عليه أربعاً لوفاته

فكان ذلك الزمان آخر عهدها بالحب ، وكأن شبح الغرام هامةُ اليوم أو غده، فلذلك نسيت أحكام الهيام ، وسبحان من له الدوام .

هذا ما كنا وعدناكم به على لسان السيدة لطيفة المراكشية عند محاضرتها على (آ ٣٢) (وهذا كلام « المرأة » التي كانت خصيمة يوسف بالأمس ، وانقلبت اليوم محامية مدافعة عن شرفه ، وانه كان يجب أن يكون لجماعة المفسرين مغزىً وعبرة من قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ ، فينبغي لنا نحن أن لا نتعدى حدودنا ويقلّ حياءنا ، ونقول فيه كما قال فريق منا ، مما يخالف ماشهدت به زليخا ، فلا ينبغي أن تكون هي أهدى منا لمعرفة واجبات ذلك « الصديق الكريم »:

قم فقد قامت الطيور تغني لا يكون الحمام أطرب منا

(مرحى)

تتمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥٢) ذلكَ لِيَعْلَمَ أني لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ ، وأنَّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائنينَ .

استمرت الجلسة في محاضراتها وتليت الآية الاثنتان وخمسون فقام العلامة الغزي وقال :

تقول امرأة العزيز إن (ذلك) القول الذي قلته في تنزيه يوسف ، والاقرار

على نفسي بالمراودة من جانبي الذي ضحيت به شرفي وحسن سمعتي في سبيل شرف يوسف وحسن سمعته ، ليس لراعدة أتخوفها منه ، ولا عائدة أرجو أن يقبسنيها ، وليس هو دهاناً ولا تملقاً ، لا . . .لا . . . ولكن (ليعلم)يوسف (أني لم أخنه بالغيب) وإن كنت خنته بحضرته وعند مشاهدته ، ولم أغفل واجبه ، ولم أصمه بدنيئة ولم أعبه بما يشينه ، فلئن كنت منذ بضع سنين قد أحلت الذنب عليه وهو حاضر ، فلا يسعني الآن أن أحيل الذنب عليه حال غيبته ، احتفاظاً بالأمانة وحقوق الغائبين ، أي ليعلم أني لم أكذب عليه في حال الغيبة ، بل جئت بالصحيح والصدق، فيما سئلت عنه ؛ فعلت ذلك لتطيب نفسه وتقر عينه ، ويعرف أنه يوجد من يحفظ الود ، ويتمسك بالعهد ، ولو على البعد ، ولـ (أن الله لا يهدي كيد الخائنين) بل يجعله قبض الريح ، فلا ينفذه ولا يسدده ؛ وأنا الحقيرة كنت من هؤلاء الخائنين مع الاسف ، فانني أقدمت على الكيد والمكر لاجَرَم انني افتضحت ، وانه لما كان بريئاً عن الذنب لاجَرَم طهره الله تعالى بالثناء عليه .

وبعد ما سبق ذكره نذكر الذيول التالية :

توبة زليخا

أولاً — نرى الآن « امرأة العزيز » قد أقلعت عن أفكارها الأولى ، أفكار العار والدنس والكذب ، الى أفكار جديدة ، أفكار الشرف والطهارة والصدق، وهذا من نعمة الله عليها ، فتاب الله عليها من أفكار الفحشاء ، كما تاب أخيراً على اخوة يوسف من أفكار العداء (آ ٩١ و ٩٧) .

معنى بالغيب ومحله اللغوي

ثانياً — قوله « بالغيب » محله الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : « وأنا غائبة عنه ، خفية عن عينيه ، لأني هنا في قصري وهو في سجنه ، أو وهو غائب

عني ، خفي عن عيني » ، ويجوز أن يكون ظرفاً ، « أي بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار في قصرها » .

الكيد المذموم والكيد الممدوح

ثالثاً ــ خص الخائنين في قوله ﴿ وأن الله لايهدي كيد الخائنين ﴾ تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده الخيانة ، فالكيد يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، فمما هو من قبيل المذموم ، مافي هذه الآية ، وكقوله سابقاً « فيكيدوا لك كيداً » (ع ٥) ، ومما هو من قبيل الممدوح مافي قوله تعالى « كذلك كدناليوسف » (ع ٧٦) وقد مر تفصيله في آ ٥ ص ٢٨٩ .

نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم الخ الى زليخا وليس الى يوسف

رابعاً ــ قوله : ﴿ ذلك ليعلم أني ..الخ ﴾ ، قال جمع من المفسرين ، ومنهم مع الأسف العلامة الزمخشري ، إن هذا القول من كلام يوسف ، وهو في سجنه وإن الضمير في « ليعلم الخ » راجع للعزيز ، وقولهم هذا لايصح ، لأن الضمائر التي قبله ، عائدة الى يوسف ، فلا ضرورة تدعو الى حمل الضمير في « ليعلم » على العزيز ، وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخاء فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة .

فالحاصل إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث جمل ، أو ثلاث آيات ، نطقت بها أمام « المستنطق » في قصرها أو في قصر مليك مصر ، في حال وجود يوسف في سجنه ، الذي ربما يكون بعيداً عن قصور الأمراء ، كما يفيده كلمتا « فأرسلون » و « لعلّي أرجع الى الناس » ، فنسبة بعض القول ليوسف لهو من أبعد البعيد .

وأما ما نظر به صاحب الكشاف من قوله تعالى : ﴿ قال الملأُ منْ قومِ

فرعونَ : إنَّ هذا لساحرٌ عليم ، يُريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكم بسِحرِهِ ، فماذا تأمُرون ؟ — قالوا : أرْجِهْ وأخاهُ ، وأرْسِلْ في المدائنِ حاشِرين ، يأتوكَ بكل ساحرٍ عليمٍ ﴾ (٧ : ١٠٨ — ١١١) ، فقوله إن هذا لساحر . الخ هو مقول قول الملأ ، وأما قوله ، فماذا تأمرون ، فهو كلام فرعون ، يخاطبهم ويستشيرهم ، كذا قرره صاحب الكشاف ، ورد بأنه انما يجري الكلام على هذا الوجه ، اذا ألجأ اليه محوج ، كما في الآية المذكورة اذ لا يمكن جعل « فماذا تأمرون » من كلام الملأ ، فتعين أن يصرف الضمير عنه الى فرعون ، وأما في آيتنا التي في سورة يوسف ، فلا محوج فيها لمثل ذلك ، كما قرره صاحب الكشاف ، ولنا أن نقول : إن جملة « فماذا تأمرون » هي أيضاً من تتمة كلام الملأ ، أي أن فريقاً من الملأ ، قال لفريق آخر منهم ، هذا القول يستطلع رأيهم ، ولما أن سأل هذا الفريق من الملأ ، فريقاً آخر منهم ، أجاب الفريق المسؤول ، موجهين الخطاب لفرعون ، وقالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل .. الخ ، وقال بعض المعاصرين : إن الملأ من قوم فرعون ، ما قالوا هذا القول ، إلا تبعاً لقول فرعون ، الذي حكي عنه في سورة الشعراء : ﴿ قال للملأ حولَهُ : ان هذا لساحرٌ عليم ، يُريدُ أنْ يُخرجكم من أرضكمْ بسحرِهِ ، فماذا تأمرونَ ؟ — قالوا : أرْجِهْ وأخاهُ ، وابعثْ في المدائنِ حاشرين ، يأتونَ بكل سَحّارٍ عليمٍ ﴾ (٢٦ : ٣٤ — ٣٧) ، أي أنهم رددوا كلام فرعون ، وصار يلقيه بعضهم الى بعض ، كدأب الناس ، في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده ، اظهاراً للموافقة عليه ، وتعميماً لتبليغه ، فهذه ثلاثة وجوه في الآية التي استشهد بها الكشاف ، كل وجه منها يبطل الاستشهاد بها .

(وما أن نزل الخطيب عن المنبر ، حتى وقف السيد رئيس المؤتمر ، وطلب التكبير إعجاباً بتحقيق الخطيب ، فكبر الحاضرون ثلاثاً)

ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران

آ (٥٣) ﴿وما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسوءِ ، إِلاّ مارَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غفورٌ رحيمٌ .﴾

الجلسة وتليت الآية الثالثة والخمسون فقامت الآنسة خديجة اللدية وقالت :

استمرت « زليخا » في كلامها قائلة : ومع ذلك ياحضرة « المحقق » (وما أبرىء نفسي) من الخيانة ، فاني قد خنت يوسف حين قرفته ، وقلت ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ واني انحرفت عن طريق الفضيلة ، ففقدت السعادة والاغتباط في معيشتي .

ثم أرادت الاعتذار مما كان منها بقولها: (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي) أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف الذي هو تقي الجيب ، صحيح العرض ، (إن ربي غفور رحيم) وعفا الله عما مضى . هذا لفظها الذي دق وشف، وقد استعجلت في طلب المغفرة والرحمة ، مع أن يوسف لايزال بمساعيها في سجنه ؛ وما أظلم الجنس اللطيف اذا قلت إنه إذا طلب لم يصبر على التريث في الإجابة، حتى عند الطلب من السماء ، — وجملة الاستغفار والاسترحام ، جملة خبرية لفظاً ، انشائية معنى — إذ تقول : (إن ربي غفور رحيم) يتغمد الذنوب ، ويصفح عن العيوب ، وإني ممن يرجو مغفرته ورحمته ، فلست فيما حاولت من الخطيئة بأولى النساء ولا واحدتهن ، وليست رحمة الله اذا شملتني بأول رحمة شملت الخاطئات .

قال الشاعر :

يانفس لا تقنطي من زلة عظمت	إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها	تأتي على حسب العصيان في القسم

وبعبارة ثانية يمكن أن تقول :

(وما أبرىء نفسي) ولا أكذب الله، ولا أخلّص نفسي من الخيانة ، عن كل ما فعلت مع يوسف من مراودتي أنا إياه ، ولا من تغليق الأبواب ، ولا من قولي « هيت لك » ، ولا همي بالايقاع به ، ولا من تخافي له حين أراد أن يفر بشرفه ، ولا من تلويثي شرفه بنسبته لإرادة السوء ، ولا من تشويقي لسيدي أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً ، وأخيراً : وما أبرىء نفسي من كيدي له مطلقاً . فالآن اعتذر الى الله وإليه مما كان ، (إن النفس لأمارة بالسوء) ، بحسب سليقتها وغريزتها ، وبمقتضى ديدنها وعادتها ، فكل ما عملته ناشىء عن شعور نفساني ، لا عن خواطر عقلية ، لأني أعتقد أن كل ما صدر مني ، هو مما ينهى عنه العقل ، وإن أمرت به النفس فهو خدعة من خدعها ، ونزعة طائشة من نزعات الشباب . هذه جلية الواقع ، قد كشفت عنها القناع ، بمرأى ومسمع حضرة « المحقق » المحترم ، وحضرات أترابي السيدات ، وسواء عليّ أشكرت على هذا الاعتراف أم انتقدتُ ، فأنا اليوم لايهمني سوى براءة هذا العبد الطاهر ، بمقتضى ما أوحاه إلي الضمير الحر ، ولا خير في حياة يحياها المرء بغير ضمير ، ولا خير في ضمير لايخدم به الانسان صديقه المظلوم !. وهكذا لم تأل « زليخة » جهداً في تبرئة ساحة يوسف ، ونزاهة جنابه ، عن كل وصمة تعاب بها الشبيبة ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر .

(وما أبرىء نفسي ، إن النفس .. الخ)

— ١ —

وقام سيدي جعفر الجيزاوي (١) يلقي خطاب السيدة زينب الجغبوبية (٢) بالنيابة عنها فقال :

ليس من لزوم الى الاستفاضة في شرح مقررات وتراكيب هذه الآية الكريمة .

(١) نسبة الى الجيزة في مصر . (٢) نسبة الى جغبوب من بلاد السودان

فان هذا البحث قد قام به من سبقنا أحسن قيام، وانما غرضي الآن أن أذكر بعض ملحوظات لها علاقتها بهذه الآية بل والآيتين قبلها واليك البيان :

اطلاق لفظة « ما » على العاقل وغيره اذا اريد بها الصفة

الملحوظة الأولى — قيل « ما » في قوله « مارحم » ، ذهاباً الى الصفة ، أي « المرحوم » ، ومتى أريد بها الصفة ، أطلقت على العاقل وغيره ، ومن أمثلته : (لاأعبُدُ مـا تعبُدونَ ، ولا أنتم عابِدونَ مـا أعبُدُ » (١٠٩ : ٢ و٣) فلفظ « ما » في هذه الآية ، اريد به الصفة : أي « المعبود » ، أو يقال : إن امرأة العزيز تتكلم في الاناث من العقلاء ، يجـري مجـرى غير العقلاء ، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : « فانكِحوا ماطابَ لكم من النساءِ » (٤ : ٣) وقوله : « أو ماملـكت أيْمانكم » (٤ : ٣) ، ألا ترى أنه قد جاءت « من » عند ارادة الذكور من العقلاء؟- كقوله : « لاعاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » (١١:٤٣) ، وقوله : « ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك » (١١ : ١١٩) وقوله : « يومَ لايُغني مَوْلىً عن مَولى شيئاً ، ولا هم يُنْصَرونَ ، إلا مَنْ رَحِمَ الله ». (٤٤ : ٤١) .

فضائل الرحمة ومزاياها

الملحوظة الثانية — قوله : « إلا مـارحم ربك » ، فرحمة الله ، تبعد النفس عن أمرها بالسوء ، كما أنها تقرب للانسان العصمة : « لاعاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إلا مَنْ رحمَ » (١١ : ٤٣) ، وتنفي عن الناس الاختلاف : « ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رحمَ ربك » (١١ : ١١٩) ، وتمنع العذاب يوم القيامة عن الانسان: « يومَ لا يُغني مولىً عن مولىً شيئاً ، ولا هم ينصرون ، إلا من رحِمَ اللهُ » .

(٤٤ : ٤٩)، «قل إني أخافُ إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ، وذلك الفوزُ المبينُ» (٦ : ١٥ و ١٦)، «ومَنْ تقِ السيئاتِ — أي عقوباتها — يومئذٍ، فقد رَحِمْتَهُ، وذلك هو الفوزُ العظيم» (٤٠ : ٩) الى غير ذلك من فضائل الرحمة ومزاياها.

رحمة الله الخاصة ورحمته العامة

الملحوظة الثالثة — تعليقاً على قوله ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ فبا عتباره «غفوراً» نرجو أن يكون قد غفر الله لامرأة العزيز، إذ هي قد اعترفت وندمت، وغالباً عزمت على عدم العود، وباعتباره «رحيماً» لم يوح ليوسف بقصاصها وعقابها، هذا من جهة رحمته الخاصة بها، وأما من جهة رحمته العامة، فإنه تعالى أزالها عن سمو درجتها، ورفع عن رأسها التاج، بإنزال سيدها «العزيز» عن منصة الحكم، هذه هي الرحمة الخليقة بتربية أخلاق الأمة، وهذا هو الحنوّ الإلهي الذي يخفف من إجرام المجرمين، وأما الرحمة التي هي مجرد عفو عن الظلمة أو القتلة أو السراق مثلاً، فما هي إلا تكثير للظلم أو سفك الدماء، أو السرقة، لأنها تولد الميل لارتكاب أمثال هذه الجرائم.

إننا وإن كنا نشعر بحزن عميق، من أجل المجرم، الذي يعاقب من جراء جرمه، إلا أنه يجب علينا أن نعاقبه، لتمنع الآخرين، ولنمنعه هو أيضاً من العودة، إنه لمن أفظع الأعمال، أن نديره الخد الآخر، وإن ذلك لمريع جداً، لأنه يشجع الشريرين، على السير في تيار جرائمهم. (هكذا رأيته في كلام لحضرة اللورد هدلي المسلم الانكليزي رحمه الله تعالى).

أقوال في توبة زليخا

الملحوظة الرابعة — (قيل إن «زليخا» اضطرت للاعتراف اضطراراً،

حيث رأت ان النسوة ، قد شهدت فيه شهادة طيبة ، ورأت أن مليك مصر أحبه، وأراد أن يقربه من لدنه ، فهي ليست مخلصة في هذه التوبة) وفي هذا القول نظر ، فان العبرة بالظاهر ، وهي ظاهراً قد تابت وحسنت توبتها ، وقد ثبت في في الصحيحين عن « أسامة بن زيد » رضي الله عنه أنه قال : (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلاً فعلوته بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فطعنته فقتلته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، — فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ — قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح — قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً من السلاح أم لا ؟ — فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .

نهاية سيرة العزيز وامرأته

الملحوظة الخامسة — آخر كلمة تكلم بها «عزيز مصر» هي قوله: ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (ع ٢٩) ، وآخر كلمة تكلمت بها امرأته ، قولها ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ ، فكأنها امتثلت إرشاد سيدها لها بالتوبة والاستغفار ، لكن بعد حين ، وبعد حوادث وعواصف ، والى هنا انتهى تاريخ « العزيز وامرأته » وطويت صحيفة ذكرهما ، وتداعى مجدهما ، كما يتداعى بيت أقيم من الورق ، أو قصر بني على الرمال ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وبسبب هذه الحوادث ، قد خسر « العزيز وامرأته » خسارة عظيمة ، مادياً وأدبياً، فأما خسارة العزيز المادية ، فبنزوله عن وظيفته ، وأما خسارته الأدبيه فبتساهله بالجمع بين امرأته وفتاه ، ثم تساهله في مجازاة امرأته ، بعد ظهور خيانتها ، وأما خسارة «زليخا» المادية فبنزول تاج وظيفة سيدها عن رأسها. وأما خسارتها الادبية فبما حفظ عليها التاريخ ،من سقوطها في هوة محاولة الشهوة البدنية ، وهكذا شأن كل ظالم مستبد ، خارج عن قوانين شريعة الأدب ، فان الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وما ربك بظلام للعبيد .

العار دائم والسبة خالدة

الملحوظة السادسة — كانت « امرأة العزيز » بما فعلت سابقاً ، كتبت لنفسها بيدها صحيفة سوداء ، في تاريخ حياتها ، ولكنها اليوم بما أقرت واعترفت ، وبما ندمت واستغفرت ، قد شطبت من تلك الجريمة شيئاً أو كل الشيء ، ثم هي اذا كانت قد تابت الى الله توبة خالصة ، فلا ريب أن الله يتوب عليها ، ويغفر لها ، فلا يؤاخذها يوم الدين ، ولكن على كل حال فالعار دائم والسبة خالدة ، فليعتبر بذلك المعتبرون والمعتبرات ، ويأخذوا لأنفسهم كل أنواع الحذر والحيطة .

زليخا مجرمة عزماً وليست مجرمة فعلاً

الملحوظة السابعة — لم نر في تاريخ الإناث الشقيات ، أخف شقاء من هذه « المرأة » لأنها اعترفت أخيراً أمام مندوب الملك ، وصرحت بجلية الواقع ، وذادت عن غريمها . وانتصرت له على نفسها ، وأعلنت ندمها وتوبتها ، وطمعت في غفران الله ورحمته ، وقليل جداً من الشقيات من يصدر عنهن كل هذا .

ثاب لهذه المرأة رشدها ، وحاولت الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ولا ريب أنها اذا كانت مخلصة - ولا نخالها إلا كذلك — إن الله يتوب عليها ، ويفتح أمامها أبواب السماء ، كما هي مفتوحة للقاتلين والجاحدين ، متى تابوا ، لا سيما أنها أرادت السوء فقط ، ولم تساعدها الاحوال على حصولها على ما أرادت ، فهي « مجرمة » عزماً ، غير مجرمة فعلاً ومباشرة ، فجرمها أخف من جرم من سقطت بالفعل ، كما أن جرم من تسقط فعلاً وهي مستترة ، أهون من جرم من تكون في المواخير ، تقف نفسها في سبيل الفحشاء على وجه القحة والمجاهرة .

هذه « المرأة » لا هي شريفة ، بحيث تعد من السيدات الشريفات ، ولا هي متينة القلب غير حساسة ، حتى تعد من النساء الساقطات ، بل هي في منزلة بين

المنزلتين ، لأن كل ماصدر منها إنما هو « المراودة » ثم انها أخيراً تابت وثابت، فوجدت أمامها رباً غفوراً رحيماً .

بهذا الاعتراف المقرون بالتوبة والندم ، نعلم أنه قد وجد في هذه « المرأة » التي تعد نصف ساقطة ، فضيلة من فضائل النفس ومزاياها ، لا توجد إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، فقد ضحت بشرفها في سبيل الدفاع عن يوسف ، ولعمر الحق ان هذا النوع من التضحية ، لهو نادر الوجود في هذا العالم ، المتمدين الحاضر ، الذي يعد نفسه من عالم النور .

مؤثرات الحب في النفس والاخلاق

الملحوظة الثامنة ـ الحب يخفف الغضب ، ويذلل الأسود ، ويستأسد الجبابرة، وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ، فاذا رأيت انساناً في خلقه جفاء وخشونة ، فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد ، نعم إن حب « امرأة العزيز » ليوسف ، لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لايمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير ، لاسيما وانه لم يفسد بفعل الفاحشة ، فالحب وإن ظهر في الناس ، مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم ، فسببه واحد، وهو الجمال الجاذب ، ونتيجة واحدة، وهي تلطيف الطبع ورقة القلب ، وهذا ماحمل « زليخا » على أن نسمع منها هذا « الاعتراف » الذي هو من قبيل رد القول ، وعلى أن يصدر منها هذا « الندم » الذي هو من قبيل مايسمى ردّ الفعل ، فحبذا هذه العبقرية التي يسجلها لها « التاريخ » بعداد الاعجاب .

نعم . نعم . قلنا ولانزال نقول : إن هذا النوع من التعقل والخضوع والإنابة، الذي صدر من امرأة العزيز ، هو شأن كل من عرف الحب ، وشعر به ، لأن الحب يدمث الأخلاق ، ويلطف الطباع ، وله الأثر البليغ في تهذيب العقول ،

وترويض النفوس ، وهو أبو الشفقة وشقيق الحنان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً ، لأن الذي لا يُحب ، لا يرحم ولا يشفق ، ولا يكون فيه شيء من عواطف المحبين . فلذلك استقام طبع « زليخا » وتحولت مجاري أفكارها ، وبدأت تطري يوسف ، وتقرظه بما هو أهله .

زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها

الملحوظة التاسعة — إن « زليخا » ههنا باعترافها سهلت على يوسف الخروج من سجنه شريفاً ، ومهدت له الجرأة أن يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، ولولا ذلك لقامت دون خروج يوسف من سجنه الحوائل ، ولتعرقلت مساعيه فيما رغب ، إذ كان يمكنها أن ترفض « العلامة » التي أقامها « الشاهد من أهلها » قرينة على انها هي المراودة بأن تقول : « إنما جذبته من خلفه لأمسكه فأضربه ، لأنه لما راودني غضبت عليه فهرب » كما يمكنها أن ترد تزكية النسوة له بأنهن كنّ لما رأينه عشقنه حتى غبن عن إحساسهن ، وقطعن أيديهن ، فتزكيتهن له معلولة ، كما كان يمكنها أن تقول : « لو شهدن — أي النسوة — عليها بأنها أقرت واعترفت بمراودته وأنه استعصم يطعنها في شهادتهن لأنهن حسدنها عليه » ، فمع إمكان كل ذلك لها لم تفعل ، بل أحجمت عن كل ما ذكر ، بل أقرت واعترفت ، بأن الجرم إنما كان من جانبها ، وزيادة على ذلك أثنت عليه ثناءً حسناً ، وصدق عليها انها أحيت يوسف ، مع تمكنها من موته ان لم يكن جسمانياً فمعنوياً .

صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط

الملحوظة العاشرة — لا ندحة من انه كان لجواب هؤلاء النسوة — لا سيما امرأة العزيز — صداه العظيم في قصور أميرات مصر ، وفي بلاط الملك ، حتى رنت له « صَوْعَنْ » رنة استغراب واندهاش ، مع الاعجاب الشديد بيوسف وطهارته .

(وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة ...) الخ

— ٢ —

وقالت السيدة لطيفة الكشميرية [1] :

عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته

الى هنا انتهت سلسلة ذكريات « امرأة العزيز » و « العزيز » ، وطويت صحيفتهما ، وأتى الدهر على جميع ما كان لهما من ترف ونعيم ، وجاه ونفوذ ، وذكر جميل ، ولم يبق لهما من ذلك كله إلا تلك السيرة التي تتلى في مدارس اليهود والنصارى والمسلمين ، في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، في حلقات الوعظ ، في المحاريب والنوادي والحفلات ، وفي البيوت ، حتى في مراسح التمثيل ودور السينما ، فلتعتبر السيدات والآنسات ، وليحافظن على عفتهن ، التي هي كل مايملكن من شرف وافتخار ، وليعتبر الامراء والوجهاء وليحتفظوا من الوقوع في مثل هذه الاشراك ، التي تجر عليهم العار والشنار ، فان هذه السيدة ماسجلت في بطون الكتب الدينية إلا للعبرة والذكرى .

إلى هنا ينتهي ذكر زليخا وفوطيفار ، ولم يعد لهما ذكر في كتاب الله تعالى ، وأصبح ذكرهما أثراً بعد عين ، أثراً من الآثار الدارسة ، التي يهديها التاريخ الغابر للتاريخ الحاضر ، ولم يبق إلا ذكر يوسف ، فكأن سعادة يوسف وأهله بنيت على أنقاض شقاء فوطيفار وأهله ، وهكذا شأن الدنيا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى هنا يتم القول في تلك الفتنة التي أضرمت زليخا نارها ، وتم تاريخ عزيز مصر وآذن نجم سعده بالأفول ، ولقد صدق من قال :« مايبنيه الرجل من الآمال

(١) نسبة الى كشمير من بلاد الهند

في سنة ، تهدمه المرأة في يوم واحد ، ولو كان تاريخ النساء مسطراً ، لصح أن يدعى تاريخ العالم بأسره ، لأن النساء أصل كل ثورة في الممالك أو في الاسر ، وقد قيل : « المرأة سر غامض ، منها يولد الرجل ، وبها يحيى ، وبها يموت ».

هذا وإن في كتاب الله تعالى ، في سورة النساء ، اللاتي هذه المرأة « زليخا » منهن ، ثمان آيات ، هي خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، كما أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس ، رضي الله عنهما :

الآية الأولى والثانية والثالثة — قوله تعالى : ﴿ يريدُ اللهُ ليُبَيِّنَ لكم ، ويَهْدِيَكم سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبلِكم ، ويتوبَ عليكم ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ ، واللهُ يريدُ أنْ يتوبَ عليكم ، ويريدُ الذين يَتَّبِعُونَ الشَّهواتِ أنْ تميلوا ميلاً عظيماً ، يريدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عنكم ، وخُلِقَ الانسانُ ضعيفاً ﴾ (٤: ٢٥ — ٢٧).

والآية الرابعة — قوله تعالى ﴿ إنْ تَجتَنِبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنهُ ، نُكَفِّرْ عنكم سيئاتكم ، ونُدْخِلْكم مُدْخَلاً كريماً ﴾ (٤ = ٣٠) .

والآية الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مِثقالَ ذرةٍ ، وإنْ تكُ حسنةً يُضاعِفها ، ويؤتِ من لَدُنه أجراً عظيماً ﴾ (٤ : ٣٩) .

والآية السادسة — قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يعمَلْ سوءاً أو يَظلِمْ نفسَهُ ، ثم يَستغفِرِ اللهَ ، يجِدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

والآية السابعة — قوله تعالى : إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ ، ويَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ ﴾ (٤ = ١١٥) .

والآية الثامنة وهي الأخيرة — قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ، ولم يُفرِّقوا بينَ أحَدٍ منهم ، أولئكَ سوفَ يُؤتيهم أجورَهُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ ١٥١) .

الى هنا يتم خطاب الاعتراف ، الذي صدر من زليخا ، وقد قيل إنه كانت لتلك المرأة عذر في مراودتها ليوسف ، وذلك أن زوجها كان « خصياً » ، ورُدّ

بأن هذا القول مأخوذ من تعبير سفر التكوين عنه : « بخَصِيٍّ فرعون » ، ولكن هـذا الأخذ غلط ، لأن لفظ « خَصِيّ » لا يراد به أصل معناه ، بل يراد به من يكون « ناظراً في الحرم » ، لأن الذين كانوا يستخدمون في الحرم ، جرت العادة أن يكونوا خصياناً ، ولهذا ترجمت في بعض الترجمات غير العربية « برئيس الحرم » هكذا قاله بعض شراح سفر التكوين ؛ وقيل إن زوجها فوطيفار كان دميماً ، فلما رأت يوسف ، ظهر لها بالمقابلة قبحه أكثر وأكثر .

إن اعتراف زليخا بجلية الواقع ، بعد أن أنكرت قبلاً تمام الانكار ، وانقلابها الخطير من مهاجمة الى مدافعة ، ومن ظالمة الى عادلة ، ومن كاذبة الى صادقة ، كان كله بحسب النواميس الطبيعية ، وبحسب الظاهر ، وأما العامل الحقيقي في تغيير فكر زليخا وعدم ثباتها على الكيد ليوسف ، هي ورفيقاتها النسوة المصريات ، هو الله تعالى مقلب القلوب ومصرف الأمور ، تحقيقاً لسابق قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ (ع ٣٤) .

ختمت امرأة العزيز اعترافها بأن ربها غفور رحيم ، إيذاناً بطمعها فيها ، قال تعالى ﴿ قُل ياعبادي الذين أسرَفوا على أنفسِهم ، لا تقنطوا من رحمةِ اللهِ ، إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفورُ الرحيم ﴾ (٣٩ : ٦٣) وقوله تعالى: ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٥٥) ، والمغفرة من الغفر وهو الستر، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه ، لا ينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن بأن لا يبقى له أثر في النفس، لا ظاهر ولا خفي ، وبناء على هذا ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، وانما عبرت امرأة العزيز بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأنها لم تطمع إلا فيه فقط ، وربما يقال : إن الفرق بينهما لغوي ، واما النتيجة فهي واحدة . (مرحى)

وعند هذا الحد يختم الفصل الأخير من رواية هذه المرأة وزوجها فلا يذكران أبداً ، وكأنهما ما كانا :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

الباب الرابع

الفصل الأول

من ظلمة السجن الى نور الحرية وخروج يوسف من السجن بريئاً

آ(٥٤)﴿وقالَ المَلِكُ: «ائتُوني بهِ أستَخلِصهُ لِنَفسي». فلما كَلَّمَهُ، قالَ: «إنَّكَ اليومَ لَدَينا مَكينٌ أمينٌ».﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والخمسون، فقام الجان عبد السلام التتري [1] وقال:

دع المقادير تجري في أعنتها	ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين رمشة عين وانتباهتها	يغير الله من حال الى حال

لندع أيها السادة امرأة العزيز والنسوة المصريات لغير أجل، فإن قصصهم قد انقضى، ولنعد ليوسف الصديق وخروجه من السجن، فالآن ستنتهي سلسلة آلامه، ويبتدىء أن يدخل في دور جديد.

لقد تقدم آن «الرسول» أجرى التحقيقات اللازمة وما هي الا جولة في هذا المعترك السري، حتى عاد من بعدها متأبطاً في حقيبته نتيجة التحقيق، أو أنه حكى شفاهياً ما رأى وسمع في غرفة «الاستنطاق» من وقت دخوله بها الى وقت خروجه منها، ولا نسل عن سرور الملك، وشدة محبته ليوسف، غبَّما بلغه نتيجة التحقيق، (و) لذلك (قال الملك) الريان، والاهتمام ظاهر في كلامه

(١) نسبة الى قوم التتر وهم اصول الاتراك القدماء

ممزوجاً بالشوق (ائتوني به) سراعاً ، لأنني أتصور أن هذا الشخص هو المرساة المتينة التي تمنع سفينة مصر من أن يجرفها تيار الجدب والقحط (أستخلصه لنفسي) وأستخصه وأصطنعه لشخصي ، وأصطفيه ، وأنتخبه لذاتي وأزلقه الي ، بحيث أرجع اليه في تدبير مملكتي ، وأعمل على اشارته في مهات أموري ، يكون عندي كمستشار أوناموس ؛ فذهب الرسول الى يوسف ، وأنبأه بقوله : « لقد جرت التحقيقات السرية ، حسبما رغبت ، فكانت النتيجة براءة ساحتك من كل وصمة ، فالسيدات نساء الأمراء قد شهدن فيك بالطهارة ، بل إن نفس « امرأة العزيز » قامت كمدافع عنك ، واعترفت بأن المراودة كانت منها فقط ، وانك صادق ، وهي المبطلة ، ودافعت عنك دفاعا مجيداً ، ولم تأل جهداً في بيان طهارتك وعفتك ، وعليه « فالملك الريان » يكرر طلبك ، ويأمر بشخوصك اليه »فلما سمع ذلك قال : « الحمد لإيلي ، والشكر لإلوهي ، غب الصباح يحمد القوم السُّرى » ثم خرج من السجن ، بعد ماودع رفاقه فيه ، ومع أنهم سرّوا بالافراج عن صديقهم الصديق ، فقد أحسوا في آنفسهم بشيء أقلق راحتهم ، لايدرون ماهو ؟ وقد فاتهم انه سهم مفارقة يوسف اليهم ، الذي كان في السجن تعزية لهم ، فما هي الا جولة أو جولتان حتى وصل الى حيث مجلس الملك فدخل عليه ، وقال له : أبيت اللعن أيها الملك ، (فلما) وقف بين يديه ، رآه فلمس قلبه قلبه ، و (كلمه) يوسف ، فعجب الملك من فصاحته وقال : حقاً إن في الزوايا خبايا ، حقاً إن الرجال تحت طي لسانهم ، لاتحت طيلسانهم ، حقاً إن الحديث أدل على الرجل من لباسه ، حقاً إن يوسف هذا هو ملء الاذن ، كما هو ملء العين ، وعند ذلك قال له الملك بلسان الوعد والتطمين : لله أبوك ! ، (إنك) عندنا ياأخا العبرانيين (مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل شيء ، أو آمن من كل ماترهب مابقيتُ وبقيتَ ، فأنت المضطرب الخائف سابقاً ، والثابت الآمن لاحقاً ، أنت الذليل المتهم بدءاً ، وذو المكانة والمأمون آخيراً ، أنت

العظم واللحم ، ونحن الجُنة والرداء» ويحتمل ان معناه مكين في ملكي ، أمين على تدبيره .

«وقال الملك ائتوني به ..» الخ

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الغفار الجركسي :

طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المندوب من التحقيق

كان تعبير للملك تأويل يوسف لرؤياه ، كما علمت ، ورآه من أهل الفضل والحنكة والسياسة ، ثم ظهرت له من نتيجة التحقيقات براءته ، ورأى أنه يوجد بينهما صلة وثيقة ، وهي الاتحاد في الوطن الأسيوي ولذلك ، ولكون الملك الريان آسيوياً أولاً ، وملكاً على مصر ثانياً ، قال : إن هذا السجين كريم الشيمه ، مرضي الأخلاق ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وأجعل له في مجلسي المقام الأول فقد يلوح لي أن هذا الفتى فيه روح ، روح الأمانة ، روح الحكمة ، روح الاقتصاد روح الفهم ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وعلى باقي النبلاء السلام ، أسرعوا بالفيئة اليه ، فلم يبق معي أكثر من صبر ساعة ، وإن غداً اليوم مابعده — هذا كلام «الريان» وهذه مساعيه الجميلة ليوسف ، وهو مع كونه وثنياً ، أحب يوسف وأخرجه من سجنه ، ولكن إخوته المؤمنين ، وفي غيابة الجب قذفوه ، ولقد صدق من قال : «إذا ضيعك الأقرب ، أتيح لك الأبعد ».

فأتى اليه «الرسول» وأنبأه بما كان من أمر براءته ووقعه من نفس الملك الموقع الأول ، وحبه له حباً لا ينقصه إلا الموت ، ثم أراده على الخروج من السجن بأمر الملك الريان ، فعندئذ آنس يوسف أنه لا مانع من خروجه ، وأنه قد استحصل على البراءة تماماً ، وعلى حسن السمعة وطيب السيرة ، وان الملك قد وثق به وأحبه ،

فابرقت أسارير وجهه ، فقام وقال للسجناء : أستودعكم الله ، ثم خرج من السجن باسم بريء ، بعد أن كان دخـــله باسم متهم ، فحضر بين يدي الملك ، وعمل له « الريان » حفلة تكريم ، جمع له فيها الوزراء وجميع كبراء البلاط ، وعزاه بما أتى عليه سابقاً ، وطمأنه وهنأه بما سيلاقيه من الحفاوة ، فشرع يوسف يكلم الملك ، فنال حظوة في عينيه ، وتبادل معه الحديث ، وأحبه أكثر من ذي قبل ، واحتفى به بنوع خاص ، واقتص منه تأويل رؤياه ، لكي يسمعه منه باذنيه ، قائلاً له : أعد عليّ تعبير الرؤيا كله . ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، فجعل يوسف ينثر كلامه والملك مصغ اليــــه ، ولم يمض فواق حتى عرف الملك تأويل حلميه ، فدهش منه أيما اندهاش وأنشد :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخَبَرَ الخُبْرُ

وقال له عند ذلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ومن معلقة زهـــير ابن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادتـــه أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(وقال الملك ائتوني به ...)الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الاله اليافي مستأذناً رئيس المؤتمر في بيان مايراه من فوائد في هذه الآية الكريمة وبعد أن أذن له قال :

عدد جيئات الرسول السجن

(١) — جملة جيئات الرسول « تبو » للسجن أربع مرات ، فالمرة الأولى

كان متهماً بجريرة المؤامرة على الملك ، والمرة الثانية لما ذهب إلى يوسف ليستفتيه عن رؤيا الملك ، والمرتان الأخيرتان لأجل إخراجه من السجن الى الملك، فافهم.

دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه اياه لنفسه

(٢) — أصبح يوسف كأنه جبل مغناطيسي ، وأصبح قلب الملك كأنـــه قطعة حديدية تحاول أن تنفصل من جسم الملك وتترامى لجهة يوسف ، فلما أحس الملك بهذا التداعي المدهش ، قال ائتوني به .. الخ وبعبارة أخرى : وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته ، فازداد شعوراً بالانعطاف اليه ، وردّد في ذاكرته ما آنسه فيه قبلاً من الذكاء والفهم حين أول رؤياه ، فناداه ضميره باستخلاصـــه لنفسه ، فلبي نداء الضمير ، وقال : السَبْقَ السَبْقَ ، والسَّرعَ السَّرعَ ، صيروا اليه وأسرعوا الكرة ، وائتوني به أستخلصه لنفسي . فاني إذا منيت بـه ، قويَ ساعدي ، واشتد عضدي .

ثم تعبير يوسف سابقاً رؤيا الملك ، وتدبيره الذي ذكره للخروج من ذلك المأزق الحرج ، ثم ظهور الظلم الفادح في سجنه ، وانه بريء مما نسب اليه ، مع ظهور أنه سامي فلسطيني ، وليس من الأمة المصرية ، — كل ذلك ترك أثراً قوياً في نفس الملك ، حببه فيه حباً جماً ، فرغب في استخلاصه لنفسه .

هندام يوسف حينما استعد لمقابلة الملك

(٣) — لما أراد يوسف الخروج من السجن ، حلق وأبدل ثيابه (تك ٤١ : ١٤) وإنما حلق لأن المصريين ما كانوا يطلقون رؤوسهم ولحاهم إلا في أوقات الحزن ، وكان حلق الرأس عادة في كهان العرس ، خلافاً للفلسطينيين يومئذ ، فقد كانوا يعدون اللحى زينـــة الرجولية ، وشوهد على الآثار المصرية الأسرى والأدنياء

مصورين بلحى (١) ، ولذلك كان يوسف في السجن طويل الفرع واللحية ، رمزاً لحزنه ، أو تقليداً لأهـــله ، فلما دعي الى المثول في حضرة مليك مصر حلقها ، لأن حزنه زال ، ولأن المصريين يكرهون فرع الرأس واللحية ..

اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه

(٤) — سمع الملك الريان كلام يوسف فوقع في نفسه وأكبره ، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، تختلف صورتها عن صورة الأسمال الحقيرة التي عليه ، وانه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام ، فضلاً عن بضع سنين ..

وقـــد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلاهم ، ثم باسمائهم وأنسابهم وما يحملون من رتب وأوسمـة ، فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم ، ونرى ملك مصر ههنا انما قـدر يوسف وأجلّه بما رزقه الله من مواهبه السامية ، وأفكاره الثاقبة ، كما قال أفلاطون لجليس لـه :

« تكلم لأعرفك » ، فلذلك ولمـا كلمه يوسف قال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين ».

عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك

(٥) — كان يوسف عليه السلام لما وقف بين يدي الملك ابن ثلاثين سنة ، ولكن يوسف لايعتبر من تلك الأعوام الطوال التي عاشها في دلك العالم المنكود سوى (١٧) سنة ، وهي السنون التي مضت عليه وهو في حضن والده .

---

(١) كما قاله هيرودوتس ،

تفاهم يوسف مع الملك في اللغة

(٦) — كلم يوسف الريان، وكانا يتفاهمان تماماً، لأن لغة الريان عمليقية، وهي قريبة جداً من العربية، أو هي عربية، ومعلوم أن العربية والعبرانية متقاربتان، وكذلك كان يوسف يتفاهم مع القبط المصريين الأصليين، لأن القبطية قريبة أيضاً للغته، والحاصل ان اللغة المصرية القبطية واللغة العبرانية واللغة العمليقية واللغة السريانية واللغة المديانية، قريب بعضها لبعض، فكأنها من أمهات مختلفة لأب واحد، ولذلك كان بإمكان الجميع متى اجتمعوا أن يتفاهموا.

دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه

(٧) — قيل إن يوسف دعا لأهل السجن حين خروجه منه، فقال: (اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عنهم الاخبار، فهم أعلم الناس بالحوادث والواقعات) وقيل كتب على باب السجن: (هذه منازل الابتلاء، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء).

العبرة في هذه الآية وما بعدها

(٨) هذه الآية والآيات بعدها تعلم الانسان عدم الحسد، لأنه بقراءتها يعلم انه يوجد في التاريخ من كان عبداً اشتري بثمن بخس ثم ترقى الى درجة عالية في دار الحكومة، حتى صار من الوزراء العظام.

يوسف وزير مالية

آ (٥٥) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والخمسون فقام السيد عبد القهار الألباني[1] وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الملك الريان : ياذا الجـــلالة (اجعلني) ولّني (على خزائن الأرض) حاصلات الأرض المصرية عموماً المخزونة في حقول القرى والمدن والحصون (إني حفيظ) أحفظ ماتستحفظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف بها.

ونرى هنا ان يوسف قد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، فقال له الملك : « أنت لها ، أنت لها، قد فعلت» فأوقف يوسف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمة مصر والمصريين ، بل وما اليها مما جاورها من فلسطين وغيرها .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

— ١ —

وقال السيد الحضرمي[2] :

مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر

آنس يوسف من نفسه من النشاط والذكاء وعلوّ الهمـــة مايؤهله لإدارة.

(١) نسبة الى بلاد الألبان الاسلامية .
(٢) نسبة الى حضرموت احدى مقاطعات جنوب الجزيرة العربية .

وزارة مالية مصر ، فاقتحم هذه الطلبة ، ولسان حاله يقول :

ذريني أنل مالا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

أو يقول :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً الى آماله ومعلقا

أو يقول :

أين فضلي إذا قنعت من الد هر بعيش معجل التنكيد
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وهو عليه السلام وإن لم تسبق له خدمة في الحكومة وإدارة شؤون ماليتها إلا أنه كان على مذهب من يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

على أن الله عز شأنه قال في شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (ع ٢٢) وليس بعد هذا بيان لمستبين .

فلذلك قال للملك الريان : (ياصاحب الجلالة ، عيني على حاصلات أرضك أرض البلاد المصرية عموماً ، التي تختزن الحاصلات والغلال في حقولها ومزارعها وحصونها — وكانت تلك الحاصلات عبارة عن القمح والشعير والذرة الصفراء والبرسيم والكروم والتين والزيتون والجميز والقصب والبلح والتمر وما أشبه ذلك من غلات مصر » كما يعلم ذلك من التواريخ القديمة — ثم أردف يوسف قائلاً : إني

خلقت اقتصادياً وعشت اقتصادياً ، ودم العلم والخبرة جار في عروقي ، وملكة المعرفة سارية في جوارحي ، حفيظ للأموال ممن لا يستحقها ، حفيظ لها في خزائنها ، خبير بالوجوه التي يمكن تحصيل الدخل والمال منها ، خبير بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال اليها ، عليم بمصالح الناس وبمواقع حاجاتهم ، عليم بوجوه التصرف دخلاً وخرجاً ، وهذا هو سلاحي الذي أتسلح به وهذه هي حليتي التي أتحلى بها ، وهذه هي وسيلتي التي أتوسل بها إلى مليك الديار المصرية ، ليس لي سلاح ولا حلية ولا وسيلة بعد الله تعالى سوى الخبرة والحفظ والأمانة . هذا ولا نشك بأن الريان قال له : (ذلك الظن بك أيها العبراني الاقتصادي الحيسوب القدير) ، ثم التفت إلى وزرائه وقال لهم : (هل نجد رجلاً ينهض بالعمل في بلاطنا ويستقل به استقلالاً أحسن من هذا الفتى ، هل نرى انساناً أجزأ للعمل وأمضى من هذا الإنسان ؟ . . . كلا . . .) ثم أمر فجعله كما طلب في مهرجان عظيم ، وقد هاج المصريون وماجوا من هذا المهرجان والموكب الذي عمل لأجله ، وكان هذا الحادث يعد من الحوادث التاريخية الباهرة في تاريخ يوسف . وبهذه الحادثة يكون انتهاء فصل المأساة التاريخيه وبدء لعصر جديد ونتعلم من هذا الذي حكاه الله تعالى عن (الريان) — وهو وثني — أن ننظر عند إسناد الوظائف للكفاآت ، لأنه إذا كانت الحكومة الوثنية — حكومة مصر — قد جرت على هذه الطريقة المثلى ، فأولى أن تجري على ذلك الحكومات ذات الأديان السماوية .

لقد ادعى يوسف دعواه السالفة الذكر وأتى من العمل بما يصدقها وحفظه له التاريخ ، إذ قام بما أصاره اليه الريان مليك مصر من الأمر ، أحسن قيام وأتى بكل ما عصبه به ، وعوّل عليه فيه ، فكان هماماً أحوذياً ماهراً ، لا يفوته

شيء ، ولا يعجزه أمر ، مشمراً للأعمال ، يسوقها أحسن مساق ، لايشذ منها عنه شيء ما .

ونتعلم من كلام وعمل يوسف عليه السلام ، أنه ينبغي للعاقل — إن كان عاقلاً — أن يسعى في طلب الدنيا ، ليعيش بشرف ، وغني عن الناس ، ولا يتكل على مايأتي به الأيام ، ورحم الله من قال :

لعمرك إن المال قد جعل الفتى نسيباً وإن الفقر بالحر قد يزري

وقال آخر :

ولا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وفي الحديث الشريف : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل) .

«اجعلني على خزائن الأرض . . . الخ »

وقال الاقتصادي الكبير الأستاذ الدمشقي :

عمل يوسف في سني الخصب والجدب في مصر

لقد طلب يوسف عليه السلام أن يكون جابياً للحاصلات في سني الخصب السبع وخازناً لها ، ثم بائعاً لتلك الحاصلات في سني الجدب السبع الأخيرة .

ويظهر أن هذه الوظيفة التي هي عبارة عن الجباية فالخزن فالبيع وظيفة جديدة لم تكن من قبل ، لأنه لم يكن لها داع ، وقد جاء في سفر التكوين وشرحه أنه يظن أن أهل مصر كانوا يعطون الملك ، عشر الغلال ، ولكن يوسف أشار على الملك أن يأخذ خمس الحاصلات ، وكان إعطاؤهم للملك ضعفي ما كان يأخذه سابقاً ، ليس ثقيلاً عليهم في سني الخصب ، لكثرة غلالها كثرة لم تعهد ،

ويرجح أنهم علموا ما كان من حلم الملك ، فكان ذلك مما خفف عليهم دفع الخمس .

وقد جمع يوسف (ع) جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها وأدخلها بيت ملك مصر ، فيوسف لم يكتف بأن تلافى مضار المجاعة بل عُني كرجل خبير بالسياسة والاقتصاد ، أن يقوي سلطة مولاه ، ويزيد غنى دولته ، بادخال فضة الأهلين خزائن الملك ، ثم بتمليكه ما شيتهم ، إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : (إذا كانت فضتكم قد نفدت فهاتوا ماشيتكم ، أبعكم بها ، فجاءوا يوسف بماشيتهم فأعطاهم طعاماً بالخيل والماشية من الغنم والبقر وبالحمير ، ثم إن المصريين عادوا في السنة الثانية إلى يوسف يشكون اليه سوء مصيرهم ، لأنه لم يبق بين يديه الا أبدانهم وأراضيهم ، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم للملك ، فاشترى يوسف جميع أراضي المصريين للملك ، لأنهم باعوا كل واحد حقله ، فصارت الأرض للملك ، إلا أن أرض كهنتهم لم يشترها ، لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقاً من قبل الملك يأكلونها ، ولذلك لم يبيعوا أراضيهم (كذا في التوراة وشروحها والله أعلم بصحة ذلك).

إني حفيظ عليم

— ٣ —

وقال الاديب العدني [١] :

الشدائد علمت يوسف ادارة شئون مصر المالية والاقتصادية

كان يوسف ذاق نكبة المنكوبين ، وجرب ذل الأعزاء ، واختبر مهانة الأشراف ، وعالج مرارة العيش ، وشاهد بؤس البؤساء — وسمع أنين أهل البلواء .

(١) نسبة الى عدن احدى بلاد الجنوب العربي .

ذاق نكبة المنكوبين ، حين ألقي في (غيابة الجب) وجرب ذل الأعزاء حين جلس في « سوق الرقيق » ليباع لمن يرغب فيه ، واختبر بنفسه مهانة الأشراف ، حين كان عبداً في بيت « بوطيفار » ، وعالج مرارة العيش ، حين اعتقل في « السجن » كمجرم ، وهناك شاهد بؤس البؤساء وسمع أنين أهل البلواء .

كان يوسف (ع) مرّ بجميع الطبقات ، وخالط جميع الناس ، خالط (طبعاً) اخوته ، فرأى حسد القريب للقريب ، خالط « السيارة » فعرف كيف يكون تعدي القوي على الضعيف ، خالط « التزوج » في سوق الرقيق ، فأدرك شدة السادة على العبيد ، خالط « الكبراء » في بيت العزيز ، فجرب ظلم الاميرة والامير ، خالط « المعتقلين » في السجن ، فشاهد كم فيه مظلومين ، وسمع أنات المتألمين وزفرات المتوجعين .

تصور كل ماجرى عليه فيما مضى ، ثم تصور كل ما سيجري على الناس المصريين ، في سني القحط فيما يأتي ، فخاف أن يغدروا كما غدر ويهانوا كما أهين ، ويصب من فوقهم الظلم كما صب فوقه ، فأحب أن يتولى شؤونهم المستقبلة بنفسه ، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ، ليعطي كل ذي حق حقه ، ويقوم بواجب العدل والانصاف ، ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم ، فلذلك اقترح على الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

لله درّ الألم ماأنفعه ! لله درّ البؤس ما أنجعه ! فالألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والاحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه .

لم يرد يوسف أن يعيش عيشة فردية ، لايخدم بائساً ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثي لأمة ، ولا يبكي على وطن ، لم يرد يوسف أن يكون كبعض هؤلاء النفر من

العلماء الذين لايشتركون في شأن من الشؤون العامة ، ولا يعنيهم ماداموا راضين عن أنفسهم ، مغتبطين بحظوظهم ، قابضين رواتبهم ، أسقطت على الأرض السماء ، أم غرقت الدهماء في الدأماء ! ! !

لم يرد يوسف أن يعيش دنيئاً قميناً لأن هذا من سفالة الهمة ، بل أراد أن يعيش عظيم الهمة ، وعظم الهمة هو استصغار مادون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية ، كما أراد يوسف عليه السلام .

هذا ماينبغي أن يكتب في هذا المقام ، وما يليق أن يقوله القائلون ، ومايناسب أن يسمعه السامعون ، وان لم يقع موقع الاستحسان من أشياخ الكسل ، وأساتذة العجز ، وأئمة التثاؤب والتململ ، الذين يحتقرون نعمة العقل والقوة ، بتعطيلها عن العمل ، وربما كان الواحد منهم في نفسه أطمع من « أشعب » تذهب نفسه حسرات على « الذهب » ، لو استطاع أن يهدم بيتاً ، ليربح حجراً لفعل ، يظهر الزهد ، وهو احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

إن الرجل ذا النبل والمروءة يكون خامل الذكر ، فتأبى نفسه الا أن تشب وترتفع ، كالشعلة من النار يضرمها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً ، فلذلك اشرأبت نفس يوسف عليه السلام ، للرفعة ، والمجد ، لكي يقوم بخدمة مصلحة عمومية ، وفي ضمنها مصلحته الشخصية ، لأن حب الذات فطرة في الناس ، لايمكن أن يخلو منها أحد ، حتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يقل أحد ما ان الأنبياء معصومون من ذلك .

خرج يوسف من سجنه ، فطلب الجلوس على أريكة « وزارة المالية » ، فاستحق بذلك قول أبي فراس الحمداني :

ونحن أناس لاتوسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

طموح الانسان الى الرياسة، من ملك ووزارة وقيادة جيش ونحوها، هو لا شك مما يبعث على التنافس، وبذل المستطاع في سبيل الوصول اليها، وهو أمر حسن، قال ﷺ:

﴿لا يزال الناس بخير ماتفاضلوا، فاذا تساووا هلكوا﴾، معناه انهم إنما يتساوون إذا رضوا بالنقص، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك المعالي (ابن الأثير في نهايته).

(قال اجعلني على خزائن الارض ...) الخ الآية

— ٤ —

وقال الاستاذ الزبيدي[١]

عزيز مصر وخديويها

نتعلم من هذا القول أن يوسف عليه السلام كان «وزير مالية»، ثم نتعلم من تسمية اخوته له «بالعزيز»، إذ قالوا له في سفرتهم الثالثة: ﴿يا أيها العزيز﴾ انه كان «عزيزاً لمصر»، وعزيز مصر بحسب اصطلاح المصريين القديم والحديث هو حاكمها الكبير، والمتصرف العظيم فيها، بعد مليكها الأكبر، وفرعونها الأعظم، فليس فوق «عزيز مصر» سوى الملك فرعون، ووظيفة عزيز مصر هي النظر في جميع امورها بلا استثناء، فهو المرجع في كل حادث مهم لجميع المصريين، ويكون في حكومة هذا العزيز وزراء، ورئيس وزارة، ويكون العزيز كأمير مطلق اليد ضمن الشروط المشروطة له، وفي دائرة الحدود المحدودة، ويكون تحت نفوذ مليكها الأعلى، الذي اذا أراد عزله عزله، وعين له خلفاً، وعلى هذا الاصطلاح المصري القديم جرى الاصطلاح

(١) نسبة الى زبيدة بلدة في الحجاز

الجديد ، منذ عهد مؤسس العائلة الخديوية « محمـــد علي باشا » لأواخر الحرب العالمية ، فقد كانت مصر « أيالة » من أيالات الدولة العثمانية ، وكان ملكها هو الخليفة العثماني ، الذي كان يدعى له على منابرها ، وكان « الخديوي » فيها يسمى « عزيز مصر » وللخديوي حكومة مؤلفة من وزراء ورئيس وزارة .

اذا تقرر هذا نجم عنه سؤال صورته : كيف يكون يوسف في وقت واحد « وزير مالية » بحكم قول الكتاب العزيز ﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾ (ع٥٥) و « عزيزاً لمصر » بحكم قوله أيضاً : ﴿ ياأيهـــا العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ﴾ ؟ (ع ٨٨) ، وجوابنا عنه من وجهين ، الأول يحتمل أنه صار أولاً وزير مالية ثم ترقى فصار عزيزاً لمصر مع احتفاظه بوزارة المال ، كما كان آخر خديوي بمصر وهو « عباس حلمي الثاني » عزيزاً لمصر وناظر أوقافها في آن واحد ، ويحتمل أنه كان من يجعل على (خزائن الارض) يكون (بالطبع) هو « عزيز مصر » فتأملوه عسى أن تنفذوا ببصيرتكم لأحسن منه والسلام عليكم .

(اجعلني على خزائن الارض ..الخ)

— ٥٠ —

وقال ميرزا حسين الكاشاني[1] :

نظير حادثة يوسف في التاريخ

تقدم أن يوسف عليه السلام ، استسلم « للسيارة » وسلّم بأن يذهب معهم لمصر ، بدون أدنى مقاومة ، وان من مهونات هذا الاستسلام ومسهلاته ، بل من دواعيه وبواعثه ، خوف يوسف على نفسه من اخوته « بني العَلاّت » لو حاول الرجوع لأبيه ، وبناء عليه فهو قد بقي صابراً يفترص الفرص ، حتى سنحت له ،

(١) نسبة الى بلدة كاشان في ايران .

هذه الحادثة النادرة المثيل ، وهي وقوفه أمام مليك مصر محفوفاً بمحبة منه له هي نادرة المثال ، فتعرض لهذه النفحة . وطلب أن يكون من أهل البلاط ، وما هي إلا لفتة الجيد ، حتى صار وزير مالية مصر العام ، فقام بهذا المنصب أحسن قيام ، وأسس لنفسه ولأهله مجداً بمصر ، له عزه وجلاله .

ولعمري إن هذه الحادثه تشبه من بعض وجوهها حادثه (عبد الرحمن الداخل) الأموي الذي فرّ من وجه بني عمه العباسيين ، إلى الغرب خوفاً من قتلهم إياه ، ولحق بالأندلس ، وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بها عن بني العباس وإذا كان « المنصور » العباسي قد لقب « عبد الرحمن » هذا « بصقر قريش » فما أحق « يوسف » أن يلقب « بصقر اسرائيل » ؟ ! وهنا (والشيء بالشيء يذكر) تذكرت حكاية رأيتها في بعض التواريخ وهي مشهورة وخلاصتها أن « عبد الرحمن الداخل » هذا دخل ذات يوم وهو صبي على جده « هشام » ، وعنده أخوه « مَسْلَمَة » ، وكان مسلمة شديد الفراسة ، بعيد النظر ، فأمر « هشام » أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : (دعه يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيراً) ، قال عبد الرحمن : (فلم أزل أعرف من جدي مزية من ذلك الوقت) فهذه البشرى من مسلمة لعبد الرحمن تشبه بشرى « يعقوب » لولده « يوسف » حينما قال له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك . الخ ﴾ ، سواء أكان كلام يعقوب لابنه من قبيل الفراسة ، أو مبنياً على الوحي السماوي ، فهذا وجه ثان من وجوه المشابهة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف عليه السلام ، واليك وجهاً ثالثاً ، وهو اني رأيت في بعض الدفاتر قصيدة تصف عبد الرحمن الداخل فكان منها :

دبرّ ملكاً وشادَ عزا	ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى	ومصر المصر حين أخلا

ثم دعا أهــــله اليــه حيث اقتأوا أن هـلم أهلا
فجـاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتـلا
فنال أمنــــاً ونال شبعاً ونال مالاً ونال أهـلاً

وغني عن البيان أن انطباق هذه الأبيات على يوسف حيث دبر الملك وشاد العز وجند الجند ومصر الأمصار ودعا أهله اليه أجمعين .

«قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٦ —

وقال السيد العماني :

الدين الاسلامي والسعي في الدنيا

السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد ، هو من تعاليم الأديان الحقة . . . » المطابقة لروح المدنية الحقيقية . . . ، وفي مقدمة هـذه الأديان « الاسلام » نعم إن دين الإسلام هو دين علم وعمل ، دين جهاد ونشاط ، دين روحي ومادي معاً ، وبعبارة أخرى دين ايجابي ، بعكس بعض الأديان الأخرى ، كالدين الهندوسي مثلا ، الذي هو سلبي محض ، يأمر بانكار الذات التام ، ويحض على الابتعاد عن كل مافي هــــذه الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد ، بحيث أن من أراد العمل بأوامر ذلك الدين — بالحرف الواحد — لزمه ترك الدنيا والتنسك في صومعة ؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً ، دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ماتحت الكلمة من أكل وشرب ولباس وأثاث ورياش ومجد وشرف .

وأما تعليم الزهد والرهبانية وترك الدنيا ، فانما هو من الزوائد التي أدخلها بعض رجال الدين من العجم ، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين

فأدخلوا عليه ماليس فيه فمسخوه مسخاً ، وشوهوه تشويها ، وأما الطريقة التي كان عليها الفاروق الأكبر ، رضي الله عنه ، فانما هي حالة نفسية ، رضيها لنفسه بنفسه ، وألزم فيها نفسه ، ولم يلزم بها غيره ، ومع ذلك فهو رضي الله عنه إنما زهد في الملبس والمأكل ، ولكنه فيما يتعلق بالمجد والشرف وبعد الصيت ، فقد وصل لغاية لاغاية بعدها ، بحيث قهر كسرى فارس ، وقيصر الروم . ووضع رجله فوق رؤوس كل العتاة المتجبرين ، وهو الذي كان إذا رأى رجلاً جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة يضربه بالدرة ، ليخرج لمعاطاة أسباب المعاش ، وكان يقول : (إني ليعجبني الرجل ، حتى إذا علمت انه ليس له عمل سقط من عيني) .

إذا كان الإنسان خُلق قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته ، فانه عليه أن لا َينيَ في ذلك ، لأن به ترتبط رفاهيته وراحته ، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور ، أو يقلب بها الارض — أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها ، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه ؟ وإذا كان الله يقول : ﴿ وسَخَّر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً منه ﴾ (٤٥ : ١٢) فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع مافي الارض ؟ . حاشا . . .

وهل من العبث تسمية الله تعالى المال خيراً في قوله تعالى :

﴿ إن تَرَكَ خيراً ، الوَصيَّةُ ﴾ (٢ : ١٨٠) وقوله : ﴿ وإنه لحبِّ الخيرِ لشَدَيدٌ ﴾ (١٠٠ : ٨) ؟ . .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما خلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليَعْبُدون ﴾ (٥١ : ٥٦) فالعبادة فيه هي طاعة الله في كل ما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، والله يقول : ﴿ ولا تنسَ نصيبَكَ مِن الدُّنيا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ، ويقول ﴿ فانْتَشِروا في الارض وابْتَغُوا مِنْ فضلِ الله ﴾ (٦٢ : ٩) ،

ويقول : ﴿ هو الذي جعلَ لـكم الارض َذلولا ، فامشوا في مناكبِها ، وكلوا مِنْ رِزْقِهِ واليهِ النُّشُورُ ﴾ (٦٧ : ١٥) والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله تعالى ، سواء كانت أوامر دنيوية ، أو أوامر أخروية ، ذلك لاجل خدمة الجسم والروح ، وكل من اتبع شِقاً من ذلك وترك شقاً ، يكون محشوراً في زمرة الذين يبكتون بقول الله : ﴿ أَتؤمِنُونَ بِبَعْضِ الكتابِ وَتَكْفُرون ببعض ؟ ﴾ (٢ : ٨٥) أحسنت

« قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٧ —

وقال العلامة الدمشقي الصالحاني[1] :

دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال

لم يزل بعض علماء الدين يتشددون في الدين ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء ، صخوراً صماء ، يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة ، حتى صيروه عبئاً ثقيلاً ، على كواهل الناس وعواتقهم ، فملّه الكثير منهم وبرموا به ، ولو أن علماء الدين لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم .

هذا « داود » نبي الله عليه الصلاة والسلام ، كان ملكاً ، وامتن الله عليه بذلك ، حيث يقول له : ﴿ ياداودُ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٣٨ : ٢٦) خلفاً عن « شاول » ، فهل يمتن الله عليه بشيء لاقيمة له ، أو شيء يزهد هو فيه ، ولا يأبه له ؟ . . حاشا . .

(١) نسبة الى حي الصالحية في دمشق .

وهذا ابنه «سليمان» نبي الله، عليه الصلاة والسلام، كان ملكاً، حتى أنه قال: «وَهَبْ لِي مُلْكاً، لاينبغي لأحدٍ مِنْ بعدي» (٣٨ = ٣٥) أي لا يتطلبه غيري من العائلة المالكة، ولا ينازعني فيه، من بعد جلوسي على كرسيه، كما جربت من أخي «أدونيا» فيما مضى، فهذا الطلب، وطلب يوسف، يخرجان من مشكاة واحدة، فهل كان سليمان أقل تقوى من هؤلاء المتعالمين المداجين، الذين يقولون للناس في دروسهم ووعظهم ما لا يفعلون فيما بينهم وبين أنفسهم وفي داخل بيوتهم؟ . . . حاشا . . .

وهذا «أبو بكر الصديق»، وبعده «عمر الفاروق»، تقبلا الخلافة، وربما كان لهما في الحصول عليها نصيب من السعي، فهل كان هؤلاء المتشددون المتطعون، أكثر من الشيخين زهداً وورعاً؟ . . حاشا . . .

وهذا «عثمان ذو النورين» و«علي المرتضى» و«الحسين» و«محمد صاحب النفس، وزيد بن علي»، رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا في سبيل المحافظة على الخلافة، أو طلبها، فهل أولئك المعترضون ـ على طلب يوسف الدجالون أكثر منهم تقوى واخلاصاً وزهداً؟ . . . حاشا . . .

أليس ان الدنيا مطية المؤمن؟ . . أليس ان الدنيا مزرعة للآخرة؟ . . . ألم يقل الكتاب ﴿ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدنيا﴾ (٣٨: ٧٧) ألم يرد «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً؟ . . »

لعمرك إنا لنأسف أنه مع ترقي العقول وتنور الأذهان في هذه العصور المستنيرة، لم يزل جماعة من المتشددين عَبَدَة الأزياء يتغالون في الدين بدون أن يتفهموه ويحيطوا به علماً، ويقفوا على حِكَمه ومراميه، ويأبون على الناس إلا أن يجحدوا معهم حيث جحدوا، وينزلوا على حكمهم بما أرادوا، ويقيمون المناحات السوداء على كل عالم يريد أن يجمع بين أطراف الدين ونصوصه، في مواضيع المعاش والمعاد،

حتى ملّتهم الناس ، وملّوا الدين منهم ، فتمردوا عليهم، وخلعوا طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية الدينية المطلقة ، فسقطوا في هوة الضلال ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ودينها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق المستنير ، من العلماء الواقفين على حكمة التشريع ، والفضلاء الذين أدركوا كنه الدين ، وهم مابين مؤلف يكتب للأمة الرسائل الدينية ، التي توافق روح القرآن والسنة وطريقة السلف ، وما بين خطيب يخطب لهم الخطب المنبرية التي تحثهم على النظر لآخرتهم ، بالعين الواحدة ، ولدنياهم بالعين الاخرى ، وما بين مدرس يوقفهم في دروسهم على الحقائق الراهنة من الدين ، وينهض بهمتهم الى معالي الأمور ، ولولا هؤلاء ، لبقي الدين في أيدي الجاحدين ، فمات أو غلب عليه الجهل فاختفى .

يميناً لو نشر اليوم أبو بكر وعمر الفاروق وعلي المرتضى وعمر بن عبدالعزيز ، وأحمد بن حنبل والحسن ، وأشباههم ، لما كان لهم بد من أن ينزلوا الى عالمنا الذي نعيش فيه ، فترى منهم صاحب المعمل الصناعي ، وصاحب المستودع التجاري ، وصاحب المستعمرة الزراعية ، والأمير السياسي ، والحاكم الشرعي ، والملك المهيمن ، ووزير المالية ، وناظر العدلية ، وشيخ الاسلام ، ووزير الحربية والبحرية ، وقائد الجيوش ، ووزير المعارف والاوقاف ، كما نرى منهم زعيم قوافل التجارة البرية والبحرية والجوية ، ومدير الشرطة ، وآمر الضبط والربط ، حتى يستتب الأمن العام في الأمة .

فان هم لم يريدوا أن يكونوا كذلك ، رأوا أن من الواجب عليهم أن يعودوا الى مراقدهم من حيث جاؤوا .

إن الكثيرين من أسلافنا لم يكونوا بالصورة التي يصورها لنا بعض الواعظين ، بل كانوا في رغد من العيش ، فقد أثبت لنا التاريخ أنه في أيام خلافة عمر بن الخطاب

كان يُدفع من الرواتب لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ، كل سنة اثنا عشر الف درهم (فرنك) ، وللعباس رضي الله عنه كذلك ، ولكل من الحسن والحسين خمسة آلاف درهم (فرنك)[1] ، فهل كان أصحاب هذه الرواتب أقل زهداً من المتشددين من أهل اليوم ؟.. حاشا ..

وجد عند خازن « عثمان رضي الله عنه » ماله الخاص بعد استشهاده دنانير ودراهم تساوي (٥٠٧٥٠٠٠٠) جنيهاً ، ووجدت قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مايساوي (٥٠٠٠٠٠) جنيهاً ، وذلك بعد وفاته سنة ٣٥ هـ[2] .

أنا لا ألوم على الأخذ بطرف من الدين ، وترك الطرف الآخر الاغبياء الذين أظلمت أذهانهم ، فأظلمت دروس وعظهم ، وظلمة المدرس أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يعرفوا الديانة الاسلامية ، ولم يمارسوا حكمتها ، ولم يتشبعوا بروح نصوصها ، ولا الوعاظ القاصدين الذين لم يقفوا من الدين المحمدي إلا على بعض قشوره القاتلة لروحه ، فهؤلاء جميعاً لاحول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم العلماء الحقيقيين ، العارفين ، الذين عرفوا الدين ، واطلعوا على حكمه ، وفهموا مرامي نصوصه ، ومغاري شرعته ، وأنقم منهم عدولهم عن بيان ذلك للناس ، وآنبي عليهم نقص القادرين على التمام .

يجب على العالم الاسلامي أن لا يألو جهداً في الحصول على أسباب الثروة ، فلا دين إلا بملك ، ولا ملك إلا برجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالسعي والجد والنشاط ، وما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا .

حكى المؤرخون أن بعض الشعراء مدح « المأمون » فكان من قوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين ، والناس بالدنيا مشاغيل

(١) تاريخ التمدن الاسلامي . (٢) تاريخ التمدن الاسلامي

فلم يتحرك له ، لأنه مازاد على أن جعله عجوزاً في محرابها ، في يدها مسبحتها،
ولذلك قالوا ، أحسن منه قول بعضهم :

فلا هو في الدنيـــا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولا عبرة بتزهيد بعض المشايخ الكسالى ، وربما كانوا كاذبين في زهادتهم ،
فان أكثر مانرى من الزهاد ، إنما يتجلى لنا زهدهم في ألبستهم أو ألسنتهم ، أو
الغرف التي يستقبلون فيها زائريهم ، فهذه هي مظاهر زهدهم ، ولو أتيح لنا أن
نطلع على داخل بيوتهم ، وما فيها من أثاث ورياش ، أو لو بحث عن حال نسائهم ،
وكم في خزائنهن من أنواع الالبسة المزركشة وكم في صناديقهن من ضروب الحلي
والجواهر ، لرأينا أمراً عجباً ، يدهش الابصار ، ويأخذ القلوب ! ! !

(مرحى)

« اجعلني على خزائن الارض .. الخ »

— ٨ —

وقال الهمام البحراني[١] :

حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي والتصوف في الاسلام

هذا الطلب — طلب يوسف — هو من روح الدين الاسلامي ، يوم كان الدين
ديناً والاسلام إسلاماً ، إذ لم يكن فيه شيء مما يسمونه قطع العلائق مع الناس ،
وزهداً في الحياة الدنيا ، لأن هذا بعيد عن روح الدين الاسلامي ، إذ الاسلام
دين فتح ورفعة ، دين عز وشرف ، دين نشاط وعمل ، دين سعي وجد ، ديناً بتغاء
من فضل الله بالتجارة والصناعة والزراعة ونحوها ، وقد قال تعالى : ﴿ وأن

(١) نسبة الى قطر البحرين احد الامارات العربية على الخليج العربي .

ليسَ للانسانِ إلا ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرى ، ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأوفَى ﴾ (٥٣ : ٣٩ ـ ٤١) وهل هذا لاينافي مايسمونه « تصوفاً » ، إذ التصوف بالمعنى الصحيح ، هو طهارة الباطن وحب الخير ، وبغض الشر وما الى ذلك ، مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، وهو بهذا المعنى يرجع في جوهره الى روح الاسلام ، وأما « التصوف » بالمعنى المشهور عند الجمهور ، فليس هو مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب ، هندية وفارسية ويونانية ويهودية ،قال الدكتور « وليم ادي » الأميركاني في شرحه على الانجيل : (قد كان في اليهود جماعة « الأسينيين » ، كانوا بين اليهود بمثابة الباطنيين أو المتصوفين ، مارسوا التطهيرات اليهودية ، واعتنقوا الفلسفة اليونانية ، وكثيراً ما اعتبروا التقشفات الجسدية ، وتجنبوا مخالطة الناس) ، فهذه التعاليم المزيجة ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها حسابه من القواعد والأصول .وحقيقة الاسلام أنه يُعِدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، وإن التصوف بالمعنى المشهور عند الهنود واليونان والفرس ـ يلبس أصحابه أرواح العبيد ، وإلا فلماذا ساد المسلمون وأفلحوا في الحياة يوم كانت مبادىء الاسلام الخالصة رائدهم ، وتعاليمه البريئة هاديهم ؟ ولماذا فقدوا مكانتهم ، وأضاعوا عزهم ومجدهم وضلوا في الحياة سواء السبيل ، حتى صاروا طعمة سائغة لكل طاعم ، ونهبة هنيئة لكل ناهب ، يوم شابوا تلك المبادىء السامية بشوائب التصوف ،وخلطوها بتعاليم المتصوفين .

دين الاسلام ، الذي هو دين ابراهيم وأولاده اسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف ـ هو دين السعادتين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ،دين يقول في هدايته: ﴿ ولا تَنسَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ويقول : ﴿ رَبَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ﴾ (٢ : ٢٠١) ويقول : ﴿ هو الذي جَعلَ

لكم الأرضَ ذلولاً ، فامشُوا في مناكبِها ، وكلوا مِنْ رزقِهِ ، وإليه النشورُ﴾ (٦٧ : ١٥) ويقول : لعلكم تتفكّرون في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩) ويقول : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تبتغوا فضلاً مِنْ ربكم ﴾ (٢ : ١٩٨) أي في مواسم الحج كما قاله ابن عباس ، ويقول : ﴿ فاذا قضيتم الصلاةَ فانتشروا في الأرض ، وابتغوا مِنْ فضلِ الله ﴾ (٦٢ : ١٠) أي بالتجارة والسعي كما رووه عن ابن عباس ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) ويقول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) ويقول ﷺ : (يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق) ويقول ﷺ : (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه) ويقول ﷺ: (كان أصحاب رسول الله عُمالَ أنفسهم) ويقول ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائمِ الليلَ الصائمِ النهارَ) ويقول ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار باصبعيه السبابة والوسطى ، وأخيراً يقول : (في كل ذات كبد رطبة أجر)[١] .

وكيف يستطيع الانسان أن يسعى على الأرملة والمسكين ، ويكفل اليتيم ، ويتصدق على ذي الكبد الرطبة إذا لم يكن ضارباً في الأرض أو عاملاً من عمال الحكومة ، أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً أو حائكاً أو نحو ذلك ؟!؟!؟!

دين الاسلام ، الذي هو دين يوسف أيضاً — متصل بشؤون المسلمين الدنيوية ، كما هو متصل بشؤونهم الاخروية .

من هنا كان « الاسلام » دين عقيدة وعبادة وحُكم ، دين قضاء وإمامة

(١) هذه الاحاديث الثانية كلها رواها البخاري في صحيحه .

وجهاد دفاعي ، دين سياسة شرعية ، دين علم وفنون ، دين أعمال أخروية وأعمال دنيوية ، أعمال روحية ، وأعمال جثمانية ، أعمال شخصية ، وأعمال اجتماعية ، دين ضبط وربط ، وأمر ونهي ، وإقامة حدود وتعازير ، دين معاملات مع الخالق ، ومعاملات مع المخلوق ، دين يشمل بتدابيره جميع ما على وجه الأرض ، ويشمل بعقائده ما فوق السموات وتحت الأرضين ، دين ينظم شؤون القلوب ، بما فيه من « علم أخلاق » ، وينظم شؤون الجوارح ، بما فيه من « علم أعمال » ، وينظم الجماعات بما فيه من « علم اجتماع » ، وبالجملة : يعلم الانسان كل ما يلزم له في دنياه وأخراه ، ويحض على السعادة المالية ، كما يحض على السعادة المآلية ، و « لأن يترك الانسان المال لألد أعدائه بعد مماته ، خير من أن يحتاج لأعز أصدقائه في حياته .

قال الحجاج بن يوسف ، لخريم الناعم : « ما النعمة ؟ » — قال : « الأمن ، فاني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالصحة ، فاني رأيت المريض لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالغنى ، فاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش » — قال له : « زدني » — قال : « فالشباب ، فاني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش » قال له « زدني » — قال : « ما أجد مزيداً » :

هذا هو دين الاسلام ، الذي هو دين جميع الانبياء من لدن آدم الى فخر الوجود ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، خلافاً لما يوجد عند متصوفة الهندوس ، ومتصوفة النصارى ، ومتصوفة الاسلام ، أقول : « متصوفة الاسلام » ولا أعني المتصوفة الحقيقيين الذي ينطبق تصوفهم على الشرع ، ولكني أعني جهلتهم فقط .

التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية

إن كل من يقرأ في « البشائر الأربع » من التزهيد والبراءة من الدنيا ، ليس هو الشريعة المسيحية ، وانما هو تتميم لشريعة « الناموس العتيق » ، وتلطيف لها ،

وتشذيب لأطماع اليهود وتكالبهم على الدنيـــا ، ولذلك روي عن المسيح انه قال : « إنما جئت لأتمم » ، فالناموس العتيق لم يذكر الآخرة — على ذمة أسفاره المطبوعة — بل اقتصر على ثواب الدنيا ، ولم يذكر ملكوت الأخيار ، ولا جهنم الاشرار ، بل انما خوف الناس ، إذا خالفوا الأوامر بمصائب الدنيا وعاهاتها ، وكذا لم يذكر شيئاً من قواعد الزهد والقناعة والرقائق القلبية ، واللطائف الروحية ، فجاء المسيح ذاكراً لكل ذلك ، ومتمماً لمواضيع التوراة بذكر مقابلها ، وملطفاً لحرص وطمع وشراهة اليهود ، وبذلك كان مجموع « العهدين » — التوراة والانجيل — كتاباً واحداً ، كما نطق القرآن الكريم (٢ : ١٠٥ و ٤ : ١٣٥ و ٦ : ١٥٦) الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة في القرآن الشريف .

انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية

وأخيراً وبالنتيجة ، كل من أبدى ههنـا انتقاداً على يوسف الصديق في طلبه وزارة المالية ، فليعلم أن انتقاده ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية وسماحتها ، ولكن على تلك التعاليم الاخرى المبتدعة ، التي لا يعترف بها القرآن ولا السنة ولا الاجماع ولا عمل السلف الصالح ، الذين كانوا « عمال أنفسهم » .

كل حرفة مهما كانت منحطة في أعين النـاس ، لا يمكن أن تكون أحط من عيشة المتكل على غيره ، فكيف لو كانت خدمة في « البلاط » ؟ ولهـذا فإننا نحبذ طلب يوسف من مليك الديار المصرية أن يجعله على خزائن الأرض .

حبذا الطموح الشريف إلى العلا ، حبذا سعي الإنسان في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل مايزيد بعد ذلك عن حاجاته العادية ، فيما يعود على هيئة المجتمع بالفائدة .

ليس المانـع من اهتمام الشرقي اليوم قناعة في النفس وزهـد في الأموال ،

ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما وجد أحد حاسداً غيره على نعمته ، ولا ناظراً إلى غني نظراً شذراً ، والشرقيون كلهم بين شاك ومشكو من هذه الحال ، فالشرقي إذن طماع كغيره ، وليس عنده من الزهد ماليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ، ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهباً ، وأن تنبت له الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لايتعب جسمه ، ولا يجهد فكره .

حب المال ليس مذموماً لذاته ، ولكن لكونه يشغل عن الآخرة ، وكيف يكون مذموماً لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان ، وهو تعالى ينهى عن الاسراف والتبذير في انفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتن على نبيه بأنه وجده عائلاً ، أي فقيراً فأغناه ، وجعل المال قواماً للامم ، ومعززاً للدين ، ووسيلة لاقامة ركنين من أركانه ، ومن أعظم أسباب التقرب اليه تعالى وفي الحديث الشريف : (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي) رواه مسلم في صحيحه ، فليس المال مذموماً لذاته في دين الله ، ولا مبغضاً عنده تعالى على الاطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا إلى حفظ المال ، وعدم تضييعه ، وناهيك بآية الدين التي ذكر الله فيها تسع مؤكدات ، وفيها خمسة عشر نهياً وأمراً ، وقد أرشدنا تعالى إلى اختيار الطرق النافعة في إنفاقه ، أن نستعمل عقولنا في تصرفها ، ونوجه إرادتنا إلى العمل بخير مانعرفه منها ، قال تعالى : ﴿ ولا تُؤتوا السُّفَهاءَ أموالَكُم التي جَعَلَ اللهُ لكم قياماً ﴾ (٤ : ٥) ، أي تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم ، وفي الحديث الشريف : (نِعِمّا المالُ الصالح للمرء الصالح) ، رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح .

فماذا جرى لتا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم ، حتى صرنا أفقر

الأمم ؟ وماذا جرى لتلك الأمم التي يقول كتابها الديني : (الحق أقول لكم : إنه يعسر دخول غني إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) (مت ١٩ : ٢٣ و ٢٤) ويقول : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون) (مت ٦ : ٢٤ و ٢٥) ، ويقول : (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه) (مت ١٠ : ٩ و ١٠) ، ويقول : (تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور ؟ . . فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا . . . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزاد لكم) (لو ١٢ : ٢٢-٣١) .

فماذا جرى للامة ذات هذه الأقوال ؟ . ماذا جرى لها في دينها ؟ حتى صارت أبرع الخلق في فنون جمع الثروة ، وسادت بالغنى جميع أمم الأرض ؟ وكيف جاز أن يسمى مانحن عليه (مدنية إسلامية) مع مخالفتنا للقرآن والحديث في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية ؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيتهم (مدنية مسيحية) مع مخالفتها لتعاليم دينهم من المبالغة في الزهد وبغض المال ؟

والجواب عن ذلك واضح ، وهو انهم نبذوا تعاليم كتابهم وأخذوا بما في كتابنا ، كما أننا بالعكس تركنا تعاليم كتابنا وأخذنا بما في كتابهم ، وقد أثرت علينا تأثيراً سيئاً أقوال الجاهلين ، الذين لبّسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفثوا في الامة سموم المبالغة في التزهيد والاتكال ، والحث على إنفاق كسب الكاسبين عليهم ، وهم كسالى لا يكسبون ، لزعمهم أنهم بحب الله مشغولون !!

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ماتدر لها ثعل

صار هــذا ، حتى صار من المعروف المقرر ، عند جميع شعوب المسلمين ، إدرار المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق الصالحين ، فهم يأكلون مال الأمة بدينهم ، وإن ورد في حديث الصحيحين : « اليد العليا خير من اليد السفلى !! » .

هذا هو الذي تيسر لنا في هذه الوقفة والله تعالى أعلم .

(لافض فوك)

« قال اجعلني على خزائن الارض ... »

— ٩ —

واختتم البحث في تفسير هذه الآية الشيخ الصنعاني بالتعليقات التالية :

(اولاً ـ حدود تعاون المسلم مع غير المسلم)

نتعلم من طلب يوسف عليه السلام من الملك الريان الوثني ، أن يجعله على خزائن ، ليخدم المصريين ومن جاورهم ، جواز التعاون على دفع الشر أو فعل الخير مع غير المسلم ، أي يجوز للمسلم أن يطلب المساعدة من غير المسلم ويجوز للمسلم أن يساعد غير المسلم ، وهل يوجد مجال للخلاف في الاستعانة بالكتابي أو الوثني أو الملحد ، على إنقاذ الغريق وإطفاء الحريق وإقامة الحمل في الطريق ؟ كما أنه لا مجال للخلاف في جواز إعانة المسلم لغير المسلم وصلى الله على من قال : « في كل كبد حرا صدقة ».

(ثانياً ـ خضوع المسلم لغير المسلم)

لا يبيح دين الاسلام للمسلم أن يكون تحت رعاية غير المسلم في غير ضرورة ،

قال تعالى : ﴿ ياأيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ والرسولَ وَأُولي الأمرِ منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فهذه الآية تفيد أنه لايجوز لنا الخضوع لغير المسلم ، وقال تعالى : ﴿ ولَنْ يَجْعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلًا ﴾ (٤ : ١٤٠) ، والمراد كما هو مقتضى الآية وروح سبكها أن الله تعالى لن يجعل من أحكامه الشرعية السماوية ما يبيح للمؤمنين أن يخضعوا لأحكام الكافرين ، ويستكينوا لسلطانهم وسيطرتهم ، فان تقبلوا أحكامهم ، ورضوا بسلطانهم ، فإنهم إذن هم الذين جعلوا للكافرين سبيلاً على أنفسهم ، خلافاً لشريعة الله تعالى : هـــذا هو الحكم عندنا في دين القرآن وسياسته ، ولكنه مقيد بحالة الاختيار ، وأما في حالة الاضطرار فهو جائز .

إذا علمت هذا فلعل يوسف الصديق عليه السلام رأى نفسه مضطراً أن يكون تحت سيطرة غير المؤمنين ، لأنه كيفما مكث في مصر ، سواء كواحد من الرعية ، أو على خزائن الأرض ، فهو على كل حال تحت سيطرة مليك مصر الوثني ، ثم لو أراد الرجوع لفلسطين ، فسيكون أيضاً تحت حكومة « أبيالك » ملك فلسطين الوثني ، وإذا أراد الرحلة لدمشق ، لزم كذلك أن يكون خاضعاً لحا كمها الوثني ، وهكذا الحال في العراق ، بلاد الصابئة ، فيوسف الصديق على كل حال وفي أي بلد لا بد له أن يخضع لحكومة وثنية ، كل الجالسين على كراسيها وثنيون ، لكنه إن تغلب باقتداره أن يكون حائزاً على كرسي فيها يكون قد خفف شيئاً من وطأة المشركين ، وشغل كرسياً من كراسيها برجل مسلم موحد ، هذا هو الجواب عن خدمة يوسف عليه السلام لتلك الحكومة الوثنية ، ثم ربما كان هذا جائزاً في شريعة العبرانيين الابراهيمية ، وكفى بإقدامه على ذلك برهاناً على جوازه ، والله أعلم . (جيد)

(ثالثاً ـ موالاة المؤمن لغير المؤمن)

لو سأل سائل : كيف يجوز ليوسف المؤمن أن يكون تحت سلطة « الريان »

بحيث يكون مواليا له ، وهو وثني ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يتخذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ ، ومَنْ يفعلْ ذلك ، فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، إلا أنْ تتقوا منهم تقاة ﴾ (٣ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ (٥ : ٥٠) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، لا تتخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياءَ ، تُلقونَ اليهم بالمودةِ ، وقد كفروا بما جاءكم مِنَ الحقِّ ، يُخرجونَ الرسولَ وإياكم ، أنْ تؤمنوا باللهِ ربِّكم .. ﴾ الخ (٦٠ : ١) ، فان هذه الآيات ، تشترك في النهي عن موالاة الكافرين ، وتدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن يتفقوا مع غيرهم ، ولا يوادوهم ، ولا يوالوهم ، وقال تعالى: ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهم ﴾ (٥٨ : ٢٢) .

فنجيبه عن ذلك : أما عن الآية الأولى ، فإن الاتفاق إذا كان لمصلحة المسلم فهو جائز ؛ فقد كان النبي ﷺ حالف « خزاعة » وهم على شركهم ، كما أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من الطائف لم تمكنه قريش من دخول مكة ، لما علموه من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ، فأرسل عليه السلام الى « المطعم بن عدي » يخبره انه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه الى ذلك ، ودخل مكة في جوار « المطعم » وهو مشرك ، فاذا جاز هذا للنبي ﷺ ، جاز بالأولى ليوسف عليه السلام أن يكون من وزراء « الريان » المشرك ، وعن « قتادة » هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الانسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه ، واذا علم نبيٌّ أو عالم انه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ورفع الظلم الا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقد صح في الحديث أن كَعْب بن عُجْرَة (ض) كان يخدم عند يهودي مستقياً كل دلو بتمرة ، وكان ذلك باطلاع النبي (ﷺ) واقراره .

وعلى ذلك يكون معنى الآية الأولى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ، « والاتخاذ » يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين ؛ وبعبارة أخرى : هذا « الاتخاذ » لايحرم الا إذا كان ضد المؤمنين ، كما قال : « من دون المؤمنين » .

وأما عن الآية الثانية ، فالمحرم إنما هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من حيث هم يهود ونصارى ، أي ولاية دينية ، وأما صحبتهم لأمور دنيوية معاشية ، فـــلا مانع منهـــا .

وأما عن الآية الثالثة ، فالموادة مشاركة في الاعمال ، فان كانت في شأن من شؤون الدين ، فيه خذلان له ولاهله ، أو إضاعة لمصالحهم ، فهو حرام ، وليس هذا المعنى موجوداً ههنا ، وأما إن كان في شأن من شؤون التجارة والمناصب وغيرها من المعاملات الدنيوية ، فلا تدخل في ذلك النفي ، لانها ليست معاملة في محادة الله ورسوله ، وأيضاً فهذه الآية ، إنما تفيد النهي عن موالاة أعـــداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفراً حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، وأما هنا ، فالأمر بالعكس ، فإن الريان بدلاً من أن يخرج يوسف من مصر ، فقد قربه اليه ، ثم سمح بمجيء أهله جميعاً من فلسطين وسكناهم في مصر في الشرقية .

وحجتنا على صحة هذا التأويل ، ورائدنا في هذا الموضوع ، قوله تعالى : ﴿ عسى اللهُ أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيتم منهم مَودّةً ، واللهُ قديرٌ ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ ، لا ينهاكمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ ، ولم يُخرِجُوكم مِنْ دِيارِكم أنْ تَبرّوهم وتُقسِطوا اليهم ، إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطين ، إنّما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم مِنْ دِيارِكم ، وظاهروا عـــلى

إخراجكم أنْ تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٦٠:٧-٩)
فالقرآن الكريم يرجو تجدد المودة بين المؤمنين والمشركين ، ولا ينهى عن البر والقسط إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المؤمنين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ونراه أخيراً يؤكد حصر النهي في الذين حاربوهم حرباً دينية ، وأبعدوهم من ديارهم ، وساعدوا على إبعادهم عنها ، ومع كل ذلك نراه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم ، لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل !! فماذا على يوسف عليه السلام من اتفاقه مع الريان للمصلحة ؟ وماذا عليه من صحبته له لامور دنيوية معاشية ؟ وماذا عليه من موادته له إذ أخرجه من سجنه وقربه لديه ؟ وماذا عليه في بره وإقساطه اليه ؟ اللهم إن هذا كله جائز لا حرج فيه .

(رابعاً — ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته)

الفريدة الثانية — إنه لامر معلوم أن يوسف عليه السلام لم يكن له سابقة خدمة في دار الحكومة ، وإنه لامر معلوم أن يوسف غريب الدار ليس وطنياً ، وقد كان عبداً مملوكاً عند « فوطيفار » ، وقد اعتقل لاتهامه بجريرة سافلة ، فارتقاؤه لمنصب « وزارة المال » و « عزيزاً » لمصر ، مع هذه الاحوال التي أحاطت به يعد من المدهشات ، وقد يسمون هذا النوع فلتة من فلتات الطبيعة . أو أعجوبة من أعاجيب الايام ، أو شاذة من شواذ القاعدة ، ولكنا نحن لا نسميه بشيء من هذا القبيل ، بل ندعوه قضاءً وقدراً ، أو نتيجة إرادة سماوية قاهرة ، وقدرة الهية باهرة ، تتليان كل الارادات والقدر ، ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، إنما أمره لشيء إذا أراده أن يقول له « كن » فيكون ، فالله الذي أسجد له كواكب السماء ، وأوحى اليه في أحرج الاحوال انه سينبىء إخوته بما فعلوه معه والله الذي سخر له التجارة ليخرجوه من الجب ، والله الغالب على أمره ، والله

الذي لما بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً ، والله الذي خلق له من عدوه « زليخا » ولياً مزكياً مدافعاً ، والله الذي سخر له قلب مليك مصر ، فطلب الإتيان به من سجنه ليستخلصه لنفسه ، هو الذي منّ عليه بهذا المنصب الكبير ، وأقدره أن يدبره بأحسن تدبير .

هذا ما ينبغي أن يذكر عند الكلام على هذه الآية ، ويذكر فريق من المفسرين ههنا ما يعد هو وأمثاله من أسباب الجمود في الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم الشرقيين .　　(لافض فوك ياأستاذ)

تمكين يوسف عليه السلام

آ(٥٦) ﴿ . . . وكذلكَ مكَّنا ليُوسفَ في الأرض ، يَتَبَوأُ منها حَيْثُ يشاء ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نشاء ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والخمسون فقام الاستاذ السلفي البُريدي[1] وقال :

يقول الله تعالى في حق يوسف (م) : ﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التمكين الطاهر ﴿ مكنا ليوسف في ﴾ جميع ﴿ الارض ﴾ التي كانت مستعمرة ومملوكة للهكسوس ، من أصل المملكة المصرية ، وذلك هو « الوجه البحري » وجزء من « الوجه القبلي » الى منتهى بلاد « الشرقية » ، فيوسف تمكن في هذه الارض ،

(١) نسبة الى بلدة بريدة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية .

وكان النجاح في أعماله ألصق به من ظله، وأسرع اليه من الماء الى منحدره، وكان هذا التمكين عاماً بحيث ﴿ يتبوأ منها ﴾ بعد الحبس والضيق والإسار، أو بعد أن كان لايتصرف إلا في أرض سيده وطيقار خاصة ﴿حيث يشاء ﴾، أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوءاً له لم يتمنع منه، لاستيلائه على جميعها، ودخوله تحت نفوذه وقهره، فكان هو الكل في الكل، وهو الآمر الناهي، في كافة مرافق الحياة، وكان هذا هو عصره الذهبي الذي دام له لآخر حياته، وعند ذلك نبي يوسف فلسطين واخوته، ﴿نصيب برحمتنا ﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك والوزارات والغنى وغير ذلك من النعم ﴿من نشاء ﴾ جرياً على سنة (تنازع البقاء واختيار الأحسن)، فدائرة رحمتنا مرنة، بحسب ما تقتضيه الحكمة، تسع كل خليق بها ﴿ ولا نضيع ﴾ في الدنيا ﴿ أجر المحسنين ﴾ كيوسف، فهو خليق بالأجر العظيم، فتمكيننا إياه، وإصابتنا له بهذا النوع من الرحمة الخاصة، هو بسبب إحسانه السابق، لأن المستقبل نتيجة الماضي، وثمرته الطبيعية، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟..)، فنحن قطعياً لا نضيع أجر أي محسن كان، من السابقين الأولين، واللاحقين الآخرين، موقفنا واحد، ووضعيتنا واحدة، مع يوسف وغيره، برنامج ثابت لمجازاة كل محسن لا يتبدل، ولن يتبدل.

(وكذلك مكنا ليوسف في الارض ...)

— ٢ —

وقال الشيخ احمد من علماء الرياض [1]:

نستخلص من هذه الآية الكريمة الجواهر التالية.

تمكين يوسف الخاص والعام

(١) — كان تمكين يوسف في الأرض، ينمو شيئاً فشيئاً على حسب

(١) الرياض بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية.

الطبيعة ، فكان أولاً تمكيناً خاصاً ، بزمن محدود وأمكنة محدودة ، وبالوكالة عن « العزيز » وهذا هو المذكور في قوله تعالى سابقاً : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ولكن هذا التمكن عقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف ، فلم يدم ، ثم لم يكن عاماً وواسعاً ، كما أنه لم يكن إلاّ مستعاراً من جاه العزيز ، لأن العوام يقولون : (نَفَس العبد من نَفَس سيده) وهذا كله بخلاف التمكين الثاني المذكور هنا في هذه الآية ، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الأزمنة والأمكنة وبالاصالة ، فأما عمومه لجميع الأمكنة فلقوله تعالى : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ وأما كونه بالاصالة ، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير مالية فيها ، عوضاً عن فوطيفار ، وبهذا تعلمون أن لفظ « الارض » مرن كالمطاط يقبل التضييق والتوسعة ، فكلمة « الارض » في سابق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ربما كان معناها أرض عزيز مصر ، وكلمة « الارض » في لاحق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في في الارض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦) معناها عموم الارض الداخلة في المملكة المكسوسية .

تقدير الملوك الاقدمين للناس بحسب مواهبهم

(٢) — نتعلم من هذه الآية ، أن الملوك الأقدمين ـ ومنهم الريان ـ كانوا يقدرون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لابحسب أنسابهم وأموالهم ، وإلا فيوسف عليه السلام لايزيد في نظرهم عن أنه عبد لفوطيفار ، اشتراه بدراهم معدودة ، وأنه فتى غريب غامض النسب ، ليس وطنياً ، وأنه من بلاد تعد في نظرهم بادية ، وانه ليس له سابقة في خدمة الحكومة ، ولكن رغماً عن ذلك كله، عين وزير مالية بمصر وعزيزاً لها ووكيلاً عن مليكها .

تزكية انتصار يوسف

٣ً — نحن نعلم أن يوسف عليه السلام بخروجه من السجن كان قد انتصر انتصاراً باهراً ، واليوم جاء جلوسه على كرسي الوزارة تزكية لهذا الانتصار ومتماً له .

كيف أن أخبار يوسف لم تصل لأبيه

٤ً — إن قال قائل ، أو سأل سائل : لاريب أن يعقوب عليه السلام كان من الأنبياء المشهورين ، وكذلك كان أبوه إسحاق ، وجده إبراهيم ، وعم أبيه إسماعيل ، وابن عم جده لوط ، وعليه فيعقوب عليه السلام ، من أصحاب الصور البارزة ، وحائز على الشهرة الشخصية والعائلية ، ولا بد أن هذه الشهرة لما تجلت في « العراق » و « سورية » و « فلسطين » ، كانت أيضاً فيما جاور فلسطين من الديار المصرية ، كما أنه قد اشتهر في أهل مصر ، وجميع مملكتها أنّ « الريان» ابن الوليد أسند مأمورية « خزائن الأرض » لعبد عبراني فلسطيني من سلالة يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم المشهورين بمصر كسواها ، وأن ذلك العبد صار « عزيز مصر » و « وكيلا » عن مليكها ، وقد فوض اليه أمور الخاصة والعامة ، فهذه الحقيقة الواقعة أصبحت أمراً مشهوراً معروفاً عند الخاص والعام . لا يقبل الخفاء والكتمان ، ولم يعرفه المصريون فقط ، بل والممالك المجاورة والبلاد المحادة لمصر ، لاسيما فلسطين التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وأنساله ، وإذا لم يكن هذا الحادث قد اشتهر وعرف عند أهل فلسطين قبل سنيّ الجوع ، فلا بد أن يكون قد عرف أيام سنيّ الجوع بسبب رود القوافل الممتارة ذهاباً واياباً ، من فلسطين لمصر ، بل قد أثبت لنا التاريخ ، ان القوافل كانت تسير من فلسطين لمصر ، وأنه كانت التجارة مشهورة ومتبادلة بين البلادين ، فاذا تقرر

هذا ، فكيف أن هذه الأخبار الشهيرة لم تصل ليعقوب عليه السلام وهو وعشيرته مشهورون بمصر ، وهم جيران مصر وعلى حدودها ؟ ! ؟ ! ؟ ! . . . قلنا : إن هذا السؤال عظيم ، وله شأنه عند المفكرين المستقلين ، ولكن يوجد قاعدة كونية عجيبة جداً ، ومسلمة عند العموم ، وهي أن الخبر يصل إلى ظاهر أذن صاحبه ويقف ، ولا يدخل فيها ، وهذا مجرب ومعهود ، فكثيراً ماتحدث حوادث تكون معروفة عند الجمهور ، ولكن عند من لهم مساس وعلاقة بها هي غير معروفة ولا مسموعة ، بناء على هذه القاعدة الكونية المذكورة ، التي لم يوقف لليوم على علتها ، ولله تعالى في خلقه شؤون .

الانتصارات التي فاز بها يوسف

٥ً — كان ماحصل ليوسف عليه السلام من قبيل انتصار العلم على الجهل — لأن يوسف بعلمه رقي للعلا ، خلافاً « للملأ » الذين بجهلهم سقطوا في هاوية الخذلان ومن قبيل انتصار الحياة على الموت — لان يوسف كان بذلك هو السبب الوحيد في استخلاص المصريين من الهلاك ، ومن قبيل انتصار التوحيد على التوثن — لان يوسف بواسطة ذلك حصل على قوة بهـا بلغ دينه ودين آبائه ، ومن قبيل انتصار العبد على السادة ، وانتصار الذكاء على البلادة ، وأخيراً من قبيل انتصار التدابير السماوية على التدابير الارضية .

الطلاق بر يوسف في مصر

٦ً — قوله : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ ، حيث فوض الامر اليه ، وأطلقت يده في مصر ، لان ملك مصر إذ ذاك — كباقي ملوكها — كان قليل الظهور للعامة ، إلا عند الاقتضاء ، إظهاراً لعظمة الملك ورهبة السلطان ، كما يزعمون.

أن « هرون الرشيد » كان يجلس في الإيوان ، وفي وسطه ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين ، يحجب الخليفة عمن يجالسه ، على العادة في مجالسة الملوك يومئذ ، إلا من اختار الملك تقديمه ورفع الستار بينه وبينه ، من أهله وخاصته (١) .

تمكين يوسف في مصر سبعين عاماً

٧ً — مكن الله ليوسف في الارض بغير سلاح ولا كراع ، بحيث صار صاحب الحل والعقد ، والنقض والإبرام ، لانه أصبح أعلى وزراء الملك رتبة ، وآثرهم عنده ، وأنفذهم في البلاط ، وأشدهم سلطة في الديار المصرية ، كان هذا طيلة سبعين عاماً ، عاشها بعد الاربعين سنة التي أتت عليه سابقاً ، واجتاز فيها أزمات ، ومع هذا فقد كانت هذه الامجاد وتلك الافراح ممزوجة بما يدعوه للاسف والقلق ، وهو فراقه لابيه وأخيه ووطنه وذويه ، فكان ذلك يعترض مابه من غبطة وسرور ، فالسعادة في الدنيا لاتتم لاحد ما ، ولا سعادة حقيقية تامة إلا في النشأة الآخرة .

مصر في أيام يوسف وبعده

(٨ً) — هذا التمكن وهذا التبوء العام في أرض مصر ، ودورها وقصورها — كان في ذلك العصر ، مما يليق أن يمتن به ، لاسيما على رجل كان بالامس في السجن ، وكان قبله من رعاة الغنم ومن سكان البوادي ، ولكن مصر فيما بعد صارت جزءاً من أملاك الخلافة الفاروقية ، ثم صارت جزءاً صغيراً جداً من مملكة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، وعن « الرشيد » أنه لما قرأ قوله تعالى : ﴿ ونادى فرعونُ

---

(١) المسعودي ج ٢

في قومِهِ : قال ياقوم : أليسَ لي مُلْكُ مِصرَ ، وهذه الانهارُ تجري من تحتي ، أفلا تُبصِرون ؟ ﴾ (٤٣ : ٥١) قال — أي الرشيد — : « لأُوَلِّيَنَّها أخسَّ عبيدي » ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر ، أنه وليها فخرج اليها ، فلما شارفها وقع عليها بصره ، قال: « أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أليس لي ملك مصر ؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها » ، فثنى عنانه ورجع (كشاف) .

رحمة الله واحسانه نصيبان جميع من يستحقهما

(٩ً) — نصيب برحمتنا من نشاء ، ولو كان من الدهريين والماديين ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولو كانوا من الجاحدين والوثنيين ، لأن هذا إنما يكون في الدنيا فكل من أتقن عمله وأحسنه ، أصيب برحمة الله ، من الأرباح العظيمة ، وكل من أحسن عمله ، أخذ الأجرة من إقبال الناس على مصنوعاته ، وتوجههم على مايصدر من معمله ، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً ، زادت الناس فيه ثقة ، وزاد ربحه وشاع صيته ، وجَمُل ذكره ؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الشرقيين عن احسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم ، حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء ، لم يثبتوا على ذلك دواماً ، فتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها الغش ، فتتغير قلوب المشترين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم ، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغربيون ، فوفى الله بعدله للشرقيين حظهم من التأخر ، ووفى الله بفضله للغربيين حظهم من التقدم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم ، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

ملاحظة : هنا قال الرئيس الفلسطيني : « قد سمعتم أيها السادة مافاه به أخونا

الشيخ الرياضي ، وأما الحقير فلست أريد أن أعلق عليه شيئاً ، لأنني لم أكوّن حتى هذه الساعة رأيي الشخصي في هذا الموضوع » .

ثم تابع الشيخ الرياضي كلامه في اتمام الجواهر :

أجر المحسنين في الدنيا

(١٠ً) لا نضيع في الدنيا أجر المحسنين ، الذين يقصدون بعملهم وجه الله والذمة والضمير ، لأن الذي يبتغي الآخرة لا يفوته حظ الدنيا ، وان مَثَله مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض ، ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع .

احسان يوسف الذي استحق عليه التمكين والتبوأ في الارض

(١١ً) — إن قال قائل : ماهذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث يتبوأ منها حيث يشاء ، قلنا إننا نعلم منه إباءه عن مواتاة تلك المرأة الساقطة ، وحفظه لمعروف سيده معه ، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد ، وهو في سجنه ، إلى غير ذلك من أنواع إحساناته التي يعلمها الله تعالى ، وسيثيبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مبدأ تبادل الاحسان

(١٢ً) — نتعلم من هذه الكلمة الفاذة الجامعة (لا نضيع أجر المحسنين) أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً ، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

ونتعلم من هذه الآية الشريفة أيضاً أن الله تعالى يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأنه تعالى جعل تمكينه ليوسف في الأرض من ثوابه إياه

في الدنيا على إحسانـــه ، ثم الثواب التام يكون في الدار الخالدة كما قال تعالى :
﴿ ولأجر الآخرة خير ...﴾ الخ

اجر المحسنين في الدنيا والآخرة

(١٣ً) — ولانضيع أجر المحسنين ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأن كلام الله تعالى هىنا مطلق ، ولكن الأجر في الدنيا إضافي مطرد في الامم ، إضافي غير مطرد في الافراد ، وأما في الآخرة فالاجر حقيقي مطرد للجميع ، ؛ ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم ِالقيامةِ ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مثقالَ حَبةٍ ِمنْ خَردلٍ ، أتينا بها ، وكفَى بنا حاسِبين ﴾ (٤٧:٢١) و ﴿ فمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يَرَهُ ﴾ (٩٩:٧و٨) وهذا هو الدستور وكل ماأوهم خلافه مؤول .

صلة الملك الريان بيوسف

(١٤ً) — لابد أنه كان بين يوسف وبين الملك الريان ، مالم يكن بين مليك ووزير ، كان ذلك على تفاوت بينهما في المذهب ، فقد كان الريان وثنياً ، وكان يوسف بالطبع موحداً ، كما أن بينهما اختلافاً في الشعب ، فقد كان الريان عمليقياً عربياً ، وكان يوسف عبرانياً إسرائيلياً ، وليس هذا بنادر في نوعه ، فإننا نتذكر من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، منها صحبة الكُمَيت للطِّرِمّاح ، وإخلاص أحدهما للآخر ، مع أن الكميت كان متشيعاً لبني هاشم ومضرياً ، وأما الطرماح فكان خارجياً متعصباً لأهل الشام وقحطانياً ، ولكن ذلك لم يمنع صداقة كل للآخر ، وربما كان الجامع بينهما صنعة الشعر ، كما أن الوظيفة هي التي جمعت بين الريان ويوسف ، زد على ذلك أنهما ساميان ، بخلاف المصريين فحاميون ولا تنس إحسان الريان ليوسف بتخليته من الحبس وتحليته بالمنصب العظيم،ولذلك

سكن يوسف مصر وهو مطمئن الخاطر، قرير العين، منشداً بلسان الحال:

وكل امرىء يولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

اجر الدنيا واجر الآخرة

آ (٥٧) ﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيرٌ للذين آمنو وكانوا يَتَّقُونَ

ت الجلسة وتليت الآية السابعة والخمسون فقام الاستاذ السلفي العنيزي [1] وقال: يقول الله تعالى عز وجل:

﴿ولأجر الآخرة خير﴾ بكثير جداً جداً ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كيوسف وأشباهه، فيوسف مأجور نطقاً في الدنيا والآخرة. والمؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق، فقوله يا سر: ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ أي في الدنيا — هو حكم عام، يشمل المؤمن وغيره، ويعم التقي والشقي، بدليل التخصيص بقوله: ولأجر الآخرة.. الخ قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ العاجِلةَ عَجَّلنا له فيها ما نشاءُ لِمنْ نُريدُ، ثم جعلنا له جهنمَ يَصلاها مذموماً مدحوراً، وَمَنْ أرادَ الآخِرةَ وسَعَى لها سَعْيَها — وهو مُؤمِنٌ — فأولئكَ كانَ سَعْيُهم مشكوراً، كلاً نُمِدُّ هؤلاءِ منْ عطاءِ ربكَ، وما كانَ عطاءُ ربك محظوراً، انظرْ كيفَ فضّلنا بعضَهم على بعض، وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً﴾ (١٧: ١٨ — ٢١) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُردْ ثوابَ

(١) نسبة الى عنيزة بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

الدنيا نُؤتِهِ منها ، وَمنْ يُردْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْته منها ، وَسَنَجزي الشاكرين ﴾ (٣ : ١٤٥) ، أجر الآخرة خير من كل مافي الدنيا ، ولو كانت كنوز « قارون » (١) وصناديق « روكفلر » (٢) وخزائن « روتشليد » (٣)، والآن لنا على هذه الآية الكريمة التعليقات الآتية :

الآخرة لغة واصطلاحاً

التعليق الأول — الآخرة آخرتان ، الآخرة المعروفة المقابلة للدنيا ، وهي المعبر عنها باسم « يوم القيامة » و «يوم الدين »ونحوهما ، والآخرة بمعنى المدةالأخيرة من عمر الانسان في الدنيا ، وهي التي ربما يعبر عنها بلفظ « العاقبة » ونحوه ، وعلى كل حال ، فالآخرة بقسميها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، ومن المحتمل للمعنيين مافي مثل قوله تعالى : ﴿ أمْ للانسانِ ماتَمَنّى ؟ فلهُ الآخِرةُ والأولى ﴾ (٥٣ : ٢٥) وقوله تعالى : ﴿ ولَلآخرةُ خــيرٌ لك من الأولى ﴾ (٩٣ : ٤) ، قال « علي وفا » : (معناها وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة) ، وقوله تعالى : ﴿لهُ الحمدُ في الأولى والآخِرةِ﴾ (٢٨ : ٧٠) وقوله تعالى : ﴿ فأخَذهُ اللهُ نكالَ الآخِرةِ والأولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) ، فهذه أمثلة يحتمل استعمال لفظ « الآخرة » فيها في المعنى اللغوي وفي المعنى الاصطلاحي ، وأما لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿ فاذا جاء وعْدُ الآخــرةِ ﴾ (١٧ : ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ماسمعنا بهذا في المِلّةِ الآخرةِ ﴾ (٣٨ : ٧) فهو مستعمل في المعنى اللغوى قطعاً ، كما أن لفظ الآخرة في مثل قوله تعــالى ﴿ وبالآخرةِ هم يُوقِنُون ﴾ (٢ : ٣) ، هومستعمل في المعنى الاصطلاحي قطعاً ، فتدبر ،فان لكل مقام مقالاً.

---

(١) هو قورح التوراة (٢) اميركي اغنى اغنياء العالم قاطبة (٣) من اغنياء اليهود في العالم .

ثواب الجنة جسماني وروحاني

التعليق الثاني — دار الآخرة هي دار المثوبة والعقوبة ، فدار المثوبة الجنة ، ودار العقوبة النار ، وقد جُعل في الجنة نوعان من الثواب ، نوع من اللذائذ الجسمانية كما قال تعالى : ﴿وبَشِّر الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أنَّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الانهارُ ، كلما رُزِقوا منها من ثَمَرةٍ رِزْقاً ، قالوا : هذا الذي رُزِقْنا مِنْ قبْلُ ، وأوتوا به مُتَشابِهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرةٌ ، وهم فيها خالدون﴾ (٢ : ٢٥) ونوع روحي ، وهو رضا الله والقرب منه ، قال تعالى : ﴿يا أيتُها النفسُ المُطْمَئِنَّةُ ، ارجِعي الى ربكِ راضيةً مَرْضيةً﴾ وقال تعالى: ﴿لهم دارُ السلام عندَ ربِّهِم ، وَهوَ وليُّهم بما كانوا يَعْمَلونَ﴾ (٦ : ١٢٧) ويجمع النوعين قوله تعالى : ﴿قل أؤُنَبِّئُكم بخيرٍ من ذَلِكُمْ ؟ لِلذينَ اتقَوا عندَ ربِّهِم جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، وأزواجٌ مُطهرةٌ ورِضوانٌ من اللهِ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد﴾ (٣ : ١٥) وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ، ومَساكنَ طيِّبةً في جنات عَدْنٍ ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ، ذلكَ هو الفوزُ العظيم﴾ (٩ : ٧٣) .

حظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا

التعليق الثالث — هذه الآية جارية على قاعدة «تنازع البقاء واختيار الأحسن» في الآخرة ، كما في الدنيا ، قال تعالى : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ، فالمؤمن التقي في الآخرة ، هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا ، فمثلاً : يوسف الذي هو موضوع الحديث ، لئن كان قد تبوأ من خريطة مصر حيث شاء ، فلعمري سوف يتبوأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم .

اجر الآخرة مادي وروحي

التعليق الرابع — تعليقاً على قوله ﴿ ولاجر الآخرة ﴾ ، أجر الآخرة قسمان: مادي وروحي ، فأما المادي ، فهو معلوم وهو للعوام ، وأما الروحي فهو للخواص وسبحان من أشار اليه بقوله : ﴿ وقال لهم خَزَنَتُها : سلامٌ عليكم ، طِبْتُم ، فادخلوها خالدينَ ﴾ (٣٩:٧٣) ، فالسلام ، أي الامن ، هو في نظر كل عاقل، أقصى أماني المرء ، وأعظم الملاذ قاطبة ، وجل من قال : ﴿ وَنَزَعنا مافي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍ ، إخواناً ، على سُرُرٍ مُتَقابلينَ ﴾ (١٥:٤٧) ، وأيّ رذيلة أخبث من الغل ، مصدر المحن والمصائب ، والنقم والآفات ؟ وأيّ شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟ وأيّ دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل الى الملاذ ، من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقدع عن مآربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات ، وسبحان من قال: ﴿ وأما الذين ابيضَّتْ وُجُوهُهُم ، ففي رحمةِ اللهِ ، هم فيها خالدون ﴾ (٣:١٠٧) .

اجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا

التعليق الخامس — يخبر تعالى في هذه الآية ﴿ ولاجر الآخرة .. ﴾ الخ أن ما ادخره لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة ، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان : ﴿ هذا عطاؤنا فامننْ أو أمسِكْ بغير حساب ، وإنّ له عندنا لزُلْفى وحُسْنَ مآبٍ ﴾ (٣٨:٣٩و٤٠) ، وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعد منهم يوسف : ﴿ والذينَ هاجروا في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، لَنُبَوِّئَنَّهم في

الدنيا حَسَنَةٌ ، وَلَأَجْرُ الآخرةِ أكبرُ ، لو كانوا يَعلَمون ﴾(١٦: ٤١) .

الاخلاص يكون بالايمان والعمل الصالح

التعليق السادس — جمع في هذه الآية بين الايمان والتقوى ، كما جمع في آيات كثيرة ، بين الإيمان وعمل الصالحات، إشارة الى أن الانسان لايخلص إلا بالإيمان والتقوى ، وبعبارة أخرى ، بالإيمان والعمل الصالح ، خلافاً لكتب النصارى ، ليس للاعمال فيها قيمة ، ولا أجرة مطلقاً ، قال بولس في رسالته الى أهل رومية: (أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة ، بل على سبيل دين ، وأما الذي لايعمل ، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر ، فإيمانه يحسب له براً) (رو ١٤ : ٤ و ٥) ، والله يقول في القرآن المجيد : ﴿ ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليوم الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيّينَ ، وآتى المالَ (على حُبِّهِ) ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقاب ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والمُوفونَ بِعَهدِهِم إذا عاهَدوا ، والصّابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ : ١٧٧) .

واجتهد بولس في احباط الاعمال ، حيث ذكر أن أعمال الناموس تحت لعنة، وأنه لايتبرر أحد عند الله بالناموس ، وأن الناموس لا لزوم له ، بعد مجيء المسيح (غلاطية ٣ : ١٠ ـ ١٣) ، مع أن المسيح نفسه يقول : (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل) (مت ٥ : ١٧) ولكن المسيحيين عملوا بكلام بولس ، فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ، وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ، ماعدا أربعة : الزنا والدم المسفوح والمخنوق والمذبوح للأصنام (أع ١٥ : ٢٨ و ٢٩) .

يوسف النبي والرسول

التعليق السابع — كان يوسف بمصر نبياً ورسولاً ، وكان أهل مصر كفاراً وثنيين ، ولكنه لم يمكنه أن يفعل معهم كل مايعرفه من دين الاسلام ، فإنه دعاهم الى التوحيد والإيمـــان ، فلم يجيبوه ، قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ مِنْ قبْلُ بالبَيِّناتِ ، فما زِلتُمْ في شكٍّ مِمّا جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتُمْ ، لنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف بلغ الرسالة ، ولكن المصريين لم يؤمنوا به ، بل كانوا في شك مما جاءهم به ، ولكنه هو أدّى الامانة ، ونصح لله واتقى الله ماستطاع .

الجزاء يكون على الايمان والعمل معاً

التعليق الثامن — نعلم من قوله : ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ومن أمثاله مما لايحصى قاعدة مهمة في الدين ، وهي أن الجزاء إنما يكون على الايمان والعمل معاً ، لأن الدّين إيمان وعمل ، ومن الغرور أن يظن المنتمي لدين نبي من الانبياء أن يكون ناجياً بمجرد الانتماء ، ومما يشهد لذلك ماحكاه الله لناعن بني اسرائيل من غرورهم بدينهم ، وماردّ به عليهم ، حتى لانتبع سنتهم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا: لَنْ تَمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودةً ﴾ ، — قُلْ : أتّخذْتُم عندَ اللهِ عهداً ، فلَنْ يُخلِفَ اللهُ وعدَهُ ، أم تقولون على اللهِ مالاتعلمون ؟ بلى مَنْ كسَبَ سيّئةً وأحاطتْ به خطيئتهُ ، فأولئك أصحابُ النارِ هم فيهاخالدون ، والذينَ آمنُوا وَعمِلوا الصالحاتِ أولئك أصحابُ الجنةِ ، هم فيها خالدون ﴾ (٢ : ٨٠—٨٢) ، وماحكاه عن اليهود والنصارى جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : « لنْ يدخُلَ الجنةَ إلاّ منْ كانَ هُوداً أو نصارى » — تلك أمانيهُم — قل : « هاتوا بُرهانَكم إنْ كنتم صادقين » بلى مَنْ أسلمَ وَجههُ للهِ — وهوُ محسِنٌ —

فلهُ أجرُهُ عندَ ربِّهِ ، ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾(٢:١١١و١١٢)،
من هذه النصوص نعلم أن النجاة في الآخرة والسعادة الابدية فيها . إنما تكون
بالإيمان والتقوى ، لا بالإيمان وحده ، خلافاً « للمُرْجِئة » في قولهم بكفاية
الإيمان ، بدون أعمال ، سُمّوا بذلك ، لانهم أرجأوا العمل ، أي أخروه
قالوا : لايضر مع الإيمان معصية ، وخلافاً للنصارى ، في اكتفائهم بالإيمان
بالآب والفداء .

استطراد :

وعقيدة الصلب والفداء وثنية محضة سرت للنصارى من الوثنيين ، كما
بينه علماء أوربا الاحرار ، بل ومؤرخوهم ، بل وعلماء الآثار والماديات
منهم في كتبهم .

قال « دوان » : «إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة
فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم » وذكر الشواهد
على ذلك ، منها قوله : « يعتقد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذى هو
نفس الإله « فشنو » الذي لاابتداء له ولاانتهاء — على رأيهم — تحرك حنواً ،
كي يخلص الارض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه
ذبيحة عنه »..

وقال «هوك» : « يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة ، وتقديم نفسه
ذبيحة فداء للناس عن الخطيئة ».

وقال القس« جورج كوكس »في سياق الكلام عن الهنود : « ويصفون
«كرشنا» بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً،لانه قدم شخصه ذبيحة ».وقال«هيجن»
عن «أقدرا» الذي يعبده سكان النيبال والتيبت : « انه سفك دمه بالصلب وثقب
المسامير ، لكي يخلص البشر من ذنوبهم »،والبوذيون يقولون في «بوذا» إنه مخلص

العالم ، وإنه إنسان كامل وإله كامل ، تجسد بالناسوت ، وقدم نفسه ذبيحة،ليكفر ذنوب البشر ، ويخلصهم من ذنوبهم، فلا يعاقبوا عليها .

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « بيل » في كتابه (تاريخ بوذا) ومنهم «هوك» في رحلته،ومنهم «بول» في كتابه (تاريخ الآداب السنسكريتية)،والخلاصة إننا لا نعتقد أن خلاصنا يكون بواسطة إنسان ، ولكن بالإيمان والتقوى.

رد دعوى زواج يوسف بزليخا بعد موت زوجها فوطيفار

التعليق التاسع — ذكر فريق حشوي من المفسرين أن «عزيز مصر»فوطيفار مات في تلك الليالي ، وأن ملك مصر « الريان » زوّج «يوسف» «زليخا» امرأة ذلك العزيز فوطيفار ، وشاع عند القصاص أن « زليخا »عادت شابة بكراً، بعد ما كانت ثيباً غير شابة ، وهذا كما قال الآلوسي في تفسيره مما لا أصل له ، قال : (وخبر تزوجها أيضاً مما لا يعول عليه عند المحدثين)، ونحن نزيد على ذلك أن نسبة يوسف عليه السلام للتزوج بهذه المرأة لا يليق ، لأنها وإن تكن تابت وحسنت توبتها ، فقد كانت عزمت على السقوط ، وصممت عليه ، ومعلوم أن زوجة كل رسول هي أم لأفراد أمته ، كما قال تعالى :﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ (٣٣:٦)،ولا يليق أن تكون هذه المرأة نصف الساقطة أماً للمصريين إذ ذاك، والصحيح أن مليك مصر الريان كان قد زوّج يوسف « أسنات » بنت«فوطي فارع » كاهن « أون »، ومعنى « أون » الشمس ، ولذلك سميت البلدة عند العبرانيين « بيت شمس » ، واليونانيون يدعونها « هليو بوليس » ، وأما«أسنات» فلفظة مصرية معناها محبوبة « نات » ، ونات هذه إلهة الحكمة عند المصريين.

استطراد :

فإن سأل سائل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتزوج بامرأة وثنية

بنت كاهن وثني ؟ فالجواب أنه يجوز أن تكون صارت من الموحدين إما قبل الزواج أو بعده بقليل ، ويكون ذلك جائزاً عندهم . وذلك كما أن مسلمي الصين اليوم يتزوجون بالصيقيات الوثنيات فلا يلبثن أن يسلمن عند أزواجهن ، حتى أن ذلك صار أحد أسباب انتشار الإسلام في الصين ، وقريب من هذا ماوقع قديماً أن إبراهيم عليه السلام كان تزوج بساراي وهي ابنة أبيه « تارح » المسمى في كتابنا الكريم « آزر » ، فهي أخته من أبيه فقط ، وليست أخته من أمه ، وتارح أو آزر كان وثنياً فلا بد أن تكون بنته كانت في البدء كذلك ، ولكن لما تزوجها إبراهيم صارت من أهل التوحيد كزوجها ؛ ولنا أمثلة على ذلك كثيرة منها تزوج « لوط » عليه السلام بامرأة كافرة ، وكذلك قبله نوح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ضربَ اللهُ مَثَلاً للذينَ كفَروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ ، كانتا تحتَ عبدَيْنِ مِنْ عبادنا صالِحين ، فخانَتاهما فلم يُغنيا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً ، وقيلَ ادْخلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) ، ومنها تزوج إسحاق عليه السلام « رفقة » وهي بنت « بيوئيل » الوثني ، وتزوج يعقوب عليه السلام « ليئة » و « راحيل » وهما بنتا « لابان » وهو وثني ، وكذا تزوج إسماعيل عليه السلام بامرأة من أرض مصر على مافي التوراة ، أو بامرأة من جرهم على مافي التاريخ العربي ، وعلى كل فهي وثنية ، والامثلة من هذا القبيل كثيرة ، فما جاز لهؤلاء فعله في شريعتهم يجوز ليوسف عليه السلام في شريعته .

وجواباً ثانياً — وهو أن المشركات اللاتي حرم الله نكاحهن في قوله : ﴿ ولا تَنكِحوا المُشرِكاتِ حتى يُؤمِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢١) ، هن مشركات العرب فقط ، وان المصريين كالصابئين ووثنيي الهندوس والصين وأمثالهم كاليابانيين هم أهل كتب مشتملة على التوحيد ، وأن كتبهم طرأ عليها التحريف كما طرأ على كتب اليهود والنصارى التي هي أحدث عهداً في التاريخ ، وان قوله

تعالى بعد بيان محرمات النكاح ﴿ وأُحِلَّ لكم ما وَرَاءَ ذَلِكم ﴾ (٤ : ٢٤) يفيد حل نكاح نسائهم ، فليس لاحد أن يحرمه الا بنص .

الفصل الثاني

سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) ﴿ ... وجاءَ إخوةُ يُوسفَ ، فَدَخَلُوا عليهِ ، فَعَرَفَهُمْ وهُمْ لهُ مُنْكِرُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والخمسون ، فقام الشيخ الزيدي الصنعاني وقال :

تحقق تعبير يوسف لرؤيا الملك الريان ، بمجيء السنين السبع الخصبة ، ثم السنين السبع الأخرى المجدبة ، فحصل جوع وقحط لاسيا في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين ، لعدم استعداد أهلها لمثل هذا اليوم ، وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود قمح في مصر ، فطلب من أولاده أن يذهبوا اليها للامتيار ، فهيأوا رواحلهم قاصدينها ، (وجاء إخوة يوسف) العشرة الى مصر ، فرأتهم العيون المرصدة من قبل يوسف بشكل وعدد يلفت النظر ، فأخذوهم الى يوسف في بلاطه (فدخلوا عليه) وهو جالس على عرشه ، فسلموا عليه ، (فعرفهم) بملامحهم وكلامهم وأزيائهم (و) أما (هم) فلم يعرفوه إلا انه « العزيز » ، وأما من هو وما اسمه ومن أي عنصر فبقوا (له منكرون) .

(وجاء إخوة يوسف . . . الخ)

— ١ —

وقام الاستاذ بن نصيف أحد علماء بلدة جدة الأفاضل وقال :

مجيءُ اخوة يوسف لمصر للامتيار

جاءت سنوُ الخصب ، ثم تلتها سنوّ الجوع ، فأصاب أهل مصر وما جاورها من البلاد وخاصة فلسطين شظف وضيق ، وخشونة عيش ، وآتاهم الجدب كوحش هائل ، فاغر فاه ، يتلقف ماقرب منه وما بعد ، فقال يعقوب لأولاده : « أبقوا على عيالكم وأولادكم ، ولا تحملوهم الى الفناء ، فانه ليس من المروءة أن يرمي الإنسان بأهله في مهاوي الجوع ، بل يقيهم بسعيه ، ويدفع عنهم بجده ، وان السعي على العيال واجب ، فقوموا اسعوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، واليه النشور ، قوموا اضربوا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله »

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألقِ دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً تجيء بحمأة وقليل ماء
ولا تقعد كذي كسل وجبن تحيل على المقدر والقضاء
قعودك عن طلاب الرزق عجز وعجز المرء أسباب البلاء

علم يعقوب عليه السلام أنه يوجد قمح في مصر ، فقال لبنيه : (لماذا تنظرون بعضكم الى بعض ؟ إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر ، انزلوا الى هناك ، واشتروا لنا ، لنحيا ولا نموت ، وإن ماعندنامن بقايا القوت يوشك أن يفنى ونبقى معدمين ، حتى ولو اقتصدنا ، بل ولو قترنا في تناوله ، فان قلة الانفاق ، لايمنعه من سرعة النفاد ، فان الكحل الذي لايؤخذ منه إلا عيار الميل سريع فناؤه ، فكيف ونحن عشيرة كبيرة ، نحتاج كل يوم نحن ودوابنا الى قوت ليس بالقليل).

وقد كان يعقوب عليه السلام ، وأولاده أنفسهم في حاجة الى الطعام ، في تلك الايام ، وقد ضعفت مواشيهم من قلة المرعى ، وربما مات كثير منها ، وأخذ الموت يجرف كثيراً من الناس .

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فقاموا وشرعوا في الرحلة ، ماعدا بنيامين ، فقد تخلف عنهم إذ لم يرسله أبوه معهم ، لأنه قال في نفسه : (أخشى أن يصيبه أذى) ثم ساروا ميممين الديار المصرية ، وقبيل ماوصلوا لمصر ، رأوا في ضواحيها من جهة طريقهم ، مضارب وخياماً منصوبة للمشارين القادمين ، وإبلا وحميراً ، مابين مربوطة وذاهبة لمصر فارغة ، وآيبة منها مثقلة بالميرة ، وصادفوا جلبة وازدحاماً ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا مصر ، مابين نهيق الحمير ، وجمير الابل ، يتخلل ذلك ضوضاء وصلصلة وقمقمة ، إذ كان في مصر اجتماعات مدهشة من صنوف الممتارين ، تعيد للاذهان ذكرى برج بابل ، أو تمثل للانسان يوم المحشر .

وكان أبناء يعقوب حينما دخلوا مصر مغمورين في جمهور كبير من الممتارين ، لكن العيون المرصدة من قبل يوسف اقتحمت ذلك الجمع وتخطت الجمهور ، ولم تتناول إلا هؤلاء الاخوة ، فأخذوهم اليه في بلاطه ، فدخلوا عليه ، وهو في قصره يناطح السحاب . جالس على عرشه ، وسلموا عليه سلام الامانة ، وتراموا بين قدميه ، وقد استوسق له كل ما أراد من سلطان ومراس ونفوذ كبير ، ومهابة عظيمة ، دخلوا عليه ، وهو في عنفوان دولته وشمخها ، وعزة ملكه وقبسها ، فتفرس فيهم ، فلم يكن إلا كلمح البصر ، حتى بصر بهم ، فعرفهم من بعد العهد ، عرفهم بلحاهم وشعور رؤوسهم حسب عوائد الفلسطينيين وخاصة العبرانيين ، عرفهم بملامحهم وتكلمهم بالعبرانية ، عرفهم بلباس من نوع أزياء أهل فلسطين يمازجه شيء من هندام العراقيين ، عرفهم بحيث يقدر أن

يناديهم بأسمائهم ، ويخبرهم بأحوالهم ، التي غادرهم عليها منذ صغره ، عرفهم لأن صورهم كانت قد ارتسمت في « فِلْمِ » دماغه وهم كبار ، فلم يطرأ عليها تغير كثير ؛ وأماهم ، فلم يعرفوه إلا بأنه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » ، وأما من أي عنصر هو ، ومن أي عشيرة ، فلم ...

(وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ...الخ)

— ٢ —

وقال العلامة العَدَني[1] : نستفيد من هذه الآية الكريمة الفوائد التالية :

وصف منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف

الفائدة الأولى — جاء إخوة يوسف فاذا الناس من خواص العالم ، ورجالاتهم وعامتهم في هرج ومرج ، يموج بعضهم في بعض كموج البحر ، قد تسربوا أزواجاً وأثلاثاً ، بين راكب وماش ،هذا يكال له ، وهذا يحمل الميرة ، يهرعون نحو الكيالين ، تتزاحم أقدامهم ، وتتراص صفوفهم ، ويندمج بعضهم في بعض ، الرجل يدفع الرجل ، والمرأة تدفع المرأة ، وهم أنواع شتى ، وأشكال متباينة ، ولغات مختلطة ، وأزياء مختلفة ، كار وفار ، داخل وخارج ، باك وضاحك ، منهم الشيوخ والهرمى ، ومنهم الشببة والفتيان ، وقد علا الضجيج حتى استكّت المسامع ، وتصاعد الغبار ، حتى حجب السماء ، يتواردون كوكبة بعد كوكبة ، وزرافة بعد زرافه ، ولا غرو فمصر بعناية يوسف وتدابيره ، أصبحت الحرم الوحيد الذي تقصده أهالي البلاد المجاورة لها ، وهي القلب الذي تتدفق منه مادة الحياة الى جميع الأطراف ، وهي الموئل الذي يرجع اليه عند الشدة ، وأما إخوة

(١) نسبة الى عدن ، قاعدة شبه جزيرة عدن .

يوسف ، فدهشوا لهذا المنظر الرهيب ، فوقفوا هنيهة في وسط الساحة ، وريثما يقل المتزاحمون ، وهناك أخذوا فأدخلوا على يوسف ليشرح لهم على وثيقة الامتيار .

ترقب يوسف مجيء اخوته

الفائدة الثانية — لم يعجب يوسف لهذا المجيء ، لأنه كان يعرف أن هذا المجيء سيكون طبعاً ، وكان يعد له الأيام عداً ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب ، إذ متى حصل الجدب والقحط في مصر حصل فيما يجاورها من البلاد ، التي منها بالأقرب فلسطين ، فتضطر إخوة يوسف للامتيار ، وقد وقع .

يوسف يشرع في تحقيق هدفه

الفائدة الثالثة — جاء إخوة يوسف فانشرح صدره ، وشعر أنه تقدم خطوة نحو الغرض الذي كان يتوخاه ويتوقعه ، وهو مجيء بنيامين لمصر ، وحظوته بلقياه ، وقال في نفسه : « قد دنا وقت العمل » ، فلذلك سيأتي إنه عمل معهم الحيلة الأولى لرجوعهم بأخيه ، قائلا في ضميره : متى رجعوا به ، أحتال لإبقائه عندي بحيلة أخرى ، أشذب بها شيئاً من كبريائهم ، ثم أسعى في مجيء والدي لمصر » ، وهكذا سيتم له ماأراد .

ابتداء يوم يوسف

الفائدة الرابعة — من ههنا يبتدىء اليوم الذي ليوسف ، وينتهي بنهاية (ع ١٠١) بعد ما صبر على اليوم الذي عليه المذكور في (ع ١٥) ، فهو في هذه الحوادث كغيره ، يوم له ، ويوم عليه ، يوم له كان في بكرته ممزوجاً بشيء من الرحمة (ع ٥٨ — ٦٢) ، وكان وقت الظهيرة شديداً جداً (ع ٧٠—٧٩) ثم صار حين

الأصيل رحمة مطلقة (ع ٨٩ — ٩٣) ، وأما اليوم الذي عليه فكان لوناً واحداً، وهو لون القسوة .

حال اخوة يوسف بعد ما شردوه

الفائدة الخامسة — كان حصل ما حصل من إخوة يوسف مع يوسف منذ ٢٢ سنة، فأما هم فبقوا ساكنين بفلسطين عنـــد أبيهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم ، وأما يوسف عليه السلام فأقام بمصر ، في بيت العزيز ، ثم في السجن ، ثم في بلاط الملك ، ونامت تلك القضية ، التي كانت بين هؤلاء الاخوة، نعم نامت ولكن بدون أن تنام تلك الاحقاد ، التي نشت في الصدور ، بين الظالمين والمظلومين .

مجيء اخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله

الفائدة السادسة — مجيء إخوة يوسف لمصر ، ومثولهم بين يديه وتمكنه منهم — يعد من أعظم متممات مجد يوسف وسروره ، ويعد من أكبر المساعدات لآماله ، جاءه هذا الأمر عفواً صفواً ، لم يمد اليه يداً ، ولا تجشم فيه مشقة ، ولا خاض فيه غمرة .

الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين

الفائدة السابعة — نتعلم من هذه الآية، ومن سابق قوله ﴿ وجاءت سيارة الخ﴾ ومن لاحق قوله : ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أنه كان يوجـد اتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر .

اسباب عدم معرفة اخوة يوسف له عندما قابلوه

الفائدة الثامنة — لم يعرفوه لأسباب منها أولاً : بعــــد الشقة ، وطول مدة

الفرقة ، ومما دعا لعدم معرفتهم إياه بنوع خاص وجوده في البلاط ، في دست الوزارة المالية ، وانه عزيز مصر ، ووكيل مليكها .

ثانياً : الشوار الذي كان على لباسه ، وتكلمه معهم بالقبطية ، لأنها هي اللغة الرسمية ، وانه كان حليق الرأس والفرع واللحية ، لأن تلك الهيئة هي هيئة المصريين ، وهي عندهم هيئة العز والشرف « وأما الذين يوفرون فروعهم ولحاهم فهم في نظر المصريين واصطلاحهم الأدنياء والأذلاء ، كما ثبت ذلك في التاريخ ، وعلم من الرسوم المصرية .

ثالثاً : قد تغير اسمه في دار الحكومة وعند الاهالي بموجب إرادة سنية ، صدرت من البلاط ، لأن مليك مصر دعا يوسف « صفنات فعنيع » ، وهما كلمتان مصريتان ، قال القانون كوك : معناهما « طعام الحياة » ، أو « قوت الاحياء » ، وفسرهما آخر « بمخلص العالم » ، والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الاحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة الى زمن القحط .

رابعاً : كان قد تغيرت صورته ، لأن صورة الانسان وهو في سن الأربعين ، تباين صورته تمام المباينة وهو في سن ١٧ سنة ، إذ تكون قد تغيرت تقاطيعه ، واختلفت أوضاعه ، وتبدل فيه كل شيء ، حتى ملامحه وشمائله .

معنى نكر وأنكر

الفائدة التاسعة — نَكَرَ بالقلب وأنكَرَ بالعين (أساس) ، فاخوة يوسف لم يخافوا منه بقلوبهم ، ولم ينفروا منه حين رأوه ، ولكنهم لم يروه في الشكل المعروف لهم ، أو رأوا له حالاً وشكلاً خلاف حال السوقة من المصريين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ هل أتاكَ حديثُ ضيفِ ابراهيمَ المُكرَمينَ ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاماً — قال : سلام ، قومٌ منكَرُونَ ﴾ (٥١ : ٢٤ و ٢٥) ،

وكما في قوله تعالى : ﴿ فلما جاءَ آلَ لوطٍ المُرسَلونَ ، قال : إنكم قومٌ مُنكَرُونَ ﴾ (١٥ : ٦١ و ٦٢) ، فمعنى قول ابراهيم وابن أخيه لوط «منكرون» إنهما لم يعرفا الملائكة في اول دخولهم عليهما ، فمعنى « منكرون » مجهولون غير معروفين ، وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى ، قالوا : سلاماً — قال : سلامٌ ، فما لَبِثَ أنْ جاء بعجلٍ حنيذٍ ... فلما رأى أيديَهُم لا تصِلُ اليه نكِرَهُم ، وأوجَسَ منهم خيفةً ﴾ (١١ : ٦٩ و ٧٠) ، فمعناه أن ابراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لم تأكل من طعامه نفر منهم بقلبه ، وخاف انهم يريدون به مكروهاً ، لأن عادة الشرقيين هكذا ، إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ، وإلا خافوه ، ولذلك حسن التعبير بكلمة « نكر » هذا ما نقرره بناء على ما ذكره الزمخشري في أساسه ، من التفرقة بين نكر وأنكر ولكنه في كشافه لم يفرق بينهما ، وأنشد قول الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشَيْبَ والصلعا

وما قاله في الاساس أدق ، وهو اصطلاح القرآن الكريم ، الذي أنزله الله حُكْماً عربياً ، وحَكَماً لغوياً .

سبب عدم اظهار يوسف نفسه لاخوته

الفائدة العاشرة — لم يظهر يوسف نفسه لاخوته ، في هذه المرة من اللقاء ، خوفاً من حسدهم وإلحاقهم به الأضرار ، وأن ينقلبوا عثرة في سبيل تمكنه من منصبه الذي هو فيه لأنهم اذا كانوا قد حسدوه على مجرد حب أبيه له أكثر منهم ، فأخلق بهم أن يحسدوه ويضروه إذا رأوه قد تربع فوق دست وزارة المال بمصر ، وأنه قد صار عزيزها ووكيلاً مفوضاً عن مليكها ، وبما أنهم إخوته ، فهم قديرون على ذلك ، إذ من ذا الذي يظن ان الاخوة العشرة من أبناء نبيّ الله وصفيه يعقوب ، من سلالة اسحق وذرية ابراهيم — يتألبون بالزور والبهتان على أخ منهم

وفيهم ؟!!؟!؟! ... فلعمري إن ظنهم فيه قريب التصديق . فلذلك كان يوسف يخاف منهم ويتقي شرهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وهذا مادفعه الى التكتم عنهم ، والعاقل لايجد له أماناً من حاسديه ، أوثق من الذُعر والتحفظ ، واتقاء قربهم ، والتعرف اليهم ، والتحكك بهم ، ويحتمل انه لذاك العهد كان لايزال مغتاظاً منهم وحاقداً عليهم .

داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً

الفائدة الحادية عشرة — لاريب أن يوسف عليه السلام كان قد أقام أناساً لبيع الحنطة يبيعون كما يأمرهم ، فكيف أتى إخوته رأساً إليه ؟

والجواب : إن علة ذلك كثرتهم ، لأنهم عشرة ، ومعهم عبيد وخدم ، فكانوا ممن ينظر اليهم بريبة ، فلما دخلوا مصر ، رفع أمرهم الى حاكمها يوسف عليه السلام ، لينظر في أمرهم ، وقد كان المصريون يرتابون من كل جماعة غريبة تدخل أرضهم ، ولا سيما الجماعات التي تدخلها من الحدود العربية .

يوسف يجهز اخوته بالميرة ويطلب منهم الاتيان ببنيامين

آ (٥٩) ﴿ ... وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، وقالَ : أئتُونِي بأخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، ألا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وأنا خَيرُ المنزِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والخمسون فقام الشيخ الحديدي اليمني وقال :

أعطى إخوة يوسف مابيدهم من الفضة ، وكال لهم يوسف القمح ، كيلاً

طافاً زائداً عن الحق الذي لهم ، ثم تجهيزاً لهم في إيابهم أعطوا زاداً للطريق ، وأعطاهم كل مايصلحهم ، من كل مايحتاج اليه المسافرون ، قائلا في نفسه : بعلة الزرع يسقى القرع ، (ولما جهزهم بجهازهم) أي هيأ لهم جهازهم ، وهو مايحتاجون اليه في قطع المسافة ، من دقيق وسويق ، وسقاء وماء ، وعلف للدواب ، وكل مايلزم لهم في الإياب ، (قال) فجأة وبغتة ، بلا سابق مذاكرة : يا أبناء فلسطين لله أنتم ، إني أقترح عليكم شيئاً واحداً (ائتوني) مرجعكم الي (بأخ لكم من أبيكم) ، سمعتُ به ولم آره معكم في هذه الزيارة — قال ذلك جهراً بحيث يسمعونه ثم قال بينه وبين نفسه : لأن « الثكلى تحب الثكلى » ، ثم رجع وقال مرغباً : [(الا ترون) ناشدتكم الله ، (أني أوفي الكيل) أي أكثره وأزيده بحيث يطف الحب عن المكيال (وأنا خير المنزلين) من الباعة الكيالين ، الذين ينزلون الممتارين عندهم ، فهم إنما يعطونهم الحق فقط ، ثم لايجهزونهم بشيء من لوازم السفر ، ولكني قمت بالفريضة والنافلة ، قمت بالواجب والمستحب ، قمت بما يلزم وما لا يلزم] ، وربما كان معنى (المنزلين) بمعنى المضيفين ، لأنه يقال : أنزله بمعنى أضافه ، والنزيل الضيف .

ألا ترون اني اوفي الكيل .. الخ

— ١ —

وقال تقي الدين العريشي (١) :

جود يوسف على اخوته وبعض الامثلة المشابهة في التاريخ

إذا لاحظنا أن الوقت في مصر وماحولها من البلدان كان وقت جدب وغلاء وأن يوسف عليه السلام جهز إخوته بجهازهم جوداً منه وكرماً ، وأوفى لهم

(١) نسبة الى بلدة العريش من فلسطين .

الكيل وزاده عن الواجب ، ثم جمل بضاعتهم في رحالهم ، فلا ريب أن يكون خير الباعة الذين ينزلون الممتارين عندهم ، فيبيعونهم بالثمن ، مقتصرين على حقهم فقط ، لايزيدونهم عليه شيئاً ، لاسيما إذا لاحظنا أنه عمل هـذا العمل مـع قوم كرهوه وحسدوه وشردوه ، وإن هذا الجود الذي جاد به يوسف على إخوته ، أقصى مايمكن أن يجريه « وزير مالية أمين » مع من أراد أن يحابيه من الممتارين .

ويجمل بنا بهـذه المناسبة أن نسوق للقرآن بعض الأمثلة التي وقعت من الأجواد فنقول :

١ً — وقع قحط في عهد « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ، فقيل له : « إن الناس في شدة » — فقال : « إنـكم لاتمسون حتى يفرج الله عنـكم » ، فلما كان آخر النهار ، جاءت عير محملة « لعثمان ابن عفان » رضي الله عنه ، من الشام ، فجاءه التجار وقالوا : « إن الناس في شدة قحط ، وقد َقـدِم عليك مائة راحلة من البر ، فبعنا إياها » — قال : « كم تربحوني ؟ » — قالوا : « تجعل ربح العشرة درهمين » — قال « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا :« نربحك أربعة » — قال : « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا : « نحن تجار المدينة ، فمن زادك ؟ » — قال « إن الله زادني بـكل درهم عشرة ، قال تعالى : ﴿ َمنْ جاءَ بالحسنةِ ، فله َعشْرُ أمثالها ﴾ (٦ : ١٦٠) ، أشهدكم إنها صدقة للمسلمين ! ! ! » .

٢ً — في غزوة اليرموك ، عنـد المزيريب ، في خلافـة عمر رضي الله عنه ، قصد بعض الصحابة ابن عم له جريح طريح بشربة ماء ، فلما وصل اليه ، سمع شخصاً جريحاً يشكو عطشاً ، فأشار اليه : أن اسقه ، فجاء فسمع آخر يشكو عطشاً ، فأشار اليـه : أن اسقه ، فجاءه فوجـده قدمات ، فرجع الى الثاني فرآه كذلك ثم أتى ابن عمه ، فرآه كذلك قد مات ! ! !

٣ً ـــ كان « لطلحة الخير » رضي الله عنه مال ، أربعمائة الف ، فتصدق به على المسلمين .

(٤ً) ـــ وردت قافلة بتجارة من الشام « لعبد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه فحملها وقال : « من كان من أصحاب بدر ، فله عليّ أربعمائة دينار » ، واتفق أن أعتق ثلاثين ألف رقبة ، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة الف.

(٥ً) ـــ أنفق « أبو بكر » رضي الله عنه ، أربعين ألف دينار ، كما رواه ابن عساكر في تاريخه ، وقيل : كانت ثروتـــه أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين الفاً ، معونة لرسول الله ﷺ .

(٦ً) ـــ « زبيدة » امرأة هرون الرشيد ، أنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر مالم ينفقه أحد من قبلها ، فمن ذلك ماأنفقت في حفرها للعين المعروفة « بعين زبيدة » بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لها في كل ربع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصي ماأنفقت فيها ، فوجد الف الف وسبعمائة الف دينار . وفي كتب التاريخ عدا ماذكرنا أمثلة كثيرة من أخبار أهل الجود .

(ولما جهزهم بجهازهم . قال ائتوني .. الخ الآية)

ـــ١ـــ

وقام نور الهدى الصيداوي [١] : لنا ههنا تتمات لشرح هذه الآية :

معنى الجهاز

١ً ـــ قوله ﴿ ولما جهزهم الخ الآية ﴾ ، لابد له من مقدمة قولية تقديرها :

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

إنه كال لهم فأوفى ، وأنزلهم خير منزل ، وجهزهم بكل معدات السفر ، ولما جهزهم .. الخ ، وجهاز الميت والعروس والمسافر بالفتح على الأفصح مايحتاجون اليه ، وقد جهّزه تجهيزاً فتجهّز ، والجمع أجهزة ، وتجهّزت للأمر تهيأت له ، قال عمر بن عبد العزيز :

تجهزي بجهاز تبلغين به ياتفس قبل الردى ،لم تخلقي عبثاً

اشارة رمزية من يوسف لابيه يعقوب عليهما السلام

٢ — قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ هذا النوع من التعبير يفيد أنه لم يسبق « لبنيامين » ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً ، وإلاّ لقال : « ائتوني بأخيكم من أبيكم » كما أن جملة : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » متى نقلت لأبيهم ، أوقعته في استغراب ، وأذهبت نفسه كل مذهب ممكن ، وجملته يظن أنه لهذا الرجل المصري المعول على خزائن أرض مصر مغزى في هذا الطلب، وإلاّ ممن عرفه أن لهم أخاً من أبيهم ؟ وماهي علاقته به ؟ وألا يكفي انه عرف عشرة من أولاد يعقوب ؟ فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر ؟ وماهي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ، وماهي هذه الأهمية ياترى ؟ وماالمناسبة بين « عزيز مصر » وبين « بنيامين » ؟! ومافائدة العزيز من مجيء بنيامين ؟!

كل هذه الأسئلة لابد أن ترد على ذهن يعقوب ، ولا بد أن يستنتج منها احتمال أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، هو على الأقل يعرف يعقوب ، ويعرف أن له ولداً غير هؤلاء العشرة ، وأنه أخوهم من أبيهم . ويستنتج أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواه ، وعليه فلا بد أن يعقوب يقول في نفسه حينئذ : « إن في الأمر لسراً » ، وبالنتيجة ، كأني بيعقوب عليه السلام قد قام عنده احتمال ان هذا المتكلم بهذا الكلام ، الطالب هذا الطلب ، إما أن يكون يوسف ، أو رجلاً يعرف يوسف وله به علاقة ، ولذلك سيأتي له

أن يقول لأولاده : ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾، فلكأني به أنه ظن أن يوسف بمصر ، وعلى هذا فما كأن هذه الجملة ، إلا برقية شِفرة من يوسف لأبيه ، أو لغز لايحله إلا يعقوب ، أو اشارة رمزية ، وكل لبيب بالاشارة يفهم ،

هذا مايجب أن تحمل عليه الآية الكريمة ، وأما من حملها من المفسرين على غير ماذكرنا فهو كمن يقول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع.

ويمكننا أن نقول أيضاً أن تجهيز يوسف اخوته بما يلزم لهم في سفرهم ، وطلبه منهم الإتيان بأخ لهم من أبيهم ، هو ليسمع يعقوب بما عمل ابنه يوسف وما قال ، فيتحرك ذهنه ، ويدرك أن في الأمر سراً ، وإلا فما هو السبب الذي يدعو « عزيز مصر » لتجهيزهم بلوازم سفرهم ، وإيفائه لهم الكيل ، أي زيادته ، واطلب بنيامين ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ؟؟

حقاً إن هذه الأعمال والأقوال لتقتضي الدهشه ، وتوجب التفكر والبحث الذهني العميق ، وتستدعي التدبر في مرمى ذلك ، وماهو المقصود منه ؟ لاريب أن يوسف ترجى أن يفهم أبوه أن في الأمر سراً ، فيتحرك ذهنه ، ويشرع في التفكر والبحث عن ذلك السر ، لعله يحوم حول ولده المفقود ، فكأن يوسف بما عمل وماقال ، اعتبر إخوته كالآلة المسجلة التي تنقل الكلام من غير فهم لسره ومرماه ، ولا ندحة من أنه قد اختلج في صدر أبيه شيء من هذا القبيل ، فنحن نرى أن يعقوب عليه السلام حام حول ماأراد يوسف .

لقد كان يعقوب سابقاً يتحقق أن ابنه حيّ يرزق ، استناداً على مارآى ولده يوسف من الرؤيا الجيدة ، إنما أين هو ، فسؤال كان لا يعلم له جواباً ، وأما الآن ، فإنه فهم من هذه الرموز ، أن ابنه يوسف بمصر ، بدليل انه قال لأولاده

عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة : ﴿ يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (آ:٨٧) وإلاّ لم يكن معنى للتحسس عن يوسف في مصر خاصة ، فما ذاك إلا لكون يعقوب ظن أن يوسف بمصر ، الأمر الذى هو سر تلك الاعمال ، وبهذا يمكننا الاعتذار عن يوسف في أخذه بنيامين واسترقاقه عنده ، حيث ربما يعترض معترض على يوسف بأن هذا العمل يسيء أباه ، فكيف أقـــدم عليه ؟ فيكون الجواب عن هذا الاعتراض أن يوسف قبلما يأخذ أخاه ، أفهم أباه بلطف بما عمل من تجهيزهم بجهازهم وإنزالهم خير منزل ، ووضع بضاعتهم في رحالهم ، وما قـال من قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » — أفهمه بهذا العمل وهذا القول انـــه بمصر ، وكل لبيب بالاشارة يفهم ، هذا مايلوح لي ، تبعاً للأخ الاستاذ الحُديدي حفظه الله ، والله تعالى أعلم .

وجه قبول اخوة يوسف منة اخيهم

٣ً — قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، إن قال قائل: كيف قبلوا منه هذه المنة وسكتوا عليها ، والشاعر التميمي يقول :

إن الذين يسوغ في أعناقهم زاد يمـن عليهم للئـــآم

قلنا : إنه لا لؤم في قبول الرعايا منة الأمراء والملوك ، كقبولهـا من نحو الوالدين والمؤدّبين.

وجواباً ثانياً — وهو أن من رضي لنفسه بقطيعة الرحم والكذب والعقوق، والحاق الضرر بأبيه وأخيه ، هو أقل من أن يربأ بنفسه عن قبول منة الناس ، كيف وهم رضوا لأنفسهم هذه المنزلة إذ قالوا : « وتصدق علينا » كما سيأتي:

سلسلة كرم يوسف مع اخوته

٤ً — يوسف هنا جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأنزلهم خـــير

منزل ، فهذا من رجل مشرّد فعله مع مشردين ، مظهر من مظاهر الكرم ، واكبر منه قوله فيما يأتي : ﴿ وائتوني باهلكم أجمعين ﴾ (ع٩٣) واكبر من هذا وهذا، كرمه المتوي الذي عبر عنه بقوله : ﴿ لاتَثْرِيبَ عليكم اليومَ ، يَغفِرُ اللهُ لكم ، وهو أرحمُ الراحمين ﴾ (ع ٩٢). (مرحى)

دواعي طلب يوسف لبنيامين

٥َ — رأى يوسف اخوته العشرة ، فهاجت فيه ذكرى أخيه بنيامين ، وتنبهت أشجانه وقامت نفسه لرؤيته ، وجهده الشوق اليه ، فلذلك ولأجل أن ينقذه من براثن إخوته الغارزة في جسمه ، رغب اليهم أن يرجعوا به في السفرة الثانية ، من قبيل من رمى حجراً لكي يصيد به صيدين .

كما أنه نظراً لأن يوسف كان يتوسم من وراء مجيء شقيقه نوراً يهتدي به استطلاع أحوال أبيه ، والاسرة اليعقوبية بصورة مفصلة ، تكفل وقوفه على أحوال إخوته ، ماظهر منها وما بطن ، حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ونظراً لأن بنيامين هو أخوه الشقيق الأصغر ، فكان بالأشواق الكلية اليه — نظراً لذلك كله ، حسن في عين يوسف ، أن يطلب منهم « بنيامين » فقال لهم : اسمحوا لي أن أقترح أمراً ، ربما لايكون فيه صعوبة عليكم ، أمراً تتوخون به مسرتي ، وتتحرون به رضاي ، « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » الخ .

منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين

٦ً — قوله : « ائتوني باخ لكم من أبيكم » : تعلمون أن يوسف عليه السلام كان يحب « بنيامين » حباً جماً ، ولماذا ياترى ؟ . . لأنهما نشأ آ في خيمة واحدة كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فهو نام معه وليداً ، ولعب معه طفلاً ، وتسار معه فتى ، وذاق معه حلاوة السمر ، وذاق معه مرارة موت الأم

وشرب معه كأس كره الأخوة إياهما ، زد على ذلك أن يوسف كان لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، إلا في قلب بنيامين ، كما أن بنيامين كان كذلك ، لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، سوى قلب يوسف ، فبنيامين شارك أخاه يوسف ، في كل هذه الأدوار والمعاني ، فهذا — مع كونهما شقيقين — هو منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ، تلك المحبة الفائقة .

شيئان لو بكت الدماء عليهما　　عيناي حتى تؤذنا بذهاب

لم أبلغ المعشار من حقيهما　　فقد الشباب ورؤية الأحباب .

لماذا لم يذكر يوسف أباه بشيء

٧ً — لسائل أن يسأل قائلا : يقول الشاعر جرير في إحدى قصائده التي يمتدح بها بعض الأمويين :

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها　:　فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر ؟

ونحن نقول هنا لسيدنا يوسف عليه السلام : قد قضيت حاجة إخوتك بني العلات بإيفائك لهم الكيل ، وإنزالك إياهم منزلاً حسناً ، بل وبجعلك بضاعتهم في رحالهم ، حتى صاروا آخذين القمح مجاناً ، وقضيت حاجة أخيك بنيامين بطلبك إياه للترفيه عنه ولرؤيتك إياه ، ولكن من لحاجة ذاك الأرمل الذكر ، أعني والدك الشيخ الباكي الحزين ، فاننا لم نسمعك ذكرته بكلمة ؟ !

ولنا على هذا جوابان :

الجواب الأول — ان يوسف يعرف أن أخاه بنيامين لم يبشر بشيء من الله في مستقبل أخيه يوسف ، فهو لا يعرف عنه من هـذا القبيل شيئاً ، وإذاً فليس له فيه رجاء ، فعيشته إذاً هي عيشة نصب وشقاء ، فلذلك أراد يوسف سعادته باحضاره اليه ، وهذا بخلاف أبيه يعقوب عليه السلام ، فهو يعرف مستقبل ولده

ويتأكد تلك البشائر الربانية عنه ، نعيشته إذاً ليست عيشة شقية ، باعتبار ماله من الأمل والرجاء ، وان الذين يعيشون بالأمل . ويحيون بالرجاء . لهم بعيدون عن الشقاء والنصب .

الجواب الثاني — لا يحكى إلا من فم لأذن .

سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب

٨ً — يقولون في المثل : « إذا لم تغلب فاخلب » ،فيوسف عليه السلام لما لم يستحسن قهر اخوته على إتيانهم بينيامين سلك مسلك المصايدة والزلفى ، تذرعاً منه لمجيئهم به في السفرة الثانية .

كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم

٩ً — قوله : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ﴾ ، خطب « معاوية » خطبة ، أعجب بها كثيراً ، وفاخر ببلاغتها ، وحسن صياغتها ، فقال : « أيها الناس ، هل ترون في خطابتي من خلل ؟ » فأجابه رجل : « نعم خلل كخلل المنخل » — فقال معاوية : « وما يكون هذا الخلل ؟ » — فأجابه الرجل : « ذلك الخلل هو اعجابك بها ومدحك إياها » .

هذاشيء،وشيء آخرأهم منه وهوقوله تعالى: ﴿الذينَ يُنفِقونَ أموالهم في سبيل اللهِ ، ثم لايُتْبِعُونَ ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى ، لهم أجرُهُم عندَ ربهم ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزنونَ ؛ قولٌ مَعْروفٌ ومَغْفِرَةٌ ، خيرٌ مِنْ صدقة يَتْبَعُها أذىً ، واللهُ غنيٌ حليمٌ ، يا أيها الذينَ آمنوا ، لا تُبْطلوا صَدَقاتِكم بالمن والأذى﴾ الخ (٢ : ٢٦٢ — ٢٦٤) وفي حديث علي رضي الله عنه ، « آفة السماحة المنُ » ، وعلى ماذكرنا فلو قال قائل : كيف يعجب يوسف بعمله ، وكيف يمن على نزلائه بما جادت به مروءته عليهم ؟ فإنا نجيب بثلاثة أجوبة :

الجواب الأول — إن يوسف عليه السلام إنما تكلم معهم ، لا باسم أنه يوسف ابن يعقوب ، ولكن باسم أنه « عزيز مصر » وعزيز مصر أجنبي عنهم في المذهب والجنسية ، فهذا القول هو على حساب « عزيز مصر » لا على حساب « يوسف » .

الجواب الثاني — ان هـــذا من يوسف عليه السلام ، شروع في تشذيب نفوسهم العاتيــة ، وبـدء في تخضيد شوكتهم الصلبة ، وفائدته تعود عليهم بالتهذيب والخضوع .

الجواب الثالث — يوسف لم يقصد الاعجاب ولا المن ، ولكنه قصد بما قال ترغيبهم وتشويقهم للرجوع بأخيهم من أبيهم ، فهذا كل ماأراد من كلامه ، لا أقل ولا أكثر .

محاولة يوسف اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم

١٠ — شوقهم يوسف بالآية الحاضرة « ألا ترون .. الخ » وهددهم بالآية الآتية « فإن لم تأتوني به . . الخ » (ع ٦٠) فسلك معهم بهذا القول وذاك القول ، مسلك من يكلّمهم بيد ، ويأسو بأخرى ، وبعبارة ثانية — أحاط يوسف هذا الطلب الذى طلبه ، بالورود والرياحين أولاً ، ثم بالقنابل والدبابات ثانياً ، وبعبارة ثالثة — هذه الآية والتي بعدها ، يمثلان لنا بابي « الاغراء والتحذير » الذين يذكران في علم العربية ، ثم إن الغرض الذى أراده يوسف من ذلك ، يمثل لنا « باب الاختصاص » الذي يذكره النحاة أيضاً ، لأنه أراد بهذا العمل وهـذا التدبير ، أن يستحوذ على « الاختصاص » بشقيقه بنيامين .

محاولة يوسف رجوع اخوته ببنيامين عن طريق الترغيب والتحبيب

١١ — ويفهم من ظاهر قوله « ألا ترون . . الخ » مع الآيات الثلاث التي بعده ،

أن يوسف عليه السلام ، إنما حاول رجوعهم بينيامين عن طريق الترغيب والتحبيب والإغراء والتحذير ، فلم يهر في وجوههم ولم يتهمهم بجاسوسية ، وقيل إنه حاول الحصول على ذلك عن طريق القوة والإرهاب ، والقهر والإزعاج ، حيث اتهمهم بالتجسس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم وارتهن عنده أخاهم شمعون وقيده لبينما يرجعون بنيامين ، كما حكاه أكثر المفسرين الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين ، وليس له مصدر سوى سفر التكوين (تك ٤٢ : ٩ - ٢٤) ، وهو يخالف ظاهر الايات الأربعة (ع ٥٩ - ٦٢) ، فحشر ما ذكرته التوراة مع كلام الله تعالى هنا هو من قبيل حشر الأروى مع النعام ، أو الجمع بين الغواصات والطيارات .

نعم نعم ، إن يوسف إنما جاءهم من باب التشويق والترغيب ، وأرادهم على الإتيان بأخيهم من طريق الاقناع ، دون طريقة القسر ، لأن طريقة الإقناع هي التي تولد الميل في الانسان ، ليجتهد في تحصيل مايراد منه ، وأما طريقة الإكراه والإجبار ، فلا تجعل إخوته يميلون لإقناع نفوسهم ، فلا يجتهدون لإقناع والدهم ، فلا يحصل الغرض المروم ، وأما قوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » فهو غير مجبر لهم الإتيان بأخيهم ، إذ يمكنهم - بكل سهولة - أن يرسلوا عبيدهم وخدمهم بدلاً منهم ، ويوسف عليه السلام يعرف كل هذا الذي ذكرنا ، لأنه حكيم وذو مدارك عالية ، فلا يمكنه أن يزعجهم ، ولا تساعده الحكومة المصرية على حبس أو تقييد أخيهم شمعون ، لأنه مهما كان مطلق اليد ، فلا بد أن يكون إطلاقاً نسبياً ، فلا ندحة من أن يكون مقيداً بنظامات الحكومة المصرية وقوانينها ، ولهذا كان مسلكه مع إخوته مسلك حيلة وترغيب كما نتعلمه من (ع ٥٩ - ٦٢) ، هذا ما أعثرنا الله عليه من الفهم في كتابه ، والله سبحانه اعلم .

معنى الايفاء ووجه امتنان يوسف على اخوته

١٢٠ - أوفى الشيءُ كَثُرَ ، وأوفاهُ : كثَّرهُ ، فالمادة في بعض المواضع

كما هنا ، تدل على الكثرة والزيادة ، كما يقال : أوفى على المائة : اذا زاد عليها ، ويقولون في المدح : « هو أشعر أهل زمانه ، والموفي على أقرانه » ، وفي سنن ابن ماجه : « جاء اعرابي الى النبي ﷺ يتقاضى ديناً له عليه ، فقضى الأعرابي وأطعمه ، أي أعطاه زائداً عن حقه طُعمة له ، فقال : أوفيتني ، أوفى الله اليك » ، والكثرة في الكيل إنما تتحق بالزيادة على الحق ، بحيث يصير الكيل أعلى من حرف الصواع لاسيما وان هذه المادة أيضاً تدل على العلو ، فانه يقال : « أوفى عليه : أشرف » ، فالمعنى الذي أراده يوسف ههنا ، انه كال لهم وزاد عن استحقاقهم في الكيل ، بحيث جعل القمح يعلو طـــرف الصواع ، هذا مايظهر لنا ههنا ، وبه يظهر وجه امتنان يوسف عليهم بذلك ، وإلا فالبائع لايصح له أن يمتن على المشتري إذا كان اقتصر على إعطائه حقه فقط ، قلنا — والشيء بالشيء يذكر — وبهذا يظهر وجه الذم في قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ لِلمُطَفِّفينَ ، الذينَ إذا اكتالوا على النـاسِ يَستَوفونَ ، وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون ﴾ (٨٣ : ١ — ٣) ، فهذا الاستيفاء هو زيادة عن الحق ، في الكيل لأنفسهم ، ولذلك قابله بقوله : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون » ، فالاستيفاء والإخسار ضدان ، والوسط هو وصول الحب المكيل الى طرف الصواع من فوق ، من غير أن يزيد عنه أو ينقص ، وبهذا التحقيق أيضاً يظهر وجه قول إخوة يوسف ، في السفرة الثالثة : « ياأيها العزيزُ مسّنا وأهلَنا الضُرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ ، فأوفِ لنا الكيلَ ، وتصدَّق علينا ، إنّ اللهَ يَجزي المتصدقين » (آ : ٨٨) ، قدموا له الرجاء أن يزيدهم وأن يكون بذلك متصدقاً عليهم ، وإلا لما كان وجه لقولهم : « فأوف لنا الكيل » لأن حقهم سيصلهم قطعاً ، كما جربوا ذلك منه في السفرتين الأولين ، هذا مافتح الله به ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين .

(مرحي)

يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ، وَلَا تَقْرَبُونِ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الستون ، فقام الشيخ الرشيدي [١] وقال :

سبق أن يوسف قال لإخوته بلهجة السرور والترغيب ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، والآن يقول لهم بلهجة النفور والإرهاب : ﴿ فإن لم تأتوني به ﴾ أي ببنيامين وتستقدموه معكم ، (ف) لا أخفي عليكم أنه (لا كيل لكم عندي) فضلاً عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بلادي ، فضلاً عن الإحسان في الإنزال ، فانظروا لأنفسكم مصلحتكم ، فأنتم من أهل الحجى والنهى أقول قولي هذا صدقاً وإعذاراً وإنذاراً ، والله يتولى هداي وهداكم .

فإن تدن مني تدن منك مودتي وإن تنأ عني تلقني عنك نائياً
كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

لم يأل يوسف جهداً في تمهيد المقدمات ، وتذليل العقبات التي تقف في طريق حظوته بأخيه بنيامين ، فاستعمل مرة اللين ، ومرة بعض الشدة ، رغماً عن كونه لا يريد إزعاجهم بحرف واحد ، ولكن ضرورة الحال أحرجته فأحوجته لما قال :

بين لهم بما سبق من قوله وبهذا القول الحاضر أن اليه الرتق والفتق وبيده البسط والقبض ، وانه قدير على النفع والضر ، متمكن من القبول والرد ، سياسة

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية.

حكيمة، وخطة معتدلة، لـــين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، يُطمع ويؤيس، يوحش ويؤنس، رسم لهم الطريقين وهـداهم النجدين، ليختاروا لأنفسهم مايحلو، وقول يوسف « فإن لم تأتوني به .. الخ» هو أول رصاصة رماها في أول هذه المعمعة، وقوله الآتي لفتيانه : « اجعلوا بضاعتهم في رحالهم .. الخ» هو ثاني رصاصة، وأما (القنبلة) فهي جعله السقاية في رحـل بنيامين كما سيأتي في (ع ٧٠).

(فان لم تأتوني به .. الخ)

— ١ —

وقال الامام سعيد المنتفكي (١)

يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه ببنيامين

يقول يوسف عليه السلام : إن لم تأتوني بأخيكم فسوف أعرقـل مساعيكم، بأنه لا كيل لكم عندي حينما تنقلبون لمصر ثانية، كما ولا تقربون بلادي، ما كرّ الجديدان، وتعاقب الملوان، فإن لم تفعلوا ما أشير عليكم، فـدون بلوغ متاكم عندي شرح القتاد، فعلى إتيانكم ببنيامين يتوقف كيلي لكم، بل دخولكم بلادي، وإن حصولكم على المـــيرة للمرة الثانية معقود بمجيء أخيكم معكم، أفهمتم ؟... لا تنسوا شرطي، فالشرط أملك، عليك أم لك، أنتم مخيرون بين شهد الحيـاة وصاب الموت، مجيئكم بأخيكم هو أشبه بورقة الجواز التي يحملها المسافر، فإن أبرزها حين وصوله للحدود دخل المملكة الأخرى، وإلا .. فـلا .. وهكذا أنتم إن أتيتم بأخيكم سمح لكم بدخول بلادي، وإلا .. أرجعتم على أعقـابكم، ونفوسكم الملومة، هاأناذا قد أنذرتكم، قبل أن تقرعوا السن، ومن أنذر فقد أعذر، هذه وصاتي إليكم، فإن عملتم بها، حمدتم غبّ رأيكم، وخير الأعمال

(١) نسبة الى المنتفك وهو اسم احد الالوية العراقية الجنوبية.

أحمدها عاقبة ، وإلا فلا آمن عليكم ما أكره وتكرهون ، وبالجملة والاختصار ، إن أتيتموني به أدنيتكم ، وإلا دِنتكم ، ولا يمكنني أن أكيل لكم ولا أراكم في بلادي .

هذا مرمى كلام يوسف عليه السلام مع إخوته العشرة . ومن ههنا عول على أن يجمع قواته وينازل بها إخوته في موقعة فاصلة ، هي حرب ولكنها حرب تحت طيّ الخفاء ، حرب تدبير وتفكير .

(والشيء بالشيء يذكر) أتذكر أنه كان دفع رجلان الى امرأة مائة دينار وديعة ، وقالا لها : « لا تدفعيها الى واحد منا دون صاحبه » فلبثا ماشاء الله أن يلبثا ، ثم جاء أحدهما فقال : « ان صاحبي قد مات ، فادفعي اليّ الدنانير » فأبت وقالت : « إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ، فلست بدافعتها اليك »، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها اليه ، ثم لبثت ماشاء الله أن تلبث ، فجاء الاخر فقال : « ادفعي الي الدنانير » — فقالت : « إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد ميتّ ، فدفعتها اليه » — فقال « إنه لعب عليك وذهب هارباً » فاختصما الى القاضي ، فعرف أنهما قد مكرا بها ، فقال :« أليس قلتما : لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ؟» — قال : « بلى » — قال :« إن مالكما موجود عندها ، فاذهب فجيء بصاحبك حسب شرطكما ، حتى تدفعه إليكما ، فإن الشرط أملك » ، وهكذا يوسف عليه السلام إذا رجع إخوته اليه بدون بنيامين وأرادوا الميرة يقول لهم : « قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، ولم تفعلوا ، فليس لكم عندي ميرة حتى تأتوني به» . (مرحى)

وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ(٦١) (قالوا :... سَنُراوِدُ عنه أباهُ ، وإنّا لَفاعِلون)

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والستون ، فقام الشيخ راشد البيساني [١] وقال :

(قالوا) أي إخوة يوسف بلسان الوعد والموافقة ، لبيك ، نحن أطوع لـك من ظلك ، وبالله إننا لنبتهج جدا لابتهاج بما تلناه من التفاتك ، — وأنت عزيز مصر — لسوقة غرباء مثلنا ، ونفتخر بما أصبناه من الحظوة في عينيك ، وعليه فسنصدع بأمرك ، رغماً عن انه لاقبل لنا بهذا المطلوب ، ولا يدان لنا بحصوله ، لأن أمر أخينا من أبينا ليس بيدنا ، بل (سنراود عنه أباه)، ولسوف لا نألوا جهداً في إقناعه (وإنا لفاعلون) معه جهد الاستطاعة أن يرسله معنا ، متى رجعنا المرة الثانية .

(قالوا .. سنراود عنه أباه .. الخ)

— ١ —

وقال شمس الدين الدمياطي [٢] :

وعد الاخوة باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة ابيهم

حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة ، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية ، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به ، خاطبوه.

(١) نسبة الى بيسان من فلسطين.

(٢) نسبة الى بلدة دمياط من البلاد المصرية .

قائلين له باعتباره انه عزيز مصر : أيها العزيز — لقد رغبت في أمر كؤود المطلب وعر الملتمس ، فإن أخانا هـذا الذي ترغب في مجيئه ، أصغر أولاد أبينا الشيخ وابن شيخوخته ، وقد اتخذه أكبر مُعزّ له بعد أخ له مفقود ، فالإتيان به إن لم يكن متعذراً ، فهو متعسر ، فلو قلنا لك : لسنا هناك ، لأن الأمر ليس بيدنا ، بل بيد أبيه الشيخ كنا صادقـــين ، وإن قلنا لك : « إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع » وإن هذا الأمر ليس الينا كنا معذورين ، ومع ذلـــك فقد أذِنا لك وسمعنا وأطعنــا .

تأكد أيها العزيز انه لقد مضى علينا مـدة تنيف عن العشرين سنة ، ونحن في أمر أخينا من أبينا هذا على « الحياد الدقيق » لا نكلف أباه شيئاً مما يتعلق به ، وذلك من جراء حادثة لشقيق له كان خرج معنا فهلك ، فلذلك من الصعب أن نكلم فيه أباه بشيء ، ولا نستطيع أن نغتصب منه اختياره أو نصادر حريته الشخصية ولكننا سنتلطف معه برقيق العبارة ، ورشيق الحيلة ، فلعـــله ينزل على رغبتنا ، رغماً عن أنه سيكون في هذه المرة صعب المراس جداً .

أيها العزيز — إن المراودة هي في ذاتها هينة ، أهون علينا من قطع الخيط ، ولكن الصعوبة والإشكال ، في قبول أبيه مشورتنا فان نجحنا فذاك ، والا فمعذرة منــا اليك سلفاً ، وماتلك المعذرة سوى كلمة واحدة هي « العجز » فانا لا ندري ماذا سيكون جواب أبيه ، أيرسله معنا أم لا ؟ فقد نُصَدَّقُ إن قلنا : لا ، وقـد نُصَدَّقُ إن قلنا : نعم ، فنحن سنبدأ والتمام على الله .

وكأني بيوسف قد ثنى على كلامهم بقوله : ها أنذا انتظر رجعـكم ، وأتنجز وعدكم ، فلنفترق على هذا الاتفاق ، أودعتكم الله ، سافروا بسلام .

يوسف يأمر باعادة ثمن الميرة لاخوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) ﴿ وقالَ لِفِتْيانِهِ : اجْعَلوا بِضاعَتَهم في رِحالِهم لعلهم يَعرِفونَها اذا انقَلَبوا الى أهلِهِم ، لعلهمْ يَرجِعُون ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والستون فقام العلامة التدمري[1] وقال :

أشفق يوسف أن لاترجع إخوته ، فانتدب بعضاً من غلمانه الكيالين ، أحضرهم (وقال لفتيانه) هؤلاء ، وَيْهَ أيها الغلمان أغفلوا هؤلاء القوم الكنعانيين ، و (اجعلوا) ضعوا (بضاعتهم) فضتهم (في رحالهم) عدالهم ، بحيث تخفونها عن عيونهم ، (لعلهم يعرفونها) يطلعون عليها (إذا انقلبوا) منصرفين (إلى أهلهم) في فلسطين متى فرغوا ظروفهم ، (لعلهم يرجعون) الينا ثانية .

ففعل غلمانه ما أمرهم به ، إذ كانوا أطوع اليه من ظله ، وكأني بيوسف قد أخذ يردد في نفسه قول القائل : « ليس من رسول كالدرهم » :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على غيره يُستغن عنه ويذمم

ثم قال : لعلهم يرجعون الينا بينيامين لأنه حجر الزاوية ، وهو المقصود من هذه الأعمال ، ولعلنا بذلك نفتح باب الحركة وندير المعركة في فلسطين ، ونحن جالسون ههنا في « صوعن » فنخضد شوكتهم ، وينزلون شيئاً من شكيمتهم ونزقهم لعلهم يرجعون — فلنهم بواسطة ذلك يحبوننا ويثنون علينا عند أبيهم فنصل إلى غرضنا :

(١) تدمر احدى المدن السورية .

والناس أكبر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

نعم لعلهم يرجعون — فسيكون لي ولهم شأن ، فإن هذا حادث له مابعده ، وإن مع اليوم غداً ، فإن لم يرجعوا فعلى بضاعتهم السلام .

ثم صار يوسف ينتظرهم بكل فروغ صبر ، ويردد في نفسه معنى قول الشاعر:

عسى الملك المجيب لمن دعاه يساعدني ويعلم كيف شكري ؟
فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالعداوة أهل وتري

وههنا لا بد من التنبيه على المسائل التالية :

سعي يوسف بمجيء بنيامين بالقول والفعل

١ً — ترى من هذا أن أمر رجوع اخوة يوسف ببنيامين قد أصبح شغله الشاغل ، حتى أنه لم يكتف بما فاه به أمامهم من الوعد والوعيد ، بل أتبعه بالعمل الجدي ، والفعل الفوري . الذي يرجو أن يكون الدافع الوحيد لرجوعهم ببنيامين ، والكفيل لنجاح مساعيه ، وان هذه المنفعة المادية ، ستكون كجاذب مغناطيسي لهؤلاء القوم « أبناء العم المحترمين ! ! تقودهم الى الرجوع فوراً ، بلا أدنى تردد ، لا سيما في أيام كهذه ، فان « أبناء العم » هم الأمة الوحيدة ، في محبة المنافع المادية ! ! كما هو معروف ومشاهد لهذا العهد ! !

المراد من كلمة « الفتيان »

٢ً — الفتيان هنا بحسب اصطلاح المصريين ، الخول والخدم والجند والتبعة والمستخدمون والكيالون .

ماذا اراد يوسف برد بضاعة اخوته اليهم

٣ً — أراد يوسف عليه السلام بهذا العمل أن يحمل إخوته — متى رجعوا الى

فلسطين وعرفوا مافعل ببضاعتهم — على حسن الظن به ، وإنه قد بلغ من الكرم والسماحة والجود حداً لم يبال معه أن يعطيهم ما طلبوا من الميرة بلا عوض ولا ثمن فيوسف أتى ذلك العمل ليجريء إخوته على الرجوع وليعرفوا أنه محسن لاعدو وأنه يتوقع منه مالا يعلمون من الخير .

كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية

٤ً — سألني سائل قائلاً : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانة ؟

فاجبته بقولي أولاً — لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين ، ولعل إخوة يوسف منهم .

وثانياً — كانت المساعدات التى أداها يوسف لمصر ، والخدمات التي خدم بها أهلها ، بمثابة خميرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد ، فانه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب .

ثالثاً — يقول الله تعالى : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين ، والعاملينَ عليها ، والمؤلفة قلوبُهم ، وفي الرقابِ والغارمينَ ، وفي سبيلِ اللهِ وابن السبيل﴾ (٩ : ١٦) وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين ، ولا ينافيه أنهم أتوا للميرة على دواب لهم ، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم ، لأنهم من الرحل ساكني الخيام ، فهي لهم نظير آلة الجهاد للمجاهد ، وكتب العلم للعالم ، وآلة الصناعة للصانع ، ودواب السفر لمن يعيش بالمكاراة ، والضرب في الأرض ، وكالسفينة للملاح ، قال تعالى على لسان العبد الصالح :

﴿ أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يَعملون في البحرِ ﴾ (١٨ : ٨٠) فهذه السفينة كانت ملكاً لهم ، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة ، لما عرفت من أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة ، وربما يكون يوسف عليه السلام ، قد اعطاهم فضتهم وميرتهم لأنه اعتبرهم من « المؤلفة قلوبهم » أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين ، كما قال « لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » هذا مذهب له واجتهاد منه ، لايجوز لنا أن نعترض عليه فيه ، لاسيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا ، والله أعلم . وههنا شيء دقيق ، وهو أنه يظهر من قرائن الاحوال أن يوسف عليه السلام كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الاداري ، فكان يتصرف فيما عهد به اليه تصرفاً مطلقاً ، زيادة عن بقية مأموري الدولة ، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك ، لأنه كان هو « العزيز » ، القابض على ناصية المال ، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى .

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه : (أن يوسف عليه السلام موحد يشتغل في أموال قوم وثنيين ، فيجوز له أن يأخذ منها ماوصلت اليه يده) فهو جواب غير صحيح ، لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره فالعقود الفاسدة التي لا تحل في دار الاسلام ، كالربا والبيع الفاسد ، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود ، أولاً ـ لأن « الريان » ليس حربياً ليوسف ، ثانياً ـ ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان ، ثالثاً ـ إن يوسف عليه السلام ، وكيل عن الملك الريان « والوكيل مؤتمن » لاسيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه ، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة ، فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين ..

معنى الرحال

٥ً — كلمة « رحال » هنا هي التي سميت « متاعاً » في قوله تعالى ﴿ ولما فتحوا

متاعهم ﴾ (ع ١٥) و « أوعية » في قوله بعد ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ (ع ٧٦) فالجميع بمعنى لفظ « العِدال » الذي عبرت بـه التوراة ، ويقال أيضاً « غرارة » و « جوالق » و « كيس » جمعه أكياس ، وهو ما عبرت بـه التوراة أيضاً في موضع آخر .

مقصد يوسف مما قاله لاخوته ومما فعله معهم

٦ً — قال يوسف ما قال (ع ٥٩ و ٦٠) وفعل ما فعل (ع ٦٢) لكي يستعين بإرادة إخوته على إرادة أبيه ، لأنه يعلم أنه يصعب على أبيه السماح لأخيه « بنيامين » السفر لمصر ، ويوسف عليه السلام كان بإكرامه لهم ، وجعله بضاعتهم في رحالهم كصائد رأى طيوراً لا يريد اصطيادها ، لأنه لا يهواها ، ولكنه رمى لها الحب على أمل أنها بعدما تأكله تطير وترجع بطير يريد ذلك الصائد اصطياده ، لأنـه يهواه ، وما قال رأيه فيما فعل ، فإنهم لما وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، أكدوا على أبيهم بأخـذ أخيهم ، فرضي بعدما كان قد امتنع ، ورجعوا لمصر بذلك العصفور الجميل ؛

إن العظيم عظيم في كل شيء ، حتى في حيلته التي يجريها توصلاً لمرامه ، فيوسف أراد أن يحضر إليه أخوه بنيامين ، فتذرع بكل مايقدر عليه من الذرائع ، فذكّر ، وبشّر ، وأنذر ، وحذر ، ومؤخراً أرجع اليهم بضاعتهم ، تشويقاً لهم في رجوعهم بـه اليه .

لماذا لم يخبر يوسف اخوته بجلية الواقع في سفرتهم الاولى

٧ً — سألني سائل : لماذا لم يخبر يوسف عليه السلام اخوته بجلية الواقع ويرغب إليهم أن يذهبوا بقميصه في هذه السفرة الأولى ، ليلقوه على وجه أبيه ، تعجيلاً لارتداده بصيراً ؟ ولم أخر يوسف عليه السلام هـذا التوضيح والبيان

للسفرة الثالثة بعد اللتيّا والتي ، وبعد ما بلغت الروح التراق ، وقيل من راق ؟ وغبا بلغت القلوب الحناجر ،وبلغ السيل الزبى ؟ وهل يجوز للطبيب أن يؤخر عن المريض علاجه النافع ، لمدة يعاني فيها المريض أشد المشقة ، خصوصاً وهو يعلم أن هذا العلاج طب ساعة ، وهو الترياق المفيد توا ؟

فأجبته بقولي : لعله خاف لو أخبر إخوته منذ الآن ، ولم تكن قد تشذبت أخلاقهم ، ولم تخضد شوكتهم بعد ، أن يعملوا مكيدة يكيدون له بها، فيحدق به الخطر ، ويتزعزع مركزه بمصر ، خصوصاً وهو كان متهماً بتلك الجريرة السيئة، فلذلك أخر إظهار نفسه للسفرة الثالثة ، حتى تكون قد سكنت ثورتهم ، وهيض جناحهم ، وتشذبت أخلاقهم .

ثم قلت للسائل : وعندي جواب آخر ، وهو أن صاع قصاص . . . لم يمتلىء بعد ، لأن العشرين ... في مقابلة العشرين ... الأولى ، لم تكمل بعد ، فيوسف عليه السلام ، لما افتكر أن يخبرهم بجلية الواقع ، ويكشف نفسه لهم ، ويريد أن ...، كان يسمع صوتاً من السماء يقول له : « لم يحن الوقت بعد يا يوسف » ، فيسكت ، ففي الحقيقة نحن نرى يوسف بعمله هذا مسخراً للقدر العدل ، وآلة تديرها يد القدرة السماوية ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

هذا ما ألهمنيه الله وفتح به علي ، فتدبره فلعلك أصفى ذهناً ، وأخلص قلباً ، وأنور معرفة ، ﴿ سبحانَك لا عِلمَ لنا إلاّ ما علّمتنا ، إنك أنتَ العليمُ الحكيم ﴾ (٢ : ٣٢) .

كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم

٨ً — قوله « جعلوا بضاعتهم في رحالهم » ، اختلف المفسرون في كنه هذه البضاعة ، وسنسلط « الأشعة » على هذه البضاعة ، بحيث يستطيع القارىء أن

يكشف حقيقتها : يظهر من كلمة « بضاعة » أن الذي كان معهم هو من غير النقود المضروبة — ويدخل فيه الفضة غير المضروبة — لأن النقد المضروب لا يعبر عنه « ببضاعة » ، بل يعبر عنه بدينار أو بدرهم ، كما سبق في قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ والغالب على البلاد غير المتمدينة ، أن تكون المقايضة فيها بغير الدراهم المضروبة ، كبلاد فلسطين ، « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، كما أن الغالب على البلاد المتمدنية أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدنانير المضروبة ، كما في البلاد المصرية ، ولذلك اشترى يوسف في مصر بدراهم ، وأما إخوته فلكونهم من فلسطين غير المتمدينة ، فقدجاءوا لمصر يمترون ، لا بدراهم مضروبة ولكن بنوع من البضاعة ، ربما كان فضة غير مسكوكة أو نحوها مما قد يخفى وقد يظهر ، كما يشير اليه قول يوسف عليه السلام « لعلهم يعرفونها » ، فان هذا التعبير ينم عن أن هذه البضاعة ليست من قبيل النعال والأدم ، كما ظنه أكثر المفسرين ، لأن هذا مما يعرف قطعاً ، فإذن هذه البضاعة هي مما قد لا يعرف إذا وضع في الرحال ، فلذلك قلنا إن هذه « البضاعة » كانت من قبيل الفضة غير المضروبة ، والله تعالى أعلم .

٩ً — يجوز أن يكون قوله « لعلهم يرجعون » بدل اشتمال من قوله : « لعلهم يعرفونها » ، كما سبق لمولاي عبد الحفيظ التونسي في قول المندوب « لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » (ع ٤٦) والله تعالى أعلم . (مرحى)

الاخوة يطلبون بنيامين من ابيه

آ (٦٣) ﴿ ... فَلَمَّا رَجَعُوا الى أبيهم ، قالوا : ياأبانا ، مُنِعَ مِنَّا الكَيلُ ... فأَرْسِلْ مَعَنَا أخَانَا ، نَكْتَلْ ، وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والستون فقام الشيخ غانم الاربدي[١] وقال :

قام إخوة يوسف ، من مصر ، وركبوا رحالهم يطوون البيداء ، الى كنعان بلادهم ، (فلما رجعوا آيبين من وجه الغرب الى وجه الشرق ثم الى وجه الشمال ، أعني من « صوعن » عاصمة المملكة المصرية الهكسوسية ، الى « سيلون » قائلين (الى أبيهم) الشيخ الجليل وكان في انتظارهم على مثل الجمر ، فتحفز لملاقاتهم ، فترجلوا ومشوا اليه ، وسلموا عليه فباركهم وسر بقدومهم غير أنه تأملهم فرآهم على غير حالة سرور ، قال : مالكم ومالي أراكم مضطربين قلقين ؟ — (قالوا) وعليهم إمارات الحيرة والضيق : « (ياأبانا) لا نكذب الله ، لقد رأينا في عزيز مصر رجلاً شهماً كريماً ، أنزلنا خير منزل ، وأوفى لنا الكيل ، وجهزنا خير جهاز ، فصرنا بفضله مجهزين بالدقيق والسويق ، وبالسقاء والماء ، وبعلف الدواب ، وبكل مايلزم لنا في الاياب ، وما رأينا منه إلا كل مانحب وتحب ، غير أنه قال لنا : (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) فكما دهشنا من إكرامه لنا على غير معرفة ، فقد دهشنا بنوع خاص حينما كلفنا بذلك واشترط في امتيارنا من مصر للمرة الثانية

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرقي الاردن)

بمجيئه معنا ، وتوعدنا إن لم نحضره معنــــا ، بعدم الكيل ، بل بعدم رؤية وجهه ، وأنذرنا بالمقاطعة التامة ، الأمر المدهش الغريب الذي لم نقف له على سبب ، ولذلك وبناء على إنذاره ، ربما رجعنا اليك في المرة الثانية وقد (مُنِـع منـا الكيل) لأنه هذا الرجل يقول ويفعل ، ذا إرادة سنية ، ونفوذ لايعارض ، ولا نظن أن هذا الرجل ينزع عن مقالته (و) نتقدم اليك بهذا الرجاء الحار (أرسل معنا) في المرة الثانية (أخانا) المحبوب « بنيامين » حسب اقتراحه ، فإنك إن أرسلته (نكتل) ، من القمح كما في الاول ، وإن لم ترسله خشينا أن تلفظنا مصر ، وخشينا من هـذا الرجل أن يصدق القول بالفعل ، فإنه ذو سطوة ومراس ، ولا ندحة لنـا عمـا يدعونا اليه من طاعته ، والإذعان لدولته ، وأنت في هذه المرة لاتخف على بنيامين ، فإنا عليه ساهرون (وإنا له لحافظون) من كل مايضيمه ، من أن يستطار ، أو يغتال ، أو يفترس ، أو يتيه ، الى غير ذلك ، والوعد على الحرّ دين » . هـكذا نفضوا لأبيهم جملة ماوقع لهم بمصر وجملة مافي ذهنهم . ويمكننا أن نستنتج من ذلك النتائج التالية :

اخوة يوسف بين مطرقتين

١ً ـــ أصبح إخوة يوسف كالة بين مطرقتين ، لا يدرون أيقومون بعهدهم « لعزيز مصر » ويطلبون بنيامين من أبيه ، أم يسكتون عن طلب بنيـــامين لئلا يتكدر والدهم من طلبه ولئلا يتذكر يوسف فيتجدد همه عليه بعد أن كان خامداً ؟.. ثم إنهم رجحوا الشق الأول ، وهو طلب بنيامين أن يسافر معهم ، لأنهم لا يستغنون عن الرجوع لمصر ليمتاروا لأهلهم ، ولذلك قالوا : ياأبانا الخ .

فكرة سفر بنيامين

٢ً ـــ من ههنا ابتدأت فكرة سفر بنيامين تتمشى خطوة خطوة الى أن استقر

الامر على سفره فسافر ، وهذا ينتهي بانتهاء (ع ٦٨) والذي وضع أساس هذه الفكرة هو يوسف عليه السلام بما عمله وبما قاله لإخوته (ع ٥٩ ـ ٦٢)

يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع اولاده

٣ً ـــ لا بد أن يعقوب عليه السلام ابتدأ يفكر فيما عمل « عزيز مصر » مع أولاده من تجهيزهم بجهازهم ، ومن إيفائه لهم الكيل ، ومن إنزالهم خير منزل ، ثم صار يفتكر في هذا الطلب على غير معرفة ، وبدون سابقة داعية اليه ولا مناسبة ، فأوغل في تفكره ، وقال في نفسه : « لأمر ما جدع قصير أنفه » والمستقبل كشاف.

الشك يخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) « قالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عليه إلا كما أَمِنْتُكُمْ على أخيهِ مِن قَبْلُ ؟! ؟! ؟! فاللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحَمُ الراحِمِينَ » .

تليت الآية الرابعة والستون فقام الشيخ الكرملي وقال :

سمع يعقوب كلام أولاده فخامره فيه الشك ، ووقعت في نفسه من ذلك الطلب رهبة ، فأطرق برهة ، ثم رفع رأسه و (قال) مستهزأً : مثلكم من يوثق بوعده !!! (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) إذ كنتم منذ **٢٢** سنة قلتم في يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه الآن في بنيامين ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني اليوم من مثل ذلك ؟ . . وبعبارة أخرى : لا آمنكم على بنيامين في الذهاب إلا كأمني إياكم على يوسف الذي ضمنتم لي حفظه ثم ضيعتموه ، وهكذا حالكم اليوم ، تضمنون لي حفظ بنيامين ثم تضيعونه ، والزامر يموت وأصابعه تلعب ، وللعادة حكم لا يقوى المرء على مغالبته ، « فالله يرضى عليكم

خيطوا بغير هذه المسَلّة » ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة ، وقد قيل : ويل أهون من ويلين ، وقالوا : ما وعظ امرءاً كتجاربه ، وقالوا : ومن نهشته الحية خاف من الرش ، حقاً إني أخاف أن تعيدوا الكرة ، أخاف أن يكون ذئب أخيه موجوداً بعد ، فتر سلوه له أيضاً ليأكله ، وما أسرع مجيئكم لي عندئذ على قميص بنيامين بدم كذب ، وأظنها تكون القاضية عليّ ، فبالله عليكم دعونا من هذه الوعود التي جربناها ، وخبرنا نوعها ودرجتها وعرفنا نصيبها من الصحة ، وبالله عليكم دعونا من ترداد جملة (وإنّا له لحافظون) ، فإن هذه الجملة لا تزال ترن في أذني يوم نطقتم بها يوم أخذكم يوسف ، وما رأيت من حفظكم شيئاً ، فإن كنت أريد إرساله معكم (فالله خير حافظاً)(وهو أرحم الراحمين) وكفى ، فأرجو أن لا يجمع عليّ مصيبتين ، ولكني لا أريد ذلك أبداً . هذا مرمى الجواب السلبي الذي وجهه يعقوب لأولاده ، وما أتم هذا الجواب إلاّ وقد شرق بالدموع السخينة .

وجملة (فالله خير حافظاً) تمييز كقولك هو خيرهم رجلاً ، ولله درّه فارساً .

(قال هل آمنكم عليه)

— ٢ —

وقال شيخنا الكركي [١] :

جواب يعقوب لأولاده جواباً سلبياً منددا بهم وبوعودهم

سمع يعقوب اقتراح أولاده ، وقد تذكر حادثتهم مع يوسف التي تركت أثراً سيئاً في نفسه ، فتمعر وجهه واقشعر بدنه ، وخفق قلبه ، ونآى بجانبه ، ونظر

(١) نسبة الى الكرك من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

إليهم شزراً ، وابتدرهم بالدهشة والاستغراب ، وجاوبهم جواباً سلبياً قائلاً :
لا يكون ذلك ، ولن يكون ، هل تريدون مني أن آمنكم على بنيامين إلاّ مثل ما أمنتكم على أخيه يوسف سابقاً و كانت النتيجة التي تعرفونها ، ألا يحق لي أن أحسب لإرساله معكم ألف حساب وحساب،فها أنا ذا شيخ ، قد حنكتني التجارب، وعركني الدهر وعركته ، فعرفت أن ليس لوعودكم قيمة ، ولا أراكم إلاّ جماعة متألبين عليّ لتفقدوني بنيامين ، كما أفقدتموني قبله يوسف ، أنتم الآن تعدوني وتطمئنوني ، ولكن حقاً إن صوت أعمالكم سابقاً ، يصم أذني عن سماع أقوالكم وتصديق وعودكم ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة ، يا أولادي كذبتكم نفوسكم ، إن تاريخكم الماضي محفوظ عندي ، لم أنسه ، ولا أريد أن أنساه ، بل ولا أقدر على تناسيه ، راجعوا جريدة أعمالكم وانظروا ماذا كنتم عملتم في يوسف ؟... فهل تريدون اليوم أن تضيفوا الى تاريخ أعمالكم الماضية صفحة أخرى ، من صفحات الأعمال المحزنة ؟.. أما أنا فذلك ما لا أريد أن يكون ، كفى ما كان حصل سابقاً ؛ يا أولادي ، إن الثقة لا تتولد في النفس لمجرد صدور الوعد ، لا سيما وإن التجربة الماضية التي جرت في حادثة يوسف، لم تترك في نفسي أثراً من الثقة والاعتقاد ، لذلك ليس من الأمر الهين في هذه المرة قناعة نفسي بصدق وعدكم ، وطمأنة قلبي بإرسال بنيامين لمصر معكم ، أنتم أخذتم يوسف قبلاً ، لمرعى غنمنا ، وفي بلد قريب منا ، ضمن بلاد فلسطين ، التي أنا ساكن فيها ، فلم يرجع إليّ ، فكيف اليوم أرضى بأخذكم أخاه لمصر ، لمملكة أخرى ، بيننا وبينها مراحل ؟.. تقولون لي (وانا له لحافظون) ؟.. قسم ضائع لا قيمة له ،ووعد مكذوب ، فقد كنتم « وقعتم المعاهدة » على حفظ أخيه ، وسجلتم الخسار على أنفسكم ان لم تسهروا على صيانته ، ولكنكم هتكتم حرمة تلك المعاهدة ، ورجعتم عليها بالنقض ، فإذا هي لم تخرج عن حدود الكلام !!! أوّاه ! لشدّ ما ينقبض

لذلك صدري ، ويلتاع له فؤادي ، فما هـذه الخطة العسراء التي تريدون أن تحملوني عليها ؟..

تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟

لا يتسنى لي أن أنعمكم عيناً بهذه الطلبة ؛

تقولون لي (إنّا له لحافظون) ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد رأيت جعجعة ، ولم أر طحناً ؛ بالله عليكم ، عرفوني ، هل أكون هذه المرة أسعد حظاً ، وأرقى حالاً ، وأهنأ بالاً ، وأحمد عاقبة ؟ دعونا بالله من هذا الاقتراح ، المزهق للأرواح ؛

هيهاتَ هيهاتَ ، دعونا من هذا الطلب الخطر ، فإن شراً واحداً أهون من شرين ، حقاً إن وعدكم بحفظ بنيامين هو كوعدكم سابقاً بحفظ يوسف ، وعدان خلابان يخرجان من مصدر واحد ، هو المكر ، ومن ينبوع واحد هو الختل ؛

هذا مايظن أن يعقوب عليه السلام أجاب به أولاده جهراً ؛ ثم لكأني به جعل يقول بينه وبين نفسه :

لئن أرسلته معهم لا يكون رجل في فلسطين أعظم مني لوعة ، أنا كلما ذكرت يوسف وجدت في وجه أخيه العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنهما إن فقدت وجهيهما معاً ؟ . . بنيامين هو صورة يوسف الباقية عندي ، هو رسمه التذكاري ، هو رائحة تلك الوردة الذابلة ، هو الممثل الوحيد لذلك الولد الفقيد ، هو البقية الباقية من آثار « راحيل » ، هو المعزي عن أمه وأخيه ، فمن لي بمعز سواه إن فقدته؟ ..

قال هل آمنكم عليه

— ٣ —

وقال الشيخ الطفيلي (١) : لي ههنا ذيول :

موقف يعقوب مع ابنائه في طلبهم بنيامين

الذيل الأول — هذا الموقف الذي وقفه يعقوب ههنا مع أولاده موقف سلبي

(١) نسبة الى الطفيلة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

خلافاً للزمخشري ومن تبعه من المفسرين ، فهو بقي مقيماً على المخالفة ، مصراً على الإباء ، غير واقف معهم موقف إيجابي ، إلا بعد ماذكروا عدة محسنات ، وبعد ما أتوه موثقاً (ع ٦٥ و ٦٦) ، وأما قول يعقوب (فالله خير حافظاً الخ) فمعناه إن أردت أن أرسله معكم ، فلا أعتمد على حفظكم له ، فالله خير حافظاً الخ ، ولكني لا أريد .

عمر بنيامين عند ماطلبه اخوته من ابيهم

الذيل الثاني — ربما يتوهم بعض القارئين من قول إخوة يوسف (وإنا له لحافظون) وقول أبيهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم . . الخ) ثم قولهم (ونحفظ أخانا) وقول أبيهم (لن أرسله معكم حتى . . الخ) — ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن ، بحيث يخاف عليه إذا سافر ، وليس هذا التوهم في محله ، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك ، كيف وقد كان عمر بنيامين حينما فارقه يوسف سبع سنين ، ثم مضى على يوسف بمصر ٢٣ سنة ، ثم افتكر يوسف في طلبه عنده ، وعندذلك دارت هذه المحاورات والمقاولات بين يعقوب وأبنائه .

نعلم من التاريخ أن بنيامين كان وقتما ذهب لمصر ابن نحو ثلاثين سنة ، كما في السنن القويم » وقد ورد أنه كان له حينما دخل مصر خمسة بنين صلبية ، على رواية سفر العدد (٢٦ : ٣ — ٤٠) ، أو كان إذ ذاك عشرة بنين على رواية سفر التكوين (تك ٣٠) ، وعليه فلم يكن « بنيامين » حين هبوطه لمصر صغيراً وبالتالي لم يكن خوف أبيه عليه لذلك ، وإنما أبوه كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه ، كما سبق أنهم تواطأوا على أخيه ، فالخوف عليه ليس من واحد أو اثنين مثلا ، وليس من ذئب أو نحوه ، حتى يصح هذا التوهم ، ولكن الخوف من رجال عشرة يعدون « عصابة » ورهطاً ، قد عهد منهم سابقاً ،

مايحمل على الخوف الآن ، وإن السبب الذي دفعهم للايقاع بيوسف — وهو زيادة حب والده له أكثر من حبه لهم — متحقق في بنيامين ، كما كانوا قالوا منـذ ٢٣ سنة : (ليوسف وأخوه ، أحب الى أبينا منا)، لاسيما وقد صاروا بعملهم السابق من أهل الضراوة والعادة تثبت بمرة ، ولـكل امرء من دهره ماتعود ، ومما ربما يجرئهم (بنوع خاص) ان أباهم لم يعاقبهم ، ولم يجازهم على إيقاعهم بيوسف شيئاً ما فلهذا أو جس منهم خيفة وأجابهم بذاك الجواب السلبي .

هـذا ماتيسر لنا الآن تحقيقه ، قـد ألقيناه عفواً بين يديك فاحفظه والا فالسلام عليك .

الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب واولاده

الذيل الثالث — قص الله علينا مادارهنا من المقاولات بين يعقوب عليه السلام وأولاده ، لـكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل ، كيف لم يأتمنهم أبوهم على أخيهم الأصغر ، حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيهم الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربما تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلا ، وقص الله علينا ذلك ، لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم (أبناء العم المكرمين ! !) على ماضيه ، ولنكون على حذر تام من يهود اليوم ، وإذا كان النبي ﷺ قال : « احترسوا من الناس بسوء الظن » كما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والعسكري من حديث أنس ، فينبغي أن تكون اليهود من أول هؤلاء الناس ، خصوصاً الصهيونيين منهم ، عافانا الله تعالى من شرورهم .

أولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح أو

اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم اليهم حجة للالحاح في طلب اخيهم بنيامين

آ(٦٥) ﴿ ... وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ . وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ اليهم ، قالوا: ياأَبَانَا ، ما نَبْغِي ؟! هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ الينا ... وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخامسة والستون فقام الشيخ العقبي[1] وقال:

كان يعقوب عليه السلام أجاب أولاده بجوابه السلبي السابق ، فاتخذوه تعنيفاً لهم ، ومن قبيل التكذيب لإخبارهم ، وعلموا أن أباهم لايزال مقيماً على المخالفة ، مصراً على الإباء ، فانتشر عليهم رأيهم ، ولما لم يعرفوا ماذا يجيبون ، وضاقت عليهم أرض فلسطين بما رحبت ، وما هي إلا غمضة وانتباهة ، ان قاموا لفتح جوالتهم (ولما فتحوا متاعهم) عِدالهم (وجدوا بضاعتهم) وهي الفضة غير المسكوكة (ردت اليهم) فما وقفوا على تلك البضاعة حتى فرحوا بها ، واعتنقوها باليمين والشمال ، لأنهم وجدوها تساعدهم على مطلوبهم ، وتصدق كلامهم، فتقووا وتشجعوا في طلب أخيهم كرة أخرى ، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على أفكار أبيهم ويقنعوه (قالوا) بنغمة المحتج الظافر بما يبرهن صحة كلامه : (ياأبانا) المعظم لسنا اليوم كما تظن فينا ، لقد رأينا مايُصدّق قولنا ، فنحن (مانبغي) أي

---

(١) نسبة الى بلدة العقبة من بلاد الشام (شرق الاردن)

لسنا نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان « العزيز » ولا نكذب فيما حكيناه من إكرامه لنا ، فإنا نحمل شهادة الصدق فيما نخبر ، نحن قلنا لك الصدق فلا تستغشنا ، هاأن الغامض قد انكشف ، وأبدت الرغوة عن الصريح (هذه بضاعتنا ردت الينا) كما ترى بعينك ، الأمر الذي لم تتحرك به خواطرنا ، ولا علق بأوهامنا ، وهذا مصداق ماقلنا : إننا رأينا في « عزيز مصر » شهماً هماماً جواداً رحب الصدر عالي الجناب ، والآن رد تلك البضاعة الينا ، يصير لنا دالة عظيمة على هذا الرجل ، فهذه فرصة يجب أن تفترص ، ونفحة من النفحات ينبغي أن نتعرض لها ، فلا يجوز لنا أن نضيع الفرصة عبثاً ، ونحن علينا الحركة ، وعلى الله البركة ، ولانظن الرجل ردها في عدالنا إلا قصداً ، بداعي الكرم والجود الذي طبع عليه ، فكأنه لم يبعنا الميرة بيعاً ، بل وهبنا إياها هبة ، أحسن الله اليه ، كما أحسن الينا ، فلا ريب أن هذا العزيز فياض معطاء ، رحب الذراع ، واسع الفناء ، فنستظهر بها عند رجوعنا إليه ، (نمير أهلنا) الذين هم في لولاء ولأواء ، وأزمة وبأساء ، أي نجلب لهم الميرة والطعام ، لأن امتيارنا بدون وجود بنيامين معنا ، سيكون أعقد من ذنب الضب (ونحفظ أخانا) بنيامين ، ومن آداه منا يكون دمه على رأسه ، نحفظه من كل يد تتقدم اليه ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، وأما حادثة يوسف « المرحوم » فهي « بيضة الديك » أي من الشواذ والنوادر ، فلايقاس عليها غيرها (ونزداد كيل بعير) أي جمل لأن الرجل لا يعطى أكثر من حمل جمل للتقسيط ، فإرسال أخينا معنا أربح لنا وأجدى علينا ، ولسنا في غنية عن السعي في هذه الزيادة ، ولماذا يقعد أخونا عن السعي ، وقد أمر الله به ؟ وإن كل فم واحد يخلق في هذا العالم ، يخلق معه يدان اثنتان ، فان لم ينتج الإنسان بيديه الاثنتين ضعف مايستهلكه فمه ، فعلى الأقل يجب أن ينتج مقدار مايأكله ، لاسيما وأخونا ذو أهل وأولاد (ذلك كيل يسير)

أي أن مايكال لنا قليل لايقوم بأودنا ، فنريد أن نضم اليه مايكال لأخينا ، والتمرة الى التمرة تمر ، ومع ذلك فالأمر راجع اليك ، فأنت مخير ، فإذا وافقتناشكرناك، واذاخالفتنا أطعناكوعذرناك ، هذا هو الرأي الحازم الذي نراه الآن ، فما قولك؟..

قالوا ذلك وهم يتضرعون الى الله أن يغير قلب أبيهم ، ويلهمه السماح لهم بطلبتهم ، وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب ، وهو يجادلهم جدال امتناع ، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة ، أثروا عليه بهـــا ، وأولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح ، كما كانوا أثروا عليه حينما أرادوا أخذ يوسف منذ ٢٣ سنة ، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة ، وبالنتيجة وأخيراً : اجتهد إخوة بنيامين حتى أحرجوا أباهم وأعارهم أذناً صاعية ، واستنام لكلامهم ، وركن اليهم ، وغلب على أمره ، وسمح بإنفاذ بنيامين معهم ، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط .

(ولما فتحوا متاعهم . الخ)

— ١ —

وقال الأديب الزحلي (١) :

« ما » استفهامية في قوله ما نبغي

إني أضم صوتي لصوت أخي الشيخ العَقَبي وأصادق على كل ماقال ، إلاّ أني أخالفه في كون « ما » في قوله (مانبغي) نافية ؛ بل أقول إنها استفهامية ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا الإحسان ؟ أي ماذا نطلب ونروم ؟ وماهو الأمر الذي نحاوله ونتوخاه فوق ذلك ؟... وإنما رجحنا انها للاستفهام لقراءة ابن مسعود : ماتبغي ؟ بالتاء على مخاطبة يعقوب عليه السلام ، بمعنى أي شيء تطلب وتريد فوق هذا الجود والعطف .

---

(١) نسبة الى بلدة زحلة في لبنان .

وبعد ، فعندي عدا عما ذكرت عدة فوائد على هذه الآية الكريمة :

اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء

الفائدة الأولى — يريدون بقولهم لأبيهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » ان هذه أمور أربعة استفدناها ونستفيدها بعودتنا الى مصر مع أخينا بنيامين وهي : رد العزيز بضاعتنا الينا في المرة السابقة وربما ردها في المرة اللاحقة والامتيار ثانية وحفظ أخينا إذا أخذناه ثم أخذ ميرة بعير باسمه ، وكلها ذات بال ، تهون عليك النزول على مانرجوه منك ، ونعرضه عليك من إرسال أخينا معنا ، فأخبرنا بالذي اجتمع عليه رأيك.

نجاح حيلة يوسف في طلبه بنيامين

الفائدة الثانية — قولهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » وبذلك تمت حيلة يوسف على إخوته ، بل وعلى أبيه ، فقد كان لهم فيما أتاه معهم من الجميل والمكرمة حجة بالغة على أبيهم حينما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم في سبيل الميرة بعد تلك الكرة.

معنى الميرة

الفائدة الثالثة يقال : مار يمير من الميرة ، وهي الطعام ، وفي معناه ماد يميد ومنه المائدة ، أي المطعمة ، وكما يقال لها « ميرة » يقال لها « غيرة » كما في القاموس ..

معنى البعير

الفائدة الرابعة — كما يطلق « البعير » على الجمل وهو المشهور ، يطلق أيضاً على الحمار ، وقد نقل ابن جرير عن مجاهد أن البعير هنا هو الحمار ، وسيأتي لهذه البحث تتمة عند تفسير (آ ٧٠).

معنى المتاع

الفائدة الخامسة — « المتاع » الأوعية بما فيها الميرة والطعام ، ومطلق إناء يقال له « متاع » قال تعالى: ﴿ وما يوقدون عليه في النار ، ابتغاء حلية أو متاع ﴾ (١٣ : ١٩) ، والمتاع مايتمتع به ، أي ينتفع به زمناً ممتداً في الجملة ، لأنه من « المتوع » وهو الامتداد ، يقال : مَتَع النهار ، ومتع النبات ، إذا ارتفع وامتد « وما الحياةُ الدنيا إلا مَتاعُ الغُرور » (٣ : ١٨٥) .

قلب المؤمن دليله أو

اشتراط يعقوب على أولاده لإرسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على إرجاعه

آ (٦٦) ﴿ ... قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ، إلا أنْ يُحَاطَ بِكُمْ ... ، فلَما آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ، قَالَ : اللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والستون فقام جمال بك العكاري[1] وقال :

أيها السادة تلك المقاولة التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأولاده العشرة ، بين جزر ومد ، ورغبة ورهبة ، وطلب وإباء ، وأخيراً : كأني بيعقوب قال لهم : « لا تطلبوا مني بنيامين ، فما أنا بشقي مارأيت ولدي بجانبي ، وما أنتم بأشقياء ماقنعتم بما يحمله كل واحد منكم من « الغيرة » ، لا نريد زيادة على ماتمتارون بحسب عددكم »

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

ـــ سمعوا منه ذلكم ، وكأني بهم قالوا : « لم نسألك إرسال أخينا معنا ، إلا ونحن نتوقع أن نسمع منك عين هذا الجواب السلبي ، ولكننا لانرى ندحة عن ارسال بنيامين إذا كان لك ولنا فكر في الرجوع »

وبما ذكر من المقاولات والمحاورات قدروا على أن يقنعوا والدهم بلزوم أو باستحسان إرسال بنيامين معهم ، ولا ريب أن الإقناع يولد الميل في نفس السامع، ولهذا تطور فكر أبيهم تطوراً جديداً ، وافتكر بارساله بشرط ؛

نعم نعم ، إن يعقوب عليه السلام رآى المناقشة حامية ، ودرجة حرارة الجدال مرتفعة ، فمشى مع ذلك محتفظاً باشتراطه عليهم أن يحلفوا له ويعاهدوه بارجاعه له سالماً ففعلوا .

هذا مانذكره دخولاً على قوله تعالى (قال) لهم أبوهم : قد أوليتكم ماتوليتم، لكنني أنا اليوم قد صرت ممن يطلبون إيضاح الخطة قبل الدخول في المعركة ، فقد كنت تساهلت نوعاً عند إرسال يوسف معكم ، منذ ٢٣ سنة ، والآن لاأريد أن أعيد كرة هـــذا التساهل ، ولذلك ولكوني أرى الخطر يتهددني (لن أرسله معكم) ولا فواقاً (حتى) تضعوا أيديـــكم في يدي (تؤتون موثقاً) أي تعطوني ميثاقاً[1] أتوثق به (من) جهة (الله) عز وجل ، وهـو الحلف به بأن تتحملوا مسؤوليته : لتَحمُنُنَّه ولتَدفَعُنَّ عنه و (لتأتنني به) فإن رجعتم بأخيكم سالماً ، كنت راضيـاً عنكم ، وإن كانت الأخرى ـ لاسمح الله ـ سخطت عليـكم ، وقوله « لتـأتنني » جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به ، أي لاتمتنعون عن الإتيـان به في حال من الأحوال العارضة ولعلة من العلل ـ (إلا) لعلة واحدة ، وهي (أن يحاط بكم) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا، فهل تفوا لي هذه المرة بما تقولون ، ولي عليـكم بذلك العهد والميثـاق ، ماذا

(١) اصل الميثاق في اللغة عقد يتأكد بيمين .

ترون ؟ — فقالوا له : تأمر وتطاع ، حسناً ، ليكن كما تريد ، فلك علينا العهد والميثاق أن نَفِيَ لك ، وأن نرد اليك ابنك ، فو الذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لنأتينك به ، إلا أن يمنعنا قدر واقع، ماله من دافع ، وإنا نموت بموته ونحيا بحياته، لك ذمة الآلوه يَهْوَهْ ، وذمة أبراهام وإسحـــاق وذمتنا على ما أحببت ، نحلف باءِهْ ، لا يعترض أحد بيننا وبين احتفاظنا بأخينا بنيامين ، إلا أهرقنا دمه ، ومشينا على جثته ، ما كان لنا به قوة ، ولن يصل اليه أحـد ، إلا بعد ان نكون جثثاً باردة هامدة بين يديه ، ولسوف نرجع به اليك ، وهو على أحسن ما يكون من العافية ، اللهم إلا إذا قاومنا مايجعل قوتنا ضعفاً وقدرتنا عجزاً ، فمعذرة عندئذ منا الى الله واليك .

وهكذا أقسموا لأبيهم بالله جهدَ أيمانهم ، وحلفوا له بكل مُحَرِّجَةٍ [1] من الايمان أن يرجعوه له ، وأن يحتفظوا به كما يحتفظون بأنفسهم ، ويذبوا عنه كما يذبون عن حياتهم ، وأعدوا لذلك الموثق عُدته من شجاعة النفس ، وقوة العزيمة والإخلاص القلبي ، وهكذا أرهقهم أبوهم صعوداً بما حملهم من الشرط الثقيل ، والميثاق الشديد (فلما أتوه موثقهم) ، وآنس منهم صدقاً لم يعهده قبلُ منهم (قال الله) وأشار بأصبعه ونظره الى السماء (على مانقول) من طلبي الموثق منكم ، واعطائكم لي هذا الذي طلبتُ (وكيل) مطلع رقيب ، لا تخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده ، وفجر في الحلف به ، أو موكول اليه القيام بما شهد عليه منا ، فيسجل التاريخ عليكم ذلك ، وتحفظه عليكم الملائكة ، وستكون هذه المعاهدة والمواثقة تحت مراقبة الإله الحق ، سبحانه وتعالى .

وبهذا الذي حصل ،حصل السماح من يعقوب عليه السلام بسفر ولده بنيامين ،

---

(١) الايمان المحرجة : التي تضيق مجال الحلف وهي بتشديد الراء من حرج وبدون تشديد من احرج .

فكأنما هذا « الموثق » هو « جواز سفرهم » لمصر بأخيهم بنيامين والله تعالى أعلم

(قال : لن ارسله معكم . . الخ)

— ٢ —

وقال السيد احمد الصفدي [1] : يمكننا ايها المستمعون الكرام ان نعلق على هذه الآية بالتعليقات الاتية :

الاحتياط والتحفظ لا زمان بجانب المقدر

١ً — كان يعقوب عليه السلام ، استرسل استرسالاً في شأن يوسف وإنفاذه معهم سابقاً ، وسمح بذهابه للمرعى دون شرط ولا قيد ، فرآى من سوء المغبة ، فهاهنا لما شعر بذلك التساهل احتاط في أمر بنيامين ، ومع ذلكم ما أغنى عنه ذلك شيئاً فنتعلم من هذا أن المقدر كائن لامحالة ، كما نتعلم أنه على كل حال ينبغي لنا الاحتياط والتحفظ ، أخذاً بأسباب السلامة ما أمكن .

وجوه سماح يعقوب بانفاذ بنيامين مع اخوته

٢ً — سمح يعقوب بإنفاذ بنيامين معهم وقد شاهد ماشاهد ، وجرب ماجرب لوجوه : أولها استيثاقه باليمين المحرجة التي حلفوها له ، وعلى الأخص لما شخص ببصره نحوهم وجعل ينظر الى سحنهم ويتأمل في أقوالهم ويتفرس في حركاتهم وسكناتهم ، فرآى الاخلاص ظاهراً متجلياً في كل كلمة من كلامهم ، ورآهم يومئذ للصدق أقرب ، فجنح لموافقتهم إنما بتعديل .

ثانيها إنهم كانوا تقدموا في السن ، وذهب عنهم نزق الشباب ، ثالثها أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والعداء مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

(١) نسبة الى صفد من بلاد الشام (فلسطين)

رابعها ضرورة القحط أحوجته وسهلت عليه ذلك .

الحالف بالله حالف على حساب الله

(٣) — قوله : ﴿ موثقاً من الله ﴾ جعله منه تعالى لأن من حلف بالله ، كان كأنه قد كفل الله على نفسه ، كما قال جل من قائل : ﴿ ولا تنقضوا الإيمان بعدَ توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (١٦ : ٩١) « ولما كان الكفيل كالأصيل ، صار المتعهد كأنه هو الله ، فالحالف بالله فهو حالف على حساب الله ، ومتعهد باسم الله ، فكأن الحالف يقول : « إني أتعهد ليس باسمي ، بل باسم إلهي » وعلى الأقل كأنه يقول : « إني أتعهد وأجعل الله كفيلاً لي على هذا التعهد » ، والدليل على ذلك أنني أتقدم وأحلف باسمه تعالى » ، هذا هو وجه قول يعقوب عليه السلام ، إن الموثق الذي تترابط عليه الناس هو عند الحالف باسم الله — من الله ، هذا ما ألهمنيه المولى الكريم ، فتح الله على من تلقاه بقلب سليم .

حس يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه

(٤) يقول يعقوب عليه السلام «إلاّ أن يحاط بكم» ، فسبحان الملهم ، وجل المنطق ، كان يعقوب يرى ويحدثه قلبه بشيء سيلاقونه ، ويحيق بهم ، ولكنه مجمل عنده لم يتعين في نظره ، وكان يتخوف منه كثيراً ، وكأني به أنه كان يتخيل كرباً شديداً يحيق بأولاده ، وربما يكون ذلك جيشاً يحيط بهم في سفرتهم هذه ، يرون منه يوماً عصيباً ومن الغريب أن هذا الخيال ، قد فسره الحادث الذي وقع ، فقد أحاط بهم عزيز مصر وفتيانه الذين عملوا عليهم الحيلة ، وأرهقوهم بها ، وبواسطتها كان إمساك بنيامين بمصر ، وقلما نرى حادثاً مهماً لم تتقدمه الهواجس .

وجوب التعلم من دروس الماضي

(٥) — للماضي دروس تعلم الإنسان اموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها ،

هو بهــــذه الدروس يدرس مافي جعبة الدهر من خفايا وأسرار ، فيحرص على اجتناب كل مضر منها ، وتقديم كل نافع مفيد ، وترانا لانذهب بعيداً للاستدلال على صحة مانقول ، فهذا صفي الله إسرائيل [1] هو اليوم غـيره ، قبل ٢٢ سنة ، ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل ٢٢ سنة ، قد استرسل مـع أولاده ، لحسن ظنه فيهم ، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي ، وسحبوا ولده المحبوب — يوسف — من حضنه ، وأسلموه لحضن الجب ؟... لايستطيع أحـد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، كان أبوهم أمس هكذا ، ولكنه اليوم يخافهم ، كما يخاف الثعـالب والثعالي ، فهو بين أمس واليوم قد تغير فكره في أولاده ، وشرع يسلك معهم سبيل الحيطة ، فلذلك لم يرد أن يلبي طلبتهم ، بأخـذهم بنيامين لمصر ، إلا بعد اللتيا والتي ، وبعد استيثاقه منهم بالايمـان المحرجة ، فهكذا ينبغي لنا نحن أن نكون مـع الناس المشتبه فيهم ، لاسيما سلائل هؤلاء الآباء ، أعني يهود اليوم « أبناء العم المحترمين »!!..

معنى الاحاطة بالشيء

(٦ً)— قوله ﴿ إلا أن يحاط بكم ..﴾ يحتمل أن معناه إلا أن يحـاط بكم من من أولي الصهيل والصليل ، وتلتف حولكم أهل السلاح والكراع ، وتلتقي حلقتا البطان ، فتغلبكم أعداؤكم ، ولا تقدرون على الدفاع عنه ، فيصادر منـكم مصادرة فلاتقدرون على الإتيان به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّا أعتَدْنا للظالمين ناراً أحاطَ بهمْ سُرادِقها ﴾ (٢٩:١٨) وقوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تَقْدِروا عليهـا قـــد أحاط اللهُ بها ﴾(٢١:٤٨)، ويحتمل أن معنى « إلا أن يحاط بكم ..» إلاأنتهلكوا في سبيل الدفاع عنه ، وتنشب بكم أظفار العدو ، وتعلق بكم مخالبه ، وتقتلون في

(١) كناية عن سيدنا يعقوب عليه السلام .

الذب عن حياته ، وترتطموا في مهاوي المتالف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ ، وظنّوا أنهم أحيطَ بهم ﴾ (١٠:٢٢)أي أُهلِكوا ،جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك ، وكذا قوله تعالى :﴿ وأحيطَ بثمَرِهِ فاصبحَ يُقلّبُ كَفيّْه على ماأنفقَ فيها وهيَ خاويةٌ على عرُوشِها ﴾ (١٨:٤٣) .فالإحاطة هنا عبارة عن الإهلاك ، وقوله تعالى :﴿ وإذْ قلنا لكَ إنَّ ربّكَ أحاط بالناسِ ﴾ (١٧:٦٠) أي أهلكهم وهم المشركون من قريش في غزوة بدر ، كان أخبره بذلك سلفاً قبل وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ بَلى مَنْ كَسَبَ سَيئةً .وأحاطت به خطيئَتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾ (٢:٨١) أي أهلكته .

وعد رأوبين ويهوذا لأبيهما باعادة بنيامين اليه

(٧) — ورد في سفر التكوين ، أن « رأوبين » كلم أباه وقال له : « اقتل ابنيّ إنْ لم أجيء به اليك ، سلمه ليدي وأنا أرده ليدك » (تك٤٢:٣٧) ولم يكن «رأوبين » يعتقد أن يعقوب يقتل حفيديه حاشا ، بل قال ذلك توكيداً له انه لا يكون على بنيامين أدنى خطر ، وأن « يهوذا » قال لأبيه « أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً ، أنا أضمنه ، من يدي تطلبه ، أنا إن لم أجيء بـه اليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً اليك كل الأيام» (تك ٤٣:٨و٩).

نصح يعقوب لاولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ(٦٧) ﴿... وقالَ : يابَنِيَّ ، لاتَدْخلوا مِنْ بابٍ واحدٍ ، وادْخلوا من أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ . وَما أُغْنِي عنكمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ ، إنْ الحُكمُ إلاّ للهِ ، عليهِ تَوَكلتُ ، وعليهِ فلْيتَوكلِ المتوكِلّونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والستون فقام الشيخ اسماعيل الصيداوي (١) وقال :

أعد أبناء يعقوب بما فيهم بنيامين معدات السفر وتجهزوا للرحيل فأخذ أبوهم في نصحهم (وقال) لهم بلهجة المشفق : (يابَنِيَّ) الأحد عشر ، لاتنسوا أن « العين حق » واني أخاف عليكم عين الحاسد ، إذا عمل بمقتضى حسده ، وعين الظالم ،متى جرى على طبيعة ظلمه ، وعين السارق والمفسد والواشي ، ولا تغفلوا عن « ان العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » ، ولا أظنكم نسيتم ماجرى لكم عند دخولكم مصر في سفرتكم الأولى ، من لفت نظر الناس ورجال العزيز عليكم لدخولكم مجتمعين ، لذا حينما تصلون في هذه السفرة الى مصر أوصيكم أن (لا تدخلوا) كوكبة واحدة (من باب واحد) من أبوابها الأربع ، لئلا تكونوا موضع التفات الناس ، كما كنتم في السفرة الأولى ، مظنة لطموح الأبصار اليكم من بين الوفود (و) لكن (ادخلوا) « الفرَما » التي هي أول حصن في طريقكم لمصر (من أبواب) « كانت لها أربعة أو أكثر » (متفرقة) ومتباعدة عن بعضها البعض ، فذلك

(١) نسبة الى صيدا من البلاد الشامية (لبنان)

احوط لكم ، تحاشياً من ضرر شرطة مصر ، وتفادياً من اعين كل اهل السوء (و) مع ذلك ، فانا (ما) لست (اغني) ادفع (عنكم من) امر (الله) تعالى (من شيء) .. حاشا .. فإنه تعالى يجري الأمور بنظام ، تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، (إن) ليس (الحكم) والقضاء الفعلي (إلا لله) الذي بيده المستقبل (عليه توكلت) بعد مراعاتي سننه (وعليه فليتوكل المتوكلون) وليس احد في سعة عن الاتكال عليه ، وخاصة انتم فإنكم غرباء ، والغريب اعمى ، ولو كان بصيراً .

ملحوظة — لا بد انكم ايها السادة تنبهتم لتفسير الآثار الواردة في « العَيْن» وضررها ، الذي حشوته في كلامي حشو اللوز في الفالوذج ، وقريب من هذا تأويل فريق من العلماء لقول : « إن يكن الشؤم ففي ثلاث : في المرأة والدار والفرس » وبعضهم يزيد : « والخادم » فقد اولوا ذلك بأن شؤم المرأة سلاطة لسانها وتعرضها المريب ونشوزها وعقمها وتبرجها ، وشؤم الدار ضيقها وعدم جريان الهواء فيها ، ورطوبتها ، وشؤم الفرس حرانها وغلاء ثمنها ، وشؤم الخادم سوء خلقه وخيانته وكسله وقلة تعهده لما فوض اليه وجهله بما يشتريه وجهله بتدبير المنزل .

(وقال : يابني لاتدخلوا .. الخ)

— ٢ —

وقالت الشيخة فاطمة الصيداوية :

استعداد ابناء يعقوب الاحد عشر للسفر ونصح ابيهم لهم

لما سمح يعقوب عليه السلام بإنفاذ بنيامين مع إخوته الى مصر فرحوا فرحاً شديداً واخذوا يعدون العدة للسفر وقبل الرحيل بقليل قصدوا خيمة ابيهم

لوداعه ، فلما مثلوا بين يديه وقف بينهم مرشداً وناصحاً إذ قال لهم يابني إن الوصية لو تركت لفضل ادب ، تركت لذلك منكم ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل وعليه فأوصيكم متى تجاوزتم « العريش » ووصلتم « الفَرَما » قرب « قطية » وهي اول حصن لمصر في طريقكم فإياكم ان تدخلوا اليها من باب واحـــد من ابوابها ، ولا تضعوا امركم في موضع الغَرَر ، ولا تخاطروا بأنفسكم ، فإني لا آمن من ان تلتفت اليكم رجال الدولة المصرية ، كالشرطـة والعيون الراصدة والعسس ، وإني اخاف عليكم من العين ، عين الشرطي وعين « الجاسوس » وعين الحسدة والمكرة ، فيكون في ذلك ما اكره وتكرهون ، لاسيا انكم ذوو بهاء وشارة حسنة ، وانكم من اهل فلسطين اعداء مصر والمصريين ، ولذا تلافياً لكل محذور ادخلوا من ابواب لها متفرقـة لتتعدد متوجهاتكم ولتتفرق مداخلكم لأنكم إذا تفرقتم كنتم مغمورين مجهولين بين الناس ، فلا تلتفت الأفكار نحوكم ، فليس التجمع مفيـداً في كل شيء ، بل قد يكون مضراً في بعض الحالات ، فحصنوا عورتكم واحترسوا من غفلتكم ، ولا تلقوا بأيديكم الى ماعسى ان يكون فيه تهلكة . هـذا هو الرأي الصليب الذي اراه الان ، وعلى كل حال فليس باستطاعتي ان ادفع عنكم ممـا قدر الله عليكم من شيء ، إذ لواراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما اشرت بـه عليكم من التفرق ، بل هو مصيبكم لا محالة ، بالرغم عن السدود التي اقمتها في سبيل ما اخشى ان يصيب اخاكم ويصيبكم ، لأني لا اعلم شيئاً من الغيب التي ستكون ، ولا اعلم مايأتي به الغد في طياته من الحوادث ، لست ادري ولا المنجم يدري :

قال الشاعر :

لعمرك ماتدري الطوارق بالحصى ولازاجرات الطير ماالله فاعـل

وقال آخر :

وأعـلم عـلم اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن عـلم مافي غدٍ عمي

هذا هو « القَدَر » الذي لا محيص عنـــه ، فهل أنا أقدر أن أمنعه عنكم بوصايتي إليكم ؟ أستغفر الله فها أنا أنتظر ما سيجيء به الغد ، واني عالم بأنه إذا كان الداء من السماء بطل الدواء ، كما أعلم أن يد الله فوق كل الأيدي ، وأنـه المسيطر الوحيد الفعال لما يريد ، ولكن اليقين بالقدر لا يمنع الحازم من توقي المهالك، وليس على أحد النظر في القدر المغيب ، ولكن عليه العمل بالحزم ، ونحن نجمع تصديقاً بالقدر وأخـذاً بالحزم ، وأخيراً فليس الحـكم والقضاء الفعلي على سبيل الحقيقة إلا لله غصباً عن الفلك ، فاذا أسند الحـكم والقضاء لغيره فهو على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة (انظر تفسير ع ٤٠) نعم نعم ، ليس الحـكم إلا لله وحده ، رغماً عن معاطسنا ، فهو الإله الذي تتبخر أمامه أحـكام جميع الخلق فتصبح دخاناً منثوراً ، ومع كل هذا فإني أريد أن أبذل كل ما أستطيع من أخذ الحياطة ،لئلا أكون اسير الحسرة والندامة إذا — لا سمح الله — صار ما أكره عليه توكلت لا على سواه ، وعليه لا على أنفسهم ولا على قوتهم وعـددهم ولا على أولادهم فليتوكل المتوكلون .

ولما سمع أولاد يعقوب تحذير أبيهم وتعليمه ونصحه قالوا له : لبيك ليكن كما تريد ، ثم تقدموا منه وودعوه وركبوا وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم، فرحاً بقدومهم على « عزيز مصر» ، الذي لم يجربوا منه بعد سوى الإكرام !!!... وكأني بيعقوب عليه السلام حين ودعه أولاده قال لهم بلسان حاله : الى الملتقى يا أبنائي ، على الطائر الميمون يا أولادي ، ثم لكأنه حين وداعـه « لبنيامين » قال بينه وبين نفسه : في عهد الله أيها الابن المثكول ، وفي حراسة الله يا ولداه ، في ذمة الله وكنفه ، أنت سلوى أبيك الشيخ،أنت التعزية الوحيدة عن أخيك الفقيد، أنت الأثر الباقي بعد « راحيل » خار الله لك في سفرتك ،الى الملتقى ، الى الملتقى.. الوداع الوداع ، الى يوم الاجتماع :

خف إذا أصبحت ترجـــو وارج إنْ اصبحت خائـــف
رب مكـروه مخـــوف فيـــه لله لطـائـــف

(مرحى مرحى)

(وقال : يا بني ، لا تدخلوا ..)

— ٣ —

وقال السيد الإسكندري : عندي على هذه الآية المسائل التالية :

سر التوكيل

١ً — إن سر التوكيل وحقيقته ، هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلايضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفـع الإنسان قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره ، وركونه اليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مـع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء ، فقول العبد : « توكلت على الله » مع اعتماد قلبه على غيره ، هو مثل قوله : « تبت الى الله » وهو مصر على معصيته مرتكب لها ، كذلك توكل العبد على الله مع عـدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلا .

وجوب الأخذ بأسباب التحرز والحيطة مع التوكل

٢ً — نعلم من قوله : لا تدخلوا .. وادخلوا ... عليه توكلت ... ان يعقوب عليه السلام فضل التحرز والحيطة ، ومع ذلك فقـد القى حبل اتكاله على الله ، فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، وكلام يعقوب يشير الى أنه لا منافاة بين الأخـــذ بالأسباب والتوكل ، لأن التوكل ليس هو إلا الثقة بالله تعـالى.

والاعتماد عليه والاعتقاد ان الأمر منه واليه ، ولو مع الأخذ في الأسباب ،وما قاله يعقوب عليه السلام هو على حد قول فخر الكائنات : « اعقلها وتوكل » ، أشار الى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل ، وقوله عليه الصلاة والسلام روحي له الفداء : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » ، فأثبت للطير توكلاً مع ذكره انها تغدو وتروح .

الاخذ باسباب الحيطة والسلامة فرض ديني

وبعد فترانا في هذا المقام ، لا نقف عند هذا الكلام ، فنقول :غني عن البيان ان يعقوب عليه السلام هو نبي كريم ، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه ، ولكنه يدرك مع ذلك ان سعيه في أسباب الحيطة والسلامة من الوقوع فيما يكره ، هو فرض من فروض الدين ، فنفسية يعقوب أرقى جداً من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر ، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان ، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس ، عند علم يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس ، عند إيمان يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله،عند ثقة يعقوب ؟ ولكنه هو الأخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة .

اسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم من القضاء والقدر

إن الغربيين هم أتباع ديانات ، يعلم فيها بالقضاء والقدر ، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم ، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر ، وتعاونهم ومثابرتهم — كل

ذلك عندهم فرض من فروض النجاح، حتى ولو كان الأمر الذي يزاولونه بسيطاً، لا يحتاج لتحفظات جدّية ، ولا الى أيدٍ كثيرة .

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف ، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بازاء ما ندعوه « قضاء وقدراً » هو من أسباب نجاح الغرب ، وتأخرنا نحن أهل الشرق، وقد يجوز أيضاً أن يكون سبب خذلان مشروعاتنا الاقتصادية ، وشركاتنا التجارية ، وفقدان المؤسسات النافعة ، من بين ظهرانينا هو نتيجة هذا الاتكال على « القضاء والقدر » ، ليقدم لنا ما نطلب ، ويتحفنا بما نحتاج اليه ، والأمر لو وقف عند هذا الحد ، لهان الخطر ، وقلنا : إن الشرقيين شعب له ثقة بالله ، واتكال على قضائه وقدره ، والله سبحانه وتعالى لا يخيب من يقصده ، ولا من يتكل عليه ، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا ، وتوسعت فيه نفوسنا ، وتشبعت منه أفكارنا ، فتيبسنا وجمدنا ، وضرب علينا الكسل قبابه ، ونصب حولنا الفشل خيامه ، حتى ان الإكثار من ذكر « القضاء والقدر » أصبح عادة متمكنة من نفوسنا ، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاولته ، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين ، نطبع به كل عمل ، من صنع أيدينا ، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله ، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الاقدام على جلائل الاعمال ، منعتنا من المثابرة والإتمام .

انواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر

(٣) — أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر ، ثم أشار الى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة ، ولا مغنية عن حكم الله شيئاً .. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع :

النوع الأول — متسبب صرف ، قد قصر نظره على السبب وقوّته وضعفه ،

وهؤلاء هم المنكرون لوجود الصانع المختار، من قبيل الماديين والطبيعيين والدهريين، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد، الذي ليس وراءه الحاد .

النوع الثاني — اتكاليّ صرف معرض عن الأسباب والوسائط، والآلات والأعمال، لا يريد أن يفتكر ولا يتحرك، ولا يعمل عملاً ما، اتكالاً منه على القضاء والقدر، واعتماداً على ماسبق في العلم أزلاً، وإن شيئا من هذا لا يتحول ولا يتحور، ولا يزيد ولا ينقص، وإن العمل وعدمه سيان، والحركة والسكون أخوان، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهالة، غالطون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً، يُحتجّ عليهم ويثربون، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون، وهم للجنون أقرب منهم للعقل، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم، لما أتى قرن واحد، وعلى وجه الأرض إنسان، وأشرف منهم الطير والحيوان .

النوع الثالث — من يثق بالله تعالى، ويعتمد عليه، ويعتقد أن الأمر منه واليه، مع أخذه بالأسباب، ودأبه على العمل بجد ونشاط؛ وظاهر أن هؤلاء أتقياء أهل الايمان، وهم أهل التوكل المشروع، وهذا ماجرى عليه يعقوب عليه السلام في وصيته لأولاده كما ترى .

التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والأخروي

(٤ً) لينظر القارىء اللبيب قول هذا النبي الكريم : « لا تدخلوا . . الخ » ، مع قوله : « عليه توكلت » ، مع مدح الله له بقوله : « وإنه لذو علم لما علمناه » يجد أن الاحتراس من الامور الضارة يمدح الله عليه من فعله ، ويسلم له دعواه التوكل ، فليسمع هذا جهلة المتصوفين ، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها ، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم ، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله تعالى : ﴿ بَلى مَنْ أَسْلَمَ وجهَهُ للهِ ، وهو مُحسِنٌ ،

فله أجرُهُ عندَ ربِّهِ ، ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزَنون ﴾ (١١٢:٢) ، فان الله تعالى لم يقـــل ﴿ ولاخوف عليهم ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وهو محسن ﴾ منضماً الى إسلام الوجه لله ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فامشُوا في مناكبِها وكُلوُا مِنْ رزْقِهِ ﴾ (١٥:٦٧) وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكم ﴾ (٧٠:٤) وقال تعالى ﴿ وأعِدُّوا لهم مااستَطعْتُم مِنْ قوةٍ ومِنْ رِباطِ الخيـلِ ﴾ (٦١:٨) وقال تعالى ﴿ وتزَوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ﴾ (١٩٧:٢) وقال تعالى خطاباً لنبيه لوط عليه السلام : ﴿ فأسْرِ باهْلكَ بِقِطْعٍ مِنَ الليـــل ﴾ (٨١:١١) وقــال تعالى : خطاباً لنبيه موسى عليه السلام : ﴿فأسْرِ بعبادي ليلاً ﴾(٢٣:٤٤) وقال تعالى : ﴿ فاذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشِروا في الأرضِ وابْتَغوا من فضْلِ اللهِ ﴾ (١٠:٢) وقال تعالى : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تَبْتغُوا فضـــلاً مِنْ رَبِّكمْ ﴾ (١٩٨:٢) ، وقال تعالى : ﴿ وقلْ اعْمَلوا فسَيَرى اللهُ عمَلَكمْ ورسوُله والمؤمنون ، وستُرَدُّونَ الى عالمِ الغيبِ والشهادةِ ، فيُنبِّئُكمْ بمـا كنتم تعملونَ ﴾ (١٠٦:٩) ، الى غـــير ذلك من الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي .

التوكل محله القلب ، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح ، والانسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليهـا ، وكل من خالف دلك فهو فاسد الفطرة مبدل لخلق الله .

إذا الإنسان توكل فقط ، ولم يستعد للأمر ، ويأخـذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه ،فيكون ملوماً شرعاً ، وعقلاً ، كما قال تعالى في الإسراف في المال : ﴿ ولاتجعلْ يدَكَ مَغْلوُلةً الى عُنقِكَ ،ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْطِ ،فتَقْعُدَ ملوماًمحسُوراً ﴾ (٢٩:١٧) وقال تعالى خطاباً لفخر الوجود ﴿ ولاتُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ،

وَدَعْ أذاهُم وتوكلْ على اللهِ ، وكَفى باللهِ وكيــــلاً ﴾ (٣٣:٤٨) قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لايوثق بقوله ، لأنه يغش ولا ينصح ، وقال تعــالى : ﴿ وشاوِرْهُم في الأمرِ ، فاذا عَزَمْتَ فتوكَّــــلْ على اللهِ ، إنَّ اللهَ يُحبُّ المُتوَكلِينَ ﴾ (٣:١٥٩) ، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً .

وبالجملة ، ضل اثنان خـــير منهما ثالثهما ، الأول لايريد أن يعرف النواميس ، والثاني يريد أن لايعرف سواها ، فياقاتل الله الإفراط والتفريط .

العين الشريرة وعادات الامم في دفع أذاها

(٥ً) — قوله : «لاتدخـلوا .. الخ » : يعتقـد فريق من الناس خصوصاً النساء أن للعين الشريرة (كما يدعونها) تأثيراً على الاشخاص والاجرام والاشجار التي تنظر اليها هذه العين نظرة استحسان وإعجاب ، ولما كانت كل امرأة تنظر الى طفلها مثل هذه النظرة ، فهي تعتقد أن هـــذه « العين الشريرة » واقعة عليه لامحالة ، ولذلك قد جرت العادة أن تسلح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر ،

فالمرأة السورية لترد العين عن طفلها تلبسه خرزة من الخرز الأزرق .

والمرأة الفلسطينية ، تضع ضمن قلادة خرزة بيضاء وخرزة زرقاء ، وصورة شخص من ذهب ، تسميه « مُشَخَّص ».

والمرأة الإرلندية ، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز ؛

والمرأة الرومانية ، تربط كاحليه بشريطة حمراء ؛

والمرأة الإسوجية ، تضع في مهده كتاباً من كتب الطب،

والمرأة البلجيكية ، تعلق على صدره قطعة من النقود ؛

والمرأة الاسبانيولية ، تعلق على قبعته غصن صنوبر ؛

والمرأة الانكليزية ، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان ، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى « ميسيلتو » ، يوجد في غابات إنكلترة ؛

والمرأة الفرنسية ، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة « الدرويد » المقدسة في نظرهم ؛

وبعد كل هذا فيعقوب عليه السلام إنما أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد ، ومن عيون مستخدمي الحكومة.

ابواب الدخول الى مصر

(٦ّ) — ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ قيل هي أبواب « الفَرَما » وكان لها أربعة أبواب ، قيل : هي في محل « بورسعيد » اليوم ، أوهي في محل البحر جهة « بورسعيد »، وقال بعضهم : « الفَرَما » بالتحريك والقصر مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وبعبارة أخرى : حصن على ضفة البحر ، وهي بعد « العريش »، وقيل إنها مدينة قديمة بين « العريش » و« الفُسطاط » قرب « قطية » وشرقي « تِنّيس » على ساحل البحر ، على يمين القاصد لمصر ، بينها وبين بحر القلزم ، وكان « احمد بن المدبر » قد أراد هدم أبواب الفرما ، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما ، فخرج أهل الفرما ومنعوه من ذلك ، وقالوا ان هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله ، حين قال يعقوب لبنيه : ﴿ يابَنِيّ لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ فتركها ، قالوا : وكان « عمرو بن العاص » فتحها عنوة سنة ١٨ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه [١] اذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر ، فوصل « رفح » ثم « العريش » ثم « الفرما ».

---

(١) معجم البلدان

الحذر لا يغني من القدر

(٧) — تعليقاً على قوله ﴿ وما اغني عنكم من الله من شيء ﴾.

أولاً — نتذكر ههنا نادرة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دارخربة، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : ياهؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدارلحاجة، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاّب القَدَر

ثم أصيب بعدبشيءمن الخبل والوسواس وفساد المزاج، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ ماأغنى عني ماليَه ، هلكَ عني سُلطانيه ﴾ (٦٩:٢٨و٢٩) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانه وتعالى الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحك ، وما أراده تعالى كائن لا محالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذاالمعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السماوي ، ولايلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنما يختار لنفسه ماوافق استمداده ، وجرّته اليه ملتّه وارادته وتربيته ومزاجـــه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيـدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمنـاخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء.

واما قضاء الله وقدره فينا ، فهما خفيان عنا معشر البشر ، وانمـا يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهـذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا مافي اللوح السماوي من حكم الله وارادته ومشيئته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد انـه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاه الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنـا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلٰهي للقضاء والقـدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنـكم مِنَ الله مِنْ شيءٍ ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا . (مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ ـــ سألني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكمُ إلاّ لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه، فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسوآله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

الحذر لا يغني من القدر

(٧) — تعليقاً على قوله ﴿ وما اغني عنكم من الله من شيء ﴾.

أولاً — نتذكر ههنا نادرة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دارخربة، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجـــل منهم : ياهؤلاء لاتقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، وأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدار لحاجة، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضـــد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاّب القَدَر

ثم أصيب بمدبشيءمن الخبل والوسواس وفساد المزاج، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ ماأغنى عني ماليَهْ ، هلكَ عني سُلطانيهْ ﴾ (٦٩:٢٨و٢٩) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانـه وتعـالى الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحـك ، وما أراده تعالى كائن لامحالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذاالمعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السماوي ، ولايلتحم مـع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبـد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابـة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولـكنه إنما يختار لنفسه ماوافق استعداده، وجرّته اليه ملّته وارادته وتربيته ومزاجـــه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيـدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمنـاخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء.

واما قضاء الله وقدره فينا ، فهما خفيان عنا معشر البشر ، وانمـا يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سننه الـكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهـذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا مافي اللوح السماوي من حـكم الله وارادته ومشيئته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يـكون سبباً في النجاة،وتجنب ما عساه أن يـكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد انـه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاه الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنـا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلٰهي للقضاء والقـدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنـكم مِنَ الله مِنْ شيءٍ ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا .		(مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ ـــ سألني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكمُ إلاّ لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه،فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسوآله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

على عليّ كرم الله وجهه ، حيث حكّم وهو على حق ، فكان الخوارج يقولون « لا حكم إلا لله » .

نظام الطبيعة واحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر

١٠ — إن ما قيل في آية (وما أغني عنكم من الله من شيء) فيه كفاية للمستبصرين ، ولكن تذييلا للمقام أقول :

إن للطبيعة نظاماً ، وإن لله في سيرها أحكاماً ، فينبغي لنا أن نخضع لأحكام الله ولا نخل النظام،قال تعالى : ﴿ وخلقَ كلّ شيءٍ فقدّرَهُ تقديراً ﴾(٢:٢٥) وقال تعالى ﴿ إنّا كلّ شيءٍ خلقناهُ بقدَرٍ ﴾ (٥٤ : ٤٩) ، وعندي ان في هاتين الآيتين ونحوهما ما يوقظ الأفكار لحل مشكلة القدر ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث

سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) ﴿ . . . ولمّا دخلوا من حيثُ أمرَهمْ أبوهم ، ما كانَ يُغْنِي عنهمْ منَ الله منْ شيء ، إلاّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها ، وإنّه لذو علمٍ لما علّمناهُ ، ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ﴾ .

اقتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والستون فقام الشيخ آدم الرمتي (١) وقال :

قام أبناء يعقوب وأبوهم واضع يده على قلبه ، وركبوا دوابهم ورحلوا من

(١) نسبة الى الرمتا من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

سيلون الى غزة الى رفح الى العريش الى الفَرَما وهي أول حصن حصين من بلاد مصر (و) لا أخفي عن القارئين والسامعين أنهم (لما دخلوا) الفَرَما (من حيث أمرهم أبوهم) وكما رسم لهم ، وعلى حسب الخطة التي اختطها لهم ، متفرقين لأبوابها الأربعة — لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدر عليهم وخاصة على أخيهم بنيامين ، و (ما كان) ذلك الرأي ودخولهم متفرقين (يغني) يدفع (عنهم من) قدر (الله من شيء) ، لأن الإنسان وديعة غيب ، لا يعلم ما يطرأ عليه ،بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح ، وغلب التقدير التدبير ، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ، ولكن عدم إغنائه من الله من شيء ، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ في الأسباب ، وسلوك سبيل الاحتياط والتحفظ ، (إلاّ حاجة) غاية (في نفس يعقوب قضاها) وهي على ما فهمه العلامة الزمخشري شفقته عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به ؛ أو هي على ما يفهمه هذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة، إذا حدث لولده « بنيامين »شيء مما يخشاه ، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف ، حينما وحيثما استرسل مع أولاده استرسالاً ، وسلمه لهم دون قيد ولا شرط ، دون عهد وميثاق ، دون وصية وارشاد ؛

فهو كان رأى نفسه في حادثة تسليم ولده يوسف أنه استسلم لأولاده على العمياء دون كفالة ولا توثق ،حال كونه كان يخاف منهم عليه ، لأنهم يكرهونه، وهم له حسدة ، وأبوهم يعرف ذلك كله ، حتى انه قال له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » (ع ٥) ، فمع كل دلك قد زج به الى إخوته ، وتعذيبهم إياه ، حتى صار فريسة الإثم وطعمة الغرور ، وألعوبة في يد المكرة ، وقد قيل: « من استرعى الذئب ندم »،ويعقوب

استرعى الذئب على ولده بدون أن يكون معه حراس ، كان كل هذا في حادثة يوسف ، وأما اليوم في حادثة بنيامين ، فلم يرد أن يترك أخذ العهد المغلظ عليهم ، ولم يشأ أن يغفل إرشادهم ووصيته اليهم ، لئلا يتوهم انه ضيّع ولده بيده ، وانه سلمه الى المهالك باختياره ، فيحزن عليه حينئذ حزن النادم المتفجع ، الذي لايجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى ، ويتحسر انه ترك نوعاً مما يقدر عليه ، من أنواع التحفظ ، بل يريد هنا أن يحتفظ لبنيامين ما وجد لذلك سبيلاً ، وأن يأخذ حذره ما أمكن ، فيعقوب عليه السلام بما أجراه هذه المرة مع أولاده في شأن بنيامين لا يتحسر كثيراً ، ولا يتأسف أسفاً جليلاً ، لو طرأ على ولده صدمة من صدمات القدر ، أو نزل عليه نازلة من نوازل القضاء ، لأنه حينئذ لا قصور منه ولا تقصير ابتداء ، ولا حول ولا حيلة انتهاء ، فهو إذ عمل بالواجب قد يهون عليه الأمر ، ويسهل في نظره المصاب، فلا يصدر منه كبير أسف ، ولا كثير تحسر ، ولايقدر أحد أن ينسب اليه الاسترسال مع الأولاد ، أو الاهمال لشيء من الحذر ؛ هذا ما أفهمه فيما هي هذه « الحاجة » ولا أعلم هل أنا مصيب أو مخطىء ولكن أعلم أنني كتبت ما اعتقد .

(وإنه لذو علم) أي فهم ومعرفة (لما علمناه) أي يفهم الذي علمناه إياه ، ومنه أمره لأولاده بالحذر وأن لايدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا يدفع القدر ، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير ، فنعمّا ذلك الصفي الكريم ، أو معنى قوله « ذو علم » ذو عمل ، لأن العلم التصديقيّ الإذعانيّ المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ، ونقلَ البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل، ولذلك فسره بقوله « عامل بما علم» ، ووجهه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أُشْرِبَتْهُ روحُه ، وخالط لحمه ودمه، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بدا من العمل

به ، رضي أم أبى ، فاذاً أصبح العلم هو العمل ، لأن أثره اللازم له ، لزوم الظل للشاخص ، أو لزوم حركة الخاتم لحركة الاصبع ، ولذلك قالوا : آية فهم المعلوم تأثر العالِم به وظهوره فيحركاته وسكناته وترقرقه في شمائله ، ترقرق اللابن السائغ في جسم الرضيع .

العلم علمان : نظريات وعمليات ، والعلم لايتحقق أو لايتأكد إلا بالعمليات ، فلا يقال : فلان نجار ، إلا بعد أن يكون — عقب النظريات — قد عمل صندوقاً أو خزانة مثلاً ، وكذا لايقال : فلان حداد ، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً أو سكيناً مثلاً ، وهكذا لايقال : فلان طبيب ، بمجرد نواله الشهادة ، مالم يكن قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل ؛ وعندنا أن جملة « لذو علمٍ لما علمناه » تحتمل تخريجاً ثالثاً ، وهو أن اللام فيقوله « لما » للتعليل و « ما » موصول حرفي ، والمعنى لأجل تعليمنا إياه ، (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ماعلمه يعقوب من الجمع بين الاخذ بالاسباب والتوكل ، فالقِبْضُ منهم في غفلة عن ذلك ، وجمهرةُ الناسهم من ذوي الغُبْنِ والنوْك .

اجتماع شمل الشقيقين

آ (٦٩) « ولمَّا دَخَلوا علىيُوسفَ ، آوَى اليهِ أخاهُ ،قالَ : إنِّي أنَا أخوكَ ، فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يَعْمَلونَ »

وتليت الآية التاسعة والستون في نفس الجلسة فقام الحافظ الترمانيني[1] وقال :

(ولما) وصلوا صوعن « صانالحجر » عاصمة المملكة الهكسوسية ، و (دخلوا

(١) سبة الى ترمانين من بلاد الشام (سورية)

على) عزيز مصر (يوسف) ووقفوا وِجاهَه ، شعر بتعزية داخلية بمجيئهم عنده ، و (آوى اليه أخاه) بنيامين ، وأدناه منه ، وأنزله تحت ظله ، وجمعه اليه ، ورقّ له وعطف عليه ، و (قال) له (إني أنا أخوك) — قال بنيامين : « أخي في الحب والصداقة أم ماذا ؟ » — قال : « أخوك المفقود يوسف بن إسرائيل ، من زوجه راحيل ، أنا أخوك وأنت أخي ، أنت لي وأنا لك ، وكلانا على الدهر (فلا تبتئس) لاتحزن ولا تتذمر (بما كانوا يعملون) ويمرمرون به معيشتنا ، فإنه لا يقلل من قيمتنا التاريخية شيئاً ، هكذا قدر عليهم أن يعملوا ماعملوه ، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم ، واجعل قرة عينك اليوم برؤية أخيك ، ناسخة لأحزان الثلاث والعشرين سنة الماضية : افرح وتهلل اعتباراً من هذه الساعة .

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد الكلسي[١]

اخوة يوسف الاحد عشر بين يدي يوسف

ولما وصل إخوة يوسف مصر ساروا تواً الى حيث يقيم العزيز « يوسف » ومعهم بنيامين الذي طلبه منهم ، وعنددخولهم عليه سُرِّي عنه بذلك كل هم وغم إذ كان ينتظرهم بفارغ الصبر ، وهو على أحر من الجمر ، ووقفوا أمامه وسلموا عليه تسليم الإمارة وركعوا وكفروا ، مترامين بين قدميه ، فلما رأى يوسف بنيامين معهم ، قال لهم : (أنجز حرّ ماوعد) ثم قال الذي على بيته : (أدخل الرجال الى البيت واذبح ذبيحة وهيء ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون معي عند الظهر) ففعل الرجل كما قال له يوسف ، وأدخل الرجال الى بيت يوسف ، وأعطاهم ماء

(١) نسبة الى كلس من بلاد الشام .

ليغسلوا أرجلهم ، وأعطى عليقاً لدوابهم ، فلما جاء يوسف الى البيت سجدوا له الى الأرض ، فسأل عن سلامتهم ، وقال : (أسالم أبوكم الشيخ الذي قلتم عنه ؟ أحيّ هو بعد)فقالوا : عبدك أبونا سالم، وهو حيّ بعد ، وخروا وسجدوا،وكان هذا السجود تمام الحلم الاول ، وهو أن حزمهم الإحدى عشرة سجدت لحزمته ، وكانت الحزم في الحلم مناسبة لطلبهم القمح منه ، فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه ، وقال : (أهذا أخوكم الصغير الذي سمعت به وطلبته منكم ؟) وهذا الاستفهام للتكتم أو للتعجب ،لأنه رآه ابن نحو ثلاثين سنة ، وكان يوم بيع يوسف ابنَ نحو من ثماني سنين ، ثم خاطبه يوسف بقوله : (الله ينعم عليك يابني) واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت الى أخيه ، وطلب مكاناً ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ، ثم غسل وجهه ليزيل آثار الدموع وخرج وتجلد ، وقال للخدامين : قدموا الطعام ، فقدموه له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين وحدهم ، لأن المصريين كانوا لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين ، وهذا التمييز بين الآكلين كان عاماً في الأزمنة القديمة ، ولا يزال في الهند ، ولكنه عند المصريين كان بمقتضى أمر ديني ، أن لا يأكلوا مع الغرباء ، ففي تاريخ هيرودوتس أن المصريين كانوا يأبون الأكل مع اليونانيين وأن مس الطعام بسكين يونانية ينجسه .

ورفع يوسف حِصَصاًمن قدامه اليهم ،ولكن كانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم ، وهذه العادة كانت تعد من الرئيس في بلاد الشرق إكراماً عظيماً ، فأكلوا وشربوا ورووا ، وكانوا آمنين مبتهجين ، وأما يوسف فكان يفعل ذلك معهم وهو يقول في نفسه : اليوم تمر وغداً أمر ، ثم بعد انتهاء حفلة الطعام ضم يوسف اليه بنيامين في عزلة عن باقي اخوته ، وهش له وبش ، وقد ترقرقت الدموع في عينيه ، ثم قال له أتعرفني وتعرف اسمي ومن أنا ؟ — قال :

ماأنكرك لسوء ــ قال يا ابن راحيل انظر إليّ جيداً وتفرس فيّ ملياً إني ابن أمك وأبيك ، أنا أخوك يوسف ــ وأما بنيامين فسمع مالم تضطرب به حاسته ، ولا هجس في الضمائر ، فقال : ماتقول ياحضرة «صفنات فعنيح المحترم» ــ قال هذا هو الواقع ، أنا يوسف ابن أمك راحيل ، من رجلها يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، أنا أصح نسبة ليعقوب من المطر الى السحاب ، وأصح نسبة لراحيل من النور الى الشمس ــ فظن بنيامين نفسه في منام ، لأنه فارقه منذ ٢٣ سنة ، فلم يعرفه ، ولكن يوسف ذكر له من السيما ماتأكد به أنه أخوه الفقيد ، وعند ذلك برح الخفاء وتقشعت الغمامة ، وظهر البدر التمام ، وأما بنيامين فطار فرحاً ، وقام اليه وتحاضنا ، وسلم عليه بالقبلة الاخوية ، وجاوبه أخوه بقبلة حارة ، وأمسك كل بيد الآخر إمساكاً شديداً ، ثم قال له يوسف والآن يا أخي ، لاتحزن ولا تتذمر بما يفعله إخوتنا ، مما سجله عليهم التاريخ ، بمداد من نار . إن الله قد أحسن الينا وجمعنا على خير مانرجو ، وقد أبدلك مرارة صابهم ، وغضاضة علقمهم بحلاوة اللقاء ، وجمع شمل الأحباء ، ومع ذلك فان مع اليوم غداً . (مرحى)

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال حمدي باشا الانطاكي(١) :

يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه

لما دخل إخوة يوسف على يوسف ، حيوه تحية الأمراء ، وقالوا له : (هانحن أولاء قد سعينا السعي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك) ، وأما يوسف فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين ، فقد فرح بمجيء إخوته بني

(١) نسبة الي انطاكية من بلاد الشام .

العلات ، فرح المنتصر الظافر ، وفرح بمجيء شقيقه ، فرح الحبيب بالحبيب ، وللمرفع نظره لبنيامين لمس القلب ، لاسيما وقد لاحت له في صورته صورة المرحومة أمه « راحيل » ، فعطف عليه وآواه اليه ، وكأنه سبحانه وتعالى ، يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه ، واستبدادهم به ، فقد تكاد هـــذه الكلمة أن لاتستعمل إلا في مقام النصر والانقاذ من الذل والتهلكة ونحو ذلك ، ومن قوله تعالى : ﴿ وآوَيْنا ُهما إلى ربوةٍ ﴾ (٢٣ : ٥١) وقوله تعالى : ﴿ وفصيلته التي تُؤْويه ﴾ (٧٠ : ١٣) وقوله تعالى في النبي ﷺ : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ (٩٣ : ٦) وقول لوط عليه السلام : ﴿ أو آوِي إلى ركنٍ شديد ﴾ (١١ : ٨٠) . وقول ابن نوح : ﴿ ساوِي إلى جبلٍ يَعْصِمُني من الماءِ ﴾ (١١ : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ آوَى اليه أبويه ﴾ (ع ٩٩) ، ويدلنا على أن بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم ، قول يوسف له : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه ، ثم هو لما رآى بنيامين وضمه اليه نتخيل أنه قال في نفسه :

كأنك لم توتر من الدهر مرة　　إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

وقال لبنيامين مقدماً نفسه اليه معرفه بشخصه الكريم ، إني أنا أخوك يوسف ، فكن مطمئن البال ، حيث ظفرت بأعز ماترجو ، وعلى الدنيا السلام ، فلا تحزن ولا تتذمر بما كانوا يعملون معنا ، فقد أصبح منذ اليوم خبراً ليس له أثر ، أصبح ليس له وجود إلا في بطون الدفاتر ، وأنا لا أريد أن أثير المعركة عليهم من جديد سامحهم الله ، فلنتناس مافات ، وننظر فيما هو آت ، وان لم شملك بأخيك اليوم يشفع في كل ما أصابك من الأسواء ، ويجب أن ينسيك كل بلواء .

بدء المعركة بين يوسف واخوته ـ التسريق

آ (٧٠) ... ﴿ فلما جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ ، جَعَلَ السِّقايةَ في رَحْلِ أخيهِ . . . ثم أذَّنَ مُؤذِّنٌ : أيتها العِيرُ ، إنكم لسارِقونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية السبعون فقام السيد مطيع الادلبي[١] وقال:

كان يوسف عليه السلام عقد النية بالاتفاق مع « بنيامين » على عمل الحيلة بنسبة السرقة اليه ، توصلاً لبقائه عنده قهراً كرقيق لمدة سنة أو أكثر ، فأمر خادمه الخصوصي الذي على بيته قائلاً : « املأ عدال الرجال طعاماً حسبما يطيقون حمله ، وضع فضة كل واحد في فم عدله ، وطاسي طاس الفضة تضعه في فم عدل الصغير مع ثمن قمحه » (فلما جهزهم بجهازهم) من قمح وزاد للطريق من خبز ودقيق وسويق وعليق ، وسائر لوازم السفر ومعداته (جعل) وضع (السقاية) أي طاس الفضة (في رحل) في عدل (أخيه) بنيامين ، بيد خادمه الخاص الذي على بيته ، فلما أضاء الصبح انصرف إخوته ، هم ودوابهم ، وعندما قاربوا الخروج من المدينة « صوعن » ولم يبتعدوا ، قال يوسف لخادمه الخاص « قم واسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم فقل لهم : لماذا جاريتم شراً عوضاً عن خير ؟ اليس هذا هو الذي يشرب سيدي منه ؟ أليس هذا هو الذي يكيل أيضاً به ؟ » فقام الخادم يسعى وراءهم (ثم أذن مؤذن) أي نادى مناد : (أيتها العير) القافلة الفلسطينيون رويداً ، على رسلكم ، إن « العزيز » أرسلني ، والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول ، — قالوا : « فما الرسالة ؟ » — قال : (إنكم لسارقون) وسيكون لنا معكم شأن من الشؤون ، فأنتم لستم قافلة تجارة ، ولا رواد ميرة ، بل عصابة

---

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام .

لصوص ، أو حملة عدائية نحو « العزيز » فما هذا الشرك الذي نصبتموه لنا ، ذريعة للاختلاس ؟ وماهذا المركب الخشن الذي ركبتموه ؟ . .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية . . الخ

— ١ —

وقال السيد عبد الكريم العجلوني [1] :

المحادثة التي يظن أنها جرت بين يوسف واخيه بنيامين قبل تسريقه

لو كنت من المحدثين في هذه الأمة المحمدية لقلت إني حُدِّثتُ بما يلي :

قال يوسف لأخيه « بنيامين » : « يا ابن الأعيان ، لي معك كلمة ، أصخ اليها ، فإن اجتويتها فاضرب بها عرض الحائط ، وإن وقعت عندك الموقع الحسن ، فتنازل بمساعدتي على ماأريد ، أنا أريد الآن بقاءك عندي ، لتؤنس من وحشتي ، وتخفف من آلامي وفرقتي ، وتعينني على احتمال أعباء الحياة وهمومها ، وها أنا ذا هنا أقلب طرفي حولي ، فلا أرى أخي الذي أحبه وأوثره ، وأرى فيه شخص يعقوب وصورة راحيل ، إنني ههنا لا أرى إلا أناساً آخرين أجانب ، لا شأن لي معهم ، ولا صلة بيني وبينهم ، فلذلك يخيل اليّ ، وأنا مجتمع بالجمهور من المصريين المحكومين ومحفوف بالجمهرة من العمالقة الحاكمين ، كأنني خال بنفسي ، منقطع عن العالم ومافيه ، ولقد كنت سعيت في أسباب حضورك ، وكنت أترقب ذلك ترقب المقرور أشعة الشمس ، وكنت أنتظرك انتظار الظامىء ديمة القطر ، فالآن أريد أن تبقى عندي لاسواك ، تبقى عندي مدة طويلة لاقصيرة ، لأننا مشتاقان كل الى أخيه ، كما أريد ذلك بالأحرى لأبينا الشيخ الجليل ، ولكن الأمر بالنسبة لأبينا صعب الآن جداً ، لأن الظروف والأحوال لاتمكننا اليوم من الحصول على لذة الاجتماع

(١) نسبة الى عجلون من اعمال بلاد الشام (شرقي الاردن)

بـه ، لأن هذا لايمكن إلا إذا أظهرت نفسي له ولإخوتي ، وبان لجميعهم من أنا ، وهذا لم يحن حينه بعـد ، وأما تمتي بحصولك عندي فممكن ، بشرط أن تضحي شيئاً من شرفك مؤقتاً ولأجل محدود ، وبحيث يكون ذلك ضمن دائرة الخفاء إلا عن اخوتك ، تضحي ذلك من أجلك وأجل تمتعك برؤيتي ، بل وأيضاً من أجلي وأجل تمتي برؤيتك »ــ فأجاب بنيامين قائلاً : « ومالذي اجتمع عليـه رأيك حتى نتوصل لذلك ؟» ــ قال : « أنسب اليك أنك أخـذت صواعي ، وجعلته في رحلك ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه من عار السرقة أمام إخوتك أنك ستكون عندي مدة طويلة ، نتبادل فيها الأحاديث والسرور ، ويتمتع بعضنا بمشاهدة بعض ، كما انه ليكن عزاء أبينا الشيخ عما سيلاقيه من الحزن والكمد بتسريقك وبعدك عنه ــ أنه سيمكن له ولنا بعمل هذه الطريقـة ، مجيئه لمصر ، ويتمتع كل برؤية الاخر ، ذلك لأنني أريد فيما بعد إظهار نفسي لإخوتي ، توصلاً لذلك ، ولكن بعد تنزيل شيء من كبريائهم وتمردهم ، فإني لاأنسى انهم كادوا لي كيداً ، وأنا اليوم أيضاً أخوف ماأخاف منهم : ولوخبرتهم الجوزاء خبري ، لما طلعت مخافة أن تكادا ، على اني أعتقد أن والدي سيتخذ حبسك عندي إشارة رمزية يفهم منها أن لا بـــد للأمر من سر ، ويشم رائحة يوسف من ناحية مصر ، نعم ، إنه من الشديد عليّ أن أسرقك أيها الأخ ، ولكن أشد منه عليّ مفارقتك إياي ، فتحمل أنت هـذه الحملة اليوم ، لما قلت لك ، والنتيجة تبرر الواسطة ، نعم إن الحادثة التي ستستقبلها شديدة ، شديدة عليك وعلى أبينا الشيخ ، ولكن أبونا سيتحملها بما لديه من صبر وسكون ، وعلمه بتأويل مايكون ، وفهمه تلك الرموز والإشارات ، وكـــل لبيب بالإشارة يفهم ، هذا ماأراه في هذا الموضوع ، والله أعلم بإخلاصي فيماانتويت أن أجريه ، وهو سبحانه من وراء القصد ، وأنا والله إنما أريد هذا لأسرّك لا لأضرك ، فهـــل تطيعني يابنيامين في ذلك ؟..» ــ فقال بنيامين : « ماعصيت لك

أمراً قبل اليوم ، ولكن هبك فعلت كل هذا ، وتوفقت له ، فأنى لقوانين أن تحكم ببقائي عندك سنة ، وهي إنما تغرم السارق بمثلي ما أخذ ، دون أن يستعبد؟» — قال يوسف :« سوف نستفتيهم ونطلب منهم الفتيا ، وهم طبعاً إنما يفتونا بشريعة جدنا إبراهيم ، وهي استعباد السارق سنة عند المسروق منه » — فقال بنيامين : « افعل مابدا لك ، مرني بما تريد ، فأنا في كل حين أطوع لك من بنانك » — قال يوسف « اسكت عليها ، لا تعرّض بذكرها بين شفة ولسان » وبناء عليه فلما جهزهم بجهازهم ، بيده اليمنى ، جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين بيده اليسرى ، قائلاً في نفسه :« شأن عساه أن يجر شؤوناً » ولم يأخذه مصادرة ، لئلا يقيموا عليه بذلك دعوى ، ويشتكوه للملك الريان ، فيكون قد غرّر بنفسه ، وكان هذا بمعرفة ورضى من بنيامين ، نزولاً على إرادة يوسف ، وهذا الأمر يعد أكبر تضحية من بنيامين ، وإنما ارتآى يوسف هذا الرأي وأقدم عليه ليرد من شأوهم ، ويثني من عنانهم ، ويقلم أظفارهم ، ويكف من عُرامهم ، ويحسم من شِرّتهم :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمَنسِمِ

قال قيس بن زهير :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرىءٍ رماك بأخرى خطبها متفاقم
فلا تبد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكن راحم

فكانت هذه «السقاية» كفخ نصبه يوسف ليصطاد به أخاه ليكون عنده ، فلما أضاء الصبح ، ثاروا إلى أحمالهم ووضعوها على ظهور الأبعرة ، وانصرفوا ومشوا أدراجهم ، في غمار الممتارين ، الآيبين الى بلادهم ، يطوون الأرض طياً ، من فرحهم بميرتهم ، وإيابهم بسلامتهم وسلامة أخيهم ، ثم لما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبعدوا ، أذن مؤذن ، أي صرخ صارخ أو نادى مناد ، أو صاح صائح،

أو أعلمَ مُعلم ، وهو الخادم الخاص ليوسف ، بمـــلء صوته والاهتمام ظاهر على وجهه ، حيث خف وراءهم في كوكبة من رجاله ، وشخصوا خلفهم وصمدوهم ، وصرخوا عليهم : أيتها العير ، أصلحكم الله ، أنتم تحت الطلب ، فعلى رسلكم ، وقفوا مكانكم ، لأنه ظهر أنكم سارقون ، — وفيه تعريض باختـلاس يوسف من أبيه ، أو بسرقة المسرة والحبور الذي كان في قلب يعقوب ويوسف وبنيامين ، وما كانوا يشعرون به من الغبطة في نفوسهم بلمّ شملهم ، وأنس بعضهم ببعض ، والسرقة كما تكون في الماديات تكون في المعنويات ، كما يسرق الشاعر معنى لشاعر قبله ، وكما يسرق الفرح أو الحزن النوم من الأجفان ، وكما يسرق فتقبض النفس بانقباضه ، صفاءَ جليسه وانشراحه ، ويحتمل أن المراد بقوله « لسارقون » أن حالهم تشبه حال السَّرَقة ، بما أن الصواع مخبوء في رحالهم —.

(فلما جهزهم بجهازهم .. الخ)

— ٣ —

وقال الاستاذ المقدسي : لي على هذه الآية الملحوظات التالية:

هل كانت العير حميراً أم ابلاً

الملحوظة الاولى : — العير ، جماعة الإبل التي عليها الأحمال ، والمراد بها في الآية أصحابها ، ونحوه « ياخيل الله اركبي » ، ويقال لهـــا « عيس » ، وإذا كانت خراسانية قيل لها « بُخت » ، وتطلق كلمة العير على القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل ماامتير عليه ، إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً ، وقال بعضهم ، العير هي القافلة إذا كانت فيها جمال ، قد تخللتها حمير تحمل الميرة ، وقد نقل ابن جرير في تفسيره عن مجاهد ان العير هنا كانت حميراً ، وأما كلمة بعير المتقدمة في قولهم (ونزداد كيل بعير) ففيها خلاف أيضاً عند اللغويين في القاموس : « البعير وقد

تكسر الباء الجمل البازل أو الجَذَع ، وقد يكون للأنثى ، وهو أيضاً الحمار وكل مايحمل ، قاله ابن خالوَيه » وقال في تاج العروس : قال ابن بري : « وفي البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان ، وكان السائل ابن خالويه ، والمسئول المتنبي ، بين يدي سيف الدولة ، وكانت فيه خنزوانة وعنجهية ، فاضطرب ، فقلت المراد بالبعير في قوله : (ولمن جاء به حمل بعير) الحمار ، وذلك أن يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف ، كانوا بأرض كنعان ، وليس هناك إبل ، وإنما كانوا يمتارون على الحمير ، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره » اه.

ويقول الحقير إن القول بان دوابهم كانت حميراً ، مأخوذ من التوراة ، وأما قوله إنه لم يكن إذ ذاك بأرض كنعان إبل ، فهو وَهم مخالف للواقع وللتاريخ ، بل وللتوراة التي هي المستند في أن دوابهم كانت حميراً ، فقد ذكر في التوراة : أن « رفقة » لما جاءت من العراق لكنعان كانت راكبة على جمل (تك ٢٤:٦٤) وذكر فيها أن راحيل وقت براحها العراق لكنعان أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل (تك ٣١ ٣٤) وفيها أنه صار لإبراهيم لما كان بمصر غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تك ١٢:١٦) ، فهذان نصّان تاريخيان منهما نعلم انه كان يوجد بشرقي كنعان (أي العراق) جمال ، وكان يوجد بغربي كنعان (أي مصر) جمال ، فلماذا حينئذ لاتوجد الجمال في نفس كنعان المتوسطة بينهما ؟ على أنه ورد في التوراة أن اليعازر الدمشقي ، عبد ابراهيم ، أخذ عشرة جمال من جمال مولاه ومضى الى العراق (تك ٢٤:١٠) فهذا النص التاريخي يفيد أن الابل كانت موجودة في نفس كنعان من ايام ابراهيم ، وفيها ان الجمل لايؤكل (لا ١١:٤) فهذا النص الثاني يفيد ان الجمل كان موجوداً ايضاً في كنعان التي هي ارض اسرائيل لأيام موسى عليه السلام ، فالقول بأن الجمل لم يكن موجوداً في كنعان ايام يعقوب واولاده غلط تاريخي .

المراد بالمؤذن

الملحوظة الثانية — كلمة « اذن » في قوله « اذن مؤذن » بالتشديد تفيد كثرة الاعـلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، واما « آذنَ » فانها تفيد الاعلام ولو مرة واحدة .

بدء المعركة بين يوسف واخوته بايقاعهم في مأزق حرج مع ابيهم

الملحوظة الثالثة — من ههنا ، اي من قوله : « فلما جهزهم » تبتدىء المعركة بين يوسف واخوته وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه .. الخ ﴾ (ع ٨٠) ، فلكأني بـه قد سمع من شقيقه بنيامين تلك التعهدات القوية التي صدرت من رأوبين ويهوذا لأبيهما ، فلذلك ولكون يوسف يعتب عليهما اكثر من باقي إخوته ، لأنه كان يركن اليهما اكثر من غيرهما ، فقـد عول على ان يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع ابيهم ، وان يعمل معهم عمـلاً يقابل عملهم ، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم ، لأنهم كانوا أنزلوه في جب المـاء ، فأراد ان ينزلوا في اتون من نـار الهم والغم ، وهم كانوا قالوا له حينما ألقوه في الجب : « خذ ياصاحب الأحلام » فقال لهم الآن : « خذوها ايها الظلام » كانوا عملوا معه عملاً يريدون به ان يخلو وجه ابيهم لهم ، فأراد ان يعمل معهم عمـلاً ، يلفت عنهم وجه أبيهم جزاءً وفاقاً ، وذر الرماد في العيون ، وهيأ لهم ضربة اليمة ، كما كانوا ذروا الرماد في عيون ابيهم وآلموا يوسف ، جزاءً وفاقـاً ، فكأن يوسف يقول : احصدوا أشواك اعمالـكم السابقة .

ويقول الشاعر :

إذا قيل رفقاً قلت للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

آو يقول

وقد تصبرت حتى لات مصطبر　　فالآن أقحمُ حتى لاتَ مُقتَحمُ

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً ، لأنهم سبق انهم عملوا عليه تلك الحيلة المسيئة ايضاً ، وهي اخذه من ابيه بحجة انه « يرتع ويلعب » فما كان منهم إلا انهم انزلوه في غيابة الجب وقد قيل : « الهزيمة تعلم الظفر » .

اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه

الملحوظة الرابعة — إن قال قائل ماالدليل على أن يوسف اتفق مع أخيه بنيامين على تسريقه ليقيم عنده ، فهل ورد بذلك حديث عن المعصوم ، أو هل يوجد في القرآن مايشير لذلك ؟ قلت لا هذا ولا هذا ، إنما دليلنا على ذلك كون يوسف شقيقاً ومحباً مخلصاً لبنيامين ، وبنيامين كان عنده كضيف نزيل كريم ، وهذه الضيافة كانت بدعوة سابقة من يوسف ، فمع هذه الأحوال لا نقدر أن نتصور أن يوسف دبر هذه المكيدة لبنيامين بدون أن يشعره ويتفق معه عليها ، وإلا كان ذلك قطعاً للرحم ، وأذىً كبيراً للضيف الكريم البريء ، وقد قال تعالى « والذين يُؤذُون المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ ما اكتَسَبوا ، فقد احتمَلوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً » (٣٣ : ٥٨).

مبررات قبول بنيامين

الملحوظة الخامسة — إن قال قائل « كيف رضي بنيامين بهذه الاهانة ووافق عليها ووقف بازآء أخيه موقف السامع المطيع ، موقفاً إيجابياً محضاً ، مع أنه يوجد له ثلاثة موانع ، تمنعه من موافقة أخيه : أولها المحافظة على شرفه ومروءته أمام المصريين والحكومة وخوفه من الوقوع في الخجالة معهم ، وثانيها ، تسبب بنيامين

بقبوله هـذا الأمر في إدخال الكدر على إخوته الذين جاؤا به من عند أبيه بعد اللتيّا والتي ، وبعد ماأعطوه الأيمان المحرجة ، والعهود الوثيقة ، وثالثهـا ، إدخال زيادة الهم والغم على قلب أبيه يعقوب ؟ » .

فإنا نجيب عن الاول بأن المتهمين له خادم بيت يوسف الخاص وأتباعه الخصوصيين ، وهم في الباطن يعرفون انه غير سارق ، لأنهم ، على قول ، هم الذين جعلوا السقاية في رحله بيدهم ، فالمسألة كانت ضمن دائرة الخفاء بين يوسف وخدمة بيته لاغير ، وهم لما رجعوا إنما رجعوا لبيت يوسف ، لا للدار الحكومة في البلاط ، وهو مانعلمه من التاريخ ، ويعلم أيضاً من التوراة (تك ٤٤ : ١ ـ ١٤) ونجيب عن الثاني بأن بنيامين عمل ذلك لأن إخوته كانوا أوغروا صدره عليهم بمـا سبق انهم عملوه مع شقيقه يوسف ، وبما كانوا يعملون معه نفسه ، حسبما يفهم من قوله « فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ثم قوله لهم « هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه » ، ونجيب عن الثالث بأنه كما لايمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه غماً وهماً ؛ فلا يمكننـا إنكار احتمال ان هذا العمل يدخل على أبيه ارتياحاً وسروراً ، فإنا نعتقد أن يعقوب اتخذ من هذا العمل بشرى عن ولده يوسف بأنه ـ في الجملة ـ في مصر ، لاسيما اذا انضم اليه ماسبق في السفرة الأولى من أنه جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وكان لهم خير المنزلين ، وجعل بضاعتهم في رحالهم ، وكان قال لهم بغتة : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » ثم انه في السفرة الثانية أنزلهم ضيوفاً في بيته ، وجهزهم بجهازهم ، وأرجع لهم فضتهم أيضاً وأخذ بنيامين عنده بحجـــة عمل لم يعهد عليه قبـله انه عمله ـــ فـكل هذه الاشارات والرموز ، هي برقيات لاسلـكية ، وأحاجي لايفهمها ولا يحلهـا إلا ذو فهمٍ دقيق ، وشعور رقيق كيعقوب عليـه السلام ، ولذلك نراه بعد ذلك قال :

« عسى أن يأتيني بهم جميعاً » ثم قال : « إني أعلم من الله مالا تعلمون » ، ثم قال

« يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » وكل هذا إنما بناه يعقوب على تلك الاشارات التي دارت بينه وبين ولده يوسف ، وإلا إذا كان يعقوب يعرف أنّ ولده يوسف حيّ ؟ فمن أين عرف أنه بمصر ، حتى قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، لولا تلك الاشارات الخفية ، التي كان يرسلها يوسف لأبيه مع إخوته ، دون أن يحوموا حول فهمها خوفاً من إيذائهم وإضرارهم إياه ، فيوسف كان ساكتاً ، ولكن أفعاله تتكلم ، وإخوته تحمل هذا الكلام الرمزي ، دون أن يفهموه ، إلى من يفهمه وهو أبوهم عليه السلام ، كساعي البريد يحمل الأخبار السرية والرسائل دون أن يطلع عليها ؛

الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين انا اخوك اخوة صداقة وحب

وإن قال قائل : نقل المفسرون عن وهب بن منبه انه قال : « إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود أي أنا صديق لك ومحب لك ، وعاضدك عوضاً عن أخيك الفقيد يوسف ، فهي أخوة صداقة وحب ومساعدة ، لا أخوة نسب ، وعليه فبنيامين لم يفهم قط ان المتكلم معه هو يوسف أخوه النسبي ، ولم يصر بينه وبينه اتفاق على تسريقه ، بل بنيامين سُرِّق دون أن يكون له شعور بذلك » قلنا في جوابه إن وهباً استند في هذا على ما في توراة اليهود ، فانها تفيد أن بنيامين لم يكن له شعور بذلك (تك ٤٤) ويَرُدُّه انه خلاف الظاهر من قوله : (أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) والا والذي معنى مضى ، فلا يمكن تداركه وتلطيفه ، لأن أخوة « فوطيفار » التي هي أخوة صداقة ومساعدة ، لا تمنع بنيامين فيما مضى من الايام ، بل فيما يأتي فقط ، وإنما يصح تفسير وهب لو قال : « أنا أخوك ، فلا تبتئس بما سيعملون » .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها

الملحوظة السادسة — إن سأل سائل : كيف جوز يوسف عليه السلام لنفسه أن يعمل على إخوته العشرة هذه الحيلة المسيئة التي أزعجتهم أيما إزعاج ؟ فالجواب أنه أراد أن يعرفهم انه كما هو قوي بسلطانه وشوكته وجنده ، فكذلك هو غير غبيّ عن طرق الحيل التي هم يتقنونها ، ويرتكزون عليها ، قائلين : « رب حيلة أنفع من قبيلة » فكما جربوا وعملوا عليه الحيلة حتى أخذوه من أبيه ، وأوقعوه في الجب وغربوه ، وكما عملوا الحيلة ثانياً على أبيه حينما جاؤوا بدموعهم ودم معزاهم ، فكذلك هو قدير على هذا النوع من الحيل ، وبعبارة أخرى : أراد أن يعرفهم من هو ؟ حتى في ضروب الحيلة التي يعرفونها فكما أنه لا يعرف الشجاع إلا الشجاع ، فكذا لا يعرف المحتال سوى المحتالين .

وإليك جواباً ثانياً ، وهو أن يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عَرامة ، وذوو شراسة ، فأراد أن يخضد من شوكتهم ويفُت في عضدهم ، تنزيلاً لنفوسهم المتكبرة ، وإضعافاً لقوتهم المتحكمة ، فأتى هذه الحيلة المزعزعة لأفكارهم ؛ وبعبارة أخرى : يوسف كان لا يزال في تخوف من شر إخوته وحماسهم ونزقهم ، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم ، ويشذب بعضاً من حماسهم ونزقهم ، ويُطامن من نخوتهم ، ويكسر من زهوهم ، ويقمع من طغيانهم ، تأديباً وترويضا ، وعليه ولأنه من جهة ثانية يريد بقاء شقيقه عنده دونهم ، رأى أنه قد يسوغ له — خصوصاً في شرعه — أن يجري هذه الحيلة ، ليصيد بها صيدين : الأول أن يبقي بنيامين عنده والثاني أن يؤدبهم ويهذبهم ويكسر من حدتهم وكبريائهم وشكيمتهم ، فعل ذلك اضطراراً ، لا تشهياً ولا اختياراً ، وكأنه في ذلك كالعبد في اصطلاح الجبرية ، مجبور باطناً ، مختار ظاهراً ، فإن كان يوجد عبيدٌ هم كذلك، فمنهم بل أمثلهم في هذا المقــام خاصة يوسف ، أمّا انه مجبور باطناً ، فلأنه أراد

تشذيب شرهم ليسلم منهم وأما أنه مختار ظاهراً ، فلأن خادمه الذي فعل ذلك بأمره يرى أن يوسف اختار ذلك من تلقاء نفسه بطواعيته ، وبحسب تشهّيه ، دون أن يكون له دافع مجبر ؛

وجواباً ثالثاً ، وهو لعل يوسف أراد أن يكون رسول « الارادة الالهية » فجازى مكراً بمكر ، فهو إذ مكروا عليه وعلى والده ، واخذوه منه بالختل والدهاء ، أراد أن يظهر بمظهر آلة قصاص لهم ، وأن يجازي مكراً بمكر ، فكان في ذلك العمل مظهراً من مظاهر اسمه تعالى « المنتقم » قصاصاً من المعتدين ، فنصب هذه الأحبولة ، وأما مالحق أباه من جراء هذا العمل ، فهو أمر طبيعي حاصل عَرَضاً وبالتبع ، ولم يكن مقصوداً ، لأن شأن البلاء أن يعم ، أو هو من طبائع حوادث القصاص في الكون ، قال تعالى :﴿ واتّقوا فتْنَةً لاتُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً ﴾ (٨:٢٥) ، ومن حديث ابن عمر : « إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »، يوسف أراد أن يرميهم بحجر نظير حجرهم الذي كانوا رموه به سابقاً ، أراد أن يربطهم بوَتر نظير وَتَرهم الذي كانوا ربطوه به قديماً ، أراد أن يكيد لهم كما كادوا له ، قال تعالى:﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ ، والحُرُماتُ قِصاصٌ ، فمَنْ اعتدَى عليكم فاعتَدُوا عليه بمثلِ مااعتَدَى عليكم ﴾ (٢:١٩٤) ، فكل مايجب احترامه ، يجوز انتهاك حرمته قصاصاً ، فكما جاز للمسلمين مقاتلة مناوئيهم في الشهر الحرام من أشهر الحج ، لأنهم كانوا قاتلوا المسلمين عام الحديبية رمياً بالسهام والحجارة ، وصدوهم عن دخول مكة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم ، فكذا جوز يوسف لنفسه إجراء هذه الحيلة ، وان كانت تحزنهم ، لأنهم كانوا أحزنوه سابقاً بالحيلة التي أجروها عليه ، وقال تعالى :﴿ والذين إذا أصابهُم البَغيُ هم يَنتَصرون ﴾ (٤٢:٣٩) ، فالشهم يكره أن يذلّ لئلا يجترأ عليه ثانياً ، والمنتصر لنفسه محمود

على انتصاره ، إذ لاحرج على الانسان أن يأخذ حقه قصاصاً غير متعد حد الله تعالى ، وإن كان العفو أفضل ، والعافي ممدوحاً أكثر ، كما قال تعالى : ﴿ وأنْ تعفُوا أقربُ للتقوى ﴾ (٢٣٧:٢) ، ﴿ ولئِنْ صَبَرْتم لَهوَ خيرٌ للصابرين ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ ولمنْ صَبَرَ وَغفرَ إنّ ذلك مِنْ عزْمِ الأمور ﴾ (٤٣:٤٢) ونظيره ماروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لحسّان بن ثابت أن يهجو قريشاً بعدما طفقوا يهجون مقامه الشريف ، لكي يجازي هجواً بهجو : ﴿ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها ﴾ (٤٠:٤٢) ، ﴿ وإنْ عاقبْتُم فعاقبُوا بمثلِ ماعوقبْتُم به ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ ولمنْ انتَصَرَ بعدَ ظُلمهِ فأولئكَ ماعليهم مِنْ سَبيلٍ ﴾ (٤١:٤٢) ، ﴿ ولولا دَفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ ، لفَسَدَتِ الأرضُ ، ولكنّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين ﴾ (٢٥١:٢) ، قال الشاعر :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهر ولا شامخاً إذا واتاني
أنا نار في قلب من يظلموني أنا ماء جار مع الخلان

وقال مُرَيط العَنبري :

لو كنت من «مازِن» لم تستبح إبلي بنو اللقيطة مِنْ ذُهلِ بن شيْبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إنْ ذو لوْثةٍ لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا

فيوسف كان في مقاصته لاخوته على مذهب « المازنيين » لاعلى مذهب « العنبريين » ، وكان على المذهب الذي تمذهب به أبو الطيب حيث يقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
فلا عَبرَت بي ساعةٌ لا تُعزّني ولاصحبتني مهجة تقبل الظلما

أو على مذهب « الفِندْ الزِمّاني » في قوله:

وبعض الحِلم عند الجهل للذّلة إذعان وفي الشر نجاة حين لاينجيك إحسان

وجواباً رابعاً — « قد لا يقاوم الشر إلاّ بالشر ، وقد لا يدفع الظلم إلا بالظلم ، وقد لا يبرأ العليل إلا بتجريعه الدواء المر ، وقد لا يشفى الجريح إلا بقطع شيء من جسمه ، وحامل السيف لا يغمده في غمده ، إلاّ أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد »(١)

كان المعهود من طبع اخوة يوسف انهم يكدرون صفو الحياة ، فخشي أن يمسكوه اليوم كما أمسكوه سابقاً — من موضع الضعف منه ، وماهذا الموضع إلا أنهم يعلمون أنه لا يعرف شيئاً من الحيل ، التي يعرفونها ، ولذلك رآى أن لا بد أن يعمل معهم عملاً يوقعهم في حيص بيص ، يلبسه على خشونته ، ويسيغه على كدورته ، ليعرفوه من هو ، وليعلموا أنه يعرف مايعرفون ، فمثله كمثل السائر ، يعترضه الجبل ، فلا يجد بداً من اجتيازه ، نعم لاريب أن الطريق بغير الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه صادف أنه كان في طريقه ولا بد من اختراقه ..

وجواباً خامساً « ثبت في الصحيح أنه إذا عبر أهل الجنة الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونُقوا ، أذن لهم في دخول الجنة » فلا يدخلون الجنة إلا بعد التهذيب والتنقية ، كما قال تعالى : ﴿ طبتُم فادخلوهـا خالدين ﴾ (٣٩:٧٣) ، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، وبناء عليه فكأن يوسف عليه السلام ، اعتبر أن مصر جنة ، وأن فلسطين

(١) النظرات المنفلوطي .

بالنسبة اليها كأنها نار ، وأن إخوته قد وصلوا للصراط الذي بين الجنة والنار ، فأراد أن يقتص منهم وهم على الصراط ، حتى إذا ماهُذبوا ونُقوا ، قال لهم: « طبتم فادخلوها خالدين ».

هذا ماظهر للعبد الحقير ، والله تعالى أعلم .

شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام

الملحوظة السابعة — حادثة يوسف هذه تشبه حادثتي العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، إذ خرق السفينة ، ثم قتل الغلام ، فما كان جواباً عنها ، فهو الجواب عن حادثة يوسف هذه عليه السلام .

استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم

آ (٧١) ﴿ قَالُوا :ـ وأَقْبَلُوا عَلَيهِمْ ـ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والسبعون فقام برهان الدين الدرعاوي (١) وقال :

سمع إخوة يوسف صرخة الصارخين وراءهم ، فأجفلوا ، و(قالوا) بلهفة وامارات البغتة تبدو من أسارير وجوههم ، (و) قد (أقبلوا عليهم) أي على المؤذن ومن معه ، محولين عنان دوابهم اليهم ، (ماذا تفقدون ؟!) بلهجة الاستفهام الذي يمازجه استغراب ، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة.

(١) نسبة الى درعا من بلاد الشام (حوران)

الصواع المفقود

آ(٧٢)﴿ قالوا : نَفْقِدُ صُواعَ المَلِكِ ،ولِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ،وأنَا بِهِ زَعِيمٌ .﴾

ثم تليت الآية الاثنتان وسبعون فقام تاج الدين العكي وقال :

(قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصارخين (نفقد صواع الملك) الريان ، — وكل مايشرب به فهو صواع ، ويقال له أيضاً صاع ، وقيل هو إناء الشرب إذا كان من فضة أو ذهب ، وأما « القدح » فهو ما كان من زجاج ، و« العُسّ » من الخشب ، و « العلبة » من الأدَم ، و« الطّرْجهارة » من الصفر ، و«والمِرْكن» من الخزف [١] ، ولم ترد كلمة صواع في القرآن الا في هذا المحل ، وكان هذا الصواع من فضة ، وتقدم تسميته بالسقاية وسماه في التوراة « طاساً » — وهو ليوسف عليه السلام ، وانما نسبه هنا للملك ، لأن كل ما كان ليوسف وغيره من المأمورين فهو من الملك وللملك ، أو يقال أراد « بالملك » من له شيء من الملك ، كما سيأتي ليوسف ان يقول : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ ، فالملك إذن يوسف نفسه ، وآثروا التعبير به تهويلاً على السامعين ، (ولمن جاء به حمل بعير) لاأقله من خالص الحب وجيده ، يَعْتامُه من القمح الصافي ، فإن جاء به من رحله ، أخذ حمل البعير تقدمة او هدية ، بعد العفو عنه ، لأن الاعتراف يهدم الاقتراف ، وان جاء به من رحل غيره اخذه على انه جُعالة او عمالة [٢] او اجر او حلوان ،

(١) فقه اللغة ، ومنه يعلم ان كلمة صواع لم تحدث لهذا الاناء جديداً حينما صار يكال به ، بل هي اسم له عتيق قبل ان يكال به .

(٢) الجعالة مايجعل للانسان من الرشا والمصانعات والعمالة مايسمى للعامل لقاء عمله .

مع شكره ، فنحن مستعدون ان نجمع له بين الماديات والمعنويات ، وهو في اي قالب وضع ذلك فهو حر ، على كل حال نحن مستعدون لمجازاته بالحسنى ، فارشدونا لذلك ، ارشدكم الله تعالى ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون والبعير بمنزلة الانسان ، والجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة (سيرافى) — كان حمل البعير في ذلك الحين العصيب ، حين الأزمة وساعة العُسرة يساوي مبلغاً لا يستهان به ، مبلغاً له قيمته ، فالوعد به اذ ذاك كالوعد بسعادة مستقبلة ، او بضمانة الحياة ، ومن هنا اقتضى الحال ضرورة وجود كفيل ، يتعهد بتحقق هذا الوعد الهام ، ولهذا قال : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ والزعيم غارم ، وانا له ضمين ، والضمين مسئول ، وانا به كفيل ، والكفيل كالأصيل ، وانا له حميل ، والحميل مطالب ، وسأكون اول مصفق له ولمروءته ، إن اراحنا من عناء التفتيش ، وقد جاءت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بذلكَ زعيمٌ ﴾ (٦٨ : ٤٠) ولم يقع هذا اللفظ في كتاب الله في غير هذين الموضعين ، وهما بمعنى واحد وهو الضامن للشيء المتكفل به ، هذا هو معناه عند العرب ، واما اهل اليوم فيكثر استعمالهم له في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم ، ضامناً لهم النجح والغلبة ، فهو بحسب استعمالهم هذا يفيد معنى الضمان والرآسة .

اخوة يوسف يردون التهمة

آ(٧٣)﴿ قالوا : تاللهِ لقدْ علمْتم ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ ، وما كُنّا سارِقينَ ﴾ .

ثم تليت الآية الثالثة والسبعون فقام الشهاب الحيفاوي[1] وقال :

سبق أن مندوبي « العزيز » سألوا إخوة يوسف عن الصواع ، وقالوا لهم ،

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

هانحن أولاء سألناكم ، فما رأيكم وما علمكم ؟ ها قد سمعتم صوتنا ، فأسمعونا صوتكم ، وأطلعونا على جلية الأمر ، وأما إخوة يوسف فلما سمعوا كلام المؤذن ورفقائه ، تعجبوا جداً وأحفظهم هذا السؤال ، وأغضبهم وغاظهم ، وتقززت منه نفوسهم ، لأول وهلة ، و (قالوا) لسنا هناكم ، ماأبعد وهمكم ! ! هي والله الفحشاء واللؤم (تالله لقد علمتم) أنّـا (ماجئنا) مصر (لنفسد في الارض) ونعيث في مملكتكم تعجب إخوة يوسف من نسبة السرقة اليهم ، ونفهم هذا من التاء ، لأنها وإن تكن حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كما ذكره الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء .

وإنما قالوا « لقد علمتم » فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ، وورد أنهم قالوا لهم : هذه الفضة التي وجدناها في أفواه عدالنا رددناها إليكم من أرض كنعان ، فكيف نسرق اليوم الصواع ؟ ! . .

والفساد ضد الصلاح ، فكل ما يخرج عن وصفه الذي يكون به صالحاً ونافعاً يقال فيه أنه فسد ، ومن عمل عملاً كان سبباً لفساد شيء من الاشياء يقال إنه أفسده ، فازالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض إفساد في الارض ، وإخلال لنظام الاجتماع وأسباب المعاش ، (وما كنا) قط (سارقين) أي نوصف بالسرقة .

سمعوا هذه التهمة التي ألصقت بهم ، فأكبروها وأعظموها ، وظهرت الأنفة على وجوههم ، ممزوجة بشيء من اضطرابٍ ورعدةٍ في الحواس ، وملامح الغضب تلوح على جباههم وصاروا ينظرون الى مندوبي العزيز شزراً ، وقالوا بنغمة جافة وقد عقدوا بين حواجبهم : تباً علينا ، ماهذه الظنون التي تظنونها فينا ؟ بعد ما عرفتمونا وجربتمونا ، فلقد عرفتم تاريخ حياتنا وسوابق أعمالنا ، وتبينتم حقيقتنا ، وان انطباق هذه على هذه لهو أيسر من إثبات السرقة علينا ، « وأين الرقمتان من وادي الفضا » ، هل نحن متلصصون ؟ . . هل نحن متشردون ؟ . . لابد أن يكون

ذهنكم عالقاً حتى الآن بما كنا فعلنا من إرجاع بضاعتكم اليكم ، فكيف نقدم على هذه العظيمة التي هي زيادة عن كونها سرقة ، ففيها جرأة على « العزيز » وحكومته ، ونكران لجميله الذي أجراه معنا ، فهل نحن مائتو الضمير لهذه الدركة ؟ . . أفٍ وتفٍ من هذه النسبة التي لطختمونا بها ! ! . .

ج الاخوة للحكم على نفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جَزَاؤُهُ إِنْ كنتم كاذِبِينَ ؟ ﴾

ثم تليت الاية الرابعة وسبعون فتابع الشهاب الحيفاوي كلامه قائلاً:

قال مندوبو « العزيز » الى اخوة يوسف ، وقد نظروا اليهم شزراً : لا أف ولا تفٍ ، أتظنون اننا نلقي القول جزافاً ، ولا نفكر فيما يثبته ويحققه ؟ طاش سهمكم ، ، إن البحث هو الذي يظهر صدقكم من كذبكم ،(فما جزاؤه)ـ الضمير للصواع ـ أي فما جزاء سرقته ، (إن كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه ؟ هذا سؤال نقدمه لكم ، أفتونا مأجورين أو مشكورين ، وأفيدونا بالحكم القضائي في هذه الحادثة ، وخلاكم ذم ، فأجيبوا فأنتم أعلى برأيكم عيناً.

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى :

قال رجال العزيز لإخوة يوسف : أخفضوا أصواتكم ، واعرفوا مع من تتكلمون ، ومن هم الذين تخاطبون ، إنكم لستم تخاطبون جماعة من السوقة ولكنكم تخاطبون جمعاً من خدمة الحكومة الهكسوسية ، وليست المسألة مسألة أيمان ، ولا اعتماد على وجدان ، بالله عليكم دعونا من الدعاوى المريضة ، فنحن لا نعتبر الأقوال ، لكن الأعمال ، وإن أحسن حكم بيننا وبينكم هو القرائن الراهنة ، والدلائل الساطعة ، ولا نعلم هذا إلا من نتيجة التفتيش ، وعند الامتحان ، يكرم

المرء أو يهان ، ونحن نريد أن نتحاكم معكم إليكم ، وننزل على حكمكم ، فمع أننا قد اعتبرناكم خصوماً ، نقبل أن تكونوا علينا قضاة ، فاحكموا بيننا بالقسط والنصفة.

ماقولكم دام فضلكم ، فيما لو تبين كذبكم ؟ وانه كذب حبريت [١] وان الصواع معكم ، فما تقولون حينئذ وبأي حكم تحكمون ؟ نرجوكم الجواب ، ولكم من الله الثواب.

وقبل الختام نقول : تبارك الله القدير ! ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم؟! يعقوب جاء اليه أولاده ، ينعون له يوسف وينبئونه بافتراس الذئب إياه ،فلم يصرح لهم بأنهم كاذبون ، مع انهم كانوا كذلك ، وهو يعتقدهم كذلك ، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة « كاذبين » وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفوهم وواجهوهم بكلمة « كاذبين » مع انهم ما كانوا كاذبين ، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين ، فما أكبر الفرق ؟..

الجزاء من جنس العمل

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ ،فهو جزَاؤُهُ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة وسبعون فقام الشيخ الجولاني [٢] وقال:

(قالوا) أي اخوة يوسف ، والشر باد في عيونهم (جزاؤه) أي جزاء سرقته في شريعتنا نحن آل يعقوب أن يؤخذ (من وجد في رحله) وليكن من كان (فهو جزاؤه) ولا كرامة ، — وهذه الجملة تقرير للحكم — أي فأخذ السارق

---

(١) كذب حبريت : خالص مجرد لا يستره شيء

(٢) نسبة الى الجولان من بلاد الشام

نفسه هو جزاؤه لاغير كقولك : « حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فهو حقه » ، لتقرر ماذكرتـه من استحقاقـه (كذلك) بدون أسف طبعاً (نجزي الظالمين) فموقفنا واحد ، مع القريب والغريب ، برنامج ثابت لمجازاة كل ظالم ، لن تجد له تبديلاً ولاتحويلاً ، وإن سكوتنا عن هذا الظالم السارق يعدجريمةومشاركة له في ظلمه وسرقته ، فلا بد لنا من مجازاته ، إحقاقاً للحق ، وانتصـاراً للشريعة العبرانية ، وتأييداً للقوانين السماوية العادلة .

(قالوا : جزاؤه من وجد .. الخ)

— ٢ —

وقال العلامة الشويكي [١] :

جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد

سمع إخوة يوسف كلام مندوبي « عزيز مصر » فاشتموا منهجفاء،واستروحوا منه شدة ، فكادوا يتميزون من الغيظ ، وصار الشرر يتطاير من عيونهم وتملكهم التهيج العصبي ، ولكن الأمر كما يقال : « العـــين بصيرة واليد قصيرة » فهؤلاء المتكلمون هم أصحاب البلاد المسيطرون ، وإخوة يوسف ضيوف غرباء ، لذا قالوا بصوت يرتعش ، نحن لا نعبأ بهذا التهديد ، بل نقول لكم إن جزاء سارق الصواع هو أخذ صاحب الرحل الذي تجدونه في رحله ، لأن كل غادر مأخوذ ، وإننـا نجزي الظالمين في شريعتنا بهـذا الجزاء ، ولانجزيهم بسوى ذلك ، بحيث لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها فدية ، ولاتنفعها عندنا شفاعة ، ولاأحد يقوم بنصر هؤلاء الظالمين ، هذي هي فتوانا ، والبحث والتحري هو الحكم بيننا وبينكم،

(١) نسبة الى الشويكة احد احياء دمشق .

هذا وقد حمي وطيس الشجار ، واشتدت بينهم نار الحوار ، الى أن كانت النتيجة أن مندوبي « العزيز » سمعوا هذه الفتوى من اخوة يوسف فاطمأنت قلوبهم عندما تلقفوا هذا الجواب المنتظر ، واعتقدوا انهم وصلوا لمطلوبهم لأنهم لم يسألوا إخوةيوسف السوآل السابق إلا" وهم يرجون أن يسمعوا منهم هذا الحكم العبراني .

وأخيراً أختتم كلامي بالملحوظات الاتية :

اقامة الظاهر مقام المضمر في قوله جزاؤه

أولا" — كلمة « جزاؤه » في الآية مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها إقامة المضمر ، والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : « مَنْ أخو زيد ؟» فيقول لك : « أخوه من يقعد الى جنبه فهو أخوه » أي فهو هو ، ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر .

جزاء السارق في شتى الشرائع

ثانياً — إن ماذكر في الآية الكريمة من الحكم هو حكم السارق في الشريعة العبرانية الإبراهيمية ، الذي خلاصته ان جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق، فيؤخذ كعبد ، ولا أعلم مقدار مدة عبوديته في الشريعة الإبراهيمية ، غير ماقاله المفسرون (والعهدة عليهم)، أنها سنة ، وأما جزاؤه في الشريعة الموسوية ، فهو انه إن كان عنده مال أخذ منه بقدر ماسَرَق مضاعفاً ، والا" أخذ عبداً ست سنوات ، قال في التوراة في السارق :« إنه يُعَوّض ، فإن لم يكن له ، يُبَع بسرقته » (خر ٣:٢٢) قال في السنن القويم : « ذهب اكثر المفسرين للتوراة الى أن مقدار العِوض مضاعف قيمة الخسارة ، وفسروا بيعه بسرقته ، أنه يكون عبداً لرب البيت ست سنوات ، فيكون قد أوفى بذلك ما عليه ».

وأما شريعة المصريين ، فهي انه يجب على السارق أن يدفع ضعفي قيمةالمسروق لاغير ، وليس فيها استرقاق .

وأما حكمه في شريعتنا المحمدية فهو كما قال الله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما ، جزاءً بما كَسبا نَكالاً مِنَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ (٥:٤١) وقد اختلف علماء الاسلام في القدر الذي يوجب الحد من السرقة ، فذهب جمهور السلف والخلف ، ومنهم الخلفاء الأربعة الى أن القطع لا يكون إلا في سرقة ربع دينار ، أي ربع مثقال من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ،وعلى هذا الأئمة الثلاثة ، وأما مذهب الحنفية فهو أن النصاب الموجب للقطع عشرةدراهم فاكثر ، ولاقطع في أقل منها .

الاسترقاق في شتى الشرائع

ثالثاً — نتعلم من هذه الآية أن الاسترقاق كان موجوداً في الشريعة الابراهيمية ثم نتعلم من التوراة أنه كان موجوداً في الشريعة الموسوية ، والواقع أن الرق كان فاشياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان . على أبشع صورة وأنكرها، وههنا يجب أن لا تنسى استرقاق يوسف بيد « السيارة » التي نشلته من الجب وباعته بمصر، فلما جاء الاسلام ضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال ﷺ: (إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون) الى غير ذلك من الاحاديث .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يجازي اخوته بشريعتهم

رابعاً — نعلم إذا عمل إنسان جريمة في مملكة غير مملكته ، وجب استفتاء

قانون تلك المملكة التي وقع فيها الجرم ، وذلك احتفاظاً بشرف وسلطان تلك المملكة ، ولا يجوز الرجوع في الاستفتاء والحكم لقانون مملكة الجرم ، اللهم إلا ما استثني من هذه القاعدة القضائية ، وذلك مثل « الملك » إذا وجد في غير مملكته ، وعمل هناك جريمة ، فانه إنما يعامل بقانون مملكته احتراماً لمقامه ، ومثل « سفراء الدول » في الممالك الأخرى ، فانهم إنما يعاملون بقانون دولهم ، وذلك لأجل حريتهم تماماً ، وتوسيع نطاق عملهم في البلاد الأخرى ، واخوة يوسف ههنا ليسوا بملوك ولا سفراء ملوك ، حتى يعاملوا بأحكام مملكتهم ، فما الذي جوز ليوسف عليه السلام أن يوصي عبيده ، أن يستفتوا إخوته توصلاً للحكم عليهم بشريعتهم في مملكتهم ، دون الحكم عليهم بشريعة المملكة المصرية ، وأليس في هذا تحقير لمملكة مصر وقوانينها ؟.. ثم أليس في هذا ظلم لإخوته ، لأن في حكمهم في هذه الحادثة صرامة أشد وأغلظ من حكم المصريين ؟ ..

وجوابنا عن هذا: لعل يوسف عليه السلام اعتبر « الجاني » من إخوته « كملك » عمل جناية في غير مملكته ، فانه لا يعامل إلا بقانون مملكته ، أو كان يوسف اعتبر إخوته كأجانب أصحاب امتيازات فلذلك أراد أن يحاكمهم بقوانينهم ، وعلى كل حال ، فكأن يوسف من جهة عمل لهم شيئاً من الاحترام ، ومن جهة أراد أن يستعبد أخاه ليحظى ببقائه عنده ، فيكون كمن رمى حجراً ليصيد صيدين ، ويحتمل أن هذه التدقيقات لم يكن معمولاً بها في تلك العصور بمصر ، بل كان يجوز أن يعامل الغريب الأجنبي بقوانينه في بلاده ، ولو وقعت منه الجريمة في مملكة أخرى لها قوانين أخرى .

ويحضرني الآن جواب ثالث ، وهو أن القوانين المصرية كانت في ذلك العصر وضعية ، أي من وضع البشر ، ولكن قانون العبرانيين كان شريعة من وضع

السماء ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، هذا ما تيسر لنا من الجواب ، والله تعالى أعلم .

الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة

آ (٧٦) ﴿ . . . فَبَدأ بأوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أخيهِ ، ثم اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أخيهِ ، كذلكَ كِدْنَا لِيوسُفَ ، ما كانَ لِيَأخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ ، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ ، نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نشاء ، وفوقَ كُلِّ ذي علْمٍ عليمٍ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة وسبعون فقام الاستاذ الحلبوني (١) وقال:

قال لأبناء يعقوب الأحد عشر من وُكِّلَ بهم من المؤذن وجماعته : نريد أن نفتش أوعيتكم ، ما من ذلك بد (فبدأ بأوعيتهم) أي بدأ بتفتيش رحالهم (قبل وعاء) رحل (أخيه) بنيامين ، لنفي التهمة ، على حد قول الشاعر :

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

(ثم) لما وصل المفتش الى رحل بنيامين ، أصاب السقاية فيه و (استخرجها من وعاء) من رحل (أخيه) أخي يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) بأن ألهمناه أن يوصي معتمده باستفتائه من إخوته عن حكم السارق ، ثم وفقنا إخوته أن يوقعوا الجواب على السؤآل حسبما ظن وأراد (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (فى دين الملك) فى جزاء ملك الديار المصرية ، أي

(١) نسبة الى حلبون من قرى دمشق (سورية) .

في الحكمة الجزائية بالديار المصرية — وهو تفسير للكيد وبيان له — لأن الذي كان يحكم به في دين ملك مصر ان يغرم السارق مثلي ما سرق ، لا أن يستعبد ، فالدين ههنا بالمعنى اللغوي هو الجزاء ، كما في « مالِك يومِ الدّينِ » (١ : ٣) ، ﴿ أإذا مِتْنا وكنا تُراباً وعِظاماً أإنّا لَمَدِينون ؟ ﴾ (٣٧: ٣٥) ، ﴿ يومئذٍ يُوَفّيهِم اللهُ دِينَهم الحق ﴾ (٢٤: ٢٥)، ﴿ وإنّ الدينَ لَواقعٌ ﴾ (٥١ : ٦) ، ﴿ وله الدِينُ وَاصِباً ﴾ (١٦ : ٥٢) قال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دِنّاهم كما دانوا

وورد « كما تدين تدان » أي كما تكافأ وتجازى ، ويحتمل أن يكون المراد بالدين الشريعة ، أي شريعة الجنايات والقصاص والعقوبات ، فيكون لفظ الدين محمولاً على المعنى الشرعي أوالعرفي (إلا أن يشاء الله) أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله ، بأن يجعل له عذراً فيما فعل ، وقد شاء الله ذلك (نرفع درجاتٍ من نشاء) في العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه سابقاً ولاحقاً (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كل صاحب علم أو كل ذي معرفة عليم عارف ، بحيث يكون فوقه بطبقات ، إلى أن ينتهي الإنسان الى درجة في العلم ليس بعدها أوسع منها إلا علم الله تعالى ، وعندها يقف علم ذلك الانسان .

(فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه ..الخ)

— ٢ —

وقال مولانا عمر البيلاني :

كيد يوسف لاخوته كان بوحي من الله عقاباً لهم في الدنيا

بدأ المفتش يفتش اوعيتهم قبل وعاء بنيامين فتطاولت أعناقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم ، ثم مشى مشياً متثاقلاً نحو رحل بنيامين ، وما كاد يفتحه

حتى استخرج الصواع منه ، وعندئذ قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فاقشعرت أبدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير ؛ رأوا ذلك فأجفلوا وبهتوا جميعاً لما نظروه ، مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين ؛أما بنيامين فقد انصب عليه سوط لوم وطعن من إخوته ، فتظاهر بالخجل وتصنع بالاضطراب تصنعاً لم يغير شيئاً من مظاهر عزته وأنفته ، وكأنه لم يعمل شيئاً يذكر ؛ صبر ولم يرد أن يكاشفهم بالحقيقة ، خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه ، فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف ، فأبقى الأمر مكتوماً الى حينه ، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به ، لاعتقاده انه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين ، وانه بذلك رفع من حضيض الأسر ، الى أوج النسر ، وهكذا تمت الحيلة ليوسف ، ورب حيلة أنفع من قبيلة ، وبسعيه هذا فاز بطريدته وأخذ أخاه بنيامين .

وأما إخوته فاحسوا بنيران هبت في أبدانهم ، وودوا لو تسوى بهم الأرض ، ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام « عزيز مصر » وعبيده .

كذلك الكيد العجيب كاد الله ، أي دبر وأراد وصنع ويسر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها ، يكيد بها من سبق أنهم كادوه ، ويصيد بها من كانوا صادوه « جزاء وفاقا » ، « وواحدة بواحدة جزاء » ،«بالصاع الذى تكيل يكال لك » .

روى البخاري في تاريخه من حديث أبي بكرة :« اثنان يعجلهما الله في الدنيا، البغي وعقوق الوالدين » ، فلعل الله تعالى أراد تعجيل عقاب أولاد يعقوب في الدنيا لبغيهم على أخيهم ، وعقوقهم لأبيهم ، بأن ألهم يوسف عليه السلام أن يدبر هذه المكيدة ، ليذوقوا وبال أمرهم . وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله تعالى التي لاتقاوم وإرادته التي لاتغالب ، فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث ، والمعول عليه في كل الأمور ، نسب هذا الكيد له سبحانه وتعالى.

أو يقال : لما كان هذا الكيد محموداً ومأذوناً فيه شرعاً ، لما فيه من فائدة يوسف وأخيه ، نسب لله ، فقال : « كذلك كدنا ليوسف »، بخلاف كيد الإخوة ، فإنه شر ليوسف ، ولهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له: ﴿فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين﴾ فيوسف ماقصد إلا خير أخيه ، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيهم ، قال الشاعر :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذا كا

كيد يوسف يجوز ان يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر

ويجوز أن يكون كيد يوسف لإخوته كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، أى راجعاً للظروف التي احتاطت بيوسف ، فإن هذه هي مظهر القضاء والقدر ، وتوضيحه أن يقال : إن الظروف والأحوال التي كانت أحاطت بيوسف أخيراً سهلت له أن يكيد لإخوته ، تلك الأحوال هي كونه قد صار من رجال البلاط المتسلطين ، وربما كان قد تعلمه من تأويل الأحاديث ، ومصائر الكلام ، وبما عرف من شريعتي اسرائيل ثم القبط ، حتى صار فيه أهلية للتصرف في الحوادث، وكيفية الخروج منها والدخول فيها ، ومقدرة تامة على عمل مايريد .

كيد يوسف لاخوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم او حيث اختاره لنفسه

ويمكن أن يقال : إنه كان ليوسف عليه السلام وصفان : وصف كونه نبياً ورسولاً ، ووصف كونه وزير مالية وعزيزاً لمصر في البلاط الملوكي ، وسياسياً محنكاً ، فهو باعتبار حالته الأولى ، كان له مساع وأعمال روحية يوفقه الله لها ويساعده عليها ، وباعتبار حاله الثانية ، كان له مساع وأعمال زمنية ، يوفق لها ويساعد عليها من الله ، الذي هو خالق كل شيء ، ولا نشاء إلا مايشاؤه ، قال

تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِهِ منها، وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة ،نؤتِهِ منها ، وكذلك نجزي الشاكرينَ ﴾ (٣: ١٤٥) ، فيوسف نبيٌّ ، ولكن لم يكن على منهج إدريس وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ونحوهم ممن كان نبياً محضاً، بل كان على منهج إبراهيم وموسى وداودوسليمان ونحوهم . ممن هو نبيٌّ وأميروملك ذو سلطة وبأس ، ومعلوم ان الحالة التي كانت بين يوسف وبين إخوته ، كانت حالة حرب ، لا حالة سلم و « الحرب خدعة » كما في الحديث الشريف ، وقد كان له على إخوته تِرَةٌ ، فأراد أن يثأر لنفسه منهم ، لأنه كره أن يذل نفسه ، فيجترأ عليه ، فاختار الاقتصاص لنفسه ، ردعاً للتعدي ثانياً ، وهذه طريقة محمودة لمن أرادها ، قال تعالى : ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ ، هم يَنْتَصِرونَ ﴾ (٤٢ : ٣٩) وان كانت طريقة الغفران أفضل ، كما قال تعالى في نفس هذه الآية: ﴿ فَمَنْ عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على اللهِ ﴾ ، لكن الغفران له أهله، كما أنالقصاص له أهله ، فتبين من هذا أن كيد الله ليوسف من مناوئيه ــ حيث اختاره لنفسه أو ث اقتضاه الحال ــ نعمة يمتن بها عليه ، فلهذا قال · « كذلك كدنا ليوسف » .

لِمَ لم يسرق يوسف احد اخوته غير بنيامين

فان قال قائل : كان الأصرح في الكيد أن يسرّق يوسف أحد اخوتهالعشرة بني العلاّت خصوصاً « شمعون » ، فهو أفعل من تسريق شقيقه بنيامين ، وأشد بأساً وأشد تنكيلاً ، فلم عدل عن ذلك وسرّق شقيقه المخلص له في الحب ؟ قلنا ليس مقصد يوسف مما عمل إذلال إخوته والكيد لهم فقط ، بل كان هذا حاصلاً ثانياً وبالعرض ، إنما كان مقصوده اولاً بالذات أخذ شقيقه عنده ، فان قال آخر : لماذا كان تسريق بنيامين كيداً ليوسف وانتصاراً على إخوته ؟

فالجواب هو لأنهم كانوا في البدء سعوا بكل جهدهم في سفر بنيامين معهم ، ولما امتنع أبوهم شوقوه ورغبوه ، ولكنه لم ينزل على مرغوبهم إلاّ بعد أن أخذ

عليهم الأيمان المحرجة والعهود المغلظة ، ولهذا كان أخذ بنيامين منهم فشلاً عظيماً لهم، وخيبة مخجلة أمام أبيهم ، فهذا وجه اعتبار ذلك انتصاراً لأخيهم يوسف عليهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد رشيد الرصافي[1] لي على هذه الآية الملحوظات والتعليقات التالية :

يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم

الملحوظة الأولى — تعلمون أيها السادة الأفاضل أن يوسف عليه السلام وإن كان قد صار « عزيزاً » بمصر ، وصار « وزير ماليتها » ووكيلاً عن مليكها الريان ، فهو رغماً عن ذلك كله ، كان لا يزال ضعيفاً أمام إخوته العشرة ، يخاف شرهم ، ويخشى بأسهم ، لأنه مقروض بمخالبهم سابقاً ، ومعضوض بأنيابهم ، فهو كما تقول العامة من الناس « مضبوع » ولذلك احتاج في وصوله لغرضه أن يحتال عليهم بالحسنى ، فقدّر الشقاء عليهم وهم لا يعلمون ، وأرصد لهم الانتقام من حيث لا يشعرون ، أظهر لهم الرفق واللين ، وهو ينصب لهم مصائد الخدعة ، حيث يقعوا فيها ، حيث هو لا يقدر على التظاهر بالبطش ، ولا المصارحة بالانتقام ، ذلك لكثرتهم وقوتهم وجرأتهم وسرعة تصديق الناس لهم بطعنهم فيه لو أرادوا ، لأنهم إخوته وأقرب الناس اليه وأعرفهم فيه ؛ هذا منخول ما سمعته من بعض معاصريّ والعهدة عليه .

اين جرى تفتيش الاوعية

الملحوظة الثانية — لو قال قائل : هل كان تفتيش الأوعية خارج المدينة في المكان الذى وصل المفتشون الى إخوة يوسف فيه ، أو أن المفتشين انصرفوا بهم

(١) نسبة الى الرصافة احدى المدن العراقية .

إلى يوسف وهناك صار تفتيشهم ؟ قلنا إن المفسرين (ومنهم العلامة الزمخشري مع الأسف) على الرأي الثاني . ولكن الحقيقة ان التفتيش حصل خارج المدينة في المكان الذى وصلوا اليهم فيه والدليل على ذلك ١ً — قوله : « فبدأ » عبر بالفاء ليفيد ما قلنا ٢ً — العقل والعادة ، إذ المعقول والمعتاد انه إذا اتهم جماعة بالسرقة فأدركوا خارج البلد أن لا يكلفوا بالرجوع للبلد لأنهم ينكرون تلك التهمة ويقولون : ها نحن أولاء وهذه رحالنا فتشونا ، فان رأيتم معنا المسروق مضى علينا الحكم الشرعي ، ورجعنا معكم للحاكم ليفعل ما يريد ، وإلا سرنا لحال سبيلنا مع جماعة الممتارين من كنعان .

هذا هو المعقول المعتاد ، وأما ان الجند قالوا لهم:« لا نفتشكم في هذه الطريق، ولكن ارجعوا للحاكم معنا قضكم بقضيضكم حتى نصل الى المدينة وهناك عند الحاكم يصير تفتيشكم » فهذا مخالف للعقل والعادة ، ٣ً — الواقع ، فان التاريخ ينص بصراحة ان التفتيش حصل خارج البلدة ، ٤ً — قولهم فيما سيأتي « واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها »(ع ٨٢)،فهذه « العير » التي استشهدوا بها كانت معهم في الطريق وهم مقبلون من الديار المصرية الى الديار الشامية آيبين الى أبيهم ، وهذه العير هي التي وقفت على هذه الحادثة ورأتها رأي العين ، ويجوز لنا أن نقول أيضاً إن هذه « القرية » كانت دسكرة في الطريق ، وهي التي وقع فيها التفتيش ، وليست هي العاصمة التي كان فيها يوسف ، فقد جرت سنة القرآن الحكيم في هذه السورة الكريمة ، أن لا يعبر عن المحل الذي فيه يوسف « بالقرية » بل تارة « بمصر » كما في سابق قوله تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر » (ع ٢١) ولاحق قوله تعالى : « وقال ادخلوا مصر » (ع ٩٩) ، وتارة بالمدينة كما مر في قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة » (ع ٣٠) ، وكلمة « قرية » لم تطلق في القرآن على مصر المعروفة ولا في موضع واحد ، فنأخذ من مجموع هذا الذي ذكرناه أن

هذه القرية كانت دسكرة في الطريق خارج العاصمة التي فيها يوسف ، فإذا صح ما قلنا يكون معنا أربعة أدلة تؤيد ان التفتيش وقع في دسكرة في الطريق وليس بالعاصمة التي فيها يوسف خلافاً للمفسرين .

تذكير ضمير الصواع وتأنيثه

الملحوظة الثالثة : — ذكر ضمير الصواع مرات باعتبار اسم الصواع ثم أنثه باعتبار أنه يسمى سقاية ، وهكذا في كل شيء له اسمان مذكر ومؤنث ، مثل : خوان ومائدة ، قتال وحرب ، رمح وقناة ، سنان الرمح وعاليته ، والخ .

كيف جاز ليوسف ان يعمل هذه الحيلة على اخوته

الملحوظة الرابعة — ان قال قائل: كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة، وهي كذب حنبريت ، وفيها إهانة لإخوته ، وكسر خاطر لهم ، وإلحاق عار ، بدون تسبب منهم ؟ وكيف قبل بنيامين هذه الاهانة ، وقبل أن يظهر بمظهر مارق في نظر اخوته ونظر عبيد يوسف ، ثم في نظر أبيه وأولاده ، وأولاد اخوته متى بلغهم الخبر ؟ وبالتالي كيف جاز ليوسف أن يدخل على أبيه هذا الحزن والقلق بسبب هذا الحادث المصنوع ؟!؟!..

فجوابنا عن هذه الأسئلة أن يوسف عليه السلام فعل ذلك بحسب الرأي وما تقتضيه المصلحة ، وتوضيح ذلك يحتاج الى بسط في الكلام ، واليكم البيان :

الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة

تعلمون أن مصدر كل شريعة الكتاب وأقوال الرسل وفتاواهم ، وهناك أصل ثالث وهو الرأي واتباع المصلحة ، وهو كما فسره « ابن القيم » مايراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أظهر الصحابة في هذا النوع وهو استعمال الرأي فقد روي عنه الشيء الكثير ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه ، وهو أقرب شيء الى مايعبر عنه اليوم بروح القانون لابحرفيته . ونذكر من هذا القبيل أمثلة منها : قال الله تعالى : ﴿ إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم .. الخ الآية ﴾ (٩ : ١٦) فالآية جعلت المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام ، كما أعطى جماعة منهم « عيينة بن حصن » و « الاقرع بن حابس » ، ثم فى زمن أبي بكر رضي الله عنه جاء عيينة والاقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال : (إن الله أعز الاسلام ، وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه ، وإلاّ فبيننا وبينكم السيف ؟!) ، فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعلة هي المصلحة ، فلما ارتفعت هذه العلة بعزة الاسلام وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم . كذلك روي أن عمر رضي الله عنه لم يقطع يد السارق فى عام المجاعة ، ويوجد من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، وأشهر من سار على طريقة عمر تلميذه عبد الله بن مسعود في العراق . وعلم أهل العراق ابتدىء بابن مسعود وختم بأبي حنيفة ثم بأبي يوسف ، ولذلك اشتهرت العراق « بالرأي » ، حتى صار اذا قيل « عراقي » فمعناه صاحب « رأي » كما بمقابلته اذا قيل « حجازي » فمعناه تابع « نصوص » .

وأما التعليقات التي لنا على هذه الآية فهي :

علم الله فوق كل علم في الكيف والكم

التعليق الأول — على قوله (وفوق كل ذي علمٍ عليمٍ) أي فوق كيفِ مايعلمه ، وفوقه في كمّ مايعلمه ، فكل ذي علم ، لو علم الشيء علماً مبهماً مجملاً ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلمه موضحاً مفصلاً ، وكل ذي علم ، لو علم بشيء دون

شيء ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا هو الفرق بين علم المخلوقين وعلم الخالق ، فمثلاً : الانسان يعلم أنه يوجد غداً شمس ، ولكنه لا يعلم درجة حرارتها وإضاءتها ، والانسان يعلم أشياء كثيرة ، ولكنه مثلاً لا يعلم في أي وقت تقوم القيامة ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونَك عن الساعةِ أيّانَ مُرْساها ؟ فيمَ أنتَ مِنْ ذِكراها ؟ الى ربِّك مُنتهاها ، إنما أنت مُنذِرُ مَنْ يخشاها ﴾ (٧٩ : ٤٢ – ٤٥) ، وكما نقل عن السيد المسيح عليه السلام : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بهما احد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلاّ الآب) (مر ١٣ : ٣٢) .

علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل اليه الانسان

التعليق الثاني — يقول تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولا يزال العلم آخذاً في الترقي ولا يزال الانسان آخذاً في التقدم ، ولا سيما في هذه الأيام ، فالانسان اليوم بلغ الثريا بمعارفه ، واكتشف الكواكب بعقله وعلمه ، وقاس الارض شبراً شبراً بحسابه ، وغاص البحار وطار في الهواء ، وابتنى القصور فوق الماء ، واكتشف الكهرباء واستخدم البخار . واخترع البرق والهاتف وأتى بالمعجزات العلمية كالحاكي والسماعة ، والراديو والنظارات المكبرة وموازين الارتفاع والانخفاض والحرارة والبرودة ، وأشعة رونكن ، وقدر الانسان أن يعرف بعلمه وذكائه أسرار الطبيعة وقوانينها ونواميسها وتحويلاتها واختلاف عناصرها ، ثم عرف مصدر الأرض وتركيبها وما تحتويه ، وعرف مصدر الماء وتركيبه ، ومصدر الهواء وتركيبه ، وعرف أن الغمام هو مصدر الأمطار ، وأن احتكاك الغيوم ببعضها هو مصدر الرعد والبرق ، وأن الشمس هي مبعث الحياة للأرض وسكانها ، وقدر البعد الشاسع الذي بينها وبين الكواكب والارض ، وفهم أن

هذا الكون سائر بدقة ونظام تام ، وفهم أن مبدع هذه الاشياء هو خالق عظيم ، ورب قدير ، هذا بعض ماأدركه الانسان بعقله وعلمه ، وما هو ياترى هذا الانسان ؟ هو ذرة صغيرة في هذا العالم الواسع ، هو جرثوم ضئيل بين مخلوقات الله العظيمة ، هو لاشيء وكل شيء في آن واحد ، هو جزء من جزء وفي ذات الوقت هو الكل في الكل ، فسبحان المبدع القدير ، والخلاق العظيم .

كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه

التعليق الثالث — هذه الحيلة التي اجراها يوسف ، وان كان يقصد منها أولاً وبالذات أخذ بنيامين ، ويقصد منها ثانياً وبالعرض إيقاع إخوته في مشكل ، لكننا لا نقدر أن نجهل أن بنيامين كان من جملة ضحايا هذه الحيلة ، بل هي ماصبت إلا فوق رأسه بالأكثر ، ولكن لما كان ذلك كله بحسب الظاهر ، ولما كان سيظهر للناس أن بنيامين بريء ، ولما كانت العبرة بالعواقب ، ولما كانت النتيجة تبرر الواسطة رضي بها بنيامين كفدائي ، حتى يرضى أخوه .

ماهية الكيد في هذه الحادثة وانواعه

التعليق الرابع — على قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ ، في مقابلة كيدهم ليوسف ، كادهم الله تعالى له ، والله يكيد من يكيده ، ويكيد من يكيد مظاهر أمره ، من أنبيائه ورسله ، ومصدر الكيد الرباني في هذه الحادثة هو نفس المكيد له وهو يوسف ، والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الخالق التدبير بالحق .

فقوله كدنا ليوسف هو على حد ﴿ ومَكَروا ومَكَرَ اللهُ ، واللهُ خير الماكرين ﴾ (٣ ٥٤)، ﴿ ومَكَروا مَكْراً ومَكَرنا مَكْراً وهم لا يشعرون ﴾ (٢٧: ٥٠) ومعلوم أن الأنبياء هم مظاهر أمر الله ، والأمراء هم مظاهر انتقام الله ، ولما كان يوسف مع نبوته معدوداً من الأمراء ، ظهر لاخوته بمظهر اسم « المنتقم»

فكادهم كما كادوه ، وجزاء المعصية قـــد يتجزأ فيكون بعضه معجلاً في الدنيا ، وبعضه مؤجلاً الآخرة ، فما كان مؤجلاً للآخرة فهو موكول الى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقب عليه ، وأما ما كان معجلاً في الدنيا ، فهو مرتب على المعصية ، ترتب المسبب على السبب ، أو المعلول على العلة ، ترتباً طبيعياً لايمكن أن يتأخر عنه ، فضلاً عن أنه يمكن عدمه ، وأقل ذلك الجزاء الدنيوي مايحصل لفاعل الجرم من توبيخ الضمير ، وتأنيب النفس اللوامة ، ومايدخـــل عليه من الحزن وانكسار النفس ، ومايحوم حول ذلك من سوء السمعة وسقوط المجرم من أعين الناس ، وهوانه عليهم .

وقد وقع الكيد في هذه السورة اليوسفية ١ً — منسوباً لاخوة يوسف ، بناء عن وسوسة شيطانية ﴿ فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عـدو مبين ﴾ (ع٥) ، وعليه فهذا الكيد في الحقيقة من الشيطان ، ونظيره في نسبة الكيد للشيطان مافي قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياءَ الشيطان ، إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً ﴾(٤:٧٥)، ٢ً — منسوباً للنسوة اللاتي تقع من بعضهن الحيل الشائنة ، وذلك في مثل قوله :﴿ إنـــه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم ﴾ (ع٢٨) ٣ً — منسوباً للخائنين ، وذلك كما في : ﴿ وإنّ اللهَ لايَهدِي كيدَ الخائنين ﴾ (ع ٥٢)، والكيد في هـــذه المواضع الثلاث مذموم ٤ً — منسوباً لله تعالى ، وذلك في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (ع٧٦) ، وهذا الكيد ممدوح ،لأنه بسبب تعديهم القديم على أخيهم ، فهو من قبيل اقتصاص ومجازاة من الله على مافرط منهم سابقاً ، ومما نسب فيه الكيد لله ، قوله تعالى ﴿ إنّهم يَكيدون كَيْداً ، وأكيدُ كيداً ﴾(٨٦:١٥)، وقوله تعالى ﴿ وأُملي لهم إنّ كَيدي متينٌ ﴾ (٧:١٨٢) وهـــذا الكيد أيضاً ممدوح ، لأنه واقع من الله على الكافرين بسبب كفرهم .

معاني الدين

التعليق الخامس — على قوله تعالى ﴿ دين الملك ﴾ : يطلق الدين على معان، منها :
أولاً — بمعنى الأحكام القضائية أو الجزائية ، كهذه الآية .

ثانياً — الدين بمعنى الشريعة الفروعية ، ومن هذا القبيل كلمة الدين الثانية في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدَّمُ ولحمُ الخنزير ، وما أكلَ السَّبُعُ إلاَّ ماذكيتم ،وما ذبحَ على النصبِ ، وأن تستقسموا بالأزلامِ ذلكم فسْق ، اليومْ يئسَ الذين كفروا منْ دينكمْ ، فلا تخشوهم واخشونِ ، اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الاسلامَ ديناً ، فمنْ اضطُرَّ في مخمصةٍ ، غيرَ متجانفٍ لإثمٍ ، فانَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٥:٤) ، وقوله تعالى : ﴿ أمْ لهم شُركاءُ ، شرعوا لهم مِنَ الدّينِ مالم يأذنْ به اللهُ ؟ ﴾ (٤٢:٢١).

ثالثاً — الدين بمعنى مايشمل العقيدة والشريعة ، فمن ذلك مافي قوله تعالى : ﴿ ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾(٥:٤) وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الدينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (٣:١٩) وقوله تعالى : ﴿ ديناً قيماً ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾ (٦.١٦٢) . وقوله تعالى : ﴿ وماجعلَ عليكم فى الدينِ من حرجٍ ، ملةَ أبيكم إبراهيمَ ﴾ (٢٢:٧٨).

وبهذا علم أن الدين قد يطلق على العقائد وأحكام الشريعة ، من معاملات وعقوبات وغيرها ، وأما تخصيص « الدين » بالعقيدة ، وتخصيص الشريعة بالأحكام القضائية والجزائية ، فهو اصطلاح مستحدث ، جرى عليه علماء أوربا ، وشايعه عليه كثير من علماء أهل اليوم في الشرق.

رابعاً — الدين بمعنى الأصول العبادية أو حصر العبادة في الله ، فمن ذلك قوله

تعالى : ﴿ إن الحكمُ الا للهِ ، أمرَ أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدينُ القيمُ ﴾ (١٢ : ٤٠) وقوله تعالى : ﴿ وما أُمِروا إلا ليعبُدوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ حُنفاءَ ، ويُقيموا الصلاةَ ، ويؤتوا الزكاةَ ، وذلك دينُ القيِّمة ﴾ (٩٨ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كلِ مسجدٍ ، وادعُوه مخلصينَ له الدينَ ﴾ (٧ : ٢٨).

خامساً — الدين بمعنى العقائد فقط ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون يُقاتِلونكم حتى يردوكم عن دينكم ، إنْ استطاعوا ، ومَن يرتدِدْ منكم عن دينهِ فيمُتْ وهوَ كافرٌ ، فأولئكَ حبِطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ ، وأولئكَ أصحابُ النارِ ، هم فيها خالدونَ ﴾ (٢ : ٢١٧) وقوله تعالى : ﴿ ياأهل الكتابِ ، لا تغلُوا في دِينكمْ ، ولا تقولوا على اللهِ الا الحقَ ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولَ اللهِ ، وكلمتُهُ ألقاها الى مريمَ ، وروحٌ منه ، فآمنُوا باللهِ ورُسُلهِ ، ولا تقولوا « ثلاثةٌ » انتهُوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ ﴾ (٤ : ١٧٠)، وقوله تعالى : ﴿ قلْ أتُعلِّمونَ اللهَ بدينكم ؟ واللهُ يعلمُ مافي السمواتِ ومافي الأرضِ ، واللهُ بكل شيءٍ عليم ﴾ (٤٩ : ١٦).

جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم

التعليق السادس — كان الملك « الريان » في زمن يوسف وثنياً ، وكانت شريعته أرضية لاسماوية ، وأما يوسف عليه السلام ، فهو وان كان وزير مالية وعزيزاً بمصر ، فلم يكن له دخل في محاكم مصر الجزائية ، ولا المحاكم القضائية ، وهو في غير حادثة إخوته ، لم نعلم له مداخلة في حكم جزائي ولاقضائي ، ومع ذلك فهو لما تداخل في هذه الحادثة ، اجتهد أن يكون الحكم بحسب شريعة جده إبراهيم عليه السلام.

الدرجات وانواعها واطلاقها

التعليق السابع — على قوله ﴿نرفعُ درجاتٍ منْ نشاءُ﴾ فالدرجات في الأصل هي مراقي السلم ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق ، فالعلم بشريعة إبراهيم درجة ، والعلم بشريعة المصريين درجة ، والعلم بالرأي والمصلحة درجة ، وسياسة القوم حتى يصل من يسوسهم الى مطلوبه منهم درجة ، والسيادة والحكم بالحق درجة ، والنبوة درجة ، وايتاء الانسان شيئاً من الملك درجة ، وتعليمه تأويل الأحاديث درجة ، الى غير ذلك مما أنعم الله به على يوسف ، « والدرجات » المقصودة هنا هي في العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿وتلكَ حجتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ ، إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ (٨٣:٦) وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم : « تفسّحوا في المجالس » فافسَحُوا ، يفسَحِ اللهُ لكم ، واذا قيلَ « انشُزُوا » فانشُزُوا ، يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ﴾ (١١:٥٨).

وقد تكون « الدرجات » في الولاية العامة والخاصة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ولهُنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروفِ ، وللرجالِ عليهنَّ درجة﴾ (٢٢٨:٢).

وقد تكون « الدرجات » في الثواب والمنازل بحسب درجات الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿لا يَستوي القاعدونَ من المؤمنينَ — غير أُولي الضررَ — والمجاهدون فى سبيل اللهِ بأموالهمْ وأنفسِهمْ ، فضلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفسِهمْ على القاعدينَ درجةً ، وكُلاً وَعدَ اللهُ الحُسنى وفضّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً ، دَرَجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً﴾ (٤:٩٤و٩٥) ، وقد تكون « الدرجات » في الدنيا ، كما في قوله

تعالى : ﴿ وهو الذي جَعلكمْ خلائفَ في الأرضِ ورَفعَ بعضَكمُ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، ليَبْلوَكمْ فيما أتاكمُ ﴾ (٦:١٦٧).

وقد تكون « الدرجات » في الدنيا والآخرة معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كيفَ فَضّلنا بعضَهم على بعضٍ ، وللاخرةُ أكبرُ درجاتٍ ، وأكبرُ تفضيلاً ﴾ (١٧ : ٢١) .

ويقال في الصعود « درجات » وفي النزول « دركات » لا فرق في ذلك بين الصعود والنزول الحسيين والمعنويين ، قال تعالى : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) وقال : ﴿ وَرَفعَ بعضَهمْ درجاتٍ ﴾ (٢ : ٢٥٣) وقال تعالى : ﴿ إنّ المنافقينَ في الدّرْكِ الاسفلِ منَ النارِ » (٤ : ٤٥) :

وقد تكون « الدرجات » متفاوتة جد المغاوتة ، كدرجات الحرارة في مقياسها ، إذ ما كل درجة فيه يغلي بها الماء ، ولا كل درجة فيه ، يتبخر فيصعد بخاراً ؛ وكدرجات الامتحان في المدارس ، أو الأعمال في الحكومة ، لاينال الفوز فيها إلا بالدرجات العليا ، المحدد أدناها وأعلاها بالحكمة .

ومقابل رفع الدرجات نزولها ، فهوقد يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، كنزولدرجات الرطوبة في مقياسها ، ونزول حرارة الجو ، ونزول حرارة الماء ، إذ ما كل درجة فينزول حرارة الجو يسببنزول المطر ،ولا كل نزول درجة حرارة الماء يكون بها جليداً .

رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ماوهبه لهم من الاختيار والاستقلال

وبناء على ما تقدم فقوله تعالى : ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء ﴾ أي نرفع من

شئنا من عبادنا درجات ، وهـــذا لا ينافي ماوهبه الله للانسان من الاختيار والاستقلال ، فإن الله خلق الإنسان وأعطاه نوعاً من الاستقلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه ، وما تكون التربيـة والعادة في نفسه من الصفات ، وبذلك يكون مصدراً لسعادتها أو لشقائها بعمله ، وهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء باعداده وبتوفيقه من يشاء للكسبي منها ، واختصاصه من يشاء بالوهبي منها، ثم هو يرفع درجات من يؤتيهم ذلك ، بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية الى ماترتقي به درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، وبايتاء ذي الدرجة الوهبية كالنبوة مالم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات :

— وجملة « نرفع » استئنافية مبينة أن ما آتى الله يوسف من أخـذه أخاه ، كان باختصاصه أعلى درجات معرفة الشرائع واتقانه حسن التوصل للمطلوب — .

وأخيراً أختم كلامي بكلمتين :

الكلمة الأولى — سوغ يوسف لنفسه أن يعمل هذا العمل مع اخوته العشرة وأخيه بنيامين توصلا لسهولة مجيء أبيه والعائلة جميعاً لمصر ، فالعمل الذي كان أجراه مع إخوته في سفرتهم الأولى كان هو « النواة » ثم هذا العمل الحاضر الذي أجراه معهم ومع أخيه كان هو « شجرة » ، ثم مجيء أبيه والأهل أجمعين لمصر كان هو « الثمرة » .

الكلمة الثانية — بعد ختام هذا العمل واحتظاء يوسف ببنيامين ، لكأني به التفت الى أخيه وقال :

ياأخي الحامـل ضيمي	دون إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي	فلقـد سـرك يومي
فاعتفر ذاك لهــذا	واطرح شكري ولومي

فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه . . الخ

— ٤ —

ثم قام السيد الهمام الغزي وقال :

جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لاخوته في الدنيا كان موحى به من الله تعالى

أيها السادة :

كنت تأملت برهة في هـــذا العمل الذي دبره سيدنا يوسف لإخوته ، ولم ألبث أن رأيت مقالة منقولة عن الجاحظ ، فبها شفي غليلي ، ومنها تعلمت الجواب عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، قال تحت عنوان « سياسة الحزم » :

« من لم يعمل بإقامة جزآء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الاحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الاعطاء — خالف الرب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ، وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌ منه من كان شره صرفاً ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فان الناس لايهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب . والإطماع والاخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك ، دخل عليه بحسب ماعرف منه ، فخير الخير ، ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على

أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر — عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً — وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع ، وفيما هو أدوم ، ومن الانقطاع أبعد » آه ،

هذا هو كلام الجاحظ ، ومنه نتعلم الجواب عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومنه نعلم أن قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أن هذا الكيد الذي نسبه المولى لنفسه ، قد يكون جرى عليه يوسف بوحي الطبيعة ، لأن الله تعالى كتب مايلزم عمله من الأدبيات على ضمائر انبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد يكون جرى عليه يوسف بوحي الشريعة ، فيكون ماأجراه يوسف عقاباً لاخوته في الدنيا موحى به من الله تعالى وحي شريعة ، فلهذا نسب تعالى ذلك « الكيد » لذاته جل جلاله . أحسنت

الطعن بيوسف وشقيقه

ا (٧٧) ﴿ ... قالوا « إنْ يَسْرِقْ ... فقد سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ » فأسَرَّها يُوسفُ في نفْسِهِ ، ولمْ يُبْدِهَا لهُمْ ، قالَ : « أنتمْ شرٌّ مكاناً ، واللهُ أعلَمُ بما تَصِفُونَ » ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة وسبعون فقام السيد العاملي وقال :

لما رجع اخوة يوسف ، وصاروا بين يديه في بيته ، (قالوا) متملصين من بنيامين ﴿ إنْ يسرقْ ﴾ هذا الفتى الغرّ ، فلا عجب ، ﴿ فقد سَرَقَ ﴾ سابقاً ﴿ أخ له من قبل ﴾ ويعنون به يوسف ، —وقد اختلف فيما أضافوا له من السرقة ،

فقيل : (كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه فكسره) ، وقيل : (أخـذ تمثالاً صغيراً من ذهب فدفنه) ، وكل ذلك لم يكن ـ (فـ) لمّا سمع يوسف هذه التهمة تأثر كثيراً ، وجرى الدم اليعقوبي في عروقه ، ووقف شعر رأسه ، ولكنه كظم غيظه ، وصبر ، وقال كلمة لم تتجاوز شفتيه بحيث (أسرهـا يوسف في نفسه) ، شفى بها بعض غليله ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ ، بل جعلها بينه وبين ضميره ، ـ وهـذا إضمار على شريطة التفسير ، وتفسيره قوله : ﴿ أنتم شرٌّ مكاناً ﴾ ، وقد جاء التعبير في قوله « أسرها » وفي قوله « لم يبدها » ، بصيغة المؤنث لأن قوله (أنتم شر مكاناً) هي جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى قال في نفسه : أنتم شر مكاناً ، وهذه الجملة بدل من أسرها ، فمع انهم وقعوا فيه ، ونالوا منه ونطقوا بهذه الجملة القاسية ، لم يصارحهم ولم يبـد لهم كلمة ما في مقابلتها ، بل طوى غيظه عنهم ، وأكنّ الحزازة الحاصلة مما قالوا ، ولكنه لشفاء غليله نوعاً ، (قال) في ضميره (أنتم شر مكاناً) أي أنتم أضرّ منزلة في السّرَق ، أو أنتم الذين خلقتم هذا الضيق وهذا الموقف الحرج ، من نفسكم لنفسكم (والله) عز وجل ﴿ أعلم بما تصفون ﴾ من تسريق أخي وتسريقي ، كذباً وزوراً . (قالون)

(قالوا : إن يسرق فقد سرق .. الخ)

— ٢ —

وقال وليّ الدين الشهرستاني[1] :

اتهام يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة

رأت اخوة يوسف أنه قد وضعت السلسلة في رقابهم وانتهى الأمر ، وكان ذلك بسبب « بنيامين » ، فلجؤوا الى شفاء بعض غليلهم بالطعن فيـه وفي شقيقه

(١) نسبة الى شهرستان في البلاد الايرانية .

يوسف ، فقالوا : (إن بنيامين يتلو تلو شقيقه ، ويَستَنّ بسنته ، فهو أشبه بأخيه ، من الغراب بالغراب ، فهما قد قدا من أديم واحد ، وشقا من نبعة واحدة ، هو قد أخذ هذا الدرس من أخيه قبلاً ، فأراد اليوم أن يجرب هل يلحق شأو أخيه ؟ فيابئس الخلف ، لبئس السلف ، وإنّا براء منها ومن عملها) .

واختلف فيما أضافوا الى يوسف من السرقة ، والصحيح عندي أنها أيقونة ذهبية من أيقونات الترافيم ، وذلك أن يعقوب لما قام من وجه حميه وخاله (لابان) الذي كان ساكناً فيما بين النهرين ، وأخذ معه زوجتيه ليئة وراحيل ، كانت راحيل أخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بأبيها « لابان » فافتقده أبوها لابان ، وفتش فلم يجده معها ولا مع غيرها ، لأنها كانت خبأته في كور الجمل الذي كانت راكبة عليه (تك ٣١ : ٣٥) ، ثم لما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين ، كانت تلك الايقونة أي الصورة الصغيرة في يد يوسف يلعب بها ، لأنها تشبه مايسمى « بلعبة الصبيان » فقيل إنه سرقها من بيت جده لأمه ، فهم تذكروا هذه الحادثة ، وذكريات الصبا عميقة الأثر في النفوس ، فلذلك ذكروا ماذكروا ، ولكن الحقيقة والحال ، أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، على أن سن يوسف في ذلك الوقت نحو عشر سنين ، ولكن سن بنيامين حين وقوع هذه الحادثة الحاضرة كان نحو ثلاثين سنة ، فأيّ شاهد قدموا ؟ وعلى أيّ قياس قاسوا ؟

رأى اخوة يوسف ماحدث ، فانتشر عليهم رأيهم ، وضاع صوابهم ولم يعرفوا ماذا يقولون ؟ ولا ماذا يهون عليهم هذا المصاب . ولا ماهو الشيء الذي يضعف الصلة ـ نوعاً ما ـ بينهم وبين بنيامين ، فتصوروا أنه من غير أمهم ، فنفضوا منه أيديهم ، نفض المودع يده من تراب الميت ، فقالوا : إن يسرق بنيامين فلا غرابة ، فقد سرق أخوه يوسف الفقيد من قبله ، فهما شقيقان ، ورضيعا لبان ، فالدم

واحد ، والعواطف واحدة ، وقد نتقتها أم واحدة ، والنفس التي كانت بين جنبي يوسف ، هي اليوم بين جنبي بنيامين ، وإن اختلفت المظاهر .

وأما يوسف فلما سمع قالتهم لم يطلق لنفسه العنان في الرد عليهم علناً ، بل أغض على القذى ، وتجرع كأس الضيم ، وكظم الغيظ ، وأبدى من الحلم ما يصغر عنده حلم « معن » بن زائدة ، و « قيس » بن عاصم ، و « الوليد » بن عتبة ، و « معاوية» ابن أبي سفيان ، غايته أنه أضمر في نفسه كلمة واحدة ، هي قوله : (أنتم شر مكاناً) قالها بينه وبين ضميره ، ولم يبدها لهم بحيث يسمعونها ، وإنما لم يقل (فقال أو قال) لأنه جواب لسؤال اقتضاه الحال ، كأنه قيل : ما الكلمة التي أسرها في نفسه ؟ فقيل : . قال أنتم شر مكاناً .. الخ أو لأن هذه الجملة تفسير للضمير في قوله « أسرها » ووقوع الجملة تفسيراً ، كثير في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

١ — مافي ﴿ قالَ إنَّهُ يقولُ : إنَّها بقرةٌ لاذَلولٌ (تُثير الأرضَ) ، ولا تَسقي الحَرْثَ ، مُسَلَّمةٌ (لا شِيَةَ فيها) ﴾ (٢ : ٧١) فقوله (تُثيرُ الأرضَ) تفسير لقوله (ذلول) ، وقوله (لاشية فيها) تفسير لقوله (مسلمة) ولهذا فُصِل ولم يُعطف .

٢ — مافي ﴿ وقال نبيُّهم إنَّ آيةَ مُلكِهِ أن يأتيكم التابوتُ ، فيه سكينةٌ من رَبِّكم ، وبقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآل هرون (تحمِلُهُ الملائكةُ) ﴾ (٢ : ٢٤٨) ، فقوله (تحمله الملائكة) تفسير لقوله (أن يأتيكم التابوت) .

٣ — مافي ﴿ كدأبِ آلِ فرعونَ والذين من قبلِهم (كذَّبوا بآياتنا) ، فأخَذَهم اللهُ بذنوبهم ، واللهُ شديدُ العِقاب ﴾ (٣ : ١١) ، فقوله (كذبوا بآياتنا) تفسير لقوله (دأب) ، ولذلك لم يعطفه .

٤ — مافي ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أخرِجَت للناسِ ، (تأمرونَ بالمعروفِ

وتنهَوْن عن المُنكرِ ، وتؤمنونَ بالله) ﴾ (٣ : ١١٠) فقوله (تأمرون..الخ) تفسير لقوله (خير) .

٥ً — ما في ﴿ يُخفُون في أنفُسِهم مالا يُبدونَ لك ، (يقولون : لو كان لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلنا ههنا) ﴾ (٣ : ١٥٤) ، فقوله (يقولون .. الخ) تفسير لقوله (يخفون .. الخ) ولهذا فصله ولم يعطفه ، الى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله تعالى .

وكلمة « شَرٌ » أفعل تفضيل ، وليس هو هنا على بابه ، نظير ﴿ قال : يا قومِ هؤلاءِ بناتي ، هُنّ أطهرُ لكم ﴾ (١١ : ٧٨) ، فإنه لا طهارةَ في اللوط بهم البتة .

ثم لكأنك بيوسف قد قال في نفسه : « والله إنكم لم تقولوا صدقاً، ولا ذكرتم أمراً واقعاً ، والله إني أقدر الآن أن أكذبكم وأفقأ في عيونكم الحصرم ، فانكم تلصقون بي ما لا علم لي به، ولا وثيقة بيدكم تبرهنه، ولكن ليس هذا وقت الجدل، ولا هو وقت إظهار نفسي لكم » .

والآن ننهي قولنا بالتعليقات الآتية :

اعراض يوسف عن اللغو

١ً — تعليقاً على قوله « فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم » لأن يوسف عليه السلام كان ممن إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ؛

شتم « هشام » بن عبد الملك رجلاً من أشراف الناس ، فقال له : « أما تستحي تسبني وأنت خليفة ؟ » — فقال هشام : « اقتص مني » — قال : « لا أريد أن أكون سفيهاً » — قال : « تعوض مني بمال » — قال : « ما كنت لأبيع شرفي

بالدرهم والدينار » — قال : « اجعلها لله » — قال : « هي لله ولك » ، فخجل هشام ونكّس رأسه ، وعاهد الله على انه لا يشتم أحداً بعدها أبداً (١) .

تذكر الاخوة ليوسف بالسوء

٢ — تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » لم يكتفوا بما كانوا اصبوه من المصائب على رأس أخيهم المظلوم يوسف ، حتى وثبوا عليه الآن ، ووصموه في هذه المرة بجريرة السرقة ؛

وا أسفاه ! تذكروه في غيابه بالسوء ، بدلاً من أن يتذكروه بالشوق لمرآه ، والحزن على بعد عهدهم به ، والندم على ما فرط منهم في شأنه ، ولعمرُ الحق إن هذا الشيء لا يكون إلا ممن جفّت طباعهم ، وسقمت ضمائرهم ، والأمر لله ؛ وهذه المسبة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة إغاظاتهم ليوسف ، وأما الحلقة الأولى فهي صدهم إياه وهو في حضن أبيه في فلسطين ، وأما واسطة عقد هذه السلسلة ، فهي إلقاؤهم له في غيابة الجب .

ظن الاخوة بان بنيامين بريء من السرقة

٣ — تعليقاً على قولهم « إن يسرق » إنما عبروا « بإنْ » التي تقتضي مرجوحية مدخولها ، لأنهم كانوا يغلب على ظنهم انّ « بنيامين » كان بريئاً من أخذ الطاس ، لأنهم رأوا أن الحاكم قد أكرمه كثيراً ، وكان قبله طلبه ، فلا بـد من أنهم استنتجوا من ذلك أن الحاكم أتى ذلك رغبة في إبقاء بنيامين في خدمته لأمر لم يعلموه (٢) .

ثبات الاخوة على كره يوسف

٤ — تعليقاً على قولهم « أخ له » هـذه الكلمـة تشف عن ثباتهم على كره

(١) محاضرات عصرينا الاستاذ الخضري . (٢) السنن القويم

يوسف ، حتى يوم ما فاهوا بذلك، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم ، والحفيظة ملأت صدورهم !!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف ، وبما عملوه معه ، حتى أردفوا عملهم السيء بالقول السيء ، مخالفين قول بعض الحكماء : « لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه ، فتسد عليه طريق عفوه عنك » ، وأما هو عليه السلام فلم يحفل بطعنهم ، بل هضمه ، قائلاً : « إنه كلام لا يسر ولا يضر ، فلنمر عليه مر الكرام » .

ويمكن أن نقول إنهم أرادوا بقولهم « أخ له » أخاه الذي يمت اليه من طرفين طرف الأبوة وطرف الأمومة ، وأما نحن فلا نمت له إلا من جانب الأبوة فقط ، فاتصالنا به ضعيف ، ومشابهتنا له قليلة ، بخلافه هو ، فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله ، فهو على وتيرته وشاكلته ، خِرّيجُه ، الذي أخذ عنه هذه الثقافة .

اختصار الاخوة الطعن بيوسف

٥ً — تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخٌ له من قبل » ، اختصروا القول في الطعن بيوسف اختصاراً ما كان مأمولاً فيهم ولا مرجواً منهم، وإلا فبغضهم الشديد ليوسف كان يقتضي الإسهاب والبسط في النيل منه ، وكأن السبب في ذلك أمور : ١ً ـ إن المقام ليس مقام الطعن في يوسف ، ولكنه ذكر على وجه الاستطراد ، ٢ً ـ إن يوسف كان قد غاب عنهم مدة طويلة هي نحو ٢٢ سنة ، فربما كانوا متصورين موته ، فلذلك خفت وطأة حقدهم عليه ٣ً ـ المقام مقام « سرقة » لا غير ، فلذلك إنما ذكروا من طعونهم بيوسف « السرقة » فقط ، ٤ً ـ إنهم لم يجدوا في « عزيز مصر » ـ الذي هو بالحقيقة يوسف ـ ميلاً لما يقولون ، ولا ارتياحاً لما يفترون ، فلما أحسوا بذلك لم يسترسلوا في الذم ، ٥ً ـ هم إنما تكلموا فيما بينهم بلغتهم العبرانية ، ففاه بعضهم لبعض بهذه الكلمة ، من قبيل نفثة مصدور يريد أن يروّح نفسه ، وهم

لا يعلمون أن « عزيز مصر » (يوسف) يفهم كلامهم ، ولو كان مرادهم الاعتذار عند عزيز مصر ، لتوسعوا في القول بعض التوسع ، من قبيل التنصل من هذا « الإنسان وأخيه » ، وأن تربيتها وأخلاقها ليستا كتربيتنا وأخلاقنا ، لأنهما ولدا الزوجة المحبوبة « فلذلك ترك أبوهما حبلهما على غاربهما».

اوجه احتمال قوله فأسرها ... الخ

٦ً ــ تعليقاً على قوله « فأسرها . . الخ » عندنا ان هذا القول يحتمل وجوهاً ثلاثة :

الوجه الاول ـ انه أجال ذلك في ضميره فقط، فهذا القول قول نفساني ليس إلا :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

أي أنه تحدث بكلمة لم تتعد النفس والضمير، ولم تتعرف عليها الشفة والسمير، وهذا هو الغاية القصوى في الحشمة والأدب، وفي المثل :« الشاتم من أسمع والضارب من أوجع » .

الوجه الثاني ـ انه رطن باللغة المصرية التي لا تفهمها إخوته .

الوجه الثالث ـ أنه حرك بها شفتيه فقط انتهاجاً لطريقة الخرس ، بحيث لا يفهم كلامه إلا من يعرف طريقة المكالمة بحركات الشفاه .

مثال لحلم يوسف

٧ً ــ وكما أن يوسف عليه السلام قد حلم على إخوته ، فقد وجد في هذه الأمة المحمدية كثير من الحلماء ، واليك مثال من كثير من الأمثلة من هذا القبيل في حلم « معن » بن زائدة :

قدم أعرابي ذات يوم على « معن » بن زائدة يمتحن حلمه ، فلما وقف ببابه قال : أتذكُرُ إذ لحافُك جلدُ شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير ؟

— فقال « معن » « أذكر ذلكولا أنساه » — فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

— قال « معن » « سبحانه وتعالى » — فقال الأعرابي :

فلستُ مُسَلِّماً ماعشت يوماً على « معن » بتسليم الأمير

— قال « معن » : « ياأخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك في الأمير »

— فقال الأعرابي :

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

— قال « معن » : « ياأخا العرب ، إن جاورت فمرحباً بك ، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة » — فقال الأعرابي :

فجد لي يابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسير

— قال « معن » : « أعطوه الف دينار يستعين بها على سفره » ،فأخذهاوقال :

قليل ما أتيت به وإني لأطمع منك بالمال الكثير

— قال « معن » : « اعطوه ألفاً آخر » ، فأخذها وقال :

سألت الله أن يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظير

— فقال « معن » « اعطوه الفاً آخر » فقال الأعرابي : « يا أمير المؤمنين ، ماجئت إلا مختبراً حلمك ، لما بلغني عنه ، فقد جمع الله فيك من الحلم ، مالو قسم على أهل الأرض لكفاهم » — فقال « معن » : « ياغلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ » — قال : « ثلاثة آلاف دينار » — فقال « معن » : « أعطه على نثره مثلها »فأخذها ومضى في طريقه شاكراً .

استعطاف الاخوة

آ (٧٨) ﴿ . . . قالوا : ياأيُّها العَزيزُ ، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ ، إنّا نَراكَ من المحسِنينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة وسبعون فقام الشيخ خالد البيتلحمي وقال :

سكت عن اخوة يوسف الغضب نوعاً ورأوا أنفسهم أنهم صاروا في موقف حرج ، لا بد لهم فيه من الحكمة والتدبير ، والعمل على الخروج منه بلباقة ، فخاطبوا العزيز بنغمة المتوسل المستعطف و (قالوا) بصوت حزين (ياأيها العزيز) ملكت فأسْجِح [1] ، قدرت علينا فارفق بنا ، وتساهل معنا ، ولا تأخذنا بالشدة (إن له) أي لهذا السارق (أباً شيخاً كبيراً) طاعناً في السن ، وقد علمت أنه هو أصغر أولاده ، كما أنك تعلم أن الأب الكبير مهما كان له أولاد ، فان نفسه تكون متعلقة بأصغرهم ، فهو طبعاً يحبه أكثر من غيره ، لأنه ابن شيخوخته (فخذ) أي إنا نتقدم اليك أن تأخذ (أحدنا) أيّ واحد منا أردت ، مستعبداً (مكانه) وكل منا راض بذلك ، (إنا نراك من المحسنين) الينا ، فأتمم إحسانك ، أو من عادتك الإحسان ، فاجر على عادتك .

(١) جرى مجرى المثل ، يضرب لمن قدر على خصمه ، فاراد المبالغة في قهره ، والسجاحة السهولة ، ومنه كلمة « سجاح » .

قالوا : ياأيها العزيز . . الخ

— ٢ —

وقال السيد سعد الدين اليبرودي (١) :

استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه

تذاكر أولاد يعقوب فيما بينهم ، فرأوا أن الأوفق الخضوع لأمر الحكومة والنزول على إرادتها ، قائلين في أنفسهم : وماذا عسى نعمل مع حكومة مصر الجبارة :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهذَم

ثم علموا بسبب ماصار عليهم أنهم قد استهدفوا للوم الشديد من أبيهم ، وأنه سيظن بهم الظنون ، فوطنوا أنفسهم على إبقاء أحدهم بدلاً من بنيامين بدلاًشخصياً فمثلوا بين يدي يوسف ، وهم يتعثرون من الخجالة والهوان وقالوا له : ياعزيز مصر المحترم ، مكرمة أتيناك لها ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها (٢) نحن لانريد عدالة فقط بل رحمة ، والرحمة فوق العدالة وفوق القانون ، وماذاك الا أن لاخينا هذا أباً كبيراً في المقام وفي السن ، قد ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، فإن عمره الآن ١٣٠ سنة ، وقد ذوى عوده ، وخوى عموده ، وضعف نظره ، وتحجرت منه الغضارف ، وضعفت عضلاته ، وبَرَى عظمه ، وقد كان له ابن يحبه ففقده ، وهذا الابن المحبوب المفقود كان من أبيه بمنزلة الشعار ، وقد اتخذ هذا الولد الحاضر من نفسه بمنزلة الدثار ، فاليوم كيف تكون حالة الشيخ الكبير إذا فقد شعاره ودثاره كليهما معاً ؟ ! ؟ ! فإن رأيت أن تهبه لابيه الشيخ فأنت لذلك أهل ، ومع ذلك

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

(٢) اي حزتها وصنعتها .

فليس مجاناً ، ولكنها هبة بثواب ، نخذ أيّ واحد منا مكانه ، وخله يظعن لوالده الشيخ الهرم ، لاسيا وأن أباه أبى أن يرسله معنا ، حتى نؤتيه موثقاً من اللهلنأتينه به ، وقد تعهدنا له بذلك : وأقسمنا بالايمان المُحرّجَة ، وأعطيناهالميثاق الاكيد وإنا نقرأ آية الإحسان على وجهك ، نراك كريم الطبائع ، كثير الصنائع ، أحسنت الينا أولاً وآخراً ، سالفاً وحادثاً ، فافعل معنا ماتبنيه على قديم أياديك ، وسوابق إحساناتك ، أحسن الينا ، أحسن الله اليك ، أسعدنا أسعدك الله ، واتخذها عندنا يداً ، لاننساها لك مدى الدهر ، وأنت إذا كنت لاتريد أن ترحم دموعنا السخينة فارحم ذلك الشيخ الهرم ، ذا المقام العالي في فلسطين وكنعان والعراق ، المشار اليهبالبنان منعموم السكانوالقطان فيما بين البحر الابيضالمتوسط الىنهر الفرات .

وههنا تعليقات :

اى الاخوة قام بالاستعطاف

١ً — يقال إن الذي ناب عن إخوته في الكلام مع العزيز هو « يهوذا » وقد عرض نفسه للعبودية مكان أخيه بنيامين .

طلب الاخوة ترك الجاني واخذ البريء

٢ً — من العجيب أن تخرج كلمة « خذ أحدنا مكانه » من فم هؤلاءالاخوة بعد صدور الفتوى الشرعية منهم ، بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله ، ولم يصدروا الفتوى بأن جزاءه أخذ أخ له لاعلم له بالسرقة ، ولايد له فيها .

ومن العجيب أيضاً أنهم تذرعوا لترك الجاني وأخذ البريء ، بقولهم « انا نراك من المحسنين » ، كأن من احسان المحسن أن يفك الآثم ويسترق العفيف الشريف !!!...

يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على اخذ سارق الصواع

آ (٧٩) ﴿ قالَ : مَعاذَ اللهِ أنْ نأخذَ إلاّ مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عندَه ، إنّا إذاً لَظالمونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة وسبعون فقام الشيخ الجيرودي[1] وقال :

ما كاد يوسف يسمع كلام اخوته الا وقد سفهَ فكرة الاستبدال ، وفيّل رأيهم تفييلاً ، و(قال) بنفس عزيزة وصوت جهوري ، مجيباً لهم جواباً سلبياً ، ما هذا الإبرام ؟!.. وماهذه الشفاعة الملتوية ؟!.. (معاذ الله أن) أي نعوذ بالله معاذاً من أن (نأخذ) نستبدل واحداً بريئاً بواحد آثم ، وقد أضيف المصدر الى المفعول به وحذف لفظ « منْ » (الا من وجدنا متاعنا) سلعتنا ، (عنده) في رحله ، ولم يقل « من سرق » تفادياً من تلويث لسانه بالكذب ، ولبيان مستند الجريمة ، فهو ليس بتصريح بالسرقة ، ولكنه تعريض بها ، وان في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، (إنا إذاً لظالمون) للشريعة ولأنفسنا ولهذا البدل الشخصي عن بنيامين .

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

هذا هو موجز تفسير مفردات هذه الاية ايها السادة واما تفسير الايـة المفصل فكما يلي :

(قال : معاذ الله ... الخ)

— ١ —

رفض يوسف ترك بنيامين او اخذ غيره من الاخوة

كان اخوة يوسف قد عرضوا عليه رجاءهم ، وهم في شيء من القلق ،وضعف الأمل ، كأن قلوبهم حدثتهم بما سيلاقونه من الفشل عند « عزيز مصر » ، لأنهم كانوا يحسون بضعف مستندهم في طلبهم ، أمام قوة الحكم الصارم ، الذي صـدر من ألسنتهم ، فلذلك لما سمع طلبتهم زمهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثـل ناب الليث ، ونآى بجانبه ، وقال قول مصر على مخالفتهم ، مقيم على محاربتهم ، ما هـذا الذي تقولون ؟.. ما هــــذا المركب الخشن الذي تريدون أن تحملونا عليه ؟.. هل يجوز لنا أن نكرم أهل الشقاوة ، ونهين أهل السعادة ؟.. إيهاً[1] ياقوم ، هل يجوز أن نأخذ البريء ونطلق المجرم ؟.. لعمري دون ماتطلبون شرخ القتاد، حاشا لي من أن أقبل هذا الظـــلم الغير جائز ، لاسيما أني أمثل الوطن والتاج ، فاعذروني إذا لم أقبل توسلاتـكم ، أنتم أنفسكم قـد حكمتم بأفواهكم ، إذ قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » ، فهـل قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فأخوه جزاؤه ، كذلك نجزي إخوة الظالـمين » ؟.. كلا .. لم تنطقوا بذلك ، ولا يكاد أن ينطق به عاقل ، وإن هذه الشفاعة منكم ،هي من قبيل : ﴿ ومنْ يشْفعْ شفاعةً سيئةً يكُنْ له كفلٌ منها ﴾ (٤: ٨٥) ، وإن الشفاعة لاتجوز في الحدود ، وإن هذا الاقتراح لا يقبله منكم أحـــد من

---

(١) كلمة استكفاف أي كفوا أو كلمة يراد بها التبعيد والاستغراب .

المتشرعين ، إلا من بلغ من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه الأطفال ، ولاسكان المارستانات ، ولعمري لولا إنكم غرباء نزلاء علينا ، لقرعت لكم العصا وعاملتكم بما تستحقون ، فلاتحرجونا باسترحاماتكم ، فتخرجونا عن شريعة آبائكم ، فظلم الظالم يكون عليه ، والنفس التي تخطىء موتاً تموت ، وكما بالراعي تملك الرعية ، فبالعدل تملك البرية ؛ » وأما ما كان من جهة أبيكم ، فعزيز علي والله أن أشق عليه ، ولكن الضرورة لها أحكام ، والشيء قد وقع ، ولا خيرة في الواقع ،ولكن إذا أتيتموه فأقرئوه السلام ، وقولوا له :« إن عزيز مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ابنك يوسف ، وحتى تعلم أن في أرض مصر صديقين مثله ، هكذا بلغوه عني، وخلاكم ذم »[1] .

وهنا نرى ان موقف يوسف في حالتي استرحامهم وعدمه واحد ، برنامج ثابت، وضعه لأخذ شقيقه ، لن يتغير أو يتبدل ، ولا بد أن يكون جوابه السلبي وقع عليهم كالصاعقة ، فبلبل لأول وهلة خواطرهم ، وجالت في ذهنهم بل جرت كمجرى البرق ، صور كلها سوداء تنذر بالبلاء ، والعياذ بالله تعالى . (قالون)

وأخيراً أنهي كلامي بالمواد التالية :

يوسف بين عاملي فرح وكدر

مادة ١ ـــ كأني بيوسف عليه السلام صار يتردد بين عاملين ، عامل الفرح بحصوله على أخيه وأخذه عنده ، وعامل كدر أبيه متى بلغه ذلك الحادث ، لكنه آثر الجري مع العامل الأول ، توصلاً لتشذيب شكيمة إخوته، وتخضيد شوكتهم، وقد دلت التجارب على أن إظهار شيء من قوة الحاكم أو الآمر كفيل بتقويم شيء من الاعوجاج ، فيوسف أراد بهذه الشدة أن يعمل على تحسين حال إخوته،

(١) جامع البيان .

ثم ان تصوره قرب انكشاف الواقع ودنو مجيء أبيه وأهليه جميعاً اليه ، خفف تأثير العامل الثاني عليه .

لا محاباة في أحكام الشرع

مادة ٢ — يريد بقوله ﴿ معاذ الله .. الخ ﴾ إن الحكم الشرعي الذي لفظتموه عام ، فهو لا ينظر في كون المجرم له اب شيخ كبير ام لا ، ولا فرق فيه بين ولد وولد ، ولا يحتمل شيئاً من المحاباة ومراعاة الوجوه.

لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

مادة ٣ — تعليقاً على قوله : « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » ، فكما انه في الآخرة ﴿ لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢:٤٨) فكذا في الدنيا ، لا نسيغ البدل الشخصي ، ولا نقبل الشفاعة ، التي تعود على العدالة بالنقص والبطلان ، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه ، وليس أحد من عشيرته وذويه ، يقدر أن يخلصه منا قهراً ، لأن فتح هذا الباب يزيد الناس ميلاً الى الشر ، وضراوة بالإثم ، وان تعطيل العدل ، والوقوف في وجه الشرائع والقوانين ان تأخذ مأخذها ، وتنفذ نفاذها — ضار بالأمم ، مفسد للعمران ، ولذلك فحكمتنا في مصر ، لا ترضاه ، بل هي تباهي بأنها لا تروج لديها «المحسوبيات» ، ولا تميل الى « المحاباة » ، وليس فيها متسع « للمداخلات » ، حقاً إن شيئاً من هذا القبيل لهو مما يضر بالأمم ويفسد حالهم ، ويؤخر عمرانهم ، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين .

يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به اخوته

مادة ٤ — ربما ان يوسف لما سمع تعطفهم إياه ، واستنزالهم رحمته وإحسانه ،

وذكرهم شيخوخة أبيه وطعنه في السن ، وانه يحبه لكونه أصغر أولاده — ربما انه لما سمع ذلك حدثته نفسه بإطلاق بنيامين ، وفصم عُرَى التدابير التي كان رتبها ، ولكنه رأى وجوب إمضاء العزيمة ، لأن نقضها ضعف في النفس ، وزلزال في الأخلاق ، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل ، فإذا كان ناقض العزيمة عامل حكومة أو قائد جيش، كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضاً للثقة بحكومته وبجيشه، ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل ، وبعد الفكر والروية ، ولذلك لم يصغ النبي ﷺ الى قول الذين أشاروا عليه بالرجوع عن غزوة أحُد ، بعدما كانوا أشاروا عليه بالخروج إليها ، وبعدما كان قد افتكر فيها ملياً ، وعزم عليها ، ولبس لامته وخرج ، فإنه بذلك صدق عليه انه شرع في العمل بعد الروية ،ويمكن ارجاع ذلك الى قاعدة «ارتكاب أخف الضررين »، وأي ضرر أشد على الحاكم من فسخ عزيمته ، وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة .

تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن

مادة ٥ — كلمة « معاذ الله » لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين ، حكاية عن فم يوسف عليه السلام ، فالمرة الأولى تقدمت عندما قالت له امرأة العزيز ، « هيت لك » فأجابها بقوله : « معاذ الله » ،والمرة الثانية ههنا ، حينما قال له إخوته: (خذ أحدنا مكانه) ، فيوسف أظهر لامرأة العزيز أن هذا الامر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه ، كما أنه هنا أظهر لاخوته ان استبدال بنيامين بغيره ، منكر أيضاً ، لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم .

ظاهر قوله « انا اذاً لظالمون » وباطنه

مادة ٦ — تعليقاً على قوله: «إنا إذاً لظالمون » لأن الجاني هو بنيامين ،فكيف نجازي غيره بجنايته ، قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ﴾ (٢ : ٢٨٦) ، ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت

وهم لا يُظلَمون ﴾ (٢ : ٢٨١) ، ﴿ وأنْ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى ، وأنْ ليسَ للانسانِ إلاّ ماسَعَى ..الخ ﴾ (٥٣ : ٣٨) ، ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفْسٍ إلاّ عليها ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فالقاعدة ان عمل كل انسان له أو عليه ،لا يجزى به سواه ، فطلبكم استبدال المجرم بالبريء لا أقبله ولن أقبله ، ولا يستطيع أحد من علماء الشريعة أو الحقوق ، بل ولا من أحط الجهلة إدراكاً، وأسخفهم ذهناً،وأبعدهم عن الحق ، أن يفتكر هذا الفكر.

هذا بالنظر لظاهر اللفظ ، وأما بالنظر لباطنه فكأني به يقول : (أعوذ بالله ان آخذ إلا شقيقي المحبوب ، الذي كنت بالاشواق الكلية لرؤيته ، والذي عملت هذا الكيد المتسلسل حتى توصلت للحصول عليه ، وإني لو أخذت أحد إخوتي الكبار الذين كادوا لي كيداً ، وعملوا على إيذائي وإبعادي ،في حين أني غير مشتاق لواحد منهم — لكنت ظالماً بتركي شقيقي المحبوب ، واستبدالي به مكروه من أولاد العلّات ، ولحقّ عليّ أن أنشد قول الشاعر :

لك الحمد أمّا ما نحب فلا نرى ونبصر مالا نشتهي فلك الحمد

التورية في قوله « متاعنا »

مادة ٧ — تعليقاً على قوله : « متاعنا » فالمتاع كما يطلق اسماً للسلعة كالطاس هنا فانه يطلق مصدراً بمعنى المنفعة واللذة ، فهذه الكلمة هنا من قبيل مايدعى « تورية » أو « تعريضاً » (وفي السنة كثير من المعاريض ، التي هي جائزة ، اذا لم تبطل حقاً ، ولا تحق باطلاً ، كقوله ﷺ لمن سأله « ممن أنتم ؟ » قال : « نحن من ماء » ، وكان اذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، وكان الصديق رضي الله عنه يقول في سفرة الهجرة لمن يسأله عن النبي ﷺ : (من هذا الذي بين يديك ؟ فيقول: هاد ، يدلني على الطريق) [1].

(١) الطرق الحكمية .

برقيتا شفرة من يوسف لأبيه

مادة ٨ — أراد يوسف عليه السلام بتلك الأعمال والاقوال، التي عملها وقالها بشأن بنيامين، أن تبلغ لأبيه، فيي منها حل اللغز، وفك الطلسم، وان لم تفهم اخوته منه شيئاً، فرب مبلغ أوعى من سامع، وطبعاً ان المرسل اليه الرسالة يفهم منها مالم يفهمه ساعي البريد، كما قيل: « فنحن سكوت والهوى يتكلم »، ونحن نرى أنه أرسل لأبيه برقيتي « شفرة » الأولى تفهم من (ع ٦٩ – ع ٧٩) وقرأ الأب هاتين البرقيتين وفهم رموزهما، وبناء عليه قال كما سيأتي: ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. ﴾ (ع ٨٧).

وههنا تنتهي « المعركة » بين يوسف واخوته

(أحسنت ولا فض فوك)

اليأس والمفاوضة والمناجاة

آ (٨٠) ﴿ فلما اسْتَيْأَسُوا منهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ... قال كبيرُهم: أَلَمْ تَعْلَموا أنَّ أباكُمْ قد أَخَذَ عليكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ، ومِنْ قَبلُ ما فَرَّطْتُم في يُوسُفَ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتّى يأذَنَ لي أَبي، أوْ يحْكُمُ اللهُ لي، وهوَ خيرُ الحاكِمين. ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الثمانون فقام السيد الحلبي [1] وقال:

سمع الاخوة العشرة جواب « عزيز » مصر السلبي، وردهم بلا جـ

(١) نسبة الى بلدة حلب في سورية .

وتغليطهم في طلبهم ورأوه انه غير مهتم بما قالوا ويقولون ، يئسوا وكانت إحدى الحسرات ، وتقهقروا من أمامه منكسي الرؤوس (فلما استيأسوا) وظنوا أنهم قد وقعوا في مخالب الشقاء ، كالقابض على الماء ، وعقدوا فيما بينهم مجلس مؤامرة و(خلصوا) أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم (نجياً) ذوي نجوى — وهو مصدر بمعنى التناجي — أو فوجاً نجياً ، أي مناجياً ، لمناجاة بعضهم بعضاً ، كالعشير والسمير ، بمعنى المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقرّبناهُ نجياً ﴾ (٥٢:١٩) ، وأحسن منه يمكن أن يقال : إنهم تمخضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه ، بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، فعلوا ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ، كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، وصاروا ينظرون الى أفق المستقبل بمنظار حالك ، لا يعلمون مادبر لهم القدر ، من رحمة أو من نقمة ، فاحتاجوا الى التشاور المطلوب شرعاً وعقلاً ، ثم (قال كبيرهم) في السن وهو رأوبين ، وقد استشاط غيظه ، وتلظّى تلظياً ، وتضرّم تضرماً ولاحت له صورة ذلك التشديد والاحتياط الذي عمله أبوهم معهم ، كما لاحت له صورة يوسف « المظلوم » : إن الأمر لجلل ، وهو أعظم مما تتصورون : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) وعاهدتموه وواعدتموه ، والوعد على الحر دين — فقالوا : اللهم نعم — قال (ومن قبل مافرطتم) أي تفريطكم (في) شأن (يوسف ؟) وتهاونتم في أمره ، وقصرتم في الاحتفاظ به ، ولم يَرمْ واحد منكم من ورائه ، ويناضل كما يجب ، ومما يؤلمني انه قد شملني عقاب عملكم ، لأنه قد يؤخذ الجار بظلم الجار ، ولعمري لقد تفاقم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع ، وبلغ السيل الزبى ، وان ماسوف يكون ، أشد هولاً مما كان ، وان في طيات المستقبل ماتتضاءل أمامه حوادث الماضي ، وان الغد سيجيئنا بأروع مما جاءنا به

منذ ٢٢ سنة — قالوا : وما الذي نصنع ؟ وشمعون هو الذي اضطرنا لأخذ يوسف من حضن أبيه ، ويهوذا هو الذي حسن لنا إلقاءه في غيابة الجب ، ثم أنت بالأشد، ويهوذا بالاكثر ، بطلا رواية أخذنا بنيامين من أبيه ، لا زلتما تلحان عليه ،ولا برحتما تتعهدان له حتى واتاكما ، فيصح أن نقول لك كما ليهوذا : « يداك أوكتا وفوك نفخ » — قال :وما علمي بما سيكون؟ لعمري لقد سبق السيف العزل — قالوا :وماذا تريد الآن ؟ — قال : أما أنا ، فوالذي بإذنه تقوم الخضراء والغبراء (لن أبرح) لن أفارق (الأرض) الداخلة في مملكة الرعاة ولا فواقاً (حتى يأذن لي أبي) بالبراح ، أو الانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من يميني ، الذي أقسمت له،ويتنازل عن الوعد الذي وعدته إياه — وذلك أن رأوبين كان قال لأبيه : « اقتل ابني إن لم أجيء به اليك ، سلمه بيدي وأنا أرده اليك » (تك ٤٢ : ٣٧)،(أو يحكم الله لي) بمفارقتها والخروج منها ، أو بتتمة مدة أسر أخي ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ، أو بموتي في مصر ، فلئن مت غريباً في هذه الديار بلا خجالة ولا ذل ، خير لي من أن أرجع لفلسطين بالخجل والهوان ، (وهو) سبحانه وتعالى (خير الحاكمين) لانه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق ، هذا كل ما أملكه اليوم في مصر ، وكل ما أستطيع أن أقدمه ، أملاً في تخفيف ويلات والدي ، وتخفيف هذا المصاب الذي لي منه حظ وافر ، سمع اخوته منه هذا الخطاب ، فأظلمت الدنيا في عيونهم ، وخيل اليهم كأن المحيط الذي يحيط بهم ، قد صبغ بصبغة الظلام الدامس ، ووقعوا في حيص بيص ، ووقعوا في قريب مما كان وقع فيه يوسف أيام الجب ، منذ ٢٢ سنة ، وكما تدين تدان :

تحكموا ما استطاعوا في تحكمهم ... عما قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصِفوا،لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر بالأحزان والمحن
فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم ... هذا بذاك ولا عتب على الزمن

(فلما استيأسوا منه : خلصوا نجياً ... الخ).

— ٢ —

وقال سيدي علي المسمي[1] :

يأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم واقوال اخيهم الاكبر

فرغنا مما كان من أمر الجذل بين يوسف واخوته ، وتوسلهم اليه ، وعدم اجابته إياهم ، فلنترك ذلك كله ، ولنترك يوسف وهو محظيٌّ بأخيه في فرح وجذل ، ولنذهب بالقارىء الى هؤلاء الاخوة العشرة ، وحيرتهم ووقوعهم في الضيق ، الى أن التجأوا الى المفاوضة .

رأوا أنه قد حمي الوطيس من جانب « عزيز مصر » فرجعوا الى أفاحيصهم متسللين متلاوذين ، وما رجعوا الا بخفي حنين ، فتلبدت عليهم غيوم الحادثة ، وضاق صدرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ووقعوا في أزمة شديدة ، ورأوا أن هذا الحاكم لايراغم ، وعلموا أن بقاء أخيهم أمر حتم ، لا بد منه طوعاً أو كرهاً ، فمثلت لهم حراجة الموقف بأجلى مظاهرها ، ورأوا أنهم وقعوا في حيرة ، تتقاذفهم العوامل ، بين رجوعهم لفلسطين بدون بنيامين ، وبين بقائهم بمصر ، حياء من أبيهم ، وكلا الأمرين شاق ، وصاروا كلما تصوروا مسيرهم لفلسطين هالهم موقفهم أمام أبيهم ، وعظم عليهم الاعتذار ، ولم يكن ذلك الحادث ليهولهم أو يكبر عليهم ، لو لا ماسبق من حادثة يوسف ، فبها قد أصبحوا متهمين في نظر أبيهم ، فهذه المسألة هي بمكان من الدقة والخطر ، فلذلك رأوا أنفسهم في حاجة الى التفكير والمفاوضة ، لعلهم يصلون الى رأي أو مشورة ، يكون فيها حل لهذا المشكل ، ومخرج لهم جميعاً ، وتخفيف على أبيهم الذي هو الآن في قلق واضطراب.

---

(١) نسبة الى المسمية من قرى قضاء غزة (فلسطين)

ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه بنيامين ، وعودتهم جميعاً سالمين ممتارين ، فلذلك انتبذوا جميعاً في ناحية بعيدة عن مجتمع الدهماء وضوضائهم ، متناجين ، وأعملوا فكرتهم ، وفزعوا الى المؤامرة ، فقال أخوهم الأكبر رأوبين كما روي عن قتادة وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الاطلاق ، لأنه بكر اسرائيل ، وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعاً) في آرائه في يوسف ، فقد كان له معه ضلع لاينكر ، وإن كانت المقادير لم تساعده — قال وقد شعر بعظم التبعة التي تحملوها بالأقسام التي أقسموها لأبيهم : « يا أخوتي ، ألم تعلموا أن أباكم إسرائيل قد كان تخوف منكم على ولده بنيامين حتى أخذ عليكم موثقاً من الله في شأنه ، وشأن محافظته ، والرجوع به سالماً ؟ . . فقدأصبحتم مقيدين بهذا الموثق ، وصرتم مرتبطين بذلك (والشرط أملك ، عليك أم لك) ، ومن قبل مافرطتم في أمر المحافظة على « يوسف » رحمه الله منذ ٢٢ سنة ؟ . . أنا لا أريد أن أزيدكم علماً بذلك ، لأنكم تعرفونه تماماً ، اليس هكذا ؟ » — قالوا : « اللهم نعم ، ولكن إن لم يكن لنا في الواقع اعتذار عن حادث يوسف ، فانا نعتذر عن حادث بنيامين بأن أبانا قال : « إلا أن يُحاط بكم» وقد أحيط بنا ، إذ لا يَدَ لنا مع الحكومة المصرية ، ذات الحول والطول ، ولا طاقة لعشرة أنفار أن يعصوادولة ، ويخرجوا عليها، خصوصاً ونحن غرباء ، وفي داخل حدود مملكتهم ، لا سيما وقد أخذوه بوجه مشروع ، بعد استفتائهم منا ، وأنت تعلم أننا جميعاً لم نأل جهداً في استبداله بواحدمنا ، وان « عزيز مصر » لم يقبل رجاءنا من هذا القبيل ، وكيف يقال أننا قصرنا ، وكل واحد منا فادى بنفسه ، وقبل التضحية بذاته ، ولكن مساعينا لم تكن الا قبض الريح » — فقال رأوبين : « أنتم وذاكم ، وأما أنا فقد وطنت نفسي على أن لا أزال مرابطاً في مصر ، بدون أن أتبرم أو أتذمر ، ولن أفارق هذه الأرض ولو جلَبَتْ عليّ الحكومة بخيلها ورجلها ، وسأبذل كل مرتخص وغال ، وأجود

بالنفس والنفيس ، وأنسى أهلي وأولادي ، في سبيل إقامتي في « صوعن » ، وعدم رجوعي لكنعان ، حياء من أبي ، ولأجل مشارفة أخي بنيامين وملاحظته ، وأملاً أن يجد في شأنه مافيه بارقة أمل ، حتى يأذن لي أبي بالانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من اليمين التي كنت أقسمت له بها عندما أخذنا بنيامين منه بان أرده له بيدي وأن يتنازل عن الوعد الذي كنت وعدته إياه بان يقتل ابني إن لم أجيء ببنيامين اليه ، أو يحكم الله لي بما لا يعلمه سواه ، لأن المستقبل بيده سبحانه وتعالى.

(جيد)

فلما استيأسوا منه ، خلصوا نجياً . . الخ

— ٣ —

وقال تقي الدين الدهشوري [١] :

نشكر المحاضر الكريم الأخ المسمي على تفسيره لهذه الآية الكريمة وأرجو أن تعيروني سمعكم للتعليقات التالية عليها :

معنى النجيّ

١ً — النجيّ والنجوى والتناجي مصادر بمعنى المسارة بالحديث وأصله من من النجوى ، وهي المكان المرتفع عما حوله ، بحيث ينفرد من فيه عمن دونه ، أو من النجاة ، كأنه نجا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليهم :

والغالب في التناجي أن يكون خيراً للمتناجين ، وشراً لغيرهم ، أو مؤذياً لهم ولو من بعض الوجوه ، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم ، وضرر غيرهم ، فيكتمون أخبارها ، ويجعلونها نجياً بينهم ، لئلا تصل الى خصومهم ، وعدوهم الذي يضره ماينفعهم ، وينفعه مايحبط عملهم ، ويبطل كيدهم

(١) نسبة الى دهشور من بلاد السودان المحري .

ويشبه ذلك ما يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب ، من التناجي فيما يخافون أن يطلع عليه غيرهم ، فيسبقهم اليه أو يشاركهم فيه ؛

فالنجوى تكون في الخير كما علم ، ولكن الأكثر أن تكون في الشر ، أو أنها فيما يعود بالشر على غير المتناجين ، ولذلك كانت النجوى مظنة الاثم والشر ، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر ، هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب اظهار الخير والتحدث به في الملأ ، وان الشر والإثم هو الذي يخفى ، ويذكر في السر والنجوى ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا خيرَ في كثيرٍ منْ نجْواهم ، إلاّ مَنْ أمرَ بصَدقةٍ ، أو معروفٍ ، أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ﴾ (٤ : ١١٣) ، والنجوى ههنا هي من قبيل هذا النوع الثالث ، وهو الاصلاح ، لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيهم بنيامين ، أو فيه صالحهم جميعاً فيما بينهم وبين « عزيز مصر » ، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا اليه ماذا يقولون له في شأن أخيهم .

مجلس شورى الاخوة

٢ً — لما وقعوا في الأزمة الشديدة عقدوا « مجلس شورى » ، وقد أصابوا لأن « يد الله مع الجماعة » ، و « المرء قليل بنفسه كثير باخوانه » و « ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار » وقد أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بالشورى ، فقال : وشاوِرْهم في الأمر (٣ : ١٥٩) ومدح الصحابة بقوله : ﴿ وأمْرُهم شُورَى بينهم ﴾ (٢ : ٣٨) ، وقال أبو الطيب المتنبي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي رافدات القوادم
وماخير كفٍ أمسك الغِلُ أختها ؟ ... وماخير سيف لم يؤيد بقائم ؟

تعريض رأوبين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف سابقاً

٣ — نفهم من قول راوبين : « ومن قبل مافرطتم في يوسف » شيئاً مهماً ، وهو أن رأوبين لم يقع منه تفريط في الاحتفاظ بيوسف ، وهو حقيقة راهنة ، أيدها النقل الصريح ، فقد روى لنا التاريخ أن « رأوبين » لما سمع كلام إخوته ومؤامرتهم الاولى في شأن يوسف ، منذ ٢٢ سنة . قال : « لا نقتله ، لا تسفكوا دماً ، لا تمدوا اليه يداً » وصادف أنهم بعد أن القوه في الجب أن رأوبين غاب عن الجب وعن اخوته في بعض شؤونه ، ثم رجع الى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه فمزق ثيابه ، لانه لم يكن يعلم أن « السيارة » جاءت فسحبته ، وأصعدته من الجب وسافرت به لمصر ، وكان بعد القائه في الجب عازماً على إخراجه منه بحيلة ، ليرده الى أبيه ، فرجع الى اخوته وقال : « الولد ليس موجوداً في الجب ، وأنا الى أين أذهب ؟ » « فرأوبين » كان يعمل في الخفاء ويريد أن يرد يوسف لابيه فيما بعد ، — هـذا ماذكره التاريخ ، وهو يؤيد مافهمناه من الكتاب الكريم من أن « رأوبين » لم يكن مفرطاً بالاحتفاظ على يوسف ، وإلا لجاز أن يقول له كل واحد من اخوته ، ماقاله « أبو العيناء » لصاحبه ، حينما سأله عن سبب بكوره ، فقال : « أراك تشاركني في الفعل ، وتضروني بالعجب » أو كما قال بعضهم لآخر : « ماجاء بك في هذا المحل المريب » ؟ فأجابه : « الذي جاء بك ».

اقرار الاخوة على التفريط بيوسف سابقاً

٤ — وأخيراً فقد لاحظت هنا ملاحظة ، ولا أعلم إذا كان اتيح لغيري أنه لاحظها أم لا ، وهي أن قول رأوبين : « ومن قبل مافرطتم في يوسف » هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم وسكت عليه الباقون ، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم فرطوا في يوسف ، وكان هذا نتيجة شيء من

الخلاف بين الاخوة ، وبعبارة أصح بين رأوبين وسواه ، وبذلك صدق قول بعض الحكماء : « إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق » (مرحى)

نتيجة المفاوضة

آ(٨١) ﴿ ارجِعُوا الى أبيكم ، فقولوا : ياأبانا ، انّ ابنك سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنا الاّ بِما عَلِمنْا ، وَمَا كُنّا للغَيْبِ

٢١ ٢٠

افتتحت الجلسة وتليت الاية الحادية والثانون فقام المــلا محمود السليماني [1] وقال :

يقول « رأوبين »: هذا ماصحت عزيمتي عليه بالنسبة اليّ ، وأما بالنسبة اليكم ياخوتي ، فلست أرى الا عودتكم ، فذلكم أخلص وأوفق لكم (ارجعوا) سراعاً ، واستحثوا عيركم جهد طاقتكم (الى أبيكم) ، وَهيّاً ، سيروا لفلسطين وإن يكن هذا الرجوع رجوعا بشرٍ وَعرّ [2] ، رجوعاً بصفقة المغبون،ولكن ما العمل ؟ ارجعوا اليه (فقولوا : ياأبانا ، إن ابنك) بنيامين اصلحه الله ، (سرق) سقاية الملك ، التي يكيل بها للممتارين ، وجدت في عدله ، فأُخذ عبداً ، حسب شريعتنا ، وها هو الآن عند « عزيز مصر » (وماشهدنا) عليه أمامك بالسرقة (إلاّ بما علمنا) ظنناً بمقتضى ظاهر الحال ، وبمقتضى شريعتنا أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد انكاره يوجب له أحكام السارق ظناً (وما كنا للغيب

---

(١) نسبة الى السليمانية بلدة في العراق .

(٢) العر : المكروه

حافظين) أي وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا انك تصاب به كما أصبت بيوسف ؛

نحن اليوم وقعنا في مشكلة لم تكن في حسباننا ، وما كنا لنعلم مايأتي بهالغد.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غدٍ عمي

ما كنا نعلم أن حادثاً كهذا ينزل فوق رؤوسنا ، وبنوع أخص فوق رأس أخينا بنيامين ، أنت قلت ، وكأنك حفظت لنا خط الرجعة : إلا أن يحاط بكم ، وقد أحيط بنا ، فلقد غلبنا على أمرنا ، ولسنا أكفاء لحكومة مصر أن نقاومها ، وما عسى أن نصنع مع حكومة قاهرة غنية ؟ وقد قيل « إذا تكلم الجاه سكت الصواب ، واذا نطق المال خرس الحق » على اننا نعترف بأنا رأينا الصواع في عدل أخينا رأي العين ، ونحن لو كنا نعلم الغيب لاستكثرنا من الخير ، وما مسنا السوء ، سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

جهل البشر وفهم الانبياء بالغيب — اقامة الحجة على النصارى بعدم الوهية المسيح

ملاحظة — لقد صدقوا في قولهم : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، لانهم بشر مخلوقون ، وليس هم فقط ، بل كل بشر مخلوق لايعلم الغيب ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، قال نوح عليه السلام : ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾ (١١:٣١) وكذلك قال خاتم الأنبياء : ﴿ ولا أعلمُ الغيب ﴾ (٦:٥٠) وقال أيضاً :

﴿ ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ ، لاستكثرتُ من الخيرِ ، وما مسَّني السوءُ ﴾ (٧:١٨٧) وقال المسيح عيسى : ﴿ تعلمُ مافي نفسي ، ولا أعلمُ مافي نفسِكَ ﴾ (٥:١١٩) وقال في الانجيل ﴿ وأما ذلكَ اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب ﴾ (مر ١٣:٣٢)

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر ، نقول اذا كان المسيح بمقتضى هـــذه العبارة لا يعلم متى تقوم الساعة — سواء أكانت الصغرى أم الكبرى — باعترافه هذا ، فكيف يكون هو ديان الخلائق يوم القيامة ؟ وقوله فيها : إن الابن لا يعلمها، نص على أنه ليس بإله ، فان قيل : لعله يريد « الانسان يسوع » — قلت : ولِمَ لم يعبر بذلك ، ليكون قوله خالياً من اللبس والتضليل ؟، واذا كان افنوم الابن متحداً بناسوته كما يقولون . فكيف لم يعلم الناسوت مايعلمه اللاهوت ، والا فما معنى هذا الاتحاد ؟؟ وجاء أيضاً في انجيل يوحنا ، ان المسيح عيسى لما أشار عليه إخوته بالذهاب الى أورشليم ، لأجل العيد ، قال لهم : « أنا لست أصعد بعد الى هذا العيد) (يو ٧:٨) ولكن لما مضى اخوته الى العيد ، مضى هو ايضاً بعدهم متخفياً (يو ٧:١٠) ، فعبارته هذه إما انها كذب وغش ، ولذلك ذهب بعدها متخفياً ، واما انه ما كان يعلم أنه سيذهب الى العيد (أي جهل وتردد) ، وكلاهما ممّا يجب أن ينزه الله تعالى عنه ، وان كان قالها باعتبار الناسوت — وهو الجواب الذي صدّعوا آداننا به — قلت وكيف لم يهده اللاهوت المتحد به ، الى البت في عمل صغير كهذا ، وتركه يبدي كل تردد وجهل ؟ وما فائدة اللاهوت إذاً ؟ وفي أي شيء أفاده ؟ ولمَ اتحد به الله ، وهو لم يصلب معه ؟ بل تركه ، ولذلك قال : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟» ولِمَ يعبد النصارى هذا الناسوت العاجز الجاهل مع اللاهوت ، ولم يفرقوا بينهما ؟؟!!

شهود الحال على جريمة التسريق

آ (٨٢) ﴿ واسْأَلْ القَرْيَةَ التي كُنّا فيها ، والعِيرَ التي أَقْبَلْنا فيها ، وإنّا لَصَادِقونَ ﴾

تابع الخطيب السابق كلامه على الآية الثانية والثمانين قائلاً :

استمر « راوبين » في مخاطبة اخوته مبيناً لهم ما يجدر بهم أن يقولوه لأبيهم، (و) إذا أردت يا أبانا أن تتبين حقيقة ما نقول ، وتعلم صحة ما ننقل ، (اسأل) بنفسك أو بواسطة أحد عبيدك سكان (القرية التي كنا فيها) حيث جرى حديث التسريق والتفتيش ـ وهي الدسكرة التي لحقهم فيها فتيان العزيز وجرت فيها تلك المحاورة ـ (و) أيضاً اسأل (العير) أي اصحاب العير والعـــير هي القافلة من الإبل ـ (التي أقبلنا) التي رافقناها وكنا مقبلين (فيها) لجهة كنعان ، فذلك يوم مجموع به الناس ، وذلك يوم مشهود ، وهذه « القرية » لقربها لا تحتاج لقطع أعناق الإبل ، إنه ليس بينك وبينها سوى ثلاث مراحل ، وهذه « العيرة » من فلسطين من جيرانك ليسوا بعيدين عنك ، وهم كثر ، لا يأخذهم عدّ ، ولا يتهم واحد منهم بأنه يشهد عن عاطفة أو محاباة لنا ، بل كلهم شهود عدول ،وبراهين ساطعة ،وعند السوآل يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتظهر لك صحة ما ندعي، فان هذه الحادثة اصبحت من الاخبار المستفيضة المستطيرة المعلومة عند هؤلاء الناس أجمعين ، (و) والله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، (إنا لصادقون) وإلاّ فكل واحد منا نَفِيٌّ من أورمة إسرائيل ، وقد قيل : « لسان أخرس خير من لسان ناطقٍ بالكذب » ، فهذه شهادتنا بأنفسنا ، وهذا استشهادنا بالناس المرافقين

لنا ، وهذه ايماننا ، وذلك الآن هو كل ما نملك من الدلائل التي نقدر أن نقدمها أمامك ، وما بعدها زيادة لمستزيد .

وأختم كلامي بالمواد التالية :

التحقق من القرية والعير

مادة ١ — طلبوا الى أبيهم إنْ أحَبَّ ، أن يسأل القرية والعير ، والغالب أن تلك القرية كهؤلاء العير ليسوا من المؤمنين ، ومع ذلك فإخبارهُم مقبول ، لأنه من قبيل البينة ، لا من قبيل الشهادة ، وقد قال العلماء : « البينة في الشرع أعم من الشهادة » ، فكل ما يتبين به الحق بينة ، وذلك كالقرائن القطعية ، وعليه فشهادة غير المسلم تدخل في البينة بهذا المعنى ، إذا تبين للانسان بها الحق ، ومع ذلك فهم يقولون لأبيهم إن هذا الحادث مستفيض ، وعند الاستفاضة لا فرق بين المسلم وغيره ، وربما كانت أخبار غير المسلم مقبولة أيضاً والله أعلم .

المراد من القرية !!

مادة ٢ — المراد من « القرية » أهلها كما ذكرنا ، فان العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه ، ومثاله : « والى مدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً » (٧ : ٨٤) ، أي الى أهل مدين ، وكما قال حميد بن ثور :

قصائد تستحلي الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحي سامر

يَعَضّ عليها الشيخ إبهام كفه وتجري بها أحياؤكم والمقابر

أي أهل المقابر ، والعرب تقول : « أكلت قدراً طيبة » أي أكلت ما فيها ، وكذلك قول الخاصة : « شربت كأساً » (١) .

---

(١) فقه اللغة .

حال يعقوب واسرته آنئذ

مادة ٣ — قضوا في هذه المؤآمرة ساعة وبعض الساعة ، وأخيراً وعلى حسب ما قال « كبيرهم » قام الاخوة التسعة ، وأعدوا معدات السفر ، ورحلوا قافلين لفلسطين .

فوا أسفاه لهذه الحال المحزنة التي صارت اليها أسرة يعقوب عليه السلام : بلاء اكتنفهم ، وشرور تظاهرت عليهم ، ومحن قد أحاطت بهم ، وتفرق بعد اجتماع ، وانتشار بعد انتظام ، فأبوهم هو وأحفاده في فلسطين ويوسف ـ في رأيهم ـ مفقود ، وبنيامين ، مستعبد عند « عزيز مصر » ، ورأوبين بقي في مصر في إحدى فنادقها ، غريباً وحيداً ، ينتظر الفرج من الله ، وأما التسعة الباقون ، فهم سائرون الآن في الطريق الى أبيهم ، بين مصر وفلسطين ، في تلك الصحراء القاحلة ، وكلهم في فكرة وقلق ؛ سبحان الله ؛ قضى يعقوب عليه السلام زمناً غير قليل من حياته بفلسطين ، تَعِباً من أخيه « عيسو » الجبار ، ثم خوفاً منه أن يقتله قام للعراق وقضى فيها عشرين سنة وهو يرعى غنم خاله « لابان » ، ثم قضى برهة من أيام حياته مسروراً مغتبطاً بابن هو الزهرة اليانعة في روض أبنائه ، ثم نكبه الدهر فيه نكبة عظمى ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ثم جعل حزنه يخف تدريجياً ، كما تخف أحزان جميع الناس بطول المدة ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنه بنيامين أصغر أبنائه ، ليتولى تربيته واسعاده وأصبح بنيامين تعزيته الكبرى بعد شقيقه المفقود ، وهو كذلك ، فما شعر إلا وقد فقده اليوم أيضاً ، وصار عبداً لحاكم مصر :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي　　وسروره يأتيك كالأعياد

تكذيب فصبر فترجي

آ (٨٣) ﴿ .... قال: بَل سَوَّلَتْ لَكُم أنفسُكُم أمراً، فصبرٌ جميلٌ، عسى اللهُ أنْ يأتِيَني بهم جميعاً، إنّه هو العليمُ الحكيمُ ﴾.

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثانون فقام الشيخ خليل من علماء الطائف (١) وقال:

رجع اخوة يوسف الى ابيهم فقالوا له ما قاله له أخوهم « رأوبين »، فلما سمعه أبوهم، ألمّ به من الحزن ما كادت تتقد منه أضالعه، فقال لهم: « ثم ماذا؟ أتموا حديثكم — قالوا: هذا كل حديثنا، وليس عندنا حديث غيره » فما عدا أن يسمع هذا الكلام حتى (قال) « لم اصدق، ولا أريد أن اصدق، (بل سولت) زينت وسهلت (لكم أنفسكم امراً) أردتموه ودبرتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم له بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوكم » — قالوا: « ما أخبرناك إلا بالحق » — قال قلت لكم: « ان ابني لا يسرق، ولن يسرق، وان حاكم مصر لا يعرف هذا الحكم العبراني الا من فمكم، ولأمر ما دُبّر من قبلكم، وقَبِل حاكم مصر أن يحكم على رجل عمل جنايه في بلاده بغير شريعة مملكته، والا فشرف مصر يتطلب الحكم على الجاني فيها بقوانينها لا غير » (فصبر جميل) على هذا النأي المقدور، فان الصابر كالرجل القوي، لا ينوء به الحمل الثقيل.

— وهنا نرى ان يعقوب عليه السلام نَزَع الى الصبر ربما يتكرم عليه ربه بلقيا أولاده الثلاثة، فيفرح فرحاً مثلثاً:

(١) الطائف من مدن الحجاز.

كن حليما إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن فيه عجيبة

(عسى الله أن يأتيني بهم) بالثلاثة (جميعاً) عاجلاً أو آجلاً ، فاني أرى ذلك بعين القلب ،ولا أزال أسمع صوت الوعد السماوي يرن" في اذني ، (إنه هو العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم)الذي لم يبتلني بذلك الا لحكمة ومصلحة .

(قال : بل سولت لكم أنفسكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الأسيوطي (١) :

حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين

انصاع أولاد يعقوب لرأي أخيهم الا كبررأوبين ورجعوا أدراجهم الىأبيهم، وقصوا عليه القصة ، وقد كان ينتظر عودة بنيه بكل فروغ صبر ، مع علمه بطول المسافة التي بين « سيلون » محل اقامته في فلسطين و « صوعن » محل اقامة العزيز بمصر ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت ، وكان بعدة الانتظار مملوءاً من الرجاء والأمل ، وهو كذلك إذ جاءه أبناؤه يحملون له نبأ تلصص بنيامين واستعباده ، فتمعّر وجهه ، وقال في نفسه : كنت في مصيبة فصرت في اثنتين ، ويحكم ! انه لحوب كبير ، ما هذا الذي تقولون ؟ ...لا.لا.. لم يكن شيء من هذا القبيل ، أنا اليوم مثلي بالأمس وبالغد ، أرتاب في صحة كلامكم ، ولا اصدق ماتخبرون به ، لاأحيد عن ذلك قيد شبر ، بل سولت وزينت لكم أنفسكم أمراً ذا بال ، أمراً ضل عني فهمه ، وعمت عليّ حقيقته واغمي عليّ واستبهم ، وان سابق عملكم مع يوسف الفقيد ، يجعلني أقف تجاه أخباركم هذه موقف المرتاب ، أنا لست الآن في معرض التحقيق والبحث،

(١) نسبة الى بلدة اسيوط بمصر .

ولا اتفرغ له ، إنما لا أظن أن « بنيامين » يجرأ على هذا ، إذ يحتمل انكم أنتم الذين جعلتم « السقاية » في رحله ، كما يحتمل ان حكومة مصر لها في ذلك الحادث شأن من الشؤون ، لا يعلمه الا الله تعالى ، نواحزناه ... يابنياميناه ... آه من اهل الظلم ! أواه من الحكام الظلمة ، هل انت لص خائن يا بنيامين ؟!؟!.. هل أنت متسول ؟!؟!.. حاشا .. ولكن هي اغراض الظالمين ، تسلك الأبرياء في سلك المجرمين ، فصبر جميل على هذا الحادث الذي يتفتت له الصخر ، صبر جميل وإن اكن قد ذقت العذاب الوانا ، صبر جميل وإن يكن عنائي وهمي بفراق ثلاثة أولاد سيكون أضعاف عنائي وهمي بفراق ولد واحد :

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال
وهان فما ابالي بالرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

آه ... أرسلت ابني بنيامين لازداد حمل بعير ، فنقصت ولداً بل ولدين ، ارسلت ابني بنيامين لكي اخفف ويلتي التي أصابتني بالقحط والأزمة مع من أصابت، فكانت النتيجة انه استرق ، فكنت بحسب العاقبة كناقش الشوكة بالشوكة ، أو كغاسل الدم بالدم ، أو كمقرور هرب من الديمة . فصار تحت الميزاب ، أوهرب من الرمضاء فتدهور في النار ، ولكن :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني ... صبرت على شيء أمر من الصبر
فما مثل مر الصبر صبري وانما ... صبرت على شيء أحر من الجمر
فما أحسن (الصبر الجميل) مع الرضا ... وماقدر المولى على عبده يجري

وان بطل الدهر هو من كافح المصائب بشجاعة ، وتغلب عليها بالثبات ، والحازم من صبر عن مضض الحياة :

كم ساعة أزعجني وقعها وآلمتني يدها القاسية
فتشت فيها جاهداً لم أجد هنيهة واحدة صافية
وكم سقتني المر أخت لها فرحت اشكوها الى التالية
فأسلمتني هذه عنوة لساعة اخرى وبي ما بيه
ياصاحب الساعات انصت عسى تنجيك منها الساعة القاضية

ولكن عسى الله ان يأتيني باولادي الثلاثة ، فان في ذلك لي رَهْبَةً قوية واملاً كبيراً :

ولربما نثر الجمان تعمداً ليعاد احسن في النظام واكملا

وان الشمس تغرب ، فلا تلبث أن تطلع من شرقها ؛ ونرى تراكم السحاب فوقها ، فلا تلبث أن تنفرج عنها ، حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وان الاشجار تعرى ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسمات الربيع . وإن الأحياء ينامون في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري بقرنه ، قاموا من مراقدهم ، وهكذا أولادي ، سيؤوبون ــ ان شاء الله ــ الى وطنهم وحضن أبيهم ، وما ذلك على الله بعزيز . (مرحى)

(قال بل سولت لكم انفسكم .. الخ)

— ٣ —

وقال العلامة القزويني [١] لي على هذه الآية الكريمة التذييلات التالية:

هاتف من يعقوب

١ ــ رأيتني في مسقط رأسي « قزوين » في ذلك الحين ، حين أن سمع يعقوب

(١) نسبة الى قزوين بلد على بحر قزوين شمال ايران

من أولاده نبأ بنيامين ، وكان لدي « الهاتف اللاسلكي » فأدرت لولب أمواجه الى « سيلون » ثم أصغيت في صوانه ، فسمعت يعقوب عليه السلام يقول :

« ما هذه الكرب التي لاتزال تتعهدني ، كما تتعهد المحموم نوباته ، حيناً بعد حين ؟!.. موت راحيل ، ففقدان يوسف ، فموت اسحاق ، فاسترقاق أصغر الأولاد ، فاحتباس كبيرهم ، فما لحوادث الأيام قد التفت حولي ، التفاف المقْطرة بالمقطور ؟!.. ومالعاديات الدهر قد أحاطت بي ، إحاطة الجامعة باليد ، والقيد بالرجل؟!..

خليلي لاوالله ماالدهر منصف وليس له يوماً علي جميل
يقرب مني كل شخص يسوءُني ويبعد عني من اليه أميل

« آه .. أواه .. وا أسفاه ..»

سمعت هذا من فم هذا الصفي الكريم، ثم سمعت هاتفاً يهتف به من الملأالأعلى: ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكُم حتى نَعْلَم المجاهدينَ منكم والصابرينَ، ونَبْلُوَ أخبارَكُم﴾ (٤٧ : ٣١) ، صار كل هذا ، فعجبت في نفسي كيف تسنى لي أن اسمع كلام يعقوب عليه السلام ، وبيني وبينه نحو (٣٧٠٠) سنة شمسية ؟ ثم استغربت من وجود اللاسلكي في ذلك الزمن ، وفيما أنا كذلك ، تململت وفتحت عينيّ فاذا أنافي حلم ، فذهب عني كل ما كان عندي من تعجب واستغراب .

الايجاز والحذف في القرآن

٢ — تقدمت الاشارة الى ان في صدر الكلام حذفاً ، تقديره : فرجعوا الى ابيهم فقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، ولهذا نظائر في القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « يوسف ، أيّها الصديق الخ » ففيه ايجاز ، والمعنى فأرسلوه الى يوسف ، فأتاه ، فقال يوسف الخ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فأْتِيا فرعونَ فَقُولا : إنّا رسولُ

ربّ العالمينَ ، أنْ أرسلْ معنا بني إسرائيل ، قال ، ألمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦ ـ ١٨) معناه فأتاه فقال له ما أمره الله ، فقال فرعون : ألم نربك الخ،

استغشاش يعقوب لاولاده في نبأ بنيامين

٣ ـــ لم يصدقهم أبوهم هذه المرة ، مع انهم ـ فيما يعتقدون ـ صادقون فيها ، لأن من عهد عليه الكذب ، لا يصدق ولو تكلم بالصدق ، كما ان من عرف بالصدق يصدق في كل شيء واو كان كاذباً ، فابوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم ، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشاً لهم في المرة الاولى .

كانوا استشهدوا بسوآل القرية والعير ، فلم يأبه لاستشهادهم ، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك لانه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الغموس ، فما صدقهم في هذه الحادثة، مع أنهم كانوا ـ في تصورهم ـ صادقين . فما مثلهم الا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة .

يعقوب بين الابتسام والانسجام

٤ ـــ لو رأيت يعقوب عليه السلام حينما سمع هذا الخبر المقعد المقيم ، لرأيت منظراً عجيباً ، وخلقاً غريباً ، نعم لو رأيته ، لرأيت في وجهٍ واحد ، ثغراً يبتسم، ودمعاً ينسجم ، أما الانسجام فلاجل مصيبة ولده بنيامين ، وأما الابتسام فلانه علم ان الله قد آذن بالفرج ، فان الكرب اذا اشتد هان .

تشكك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين

٥ ـــ تقدم انه نطق بعين الجملة الشريفة (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) حينما أخبر بأن « الذئب » أكل يوسف ، فهو وان يكن قد ذهبت بـه الظنون

في شأن ولديه كل مذهب ، إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف ، ولا يصدق بسرقة بنيامين على الحقيقة .

صبر يعقوب

٦ — صبر يعقوب عليه السلام في هذه المرة الثانية ، مع انها مصيبة ملوثة بالعار والدناءة ، فلا تقل عن المصيبة الأولى ، بل ربما كانت أعظم ، وعلى كل فان أسباب الكرب والكدر فيها ترمي الصبر بالمنجنيق — صبر لأنه من أصحاب المبادىء الثابتة ، ومن ذوي الأخلاق المتينة ، هذا عدا أنه من الأنبياء المرسلين الذين هم سادة المتأدبين ، بما أدبهم به رب العالمين.

موقف يعقوب واحد في حالتي كذب وصدق اولاده

٧ — نرى أن موقف يعقوب مع اخبارات أولاده واحد ، في حالتي كذبهم (ع١٧) وصدقهم (ع٨٣) برنامج ثابت ، وضعه لعدم ثقته بهم ، لن تجد له تحويلاً ، ولن تجد له تبديلاً .

خوف يعقوب من اولاده

٨ — نقرأ في كتاب الله آية ، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام ، وتلك الآية هي قوله تعالى :﴿ ولَنَبْلُونكمْ بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ، ونقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ ، وبَشرِ الصابرين ﴾ (٢:١٥٥) ، فانه عليه السلام كان في شيء من الخوف من أولاده ، بدليل أنه — لاسيما في المرة الاولى — لم يعاقبهم ولم يشدد عليهم ، ولم يجل طويلاً في البحث معهم عن يوسف ، وقد كان قبل هذا النوع من الخوف خاف خوفاً شديداً من شقيقه « عيسو » حتى انه خاف أن يقتله ، وهذا ما كان دعاه للهجرة من الشام للعراق

عند خاله « لابان » ، ثم قد وقع هو واسرته في شيء من الجوع ونقص الأموال والثمرات في سني الجدب ، ونقص من أولاده يوسف وبنيامين ورأوبين ، ومع ذلك كله فقد صبر صبراً جميلاً .

دمعة على يوسف

آ (٨٤) ﴿ وَتَوَلَّى عنهم ، وقالَ : ياأسفَا على يُوسفَ وابيضّتْ عيناهُ مِنَ الحُزْنِ ، فَهو كَظِيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثمانون فقام حيدر افندي الازميري [١] وقال :

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فأعرض (وتولى عنهم) وهو يتعثر في اذياله من شدة الهم ، وقد احتدم احتداماً ، وصفّق كفاً بكف ، وقد تفتحت جروحه (وقال) بصوت شجيّ مؤثر (ياأسفا على يوسف) — والأسف أشد الحزن والحسرة ، يقال أسِفَ كتعب : حزن وتلهف ، فهو أسفٌ مثل تعبٍ ، والألف بدل من ياء الاضافة ، — وانما أسف هنا على يوسف ، مع أن المقام مقام أسف على بنيامين ورأوبين ، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً ، لأن أسفه على يوسف كان متمادياً لم ينقطع قط ، فكأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً ، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه ، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به (و) لازال يبكي حتى (ابيضت عيناه) أي مقلتا عينيه (من) كثرة البكاء الناجم عن (الحزن) ، لأن الاستعبار إذا كثر محقت العبرة سواد العين وقلبته

(١) نسبة الى ازمير من بلاد الاتراك

الى بياض كدر ، ولا بد انه عليه السلام كان يدرك رؤية الأشياء ادراكاً ضعيفاً، لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ، لأنه من الداآت المنفرة للطبيعة؛

وجاز له أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الانسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره (فهو كظيم) مملوء من الغيظ لأجل أولاده ، ولا يظهر مايسوءهم ،— وفعيل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ وهو مكظوم ﴾ من كظم السقاءَ : اذا شده على ملئه ، والكظَم (بفتح الظاء) مخرج النفس ، يقال : أخذ بأكظامه .

(وتولى عنهم ، وقال ياأسفا .. الخ)

— ٢ —

ثم تابع المحاضر كلامه قائلاً :

تجدد حزن يعقوب

كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته ، ومرجع آماله ، وزهرة أعماله وتعزيته في شيخوخته ، ووارث علمه ، ومجدد مجده ، وانه هو الذي تمثلت فيه ملامحه ، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه ، ولذلك لم ينسه ولن ينساه ، فعندما سمع نبأ بنيامين ، تذكر ولده يوسف فتولى عن أولاده وخلا بنفسه ، فصارت الهواجس تتقاذفه ، والأفكار تخنقه ، وقد جرت عادته أن يتعزى عن يوسف ببنيامين ، ولكن اليوم لم يجد مايتعزى به عنه ، فاندفع الى ذكراه ،وقال: « ياأسفا على يوسف ! فقد كان تعزيتي عن كل شيء ، وكان زينة أولادي ، وبيت قصيدهم » فصعد الزفرات ، وأسال العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق العينين فانسكب دمعها قطرات ، يسابق بعضها بعضاً ، وبالنتيجة ابيضت عيناه من الحزن الصامت ، ولكن بدون أن يجني ذلك البياض على نظره ، وأشد الحزن

مايبكي الرجال ، وكان حينما يبكي لايدري ، أيبكي يوسف .. أم يبكي بنيامين ، أم يبكي رأوبين .. أم يبكي شخصه الذي اصيب بهذه المصائب .. أم يبكي تشويش حال اسرته وتشتتها .. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر .. الى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه ، عليه الصلاة والسلام ؟!!

وههنا رب سائل يسأل ويقول : كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً ؟.. والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل ، قال البحتري :

إن الفراق كما علمت فخلني		ومداماً تَسَع الفراق وتفضُلُ
إن لا يكن صبر جميل فالهوى		نشوان يجمل فيه مالا يجملُ

وقال كثيرّ :

وقالوا نأت فاخترمن الصبروالبكا		فقلت : البكا أشفى إذاً لغليلي

وقال أبو فراس الحمداني :

إذا مادعوت الصبر بعدك والبكا		أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر

وقال المتنبي :

يأبى الشجاع وصبره متواتر	:	يبكي ومن شر السلاح الأدمع
واذا حصلت من السلاح على البكا	:	فحشاك رعت به وخدع تقرع

قلت في جوابه : ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر الجميل ، كما تشير اليه هذه الأشعار ، ولكن الذي نص عليه علماء التفسير ، وفي مقدمتهم ابن جرير ان الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولاشكوى ، أو كما جاء في الحديث المرفوع هو الذي لاشكوى فيه ، ومعناه لاشكوى فيه الى الخلق ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني الى الله ﴾ ، وعلى كل فهذا المعنى يصدق بما اذا كان فيه بكاء ولو كثيراً ، ومجرد البكاء ولو كثيراً ، لا يسمى جزعاً ،

إنما الجزع مايقع من الصياح والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، فهذا النبي ﷺ ، كان سيد الصابرين الصبر الجميل ، مع انه بكى يوم وفاة ولده ابراهيم وقال : ﴿ إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ، وإنا بفراقك لمحزونون ، ولا نقول إلا مايرضي ربنا ﴾ وعنه ﷺ : « انه بكى على ولد بعض بنيه وهو يجود بنفسه ، فقيل يارسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ، فقال : مانهيتكم عن البكاء ، وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين ، صوت عند الفرح وصوت عند الترح » ، وعن الحسن : « انه بكى على ولد او غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال : مارأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب » قال الشاعر :

إن البكاء هو الشفاء   من الجوى بين الجوانح

وأما مايفهمه شعر هؤلاء الادباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البكاء ، فهو من باب المبالغات الشعرية ، وأيضاً فليس كلام الادباء بحجة في اللغة ، وانما الحجة الحديث الشريف الذي فسر الصبر الجميل بانه الذي لاشكوى فيه الى الخلق (فهو كظيم) حيث صار ذا حرقة كامنة تعتلج في صدره ، ولاتجد لها متنفساً ، وقد احتفظ بسكوته وهدوئه ، فلزم خيمته يقاسي من داء قلبه وداء عينيه مالا يطيق مثله الا مثله ، وفي الختام نعلم من هذه السورة الشريفة ان حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة المثال في التاريخ .

(جيد جيد)

وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف . . الخ

— ٣ —

وقال الطبيب هبة الله الدمشقي :

اخلاق يعقوب والنبيين عليهم السلام

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فبرم بهم وتركهم ، أو أنه تغفلهم فأعرض

عنهم وابتعد منهم ، لأنه يريد أن يطلق عنانه في التأسف والتحسر ، ويوغل في البكاء بحرارة ، لأنه جرب فرآى أنه إذا أراد أن يذكر يوسف أمامهم ، فسرعان مايسمع منهم الانتقاد ، أو لأنه أحب أن يخفي عنهم ألمه ، الذي عجزت مُنّته عن احتماله ، وأن يحمل ثقل ذلك على عاتقه ، دون أن يكدر صفاء من حوله ، ولو أنهم هم لايهمهم أن يكدروه ، فلم يظهر لهم شيئاً من ذلك ، ولم يظهر مايسوؤهم ، رغماً عن أنهم أساؤوه ، شأن كل كريم ، لاسيما النبيين ، لايظهرون انقباض نفوسهم ، ولا يحملون الناس شيئاً من اكتئآبهم ، ولا يفرقون على الناس همومهم لئلا يحزنوا بذلك قلوبهم ، لأنهم هم الذين يأمرون الناس بأن يقدموا للناس مافيه مسرات الحياة ، وترويح النفوس ، وينهونهم عن انقباض النفس وابتسار (١) الوجه أمام غيرهم ، لئلا يكدروا صفاءهم ، لأنه أما يكفي أن لا يستطيع الإنسان أن يسعد أخاه ، فاذا لم يفعل ، فعلى الأقل يجب أن لا يشقيه ، وهـذا خلق عظيم من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي لنـا التخلق بها ، فحبذا لو كان كل منا يحافظ على أن لا يقطع على أخيه مسرته ، بل يزيد سعادته وغبطته ، ولا يظهر له عبوسه وبسوره (٢) بل بشره وفرحـه ، وذلك إنما يكون إذا تلقى محن الدهر بصدر واسع ، وخلق وادع ، وصبر جميل ، كما هو حال يعقوب عليه السلام .

لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن

بحادثة بنيامين ذكر يوسف الفقيد النائي عنه ، فحن اليه ، حنين الناقة الى فصيلها ، وأحزنه أنه لم يسمع له بخبر ، ولم يقف له على أثر ، منذ سنة ، فلم يجد له بداً ـــ إذ هاجه الوجد ـــ أن يلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد ، الذي يفزع اليه جميع البائسين والمحزونين ، وهو الأسف والشكوى الى الله بالجنان ، ولكن في خلوته بعيداً عن كل إنسان ، واختص يوسف بالأسف ، لأنه تصور في نفسه أن

(١) الابتسار العبوس . (٢) البسور الكلوح .

« رأوبين » حين حبس نفسه في مصر كان عمره نحو ٦٠ سنة تقريباً ، وهما على كل حال كبيران في السن ، ومكان وجودهما معلوم متعين ، بخلاف يوسف في ذلك كله ، فانه كان حين فقد صغيراً ابن ١٧ سنة ، ولا يعلم أين مأواه ، فهو الحقيق بالأسف .

وأخيراً نقول : ماذا تظن يعقوب عليه السلام في ذلك اليوم العصيب ، يوم ماسمع بأن ولده « بنيامين » سَرَقَ واسْتُرِقَّ عبداً في بلاد غريبة ، وعند ذلك تذكر ابنه يوسف ، وزاد على هذا وهذا انحباس ابنه « رأوبين » ؟ . . هل تظن أنه كان ساكن القلب مطمئن البال ؟ . . وهل ذاق جفناه الكرى بعد هذه الحوادث الاليمة ؟ . . كلا . . لانخاله قضى يومه ذلك ، وليلته تلك ، الا مضطرباً قد هاجه الأسف ، وأطلق لنفسه عنان البكاء . . وذرف الدموع السخينة لهول ماعراه ، ليس من مصاب واحد ، بل من تلك المصائب الثلاث . قال أبو العلاء المعري:

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فهنيءْ ولاةَ الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى
أصبت

وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٤ —

وقال الفضيل الشبراوي (١) :

اعلق على هذه الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

تكرار اسف يعقوب على ابنه يوسف

١ — كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، عندما ثارت عواطف نفسه ثورة

(١) نسبة الى شبرا في مصر

عظيمة ، وتولى عن بنيه وهو خاثر النفس ، وقد تزاحمت الهموم في مخيلته، وأ كثرها بروزاً غياب يوسف — كأني به قال : « ياأسفا على ذاك الشباب الغض ، على غصنه الباسق النضير ، وا أسفا على تلك النبتة الرقيقة التي كانت تعيش بجانب دوحتها ، يفيء عليها ظلها ، ويفيض عليها نسيمها ، فهصرت وقطعت ، فاذا النبتة ذابلة ، وإذا الدوحة ثكلى حزينة !

أواه . . هاه هاه . .

يامن يعز علينا أن نفارقهم　　وجداننا كل شيء بعدكم عدم

لقد انحطت عليّ المصائب ، تعمل مطارقها على رأسي ، وسهامها في قلبي ، فلي الله ، من آسف حزين ، لي الله ، من فاقد فلذة كبده ، لي الله ، من فاقد أولاده الثلاثة ، أكبرهم وأصغرهم وأحبهم :

متى يستريح القلب والقلب متعب　　ببين على بين وهجر على هجر ؟

وهكذا تكدر وتغرمر في داخله ، حتى قهره الأسف ، وأنهكه البؤس ، وانقلب شوقه حزناً « وابيضت عيناه من الحزن » :

الحاجة التي في نفس يعقوب

٢ً — سمعت من عالم من علماء «دمنهور» عاصمة البحيرة في الديار المصرية أنه رأى مناماً سمع فيه يعقوب يقول : « يا أسفا على يوسف ، وكيف لا أتاسف عليه وقد خرج من عندي بارادتي لا قهراً ، وأسلمته لأعدائه برضا مني لا جبراً ، وقد كان يوسعي ملافاة ذلك الأمر قبل وقوعه ، بمنع ارساله مع اخوته ، مع أني أنا كنت أحذره منهم ، فكان يجب أن أحذر نفسي أيضاً ، وعلى الأقل كان يجب أخذ الحيطة باتخاذ العهود والمواثيق على اخوته ، حتى إذا غدروا به ، لم أحسب نفسي قد قصرت في أسباب سلامته » — قال : فقلت له : « ياسيدي هل هـذا هو

« الحاجـة » التي كنت قضيتها لبنيامين دون يوسف ؟ » — فأشار برأيه : « أي نعم » ، فادركت عندئذ الحاجة الواردة في قوله : « الاحاجة في نفس يعقوب قضاها » .

انما الصبر عند الصدمة الاولى

٣ً — إذا قلتَ لمَ ذكرت يوسف في مقام ذكر بنيامين قلتُ : جرت العادة ان المصيبة تظهر عند وقوعها عظيمة في عيني صاحبها ، وعلى ذلك جاء الحديث الشريف : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فاذا طال صبره عليها ، وطال أمدها تصاغرت ، حتى ربما تـكاد تزول ، ولـكن متى تجدد له مصيبة أخرى ، تجددت ذكرى المصيبة الأولى ، وهـكذا كان حال يعقوب عليه السلام ، فانه كان استعظم اشجانه بالنسبة ليوسف ، ثم سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم لما نزلت به المصيبه الجديدة ، تجددت ذكرى مصيبته الأولى ، فهاجت بلابله ، وتولى عنهم ، لـكي يخلو بنفسه ، ويطلق لهـا العنان ، في البـكاء والتصورات ، ولأنه رآهم كالحشوية يقولون مالا يعقل ، وينقلون مالا يصح أن ينقل .

وكأنني به عندما انعزل عنهم جانباً لاحت له صورة يوسف حبيبه الأول ، فأخذ منه الذهول مأخـذه ، وارتفعت حرارة شوقه الى درجة عظيمة فقال : يا أسفا على يوسف . . .

جرح على جرح

٤ً — أخذه المقيم المقعد عندما أخبروه بنبأ سرقة ولده الاصغر « بنيامين » واسترقاقه ، واحتباس ابنه الـكبير « رأوبين » بمصر ، فتولى عنهم ، وكأني به قال « زعموا منذ ٢١ سنة أن يوسف أكله الذئب ، واليوم يقولون : « إن ابنك سرق » وهذا هو الجرح الثاني ، مع إن الاول لم يندمل بعد ، وكما ليس للايام بدل ، فليس

للنفس خلف ، ولا للدين عوض ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، ومع هـــذا فان لي. أملًا بحياة الاول ، ورجاء بقوة دين الثاني وكل ماقالوه لي سابقاً ولاحقاً لم يكن».

وجوه اسف وحزن يعقوب على يوسف

٥ً ـــ قال : « ياأسفا على يوسف » مع انه كان يثق بحياته ، وانه سيكون له شأن ذوبال ، ولكنه أسف وحزن عليه لوجوه أولها : لانه خرج من عنده بارادته ولم يأخذ الحيطة باتخاذ المواثيق والعهود على اخوته لحفظه ، حتى إذا ما أخلفوا لم يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته . . وثانيها لفرقته له وطول العهد به ، وثالثها لانه تذكره بسبب حادثة اخيه ، والاسى يبعث الاسى ، رابعها لما كان سمعه قديماً عنه من أولاده أن الذئب افترسه ، لانه وان كان لم يصدق ولن يصدق بصحة هذا الخبر ، لكن جرت العادة ان أخبار السوء لايمكن أن تمر دون تترك لها أثراً في النفس ، حتى ولو كانت كاذبة ، بل ولو كان السامع لايعتقد صحتها .

المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه »

٦ً ـــ تعليقاً على قوله : « وابيضت عيناه » نعلم من فن الطب ان القسم الظاهر من مقلة العين مؤلف في الامام والمركز من طبقة شفافة تسمى « القرنية » وفي وسطها دائرة مفرغة تسمى « الحدقة » ومن وراء الطبقة القرنية والحدقة ، طبقـة اخرى تحيط بالحدقة ذات لون أسمر أو بني أو رمادي أو أزرق أو عسلي أو أخضر، تسمى « بالقزحية » وهي التي تعطي العين الصفة المميزة لها ، ومن حول القرنيـة يأتي بياض العين الذي يؤلف القسم الاكبر من مقلة العين ويسمى « بالصلبة » ؛ وعلى ذلك فيكون المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه » هو القسم المركزي

الملون من العين ، أي أنه عبر بلفظ الكل وأراد به الجزء وامثال هـذا التعبير كثير في اللغة .

معنى الكظيم

٧ً — تعليقاً على قوله:« فهو كظيم »يقال : كظمه الغيظ والغم : أخذ بنفسه، فهو مكظوم وكظيم ، ومنه : ﴿ إذ نادى رَبَّهُ وهو مكظوم ﴾ (٦٨ : ٤٨) أي مملوء غيظاً ، ومن كظم السقاء اذا ملأه ، و ﴿ ظلَّ وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم ﴾ (١٦ : ٥٨) أي مملوء حنقاً على المرأة ، والكظيم المكروب ، والكظيمة المزادة أي الراوية ؛ فالمكظوم والكظيم : المملوء من الاحزان الساكت عليها لا يظهرها لأحد ، كالاناء المملوء ماء الذي لا مُتَنَفَّس له ، ويقال كظمت الغيظ وعلى الغيظ فأنا كاظم اذا أمسكت على مافي نفسك على صفح أو غيظ ، ومنه : ﴿ والكاظِمينَ الغَيظَ ﴾ (٣ : ١٣٤) ، وكظم القربة اذا ملأها وشد فاها ، وكظم البعيرُ : اذا لم يجتر . ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً وكَظَم الباب : سده ، وعلى هذا فيجوز تفسير « كظيم » بكاظم ، مثل « حصير » في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا جهنمَ للكافرين حصيراً ﴾ (١٧ : ٨) أي حاصرة لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ (٢٥ : ٥٥) أي مظاهراً ، وكظام القربة هو الخيط الذي يشد به فمها ، والغيظ يحمل الانسان على أفعال وأقوال لا تليق به ، فشبه مانع نفسه منها بمن كظم القربة أي منعها أن يخرج منها الماء ، وفي الحديث : « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وايماناً » ، وعن عائشة ان خادماً لها غاظها ، فقالت : « لله در التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء » .

مقابلة بين حزن يعقوب وحزن ارميا

٨ً — هذه هي الكلمة الفذة « يا أسفا » التي نَفَّس بها يعقوب عن نفسه ،

ولم ينطق قط بسواها ، ولعمري لو كان « ارميا » النبي صاحب المراثي الشجية محل يعقوب ، لملأ الأرض صراخاً وعويلاً،ونثر من الأشعار ما يفتت الأكباد ،ولكن سبحان من رفع بعض النبيين على بعض درجات ، وجعل لكل واحد منهم مزية امتاز بها دون من عداه ، ومع ذلك فربما يقال إن يعقوب كان يندب شخصاًواحداً ويبكي خيمة واحدة خلت من صاحبها،ولكن « ارميا » كان يندب شعباً ،ويبكي اقليماً خلا من ساكنيه .

سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف

٩ً — أسف يعقوب على يوسف ، لان كل انسان يحب أن يحيا حياة طويلة طيبة ، ولا يتسنى له ذلك الا بواسطة أولاده وأحفاده الطيبين ، وأن الخوف من الموت غريزة في كل منا ، وذلك الخوف ليس هو من الموت الطبيعي بقدر الخوف من انطفاء الذكر بعد الموت ، فالرجل الذي لا يكون له أولاد ، فحياته تنتهي بانطفاء شعلته ، أما صاحب الأولاد فانه يعيش عيشة ثانية بأولاده ، ثم بأولاد أولاده ، وهكذا يظل مشعاله موقداً ، ينتقل من جيل الى جيل ؛

والرجل الصالح « كيعقوب » يجبأن يكون ذكره بعد موت شخصه حسناً، ويجب أن يحيا في نسله حياة حسنة ، وهذا لا يكون الا بواسطة نسل صالح ، وذلك الصلاح مأمول له أن يكون في يوسف ، كما كان قال له : « وكذلك يجتبيك ربك .. الخ » فلذلك نادى بأسفه على موضع آماله ومرمى رجائه .

الرسل بشر يعتريهم ما يعتري البشر

١٠ً — نتعلم مما حدث ليعقوب بسبب حادثتي ولديه ، ان الرسل بشر ،يعتريهم ما يعتري سواهم من الناس،وليس لهم من تدبير الكون شيء، وانما هم مُعَلِّمون، وأسوة حسنة فيما يُعَلِّمون ، قال تعالى خطاباً لنبيه الأعظم : ﴿ لَيسَ لَكَ مِنَ

الأمرِ شيءٌ ﴾ (٣ : ١٢٨) وقال تعالى : ﴿ قُلْ انَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ ﴾ (٣ : ١٥٤) فهذا يعقوب اصيب في ولديه بما نعلم ، وهذا النبي ﷺ كُسِرت رَباعيته في غزوة أُحُد ، وشج وجهه ووقع في الحفرة ، حتى وقعت الهزيمة على أتباعه المسلمين ، في هذه الغزوة ، وهو قائدها ، فأيّ نصيب من الدين الاسلامي للذين يجعلون أمر العباد ، وتدبير شؤون الكون لطائفة من أصحاب القبور أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون أن بيدهم النصر والخذلان، والإسعاد والإشقاء ، والغنى والفقر ، وانهم يفعلون كل ما يشاؤون ؟؟ فهل يعد هؤلاء من أهل السنة والجماعة ، هل يعدون من أتباع طريقة القرآن ، حقاً إن تلك المزاعم هي من النزعات الوثنية ؛ نجانا الله واياكم منها .

لفظة « يا اسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن

١١ً ـــ كلمة « يا أسفا » لم تنزل في القرآن الكريم الا في هذا الموضع ،فكأن الله تعالى جعل هذه اللفظة في كتابه مسجلة على اسم يعقوب ، وانه لولا يعقوب وأسفه ، لم تنزل هذه الكلمة من السماء في كتاب الله تعالى .

التجانس بين لفظتي الاسف ويوسف

١٢ً ـــ التجانس بين لفظتي « الأسف » و « يوسف » مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيه فيملح ويبدع ، ونحوه : ﴿ إثَّاقَلْتُم الى الارض ، أرَضِيتُم ﴾ . (٩ : ٣٩) ﴿ وهم يَنْهَوْنَ عنه ويَنْأَوْنَ عنه ﴾ (٦ : ٢٦) ، ﴿ يَحْسَبُون أنَّهم يُحْسِنُون ﴾ (١٨ : ١٠٥) ، ﴿ مِنْ سَبَاٍ بنَبَاٍ ﴾ (٢٧ : ٢٢) ، (كشاف) .

الرد على من يقول ان حب يعقوب لابنه يوسف لا يليق الا بمن كان غافلا عن الله

١٣ — ههنا يتساءل بعض المغفلين المتفلسفين ويقول : « إن عناية يعقوب بيوسف ، وحبه اياه لهذه الدرجة ، لا يليق إلاّ بمن كان غافلاً عن الله ، وحبه لمولاه ، الذي يملأ القلب ، فلا يكون فيه متسع لسواه ، فان من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء عداه » ؟

وعندنا ان هذا الكلام مدخول ، مزين الظاهر ، فاسد الباطن ، غير منطبق على عقل أو شريعة ، وهو مخالف لروح الاجتماع وطبيعة الكون ؛ كيف لا .. وقد أرشد الله عباده المؤمنين الى العناية بكل شيء ، حتى بالدريهمات ، فأنزل فيها في آية الدَّيْن نحو مائتي كلمة (٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣) وانا نجد في الكتاب الكريم أن الله تعالى عُنِيَ بكل شيء ، حتى بالزيتون ، فامتنّ به في كتابه ثلاث مرات ، وبالرمان ، فامتنّ به ثلاثاً أيضاً ، وبالنخيل ، فذكره في كتابه ممتناً به على عباده ، اثنتي عشرة مرة ، وبالعنب ، فذكره في كتابه عشر مرات ، وبالخل ، فامتنّ به على عباده حيث قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنه سَكَراً ﴾ (١٦ : ٦٧) على أنا نجد في كتاب الله الكريم عناية الله وامتنانه على عباده بالحمير (١٦ : ٨) ، وبالقَضْب ، وهو الكلأ اليابس (٨٠ : ٢٨) ، وبالأبّ ، وهو الكلأ الأخضر ، (٨٠ : ٣١) وقد أقسم الله تعالى بجميع ما في هذا الكون من مخلوقاته ، أي بجميع مواليد العالم كله ، فقال : ﴿ ووالدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (٩٠ : ٢) ، فاذا كان الله العظيم ، وهو الله العظيم ، يُعنى بهذه الأشياء ، ويهتم لها ، ويمتن على عباده بها ، أفلا يحق ليعقوب عليه السلام ، أن يُعنى بفلذة كبده ، ويهتم لمحط آماله ، ويحب ولده يوسف حباً جماً ؟ ..

(مرحى)

(وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف .. الخ)

— ٥

وقال ابن الدقيق الهندي :

ابيضاض العينين امتلاؤهما بالدمع من اثر الحزن

السلام عليكم : ايها السادة :

ما تركت اخواتي الاربعة الاوائل ، كلمة لهذا الحقير القائل :

جزى الله خيراً قومنا وجدودنا فقد مهدوا سبلاً لنا ومسالكا
سلكنا بها عفواً بدون مشقة ولولاهم السارى لأصبح هالكا

غير اني استميحكم ان أتكلم على قوله تعالى ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ، فبعد إذنكم اقول :

يخيل لي ان معنى « ابيضت عيناه من الحزن » : امتلأت عيناه من أثر الحزن وهو الدمع ،أوامتلأت عيناه دمعاً من أجل الحزن ،

وبيان ذلك ان الابيضاض يطلق على الامتلاء والتفريغ، ضدّ ،قال في الأساس: « وبيّض الاناء : ملأه وفرّغه ، وعن بعض العرب:ما بقي لهم صميل إلا بُيّض: أي سقاء يابس إلا مُلىء » ، وقال في القاموس : « بيّضه : ملأه وفرّغه ،ضد »، والأبيض الماء ، وعليه فعندنا ان المعنى ههنا : ان عينيه امتلأتا من أثر الحزن ،حيث فاض حزنه ، من قلبه لعينيه ، أو ان عينيه صارتا تمتلآن من أجل الحزن دموعاً وترسلانها على خديه ، فعبارة الأساس تصحح المعنى الذي قلناه ، فما بقي علينا إلا أن نستدل على انه المراد ، دون غيره مما قالوه ، ولنا على ذلك دليلان : نقلي ، وعملي، فأما النقلي : فيعقوب نبيّ ورسول ، والأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة للطبيعة ، ولا ريب ان العمى نوع من تلك الأنواع المنفرة ، وأيضاً فحمله على

العمى أو على مرض بياض العين ، لنا فيه قول أولاده له: « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً » : أي مريضاً أو فاسد الجسم ، فظاهره انه وقت ما كلموه بهذا القول ، لم يكن فيه نوع من أنواع المرض ، وليس فيه شيء من الفساد ، في بدنه أو عينيه ، فكلمة أولاده هذه ، تؤيد المعنى الذي حملنا عليه الابيضاض ، وتدفع المعنى الذي قاله المفسرون .

وأما الدليل العلمي : فان الفنّ يمنع أن يكون الحزن أو البكاء ،سبباً في بياض العين ، بالمعنى المشهور ، الذي مشى عليه الجمهور .

وبهذه المناسبة — والحديث ذو شجون — أتذكر حادثتين حدثتا لي مع بعض الطلبة : الأولى : قال لي بعض طلاب العلم : لماذا لانقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأُشْرِبوا في قلوبهم العجْلَ ﴾ (٢:٩٣)، أن المعنى : انهم أشربوا نَفْسَ العجل ، الذي حرَّقه موسى وذراه ونسفه في اليم ، وهو النيل ، وهم كانوا يشربون من النيل ، فصدق عليهم انهم اشربوه ؟ — فقلت له : وماذا تفعل في كلمة « قلوبهم » فان الشرب انما يكون في البطون دون القلوب !!

الثانية — وهي اكثر مناسبة لموضوعنا ، انني سمعت من بعض الطلبة ينقل عن المفسرين أن يعقوب عمي أو حصل له مرض في عينيه ، يسمى « بياض العين » فقلت له : وماذا نصنع في كلمة « من الحزن » فإنه لاشيء من العمى ومن بياض العين ينشأ عن الحزن ، فما وسعه الاالسكوت.

فابيضاض العين ياسادة هنا ، هو من قبيل مايسميه علماء البلاغة « التورية » وهي أن يطلق لفظ له معنيان ، قريب وبعيد ، ويراد البعيد لقرينة ، والقرينة هنا على ارادة المعنى البعيد ، كونه فيما سبق قد أخذ على عاتقه « الصبر الجميل » الذي لاينافي امتلاء العين بالدمع ، فانه سبحانه « أضحك وأبكى » ، (٥٣:٤٣)

فالعبرة لا يملكها ابن آدم ، ولا تسبُّبَ له فيها ، فلا يؤاخذ عليها ، فلا تنافي « الصبر الجميل » ، ولكن ينافيه البكاء الكثير جداً ، بحيث ينشأ عنه العمى .

تفسير ابيضاض العينين بمعناه المجازى

وأخيراً ياسادتي يمكن أن يقال أن ابيضاض العينين هنا ليس بالمعنى الحقيقي ، بل بمعناه المجازي ، وهذا نظير ابيضاض الوجوه واسودادها ، المذكور في نحو قوله تعالى : ﴿ يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسْوَدُّ وجوهٌ ﴾ (٣:١٠٦) وقوله : ﴿ ويومَ القيمةِ ترَى الذين كذَبوا على اللهِ وُجوهُهم مُسْوَدَّةٌ ﴾ (٣٩:٦٠) وعلى هذا النحو ماروي ﴿إن المؤمنين يحشرون غراً محجلين ، من آثار الوضوء﴾ فهل تحمل هذه الأقوال على المعنى الحقيقي ، بحيث يكون المؤمنون يوم القيمة ، في وجوههم بياض ، وفي سوقهم بياض ، مخالفاً لباقي أجسامهم !... كلا .. فإنهم يكونون هزؤاً وضحكة للعالمين ، وهل يكون أهل النار ، بيض الأجسام ماعدا وجوههم ، فانها ستكون سوداء ؟... كلا .. ولكن البياض والسواد ، في أمثال هذه النقول ، من باب الكناية عن المسرة والغم ؟ حتى قال العرب لمن لم يتدنس بمعاب : « هو أبيض الوجه » وقال شاعرهم فتعجبوا لسواد وجه الكاذب ، والعرب لليوم يقولون : « بيض الله وجه فلان ، وسوّد الله وجه فلان» وبالله عليكم ، ماذا يقول هؤلاء الناس الجامدون ، في قوله تعالى : ﴿ واذا بُشِرَ أحدُهم بالانثى ، ظلَّ وجهُهُ مُسوَدّاً ﴾ (١٦:٥٨) ، فهل يحملونه على الحقيقة ويقولون : إن الرجل العربي ، كان إذا بشر بولادة امرأته بنتاً ، ينصبغ وجهه بلون السواد ، كأنما انقلب زنجياً بعد ما كان أبيض ؟.. حاشا أن أحداً يفهم هذا المعنى ، فاحمل اللفظ في كل موضع على المعنى المناسب ،ولا تكن من الجامدين.

كاتب سر المؤتمر : نشرنا هذه الكلمة التي القاها الاستاذ ابن الدقيق الهندي على مسؤولية قائلها وحده .

اشفاق ونصح

آ (٨٥) ﴿قالوا : تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ ، حتى تكونَ حرَضاً او تكونَ مِن الهالِكِين﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخامسة والثمانون ، فقام سعد الدين البرقاوي [١] وقال :

سبق أن يعقوب عليه السلام كان انسحب من ميدان المناقشة مع أولاده ، وتركهم وانحاز وحده وما أن انقضت مدة إلا وقد رجعوا لمناقشته والملاحظةعليه، (قالوا) مؤنبين له : قد مات الميت فليحي الحي ، ونحن لم يبق لناصبرعلى السكوت عن هذا البكاء وهذه التأسفات ، قد أصبح يوسف شغلك الشاغل ، (وتالله) رب ابراهلم واسحق — وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قوله : « ياأسفا على يوسف » — لا(تفتأ) لاتزال — وحذف حرف النفي ، لأنه لايلتبس بالاثبات ، لأنه لو كان اثباتاً ، لم يكن خالياًمن اللام والنون ، ونحوه : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » — (تذكر يوسف) بياض نهارك وسواد ليلك ، في اضطراب وهياج وحزن وبكاء ، ولاتبرح تضرب على هذا الوتر المحزن (حتى تكون حرَضاً) مشفياً على الهلاك مرضاً ، — وأحرضه المرض ، ويستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه مصدر ، والصفة حرِضٌ «بكسر الراء» ، ونحوها دَنَف ودَنِفٌ ، وجاءت القراءة بهما جميعاً ، قال في فقه اللغة : « الحرِض بالكسر هو الذي لا حيٌّ فيرجى ولاميت فينسى » (أو) أي بل واكثر من الحرَض بأن

---

(١) نسبة الى برقة من بلاد المغرب العربي .

(تكون من الهالكين) فإن ذلك عاقبة الأحزان ، والحـال الذي أنت عليه يذيب الشحم ، ويَعرُق العظم فالى متى تذكر من مات ، ومات حظه من الدنيا ، هذا كلامهم لأبيهم ، وهو نصيحة منهم له واشفاق عليه ، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف . (أصبت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد عبد العظيم الاشموني [١]

ابناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على ابيهم وتسرية همومه واحزانه مع شيء من اللوم

أراد أبناء يعقوب تهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، فدلفوا اليه وحلقوا فيه ، وقالوا له وقد رأوه انتقع لونه ، وتولاه الهزال : اضبط زمام نفسك ، واملك تذكاراتك لولدك ، ان في الموجود عزاء عن المفقود ، وان في الحاضر خلفاً من الغائب ، ان لك في أولادك وأحفادك لشغلاً شاغلاً ، ولك في النظر لصحتك وعافيتك ماينسيك كل شيء ، انك تخدع نفسك بهذه الأفكار ، وتسوقها الى المرض فالهلاك ، عن رضا وطواعية ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولاتفجعنا فيك ، فانه يعز علينا جداً أن نراك بعد قليل في يد البثور ، مرتحلاً من بين أيدينا الى أعماق القبور ، وتالله لاتفتأ تذكر يوسف بهذا الامعان والتعمق والأطناب مرة بالشكل واللوعة ، وحيناً بالهتف والضراعة ، وطوراً بالأسف والحزن ، وتارة بالأنين والتباكي ، وآونة بالثناء ، وأوقاتاً بالدعاء ، نعم لاتزال تذكر يوسف الذي أصبح من روايات التاريخ ، والذي هو في عالم الأموات منذ

(١) نسبة الى اشمون من البلاد المصرية .

زمن بعيد ، حتى تكون حرضاً ، فليس لطبيب ، ولا لجمع من الأطباء مقدرة باستئصال هذا المرض من جسمك ، ولا يرون لك فيه إبلالاً ، بل وأكثر من ذلك تكون من الهالكين ، لذوبان قلبك ، وطيرانه شعاعاً على هذا الفقيد ، فهل سمعت بأن ميتاً رجع في هذه الدنيا الى الحياة الجديدة ؟ أو هل تظن أن يوم البعث هو بعد يوم أو يومين ؟... والله ماندري مانقول لك ، أنعظك وأنت واعظنا في جميع الأوقات ، ونجم هدانا الذي نستنير به في وسط الظلمات ، أم نرشدك الى ماينبغي أن تلاحظه في نفسك ، ولا نعرف شيئاً أنت تجهله ، إن هذه الحياة التي تحياها انما يلجأ اليها من يريد أن يمشي في طريق القبر ، إن من رآك رآى همّاً أوفى على المئة والستين ، مع أنك لم تسلخ المئة والثلاثة والأربعين ، استرخى حاجباك ، ثقلت أجفانك ، جمدت نظراتك تهدّل عارضاك ، تجعد جبينك ، انهض عاتقاك ، هوى بينهما رأسك ، فلعمرنا لقد تغير فيك كل شيء ، ولم يثبت فيك إلا تلك الذكرى المؤلمة ، فخفض عليك قليلاً ، وروه نفسك بنسيان الماضي ، لا تأس على مامضى ، اصبر قليلاً أيها الشيخ الجليل « فهاهوذا الموت يمشي اليك ، باسرع مما تمشي اليه ، اصبر فان هذه الذكرى سبب في الهلاك ، فلا تهلك نفسك بيدك ، ولا تستسلم لهذا التذكار .

وكأني بسيدنا يعقوب قد قال لهم وهو يشرق بدموعه : « أفبهذا الكلام تعزونني ياأولادي ؟.. دعوني أذكر ابناً سليم القلب ؛ ذا مستقبل باهر ، ولا أدري أين هو اليوم ، ولا ماهو حاله ، واذا كنتم تشفقون عليّ فابكوا معي وشاطروني في أحزاني ». (أحسنت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال لسان الحق الامبابي [1] :

« تالله » كلمة صحيحة اريد بها باطل

قولهم « تالله ... الخ » كلمة صحيحة ، أريد بها باطل ، لأنهم قصدوا أن أباهم ينبغي أن ينسى أو يتناسى يوسف . نفاسةً منهم عليه وحسداً له .

الحرض ومرادفاته

وقولهم « حرضاً » من فعل حَرِضَ وبابه تَعِبَ أشرف على الهلاك ، فهو حَرَضٌ ، وسميته بالمصدر مبالغة ، أو يقال الحرض والمرض والعلة والسقم والوحع والوعك والوَصَب والضنى والنَّهَك والدَّنف والداء تقريباً واحد ، أي دا حرص .

استعمال كلمة « الهلاك » للمسلم والكافر سواء

وأما كلمة « الهالكين » فيتصور الجمهور من الناس اليوم انها لا تستعمل إلا في الكافر عند موته ، فيقال هلك « ماير » اليهودي ، ولا يقال هلك « محمود » المسلم إذا مات ، بل توفي مثلاً ، وهو وهمٌ مبني على العرف الحاضر ، لا على اللغة العربية ، ولذلك نرى أولاد يعقوب ههنا ، لقد لفظوا بهذه الكلمة ، أو ما يرادفها في لغتهم العبرية ، موجهين الخطاب بها لأبيهم ، ومنه قوله تعالى :﴿ ولقد جاءكم يوسف من قَبْلُ بالبينات ، فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به ، حتى إذا هَلَكَ

---

[1] نسبة الى امبابة من البلاد المصرية .

قلتم : ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رَسُولاً ﴾ (٤٠:٣٤)　　(مرحى)

أين الشجي من الخليّ

آ (٨٦) ﴿ قال : إِنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي الى اللهِ ، وأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية السادسة والثانون فقام المدقق الحموي (١) وقال :

دهور يعقوب دموعه في اشداقه و(قال) لأولاده متأففاً : مالكم تتذمرون عليّ ؟.. لا بد للمصدور أن ينفث ، فلا تحرجوني ، ومع ذلك فما أنتم وهذا الانتقاد؟ فهل اليكم أقدم شكواي ، أو لغيركم من الخلق ؟.. حاشا لي من ذلكم كله ، أنا لم أشك لأحد ، ولا أريد أن أشكو اليكم أو لغيركم (إنما أشكو بثي) همي العظيم — والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه للناس ، أي ينشره ، ومنه باثه أمره ، وأبثه إياه — (وحزني) غمي (الى الله) وكفى ! وأما هؤلاء الناس فلست بشاك اليهم شيئاً ، بل ولا أسألهم دينا ، ولا أستفتيهم عن دين ، بل اليه تعالى أكل أمري (وأعلم من) أسرار غيب (الله مالا تعلمون) ، إذ أعلم بمستقبل يوسف ، ولكأني أراه رأي العين ، إنما أنا أحزن وأبكي وأتأسف لكوني أرى أن شقة البعد طالت ، ونور اللقاء يسير يبطء ، فهذا الذي قضى بحزني وبكائي وتأسفي ، بحكم الطبع البشري .

(١) نسبة الى بلدة حماه من سورية

(قال إنما أشكو بثي وحزني .. الخ)

— ٢ —

وقال الشهاب الخليجي (١) :

يعقوب يرد لابنائه نصحهم له ولومهم اياه على حزنه على يوسف

كأني بيعقوب عليه السلام حدّق في وجوه أولاده تحديقاً شديداً والدمع يترقرق في عينيه ، ثم قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ، رويداً رويداً أيها اللائمون ، فشديد جداً على والد شيخ مثلي أن لايذكر ولداً له ، فارقه الى مالايعلم ، لاسيا وقد امتدت شقة الفراق ، بحيث صار بيني وبينه هوة سحيقة ، لاقرار لها ، فهل من العجب مع هذا أن يطير قلبي خوفاً وهلعاً ، أو شوقاً وتوقاً ؟.. على أن غرضي من ذلكم أن أروّه عن نفسي همومها وآلامها ، بالمناجاة والشكوى الى عالم السر والبلوى ؛ كما يرفه المريض عن نفسه أسقامه وأوجاعه ، بترديد الأنات ، وتصعيد الزفرات ، ولاعلي إن أبثثتُ همي لربي ، ورفعت عقيرتي لخالقي :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها مابها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاة الى غير أحبابها

وأن الشكوى الى الله لهي من ثمار الايمان ، وليس أفضل منها وسيلة لتعزية الانسان :

لاتسألنَّ بُنيَّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبُني آدم حين يُسأل يغضب

سامحكم الله ياأولادي ، ماهذه الظنون التي تظنون ؟.. وماهذا التثريب الذي

---

(١) نسبة الى بلدان الخليج العربي

تضايقوني به ؟... و كيف تحولون بيني وبين البكاء على أولادي الثلاثة ، ولاسيا « العزيز » يوسف ؟..

وقع الشوائب شيّبْ والدهر بالناس قلّبْ
إن دان يوماً لشخصي ففي غد يتقلب
فلا تثق بوميض من برقه فهو خلّبْ
واصبر إذا هو أضرى بك الخطوب وألّبْ
فما على التبر عارٌ في النار حين يقلّبْ

سامحكم الله ياأولادي ، أراكم كلما زادت كروبي زدتم في التأنيب ، على حد مايقول القائل :

كلما أنبت الزمانُ قناةً ركب المرء في القناة سِنانا

أنا لي رجاء في يوسف ، وأنتم تقولون ، إنه صار من صيد أمس .

وما صبابة مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل

ياأولادي : الدمع دمعي والعيون عيوني ، فدعوني أبكي ، والقلب قلبي والفؤاد فؤادي ، فدعوني أحزن ، واللسان لساني والأسف اسفي ، فدعوني أرفع عقيرتي الى ربي بالأسف ، دعوني فانكم لم تصابوا بمصيبتي ، ومصيبتي هذه انما هي فوق رأسي ، سبحان الله ! أنا على أحر من الجمر . وقلوبكم أبرد من الثلج ، أنا أتأسف وأنتم تصفقون ، أنتم تشتغلون بمجادلتي .

القلب أعلم ياعذول بدائه وأحق منك بجفنه وبمائه
فوَمن أحب لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه
أأُحبه واحب فيه ملامةً ؟ إن الملامة فيه من أعدائه
لاتعذُلِ المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه
إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

يا أبنائي — إنما أشكو همي العظيم وغمي على مامضى الى الله عز وجل ، وهذا أمر أحلته لي الشريعة ، ودعتني اليه الطبيعة ، واعلم من اسرار غيب الله مالا تعلمون ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟.. والأيام بيننا . والمستقبل كشاف .

يا أبنائي : انا لست احب يوسف لسواد عينيه ، وليس حالي معه كمحب لشخص ، ومغرم بذات ، بل انا محب لآمالي فيه ، محب لرجائي في مستقبله ، فلست اذكر اسمه الا مشفوعاً بتلك الآمال ، وذاك الرجاء ، ولذلك فأنا حتى اليوم وغدٍ أقول : آه ، ياترى ، يوسف الذي ستسجد له الكواكب أين هو ؟.. أواه .. ياعجباً ، يوسف الذي سيجتبيه ربه أين « راح »؟.. واحسرتاه .. يوسف الذي سيعلمه ربه من تأويل الأحاديث أين ذهب ؟.. يوسف الذي سيتم ربه نعمته عليه ، ماذا حل به ؟..

لذلك أنا لاأضن ببكائي واسفي على يوسف ، بل ولا بصحتي ، بل ولا بحياتي ، فكيف انتم تضنون بشيء لايضن به صاحبه ؟.. الدموع دموعي ، والزفرات زفراتي ، والصحة صحتي ، والحياة حياتي ، فدعوني أجود بذلك كله في سبيل محبة يوسف ، مهما كلفني الأمر .

فصلاحي الذي زعمتم فسادي وفسادي الذي زعمتم صلاحي

وبعد ذلك أقول لكم : اما كان يجمل بكم ان تشاطروني احزاني ، وتخففوا عني وطأة همومي ، عوضاً عن هذا التعنيف ، وبدلاً من هذا التأنيب ؟.. سبحان الله ! لوترك القطا لنام ، ياأيها الناس ، من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين ، ومن لم يُحِس بالألم ، فليشفق على المتألمين .

ياأولادي ، اني اعلم من غيب الله مالاتعلمون ، اعلم سلامة يوسف وحياته ، وذلك مما أُوحي الي في شأنه ، ان ربه سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث

ويتم نعمته عليه ، فمن هذه الأمور التي لم تجيء بعد ، ومن الرؤيا التي رآها ، ولم يأت تأويلها ، اعلم ان يوسف حي يرزق ، وانه يعيش الى ان يبلغ مبلغ الرجال، واننا سوف نجتمع به ونراه على احسن حال ، كما يحب ونحب ، وعندئذ يقع تأويل رؤياه . يابني — انا اعلم اكثر مما تعلمون ، بل اعلم مالا تعلمون ، فكأنما في فؤادي الأشعة المجهولة التي تكشف عما وراء الحجب والموانع ، وعلى عيني منظار الرصد المقرب المجسم ايضاً ، ولذلك فأنا لا آخذ عليكم .

ياأولادي ، قد سمعت مقالتكم ، وتبين لي نصيحتكم ، والإشفاق عليّ من جهتكم ، غير أني — يرحمكم الله — لا أجهل أمراً تعلمونه،وأما أنتم فأنكم تجهلون أموراً كثيرة أعلمها ، إن الذي يرى ببصيرته ، غير الذين يرون بأبصارهم ، أنا أطالع صحيفة من صحائف الغيب ، لم يقرأ واحد منكم منها حرفاً واحداً ، بناء عليه اتركوني وشأني .

هذا آخر جواب يعقوب عليه السلام لأولاده وترى أنهم سكتوا ، ولم يعودوا يحاورون أباهم ، ولا نعلم هل كان سكوتهم عن احترام ، أو عن اقتناع ؟ . . .

(جيد)

تذييلات :

جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعم والعطايا

١ — نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه ، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصلبيون ، لا أناس بعداء عنه ، فهي مصيبة ذات وجهين ، ثم إنه ياليته شدد في الاحتياط ، إذ كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيهم (ع ٥) ، بل استرسل معهم استرسالاً ، كانه لا يعرف شيئاً من مكائدهم ومصائدهم ، ثم بعد (٢٠) سنة أخذوا

من عنده ولده الأصغر بنيامين وأخيراً جاؤوه بالخبر السيء ، خبر انه سرق ، وأسرق في مقابلة ذلك ، الأمر بل الأمور التي أزعجته ، وأقلقت راحته، والحكمة في ذلك الاشارة الى أن لانجعل المصائب الشخصية دليلا على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، فان من الجائز عقلا والواقع فعلا ، أن يبتلى صاحب الحق ، بالمصائب والرزايا ، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما أن عكس ذلك جائز وواقع ، قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ (٣ : ١٨٦) وقال تعالى : ﴿ وإذ ابتَلى إبراهيمَ رَبُّهُ بكلماتٍ ﴾ (٢ : ١٢٤) وقال تعالى : ﴿ فلما أسْلَمَا وتلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وناديناهُ أنْ يا ابرهيم ، قد صَدَّقْتَ الرؤيا ... إنا كذلكَ نَجزِي المُحْسنين ، إن هذا لَهُوَ البلاءُ المُبينُ ﴾ (٣٧:١٠٣-١٠٦) وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ، وَيَمْحَقَ الكافرينَ ، أمْ حَسِبْتُم أنْ تدخُلوا الجنةَ ؟ ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكم ويَعْلَمَ الصابرينَ ﴾ (٣ : ١٤١ و ١٤٢) ،وقال تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مافي صُدورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مافي قلوبكم ، واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾ (٣ : ١٥٤) وقال تعالى : ﴿ أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلوا الجنةَ ؟ ولمَّا يأتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم : مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضراءُ وزُلْزِلوا ، حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا مَعَهُ : متى نَصْرُ اللهِ ؟ !! ! ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قريبٌ ﴾(٢ : ٢١٤) نزلت في غزوة أحُد حين غَلَبَ المشركون المؤمنينَ ، وشجوا رأس النبي ﷺ ، وكسروا رباعيته ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبْلُوَني أأشكرُ أم أكْفُرُ ﴾ (٢٧ : ٤٠) .

الحكمة من منع علم الغيب عن الناس واطلاع الانبياء على شيء منه

٢ً — تعليقاً على قول يعقوب (وأعلم من الله مالا تعلمون) غني عن البيان ان الله جلّ جلاله حجب علم الغيب عن الناس ، ذلك لأجل رحمتهم واسعادهم ،

إذ لو علم الناس الغيب لنزلوا الى الحضيض، ولكانوا أخس المخلوقين : وأتعب الخلق أجمعين، ذلك ان المرء لو اطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلا سيكون رئيس حكومة أو مثرياً أو طبيباً أو استاذاً جليلا في العلم — لو صار هذا له لم يفكر يوماً مافي علم السياسة، ولا في جلب المال، ولا في قراءة الكتب، ولا في تحصيل العلم ولا في دخول المدارس العالية، واذن تضيع الحكمة، وتذهب الحياة سدي، وتكدر معيشة كل إنسان؛ أما جهل الناس بالمستقبل، فهو الذي يكفل سعادة الناس، وصفاء عيشهم، لانهم يجدون ويدأبون على السعي، وذلك داع حثيث الى اتقان العمل.

علم الناس بالغيب، قد يسبب أضراراً كثيرة، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على مافي قلوب الآخرين، من حسد وبغض وكراهة، فكيف يعيش الناس في صفاء، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء؟، لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع علم الغيب عن الناس.

ولكن نظراً لأن سد باب الغيب مرة واحدة. وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة « ولا حياة بعد هذه الحياة، ولا ملائكة ولا وحي، ونظراً لأنه يلزم أن يكون لله تعالى وسطاء بينه وبين عامة عباده، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء، سمح باطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب، من طريق الوحي والإلهام، في اليقظة أو في المنام.

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله تعالى على الوجه الذي قلناه، قوله تعالى : ﴿ عالِمُ الغَيْبِ ، فلا يُظهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً، إلا مَنْ ارتَضَى مِنْ رسولٍ؛ فإنّه يَسلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ ومِنْ خَلفِهِ رَصَداً؛ لِيَعلَمَ أنْ قدْ أبْلَغُوا رِسالاتِ رَبّهم ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧)، وقال تعالى حكاية عن نوح (ع) : ولا أقولُ لكم : عندي خزائنُ اللهِ، ولا أعلَمُ الغَيْبَ ، ولا أقولُ : إني

مَلَكٌ ﴾ (١١ : ٣١) وقال تعالى خطاباً لخاتم رسله ، أمره أن يبلغه خلقه : ﴿ قُلْ : لا أقولُ لكم : عندي خزائنُ اللهِ ، ولا أعلمُ الغيبَ ، ولا أقول لكم: إني مَلَكٌ ، إنْ أتبعُ الا ما يُوحَى إليّ ، قُلْ هل يَستوي الأعمى والبصيرُ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ (٦ : ٥٠) .

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله : ﴿ وَلَوْ كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرْتُ مِنَ الخيرِ ، وما مَسَّنِيَ السوءُ ؛ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٧) وقال تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ ليُطلِعَكم على الغيبِ ، ولكنّ اللهَ يَجتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ ﴾ (٣ : ١٦٩) ، وقال تعالى : ﴿ وعِندَهُ مَفاتِحُ الغيبِ لا يَعلَمُها الا هُوَ ﴾ (٦ : ٥٩) .

وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب

ومما تقدم يعلم ان الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب ، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة ، وذلك مشروح في القرآن ، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك ، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص ، لا نتعداه بزيادة ولا نقصان ، لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب ، فيقيسَ ويستنبطَ ، فما كان من النصوص قطعياً ، كالآيات الكريمة المصرحة بالاخبار عن الانبياء السابقين وأممهم، وعن الآخرة وما فيها ، وعن الملائكة والجن ، وعما وعد الله به هذه الأمة من الاستخلاف في الارض ، فإننا نؤمن به ونقول بكفر من أنكره ، وما كان منها مروياً في أخبار الآحاد ، فلا يكلّف كل مؤمن بعلمه والايمان به ، وأحاديث الآحاد الواردة بإخبار النبي ﷺ بالغيب كثيرة ، وقد ظهر تأويل المشهور منها ، كالإخبار بان الله يفتح على المسلمين مصر والشام وغيرهما من الأقطار ، والإخبار بأن « عمّاراً » تقتله الفئة الباغية ، وأن « الحسن » يصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وان « فاطمة » رضي الله عنها أول أهله لاحقاً به بعد موته .

وأمّا ما ورد من أنّ الجنة والنار مُثّلتا له في عرض الحائط،أو قبلة الجدار، ومن أنه رويت له الأرض ، فرآى ما يصل اليه مُلْك أمته منهـا فلا يدل على ان الله تعالى أطلعه على ما كان وما يكون ، مما ليس في استعداد البشر الاطلاع عليه ، اذ لا نهاية له ، ولا هو مما يتعلق به تبليغ الرسالة وهداية الخلق ،وايضاً فالنصوص تنافيه ، والنبي يقول : « إنْ أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون » (٧ : ١٨٧) فهو ينفي أن يكون له خصوصية غير التبليغ بالإنذار والتبشير ، كأنه يقول . إن الله تعالى أمرني أن ابلغكم بانني لا أمتاز عليكم بصفات الالوهية ، كالقدرة على النفع والضر وعلم الغيب ، و ﴿ إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَى اليّ ﴾ (١٨ : ١١١) .

طرق نقل العلم

٣ً — كان طريق علم يعقوب هو الوحي السماوي ، ويوجد اليوم طرق اخرى لعلم الأنباء البعيدة كالبرق والبريد والهاتف والراديو واللاسلكي والطائرة والمنطاد ثم قراءة الافكار والتنويم المغناطيسي وغير ذلك من المخترعات العصرية ، ولكن هذه الطرق مرتكزة على أسباب علمية ، وأما الوحي فليس مرتكزاً على شيء ، سوى نزول الملك والالهام .

العودة الى مصر للتحسس

آ(٨٧) ﴿ يا بَنِيّ ، اذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأَخيه، ولا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ،إنّهُ لايَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثمانون ، فقام وليّ الدين البهنسي [١] وقال :

سبق ان يعقوب قال لأولاده : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، فهو لما قال لهم هذه الجملة ، وأفاض في شرحها ومراميها ، اتخذ ذلك فرصة لتصريحه باعتقاده بحياة يوسف ، وبراءة بنيامين من السرقة ، فلذلك ولكون الحب مبنياً على الرجاء قال : « يابَنِيّ » دعونا من المزاعم والأوهام،والأخبار الموضوعة ،والادعاءالباطل، فلا اخفي عنكم أنني لليوم وللغد أتوقع خلاف ماتظنون في اخويكما ، لذا (اذهبوا) لمصر للمرة الثالثة (فتحسسوا) فيها (من يوسف وأخيه) بنيامين ، وتعرفوا منها ، وتطلّبوا خبرهما (ولا تيأسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) من فرجه وتنفيسه ، ولا تنفضوا أيديكم منهما ، بالرغم عن قدم العهد بيوسف ، وعن أن خصيمكم في بنيامين هو الحكومة المصرية ، فلا تجعلوا لليأس سبيلاً الى قلوبكم ، (انه لا ييأس من رَوح الله الا القوم الكافرون) ولذلك فاني لا أيأس من حياة يوسف وبراءة بنيامين واطلاق سراحه ، ولن أيأس من ذلك ما تردد لي نَفَس على وجه الأرض ، وان طول شقة فراق يوسف وكل ما جرى على بنيامين ، لم يقللا شيئاً من أملي من هذا القبيل .

---

(١) نسبة الى بلدة بهنس في القطر المصري .

(يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه .. الخ)

— ٢ —

وقال جمال الدين الانطاكي (١) :

يعقوب يطلب من اولاده العودة لمصر للامتيار ظاهراً والتحسس من يوسف واخيه باطناً

مازالت حال يعقوب عليه السلام تضطرب بين فرح وهم ، وسرور وغم ، ومابرحت آماله تتراوح بين مد وجزر ، وبسط وقبض ، يذكر حلمي يوسف ، وما اوحى الله اليه في شأنه ، فيشرق له في خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، ويلوح له جمال العيش الساطع ، ثم يذكر غيبة يوسف ، وانقطاع اخباره ، وطول المدة وماطرأ بعد ذلك من حادثة بنيامين ، واحتباس رأوبين بمصر ، وما اعدت له الأيام في طياتها ، فيلمس صدره بيده ، ليعلم اين مكان قلبه من اضالعه ، فلا تراه إلا متأسفاً قائلاً : ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل ، ولذلك قال لهم مامرماه :

يا ابنائي — إن للأمور ظواهر وبواطن ، فلا تقفوا عند ظواهرها ، دون البحث والتنقيب عن بواطنها ، فربما لايكون الذئب قد افترس يوسف افتراساً ، ولكنه حاول افتراسه ، فتجاذبا ، فأمسك الذئب بقميصه . وجرحه فقط ، واما يوسف فتملص من القميص ونجا باعجوبة سالماً فائزاً بحياته ، فلقيه اشقياء من كنعان او الكلدان او الإفريقيين ، فاسترقوه ، حسب العوائد الشائعة بين اولئك الأقوام ، وكذلك ربما لايكون اخوه « بنيامين » سارقاً ، بل دبرت له مكيدة من عدو له ، او من بعض عمال الحكومة لأمر ارادوه ، اووضع الصواع

(١) نسبة الى بلدة انطاكية في سوريه.

في رحله سهواً ثم نسي فيه ، فعسى ان تقفوا على شيء من هذا القبيل ، فيخلص اخوكم من هذه الاحبولة ، لأن الحق فوق القوة ، لذا فهيا واذهبوا الى مصر ، واستقصوا خبرهما ، واسألوا عنهما ، لعلكم تهتدون على ضالتكم ، ياأولادي ها هو صوت يرن في اذني ، ثم يخترق اعماق قلبي ، يقول لي : « يوسف حي » و« بنيامين امين » فقوموا اذهبوا وكونوا كلكم آذاناً ، حتى تسمعوا عنهما خبراً ، كونوا كلكم عيوناً تتطلع الى روايتهما، كونوا كلكم ألسنة تسأل عنهما اهل الآفاق ، كونوا كلكم انوفاً ، تستنشق اريجهما ، كونوا كلكم ادمغــــة ، تفكر في اسباب لقياهما ، وبالجملة كونوا كلكم ارواحاً تحلق في الاجواء حتى تقع عليهما وعلى حقيقة امرهما

يابنيّ — إن الإنسان إذا افتقد شاة بث عليها العيون والأرصاد ، ونشر السعاة والرواد ، ولا يهدأ له بال ، حتى ترجع اليه تلك الشاة ، فكيف والمفقود منا إنسان بل إنسانان ؟ . . . فاذهبوا وتخبروا من يوسف وأخيه ، وأبذلوا في ذلكم وسعكم وطاقتكم ، ولا تَنُوا ، اذهبوا وتبينوا حقيقة الحال ، فانتم عيوني وأرصادي لهـذا الأمر كما لغيره ، فلا تألوا جهداً في ا كتناه جلية الواقع ، ولا أظنكم إلا عائدين لي ، مزودين بالخبر اليقين ، حاملين اليّ البشارة السارة عنهما .

يابني — افتكروا في طريقة مثلى تقفون بها عليهما ، عساكم تجدونهما سالمين ، فما على الله أمر عسير وان عزائم الرجال تذلل الصعاب ، وقد تكون أرهف حداً من الصوارم ، إذا اقترنت بالاخلاص ومساعدة الباري جل جلاله ، فعسى أن نصير على بينة من أمرهما ، فلا بد أن يكون في الأمر سر عميق ، أنتم رسلي ، فمتى وقفتم لهما على خبر ، فانفذوه الى توّاً ، أمعنوا في الفحص ، ونقروا عنهما تنقيراً ، ولا تقنطوا من فرج الله ، ولا تقطعوا من نفوسكم حبل الرجاء ، ولا تبكتوا خيوط الأمل ، إنه لا ييأس من فرج الله الا كل كافر بنعمة الرجاء والأمل ، هـــذه كلمتي ، وأقول لكم كلمة جدي ابراهيم الخليل : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إلا الضالون ﴾ (١٥ : ٥٦) فلا يتولاكم اليأس ، ولا يستحوذ عليكم القنوط. (جيد)

يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه . . الخ

— ٣ —

وقال ضاء الدين المرعشي[1] : اعلق على الاية الكريمة بالمواد التالية :

يعقوب يطلب من اولاده التحسس من يوسف وبنيامين ثم جلب الميرة

١ً — تعليقاً على قوله (اذهبوا فتحسسوا) : الحقيقة ان أباهم دفعهم لمصر لأمرين ، الأول التحسس عن يوسف وأخيه ، والثاني جلب الميرة ، وانما لم يذكر هــذا الثاني ، لأنه طبيعي ومعلوم ، ولان الامر الاول هو الاقوى ، والاهم في نظره ، فكأنه قال : اذهبوا ليس لاجل قوت الاجسام فقط ، بل أيضاً لاجل قوت الارواح .

معنى التحسس

٢ً — التحسس طلب الشيء بالحاسة ، وهوقريب من التجسس ، وهوتعرف الشيء بواسطة الجس ، أو التحسس في الخير ، ومنه الحاسوس ، والتجسس في الشر ، ومنه الجاسوس ، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ، وكذلك الجَوْس ، وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف ، ومنه ﴿ فجاسُوا خِلالَ الدِيار ﴾ (١٧ : ٥) ويقال : التحسس ، الاستماع لحديث القوم ، والتجسس التفتيش عن بواطن الامور ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس صاحب سر الخير ، وأحسّ يستعمل في ادراك الحسي والمعنوي ، يقال أحسست

(١) نسبة الى مرعش في بلاد الترك

بالحرارة والبرودة مثلا ، وأحسست منه مكراً ، وأحسست منه بمكر ، وماأحسسنا منه خبراً ، وهل تحس من فلان بخبر .

روح الله وان اليأس منها كفر

٣ً — « روح الله » هو فرجه وتنفيسه ، أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الامل وانه لاييأس ، من تلك الفضيلة إلا الكافرون بهـا ، نعم إن اليأس كفر بتلك النعمة ، اليأس يقتل فضيلة كبيرة ، هي حياة الانسان في هذه الدنيا ، هي تعزيته وملجـأه الحريز ، ألا وهي فضيلة الرجاء ، فضيلة الامل ، فضيلة الامنية ، إذ لولا بارقة الامل ، لعاش الإنسان في حياة مظلمة ظلاماً دامساً ، فكان كافراً بنور الحياة الذي هو الرجاء والامل ، كل العالم إنما يعيش بالامل ، لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، فالامل فضيلة ، لاحياة للانسان بدونها ، فهي نعمة من الله تعالى ، لولاها لمتنا ، فمن يئس من هـذه الفضيلة فقد كفر بها ، وصار في حياته من ذوي الاتعاب .

وقول يعقوب لاولاده : « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أذقنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نَزَعناها منهُ إنه لَيَؤُوسٌ كفورٌ ﴾ (١١ : ٩) ؛ فيعقوب يقول لابنائه : إن الله كان أذاقنا رحمة وجود يوسف بيننا ، ثم نزعها منا على يد بعض خلقه ، ولكن لايجوز أن نيأس من عود هذه الرحمة ، لان اليأس من رحمة الله كفر بها .

معنى الكفر والكافرين واطلاقه على غمط النعم

٤ً — تعليقاً على قوله « الكافرون » : معنى الكفر في أصل اللغة ، الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل « كافراً » لانه يغطي بظلامه الاشياء ، وأطلقوا لفظ « الكافر » على طلع النخل ، واكمام النَّوْر (الزهر) لما ذكر ، وعلى البحر

لان الشمس تغيب فيه — بحسب الظاهر — وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدرع يقولون له كافر الدروع، وقوله تعالى: ﴿ وأعجبَ الكفارَ نباتُهُ ﴾ (٢٠:٥٧) هم الزراع، وأمثال هذا كثير في اللغة.

ويظهر من ذلك ان حقيقة «الكفر» تغطية المحسوس بالمحسوس، ثم اطلق على من لم يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزاً، فاذا تقرر هذا فلعل الكفر ههنا بالمعنى اللغوي، الذي هو الستر، لان اليأس من رحمة الله، ستر لفضله وحسن الظن به سبحانه وتعالى، وقد أطلق لفظ الكفر في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة، ولهذا شواهد كثيرة، فمن اطلاق الكفر على غمط النعم قوله تعالى: ﴿وهو الذي أحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم، إنّ الانسانَ لكفورٌ ﴾ (٦٦:٢٢) أي جحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، وقوله تعالى: ﴿ وإنا إذا أذقنا الانسانَ مِنّا رحمة، فَرِحَ بها، وإنْ تُصبْهمْ سيئة بما قدّمتْ أيديهمْ، فإن الإنسانَ كفورٌ ﴾ (٤٢: ٤٨) أي انه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها، وقوله تعالى: ﴿ وانْ تعدُّوا نعمْةَ اللهِ لا تحصُوها، إنّ الانسانَ لظلومٌ كفّارٌ ﴾ (٣٤:١٤) أي شديد الكفران للنعمة، ومنه حديث البخاري: (اطلعت على النار فوجدت اكثر أهلها النساء يكفرن — قيل: ومايكفرن؟ — قال العشير)، والكفر بهذا المعنى مقابل للشكر، قال سليمان (ع): ﴿ ليبْلوَني أأشْكُرُ أم أكفُرُ، ومَنْ شكرَ فانما يشكرُ لنفسه. ومن كفرَ فانّ ربي غني كريمٌ ﴾ (٤٠:٢٧)، وقال تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (١٥٢:٢) ويقول «منفتاح» فرعون مصر: ﴿ وفعلْتَ فِعلْتكَ التي فعلْتَ وأنتَ منَ الكافرين ﴾ (١٩:٢٦) أي تحريت كفران نعمتي بقتلك خبازي، وعلى الأقل بقتلك رجلاً هو من شيعتي الأقباط، وقال تعالى: ﴿ وإذْ تأذّنَ ربّكمُ: لئِن شكرْتم لأزيدَنكمْ، ولئنْ كفرْتم إنّ عذابي لشديدٌ ﴾

(٧:١٤) فالكفر هنا مقابل الشكر ، بأن استعملنا نعمه فيما يغضبه ، وقال تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا ، أنفِقوا مما رزقناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرونَ همُ الظالمون ﴾ (٢:٢٥٤)فالمراد«بالكافرين» ههنا من يكفرون النعم بقرينة السياق والسباق وهم الذين لاينفقون في سبيل البر والخير ، ولا يراد به ههنا منكرو الألوهية أو النبوة أو الجاحدون لشيء مما جاء به الأنبياء وعلم علماً ضرورياً ، لأن هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن الكريم.

اطلاق الكفر على المعصية الكبيرة

وقد يطلق الكفر على المعصية الكبيرة ومنه فيما أرى قوله تعالى : ﴿وما كفر سليمانُ ، ولكنَّ الشياطين كفروا ، يُعلمونَ الناسَ السحرَ ، وماأُنزلَ على الملكين ببابلَ ، هاروتَ وماروتَ ، وما يُعلمانِ مِنْ أحدٍ حتى يقولا : إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ ، فيتعلمونَ منهما مايُفرقونَ به بينَ المرء وزوْجِه ﴾ (٢:١٠٢) فقد تعلمون ان سليمان نبي ،والأنبياء معصومون من الكفر — المقابل للايمان — إجماعاً مامن ذلك بد ، وعليه فينبغي حمل الكفر المنفي عنه على الكفر بمعنى فعل معصية السحر ، وقوله :« ولكن الشياطين » يراد بهم شياطين الإنس كما في : ﴿ وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكمْ ﴾(٢:١٤)وقوله:﴿يُعلمون الناسَ السحْرَ ﴾ تفسير لكفر هؤلاء الشياطين ، وقوله : « فلا تكفر » أي بتعلم صنعة السحر .

ومن أمثلة هذا النوع مافي حديث البخاري (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله تعالى : ﴿ وبِكُفْرِهم وقولهِم على مريمَ بُهتاناً عظيماً ﴾ (٤:١٥٥) ، فكفرهم ههنا هو قولهم على مريم البهتان العظيم ، فالعطف للتفسير ، وأما الكفر المعلوم فقد ذكره في الآية قبلها مرتين حيث قال : ﴿ فبما نقْضِهِمْ ميثاقهُم وكفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهِم الأنبياءَ بغيرِ حقٍ ، وقولهِم « قلوبُنا

غُلْفٌ » ، بل طَبعَ اللهُ عليها بكفرِهم ، فلا يُؤمِنونَ إلا قليلاً ﴾ (٤:١٥٤) وفي الحديث : « كفر بامريء ادعاء نسب لا يعرفه » رواه ابن ماجه في سننه وفي أحاديث الجامع الصغير : « أخذ الأمير الهدية سحت ، وقبول القاضي الرشوة كفر ».

اطلاق الكفر على الضلال

وفي صحيح البخاري « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وفي رواية « ضُلالاً » فالضلال في هذه الرواية تفسير للكفر في الرواية الأولى ، كما أن الضلال في آية الحجر وهي قول إبراهيم : ﴿ ومنْ يَقنطُ مِنْ رحمةِ ربه إلاّ الضالون ﴾ (١٥:٥٦) تفسير للكفر في آية يوسف ، وهي قول يعقوب : ﴿ إنه لا ييأسُ منْ رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾ (ع ٨٧) كما أن « روح الله » هي « رحمة الله » واليأس هو القنوط ، وفي صحيح مسلم : « اثنتان في الناس هما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » وفيه : « أيما عبدٍ أبقٍ من مواليه فقد كفر حتى يرجع اليهم » وفي سنن ابن ماجه : « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدّقه بما يقول — فقد كفر بما نزل على محمد » ، وفي البخاري : « ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه الاّ كفر » وفيه : « لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفرٌ » جعل التحاق الانسان بنسب غير نسبه كفراً وكل هذا وغيره مبني على التغليظ والتشديد .

اطلاق الكفر على ترك بعض اركان الاسلام

وقد أطلق لفظ الكافر على مانع الزكاة كما في سابق قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفقوا مما رزقناكم منْ قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢:٢٥٤) ، أي والمانعون للزكاة أو

النفقة في سبيل البر هم الظالمون ، فوضع « الكافرون » موضعه تغليظاً وتهديداً وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يؤتونَ الزكاة ﴾ (٤١:٦) ، وكما قال تعالى : ﴿ ولله على الناسِ حجُّ البيتِ مَنْ استطاعَ اليه سبيلاً ، ومَن كفرَ فإنّ اللهَ غنيٌّ عن العالمينَ ﴾ (٩٧:٣) فقال « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظاً وإيذاناً بأن ترك الحج من سمات الكافرين ، وقال تعالى ﴿ : فأما الذين اسودّتْ وجوهُهم : أكفرتم بعدَ إيمانكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرُون ﴾ (١٠٦:٣)، جعل تفرقهم واختلافهم كفراً ، تغليظاً ، لأن هذا العمل لايصدر إلا من الكافرين ، كما قال : ﴿ إنّ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعاً لستَ منهم في شيء ﴾ (٥٩:٦) وقال تعالى : ﴿ ومَنْ لم يحكمْ بما أنزل اللهُ فأولئك هم الكافرون ﴾ (٤٧:٥) ، قال ابن عباس في هذه الآية : « كفرٌ دُونَ كفرٍ » ولذلك قال بعده : ﴿ ومنْ لم يَحكمْ بما أنزَلَ اللهُ — فأولئك هم الظالمون ﴾ (٤٨:٥) ثم قال : ﴿ ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ — فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٥٠:٥) ، فهذا الكفر هو الظلم والفسق المذكوران بعده ،

وكما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الاسلام ، فبالمقابلة قد يطلق الايمان على فعل بعض أركان الاسلام ، ونجد ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ ليُضيعَ إيمانكم ﴾ (١٤٣:٢) ، أي صلاتكم ، وقد عقد البخاري باباً عنوانه : « وكفر دون كفر » .

الكفر في عرف القرآن الكريم

فمن الشواهد السابقة وما اليها مما لم نذكره نعلم أن القرآن الكريم قد يطلق لفظ « الكفر » على غير المعنى الاصطلاحي للمتكلمين والفقهاء لأن القرآن هو

فوق هذه الاصطلاحات الجديدة ، وإن هذا النوع من « الكفر » مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها ، لظنهم ان كل كلمة « كافرين » في القرآن انما يراد بها الكافرون بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء ، وهذه الشواهد ونحوها تبطل ظنهم .

فالكفر في عرف القرآن الكريم ليس خاصاً بما يعده الفقهاء والمتكلمون كفراً ، فمن عرفه ان المتفرقين في الدين يعدون من الكفار ، وان اتحاد الكلمة والاعتصام بالوحدة ايمان ، والخروج عن ذلك كفر ، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الايمان اعتقاد وقول وعمل ، وللعمل شعب كثيرة أعظمها الاتحاد وعدم التفرقة والاختلاف ، كما أن الاعتقاد شعباً كثيرة من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب ، فاليأس إذن كفر ، هذا تحقيق المقام في معنى كلمة « الكافرون » هذا ولم أجد أحداً من المفسرين تكلم عليها ببنت شفة ، والله تعالى يهدي من يشاء الى سواء السبيل . (مرحى)

الفصل الرابع

سفرة اخوة يوسف الثالثة لمصر

آ (٨٨) ﴿ ... فلمّا دخلوا عليه ، قالوا : ياأُيها العزيزُ ، مَسّنا وأهْلَنا الضُرُّ ، وَجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزْجاةٍ ، فأوْفِ لنا الكَيْلَ ، وتَصَدَّقْ علينا ، إنَّ اللهَ يَجْزي المُتَصَدِّقِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثانون فقام شوكة افندي الجركسي وقال :

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فآنسوا منه قوة عقيدة بحياة يوسف ، وسلامة

بنيامين من التسول ، وتصميمه على رجوعهم ثالثة لمصر ، للتنقيب عنها ، فواصلوا سيرهم حتى أتوا مصر ، وعرجوا على البلاط الذي فيه عزيز مصر الجديد ، (فلما دخلوا عليه) أي على العزيز (قالوا : ياأيهـــا العزيز) عزيز مصر المحترم (مسنا وأهلنا الضر) الجوع والهزال وسوء الحال (وجئنا) اليك مع الخجل (ببضاعة مزجاة) رديئة ، من متـاع الأعراب ، صوف وسمن ، أو عِلك وإقط ، أو نحو ذلك (فأوف لنا الكيل) أي أعطنا شيئاً فوق حقنا بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا (وتصدق علينا) بالمسامحة والاغماض من رداءة البضاعة (ان الله) له المجد (يجزي المتصدقين) في الدنيا وكذا في الآخرة فيما نعتقـــد نحن وفيما تعتقدون أنتم ، إذ لا فرق في ذلك بين دين ابراهيم ودين المصريين والعمالقة .

(فلما دخلوا عليه قالوا ... الخ)

— ١ —

وتابع شوكة افندي الجركسي كلامه قائلاً : لقد بينت لكم أيها السادة مجمل تفسير الاية وهاأناذا أبين لكم مفصلها :

دخول ابناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم وتأسفاته ، واشفقوا على دمعه الصبيب فسمعوا لما طلبه منهم وقاموا ليفتشوا عن يوسف وبنيامين ، فتأهبوا للرحيل واعدوا معدات السفر وركبوا وفصلوا عن « سيلون » وحولوا عنان دوابهم شطر الديار المصرية ، وهمزوها وأما أبوهم فكان يشيعهم بالنظر ، ولمـا بعدوا عنه صار يشيعهم بالقلب ، وأخـذوا يطوون الأرض طيـاً ، في غمار المسافرين من التجار والممتارين ، حتى وصلوا « صوعن » حاضرة مملكة الهكسوس بمصر ، فنفضوا عن وجوههم وثيابهم غبار السفر ويمموا شطر بلاط العزيز ثم دخلوا على العزيز « يوسف » وهو لابس قميص

البوص الملكي ، وقالوا له بصوت مختنق : ياأيها العزيز في هـــذه الديار المصرية الهكسوسية ، نحن مدينون لك سابقاً بمـا أوفيت لنا الكيل ، وكنت لنا خير المنزلين ، ورددت لنا بضاعتنا في رحالنا ، فكانك كلت لنـا الميرة مجاناً ، فنحن لا يسعنا إلا شكرك والثناء عليك ، وان هـذه المعاملة الجميلة لتحملنا على التجاسر والطمع وعرض حالتنا المحزنة على مسامعك الشريفة ، يا أيها العزيز المحترم ، اجتزنا التخوم ، وتخطينا البلدان ، وطوينا الغـبراء ، لاغبين من الضرب في الأرض ، وجوب الصحراء ، يقودنا الأمل ويسوقنا الرجاء ، تارة نمشي في حمارّة القيظ وحيناً نسير في زُلـف من الليل ، ياأيها العزيز الكريم ، الرحمة الرحمة ، لقد مسنا وأهلنا الضر ، مسنا الأين والبين ومس أهلنا الجوع والهزال وسوء الحال ، فوقعوا في شبكة السغب ، وحاط بهم جيش الهزال من كل جانب ، مسنا وأهلنا الضر ، — كلة تترجح في بيان الواقع ، و بيان التذلل للمخاطب — وصَفِرت بيوتنا من الحَب ، فأملَقْنا وتَرِبْنا ، ولحقنا النَّصَب واللُّغُوب ، وجئنا اليك بعد التي واللتيا ومع الخجل ، ببضاعة مزجاة ، رديئة يدفعها من تعطى له ، وقد صفرت أيدينا مما سواها ، وهي ليست من عقيلة المـال ، ولا حر المتاع ، وحبذا لو كانت عندنا دنانير صفراء ، لكنا قد مناها ، أو لو كان معنا دراهم بيضاء ، لكانت نفعتنا في هذه الأيام السود ، فارحمنا وتعطف علينا ، وأوف لنـا الكيل ، بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا ، كما هي عادتك الحميدة ، منذ القدْمة الأولى ، وتصدق علينا بغض النظر عن رداءة بضاعتنا ، وانها مدفوعة مردودة ،فان للصدقة مراتب. هذا منها ، وقد قيل :

عـدّيا في زمانـنا عن حـديث المكارم
من كفى الناس شره عُـدّ في جود حاتم

أو أنهم تمسكنوا له وطلبوا اليه أن يتصدق عليهم بأن يعطيهم ماتسمح به يده بلا مقابل منهم ، وهذا هو ظاهر اللفظ الذي نطقوا به .

فلما دخلوا عليه قالوا . . الخ

— ٣ —

ثم قام أبو الوفاء الكركوكي (١) وقال :

لي ههنا الملاحظات التالية :

مراحل الخطاب او « الاستدعاء »

١ً — تأنقوا في خطابهم ماشاءوا وشاء لهم انكسار قلوبهم ، فافتتحوه باحترام مخاطبهم ، وتلوه بشكاية الحال اليه ، فالاستجداء ، ثم ختموه بالترغيب فيه إن قلنا إن الجملة الأخيرة خبرية محضة ، أو ختموه بالدعاء إن قلنا إنها جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فهذه الآية التي نطقوا بها ، هي من قبيل مايسمى اليوم « استدعاء » يصدر بترويسة تحتوي على اللقب الرسمي للمعروض اليه ، ثم على بث الشكوى ، ثم الطلب ، ثم الترغيب في فعل الخير أو الدعاء للمعروض اليه .

مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة

٢ً — كلامهم هذا هو « عرض حال »شخصي »أعني لأجل شخصية واحدة ، لا لأجل عموم أهل بلد مثلاً ، ولكن تحضرنا الآن حكاية ذكرها صاحب الأغاني وقعت من بعض العرب ، ننقلها ليعمل القارىء مقايسة بين همة هؤلاء الناس العبرانيين ، وبين همة ذلك العربي الصميم ،واليكم تلك الحادثة المدهشة :

دخل أعرابي على « هشام بن عبد الملك » فقال : « ياأمير المؤمنين ، أتت علينا

(١) نسبة الى بلدة كركوك في العراق .

ثلاثة أعوام ، فعام أذاب الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام أنقى العظم ، وعندكم أموال ، فان تكن لله ، فبثوها في عباد الله ، وان تكن للناس ، فلم تحجب عنهم ؟ وإن تكن لكم فتصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين » — قال هشام : « هل من حاجة غير هذه ياأعرابي ؟ » — قال : ماضربت اليك أكباد الإبل ، أدّرِع الهجير ، وأخوض الدجى لخاص دون عام !!! » ، فأمر هشام بأموال فرقت في الناس ، وأمر للأعرابي بمال فرّقه في قومه ! . هـذا هو طلب الأعرابي ، ولكن هؤلاء الإخوة جاءوا يطلبون لأنفسهم دون أنفس سواهم ، وعلى الأقل ، ماسمعنا عنهم أنهم أوصوا بسواهم من أهل فلسطين وجارتها آرام ، فلم يتشفعوا لأحـد ماقط ، بل قصروا همتهم على أشخاصهم ، تأمل يارعاك الله المرمى الذي رمى اليه ذلك العربي الصميم ، والمرمى الذي رمى اليه هؤلاء الاخوة ؟ تأمل كم يوجد بين العرب واليهود فرق في الشمم ، وعلو الجناب وبعد الهمة ؟ وماذا بين العرب واليهود من البعد الشاسع في الشفاعات الذاتية الشخصية ، كما هي حالة اليهود ، والشفاعات العمومية ؛ كما هي حالة العرب ؟

ولا ريب ان هذه الشيمة في هؤلاء وهؤلاء موروثة لسلائلهم ، فعرب فلسطين اليوم إذا طلبوا أمراً ، طلبوه لعامتهم ، ولكن الصهيونيين إذا سعوا في تحصيل شيء ، فانما سعيهم لأنفسهم ، ولا فائدة منهم لسواهم .

البضاعة وطرق المبادلة بها

٣ — تعليقاً على قولهم : « وجئنا ببضاعة » البضاعة لغة القطعة من المبيعات التي يتجر فيها ، كأنهم أرادوا أن يجروا مع « عزيز مصر » صورة مبادلة ، وصور المبادلة تختلف ، فبعضها يحصل على سبيل مبادلة الشيء بالشيء ، ويسمى المقايضة ، والمقايضة بالنقد هو النوع المتبع في البلاد المتمدينة كمصر ، ولذلك كانوا « شروه بثمن بخس دراهم معدودة » (ع ٢٠) ، والمقايضـــة عروض بعروض هو النوع

المتبع في البلاد غير المتمدينة ، كفلسطين في ذلك العصر ، لأنها كانت بدواً ، كما سيأتي ليوسف أن يقول : « وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ » (ع ١٠٠) ، وقد كانت المبادلة والمقايضة شائعة منذ القديم ، من أول أيام خلقة البشر ، وان المزايا التي منحها الله للبلاد والممالك المختلفة ، وان المواهب التي اختص الله بها اناساً دون آخرين — جعلت المبادلة أمراً اضطرارياً ، فهذه أراضي السودان أكثرها خالية من الملح الذي هو أهم حاجات البشر ، ولذلك يضطر السودانيون لاستجلاب الملح من الممالك الكائنة خارج بلادهم ، يستبدلون به الحبوب والحيوان ، وان أصحاب المواشي كيعقوب وأولاده لا يشتغلون بالزراعة ولا بالبضاعة ، وانما يكون عندهم الجلود والنعال والإقط والجبجب والسمن والزبدة ، ونحو ذلك مما كان يسهل وجوده بطبيعة الحال عند أولاد يعقوب ،عليه السلام،فلذلك ،ولكونهم كانوا من أهل فلسطين المتبدية غير المتمدنية ، فنحن نرى على أغلب الفكر انهذه « البضاعة » التي جاءوا بها هي من هـذا القبيل مما يسهل نقله من فلسطين لمصر ، وانما قالوا « مزجاة » لأنهم ربما كانوا قد جربوا عرضهاعلى التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها ، وربما أرادوا إنهامزجاة اليوم في مصر ،لرداءتها أو لكونها غيرلازمة لأسواق مصر ، لأن العروض قد تكون مقبولة في بلد دون بلد ، وفي وقت دون وقت ، بخلاف النقود فانها مقبولة في كل مكان وزمان ، فما ذكرنا من حال فلسطين وحال أولاد يعقوب الذي كانوا عليه ، وبيان معنى البضاعة لغة ، يترجح عندكم ان تفسير هذه « البضاعة » بالنقود ضعيف جداً ، فافهموا .

٤ً — ربما كانت عبارة « فأوف لنا الكيل » راجعة لقولهم « مسنا واهلنا الضر » وعبارة « وتصدق علينا » مرتبطة بقولهم : « وجئنا ببضاعة مزجاة » ، ففيه لف ونشر مرتب .

اخوة يوسف يثبتون له جزاء على صدقته

٥ً — قالوا : « وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » وهم في ظنهم إنمـــا

يخاطبون رجلاً وثنياً من وثني العماليق الهكسوس ، أو من وثني المصريين ، ومع ذلك فقد أثبتوا ليوسف ، جزاءً على صدقته ، وهذا منهم صحيح ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة ، : ﴿ فَمَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، وإن كانَ مثقالَ حبةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتيْنا بها ، وكَفَى بنا حاسِبين ﴾ (٢١ : ٤٧) ﴿ نُصِيبُ برحمَتِنا مَنْ نشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحسنِينَ ﴾ (ع ٥٦) ، وأما ما يوهم خلاف ذلك فمأول :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى　　فوآدي ولكن للعتاب مواضع

جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة

٦ً — تعليقاً أيضاً على قولهم « إنّ الله يجزي المتصدقين » أي يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية ورفع درجات الاحترام . والثناء عليهم من الناس .

كل الأمور تزول عنك وتنقضي　　إلا الثناء فانه لك باقي

قال عليّ بن الجهم :

هي النفس ما حملتها تتحمل　　وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة　　وأكمل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته　　وغنم إذا قدمته متعجل

وقال غيره :

قدم لنفسك زاداً　　وأنت مالك مالك
من قبل أن تتفانى　　ولون حالك حالك
ولست تعلم يوماً　　أيّ المسالك سالك
إمّا لجنة عدن　　أو في المهالك هالك

وقال آخر :

يا غافلاً عن حركات الفلك　　نبهك الله فما أغفلك

لغيرك ما أنت ورثته　　وما أنت أنفقته فهو لك

ذلة الاخوة مع الاجنبي « العزيز » وعظمتهم مع ابيهم واخيهم

٧ً — تعليقاً على قولهم : « مسنا واهلنا الضر »و « تصدق علينا » كلام يشف عن الذلة والمسكنة للأجنبي ، وأين هذا الصغار والتنازل مع الأجنبي من تلك الدبدبة والعظمة مع أبيهم وأخيهم ، حينما كانوا قالوا : « إن آبانا لفي ضلال مبين » ، « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » ، « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » ، حتى أن أولادهم ساروا سيرة آبائهم ، وعلى العروق ينبت الشجر فقالوا : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » لعمري ان الذي حملهم على ما هو المذكور هنا من عبارات الاستكانة والخضوع إنما هو الاحتياج وحب المنفعة ، قيل إن « كُثَيّر عزّة » و « الكميت » كانا شيعيين ، غاليين في التشيع ، وكانت مدائحهم في « بني أمية » أشرف وأجود منها في « بني هاشم » ، وما لذلك علة سوى الحاجة والانتفاع،وان هؤلاء الأشبال !!،اصول اليهود،قد ورّثوا هذه الطبيعة التي عاشوا عليها ـسلائلهم يهود اليوم لا سيما الصهيونيين منهم ، فتراهم عند الطلب من « الانكليز » أو غيرهم من الأجنبي عنهم ، في غاية الذلة والضراعة ، لكنك تراهم في معاملة أبناء عمهم ! « العرب » ! في نهاية الخشونة والبربرية !!... شنشنة أعرفها من أخزم .

خضوع البشر لحكم الغريب

٨ً — توسلوا اليه بصوت مازجه دل السؤال ومسكنة التشكي ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه انه أخوهم ، ولو كانوا يعرفونه انه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم

أن يخضعوا له هذا الخضوع وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الاقرباء فالانسان اذا ترك لفطرته ، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه ، أو لأحد الغرباء فضل الخضوع للغريب ، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء — أسهل قياداً ، وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من أبناء جلدتهم ، وبهذه القاعدة يستدل على كثيرمن غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها ، كأصل الفراعنة الأولين مثلاً ،فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون أودخلاء؟ ونظراً لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون ، للسبب الذي تقدم . (قالون)

عتاب وتذكير

آ (٨٩) . . . ﴿ قالَ : هَلْ عَلِمْتُم مافَعَلْتُم بِيُوسُفَ وأخيهِ إذْ أنتُم جاهِلونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثانون فقام حيدر افندي المرعشي (١) وقال : ان التفسير المجمل لهذه الآية هو كما يلي :

تقدم أن اخوة يوسف وقفوا بين يدي يوسف « العزيز » وقالوا له ماقالوا في الآية الكريمة السابقة ، وأما هو ، فلما سمع تذللهم وضراعتهم ، (قال) لهم ،بلهجة المذكر المعاتب : (هل علمتم) أي هل تتذكرون وتعرفون قبح (ما) كنتم (فعلتم) منذ ثلاث وعشرين سنة (بيوسف وأخيه) ابن أمه وأبيه بنيامين ، (إذ أنتم جاهلون) من أهل الجهالة والسفه ، أو جاهلون سوء مغبة عملكم .

(١) نسبة الى مرعش احدى المدن التركية .

قال هل علمتم . . الخ

— ١ —

ثم تابع حيدر افندي المرعشي كلامه قائلاً: واما تفسير الاية المفصل فهو :

عتاب يوسف لاخوته وتذكيرهم بالتوبة

رأى يوسف أن اخوته قد اشتكوا اليه شكاة تنم عن رقة الحال ، وشظف العيش ،ولحوق المخمصة ، رآهم قد ودعوا جميع أقوال الشدة ، وأعمال النزق وخواطر ثورة الشباب ، وأنه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس أخرى غيرها ، لاصلة لها بها ، نفوس مطمئنة وديعة رقيقة ، رآهم قد غلبت فيهم نزعة الخير على نزعة الشر ، سمع منهم كلمة ملؤها الوداعة والذل ، فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفسه ، وحزن لاجلهم ، وتأثر من بؤسهم ، واعتزم على اظهار نفسه لهم ، حتى يضمهم وأهليهم بمعيته ، ليعيشوا عيشة الرغد والسعة ، سمع يوسف تذللهم ، فأطرق بنفسه هنيهة ثم قال لهم : أيها الذّالون [١] المُستَعْدُون [٢] ، يا أبناء « ليئة » و « بلهة » و « زلفة » أتذكرون ماحفظه التاريخ بين طياته ؟ فما أعظم ماارتكبتم في يوسف وأخيه ؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ فهل تدرون ذلك وتعرفونه وتتذكرونه وأنتم في حالة التمرين على أعمال الجهالة [٣] ؟ إذ جهلتم عليها بل وعلى أبيكم ، بل وعلى الاخلاق الفاضلة والطريقة المثلى ، بل وعلى أنفسكم لان من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

أنا الان لا أريد استعراض تلك الحوادث الممضة ، التي أدمت القلوب وفجعت المنكوبين ، أنا الآن لا أريد أن أحاسبكم حساب الملائكة للميت في قبره ، ولكني أعتب على الاخوة ، أعتب على ذوي الرحم أن يفعلوا مايدنس سمعتهم .

---

(١) ذل : خضع (٢) استعداه استغاثه (٣) اي السفه .

هل علمتم أنكم كدتم لهما ردحاً من الزمن ؟ هل علمتم أنكم شر أحصدتم لهما ؟ لا إخالكم إلا تعلمون ذلك وتذكرونه ، ولا أظن أنكم تجهلونه ولا أنه عزب عن أفكاركم ، راجعوا تاريخكم العتيق تجدونه قد طوى بين صفحاته الكثير المدهش من أعمال القساوة راجعوا أعمال ماقبل ٢٣ سنة تقفوا على تفاصيل ما اشير اليه .

هـــل تذكرون انكم شردتم يوسف عن أبيه وأخيه ومواطنيه ، وانكم قدناوأتموه ، ولم تهادنوه ، ولم تؤاتوه ، ولم تهدأوا عن الكيد لـه ، والقيتموه في دامس الجب ، وأما أخوه بنيامين ، فقد أحزنتم قلبه ، أفقدتموه شقيقه ، أعدمتموه لذة الحياة ، حتى صار شريكه في هذا المصاب ، بل وشريك أبيه في أحزانـه ، فتجرع من الحزن كأسين كأس حزنه على شقيقه وكأس حزنه على أبيه يعقوب.

إنكم بعملكم ذلك أصبح يوسف بتشريدكم إياه عبداً مملوكاً يباع في سوق الرقيق ، ثم خادماً في بيوت الأمراء ، ثم ملوثاً بالجريمـــة زوراً ، ثم سجيناً مع الأئمـة !! ..

وأما بنيامين فأصبح بفضل اجراءاتكم غريباً منفرداً ، لايجد بين القـلوب الخافقه حوله قلباً يحزن لحزنه ، ولا بين العيون الناظرة اليه — عيناً تبكي لبكائه، وانه ليخيل اليّ انكم كنتم تهينونه ، لأنكم ترون فيه ذنب الأفعى .

سبحان الله ، شرارة واحـدة حرقت الأخضر واليابس ، فعلتم ما فعلتم ، وكانه لاشيء في أعينكم ، :﴿ وَتَحسَبونَهُ هيناً وهو عندَ اللهِ عظيم﴾(١٥:٢٤) أنا لاأريد بكلامي هذا أن أقوم بتنظيم خطط الهجوم ، ولا أكلفكم في مقابلة ذلك نصب آلات الدفاع ، ولاأريد أن أصفي حسابي معكم ، لا..لا..لا.. ولكنها زفرة نفس ، وحسرة قلب ، ونفثة مصدور ، أعالج بهـا بعض كلوم الفؤاد ، وذكرى وكلمة مختصرة للسامع ، عساه أن يفيق بعدها من جهالته .

قال هـل علمتم .. الخ

— ٢

وقام الشيـخ الكواكبي [١] وقال:

يوسف يشفق على اخوته ويتنصح لهم

سمع يوسف كلامهم المتواضـــع ، ونظر في سحنهم ، فرأى في لحن كلامهم وملامحهم مايدل على ذلهم وخضوعهم ، وأنهم قد ذهبت منهم الجرأة ؟ وانفثأت تلك الحمية الاولى ، فشعر للحال برحمة في قلبه ، وعطف جديد نحو اخوته ، فـــلم يتمالك عن إظهار نفسه لهم ، ومما استدعى حنانه عليهم بنوع خاص قولهم : « مسنا وأهلنا الضر » ، إذ تصور أن والده من أهلهم ، وكذا قولهم « وتصدق علينا » فانه لما سمعه حرّف أسنانه ، فاذا دمعة رقراقة تترجح في عينيه ، وقد خامره حنو وانعطاف نحوهم ، ففضل أن ينفض لهم جملة حالـه ، ويعرفهم بنفسه ، فأتاهم من جهة الدين ، وكان حليماً موفقاً ، وقال لهم هل أتى حينٌ علمتم فيه قبح ما كنتم فعلتم بيوسف وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ؟ أنا أتأكد إنـكم كنتم لاتعلمون قبحه تمام العلم ، ولاماذا سينجم عنـه من المفاسد ، فلذلك كنتم منذ ٢٣ سنة أقدمتم عليه ، ولـكن اليوم هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه ؟ أرجو من الله أن تكونوا كذلك ، فاني على استعداد لمد يد المصافحة والمحبة ونسيان الماضي المؤلم

العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى التوبة

استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، لأن علم القبح يدعو الى الاستقباح ، والاستقباح يجر الى التوبـــة ، فهذا من قبيل

---

(١) نسبة الى آل الكواكبي في مدينة حلب (سورية)

سياسة « جس النبض » عن توبتهم ، لعله يجدهم قد تابوا ، فيجد منفذاً للعيشة معهم بسلام ، فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصحاً لهم في الدين ، لا معاتبة وتثريباً ، إيثاراً لحق الله على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي ينفث فيه المصدور ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك فيه الموتور ثأره ، وينفس فيه المكروب عن كربه ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها [١] ؟ ولله حصا [٢] عقولهم ما أرزنها وارجحها ؟

(قال هل علمتم ..)

— ٣ —

وقام الشيخ عبد الحميد الدوماني [١] وقال :

لي على هذه الآية الكريمة المواد التالية :

درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها

المادة ١ — قيل إن كلام يوسف مع اخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من « التثريب » بدرجات ؛ فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقريع ، ثم التوبيخ ، ثم التأنيب ، ثم التثريب ،

قال بعض العلماء : المعاتبة احتكاك بين القلوب ، تزيدها حرارة وتجاذباً ، والعتاب فاتحة حديث المحبين ، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد ، واكثر الناس لؤماً ، أقلهم لوماً ، قال الناظم :

لعل عتبك محمود عواقبه　　فربما صحت الأجسام بالعلل

صَدَقَ الخَبَرَ الخُبْرُ

المادة ٢ — هذا القول الذي صدر من يوسف لاخوته هو مصداق قوله تعالى:

---

(١) سجح الخذ كفرح : سهل . (٢) الحصا العقول والحصاة العقل . (٣) نسبة الى دوما من ضواحي دمشق (سورية)

﴿ وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ (ع ١٥) .

أدب الاخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقده عليهم

المادة ٣ — كان يوسف سمع كلام اخوته ، فرآى عليه صبغة الأدب والخنوع ، فرق لهم وابتدأ يكشف لهم عن حاله ، ويبين شخصه من هو . . توصلاً لمنفعتهم وجلبهم وأهليهم عنده ، ولم يكن ليحقد عليهم لما فعلوه معه من قبل .

وقد ُجرّب وروى لنا التاريخ أن أدب الطالب ، قد يحمل الانسان على الجود ومكارم الأخلاق ، كما قيل انه وفد رجل من بني ضبة ، على عبد الملك بن مروان ، فقال :

والله ما ندري إذا ما فاتنا — طلبٌ اليك — من الذي نتطلب ؟
فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد — أحداً سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التي عودتنا — أو ،لا، فأرشدنا الى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : « اليّ اليّ » وأمر له بألف دينار .

ويحكى انه جيء الى « الرشيد » « بعبد الملك بن صالح » في قيوده ، فقال له «يحيى بن خالد» البرمكي وأراد أن يبكته : « إنك حقود » — فقال : « إنما صدري خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر » — فقال الرشيد : « والله ما رأيت أحداً احتج بمثل ما احتج به عبد الملك » ،

قال بعض العلماء : إن عبد الملك بهذا الاحتجاج فتح الباب « لابن الرومي » حيث قال :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى — وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة — فثم ترى شكراً على حسَن العَوْض

هذا ولكن الطريقة المحمدية تعلمنا تناسي الحقد وأسبابه بتة ، ولذلك لم يرد أن النبي ﷺ عاتب أحداً بما سبق ان صنعه معه ، فكان يعفو ويغفر من الابتداء ، وقد ورد انه قال يوم فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » ـ قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » ـ فقال : (أقول كما قال أخي يوسف) : «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، « اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء » .

اسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام

المادة ٤ ـ قال « بيوسف وأخيه » ولم يذكر أباه ، مع إن المصيبة كانت وقعت على رؤوس الثلاثة ، بل ربما يظن الظان ان حصة أبيه من هذه المصيبة هي أكثر من حصتيهما ، وجوابنا عن ذلك من وجوه :

أ ـ ان يوسف يعلم أن أباه مزوّد بالبشائر الالهية في شأن ابنه الحبيب ، وانه على مثل اليقين من حياة ابنه ، وانه سيجتمع به ، وانه سيقع كل مابُشِر به ولده في المنام ، وكل ماأوحي به اليه في شأن ولده ، فيعقوب في الواقع مطمئن الخاطر من هذا القبيل ، بخلاف بنيامين الذي كان لا يعلم من مستقبل أخيه يوسف شيئاً ، فلا ريب أن كربه يكون شديداً .

ب ـ ان يوسف يعلم أن أباه نبي من أنبياء الله ، ورسول من الرسل الكرام والأنبياء والرسل أهل صبر وتحمل : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ ﴾ (٤٦:٣٥) فلا تؤثر عليهم النوازل تأثيراً كثيراً ، ولذلك نرى ان سيدنا يعقوب حينما أخبر بأن ذئباً افترس ولده يوسف قال : « فصبر جميل » ، ثم لما أنبيء بأن ابنه بنيامين سرق ، قال أيضاً : « فصبر جميل » ، وأما مانزل عليه من الحزن الذي نتج عنه ابيضاض عينيه ، فهو أمر وجداني يطرأ على الانسان بغير اختياره ، كما يطرأ عليه الجوع والعطش والسرور ـ الى غير ذلك من الوجدانيات .

ج — ان الانسان مهما عمر في هذه الدنيا ، فانما عمره اللذيذ هو أيام شبابه وكهولته ، أعني العقود الثلاث ، التي هي الثاني والثالث والرابع ، أي من العام الحادي عشر ، الى عام الأربعين ، فهذه الأعوام هي ربيع العمر ، الحاوية لمبتدأ الشبيبة ونهايتها ، حين تكون القوتان البدنية والنفسية قد ابتدأتا ، ثم كملتا ، حين تكون الصدور مشروحة ، والقلوب مفتوحة ، لمسرات الحياة ، وملذات العيش ، فهذه المدة هي زهرة عمر الانسان وتاج حياته ، واكليل وجوده ، فيها تكون الروح فرحة مغتبطة ، والنفس صافية مسرورة ، وأما ماقبل ذلك ، وهو العقد الأول ، فهو حلم من الأحلام ، كما ان مابعد الأربعين ، وهو العقد الخامس فما بعده ، فهو عيشة الوقار والتقيد ، فتلك العقود الثلاث هي « الثروة » التي إن ذهبت لن تعود ، وهي أيام « الصفا » التي بتكديرها يضيع العمر كله ، فالمقصود بالذات من العمر — بالنسبة للملذات الدنيوية — هو هذه العقود الثلاثة ، وأما ماقبلها من العقد الأول ، فهو كالتقدمة لها ، كما ان مابعدها من العقود هو كالتتمات والخواتيم ، وما أصدق قول من قال : العقد الأول من العمر هو حلم محض ، لا هو للدنيا ولا هو للآخرة...

إذا كنت قد فهمت ماقلناه حق فهمه ، وكنت قد علمت أن « يوسف » قد آسفه اخوته وأحزنوه في أيام شرخ شبابه ، وعنفوان قدرته ، ومبدأ زهرة عمره إذ فرقوا بينه وبين شقيقه وأبيه ووطنه ، من حين أن كان عمره ١٧ سنة ، الى أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، وان « بنيامين » قد آسفه اخوته وأحزنوه ، في مثل تلك الأيام الزاهرة ، أيام الملذات والمسرات ، إذ فرقوا بينه وبين شقيقه من حين أن كان عمره نحو ٧ سنين ، الى أن بلغ من العمر نحو ٣٠ سنة .

إذا احطت علماً بمجموع ذلك كله ، تعلم علة كون يوسف جعل مافعله به اخوته مصيبة نازلة عليه وعلى أخيه ، دون أبيهما فهذه المصيبة نزلت بيوسف وأخيه

في أيام الشباب ، ومقتبل العمر ، أيام الملذات والمسرات والأفراح ، التي إذ ذهبت لايمكن أن تعوض ، فهما بدلاً من أن يجدا في زهرة عمرهما الفرَح والغبطة واللذة ، فقد وجدا الحزن والألم والمصائب ؛

وأما أبوهما سيدنا يعقوب عليه السلام ، فهو إنما أصيب بفراق يوسف حينما كان عمره ١١٠ سنوات ، فمصيبته بابنه وان تكن في ذاتها عظيمة ، لكنها صادفت أيام شيخوخته وكبره ، بعدما كان أخذ سهمه من الغبطة أيام شبابه ، فكم وكم مضت له إبان شبابه أيام صفاء وسرور ، وليالي أنس وحبور ، حينما كان في حضن أبيه « اسحاق » وأمه « رفقة » بفلسطين ، الى أن صار له من العمر نحو ٥٢ سنة ، ثم بعدما هاجر الى « العراق » عند خاله « لابان » مكث هناك عشرين سنة ، قضاها مسروراً بزوجتيه « ليئة » و« راحيل »، وسُريتيه « بلهة »و « زلفة » ، ثم كان أولاده الأحد عشر وبناته حواليه ، لايكدر صفاء عيشه شيء؛

فهل حصل ليوسف وبنيامين ، أيام شبابهما من الصفاء والغبطة عشر معشار ماحصل لأبيهما أيام شبابه وكهولته ؟.. كلا.. بل بالعكس قضى يوسف أيام شبابه في غيابة الجب ، الى كونه سلعة تباع وتشترى ، الى سوق الرقيق بمصر ، الى العبودية والخدمة ، الى تلك الفتنة المدهشة ، الى أعماق السجون المظلمة ،.. وكل هذه الكوارث كانت موزعة على بساط مدة ، هي من سن ١٧ حتى ٣١ ، وتلك هي زهرة الشبيبة ، ولب العمر ، وكذا قضى بنيامين لب شبيبته من وقت أن كان عمره سبع سنين ، الى أن صار ابن ٣٠ ، وهو في أشد الألم والذل ، بفقدان أخيه ، فقداناً لم يكن فيه مُعَزٍ ولامخفف ، بخلاف أبيه يعقوب ، فكان له مما أوحاه الله ليوسف في المنام ، وله في اليقظة — بشأن ولده — أعظم تعزية وأكبر سلوان .

د — كان بنيامين ويوسف من أم واحدة ، هي « راحيل » ، وقد ماتت ،

سلك في أعماله وأقواله مسلكاً وسطاً ، سلك ذلك مع اخوته ومع سواهم ، وخير الأمور الوسط ، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها:

١ً — انه لما راودته زليخا لم يخضع لها ، ولم يغلظ لها القول ، بل أجابها بالمعقول والأدب ، متمنعاً عن مؤاتاتها (ع ٢٣) .

٢ً — انها همت به ضرباً أو قتلاً ، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضرباً أو قتلاً ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين ،« ادفع بالتي هي أحسن » فرجع لحالة التوسط ولجأ الى الفرار من بين يديها ، وبذلك صدق عليه انه سلك مسلكاً وسطاً ، لاهو واتاها ، ولاهو تعدى عليها (ع ٢٤و٢٥).

٣ً — لما بهتته واختانته صريحاً لم يسكت ولم يرد عليها رداً عنيفاً ، بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه ، وتؤدي مطلوبه (ع٢٥و٢٦).

٤ً — لما رغبت اليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات أضيافها ، لم يمتنع ، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه ، بل سلك في ذلك مسلكاً وسطاً(ع٣١—٣٣).

٥ً — لما استفتاه الفتيان اللذان سجنا معه ، لم يطلب منهما اجرة على الفتوى ، ولم يرد أن يفتيهما مجاناً ، بلا مقابل معنوي ، بل توسط واستقضى منهما أجرة أدبية ، وهي اصغاؤهما لإرشاده الديني وتبشيره بالتوحيد(ع٣٦—٤٠).

٦ً — لما أراد « الساقي » أن يخرج من سجنه ، لم يهمل يوسف تعاطي الأسباب بتة ، ولم يتهافت على ذلك « الساقي » بالرجاء والاسترحام ، بل سلك معه مسلكاً وسطاً ، مقتصراً على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف(ع٤٢).

٧ً — لما رجع « الساقي » ليوسف في سجنه ، ليستفتيه في حلمي الملك ، فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقاً ، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل ، كما صنع « الملأ » مع الملك ، بل سلك مسلكاً وسطاً باقتصاره على اعطاء الجواب ، بدون رجائه ثانية (ع٤٦—٤٩).

٨ً — لما جاءه « الساقي » في سجنه ثانياً ليخرج منه بأمر الملك ، لم يرد أن يسكت بتة عن زليخا التي بهتته وظلمته ، ولم يرد أن يصرح باسمها ، ولكنه أشار اليها بسؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن(ع ٥٠).

٩ً — لما جاءه اخوته لأول سفرة ، لم يطردهم ، ولم يكرمهم اكراماً هائلاً ، من قبيل مانسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد « كحاتم الطائي » و« عبد الله بن جدعان »و« معن بن زائدة » و« آل برمك » في عهد الرشيد ، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لا يوافق روح الشريعة ، بل توسط معهم ، فقبلهم وكال لهم كيلاً وافياً ، وأنزلهم منزلاً كريماً ، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم ، ولا أعطاهم هدية أو نحوها (ع٥٩—٦٢).

١٠ً — لما بهته اخوته بالسرقة ، لم يسكت ولم يصدع بالرد ، بل توسط ، وزفر سراً زفرة المصدور ، قائلاً في نفسه : ﴿ أنتم شَرٌ مكاناً ﴾ ، حتى يرتاح نوعاً من ألم ماسمع(ع ٧٧).

١١ً — لما طلب اخوته اليه أن يستبدل « بنيامين » بأحدهم ، فمع انه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هذا خلاف فتواكم السابقة ، وكيف تخالفون شريعة الله ؟ وكيف تقولون مالا تفعلون ؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر :

وعالم بعلمه لم يعملن　　　معذب من قبل عباد الوثن

فهو لم يأت شيئاً من ذلك ، بل اعتدل وردهم رداً لطيفاً (ع٧٨و٧٩).

١٢ً — لما جاءوا اليه في السفرة الثالثة وشكوا اليه حالهم ، وأراد أن يظهر لهم نفسه ، لم يوبخهم ويحقرهم ، ولم يترك عتابهم ، بل توسط وعاتبهم عتاباً لطيفاً (ع ٨٩).

١٣ً — لما سألوه : أأنك لأنت يوسف ، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب اليهم بأن يقول :« أنا أخوكم يوسف » ولم يتجافهم بأن يقول :« أنا المحسود ، أنا

المشرد المطرود ، أنا موضوع المؤامرة الشريرة ، أنا الملقى في البئر بلا هوادة » ، بل اعتدل وقال : « أنا يوسف ، وهذا أخي » (ع ٩٠).

١٤ً - اعتدل في ذيل جوابه لهم فلم يقل : « أنا أهل التقوى وأهل الصبر والاحسان ، وأنتم أهل العداء والحرب والانتقام » بل إنما قال : « إنه من يتق ويصبر ، فان الله لا يُضيع أجر المحسنين » (ع ٩٠).

١٥ً — تسمعه يقول : « لاتثريب عليكم اليوم » ، « أي أنا اليوم لااريد ان اثربكم ، وانتم ماثلون بين يديّ ؛ مثول المماليك ، بين يدي الملك ، والأذلاء ، أمام العزيز » ففي هذا القول ، مع قوله « يغفر الله لكم » توسط واعتدال بين التعنيف والتكريم .

عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف

المادة ٨ — هم لم يعملوا بأخيه بنيامين عملاً مباشراً ، إلا انه نظراً لقوة الاتحاد بين هذين الأخوين الشقيقين — كانت فعلتهم بيوسف كسراً لذراع بنيامين ، فالجناية على يوسف ، هي جناية على بنيامين بصورة خاصة ، كما ان جناية الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم بصورة عامة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ قتلَ نفْساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناس جميعاً ﴾(٥:٣٥).

معنى الجهل والجاهلين

المادة ٩ — للجهل معنيان ، أحدهما ، انهم فاعلون فعل الجهالة المرادف للسفه ، وهو ضد « الحلم » لأن من عمل مايؤدي الى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لامن اهل الحكمة ، والجهل بهذا المعنى يذم به الانسان مطلقاً.

وثانيهما انهم جاهلون ، اي غير عالمين ، بما يتعلق بعملهم من المكروه والمضرة،

فتارة يذم به الانسان ، اذا جهل مايجب عليه او ما ينبغي له ويعد كمالاً في حقه ، وتارة لايذم به اذاجهل مالم يقدر على فهمه الا بالوحي مثلاً .

وقد قال : « إذ انتم جاهلون » لأنه لا يقدم على طلب مايضر بالناس ومايسوءهم إلا اهــــل الجهالة والسفه ، سيئو النظر في العواقب من امور الدنيا والآخرة ، قليلو العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة ، وبما يلزمهم من تبعة مااجترحوا من العداء والجفاء ، قال ابو العلاء المعري .

والجهــل داء قــد تقادم عهده | في العالـمين ولايزال عضالا
لولا الجهـــالة لم يكونوا كلهم | إلاّ خــــلائق اخوة امثـالا

والعلم لايتم الا بالعمل ، وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع بــــه ، فان لم يستعمل مايعلم فليس يسمى عالماً ، ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمي جاهلاً والله تعالى اعلم . (لا يفضض الله فاك)

اظهار يوسف نفسه لاخوته

آ(٩٠) ﴿ — قالوا : أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسفُ ؟ — قالَ : أنا يُوسفُ ، وهذا أخي ، قَدْ مَنَّ اللهُ علينا ، إِنّه مَن يَتّقِ ويَصْبِرْ فإنّ اللهَ لايُضيعُ أجْرَ المُحْسِنين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية التسعون فقام الشيخ سعدالدين اليبرودي[١] وقال :

سمع اخوة يوسف كلام أخيهم يوسف ، فانعموا فكرهم في مغزى سوآله ،

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته ، وتأملوا في عينيه — والعينان أظهر ملامح الوجه ، وأدل على صاحبهما من سائر الاعضاء — فانتقلوا من دور « الانكار » أي انكارهم له وعدم معرفتهم به ، الى دور « الشك » أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو ياترى يوسف أم لا ؟ فـ (قالوا) وهم مضطربو الحواس (أئنك لانت يوسف ؟) — بن يعقوب — (قال) بصوت رن رنين النحاس ، ما أبعدتم في التفرس ، ولا تجاوزتم الواقع ، لا أخفي عليكم أني (أنا يوسف) بن « يعقوب » من زوجه « راحيل » بنت « الابان » ، (و) لا أريدكم علماً بان (هذا) الشخص الذي ترونه بجانبي ، هو (أخي) بنيامين ، الذي هو وأنا ، من دم واحد ، وبطن واحد ، (قد مَنّ الله علينا) بما نحب وكما نحب ، بالخلاص مما أبتلينا به ، بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالأنس بعد الوحشة (انه من يتق) يخف الله وعقابه (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات ، يجن ثمار تقواه وصبره ، (فان الله) من فضله وعدله (لا يضيع أجر المحسنين) وما ترونه هو ثمرة التقوى ، ونتيجة الصبر : وعاقبة الاحسان ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية .

قالوا : أئنك لانت يوسف . . الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الغني الجيرودي [١] وقال :

استعراف يوسف لاخوته بنفسه وباخيه وتعريضه بهم

فكروا فيما سمعوا ، ثم فكروا ، ثم قالوا بصوت يرتجف ويتقطع ، ولسان يتلعثم : أئنك لانت يوسف ؟ ! ! ! — قال بلسان فصيح ملؤه البلاغة والبيان : قد رأيتموه وسمع كلامكم ، وبعبارة صريحة : يسرني أن أقدم نفسي اليكم ، أنا

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا الشخص الكريم الذي ترونه كنفي وجواري ، هو أخي بكل معنى الكلمة :

أخي — الذي قام بواجبات الاخوة ، منذ دب الى أن شب .

أخي — الذي لم يقطـع صلة الاخوة بيني وبينـه ، ولن يقطعها الى آخر نسمة من حياته .

أخي — الذي يُمتّ اليّ بالاخوة الصادقـة المخلصة الـتي لم تشب بشيء من كدر الحياة .

أخي — الذي كان — على البعد — شاطرني في حزني وضيقتي فهو اليوم — على القرب — يجني ثمار ذلك ، ويشاركني في صفائي وبسطتي :

أولى البرية طراً أن تراعيـه عند السرور الذي راعاك في الحزن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولا ريب أن الله سبحانه قد منّ ويمن وسيمن علينا بلم الشمل ، وبهذا الرقي العظيم ، فان هذا المعنى أمر مشترك بيني وبينه ، كما أن من الأمور المقررة أن من يتق ظلم اخوته وأقاربه ، ويتق التعدي على الأعراض ، ويتق كل مايضر الإنسان في نفسه وفي جنسه القريب والبعيد ، ويتق جميـع الذنوب والمعاصي ، وانمن يصبر على أذى الناس ، ويصبر على غيابة الجب ، ويصبر على الخدمة بأمانه ، ويصبر عن الفحشاء والمنكر ، ويصبر على أعماق السجون ظلماً ، ويصبر على كل مرّ وضرّ ، فلا ريب أنه لايخشى دركاً ، ولو قامت عليه الأرض ، بالطول والعرض ، ومتى كان الله مع العبد ، نجا من كل سوء ، وترك الناس تضرب في حديد بارد ، ذلك ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا العبد الضعيف منهم ولافخر ، فمن زرع التقوى والصبر ، حصد الأجر كما أن — بالمقابلة — من زرع الريح ، حصد الزوابع .

وأما اخوته ، فانهم لما سمعوا هذا الجواب ، دخل بعضهم في بعض ، وسُقط

في أيديهم ، واضطربت فرائصهم ، ورَهَبت نفوسهم ، وغشيهم من الفَرَق ما غشيهم ، وعلا وجوههم الاصفرار ، وصاروا بحالة أحبوا معها الموت ، لا سيما وقد فهموا ان في قوله « إن من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، تعريضاً بهم انهم ليسوا من هذا النوع .

التعريض في الكلام

والتعريض هو الاشارة الى معنى ، لم توضع له الجملة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، كقوله ﷺ في مزاحه مع احدى عماته : « إن الجنة لا تدخلها عجوز » ، فلما جزعت ، قال لها : « إن الله تعالى يخلقهن يوم القيامة ، شوابّ أبكاراً » ، وقال لامرأة : « ما فعل زوجك الذي في عينيه بياض ؟ » ،

ومن ذلك ان بعض العرب أدخِل على « الواثق » ، وكان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويعاقب من خالفه ، فقال له : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فتصامم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : « من تعني يا أمير المؤمنين ؟ » – قال : « إياك أعني » – فقال : « مخلوق » ، يعني نفسه ، وتخلص منه بذلك . وقال لآخر : « ما تقول فى القرآن؟ » فاخرج يده وجعل يعد أصابعه ويقول : « التوراة والزبور والانجيل والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . » وعني بذلك أصابعه ، ونخلص منه .

التعريض في سورة يوسف

هذا ومما لا بد أن ننبه اليه ، ان التعريض في هذه السورة ، ليس مختصاً بهذا الموضع فقط ، بل أرى أنه وقع منها في عدة مواضع ، فمن ذلك :

أولاً — ما في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (ع ٣) فان فيه تعريضاً بقصص التوراة ، التي حوت أقبح القصص .

ثانياً — قول يوسف « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (ع ٣٨) ، فيه تعريض بالفتيين الساقي والخباز ، أنهما ليسا من أهل الشكر .

ثالثاً — وكذا قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (ع ٤٠) ، فان فيه أيضاً تعريضاً بهما .

رابعاً — قوله تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (ع ٥٦ و ٥٧) ، فيه تعريض بان يوسف من المرحومين المحسنين المتقين .

خامساً — قول المؤذن : « ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم » (ع ٧٢) فيه تعريض بأنهم هم الذي سرقوه .

سادساً — وأخيراً قول يوسف « هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً » (ع ١٠٠) ، فيه تعريض بما كان اخوته يقولونه له على سبيل الإنكار والتهكم : « هذا صاحب الأحلام ، هذا الذي يحلم أننا سنسجد له » .

ولنا هنا الملحوظات الآتية :

المحسن

الملحوظة الاولى — كلمة « المحسنين » تشمل كل محسن ، ممن كان ويكون ، من أي نحلة ومن أي ملة ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧ و ٨) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القِيَمَةِ ، فلا تظلَمُ نَفْسٌ شيئاً، وإنْ كان مِثقالَ حبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ ، أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢١ : ٤٧) .

احسان يوسف

الملحوظة الثانية — كان يوسف عليه السلام أحسن طريقته مع الله ومع والديه ،

أحسن الخدمة في بيت سيده « فوطيفار » بكل أمانة واخلاص ، أحسن للعزيز وامرأة العزيز بحفظ عرضها وشرفها ، أحسن للفتيين بوعظها وارشادهما وتأويل رؤيهما ، أحسن المصريين بالعطف عليهم ، وتنظيم ثروتهم ، وترتيب ثمرات نيلهم ، أحسن لاخوته يوم وفدوا عليه لأول مرة ، وبالجملة فالفتيان اللذان كانا معه في السجن ، هما أعرف منا بتفاصيل إحسانه ، حينما قالا له :« إنّا نراك من المحسنين»، واخوته حينما صار بينه وبينهم تماس ، هم أعرف بوجوه إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » وهو نفسه أعرف بطرق إحسانه حينما قال : « فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل الله تعالى هو أعلم من الجميع بمرامي إحسان يوسف عليه السلام وقد قال في تقريظه : « ولما بلغ اشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » ، ثم قال : « نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين».

نتيجة كيد اخوة يوسف له

الملحوظة الثالثة — سمعوا ما سمعوا الآن ، وكانوا رأوا ما رأوا سابقاً ، فظهر لهم ان ذلك « الكيد » الذي كانوا دبروه ليوسف منذ ٢٢ سنة ، كان له نتيجة ذات وجهين ، فهي بالنسبه لهم من أسوأ النتائج ، وبالنسبة ليوسف عليه السلام هي من أحسن النتائج ، وبيان ذلك أنهم هم لم يخل لهم وجه أبيهم ، لأنه كان شغل بحب بنيامين الحاضر ، وبذكرى يوسف الغائب،ولم يكونوا قوماً قدصلحت لهم أمور معيشتهم ، بل بالعكس كانوا منفورين من أبيهم ، واليوم صاروا تحت رحمة يوسف الطريد المشرد ، وانه مهما أراد أن يجري عليهم أمكنه ، حتى انه ليمكنه أن ينقص بهم عدد الأحياء ويزيد بهم عدد الأموات .

وأما يوسف عليه السلام فقد صار من رجال « البلاط » في الدولة المصرية ، ثرياً ، سرياً ، يأمر فيطاع ، عزيزاً في مصر ، وكيلاً عن مليكها . فالهوة التي

بينه وبينهم عميقة جداً وهم بعيدون عنه ، وهو بعيد عنهم بعد الثريا عن الثرى ، وبعد الابريز الوهاج عن البرا (١) .

سارت مشرقة وسرت مغرباً　　شتان بين مشرق ومغرب

سبب ذكر يوسف اخاه بنيامين مقرونا باسمه دون سؤال منهم

الملحوظة الرابعة — أجابهم عن نفسه وعن اخيه ، مع انهم لم يسألوه عنه ، لأنه كان معلوماً لهم ، لأن في ذكر أخيه بياناً لما سألوه عنه ، أو يقال : أتى بذلك لأن بنيامين كان — طبعاً — مخلصاً في حبه له ، كما أنشد إسحاق الموصلي :

وليس أخي الا الصحيح وداده　　ومن هو في وصلي وقربي راغب
تقرّب مني في ميولي ومذهبي　　وان باعدتنا في الولاء المناسب

وكما قال أبو تمام :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة　　واخوة اسوة عندي وخلاني
عصابة جاورت آدابهم أدبي　　فهم وان فُرِقوا في الأرض جيراني
أرواحنا في مكان واحدٍ وغدت　　أجسامنا في عراق أو خراسان

وكما قال أبو تمام أيضاً :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم　　وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فاذا القرابة لا تقرب قاطعاً　　واذا المودة أقرب الأنساب

الملحوظة الخامسة — إن الذي جرّ ذكر « بنيامين » ما في اسم يوسف من الاشارة للزيادة ، وهو رمز لتحقيق أمل والدته المرحومة الذي صدقه الواقع ، فيكون قريباً مما يسميه علماء البلاغة « استطراداً » وهو ذكر الشيء في غير محله لمناسبة .

---

(١) البرا : التراب .

العبر المستنبطة من هذه الآية

الملحوظة السادسة — نتعلم من هـذه الآية الفاذة الجامعة — أن التقوى هي البقوى ، وهي السبب الأقوى ، وان الصبر عواقبه الجبر والنبر ، ونتعلم منها أيضاً أن الانسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة ، حيث جعل منّة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر .

يوسف نال الحظوة بأخيه بحواسه الخمس

الملحوظة السابعة — لعل يوسف قال : « وهذا اخي » ليلتذ سمعه ولسانـــه برنين لفظة « أخي » التي مضى عليها نحو ٢٢ سنة ، وهو لم يلتذ بها ، وعلى ذلك فقد كملت ليوسف الحظوة بأخيه بحواسه الخمس ، إذ راى شخصه بعينيه وشم ريحه بأنفه ، وذكر اسمه بلسانه . ولمس جسمه بيده ، وسمع صوته باذنه .

ويمكن ان نقول ان يوسف ذكر اسم اخيه بنيامين وان لم يدخل في سؤالهم مع أنه معلوم لهم ومفهوم ـ لأجل أن يرتب على ذكر الاثنين التي تعمهما ، وهي : « قد منّ الله علينا » معاً ، بالجمع بعد الفرقة ، والفرح بعد الحزن ، والعز بعد الذل ، والرقي بعد السقوط ، لأن كل ما حصل لأحدنا فهو للآخر ، فنحن متكافلان متضامنان في كل ما يعرض لنا .

(قالوا : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

— ٣ —

وصعد المنبر الشيخ اليرموكي وقال :

التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي »

لقد تكلم السادة الاخوان على الآية بما لم يدعوا فيه مقالاً لقائل : فأنا الفقير

الآن لا أريد أن أتكلم إلا على التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » إضافة لما ذكروه من النكت :

أولاً — الاشارة به الى قولهم « لَيوسُفُ وأخوه أحبُ الى أبينا منا ونحنُ عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ثم قولهم (إنْ يسرقْ فقد سَرقَ أخٌ له من قَبْلُ) ، فيشبه أن يكون قوله : (أنا يوسف وهذا أخي) من نوع التلميح لشيء آخر ، تذكيراً لاخوته بما كان سمع منهم ، كانه يقول : (وهذا أخي) الذي كنتم قلتم عنه :(كيت كيت) ، ولم تذكروه وتذكروه بعنوان أخوتي له الا في موضعي الحسد والانتقاد ، ولكن في مقابلة ذلك ، ها أنا ذا أذكره باسم الاخوة في موضع الافتخار به والمباهاة ، فأنا اباهي وأفاخر به ، صارخاً بين الملأ : « هذا أخي » .

ثانياً — لما لم يقولوا له : (أئنك لأنت أخونا يوسف) ، بل تعارفوا عليه باسم فقط ، غير مقرون بالنسبة الاخوية المشتركة بين الطرفين — أجابهم بجواب من نوعه ، أي أنه لم يقل : (نعم ، أنا أخوكم يوسف) ، بل قال مامعناه : أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كانه أجنبي عنكم ، وهذا أخي الذي انتسب اليه ، حيث هو لم يصدر منه مايشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للاخر ، فحيث أنتم لم تذكروني باسم الاخوة ، فلا أعدم من أذكره بهذا الاسم .

ثالثاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) الاشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي ، فهذا هو الأخ الحقيقي ، الذي يقوم بحقوق الاخوة ، ولم يمسني بأذى مطلقاً ، « هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي ، هذا هوأخي » الذي اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها ، كما اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من الغبطة والسرور :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

بخلافكم في كل ذلك ، فاخوتكم لي ، اخوة اسمية فقط ، لا فائدة منها ، بل هي مصدر ضرري ومبعث ايذائي .

وما أكثر الاخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

رابعاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) إنه الأخ الذي حرصتم على التفريق بيني وبينه ، وعملتم على بعدي عنه ، ها هو جالس بجانبي ، ها هو لصيقي ، ها هو لا يفصل بيني وبينه إلا مرّ النسيم ، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتي ، ها هو ذا يشار اليه باشارة القريب ، ها هو بين بصري وسمعي ، ضد ما كنتم سعيتم سابقاً من التفريق والتبعيد ، وهذا على حد ماقيل :

« أزجر المسيء بثواب المحسن » . (جيد)

قالوا : ائنك لانت يوسف

— ٤ —

ثم قام تقي الدين الدهشوري وصعد المنبر ثم قال :

الجزاء يكون في الدنيا والاخرة

لي ههنا كلمة فذة : يقول يوسف عليه السلام : (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو يريد بذلك أنه تعالى لا يضيع أجرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فنتعلم منه أن الإنسان يجازي على أعماله في الدنيا كما في الآخرة ، وهذا يظهر لنا من آيات كثيرة في كتاب الله تعالى :

١ — قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ أى من أعمال الدنيا والاخرة ﴿ مِنْ ذكرٍ وأنثى — وهو مؤمنٌ — فلنحيينّه حياةً طيبةً ﴾ وعلى الأقل بالرضى بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ ولنجزينّهم أجرَهُم ﴾

في الاخرة ﴿ بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ من أعمالها (١٦ : ٩٧).

٢ً — وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ من أعمال الدنيا والاخرة ، ﴿ فلِنفْسِه ، ومَنْ أساءَ ﴾ أعماله الدنيوية والأخروية (فعَليها) وهذا الجزاء الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا ، وأما جزاؤه عليها في الاخرة فهو المرموز في قوله ﴿ ثم الى ربكم ترجعون ﴾ (٤٥ : ٤٤) ، أى فيجازيكم هنا على الخير وعلى الشر بمثله .

٣ً — وقال تعالى : ﴿قال :أمّامن ظلَمَ فسوفَ نُعَذِّبهُ ، ثم يُرَدُّ الى ربّه فيُعذّبهُ عذاباً نُكراً ، وأمّا مَن آمن وعَمِل صالحـــاً ، فلهُ جزاءً الحُسنى ، وسنقول له مِنْ أمرنا يُسرا ﴾ (١٨ : ٨٨ و ٨٩) أي فمن ظلم بتركه الواجبات الدنيوية والاخروية، فسوف يعذبه ذوالقرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيوية، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً على تركه واجباته الاخروية ، وأما من آمن وعمل صالحاً من أعمال الدارين فله جزاءً الجنة على أعماله الأخروية ، وسنقول له في الدنيا من أمرنا يسراً على عمله الصالح الدنيوي .

٤ً — وقال تعالى : ﴿ فأمّا الذين كفَروا ، فأعَذّبُهم عذاباً شديداً ، في الدنيا والآخرة ، وما لَهُم مِنْ ناصرين ، وأما الذين آمنو وعمِلوا الصالحاتِ ، فيُوفيهمْ أجورَهم ﴾ (٣ : ٥٦ و ٥٧) ، فقوله: وعملوا الصالحات ، أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله : فيوفيهم أجورهم ، أي في الدنيا بالنسبة للأعمال الصالحة ، الدنيوية ، وفي الآخرة بالنسبة للاعمال الصالحة ، الأخروية ، والدليل على هذا المعنى ،قوله في الفريق الأول: (فأعذبهُ عذاباًشديداً في الدنياوالآخرة) فانه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني (فيوفيهم أجورهم) أي في الدنيا والآخرة .

٥ً —وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا، كونوا قوّامين للهِ ،شُهَداءَبالقِسْطِ،

ولا يجرِمَنَّكم شنآن قومٍ على أن لا تعدلوا ، إعدلوا هو أقربُ للتقوى ، واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ ، وعدَ اللهُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم ﴾ (٥ : ٩ و ١٠) ، فقوله (وعملوا الصالحات) ، أي مثل القيام لله ، والشهادة بالقسط ، والعدل في الحكم ، ولو مع شنآن المحكوم له أو عليه ، فالصالحات تشمل صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (أجر عظيم) أي في الدنيا على أعمالها ، وفي الآخرة على أعمالها .

٦ً — وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ وُدّاً ﴾ (١٩ : ٩٧) ، فالصالحات هي دنيوية وأخروية ، والوُدّ هو في الدنيا والآخرة ، فيحدث لهم في الدنيا مودة في القلوب ، يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ، ولا تعرض للاسباب التي توجب الود ، ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع ببرة ، أو غير ذلك ، وانما هو اختراع منه تعالى ابتداءً ، اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، وكذلك يجعلهم مودودين في الآخرة ، يحببهم الى خلقه ، بما يعرض من حسناتهم ، وينشر من ديوان أعمالهم ﴿ ونزعنا مافي صدورهم مِنْ غلٍ ، إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلين ﴾ (١٥:٤٧) والسين في « سيجعل » بالنسبة للدنيا ، لأن السورة مكية ، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة ، فوعدهم الله تعالى ذلك « الود » متى انتشر الاسلام وقوي ، وأما بالنسبة للآخرة ، فلأن كل آتٍ قريب عند الله .

٧ً — وقوله تعالى : ﴿ قال : لقد ظلمكَ بسؤال نعجتكَ الى نعاجه ، وإنَّ كثيراً من الخُلطاء ليَبْغي بعضُهم على بعضٍ إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم ﴾ (٣٨ : ٢٤) فقوله : (وعملوا الصالحات) أي التي هي من قبيل الأعمال الدنيوية ، أعني عدم الظلم والتعدي ، والتباعد عن البغي والغصب ، فهي أعمال سلبية ، وهؤلاء هم الذين يُستثنون من الخلطاء الذين يبغي

بعضهم على بعض ، وهم أيضاً الذين يوصفون بالقلة ، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أوراد ، مع الظلم والتعدي والغصب ونحوه ، فـلا نراهم مُستَثنَين من هؤلاء الخلطاء الذين يبغي بعضهم على بعض ، ولا نقول في شأنهم : إنهم قليلون ، بل هم كثيرون « أكثر « من الهم على القلب ! » .

٨ً — وقال تعالى : ﴿ أمْ نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ كالمفسدين في الأرضِ ، أمْ نجعلُ المتقين كالفُجّار ﴾ (٣٨ : ٢٨) ، فقوله : (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا ، بدليل مقابلته بقوله : (أمْ نجعل المتقين كالفجار)

٩ً — وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نُزّلَ على محمدٍ — وهو الحقُّ من ربّهم — كفّرَ عنهم سيئاتهم وأصْلحَ بالهم ﴾ (٤٧:٢) فقوله (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) هو جزاء صالحات الآخرة ، وقوله (وأصلح بالهم) هو جزاء صالحات الدنيا في الدنيا ، لأن إصلاح الحال إنما يحتاج اليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة .

١٠ً — وقال تعالى :﴿ إنّ الانسانَ لَفي خُسْرٍ ،إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ﴾ (١٠٣:٢و٣) فهذا « الخسر » هو الخسران في الماديات والروحيات وهذه « الاعمال الصالحة » هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة.

١١ً — قال تعالى : ﴿ وَعَـــدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وَعمِلوا الصالحات ، ليَستخلِفَنّهم في الأرضِ ، كما استَخْلفَ الذينِ منْ قبلِهِم ، ولَيُمَكِنَنّ لهم دِينَهم الذي ارتضَى لهم ، وليُبَدّلَنّهم مِنْ بَعدِ خوفِهم أمْناً ﴾ (٢٤:٥٥) فقوله (وعملوا الصالحات) هي الأعمال الروحية والمادية ، ومنها اعداد مااستطعنا

من قوة ومن رباط الخيل ، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل ، وذهاب الريح ، ومنها أن نرى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، الى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين ، ومما يقتضيه فن الحرب ، بحيث نُعِدّ في كل عصر ما يناسبه ، فاذا قاموا بذلك وما اليه ، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات ، التي يترتب عليها ، ترتب المعلول على العلة ـ استخلافهم في الارض ، وتمكين دينهم لهم ، وابدالهم من بعد خوفهم أمنا .

وأما الصلاة والصوم والتهجد والتهليل والتسبيح واقامة الاذكار وقراءة الأوراد مع ترك ما تقدم من مأمورات الله تعالى ، فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة .

١٢ ـــ وقال تعالى : ﴿ اعمَلُوا آلَ داودَ شُكراً ، وقليلٌ مِنْ عبادِيَ الشَّكُور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية، كما يظهر بمراجعة سابقة .

١٣ ـــ وقال تعالى : ﴿ إنّا جعلنا ما على الارض زينة لها ، لِنَبْلُوَهُم أيهم أحسنُ عَمَلاً ؟ ﴾ (١٨ : ٧) فالعمل ههنا مادي وروحي

سألني سائل : ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات ؟ ـ فقلت له : هي كثيرة جداً : الفنون ، العلوم ، الصنائع ، معامل الدباغة ، معامل الصابون ؛ معامل الحرير ، معامل الأجواخ ، تشييد المدارس ، تأليف الجمعيات ، السياحة ، الهجرة في طلب العلم ، إقامة الربط في الثغور ، صنع الأساطيل الحربية، الطيارات ، المدافع ، الدبابات ، الغواصات ، تنظيم وتعليم الجيوش ، العناية بالزراعة والغرس والتجارة ، طرق المواصلات ، ايجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب ، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون ... الخ الخ .

نقرأ القرآن الكريم فنسمع الله تعالى يقول في اهل الكتاب موعظة لنـــا :

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ، وما أُنزِلَ اليهم مِنْ رَبِّهم ، لأكلوا مِنْ فوقِهم ومِنْ تحتِ أرجُلِهِم ﴾ (٥ : ٦٩) ، فما هذه الاقامة للتوراة والانجيل؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل ، وما الى ذلك ؟ .. كلا .. فان هذه الامور بمجردها لا يترتب عليها كثرة الزروع ونمو الأشجار والثمار ، وانصباب الخيرات والأرزاق ، ولكن المقصود بهذه الاقامة مع ما ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على امتهم بالنفع المادي الدنيوي .

نقرأ القرآن الكريم ، فنسمع الله تعالى يقول تعليماً لنا : ﴿ ولقد كَتَبْنا في الزَّبور مِنْ بعدِ الذِّكْرِ ـ أنَّ الأرض يَرِثُها عِبادِيَ الصالحون ﴾(١٠٥:١١) فهل هذا « الصلاح » هو مجرد العبادات الروحية ؟... كلا ... ولكنه مع ما ذكر التأهل لملك الأرض ، وعمارتها ، وخدمتها ؛ واستغلالها ، واستخراج كنوزها ، ومعادنها وثمراتها ، وخيراتها ، وأخيراً القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها ، هذا ما حضرني من الجواب ، والله تعالى هو العليم بالصواب .

(مرحى)

اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثَرَكَ اللهُ علينا ، وإنْ كنا لَخَاطِئينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى وتسعون ، فقام جلال الدين المصري واعتلى منصة المنبر ، ونحن ننشر نص خطابه القيم الذي القاه على مجمل تفسير هذه الآية ، قال :

أيها السادة :

سبق ان دار الحديث بين يوسف واخوته ، فعرفوه ـ في هذه السفرة الثالثة ،

كما هو قد عرفهم في السفرة الاولى ـ فبغتوا وأجفلوا وارتج عليهم ، وأرادوا أن ينتحلوا عذراً يتخلصون به من عقاب أخيهم ، وعلى الأقل من تثريبه عليهم ، فلم يجدوا ما يعتذرون به ، ولا ما يبررون به عملهم ،فلم يسعهم الا الاعتراف الصحيح والإقرار الصريح ، فتقدموا اليه والخجل ظاهر على وجوههم ، يمازجه الذل والانكسار ، و (قالوا) بلسان واحد ، ياللخجلة . . . (تالله لقد آثرك) فضلك (الله علينا) بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، فأنت أثير الله ، وصاحب السعادة لديه من دوننا ، (وان كنا لخاطئين) ، فشأننا وحالنا أنا كنا متعمدين للاثم ، لم نتق ولم نصبر ـ أو يقال وان كنا لخاطئين في تصوراتنا وأفكارنا، خاطئين في أقوالنا ومفاوضاتنا ، خاطئين في أعمالنا ومشاريعنا ، خاطئين في تهوراتنا ونزقنا .

(قالوا : تالله لقد آثرك .. الخ)

— ٢ —

ثم قام مولانا عبد الحي الدمياطي (١) وقال :

اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم

ما كاد يوسف يتم كلامه ، حتى تحققوه انه اخوهم ، وحتى تذكروا سوء فعلتهم التي فعلوا ، وحتى وقفوا على مافرط منهم ، ولعنوا تلك الفكرة التي كانوا افتكروها ، والحيلة التي كانوا احتالوها ، ثم تبين لهم أن الذي أمامهم ليس هو « فوطيفار » عزيز مصر الخليع ، ولكنه أخوهم « يوسف » بن راحيل ، فسقط في أيديهم ، واستولى عليهم السكوت ، فصفرت نفوسهم ، وتزاحمت على وجوههم صفرة الوجل وحمرة الخجل فما وسعهم إلا أن يتقهقروا من أمامه قليلا قليلا ، وقد نكسوا رؤوسهم ، ثم استنصروا جلدهم وقوتهم ، بعدما خارت قواهم وقالوا مقرظين له :

(١) دمياط من البلاد المصرية .

بخ بخ ، تالله لقد قدّمك الله علينا نحن العصبة ، فصار المأموم إماماً ، والتابع متبوعاً ، والمأمور آمراً ، والأول أخيراً ، والأخير أولاً ، والسيد مسوداً ، والمسود سيداً ، اجتباك الله علينا بتعليم الأحاديث ، بإتمام النعمة ، بتمكينك في الأرض ، تتبوأ منها حيث تشاء ، باصابة الله إياك برحمته بإتيانك منه علماً وحكماً ، بجعله إياك من عباده المخلصين ، باسناد وزارة المالية المصرية لعهدتك ، بجعله إياك عزيز الديار المصرية ، بالتقوى والصبر ، بسجود الكواكب ، وأخيراً بالنبوة والرسالة . وأما نحن ، وان كنا لخاطئين ، فمثلنا من يهفو ، ومثلك من يعفو ، ها نحن أولاً قد أقررنا بذنبنا ، وشفيع المذنب اقراره ، ونحن لا بد لنا من أن نعترف لك بالخطأ حتى لا نكون قد خطئنا اليك خطأ آخر ، نحن غلاظ أكباد ، قساة قلوب ، فمعذرة إلى الله واليك ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، فأغض عن خطائنا ، وأذَنْ لحلمك أن يسع جهلنا :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له　　إذا لم يكن في فعله والخلائق

ولعمرنا إن نهايتنا لمحزنة أليمة ، إلا أن وجدنا لنا في بعض زوايا قلبك مكاناً للرحمة بنا ، والإشفاق علينا ، ملكت فأسْجِح ، قدرت علينا فأرفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، وان الذي جرأنا على ماصنعنا ، هو الذي أخرج أبوينا من الجنة ، وأنساهما العهد ، وهذا مقام العائذين بك ، أيها الأخ ، فاغسل عنا الحوبة (١) بالتوبة ، واعفر مافرط منا في تلك النوبة :

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً　　فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل

فان لم تكن للعفو عندك بالذي　　أتينا به — أهلاً ، فأنت له أهل

هذا مرمى كلامهم ، وأما نحن فنقول : « صح النوم يا أسيادي ! . . » وصدق من قال : « أول الغضب جنون ، وآخره ندامة » ، ولكن « بعد خراب البصرة ».

(١) الحوبة الاثم .

ولو تراهم إذ تمثلوا بين يدي أخيهم . . ولو تراهم إذ خفضوا رؤوسهم خائفين . . ولو تراهم إذ تصببوا عرقاً . . ولو تراهم إذ غشيت وجوههم غمامة من الاستكانة . . ولو تراهم واقفين على مثل نار الغضا . . ولو تراهم تنتابهم الأفكار المتضاربة . . وتتقاذفهم الهواجس المتناقضة . . يتراوحون بين خوف ورجاء . . ويترجحون بين معاقبة وغفران — نعم لو تراهم بهذه الأحوال ، لترى مشهداً رهيباً ، وأمراً عصيباً ، كيف لا . . وإن ذلك اليوم الذي دخلوا فيه على « يوسف » ، يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، يتمجد اسم الله ! ! ! يتبارك اسم الله ! ! ! ، كانوا ائتمروا على قتل أخيهم ، فصاروا اليوم بين يديه ، ﴿ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (١٢ : ٢١). (جيد)

قالوا : تالله ، لقد آثرك . . الخ

— ٣ —

وقال نجم الدين الشرقاوي (١)

عندي على هذه الآية المواد التالية :

وجوب الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران

المادة ١ — نتعلم من هذه الآية ، أنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ، ويطلب المغفرة ممن أساءه ، ولو أصغر منه سناً ، كما وقع من اخوة يوسف عليه السلام ، وحينئذ ينبغي للمساء اليه أن يغفر للمسيء ، كما وقع من يوسف معهم ، حسبما نتعلمه من (ع ٩٢) .

المادة ٢ — أقروا بذنوبهم ، ورجعوا الى صوابهم ، واستقبحوا عملهم ، وسخطوا على أنفسهم ، وأعلنوا فظاعة ما أجروه ، ونحن لانرتاب في أن يوسف

(١) نسبة الى منطقة الشرقية بمصر .

عليه السلام قبل منهم هذا كله ، لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم ، ولكن هل يعتبر هـذا القول منهم توبة نصوحاً بالنسبة لله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، بحيث ينالون بها من الله الغفران ؟ . .

ورب قائل يقول : (إنهم أرادوا بذلك التوصل الى استنزال عفو أخيهم عنهم ، والتعرض لغفرته لهم) .

وربما يقول آخر : (إن القوم ندموا وأسفوا على مافرط منهم ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله التوبة) وهـذا هو الأقرب ، بدليل تسميتهم « كواكب » ، لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والأوبة،ففي أي وقت يكونون كذلك ؟ نعم نعم ، انهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة ، وصار كل واحـد منهم كُسَعِياً يصرخ :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذاً لقطعت خَمسي
تبين لي سَفَاه الرأي مني لعمرأبيك حين كسرت قوسي

مقابلة بين خاتمة اخوة يوسف وبين ماذكره الانجيل من خاتمة بطرس تلميذ المسيح

المادة ٣ ـــ قولهم : « تالله لقد اثرك .. الخ » ، من هـــذا ومن دعاء أخيهم يوسف لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ،ومن قولهم لأبيهم . « ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين »، وقول أبيهم لهم : « سأستغفر لـكم ربي إنه هو الغفور الرحيم »ـــ من مجموع هذه المكالمات المتبادلة ، بين يوسف واخوته وبينهم وبين أبيهم ، نعلم إن خاتمة أمرهم كانت حسنة ، لأن هـذه المخاطبات جاءت أخيراً ، ومتأخرة عن أعمال اخوته الفاسدة وأقوالهم الكاذبـــة ، ومواعيدهم المخلفة ، فكل هذه نسخت بتوبتهم الأخيرة ، وحسن حالهم مع الله وأبيهم وأخيهم ولاشك أن المدار على الخواتيم ؛

وهذا (والشيء بالشيء يذكر) ضد ماحصل لبطرس الذي طرده المسيح (ع) وسماه شيطاناً ، ثم بطرس أنكر المسيح ثلاث مرات ، وهذا هو كذب صريح وبمثابة ردة ، وكان كل هـذا في آخر أمره ، بعدما كان معتمده ورأس تلاميذه ، في الانجيل أنه قال له : « وأنا أقول لك أيضـاً ، أنت بطرس ، وعلى هـذه الصخرة إبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه على الأرض ، يكون مربوطـاً في السموات ، وكل ماتحله على الأرض ، يكون محلولاً في السموات » (مت ١٦:١٨) قال متى : « حينئذ أوصى تلاميذه أن لايقولوا لأحد : انه يسوع المسيح ، من ذلـك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وفي اليوم الثالث يقوم ، فأخذه بطرس اليـه وابتدأ ينتهره قائلاً : ﴿ حَشاك يارب ، لايكون لك هـذا ﴾ — فالتفت وقال لبطرس : ﴿ اذهب عني ياشيطان ، أنت معثرة لي ، لأنك لاتهتم بما لله ، لكن بما للناس ﴾ (مت ١٦ : ٢٠—٢٣) ، ثم قال « متى » : ﴿ أما بطرس فـكان جالساً خارجاً في الدار ، فجاءت اليه جارية قائلة : ﴾ « وأنت كنت مع يسوع الجليلي » — فأنكر قدام الجميع ، قائلاً : « لست أدري ماتقولين » ، ثم إذ خرج الى الدهليز ، رأته أخرى فقالت للذين هناك : « وهـذا كان مع يسوع الناصري » — فأنكر أيضاً بقسم « إني لست أعرف الرجل » ، وبعـد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس : « حقـاً أنت منهم فان لغتك تظهرك » — فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف اني لاأعرف الرجل » (مت ٢٦ : ٦٩—٧٤) فهذا اللقب الذي لقب به المسيح بطرس ، وهذه الشهادة بانه معثرة وانه لايهتم بما لله ، لكن بمـا للناس ، وهذا الكذب والانـكار الذي صدر من بطرس لإلهه المسيح ، مع اللعن — كل هذه الامور كان على رواية « متىّ » بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، فهو ماصار لبطرس في آخرة

أمره ، بخلاف مخالفة لحال اخوة يوسف ، والعبرة بالخواتيم ، هذا على رواية « متى »
ولكن نحن نجل حواري المسيح عن ذلك وعن أقل منه ، ولانؤمن بهذه الرواية
التي تحط من قدر بطرس القديس.

الفرق بين لفظتي الخاطىء والمخطىء واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين

المادة ٤ — من الناس من يقدم على الفعلة السيئة ، تارة « باجتهاد » وتأويل ،
بحيث يكون غير خاش بما عمل عقاباً من الله ، ولا توبيخاً من الضمير ، وتارة
« بالغلط » وعدم معرفة أن هـذا الفعل حرام ، فصاحب هـذا العمل — في
الحالين — لايعاقب ، وعلامة هذا النوع ، انه يفعل الفعل ، وهو راض عن نفسه ،
مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « مخطىء » ، ومن الناس من يعمل عمل
السوء ، وهو عالم انه سوء ، وان الاقدام عليه غير جائز ، لافي حكم الله ، ولا في
حكم الضمير ، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ماعمل ، مامن ذلك بد ،
إن لم يعقبه بتوبة ، وعلامة هذا النوع انه يعمل العمل ، وهو غير راض عن نفسه ،
ولامستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « خاطىء ».

فاذا تقرر هذا فأولاد يعقوب عليه السلام كانوا من قبيل هذا النوع ، ولذلك
تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيهم ، ثم أمام أبيهم بانهم كانوا « خاطئين » ، وهـذا
يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضاً ، أو القائه في
غيابة الجب ، وهي كونه أحب لأبيهم منهم — كانت علة غير حقيقية ، حتى في
نظرهم ، وانهم كانوا غير مقتنعين بها ، لأنها صورية فقط ، إذ العلة الحقيقية هي الحسد
والغيرة والغيظ والأثرة .

آيتا الاستغفار

المادة ٥ — قال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله ، آيتان ، ماأصاب عبد ذنباً
فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له :

الاولى — قوله : ﴿ والذينَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً أو ظَلَموا أنفُسَهُم ، ذَكَروا اللهَ ، فاستَغفَروا لِذُنُوبِهِم — وَمَن يَغفِرُ الذنوبَ إلاّ اللهُ — ولم يُصِرّوا على ما فعلوا ، وهم يَعلَمون ﴾ (٣ : ١٣٥) ،

والثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعمل سُوءاً أو يَظلِم نَفسَهُ ، ثمّ يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجِد اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس

المادة ٦ — لم يتمادوا في إنكار المحسوس ، ولم يثابروا على رد الحقائق ، ولم يحوجوا من يخاطبهم بهذا الخطاب أن يثبت أنه « يوسف » ! ! ! ، وأنه حتى اليوم « حيّ يرزق » ، لم يأكله الذئب ، ولم يفترسه الوحش !!!.

فنحن في مقابلة تساهلهم هذا ، لا يسعنا إلاّ تقديمواجبات الشكر لما أبدوه من هذا اللطف مع أخيهم ، والتسامح والتساهل ، وإلاّ كان لهم أن يتكروا على هذا الذي يخاطبهم — دعواه أنه « يوسف » ويكلفوه أن يثبت تلك الدعوى في محكمة مصر العليا !!!... إذ يمكنهم أن يقولوا له : نحن أثبتنا موت « يوسف » بن يعقوب قديماً من ٢١ سنة ، فان بعضنا ادعى ذلك ، والبعض الآخر شهد عليه ، بلْه شهادة « القميص » ، ونحن والقميص أصدق منك أيها المتكلم المدعي النسب فينا ، فان كنت تريد إثبات انك يوسف بن يعقوب ، فعليك بنقض الحكم الصادر عليك بالموت ، واثبات انك حتى اليوم « حيّ ترزق !!..

الحي الميت

الشيء بالشيء يذكر — قرأت في بعض الصحف انه ما زال يوجد « قانون » قديم في المانيا ، يقضي بأن الشخص اذا اعتبر خطأً ميتاً في ورقة رسمية ، وهو

لا يزال على قيد الحياة ، فعليه أن يراجع السلطات ، في مدة ستة أسابيع ، من وقوع ذلك الخطأ ، فاذا انقضت المدة ولم يفعل ، يبقى في نظر « القانون » ميتاً الى الأبد؛

وقد حدث أن بحّاراً المانيا يسمى « فوتكا» اعتبرته السلطة ميتاً وهو مايزال حياً . ولكنه لم يطلب تصحيح هذا الخطأ في المهلة المعينة ، ومن أجل ذلك مايزال حتى اليوم يطالب بتركته التي وزعت على ورثته ، وقد بذل بعد انتهاء « الحرب العالمية » جهداً عظيماً ، لكي يعود الى الحياة في نظر القانون ، ولكنه لم ينجح ، قال بعض الظرفاء : إن « فوتكا » لم تبق أمامه وسيلة لاثبات حياته سوى أن يقتل انساناً آخر ، ومن الطبيعي ان الميت لا يقتل حياً ، غير أنه يخشى في هذه الحالة أن لا يتمتع طويلاً بحياته الجديدة » .

هـذا ولكن « يوسف » الصديق رآى أمامه وسيلة لاثبات حياته في نظر إخوته ، وأنه هو يوسف العبراني بن يعقوب ـ هي الإتيان بهم وأهلهم أجمعين ، ليعيشوا عنده بمصر ، فبدلاً من أن يقتل واحداً منهم ، أراد أن يحييهم جميعاً .

توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز

المادة ٧ — تعلم من هذه السورة انه كان ليوسف « أعداء » في فلسطين هم « اخوته » ، كانوا أذنبوا اليه ، وتعدوا عليه ، ثم تابوا بين يديه ، ولكن بعد خراب البصرة ، أو كما قال الشاعر :

« ولكن جئت في الزمن الأخير »

كما نعلم أيضاً مما سبق أنه كان ليوسف « عدوة » لدودة « بمصر » هي «زليخا» كانت اتهمته وتعدت عليه ، وأرادت تدنيسه ، ثم بعده تابت ، ولكن في آخر نفس من أنفاسها ، فتوبة هؤلاء وتوبه هذه ، ان كانت معتبرة ، لكنها منحطة ، وفي آخر درجات التوبة ، كيف لا .. وانما كانت توبة زليخا بعد ما تملص يوسف منها وخرج من قصرها ، وتخلص من نفوذها ، وأصبح في بلاط الحكومة ، وهي قد كبرت ،

وهو قارب سن الشيخوخة ، وذبل ورد وجنته ، وجف ماء شبابه ، وكذلك اخوة يوسف إنما كانت توبتهم بعد أن رأوا أنفسهم عبيداً بين يدي أخيهم واقفين ناكسي رؤوسهم ، وهو صاحب الحول والطول، وذو العمل والصول ، وهم عزل من أقل من ذلك .

مقابلة بين اقوال اخوة يوسف السابقة واقوالهم الحالية

المادة ٨ — هم « قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين » ، وهذا حقيقة راهنة ، فانني لم أسمع لهؤلاء الاخوة « قولاً » لا أقدر أن أنتقده سوى هذا القول ، إنهم أولاً كانوا قالوا : « ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » (ع ٨) ، وللسامع أن ينتقد فكرهم هـذا من وجوه ، منها ان « يوسف » كان عمره في ذلك الوقت (على اطول الروايات) ١٧ سنـة ، وكان عمر « بنيامين » إذ ذاك ٧ سنين ، وأما هؤلاء الاخوة ، فكان أكبرهم وهو « رأوبين » لا يقل في ذاك التاريخ عن ٣٠ سنة ، وكان أصغرهم وهو « زبولون » لا يقل في ذالك التاريخ عن ١٨ سنة ، ولعمري إن حسد الكبير للصغير وغيرته منه لهما من الغرابة بمكان .

وانهم ثانياً — قالوا : « ونحن عصبة » أصلحهم الله ، أما كان الأولى بهم أن يعللوا بأنهم أطوع لأبيهم أو أنهم أحسن حالاً من أخيهم ؟

وانهم ثالثاً — كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ونحن نقول : إن من يضللون أباهم هم لا غيرهم في الضلال المبين .

وانهم رابعاً — كانوا قالوا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » (ع ٩) ، أصلحهم الله ! كان الخروج من هذا الكرب والمأزق الحرج الذي تصوروه ليس منه مناص بسوى « القتل » ؟!

سبحان الله ! أما كان يكفي أن يتكلموا في هذا الشأن مع والدهم بلطف ، ويتفاهموا معه بالحسنى ؟ وأيضاً أما كان الأحرى بهم أن يحسنوا حالهم في أنفسهم ومع أبيهم ، حتى يصير محباً لهم كأخيهم ؟ ثم كيف ساغ لهم أن يتصوروا أن « قتل » يوسف ينشأ عنه خلو وجه أبيهم لهم ، مع ان العقل يقتضي ضد ذلك ؟ ثم ما هذا الصلاح الذي سيصيرون اليه ؟ مع ان كل انسان ذي احساس ، متى تذكر انه فعل فعلاً سيئاً مع اخيه ، لا سيما بدون ذنب منه ، فلا ريب أن عيشته تكون غير صالحة ، لأن ضميره دائماً يوبخه على ما فعل .

وخامساً — سمعناهم يقولون: ﴿ يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف؟ ﴾(ع١١) ولعمري ان هذا القول لما يوجب الخوف ، ويوقظ الغافل عن كراهتهم لأخيهم .

وسادساً — سمعناهم يقولون ﴿ لئن أكله الذئب ، ونحن عصبة ، إنا إذاً لخاسرون ﴾ (ع ١٤) سبحان الله ! أما كان الأولى بهم أن يضعوا ثقتهم بالله ، ويحصروا اتكالهم على الله ، ويعتصموا بحمايته تعالى !؟ ..

وسابعاً — سمعناهم يقولون ﴿ إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ (ع ١٧) سبحان الله ! أرادوا أن يعتذروا فصرحوا بقصورهم في حفظهم لأخيهم ، لأنهم لم يأخذوه ليكون حارساً لأمتعتهم ، ولكن ليكون معهم حين الاستباق ، وبذلك يتوجه عليهم اللوم ، وتقوم عليهم الحجة .

وثامناً — رأيناهم جاءوا بقميصه ملوثاً بالدم ، ما شاء الله ، ما أحمق هذه الاستدلالات القيمة ؟! كأن « الدم » في هذا الكون لا يكون إلاّ من جسد يوسف عليه السلام ؟!؟..

تاسعاً — سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ (ع ٦٣) براعة استهلال لطيفة ابتدأوها بلفظ « المنع » ، مع ان المقام مقام طلب ، أما كان يجدر

بهم أن يستهلوا كلامهم مع أبيهم بيشراه بملاطفة « عزيز مصر » لهم ، ثم يذكرون له حرص « العزيز » على رؤية أخيهم والا " فلا كيل لهم ؟!

وعاشراً — سمعناهم يقولون : ﴿ جزاؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزاؤه ﴾ (ع ٧٥) ، وكان الأوفق بحال أخيهم بنيامين أن يحيلوا الحكم فيه للقانون المصري ، لأنه أخف عليه ، ولأنه كان يمكن لهم أن يقولوا : إن الجريمة وقعت في المملكة المصرية فلنرجع للقانون المصري ، محافظة على شرف وسلطان مصر .

والحادي عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ نخذ أحـدنا مكانه ﴾ (ع ٧٨) وفي هذا رجوع منهم عن الشريعتين ، الشريعة الابراهيمية ، والشريعة المصرية ، فلم يحترموا الأولى لأنها شريعة جدهم ، ولم يحترموا شريعة مصر ، مع أن الجريمـة وقعت فيها .

والثاني عشر — سمعناهم يقولون: ﴿ وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ (ع ٨٨) والاستجداء لا يليق بأولاد الأنبياء ، لا سيما إذا كانوا فتياناً وكهولاً ، زعماء ثورات ورجال حركات .

مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن

المادة ٩ — رأوا انفسهم اليوم في ضيق من « يوسف » أعظم من ضيقهم منه منذ ٢٢ سنة ، فقد كانوا حسدوه رغماً عن انه كان غلاماً ، ولكن لمـاذا يا ترى حسدوه ؟ حسدوه لعلة صبيانية ، هي زيادة محبة أبيه له ، حسدوه فأرادوا ازالته من الطريق ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، هذه حادثتهم قبل ٢٢ سنة ، ولكن اليوم ما عساهم ان يصنعوا يا ترى ؟ وقد توفرت اسباب الحسد الجوهرية ، توفرت دواعي الحسد الذي عهد أن يكون بين الرجال على امور ذات شأن ، فما هي المكيدة التي عساهم اليوم ان يكيدوا له بها كيدا ... هل في وسعهم هـــذه المرة ، أن يزيلوا

« يوسف » من الطريق ليخلوا لهم وجه مليك مصر « الريان » ؟... هذا أمر يعسر عليهم اليوم ، لأن مليك مصر لا يعرفهم ، ولان يوسف اليوم ليس غلاماً ابن ١٧ سنة ، حتى يستولوا عليه ، بل هو اليوم رجل ابن ٣٩ سنة ، ومن أين لهم اليوم « مرتع وملعب وميدان استباق ؟ » ومن اين لهم وحش وقميص ملوّن ، ودم تيس من المعزى ؟ ومن اين لهم جب؟حتى يقدروا أن أن يمدوا شبكة حيلهم ، كما مدوها بالأمس ، فاليوم غير الامس ، و « العزيز » غير الذليل ، ووزير المالية غير السوقة وابن الشارع ، فمن هذا كله نرى أنهم وقعوا في « حيص بيص » ، وأنهم قد أُخذوا بخلاقيمهم ،ولم يجدوا أمامهم سوى تغيير أفكارهم العتيقة بالمرة ،والاعتراف بخطئهم ، والاستسلام لأخيهم ، والالتجاء لرحمته ، فلذلك طرأ لهم هذا « التغيير الفجائي » ، وسبحان من يغير ولا يتغير !..

كان لهم في حياة يوسف الجديدة ، موت جديد ، وفي عزه ذلهم ، وفي ارتقائه سقوطهم !!! ﴿ قُلْ اللهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تشاءُ ، وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تشاءُ ، وتعِزُ مَنْ تشاءُ ، وتذِلُ مَنْ تشاءُ ، بيدِكَ الخيرُ إنكَ على كلِ شيءٍ قديرٍ ﴾ (٣:٢٦) (قالون)

شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قالَ : لاتَثريب عليكم اليومَ ، يَغفِرُ اللهُ لكم ، وهو أرْحَمُ الراحمين . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والتسعون فقام نور الدين الانبابي[1] واعتلى منصة المنبر وقال محاضرته القيمة التي ننقلها اليكم بقسميها المجمل والمفصل:

(قال) يوسف لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) ولا تأنيب ولا عتب ، بل

(١) نسبة الى انبابة من البلاد المصرية

أطلب لكم المغفرة صارخاً الى السماء (يغفر الله لكم) مافرط منكم ويحتمل أن قوله (يغفر الله لكم) دعاء ، و«رب اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» (وهو) سبحانه وتعالى (أرحم الراحمين) ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء.

(قال : لاتثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٢ —

وتابع السيد نور الدين الانبابي كلامه قائلاً:

يوسف يعفو عن اخوته ويطلب لهم المغفرة

إن يوسف عليه السلام تأمل في الحالة السابقة بينه وبين إخوته فقال في نفسه :

ولست بمستبق أخاً لاتلمه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

ففضل العفو عنهم ، وقال لهم : لامَوْجِدَةَ منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا وَتِرَةَ بيني وبينكم ، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملا ثلاثاً ، ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وأنتم ماخرجتم عن انكم سكان بيوت من طين ، تماسكت أجزاؤها بالماء ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن تحيوا ، وتحيا عائلة اسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر:

والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

وحيث حملتم شهادة التوبة بيدكم ، وبما ان شفيع المذنب اقراره فلا تثريب عليكم اليوم ، فالانسان يصيب ويخطيء ، ويسرع ويبطيء الانسان من ماء وطين ، وليس من الملائكة العِليين ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، والكمال لله والعصمة لانبيائه ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ،

لا تثريب عليكم اليوم ، فبعد اعترافكم بالخطأ ، وانابتكم الى الله ، لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم ، وعواطف مائتة .

يامن عدى ثم اعتدى ثم اقترف　　ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته　　« إن ينتهوا يغفر لهم ماقدسلف »

لا تثريب عليكم اليوم ، إني قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم ، واني مستعد لمسامحتكم ألف مرة ، لو قدر أن يجنى على الف جناية .

لا تثريب عليكم اليوم ، فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها ، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها ، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال ، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم .

لا تثريب عليكم اليوم ، فأنا لست عدو اخوتي ، ولكني عدو تقطيع الأرحام ، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ ، أرى أن من واجبي عدم لومكم وتأنيبكم ، فلا تفتكروا فيما كان بيني وبينكم من الإحن ، فقد جعلتها دبر اذني وتحت قدمي ، فلا آخذ بها عليكم اليوم ، لان خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم .

لا تثريب عليكم ، لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على ارتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة ، لكن حركتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري ، حادثة ارتقائي على عرش الملك .

لا تثريب عليكم اليوم ، بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب ، لي ولكم رب اسمه « الغفار » واسمه « الرحمن الرحيم ».

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء ، غفرت لكم قولكم :« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » غفرت لكم قولكم :« القوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة » ، غفرت لكم قولكم :« إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، غفرت لكم كل مالقيته بسبب كيدكم لي ..

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فالعفو من شيم الكرام ، بل هو من أصول الدين الأساسية ، ومن الأخلاق الفاضلة ، واني لحري بالتمشي عليه مع كل الناس ، لاسيما معكم أنتم أيها الاخوة :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

أكبر الأوزار في أصغر عفو الله أصغر(١)

أما هم فلما سمعوا ذلك ، لاحطك الله محلهم ، فانهم خجلوا خجلاً عظيماً ، ولا بدع فان يوم العدل على الظالم ، شر من يوم الجور على المظلوم ، ولكنهم فيما بعد استنارت ظلمة قلوبهم ، وأنست وحشة نفوسهم ، وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يبدوا حراكاً ، ولعمري إن يوسف لم يبعد في الاحسان ، ولا تجاوز مزاياه الحميدة ، فهو منبع الكرم ، ومصدر معاني الشيم .

(قال : لاتثريب عليكم اليوم ... الخ)

—٣—

وقال شمس الدين الجيزاوي:

عندي على هذه الآية المواد الاتية :

معنى التثريب

المادة ١— معنى « لا تثريب عليكم » لا تأنيب ولا عتب عليكم ، وأصل التثريب

---

(١) من نظم ابي نواس

من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب ، كما ان التجليد إزالة الجلد ، والتأثيم إزالة الإثم ، سمع من بعضهم :« اللهم أثمني » أي أبعد عني الاثم ، فالتشديد للسلب « فاذا ذهب الثرب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده ، ويقال للتثريب تقريع ، وأصله إزالة القرع من الرأس باستعمال دواءله ، فضرب مثلاً للتقريع أي التثريب والتأنيب الذي يمزق الأعراض ،ويذهب بماء الوجوه ، والتعيير والتعنيف درجات ، أقواها التثريب فالتأنيب فالتوبيخ فالتقريع فاللوم فالمعاتبة (١).

وثرَبَ وثَرد قريبان ، لأن أصل التثريب إضعاف الشيء ، أي جعله ضعيفاً ، وتثريد الخبز : تكسيره ، وفي صحيح البخاري : ﴿ إذا زَنتْ الأمــةُ فتبين زناها ، فليَجلِدها ولايُثرِب ﴾ وفسره الشراح بالتعيير والاستقصاء في اللوم .

متعلق كلمة « اليوم »

المادة ٢ــ كلمة « اليوم » متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في « عليكم » من معنى الاستقرار ، أو متعلقة « بيغفر » ، والمعنى على الأول : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الايام ، ثم ابتدأ فقال « يغفر الله لكم » فدعا لهم بمغفرة مافرط منهم ، يقال : غفر الله لك ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشمت :« يرحمكم الله » وقول العاطس: « يصلح الله بالكم ».

والمعنى على الثاني : ان « يغفر الله لكم » بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم ، وعلى هذا الثاني فمعنى قول يوسف « يغفر الله لكم » مغفرة ما يرجع الى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركا

(١) راجع الالفاظ الكتابية .

بين الثلاثة ، ومعنى قولهم فيما يأتي : « ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا » مغفرة مايتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده ، لانه تنازل عنه سابقاً ، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم ، كما حصل بلسان أخيهم .

المشابهون ليوسف في عمله الاخير مع اخوته

المادة ٣ — كما عامل يوسف اخوته عامل النبي ﷺ قريشاً وأهل مكة ، فانه يوم أن فتحها وقف على باب الكعبة ، والناس وقوف صامتون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فخطب فيهم خطبة طويلة ، ثم قال : « ماذا تقولون ، وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » — قالوا : « خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت » فقال : أقول كما قال أخي يوسف : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فقد مشى كل من هذين النبيين الكريمين على قاعدة « قد ملكت فأسْجِحْ » .

وثبت في التاريخ أن « المأمون » قال هذه الكلمة اليوسفية « لابراهيم بن المهدي » فان ابراهيم بن المهدي كان خرج على المأمون طالباً للخلافة فطلبه المأمون وأحضر بين يديه ، فقال له ابراهيم : « ياأمير المؤمنين ، العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك » — قال : « بل أعفو ياابراهيم ، وأقول ماقال يوسف لاخوته : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» .

قال « المُقَنَّع » الكندي ، وكأنما نظمها تصويراً لحال يوسف مع إخوته :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاءً ، وان هم ... دعوني إلى نصر ، أتيتهمْ شدّا
وان أكلوا لحمي . وفرتُ لحومهم ... وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم — وانهم هووا غيي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس يمرّ بي — زجرت لهم طيراً يمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ — وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُل مالي ان تتابع لي غنى — وان قلّ مالي لم أكلفهمُ رفدا
وإني لعبد الضيف مادام نازلاً — وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : « ان رجلاً قال يارسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن اليهم ويسيئوا لي ، وأحلمُ عنهم ويجهلون عليّ » — فقال : « لئن كنت كما قلت فكانما تُسِفُّهم المَلّ (١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » ، وعن أنس بن مالك ، « ان يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجيء بها ، فقيل: ألا نقتلها ؟» — قال :« لا !»رواه البخاري في صحيحه .

« وحكي أنه بينما قيس بن عاصم ذات يوم في داره ، إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار ، ففرغت السفود من اللحم والقته خلف ظهرها ، فوقع على ابن له فقتله ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليك ، أنت حرة لوجه الله ! » .

الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار لاخوته بخلاف ابيهم

المادة ٤ — تعليقاً على قوله « يغفر الله لكم » : هم لم يقولوا لأخيهم : استغفر لنا ذنوبنا ، كما سيأتي أن يقولوا لأبيهم ، ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله ، قبل أن يطلبوا منه ذلك ، وأما أبوهم فمع كونهم ابتدأوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم ، فلم يبادر بطلبتهم ، وانما وعدهم بها وعداً مؤجلاً فما الحكمة ياترى في ذلك ؟

(١) اي كانما تطعمهم الرماد الحار

والجواب عليه من وجوه :

الوجه الأول ــ معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف ، وانه محب لخير بنيه بالطبع ، لأنهم مهما كانوا فهم أفلاذ كبده ، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم ، بل أخر ذلك لأمر ما ، ربما يكون فيه خير لأولاده ، بخلاف يوسف ، فهو أخ ، لا أب ، ولذلك أحتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم ، حتى بدون طلب منهم ، فابوهم لم يكن أقل مغفرة لهم ، وعطفاً من أخيهم عليهم ، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال ، لما بيناه في جواب السؤآل .

الوجه الثاني ــ وهو أنه أمسك عن تثريبهم ، وغفر لهم ، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة ، فرغب اليهم أن ياتوا باهلهم ليعولهم ، وأعطاهم من نفسه هــذا الكرم ، لأنه يرى نفسه حاكماً ، وهم محكومون ، وأميراً ، وهم مأمورون ، وعزيزاً بمصر ، وهم أذلاء ، ومن رجال البلاط ، وهم سوقة ، ووزير ماليه ، وهم فقراء يائسون ، وقوياً ، وهم ضعفاء ، فكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب ، أو يعتد عليهم بسيئة ، وان هذه النظرة العذبة ، التي أصبح ينظر بها اليهم ، إنما هي نظرة الرفيع ، التي يلقيها على البائس الضعيف ، الذي يستحق العطف والرحمة ، شأن أصحاب المراتب العالية ، من أرباب الحكومة ، مع أفراد الرعايا ، وقد قيل : « إن الحكم والعفو في الحكام ، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم » فهذا ماحدا بيوسف عليه السلام أن يبادرهم برفع التثريب عنهم ، والاستغفار لهم ، وهذا بخلاف أبيهم عليه السلام ، فانه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية ، بل هو لا يزال من الناس المحكومين ، الذين لايرون لأنفسهم على غيرهم مايراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة .

الوجه الثالث ــ وهو ان يوسف رغماً عن انه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل

مليكها ، فهو لا يزال يتحسس بالخوف من اخوته ، ومن افسادهم عليه حاله ، والمقروض يخاف من جرة الحبل، لا سيا وهم اخوته ، فطعنهم فيه أقرب للتصديق من طعن الاجانب فلذلك بادر بطمأنتهم بعدم تثريبهم،وبالدعاء لهم بالمغفرة ،وبالرغبة اليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، يستصلح بذلك قلوبهم،ويجعل به بينهم وبين ضررهم إياه سداً منيعاً ، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أبيهم ، لم يحتج الى شيء من هذا القبيل ، بل رغماً عن كونهم تقدموا اليه في استغفار ذنوبهم ، فقد رأيناه أخر الاستغفار لهم ، الى وقت أو مكان أو حال ، ربما يكون الدعاء فيه أقرب للاجابة.

الوجه الرابع — افتكر يوسف عليه السلام في نفسه أنه ليس بين المتشفي المصر على النقمة ، وبين المظلوم الجبار المستبد ، إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل ،. ففضل أن يعفو عن اخوته ، ولا يثربهم ، بل فضل أن يغفر لهم ، لاسيا وان التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم ، كما ان المغفرة لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تعدياً وطغياناً ، فقدقيل : « إن العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح الكريم » وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا　　إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً　　إليك فلم تغفر له فلك الذنب

قيل : لما أُتِيَ بابراهيم بن المهدي الى المأمون شاور وزيره في قتله ، فقال له وزيره : « إن قتلته ، فلك نظراء ، وإن عفوت عنه ، كنت الرجل الوحيد » فعفى عنه .

العفو أشد أنواع الانتقام

الوجه الخامس — وهو ان العفو اشد انواع الانتقام ، وهو مرارة ساعة،

ثم السعادة الى الأبد ، والانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى ، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن اخوته ، ويصفح الصفح الجميل ، فقال بشفته وقلبه : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، وهو حقيق بذلك كله ، لأن المقدرة تذهب الحفيظة ، ولعمري لقد جاء عفوه عنهم تزكية لانتصاره عليهم .

أرحم الراحمين

المادة ٥ — تعليقاً على قوله :« وهو أرحم الراحمين » قال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح ، وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني عن أبي امامة ، واشار السيوطي في الجامع الصغير الى صحته .

العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة

المادة ٦ — في العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة عالية ، والعفو عن الناس هو من أسمى العواطف البشرية ، لأن الدين — الذي هو دين الفطرة — يخير المظلوم بين الانتقام ، قصاصاً وتأديباً ، وبين الغفران كرماً وتكريماً ، ولكنه يفضل الثانية على الاولى ، فالدين يقول في مقام المدح : ﴿ والذينَ يجتَنِبُونَ كبائِرَ الإثْمِ والفواحِشِ ، وإذا ما غَضِبُوا هم يَغفِرون ﴾ — ثم يقول : — ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ هم يَنتَصِرُون ، وجزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُها ، فَمَنْ عفَا وأصْلَحَ فأجرُهُ على اللهِ ، إنه لا يُحِبُّ الظالمين ، ولَمَنْ انتَصَرَ بعد ظُلْمِهِ فأولئكَ ما عليهم مِنْ سَبِيلٍ ، إنما السَّبيلُ على الذينَ يَظْلِمُونَ

الناسَ ، وَيبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحق ، أولئكَ لهم عذابٌ أليمٌ ، وَلمَنْ صبرَ وَغفرَ إنَّ ذلك مِنْ عزْمِ الأمورِ ﴾ (٤٢ : ٣٧ - ٤٣) ، ويقول : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحوا ، ألا تحبُّون أنْ يَغفرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢)، ويقول : ﴿ وأَنْ تَعفُوا أقربُ للتقوى،ولا تَنْسَوا الفَضْلَ بينَكُم ﴾ (٢ : ٢٣٧) ، ويقول : ﴿ وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِروا ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦٤ : ١٤) ، ويقول : ﴿ وَسارعوا الى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكم ، وَجَنّةٍ عرْضُها السّموات والأرض ، أُعِدَّتْ للمُتَّقِينَ ، الذينَ يُنفِقونَ في السَّراءِ والضَّرآءِ ، والكاظِمينَ الغَيْظَ ، والعَافينَ عَنِ النَّاسِ ، واللهُ يحبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ (٣ : ١٣٣) ، قال « سليمان» عليه السلام : « إن مَنْ يَقْدر أن يملك عنان نفسه ، لهو عندي أفضل من الذي يفتتح المدن والأمصار » ، وقال « جوبير » : « خير الانسان أن يكون حاكم قلبه من أن يحكم الشعوب » .

غفران الاساءة واجب

المادة ٧ — تعليقاً على قوله : « يغفر الله لكم » بما ان الله تعالى يغفر لناالاساءة العظيمة يجب علينا أن نغفر لاخواننا إساءتهم الينا، وإن لم نسامح إخواننا فيزلاتهم معنا ، يغضب الله علينا ، ولا يسامحنا بل يعاقبنا ، فقد قيل : « إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر الله أيضاً لكم زلاتكم » قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا ولْيَصفَحوا، أَلا تحِبُّون أنْ يغفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ قل للذينَ آمَنُوا يَغفِروا للذينَ لا يَرجُونَ أيامَ اللهِ ، ليَجزِيَ قوماً بما كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤٥ : ١٣) ، فالله تعالى مع كثرة رحمته شديد العقاب، فالايمان الذي لا يكون مصحوباًبالمحبة والمسامحة ليس بايمان كامل ، ليس هو ايمان أهل البر ، ليس هو ايمان أهل الخير والتقى ، فأبواب السماء مغلقة في وجه القساة،

مغلقة في وجه الذين يحبون الانتقام لأنفسهم ، من حيث انه انتقام فقط ، لا لعلة اخرى ، مغلقة في وجه أهل الحقد والتشديد ، مغلقة في وجه من يطلب من الله المسامحة وهو لا يسامح إخوته .

من تاب غفر الله له

المادة ٨ — تعليقاً ايضاً على قوله : « يغفر الله لكم » : حصول المغفرة لهم أمر طبيعي ، لأنهم تابوا وأنابوا واعترفوا بما اقترفوا ، واذا كان الله تعالى يغفر للكافرين إذا تابوا كما قال : ﴿ قل لِلذينَ كَفَروا إنْ يَنتَهوا يُغفَر لهم ماقد سَلَفَ ﴾ (٣٩:٨) فالمؤمن أولى بالمغفرة متى انتهى ، وقال تعالى ﴿ ولوْ أنَّهم إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جاؤكَ فاستَغفَروا ، واستَغفَرَ لهم الرسُولُ ، لوَجَدُوا اللهَ توابا رحيماً ﴾ (٦٣:٤) ، وقال تعالى : ﴿ ومنْ يعملْ سوءاً أو يظلمْ نفسَهُ ، ثم يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ عفوراً رحيماً ﴾ (١٠٩:٤) ، فهذه الآيات الكريمة ، ومااليها مما هو كثير ، تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى بمجرد توبة اخوة يوسف قد غفر لهم ، أي غفر لهم حقه تعالى ، ومعلوم ان يوسف — وفي ضمنه بنيامين — قد غفر لهم أيضاً حقه ، فما بقي إلا حق أبيهم ، وسيأتي له أن يسامحهم.

ما هو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف حتى غفر الله لهم

وهنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالاً صورته :

ان الجزاء أثر طبيعي للعمل ، إنْ خيراً فثواب ، وإنْ شراً فعقاب ، وإن الله بعيد عن المحاباة : ﴿ فمَنْ يعْمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ خَيراً يرَهُ ، ومنْ يعْمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ شَراً يرَهُ ﴾ ، (٧:٩٩و٨)فهل ياترى وقع الجزاء لاخوة يوسف ، حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها الى

الله وإلى أبيهم وأخوَيهم رهيبة ورهيبة جداً ؟ هـذا ماسألني عنه نبيل وذكي من الطلبة ، فاجبته بما صورته :

إنهم بتكذيب أبيهم لهم ، إذ قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ ،وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الاولى إذ قال لهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وبما ثرّبهم أبوهم اذ قال : ﴿ هـل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ﴾، وبما شدد النطاق عليهم إذ قال :﴿ لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ ، وبما سُرّقوا حين قيل لهم : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ، وبما كذبوا حين قيل لهم : ﴿ فمـا جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ وبما سُقط في أيديهم ، وكـأنما صب من فوق رؤوسهم الحميم ، وخجلوا أمام المتارين ، وأمام المصريين وأهـل البلاط ، إذ استخرجت السقاية من وعاء أحدهم ، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة ، أشد المقاومة ، وبما أنهم رُدُوا وخُيبوا ، ولم تنجح مساعيهم ، ولم تقبل شفاعتهم ، حين قال لهم أخوهم : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجـدنا متاعنا عنده ﴾، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرج ، وهم غرباء والوقت وقت جـوع ، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر ، وبما أن « رأوبين » أنبهم ، وذكرهم بما بجرحهم مع أبيهم ، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيهم ، فقـال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل مافرطتم في يوسف ؟﴾ وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق ، ونسب اليهم في ذلك دسيسة ومكراً ، فقال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولا مكر وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيهم ، ضارعين مستكينين و﴿قالوا : يأيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾، وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة ، ولم يسعهم إلا السكوت ،

ساعة أن قال لهم أخوهم : ﴿ هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ وبما لمحوا من طرف خفي الاشارة من أخيهم إلى براءته منهم ، وانتسابه لبنيامين فقط ، إذ قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم أنهم لم يكونوا من أهـــل التقوى والصبر ، إذ يقول أخوهم أمامهم : ﴿ إنه من يتق ويصبر ، فان الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ ، وبما رأوا من حرج الموقف الذي اضطرهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيهم دونهم ، وأنهم آثمة خَطاة ، إذ قالوا : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، ونضم لذلك ما كانوا يَرزَأون به في مدة ٢١ سنة ، من عدم توجه أبيهم اليهم وحنقه عليهم ، وأضف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حينٍ من توبيخ ضمائرهم لهم ،ولوم أنفسهم، إياهم ، وتمرمر معيشتهم ، فبحلول هذه النوازل عليهم ، وصبها فوق رؤوسهم ، علم أخوهم يوسف عليه السلام أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقاً ، وانهم لم يبق عليهم مايؤخذون به ، سوى الاعتراف ، فلما اعترفوا قال لهم : ﴿ اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ هذا هو الجواب ، والله الملهم للصواب ، فان أصاب المحز ، فمن نعمة الله الوهاب ، وإلا فما أنا أول واهم من بني آدم .

المغفرة والعفو والفرق بينهما

المادة ٩ — تعليقاً ثالثاً على قوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾: المغفرة من الغفر ، وهو لغة الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه — لاينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر بالمرة ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن ، بأن لايبقى له أثر في النفس ، لاظاهر ولاخفي . وبناء على هذا فالعفو لغة أبلغ من المغفرة ، وانما عبر يوسف بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأن إخوته لايطمعون في أكثر من أن يستر الله ذنوبهم في الآخرة بعدم الحساب والعقاب ، ومع كل هذا فالفرق بين اللفظين لغوي فقط ، وأما النتيجة فهي واحدة تقريباً .

المغفرة في التلمود والانجيل

المادة ١٠ — جاء في « التلمود » أن شريعة بني إسرائيل توجب على المُساء اليه أن يغفر للمسيء لحد ثلاث مرات ، لأن الإنسان عرضة للخطأ ، وأوسع منه ماجاء في « الانجيل » هكذا : ﴿ وإن أخطا اليك أخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما ، فان سمع منك ، فقد ربحت أخاك ﴾ (مت١٨: ١٥)، وفيه انــه سئل المسيح :﴿ كم مرة يخطىء الي أخي وأنا أغفر له ؟ هل الى سبع مرات ؟ — فقال المسيح : لااقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات ﴾ (مت :١٨: ٢١و٢٢)

فينبغي للبريء المظلوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمــه ، وتبيينه له خطأه ، بدل أن يشكو الى الغير ، او ينتقم منه ، او يحقد عليه ، فيبقى العداوة له في قلبه ، وينبغي ان تكون المعاتبة سراً ، لأنـه إذا عاتبه امام الناس اغتاظ منه ، او استحى بأن يقر امامهم بأنه اخطأ ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه ، مع انه إذا انفرد به سهل عليه ان يقنعه بالحق ، وينبغي ان يكون العتاب بلطف وحكمة ، وبروح الوداعـة ، والا اتسع الخرق على الراقع ، وعُمّق الجرح بدل ان يبرأ ، وصُب الزيت على النار ، بدلاً من ان يصب عليها الماء .

العبرة بالخواتيم

المادة ١١ — اذا تأمل الانسان فى حوادث الدهر ، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها وُلدت من اخرى ، لولاها لم تولد ، وبدونها لم توجـد ، ورآى الخير آتياً من صلب الشر ، والشر نازلاً من صلب الخير ، حتى ينتهي الأمر بأنه يُحكم بعدم وجود خير محض ، ولاشر محض ، وبأنهـا أمور نسبية ، وينبغي أن يضع نصب عينيه ، ان ماىراه اليوم مصيبة ، قد يضمن في الغـد سعادته ، وان

مايراه سعادة ، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته ، فالأمور بخواتيمها ، والحودات يحكم عليها لا بصدورها ، بل بأعجازها .

فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف

المادة ١٢ — تتألف حوادث الحياة من ثلاثة فصول : فصل الأمل ، وفصل الجهاد ، وفصل الفوز ، فرؤيا يوسف وأحلامه وبشرى أبيه له يمثل الفصل الأول ، وصبره في غيابة الجب وعلى استرقاقه وعبوديته وعن شهوته البدنية وفي سجنه ، يمثل الفصل الثاني ، وفوزه برقيه على أريكة الوزارة بمصر وبانتصاره على زليخا والنسوة المصريات وعلى إخوته ، وبإتيان أبيه وأخيه وسائر أهلة يمثل الفصل الثالث .

الطريقة المثلى في المسامحة

المادة ١٣ — هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس .

قال الشاعر :[1]

إذا كنت في كل الأمور معاتباً	صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال غيره :

تريد مهذباً لاعيب فيه	وهل عود يفوح بلا دخان ؟

(١) هو بشار بن برد

وقال غيره :

لابـد للكامـل من زلة تخبره أن ليس بالكامـل

وقال غيره :

فقلت لهـا ياعَزّ كل مصيبـة إذا وطنت يوماً لها النفس ذَلتِ

وقال غيره :

وماقتل الأحرار كالعفو عنهم

وقال غيره :

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرىء لايقبل العذر مذنب

وقال غيره :

احمد بحلمك مايذكيه ذو غلط من نار غيظك واصفح إن جنى جاني

فالحلم أفضل مازدان اللبيب به والأخذ بالعفو أحلى ماجنى جاني

اسباغ النعمة على اخوة يوسف

المادة ١٤ــ رأى يوسف أن هذا اليوم هو يوم أسبغت عليه فيه النعمة ممن فوقه ، فناسب أن ينعم هو على من هو دونه ، وأيضاً إن الخصام مع الناس ،لاسيما الأقارب ، لاينبغي أن يتمادى ويطول ، بل يجب البت فيه ولو بخسارة ، فإن الهم الذي يقلق كثيراً ، إنما هو الهم الحاضر الراهن ، أما الماضي فان الظروف الجديدة تُعَفِيه ،والنجاح الجديد يزيل أثره ، فلذلك رأى يوسف عليه السلام أن يسدل الستار على ميدان المعركة الحزبية ، ولم يرد أن يبعث من القبر جثة عفنة ، دفنت من زمن بعيد ، ولم يقض لها بالبعث والنشور ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوزوالظفر. (مرحى)

قميص البشارة

آ (٩٣) ﴿... إذْهبوا بقَميصي هـذا ، فألقُوهُ على وجْـهِ أبي يأْتِ بصيراً ، وائتُوني بأهلِكُمْ أجمعين !﴾

الجلسة وتليت الاية الثالثة والتسعون ، فقام السيد الغمراوي [١] وقال :

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ١ —

تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير)

أنا ههنا لاأحب أن أعود إلى أقوال مفسري هـذه الآية الكريمة ، ولكني أحب أن أجتهد في أن أصل إلى تفسير جديد ، احب ان احدث السامعين الكرام بصراحة وامانة وصدق ، احب ان اكشف لهم عما كان يختلج في ضميري منذ القديم في التحقيق عن هذا « القميص » وعن كلمة « بصير ».

« القميص » هو كسوة رسمية

هذا القميص هو « ثوب بوص » أي كتّان ، ذو شارات مخصوصة وهو كسوة رسمية ، لا يقدر أن يلبسها كل شخص ، وهذا القميص كان مليك مصر «الريان» ألبسه يوسف يوم أقامه وكيلاً عنه ،وبيان ذلك : أن يوسف لما خرج من السجن وقف بين يدي الملك الريان وكلمه يوسف بكلام يشف عن قوة عقل وغزارة علم،

(١) نسبة الى بلدة ميت غمر في القطر المصري .

فقال الريان له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » ـ فقال يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ـ فقال الملك لشوراه : « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله » ، أي رحمته وإلهامه وقوته ، ثم قال الملك ليوسف: « بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون رئيساً في البلاط ، تكون ثانياً في المملكة ، بمنزلة ملك ثان ، فيطيعك شعبي حتى يعمل بكل حكمة تفوه بها بأوامرك ، انظر قد جملتك على كل أرض مصر وخزائنها وغلاتها». وخلع الملك خاتمه من يده ، وجعله في يد يوسف عليه السلام ، وكان هذا الخاتم تختم به الأوامر ، فكان يوسف بذلك كالملك ، ثم ألبسه « الريان » قميص بوص. ووضع طوق ذهب في عنقه ، ومعنى « بوص » كتّان نقي أبيض ، وكان هذا ملبوساً رسميا ، امتاز به الملوك ، وأكابر البلاط والكهنة ، ثم أركبه مركبته الثانية ، ونادوا أمامه : « اركعوا » « اركوا » ، وأتى الملك هذا الاحتفال ، ليبين لقومه أن يوسف عليه السلام صار حاكمهم في الدرجة الثانية ، لأن الملك الريان كان في مركبة تجري به ، وتجري وراءها مركبة اخرى بيوسف ، فهذا « القميص » متى وصل لسيدنا يعقوب ، عليه السلام ، علم أن ابنه زيادة عن انه حي، قد صار من رجال البلاط بمصر ، ومتى وقف على هذا الرمز ، عرف ما هي درجة ابنه ومنزلته في البلاط الملوكي ، وبَصُر بحاله ومآله ، إذ لا بد أن يعقوب عليه السلام يعرف أن هذا النوع الرسمي من الأقمصة خصيص بأعظم رجال الحكومة والكهنة ؛

وما أشبه هذه الحادثة بحادثة صبيّ بدوي فارق أهله منذ سن الحداثة بلباس البداوة ، وانقطعت عنهم أخباره ، لا يعلمون أحيّ هو أو ميت ، ولا يعلمون عنه شيئاً ، ولكنهم كانوا يترجون حياته ، ثم بعد عشرات من السنين ، أرسل ساعياً

لأهله يطمئنهم بحياته وسلامته، ويذكر لهم رتبته في الحكومة ، ودرجته فى البلاط الملكي ، وعلامة لذلك ، ولزيادة البشارة قوة واعتباراً ، أرسل معهم لباساً من ألبسة الحكومة الرسمية ، التي يدل طرازها ، ويشير شكلها الى أن صاحبها ترقى الى درجة كذا من درجات رجال العسكرية أو المدنية ، أو الدرجات الدينية ، هذا هو المعنى المألوف قديماً وحديثاً ، المتبادر عرفاً ، الذي يساعده نقل المؤرخين ، (انظر تك ٤١ : ٤٢) مع شرحه « السنن القويم » ، هذا هو القميص الذي تَبَصَّر به سيدنا يعقوب حياة ولده ، وعلم به حاله ودرجته في الحكومة .

« البصير » هو العالم علماً قلبياً

إن ماسبق هو تحقيق معنى « القميص » وأما تحقيق معنى « بصير » فقد قال في المصباح : (أَبْصَرْتُهُ برؤية العين إبصاراً ، وبَصُرْتُ بالشيء بَصَراً : عَلِمْتُ فأنا بصير به ، وهو ذو بَصَر وبصيرة أي علم وخبرة) ، وقال في الأساس : (بَصر بعمله : صار عالماً به ، وهو بصير به وذو بَصَر وبَصَارة ، وهو من البُصَراء بالتجارة ، وبصَّرْتُه كذا وبَصَّرْتُه به ، علمته إياه ، ورتبتُ في بستاني مُبَصِّراً : أي ناظراً ، وهو الحافظ) ، وقال في المختار : (أَبْصَرَه : رآه ، وبَصُرَ به : عَلِمَ ، وبابه ظَرُفَ فهو بصير) ، وفي القاموس : (البَصَر محركة : حس العين ، والجمع أبصار ، ومن القلب نظره وخاطره ، ومن معاني البصير العالم) وفي لسان العرب : (البصير العالم ، قال معاوية : البصير خير من الأعمى).

فنعلم من مجموع هذه النقول ونحوها من أمهات كتب اللغة الموثوقة أنه يقال : (أَبْصَرَ يُبْصِرُ إبصاراً فهو مُبصِرٌ ، وهذا فيما كان برؤية العين : ويقال : بَصُرَ يَبْصُرُ بَصَراً فهو بصير ، مثل كرم يكرم كرماً فهو كريم ، وهذا فيما كان برؤية القلب ، وبعبارة أخرى : هو بمعنى العلم ، وجمع مُبصِرٍ مُبصِرون:

أي بالعين ، وجمع بَصير بُصَراء : أي بالقلب ، وتأنيث مُبْصِر (بالعين) مُبصِرة كما أن تأنيث بصيرٍ (بالقلب) بصيرة ، وأما البَصَر محركة فجمعه أبْصَار ، سواء أكان حس العين أو بالقلب ، وكما يجمع على بُصَراء يجمع على بصيرين ، وهو ما كان من قبيل العلم والمعرفة بالقلب ، وأما مُبصر فجمعه مُبْصرون وهو ما كان بالعين . وأنتم تعلمون أن « بصيراً » صفة مشبهة ، والصفة المشبهة لا تصاغ قياساً إلا من فعل ثلاثي لازم ، وشذ نذير من أنذر ، (فبصيراً) هو مشتق من بَصُر ، أي بالقلب ، لا من أبْصَر : أي بالعين ، ما من ذلك بد ، وأما قول بعض اللغويين (والبصير ضد الضرير) ففيه تساهل وبعد عن التحقيق ، وأظن أن الذي دفعهم لهذا التعبير إرادة السجع .

ولم يرد في كتاب الله تعالى استعمال لفظ (مُبصِر) إلا وهو من معنى الرؤية بالعين ، كما لم يرد فيه استعمال لفظ (بصير) إلا وهو لدى التدقيق بمعنى العلم بالقلب ومنه قوله تعالى : ﴿ قال رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَني أعمى ، وقد كنتُ بَصيراً ﴾ (٢٠ : ١٢٥) فاعمى أي عن حجته ، وقد كان في الدنيا بصيراً بحجته فيما يزعم إذ كان عنده شبه حجة بحسب تصوره ، فاعمى ههنا بمعنى جاهل ، وبصير بمعنى عالم وكذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال لفظ (أبصر) إلا بمعنى رآى بعينه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فستُبْصِرُ ويُبْصِرون بأيِّكم المَفْتُون ﴾ (٦٨ : ٥ و ٦) فمعناه : فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب بأيكم المفتون ؟ قاله البغوي في تفسيره ، أي سترى ويرون الأسباب المشاهدة التي يتبين منها من هو المفتون ، أو يقال عبر بالإبصار مبالغة ، إشارة إلى أن هذا الشيء الذي سيعلمونه واضح جلي جداً ، كأنه محسوس بالنظر .

وكذا لم يرد في كلامهم استعمال (بَصُرَ به) إلا بمعنى العلم بالقلب ، ومنه ما حكى عن السامري : ﴿ بَصُرْتَ بما لم يُبْصِروا به ﴾ (٢٠ : ٩٦) أي

علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا ، هـذا هو المعنى الصحيح على التحقيق الذي ذهب اليه أبو مسلم الأصفهاني في معنى الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ فبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ (٢٨ : ١١) فلما كان الابصار فيه بالعين من طريق المخاتلة والتجانف والازورار كان كأنه ليس نظراً بالعين ، بل علماً بالقلب ، فلذلك عبر فيه بالفعل الثلاثي ، على أن (بَصُرْتَ بما لم يُبْصروا به) و (بَصُرتْ عَنْ جُنُبٍ) ليسا فعلين لازمين ، « بل هما متعديان بمعنى الإبصار ، ففي إعانة اللهفان : (بَصُرَ به وأبْصَرَه ، يُعدى بالباء تارة ، وبالهمز أخرى) .

إذا علمت كل هذا علمت أن لفظ (بصير) في قوله تعالى ﴿ يأت بصيراً ﴾ يَصِرْ بَصيراً بحال ولده يوسف ، كقولك يجيء البناء محكماً ، بمعنى يصير ، ويشهد له (فارتد بصيراً) أي صار بصيراً ، ولا يجوز لغة تفسير لفظ (بصير) بمبصر ، لاختلافهما في المعنى اختلافاً واضحاً ، لأن (بصيراً) كما قلنا صفة مشبهة من بَصُر بمعنى علم ، وهو ثلاثي لازم ، وبابه كَظَرُفَ ، وأما (مُبْصِر) فهو اسم فاعل من أبْصَر : بمعنى رآى بعينه ، وهو رباعي متعد وبابه كأكرم ، فبينهما في اللغة فروق متعددة ، وكما لايجوز تفسير (بصير) بِمُبْصر من حيث اللغة ، فلا يجوز أيضاً تفسيره به من حيث الشريعة ، لأن العمى لايجور على أنبياء اللهومظاهر أمره لأنه من الداآت المنفرة لطبائع الجمهور والأنبياء منزهون عن كل منفر للطبيعة ، هذا ماأراه في تفسير كلمتي « القميص » و « بصير » ولست أبالي أن أجهر برأيى مادمت أعتقد أنني على حق ، وأما من يكلفني أن أمشي على فكر غيري ، فاني اسف على عدم استطاعتي امتثال أمره ، أسفي على إهماله مداواة نفسه .

يعقوب بصير عالماً علماً قلبياً بحال ابنه يوسف

إذا تقرر هذا يكون معنى الآية الكريمة هكذا : قال يوسف لاخوتـــه :

﴿ الوَحَى الوَحَى ، والنجاءَ النجاء ﴾ قوموا يمموا شطر فلسطين ، اوغلوا في السير ، انتجعوا (قرية اربع) او « سيلون » (إذهبوا بقميصي هذا) الذي يمثل الوظيفة والزلفى من التاج ، وهو القميص الرسمي الحكومي ، قميص « البوص » ذو الشارات المخصوصة ، الذى لايلبسه الا كبراء رجال البلاط والكهنة، ولا يقدر أحد أن يلبسه سواهم ، القميص الذي البسني إياه مليك مصر « الريان » يوم ماولاني « الصدارة » العظمى والوكالة العامة عنه ، وجعلني على خزائن أرض المملكة الهكسوسية ، و « عزيزاً » بالديار المصرية — فما هو الا أن أمر يوسف بعض فتيانه أن يذهب لقصره ، ويأتي له من مشجبه بقميص اعتيادي غير رسمي ، ثم نضا عنه قميصه الرسمي ، ولبس ماأتي به اليه وسلمه يوسف لاخوته مؤقتاً ، ليراه أبوه ثم يرجعوه معهم — ثم قال لهم :

(فألقوه) أي أطرفوه وعرضوه (على وجه أبي) المتضمن ذلك القاءه على عينيه ، حتى يراه ، فمتى رآه وعرف حقيقة حالي ومركزي (يأت) أي يَصِرْ (بصيراً) عالماً وعارفاً بما أنا عليه في دار الحكومة المصرية ، فاهماً كل شيء بوضوح وجلاء ، واقفاً على ما كان قد خفي عليه ، مكتشفاً لما انطوى عن إدراكه وبصيراً ههنا مقابل جاهلاً — ثم قال يوسف لاخوته : واسرعوا الكرة (وائتوني بأهلكم) زوجاتكم واولادكم وإمائكم (اجمعين) لكي تظفروا بنعمة العيش في ظلال حكومة مصر ، وتساووا اهلها في مظاهر الحياة .

واما اخوته فسمعوا هذه المقالة منه ، فخلت على نفوسهم المعذبة بما كان من تقاطع وتباغض برداً وسلاماً ، والتفت حولها قلوبهم ، واكبروا صدورها عمن كانوا آذوه وشردوه ، واخيراً سعوا اليه حين احتاجوه .

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٢ —

وقام الطبيب بن الحارث وقال :

تفسير (يأت بصيراً) بيجيء مبصراً بعينيه

أرى أيها السادة الأكارم انه يحسن بنا أن نفسر جملة « يأت بصيراً »« بيجيء مبصراً بعينيه » لأن الحوادث الجسام التي مرت بسيدنا يعقوب عليه السلام ، والمؤثرات النفسانية والانفعالات الروحية المفاجئة التي اصابته أدت الى فقد حس الرؤية عنده ، كما ستؤدي إلى عودة هذا الحس له عند مفاجأته بالقاء القميص الرسمي لولده يوسف على وجهه.

والطب الحديث يؤيد هذا الرأي ، إذ يوجد فيه حالة مرضية تدعى « العمى الروحي او النفسي » تحدث بتعرض الأشخاص إلى صدمة تأثرية — فرح أو حزن — مفاجئة ، وتؤدي إلى فقد الذاكرة البصرية عندهم ، كما تعود لهم هذه الذاكرة بصدمة تأثرية مفاجئة اخرى — فرح أو حزن .

وهذا ماحصل لسيدنا يعقوب عليه السلام، إذ أنه فقد ذاكرته البصرية بسبب صدمة الحزن التي فوجيء بها حينما بلغه اولاده نبأ افتراس الذئب لولده يوسف ، ثم عادت له هذه الذاكرة بسبب صدمة الفرح التي فوجيء بها حينما اتى اولاده بقميص يوسف الرسمي والقوه على وجهه .

وعلى ذلك يمكن ان نشرح جملة « يأت بصيراً » بيجيء اليّ وهو مبصر بعينيه ، سليم من كل مرض فيهما ، بريء مما كان اعتراهما من ابيضاض او فقد حس الرؤية بمجرد القاء « قميصي » على وجهه ، بسبب فرحه وسروره بوقوفه على حياتي وعلى مركزي ، إذ انه بملامسة قميصي كانما لامس شخصي — ولا بدع

في كون المحب يبرأ من مرضه بملامسة اثر محبوبه — وعليه فكلمة « بصـــير ». تكون مقابلة لكلمة « اعمى ».

هذا مافتح به الرحمن علي ألقيته على مسامعكم الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وهنا قال رئيس المؤتمر : هذا كلام خطيبنا السيد الغمراوي والطبيب بن الحارث نتركه الان على علاته ، ومن غير تحليل له أو إبداء رأي فيه ، كما يتطلبه الحياد التام مني ، وأترك حق الحكم فيـــه لمن يسمع ومن يقرأ فقط .

(قالون)

(اذهبوا بقميصى هذا ...)

— ٣ —

وقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال .

تأويل « القميص » بالرتبة العالية

سادتي : قبل كل شيء إني احبذ ما فهمه السيد الغمراوي في كلتي « قميص » و « بصير » ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أفهم في لفظ « القميص » وحده فهماً ثانياً على وجه الاحتمال ، وتقريره هكذا :

يقولون : « من قمصك هذا القميص ؟ » أي من جعلك في هذه الدرجة والرتبة العالية ؟ وفي الحديث الصحيح خطاباً « لعثمان » رضي الله عنه « إن الله سيقمصك قميصاً » ، أي سيلبسك لباس الخلافة ، كما في القاموس وشراح الصحيح ، وقـد روينا في سنن ابن ماجه : « ياعثمان ان ولاّك الله هذا الأمر ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » ، وفسر شراحه هذا القميص بالخلافة ، وفي نهج البلاغة : « لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، وهو يعلم أن محلي ّ منها ، محـــلّ

القطب من الرحى » ، واستشهادنا بهذا القول ، لا يعني اننا نعتقد انه صح عن علي كرم الله وجهه ، ولكنا نريد منه ان هذا النوع من الاستعمال وارد في اللغة العربية .وإذا قلنا إن علياً (رض) قاله ، قلنا : إنه قاله على وجه الاجتهاد ، والاجتهاد يحتمل الإصابه وغيرها ؛

وللمنصور من خطبة بالمدائن بعد قتل أبي مسلم : « إن من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه خبيئة هذ الغمد » .

وقد كان رجل اسمه « شبْنا » وكيلاً على قصر الملك « حزقيا » في مملكة بني اسرائيل الجنوبية ، وقد كان أنذره الله تعالى بقوله بلسان النبي « أشعياء » : « أطردك من منصبك ، وأدعو عبدي « الياقيم » وأُلبِسُه « ثوبك » وأجعل سلطانك في يده » (اش ٢٢ : ١٩ - ٢١) ، ومعنى « ألبسه ثوبك » أُقيمه على قصر الملك « حزقيا » عوضاً عنك ، فيكون لابساً ثوب السلطة على قصر الملك .

فنتعلم من مجموع هذه النقول ان إطلاق « القميص » أو « الثوب » على المنصب الجليل اصطلاح معروف في اللغة العربية كما فيما قبلها من اللغة العبرية ؛

إذا تقرر هذا « فالقميص » ههنا هو أمر معنوي، وهو « وزارة المالية » ،في مملكة مصر ، أو هو « الوكالة المطلقة » عن مليكها ، أو هو كونه « عزيزاً بمصر » فان يوسف عليه السلام كان حائزاً على هذه المناصب كلها ؛

انتقاد تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه

وأذكر ان طالباً من بلدي « دمياط » كان سافر للأزهر الأنور بمصر لتكميل تحصيله ، فنقل عني لبعض علماء الأزهر ، أني أذهب الى هذا الفهم الاحتمالي في كلمة « قميص » ههنا ، فكان هذا العالم أنكر هذا الاحتمال ، وأرسل اليّ رقيماً في البريد يحتج عليّ فيه بتفسير المتقدمين ، وليس هذا الانكار لشيء سوى أنني خالفت

فيه كلام المفسرين الذين قالوا ، في تفسير هذا « القميص » « إنه القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله اليه فان فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي » ويؤسفني انه فات هذا الفاضل ان التفسير ليس وقفاً على ناس دون آخرين ، وليس هو سلعة تباع وتشترى ، أو أن هذه السلعة ملك لقوم دون سواهم ، فلا يجوز أن تعرض في حانوت غير حانوتهم ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وان القميص الذي أنزله المفسرون من الجنة ، لم يسندوه الى حديث أو رواية صحيحة عن صحابي أو نحوه من التابعين ممن يوثق بنقله ، ولعمري إن هذا « القميص » بالصورة التي ذكرها المفسرون لهو من أبعد البعيد ، ولا يصدقه الا من يصدق تمثال « الزرزور » الذي في « رومة » . هذا وأرجو أن يحمل كلامي على حسن النية ، وحب الحقيقة ومع ذلك فلست أقول إن تفسيري « القميص » بما ذكرته هو الصحيح وما ذكره المفسرون هو باطل ـ حاشا ـ فاني إنما ذكرت ما ذكرته على وجه الاحتمال مع إمكان صحة ما سواه ولو بعيداً ، وإني لا أبتغي هدم القول القديم ، قبل تأسيس الجديد وقبوله عند أولي النظر ، نعم إنني لا أهدم بيتي العتيق إلا إذا وجدت لي مسكناً جديداً صالحاً للسكنى فيه ، وعلى كل حال ، فأرجو من هذا العالم الفاضل أن لا يؤآخذني اذا رآني قد خالفت ساداتنا المفسرين في رأي رأوه ، فان الذهاب الى الحق هو فوق الأدب معهم ، وان « بروتوس » كان يقول: « إني أُحب قيصر ، ولكن رومية أحب إلي » ، وان مذهبي في تفسير القميص يعبر عن رأي خاص يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته ، وأما قارئوه وسامعوه فلا يتحملون منه شيئاً ؛

وقبل الفراغ من هذا البحث أرجوكم أن تذكروا ماقاله أحد الأئمة وهو الأمام أحمد بن حنبل (رض) : (ثلاثه لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي) ولا يخفى عليكم قدر أحمد في العلم .

تفسير (القميص والالقاء والوجه) بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاتها

ثم أذكر إن جمعاً من طلبة الأزهر المجيد ارسلوا أيضاً الي كتاباً في البريد يقولون فيه إن تفسيري « للقميص » بالمنصب ، وهو أمر معنوي لا يتلائم مع قوله بعد : (فألقوه على وجه أبي) فلذلك كنت أرسلت لهم الجواب بأن هذا « القميص » في عبارة سيدنا يوسف . استعارة مصرحة أصلية جارية في الأسماء ، وقوله ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات لهذه الاستعارة ، كما في : « بصق في وجهه » بمعنى استخف به ، كما قاله صاحب الأساس ، فليس هناك بصق حقيقي ، ولا وجه مبصوق فيه ، وإنما المراد الاستخفاف فحسب ، وكذلك يقال فيما نحن فيه : « ليس هناك قميص حقيقي ، ولا وجه ملقى عليه ذلك القميص وإنما المراد بجملة « فألقوه على وجه أبي » ، أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي، وأحيطوه علماً بما أنا عليه » .

وحيث أن هؤلاء الطلبة السائلين أو المستشكلين كانوا أربعة عشر شخصاً ، أتيت بأربعة عشر شاهداً ، هي نظائر لهذه الآية الكريمة لتكون هذه الشواهد على عدد السائلين واليك بيانها :

١ً — قول زهير الشهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقَذَّفٍ له لبد ، أظفاره لم تقلمِ

فقوله « مقذف » أي مرميّ باللحم ، و « له لبد » و « أظفاره لم تقلم » ترشيحات ثلاث لهذه الاستعارة ، ومعلوم أن مبنى الاستعارة على طيّ ذكر المستعار له ، ومن ثم نرى البلغاء المفلقين ، امرآء الفصاحة النابغين ، يتناسون في الاستعارة التشبيه ، ويضربون عن توهمه صفحاً ، وكأنهم يريدون بالمستعار معناه الحقيقي ، فلذلك أثبت الشاعر للرجل الشجاع التقذيف ، واللبد والأظفار التي لم تقلم ، وهي أمور لا تناسب الا المعنى الحقيقي ، وانما أثبتها للمعنى المجازي مبالغة

وتقوية للتشبيه كأنه في آيتنا لمعنى « القميص » المجازي الاشارة الحسية ، والذهاب به ، والإلقاء به على الوجه ، وهي ترشيحات للتشبيه وتقوية للمعنى المجازي ، كأنه هو المعنى الحقيقي ، التي لا تستند هذه الأمور الثلاثة الا له .

وكما من الغلط الفاضح أن يقول قائل : لا يصح أن يكون « زهير » أراد من « الأسد » المعنى المجازي وهو الرجل الشجاع بدليل قوله : « مقذف ، له لبد ، أظفاره لم تقلم » ، فكذلك من الغلط الفاضح أن يقول قائل : « لا يصح أن يكون يوسف أراد بالقميص المعنى المجازي وهو المنصب في البلاط الملوكي ، بدليل قوله : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي » ، فافهم هذا التحقيق ، فانه بالفهم حقيق ؛

٢ً — قول أبي تمّام :

فما زال يصعد طرق العلا الى النجم مرتدياً بالسّناء(١)

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فحقيقة « يصعد » العلو الحسي في المكان العالي ، ولكنه استعار الصعود للعلو في المرتبة ، وبنى عليه انه صار مع النجم مرتدياً بالرفعة وأن الجهول اذا رآه هكذا ظن أن له حاجة في السماء ، وكل هذه ترشيحات للتشبيه لاتناسب الا المعنى الحقيقي ، وإنما ذكرت مع المعنى المجازي وهو الرقي المعنوي الرتبي ، تقوية الاستعارة ، وكذلك الأمر ههنا في آيتنا ؛ ذكر الإشارة الحسية والذهاب بالمشار اليه والقائه على وجه أبيه ترشيحاً للاستعارة كأن هذا « القميص » المجازي هو قميص حقيقي .

٣ً — قول القائل :

هي الشمس مسكنها في السما ء فعزّ الفؤاد عزاء جميلاً

فلن تستطيع اليها الصعو د ولن تستطيع اليك النزولا

(١) الرفعة .

لما أخبر عن محبوبته بأنها الشمس ، جعلها كأنها عينها ، وبنى على ذلك سكناها في السماء . وانه لايستطاع الصعود اليها ، وهي لاتستطيع النزول ، فهذه كلها ترشيحات للتشبيه ، انما تناسب المشبه به ، فكذلك في آيتنا الكريمة .

٤ً — قول العرب في البليد : (رأيت حماراً له أذنان خطلا وان) استعاروا الحمار للبليد ، وأثبتوا له أذنين خطلاوين ، أى مسترخيتين طويلتين ، ترشيحاً لتلك الاستعارة لأن الأذن الخطلاء من لوازم الحمار الحقيقي .

٥ً — قول الشاعر :

ولما رأيتُ « النَّسرَ » عزَّ « ابن دايةٍ »
و « عشَّشَ » في « وَكْرَيْهِ » جاش له صدري

يعني لما رأيت شعر الشيب الأبيض غلب شعر الشباب الأسود ، حل ونزل في الرأس واللحية ، ارتاع واضطرب منه قلبي ، فالشاعر استعار لفظ « النسر » للشيب . ولفظ « ابن داية » وهو الغراب ، للشعر الفاحم ، ورشح الاستعارة بذكر « التعشيش » وهو عمل العش وأخذه ، ثم بذكر « الوكر » وهو موضع الطائر ، الذي يأخذه ويعمله للتفريخ .

وأعلم أن الترشيح قد يكون باقياً على حقيقته ، تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها ، وقد يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه ، لملائم المستعار له ، كما في هذا البيت ، فانه استعير لفظ « الوكرين » من معناه الحقيقي ، للرأس واللحية ، أو الفودين ، أعني جانبي الرأس ، وأستعير لفظ « التعشيش » للحلول والنزول فيهما وكذلك الأمر في الآية الكريمة ، فانه استعير فيها لفظ « الالقاء على الوجه » للانبآء وإحاطة علم يعقوب عليه السلام بمنصب ولده يوسف .

٦ً — قول بعض العرب ، يبين حاله مع أمه :

إذا الشيطانُ قصَّعَ في قَفاها تنفَّقْناهُ بالحبلِ التؤآم

يقال (قصّع فلان اليربوع) : إذا اخرجه من قاصعائه ، أي من جحره ، ودخل هو فيه ، « وقصّع الشيطان في قفا فلان » إذا ساء خُلُقه وغضب ، كأن الشيطان دخل في قفاه وصار يُبرز منه الغضب وسوءَ الخلق ، ويقال : ﴿تنفّق اليربوع﴾ أي خرج من نافقائه ، و« تَنَفقْتُه » أي استخرجته منها ، والحبل التوآم : المثني المجدول على طاقين .

استعار « التقصيع » أولاً ، لغضب أمه وإثارة خلقها ، ثم ضم اليه « التَنَفُّق » مستعاراً للاجتهاد في إزالة غضبها ، واماطة مايسوء من خلقها ، ثم جعل « الحبل التوآم » مستعاراً لسبب قوي ، يتوصل به لتلك الإزالة ، « فالحبل » هو بمعنى السبب ، وهاتان الاستعارتان تابعتان للاستعارة الأولى ، ومرشحتان لهـــا باعتبار لفظها ، وعليه فمعنى البيت :

إذا دخل الشيطان في قفاها ، ليُبرز منها الغضب ، استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم ، يريد إذا غضبت وساء خلقها اجتهدنا في إزالة غضبها ، وإماطة مايسوءُ من خلقها ، فهو لما استعار أولاً « التقصيع » أتبعه بما يشاكله ويوآخيه ، وهو « التنفق » و« الحبل التوآم » ، فهذان اللفظان ترشيحان للاستعارة يقصد منها تقويتها ، فلا يقول « إن التنفق والحبل التوآم لايناسبان المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير اليه » — الا كل جاهل بأساليب اللغة العربية وطرق البلغاء المفلقين ، كما ان ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات للاستعارة ، يقصد منها تقويتها ، فلا يقول أيضاً « ان الذهاب بالقميص والاشارة الحسية اليه والقاءه على الوجه ، أمور لاتناسب المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير لذلك المعنى المجازي » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية ، وطرق البلغاء المفلقين.

٧ — قولهم ﴿ من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً ﴾ ، « فالجب » استعارة مرشحة ، والحفر والوقوع والانكباب على الرأس ، ترشيحات لهذه الاستعارة.

٨ — قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتَرَوا الضَّلالةَ بالهُدَى ، فما رَبِحَتْ تِجارَتُهم وما كانوا مُهتَدِين ﴾(١٦:٢) فمعنى اشتراء الضلاله بالهدى ، اختيارها عليه واستبدالها بــــه ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولما استعار الاشتراء للاستبدال ، ذكر الربح والتجارة على وجه الترشيح ، كأن ثمّ مبايعة على الحقيقة .

٩ — جاء في القرآن :﴿ قال بَصُرتُ بما لم يَبْصُرُوا به ، فَقَبَضتُ قبْضَةً منْ أثرِ الرسولِ ، فنَبَذْتها ﴾ (٩٦:٢٠)، فهذا « السامريّ » علم من معجزات الرسول موسى ، وفطن بما لم يفطنوا له ، من علائم صدقه ، فآمن به وأخذ جانباً من شريعته ، وشيئاً من طريقته ، ولكنه لم يلبث أن رفض تلك الطريقة ، بحسب تسويل نفسه الأمارة بالسوء ، « فالقبض » استعارة مصرحة تبعية والقبضة والأثر والنبذ ، ترشيحات لها ، لأنها من مناسبات المشبه به .

١٠ — قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخــــذَت الأرضُ زُخرُفَها ، وازّيّنَتْ ، وظَنّ أهلها أنهم قادِرون عليها ، أتاها أَمرُنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حَصِيداً ، كأنْ لم تغْنَ بالأمس ﴾ (٢٤:١٠) ، شبه الأرض بالعِرْس ، واستعار لفظ العِرس وحذفه ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الزخرف والزينة ، وإتيان الأمر اليها ، فأخذ الزخرف والتزين وإتيان الأمر اليها ترشيحات لهذه الاستعارة المكنية .

١١ — قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شَفا حُفرةٍ منَ النار ، فأنْقَذَكم منها ﴾ (١٠٣:٣)، شبههم وهم كافرون بمن جلسوا على حرف حفرة من حفر النـار ، وشبه نفسه تعالى بتوفيقه إياهم الاسلام وتخليصهم من الكفران بمنقذ أنقذ الجالسين على حرف الحفرة ، أو استعار شفا حفرة النار — للباطل ورشحه بالانقاذ ، وكما أن الانقاذ ، لايناسب إلا المعنى الحقيقي ، ولكن جيء به تقوية للاستعارة، فكذلك

الذهاب بالشيء والاشارة الحسية والإلقاء على الوجه في الآية الكريمة ، هي نعم أمور لاتناسب الا القميص الحقيقي ، ولكن جيء بها تقوية للاستعارة.

١٢ــ قوله تعالى : ﴿ أفمَنْ أسَّسَ بُنيانه على تَقْوى منَ اللهِ ورِضوانٍ ، خَيْرٌ ، أم منْ أسَّسَ بُنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ ، فانهارَ به في نارِ جهنم ؟ ﴾ (٩:١١٠)، « شفا الجرف » مجاز عما ينافي التقوي من الباطل والنفاق ، والعلاقة قلة الثبات والاستمساكِ ، جعل « الجرف الهائر » مجازاً عن الباطل ، فرشحه بلفظ « الانهيار » الذي هو للجرف ، ليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، أو يقال شبه بناء مسجد الضرار في كونه سبباً ملقياً في النار ببناء بني على حرف جرف من رمل لايثبت حتى يسقط في الجرف الهار .

١٣ــ قوله تعالى : ﴿ قد مَكرَ الذينَ منْ قَبْلِهم ، فأتى اللهُ بُنيانهم مِن القواعدِ ، فخَرَّ عليهم السَّقْفُ منْ فوقِهم،وأتاهم العذابُ منْ حيث لا يَشعُرون ﴾ (١٦:٢٦) شبه المكر بصرح ، وحذفه ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية ، وذكر القواعد والخرور والسقف والفوقية ترشيحات لهذه الاستعارة .

١٤ــ سمعت بعض العرب يقول عن رجل رشى الحاكم بعشرة دنانير ذهبية: « سقاه عشرة أقداح من الخمرة شربها ، فغاب عن صوابه فحكم له بما أراد » ، فالأقداح استعارة تصريحية وهي مجاز عن الدنانير ، والسقي والشرب والغيبوبة ترشيحات لهذه الاستعارة ، لانها تناسب المعنى الحقيقي .

تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا ... الخ

اذا تقرر هذا ، نقول ههنا في آيتنا الكريمة التي نحن بصدد شرحها : استعار

« القميص » للمنصب الذي قَمِصَهُ ، وتناسى التشبيه ، وجعل « القميص » كأنه مستعمل في معناه الحقيقي ، وبني عليه مابني على القميص الحقيقي ، وهو الثوب المحسوس الذي يذهب به ويشار اليه ويلقى على الوجه ، وبعبارة أخرى : لما استعار « القميص » للمنصب والوزارة التي له ، أتبعه بما يشاكله ويوآخيه، ومايكمل بانضمامه اليه ، تقوية للاستعارة ، وليصور للسامع أن المنصب كأنه قميص حقيقي، مبالغة في التشبيه ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تُقَفَّى باشكال لها وأخوات ، اذا تلاحقن ، لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر رونقاً ، وهو المجاز المرشح بصفة أو تفريع كلام يلائم المعنى الحقيقي ، فالتعبير بالالقاء على الوجه ، لا ينافي أن « القميص » مجاز عن المأمورية ، لأنه ترشيح ، بل ليست اللغة العربية وحدها هي المصطلحة على مثل هذه العبارات المجازية المرشحة بما يناسب المعنى الحقيقي ، بل جرى على ذلك كل لغات العالم ، والناس يفهمون هذه العبارات على ماوضعت لتأديته ، لا على لفظها ، فمثلاً لوقال رجل عن آخر : « إنه يعبد الورد » فلا يحق لنا أن نقول : إن هذا الرجل مشرك قد عبد « الورد » مع الواحد الأحد ، الذي لا يعبد سواه ، وكذا لو قال رجل : « دخلت الحمام فاذا في الخلوة عند جرن الماء أسد ذولبد واظفار لم تقلم ، وهو يزمجر بصوت كالرعد يرعب السامعين » فلا يحق لنا أن نقول : انه حقيقة هو الوحش المفترس الضاري ، اغتراراً بما اكتنف هذه الاستعارة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي ، وهكذا في الآية الكريمة لايحق لنا أن نقول : إن هذا « القميص » حقيقة هو الثوب الذي يلبس على الجسم، اغتراراً بما اكتنف هذه الكلمة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي .

وتتمة القول : إذا جاز في المثال الأول ترشيح « الأسد » المجازي بأنه مُقَذَف وله لبد ، وله أظفار لم تقلم ، الأمور التي لاتناسب « الأسد » المجازي ، وانما تناسب الأسد الحقيقي .

واذا جاز كما في المثال الثاني ترشيح الصعود المنوي يظن المجهول أن للممدوح حاجة في السماء ، الأمر الذي لايلائم الا الصعود الحسي في المكان.

واذا ... واذا ... الخ .. الخ .. فلِمَ لايجوز أن يقال : إن هذا « القميص » مجازي ، وقد رشح بما هو من خصائص القميص الحقيقي مبالغة في التشبيه؟

وما الفرق بين الكلمة التي هي موضوع حديثنا وبين هذه الأمثلة الأربعة عشر التي ذكرناها ؟.

اللهم لافرق ، ولاصعوبة في قبول هذا المعنى الجديد ، لولا الجمود على المعنى الذي نحا اليه المفسرون .

اذا تقرر هذا فيكون المعنى :

تفسير الاية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها

(اذهبوا) سراعاً (بـ) خبر (قميصي هذا) وهو المنصب الكبير الذي علمتموه وتحققتموه ، حتى صار عندكم كالمحسوس الذي يشار اليه ، (فألقوه على وجه أبي) أي فأحيطوه علماً به لأن هذه الكلمة كما حققناها ترشيح للاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته لايقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يجري فيه التجوز أيضاً فيستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، لمعنى يلائم المشبه ، على ما ذكره علماء البيان — وقولوا له : قد عثرنا على عكاز شيخوختك ، ومستودع أسرارك وقبلة آمالك ، وطبيب أحزانك ، ومداوي بثك وهمك ، ومضمد جراحك ، قد عثرنا عليه عزيزاً بمصر ووزير مالية بها ، ووكيلاً عن مليكها الريان في البلاط فان أوقفتموه على جلية الواقع (يأت بصيراً) عالماً وعارفاً ، لأن خبر هذا القميص يشف له عن الواقع ، فتظهر له الحقيقة بيضاء ناصعة ، لا غبار عليها ، ويكشف

له عن سريرة ولده يوسف بالتفصيل ، بعدما كان عاجزاً عن رؤيتها وعلمها إلا إجمالاً ، ومعنى جملة (يأت بصيراً) أنه يأتي ذا بصارة ومعرفة بحالي التي أنا عليها اليوم في البلاط ، أو تقول معنى (يأت بصيراً) يأت مبصراً ، بذهاب ما كان على عينيه من بياض ، فان هذا القميص ، متى بلغه خبره ، سيكون أكفأ في شفائه من كل الكحالين الحاذقين ، وأنفذ من عملية جراحية يجريها لعينيه طبيب حاذق فانه حالاً أو بالتدريج يَنقَه ، ويُبلّ وينتعش ، وإن اتيانه اليّ ، واجتماعي به لهوا العزاء الباقي لي عن جميع ما أتى عليّ من كل الحوادث المؤلمة والضيقات الفاجعة (وائتوني) على جناح السرعة (بأهلكم أجمعين) لنعيش جميعاً في هذه البلاد تحت رضا أبينا الشيخ الجليل ، وتحت رعاية « الريان » المليك المعظم ، فها أنا انتظركم انتظار الظمآن لورود الماء ، وها هي ذي أبواب مصر مفتوحه أمامكم على المصراعين ، فادخلوا إن شئتم من باب واحد ، أو ادخلوا من أبواب متفرقة ، لا فرق في ذلكم ، فأنتم على كل حال آمنون من كل شيء ، فالبدار البدار ، فانه لا يحول بيننا وبينكم رِتاج ، وليس هناك من جبال ولا أمواج .

قوموا ائتوني باهلكم أجمعين ، فاني أريد ذلكم لخيركم فقط لا لخيري ،والا فانا مستغن عنكم بالله تعالى ، لا أسألكم دنيا ، ولا أستفتيكم عن دين ،

قلت لكم ائتوني باهلكم أجمعين ، من كل ما خولكم الله ، من عقيلات ، من بنين وبنات ، من عبدان وخادمات ، لا تتركوا وراء ظهوركم شيئاً منوطاً بكم ، ارجعوا لمصر ، وقولوا : « على فلسطين السلام » وأنا لا أقول لكم : بيت الضيق يسع ألف صديق ، لا .. بل أقول : انكم ستجدون عندي مراغماً كثيراً وسعة، أنتم ليس لكم في فلسطين مَبْرك ناقة ، ولا مَفْحص قطاة ، سوى ما لأبي في شكيم من قطعة الحقل ، (إنظر تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨:٢٢ و ٥٠ · ٢٥ ويش٢٢: ٣٣) واني أخشى أن ينشب الجوع أظفاره بكم ،

واذا رأيت الأمن عزّ ببلدة　　وخشيت منها أن يضيق المطلب
فارحل فأرض الله واسعة الفلا　　طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

قلت : أسرعوا الكرة وائتوني باهلكم أجمعين ، فلنا ولهم رب اسمه الكريم، والصلة التي بيني وبينكم ـ والحمد لله ـ لا تزال وثيقه، لا ينال منها الدهر ، ولا تأخذ منها عاديات الأيام ، ولا يؤثر عليها شيء من تلكم الحوادث الغابرة ، أليس انكم إخوتي ؟... وهل يوجد قوة في الأرض تستطيع أن تقطع هذه الصلة ؟... كلا .. لان لحمي من لحمكم ، ودمي من دمكم ، يسوءني ما يسوءكم ، ويسرني ما يسركم ، أنا لكم ، وأنتم لي ، والله للجميع ؛

ائتوني بأبي ، وائتوني بأهلكم أجمعين ، فقد قيل : «اتّخِذ الناس أباً وأخاً وابناً ، ثم بِرّ أباك ، وصِلّ أخاك ، وارحم ابنك » ، فلذلك بالاولى أُريد أن أبرّ أبي ، لأنه والدي على الحقيقة ، واريد أن أصلكم، لأنكم إخوتي على الحقيقة، واريد أن أرحم أبناءكم ، لأنهم كابنيّ منسى وأفرايم » .

الى هنا ينتهي مرمى كلام يوسف عليه السلام .

وفي الختام أيها السادة اياكم أن تظنوا أنني بهذه الكلمات التي سطرتها يدي الحقيرة ، سأغتر وأقول :

وإني وإنْ كنت الأخير زمانه　　لآت بما لم تستطعه الأوائل

حاشا لي من هذا ، ومن أقل من هذا، فأنا الفقير تراب حقير، أصيب وأخطيء وأسرع وأبطيء ، ولكني أقول :

هذا ما وصل اليه فهمي القاصر ، فان حاز قبولاً عند أهل العلم والنظر ، فهو من فضل الله عليّ ، إذ أصبت المحزّ ، بل ومن فضل الله عليهم ، إذ لم يغمطوا الحق ، وان لم يرق في أعينهم ، فليضربوا به عرض الحائط وليرجعوا الى ما قاله سادتنا المفسرون .

(مرحى)

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٤ —

ثم نهض السيد عبد الحق الطمومي (١) وقال :

تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الاضافية

سمعت في هذه الجلسة من بعض الاخوان الحاضرين انتقاداً سرياً على السيد الغمراوي في ذهابه الى أن « القميص » هو الكسوة الرسمية المعمولة من الكتان التي قدمت ليوسف من مليك مصر ، وهي من الألبسة الرسمية التي لا يلبسها الا الملوك وكبار أهل البلاط والكهنة،ثم انتقد كذلك على مولانا عبد الحي الدمياطي في قوله إن هـذا « القميص » هو قميص معنوي رُتَبِي" هو عبارة عن « وزارة المالية » في البلاط ، أو عبارة عن انه« عزيز مصر » أو وكيل مطلق عن مليكها، وقال هذا المنتقد ، كيف يجوز لنا أن نخالف مافهمه السادة المفسرون من قبلنا ؟

هذا انتقاد الأخ المحترم واني الآن ، أريـد أن أضم صوتي الى صوت السيد الغمراوي ومولانا الدمياطي في تفسيرهما القميص ، ومجيباً عن انتقاد من انتقـد عليهما فأقول :

غير خاف إن دلالة النصوص الاضافية تختلف باختلاف درجات فهم السامعين وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو ، أحفظ الصحابة للحديث ، وأكثرهم رواية له ، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعودوزيد بن ثابت أفقه ، بل عبدالله ابن عباس أيضاً هو أفقه منهما ومن عبد الله بن عمرو .

وان لنا على تفاوت فهم العلماء لما يسمعونه من الكلام شواهد :

منها ١ً— قد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام ،عامالحديبية

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

من اطلاق قوله له : ﴿ انك ستأتيه وتطوف به ﴾ ، فانه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه .

ومنها ٢ً — أنكر ﷺ على من فهم من قوله « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » — شمول لفظه لحُسن الثوب وحُسن النعل ، وأخبرهم أن الكبر بطر الحق وغمط الناس .

ومنها ٣ً — أنكر ﷺ على من فهم من قوله : « من أحبّ لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه » — انه كراهة الموت ، وأخبرهم أن الكراهة للكافر ، إذا احتضر وبشر بكرامة الله ، أحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه

ومنها ٤ً — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجزَ به ﴾ (٤:١٢٢) ان هذا الجزاء انما هو في الآخرة ، وبين ان هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها ، وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة..

ومنها ٥ً — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُوا ولم يَلبِسوا إيمانَهم بِظُلْمٍ ، أولئك لهم الأمنُ وهم مُهتدُون ﴾ (٦:٨٢) — انه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين انه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه ﴿ إنَّ الشِركَ لظُلْمٌ عظيم ﴾ (٣١:١٣) ، مع ان سياق اللفظ عند اعطائه حقه من التأمل يبين ذلك ، فإن الله سبحانه لم يقل : ولم يظلموا أنفسهم ، بل قال : ﴿ ولمْ يَلبِسُوا إيمانَهم بِظُلْمٍ ﴾ ولبْسُ الشيء بالشيء تغطيته به واحاطته به من جميع جهاته ولا يُغطي الإيمانَ ويحيط به ويلبسه الا الكفر .

ومنها ٦ً — فهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿ وحَمْلُه وفِصالُه ثلاثون شهراً ﴾ (٤٦:١٥) مع قوله تعالى : ﴿ والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادهنَّ حَوْلينِ كامِلَيْنِ ﴾

(٢:٢٣٣) ـــان المرأة قد تلد لستة اشهر ، ولم يفهمه « عثمان » فهمّ برجم امرأة ولدت بعد ستة اشهر من زواجها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ومنها ٧ـ لم يفهم « عمر » من قوله ﷺ : « أُمِرتُ ان اقاتل الناس حتى يقولوا : « لا الـه إلا الله » ، فاذا قالوهـــا عصموا مني دماءهم واموالهم ، إلا بحقها » ـــ لم يفهم من هذا قتال مانعي الزكاة ، حتى بـــين له الصديق ذلك ، فأقرّ بـه ..

ومنها ٨ـ ماروى ان « عمر » استعمل « قدامة » بن مظعون على « البحرين» فقدم « الجارود » على عمر فقال : « ان قدامة شرب فسكر » ـــ فقال عمر :«من يشهد على ماتقول ؟» ـــ قال الجارود : « ابو هريرة يشهد على مااقول » ـــ فقـال عمر : « ياقدامة اني جالدك » ـــ قال : « والله لوشربت كما يقولون ما كان لك ان تجـــلدني » قال عمر : « ولِمَ ؟ » ـــ قال : لأن الله يقول :﴿ ليسَ على الذين آمنوا وَعمِلوا الصالحـــات جُناحٌ فيما طَعِمُوا ، اذا مااتقوا وآمَنُوا وعَمِلوا الصالحـاتِ ، ثم اتقوا وآمَنُوا ، ثم اتقوا واحسنُوا ﴾ (٥:٥٦) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ، شهدت معرسول الله ﷺ « بدراً » و« أُحُداً »و« الخندق »و« المشاهد » ـــ فقـال عمر : « الا تردون عليه قوله ؟» ـــ فقال ابن عباس : « ان هذه الآيات أُنزِلنَ عـــذراً للماضين ، والا فالخمر محرمة على الباقين ، لأن الله يقول : ﴿ ياأيهـا الذينَ آمَنُوا إنما الخمرُ والميْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمــلِ الشيطانِ ﴾ (٥:٩٣) ـــ قال عمر : « صدقت » ،وتوضيحه ان هـــذه الآية التي تمسك بها الجارود ، إنما وردت جواباً لسؤال بعض الصحابة الذين استشكلوا عند نزول هذا الحظر في الخمر والميسر ـــ حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، ولاسيما من حضر منهم غزوتي « بدر » و« أُحُـــد »

وكان امر الخمر عندهم أهم ، ومنهم من كلم النبي ﷺ في ذلك ، وفي رواية انهم سألوا عمن ماتوا ، وعن الغائبين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم ، فنزلت هذه الآية جواباً لهم ، وقيل ان الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، لافي الخمر ، ولو يتأمل الانسان سياق الآية لفهم المراد منها على نحو مانقول ، فانه انما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك انما يكون باجتناب ماحرمه من المطاعم ، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما .

ومنها ٩ً ــ انه فهم من فهم من قوله تعالى ﴿ ولا تُلقُوا بأيديكم الى التهلُكة ﴾ (٢:١٩٥) حرمة انغماس الرجل في العدو ، حتى بين له « أبو أيوب » الأنصاري أن هذا ليس من الالقاء بيده الى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وان الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها .

ومنها ١٠ً ــ قال « الصديق » رضي الله عنه : أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم ، لا يضرُّكم مَن ضلَّ إذا اهتديتم ﴾ (٥:١٠٨) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » ، فاخبرهم أنهم يضعونها في غير موضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها ، كيف وهم لايهتدون إلا إذا غيروا المنكر [1]

ومنها ١١ً ــ أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : « ياأمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه اليك ، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل » ــ فقال لها : جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها » ــ فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب ، وكان

(١) الطرق الحكمية

« كعب بن سؤر » حاضراً ، فقال له : « اقض ياأمير المؤمنين بينها وبين زوجها » ـ فقال « وهل فيما ذكرتْ قضاء ؟ » ـ قال « إنها تشكو مباعدة زوجها لها عن فراشها ، وتطلب حقها في ذلك » ـ فقال له عمر : « أما إذْ فهمتَ ذلك فاقض بينها » ـ فقال كعب : « عليّ بزوجها » ، فأحضر ، فقال : « إن امرأتك هذه تشكوك » ـ قال « أقصرت في شيء من نفقتها ؟ » ـ قال : « لا » ـ فقالت المرأة شعراً :

ياأيها القاضي الحكيم رشده	ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله مايرقده	فلست في أمر النساء أحمده
زهّده في مضجعي تعبده	فاقض القضا يا كعب لاتردده

قال فقال زوجها :

زهدني في فرشها وفي الحُلَلْ	إني امرؤ أذهلني ماقد نزلْ
في سورة وفي السبع الطولْ	وفي كتاب الله تخويف جللْ

فقال « كعب » :

وأن خير القاضيين من عدلْ	ومن قضى بالحق جهراً وفصلْ
إن لها عليك حقاً يارجلْ	تصيبها في أربع لمن عقلْ
قضية من ربنا عزوجلْ	فأعطها ذاك ودع عنك العِللْ

ثم قال : « إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن ، تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة » ـ فقال عمر : « والله ماأدري من أي أمريك أعجب ، أمن فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ؟ . اذهب فقد وليتك قضاء البصرة » ذكر هذه الحكاية التيجاني في « تحفة العروس » نقلاً عن صاحب « الموفقيات » عن إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن معن ، ثم قال : وذكر « الرشاطي » هذا الحديث في كتابه المسمى « باقتباس الأنوار » وزاد بعد قوله « يوم وليلة »

« فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة »، وحكى أن « كعب بن سؤر » هذا ، شهد يوم الجمل ، فلما اصطفت الناس للقتال ، أخذ مصحفاً في يده وخرج يناشد الناس في دمائهم ، فقتل على تلك الحالة .

ومنها ١٢ً ـ ماروي عن عمر ، انه كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخُذَهم على تَخوّفٍ ﴾ (٤٧:١٦)، ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل « التخوف عندنا : التنقص » ثم أنشده :

تخوّفَ الرَّحلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تخوّفَ عودَ النبْعةِ السَّفنُ

« التامك » العظيم السنام ،و« القرِد » الكثـــير القردان ، و« عود النبعة » شجر للقسي والسهام ، و« السَّفن » الحديدة التي يبرد بها خشب القوس ، وعلى ذلك فهو يقول : إن الرحــــلَ تنقص سنامَ الناقة ، كما تأكل الحديدةُ خشب القِسّي .

ومنها ١٣ً ـ انه جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : تركت في المسجد رجلاً يفسر هذه الآية : ﴿ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ ﴾ (١٠:٤٤)، قال « يأتي الناسَ يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام » ـ فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم » ، انما كان هذا ، لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسِّني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

ومنها ١٤ً ـ أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة من اليهود ، التي لم ترتكب مانهيت عنه ، هل عُذِبوا ونجوا ؟ حتى بين له مولاه « عكرمة » دخولهم في الناجين ، دون المعذبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه ، قال عن الساكتين : ﴿ وإذ قالت أمـــة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو مُعذِبهم عذاباً شديداً ؟ ﴾ (١٦٣:٧) فاخبر انهم أنكروا فعلهم ، وغضبوا

عليهم ، وان لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به أولئك ، سقط عن الباقين ، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضاً فانه سبحانه إنما عذب الذين نسوا ماذُكِروا به ، وعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً ، فلما بين « عكرمة » لسيده ابن عباس انهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين ، كساه برده ، وفرح به [1].

ثم تابع الخطيب « عبد الحق الطمومي » كلامه قائلاً :

وإذ وصلنا هبنا ، فاعتبرونا ـ يارعاكم الله ـ بمنزلة عكرمه ، واعتبروا أنفسكم بمنزلة ابن عباس ، فكما قبل ابن عباس تفسير عكرمة ، وفرح به وكساه برده ، فاقبلوا تفسيرنا وافرحوا به فقط ، ولا نريد منكم أن تكسونا برودكم ، بل إن شاء الله تسلم برودنا منكم . وعرضنا وديعة عندكم . (قالون)

(اذهبوا بقميصي هذا ...) الخ

وقال الفاضل السيد يوسف المجدلي[2]

رد تفسير كلمة « بصير » بمبصر « ضد الاعمى »

اني أوافق السيد الغمراوي ومولانا عبد الحي الدمياطي على تفسيرهما « القميص » بالرتبة العالية ، و« بصير » بعالم ، ومنع أن يكون « بصير » بمعنى مُبصر بعينيه ، وأزيد هنا كلمة وجيزة ، وهي أنه من عرّف سيدنا يوسف أن أباه صار أعمى حتى يقول « بصيراً » ويريد مبصراً ، وأما قول بعض المفسرين كالبغوي وأمثاله :

---

(١) الطرق الحكمية

(٢) نسبة الى بلدة المجدل بالقرب من غزة (فلسطين)

« لما عرفهم يوسف نفسه ، سألهم عن أبيه فقال مافعل أبي بعدي ؟ ـ قالوا : ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ، وقال : إذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، أي يعدُ مبصراً » فيحتاج إلى برهان يثبته ، لأنـه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولا يجوز التهجم على الغيب إلا ببرهان ، قال تعالى : ﴿ عالِمُ الغيْبِ فلا يُظهِرُ على غيْبِهِ أحداً إلا مَنْ ارتضى مِنْ رسولٍ ﴾ (٧٢:٢٦ و٢٧) والبغوي وأمثاله من المفسرين ، ليسوا رسلاً ، حتى يظهرهم الله على غيبه ، فيقولوا : إن يوسف سألهم عن أبيه ...الخ .

هذه كلمتي الوجيزة على معنى الآية الكريمة ، واسمحوا لي أن ألحقها بالمواد التالية :

قميص يوسف كان دثاراً

المادة ١ ـ كل مايلي الجسد من الثياب فهو « شعار » وكل ما يلي الشعار فهو « دثار » وظاهر أن القميص الذي كان يلبسه يوسف من قبيل الدثار .

اشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف

المادة ٢ ـ إذا قرأ المؤمن هذه السورة الشريفة وقع نظره على أشياء ، هي مما فوق الطبيعة ، مامن ذلك بد :

فمنها أولاً ـ رؤيا يوسف في حلمه سجود الأحـد عشر كوكباً له والشمس والقمر ، ثم وقوع مصداق تلك الرؤيا كما رآى حرفاً بحرف .

ومنها ثانياً ـ بشارة يعقوب لابنه ، بأن سيجتبيه ربـه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه وعلى آل أبيه ، كما أتمها على أبويه من قبـل إبراهيم وإسحاق ، ثم وقوع ذلك حذو القذة بالقذة [١].

---

(١) القذة الاذن.

ومنها ثالثاً ـ تقطيع النسوة أيديهن بالسكين ، بدون أن يُحسِسْنَ بألم بل كن غائبات عن شعورهن ، كأنما خُدِّرت أيديهن تخديراً موضعياً .

ومنها رابعاً ـ حلما الفتيين في السجن ، وتأويل يوسف لهما ، فوقوع ذلك التأويل حسبما تكلم يوسف لا أكثر ولا أقل .

ومنها خامساً ـ حلم ملك مصر الريان ، فتأويلها ، فتصديق الواقع لذلك التأويل ..

ومنها سادساً ـ اعتذار سيدنا يعقوب لأولاده ، أو احتجاجه عليهم حين انتقدوا كثرة ذكراه ليوسف ، فقال لهم : « واعلم من الله مالا تعلمون » اي من حياة يوسف ، ثم ظهور صحة هذه الدعوى يوم ماجاؤوه من مصر «بالقميص» فقال لهم: « الم اقل لكم : إني اعلم من الله مالا تعلمون ؟»

ومنها سابعاً ـ وجود يعقوب رائحة ولده وقتما كان البشير حاملاً قميصه ، خارجاً من آخر حدود مصر ، داخلاً في اول حدود فلسطين ، « فالذين يقرأون هذه السورة المجيدة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم من القول بالمعجزات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لايليق بالتربية العصرية ، التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية ، وقلما يعظم في عين هذه الناشئة كتاب ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان مقدساً ، وقصارى ما هنالك أنهم يحترمون ذلك الكتاب لكونه مقدساً ودينياً ، أو يحترمونه احتراماً تقليدياً لآبائهم وأسلافهم ، أو لاعتبارات أخرى.

ونحن نجيب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد إلى مثل هذا المقام بأن العالم المتمدين لايزال حتى هذه الساعة منقسماً إلى فريقين ، روحي ومادي ، وإن الفريق الروحي هو أكبر جداً ، وأحصى عدداً من الفريق المادي ، بل يوجد في أوربا وأميركا واليابان عدد لايحصى من فحول علماء الطبيعة ، يعتقدون

بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مُشْكِل الروح لم ينحل بعد ، وأنه لليوم لم يكتنه أحد سر الروح واتصالها بالجسد ؛

وإذا رأينا أناساً مثل « فلاماريون » الفلكي الشهير ، و« فكتورهوغو » أكبر شعراء الفرنسيس ، وسواهما من صُيّابة [١] العلماء — يعتقــدون باستحضار الأرواح ، ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولاتحصى في أوربا مؤلفة خاصة للمباحث الروحيـة ، واثبات الحوادث التي لاتعلل إلا بوجود شيء وراء المادة — إذا تأكد لدينا هذا كله لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية ؛ويوجد اليوم قسم من الناشئة يعتقدون أن علو الدرجة في التعقل والتبحر في العلم كثيراً، يقتضيان رفض ماوراء المادة ممـا ورد في الدين ، ولكن نحن إدا علمنا أن رجالاً مثل «باستور» بمكان من العلم والاكتشافات الجرثومية التي لم يسبق اليها أحـــد ، ورجالاً مثل « غلادسطون » في الشهرة وتوقـــد الذهن ، كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين — ظهر لنا أن الالحاد التام ، ورفض الاعتقاد بما هو خارج عن المادة ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولاقيداً في التبحر في العلم »[٢] .

عظمة يوسف بتوخي المنفعة لاهله ولو بعد ما اهانوه

المادة ٣ — تعليقاً على قوله :« وائتوني باهلكم أجمعـين » : علم يوسف عليه السلام أن الرجـــل العظيم هو من يتوخى للناس المنفعة ، ويوطيء لهم أسباب السرور ، ولو كانوا قد أهانوه ، ولذلك طلب اليهم الإتيان بأهلهم وكان هـــذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها ، لأنهم كانوا فيفلسطين

(١) الصيابة الخالص والصميم والسيد .

(٢) مأخوذ من تعليقات الامير شكيب ارسلان على كتابه «حاضر العالم الاسلامي ».

في ضيق عظيم ، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف ، وحنّنه عليهم ، حتى لولم يعثروا على يوسف أخيهم ،لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه ، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم ، ويأمرهم بالإتيان باهلهم أجمعين ، ولايخفى مافي هذا العمل الذي تكرم به يوسف ، من نسيان أو تناسى ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم ، فهل آن لنا أن نقتدي بهذا القدوة الطيبة ، ونتناسى أعمال أعدائنا معنا ، لاسيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا !.

وربما يكون سمع عن إخوته ، ورغب اليهم في رجوعهم لمصر ، لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة ، مراعاة لوالده الشيخ الجليل ، ولأهل إخوته وسلائلهم ، كما قيل : « بعلة الزرع يسقى الضرع » وقيل:« لأجل الورد يشرب العليق »، وأيضاً فقد رآى يوسف انه لايحسن انفراده بالعيشة بمصر ، متمتعاً بالنعيم الرغد ، دون إخوته وسلائلهم ، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم [١]:

ولو أني حبيت الخلد فرداً — لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي — سحائب ليس تنتظم البلادا

وهذا هو تعليم الدين الاسلامي ، كما في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وهو أيضاً التعليم المسيحي ، كما نقل عن السيد المسيح انه قال : ﴿كل ماتريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً﴾ (مت ٧:١٢).

لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم

المادة ٤ــ تعليقاً ثانياً على قوله « وائتوني باهلكم أجمعين »: المال والمنصب

(١) هو ابو العلاء المعري.

والجاه هو لصلاح المعاش والدنيا ، وشرف المنزلة في أعين الناس ، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان ، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بهما ذوي رحمه كان كالذي يعد فقيراً ، وإن كان موسراً ، ويحسب سُوقَـة ، وإن كان ذا ولاية ، وإن أولى مايكون في المال والجاه استخدامها في سبيل صلة الرحم ، واستثمارها لمنفعة الأقارب ، فلذلك أراد يوسف أن تشاطره إخوته وأهله جميعاً في ثمار هذا المركز ، الذي أعطاه الله إياه .

أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف

المادة ٥ــ بما جرى ليوسف وما أتاه هنا ، تمت فيه الأوصاف الأربعة المذكورة في ضمن قوله تعالى :﴿ والذينَ آمَنُوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوْا وَنصَروا ، أولئكَ هم المؤمنونَ حقاً ،لهم مَغفِرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾(٨:٧٤) ، فيوسف هاجر من فلسطين بلاد الخوف ، لمصر بلاد الأمن، وجاهد نفسه بترفعه عن النزول على إرادة سيدته ، وآوى إخوته وأهليهم، ونصرهم على شيطانهم ، لانه غفر لهم وصفح عنهم .

وما أنسب ماوقع من يوسف بالمراتب الثلاث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ والكاظِمين الغَيْظَ ، والعافِينَ عَنْ الناسِ ، واللهُ يُحِبُ المحسنينَ ﴾ (٣:١٣٤) فهو عليه السلام كظم غيظه بقوله : « لا تثريب عليكم اليوم » ، ثم عفا عنهم بقوله « يغفر الله لكم » ، ثم أحسن اليهم بقوله : « وائتوني باهلكم أجمعين » ونظير هذا ماوقع (للمأمون) حينما كان خادم وضوئه يصب عليه ، فسقط الاناء ، فغضب المأمون ، فقال له الخادم ، « والكاظمين الغيظ » ــ فقال « كظمت غيظي » ــ قال « والعافين عن الناس » ــ فقال « عفوت عنك » ــ قال « والله يحب المحسنين » ــ فقال « اذهب فأنت حر ».

وكان « المنصور أبو عامر » ــ وهو أحد ملوك اسبانيا ، وإن شئتم قلتم : الأندلس ــ أمر بسجن فتى ، لأن عليه ثلاثة آلاف دينار للخزينة ، ثم عفا عن سجنه ، فقال الفتى:

أمـــا ترى عفو أبي عامرٍ لا بـــد أن تتبعه منّة
كذلـك الله إذا ماعفـا عن عبده أدخـــله الجنة

فسامحه « المنصور » في ذلك المال .

حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب اهليهم لمصر

المادة ٦ــ كاني باخوة يوسف العشرة ، بعد هذه المبادلات في الحـــديث ، وبعدما فارقوه ، عتب بعضهم على بعض ، وتبرأ قسم منهم من القسم الآخر ، ولا بد أن يكون « رأوبين ويهوذا » من اللائمين ، كما أنه لاريب أن « شمعون » كان من الملومين ، أو رئيس الملومين ، أو هو الملوم وحده ، ولا نشك في أن «دان ونفتالى» كان لحقهما وهما أمام يوسف ، خجل عظيم مامن ذلك بد ، وسببه أنهما ابنا « بلهة » جارية أم يوسف ، وهي التي انتقل يوسف هو وشقيقه (بنيامين) لخيمتها ، بعد موت امهما (راحيل) ، فتربيا عندها مع ولديها المذكورين ، ثم هل هـــذه الحادثة على هذا الوجه ، توقظ العاقل ، فيشح بنفسه ، ولايطوح بها في المشي وراء الغايات النفسية.

نتيجة رحلة بني اسرائيل لمصر

المادة ٧ــ كانت النتيجة من رحلة بني إسرائيل لمصر ، أنهم بعـــد موت يوسف عليه السلام استعبدوا في مصر ، أيام فرعونها (آحمس الأول) مؤسس الدولة الثامنة عشرة ، إلى أيام (سيتي الأول) منشيء عظمة الدولة التاسعة عشرة، إلى أيام ابنه (رعمسيس الثاني) أعظم ملوك هذه الدولة المذكورة ، ثم أخـــيراً

توثنوا كالمصريين ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو حركة (شمعون) الثورية ، التي كانت حين كان يوسف ابن ١٧ سنة يوم عدائه الشديد ليوسف عليه السلام، يوم مفاوضته لاخوته في قتله أو طرحه أرضاً ، يوم ما قرروا أخيراً باجماع الكلمة القاءه في جب (دوثان) فلعنة الله على تلك الساعة المشئومة ، تلك الساعة الشيطانية ، ساعة النحاسة ، التي لا يمثلها اليوم سوى ماحدث في (الحرب العالمية الأولى) ، مع النظر لسببها الأساسي ، وهو اطلاق (برنزيب) الصربي رصاصة على (الارشيدوق فرنز) وليّ عهد النمسا عام ١٩١٤م .

الارهاص والمعجزة

المادة ٨ — إن حملنا قوله « يأت بصيراً » على معنى « يصير بصيراً » تكون الحادثة من قبيل خوارق العادة ، فان كان هذا قبل نبوة يوسف ،كان من قبيل الإرهاص ، وإن كان بعدها كان من قبيل المعجزة .

عطايا يوسف لاخوته عند ذهابهم لجلب أهليهم

المادة ٩ — (اعطاهم يوسف عليه السلام عجلات ، أي مركبات تجرها الحيوانات ، لأجل أبيه وأولادهم ونسائهم ، وأعطاهم زاداً للطريق ، وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب ، وأما بنيامين فاعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب ، وكانت هبة الثياب تعد في الشرق اكراماً ممتازاً ، وأرسل لأبيه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر ، وعشر أُتن حاملة حنطة وطعاماً ،لأبيه لأجل الطريق ، أي طريق المجيء إلى مصر) (تك ٤٥:٢١—٢٣).

عودة القافلة بالبشارة

آ(٩٤) ﴿... ولمَّا فَصَلَتْ العِيرُ ، قالَ أبوهم : إني لأجِدُ ريحَ يوسفَ !! لولا أنْ تُفَنِّدونِ ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والتسعون فقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال :

صدع اخوة يوسف بأمر أخيهم ، وانصاعوا لاشارته ، وركبوا دوابهم ، ونشطوا في العَدْوِ ، وساروا سيراً حثيثاً ، لايلوون على شيء ، حتى جاوزوا الحدود المصرية ، (ولما فصلت) أي انفصلت (العير) الإبل ، وتعدّت « الفرما » وهي آخر حدود المملكة المصرية ، وهم يحملون بشرى اسناد « وزارة المالية » لعهدة أخيهم يوسف ، ونبأ ذلك « القميص » الكريم الذي قمصه الله إياه ، (قال أبوهم) يعقوب عليه السلام ، حسبما ألهمه الله تعالى ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده (إني أجد) — من الوجدان الذي كما يطلق على الحسي ، يطلق على المعنوي — أي أجد بقلبي وادرك بالهامي ، (ريح) عمكم (يوسف) — والريح ههنا بمعنى القوة والمنصب والشوكة والدولة والغلبة والنصرة ، فإنها تأتي بكل هذه المعاني كما في معاجم اللغة ، قال تعالى : ﴿ولا تَنَازَعوا فتفشلوا وتَذْهبَ رِيحُكُم﴾ (٨ : ٤٧) أي قوتكم أو شوكتكم أو دولتكم الخ الخ . . ، ويقولون : «هبت ريح فلان » اذا واتاه الدهر وساعدته المقادير وتحسن حاله عن ذي قبل ، وانتصر على اعدائه وتغلب وقوي وأعطي مراده (لولا أن تفندون) أي تُعَجّزون وتُكذبون وتُسفّهون وتجهلون وتضعفون وتُهرمون ، — والتفنيد النسبة الى الفند ، وهو الخرف وانكار العقل من الهرم ، — أي لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني .

هذا ما أقوله أيها السادة تكميلاً وتعضيداً لما ذهبت اليه سابقاً من أن هذا «القميص» هو أمر معنوي عبارة عن رتبة الوزارة والله تعالى أعلم .

(ولما فصلت العير . . الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ نور الدين المدرس في جامعة عليكره في الهند وقال :

تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم

كان يوسف عليه السلام تكلم مع اخوته بكلامه الآنف الذكر ،فسمعوا مالم يجر في ظنهم، ولا سنح على فكرهم ، سمعوه فأميتت خيفتهم ، وانتعشت أرواحهم فقالوا : « نفعل مأمورين طائعين » ، ثم ركبوا دوابهم ووخزوها وأطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً ويطوون البيداء طياً ، ساروا ووجهتهم فلسطين، يقطعون السهل والوعر ، وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، وصاروا يتفكرون في أمر يوسف ، ويتعجبون من هذا الحال الذي وصل اليه أخوهم ، ويرددون بينهم وبين أنفسهم معنى قول الشاعر :

الجـد يدني كل أمر شاسعٍ ... والجد يفتح كل باب مغلق
فاذا سمعت بأن مجدودا حوى ... عوداً ، فأثمر في يديه ، فحقق
واذا سمعت بأن محروماً أتى ... مـاء ليشربه ، فغاص ، فصدق

مشت دوابهم في تلك الصحراء الرملية ، منحدرة تارة ، ومرتفعة اخرى ، وهي تمخر عباب السراب مخراً ، حتى قاربوا آخر حدود مصر ، ولما انفصلت دوابهم من « العريش » آخر حدود المملكة المصرية ، وجاوزت حيطانه ، قال يعقوب بلسان الدهشة ، وبصوت مختنق ، ونفس أسيفة ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده: « ياحفدتي ، ياللعجب ! لعمري إنه يلوح لي أن الزمان المنتظر قد اقترب ، إني لأجد

ريح عمكم يوسف العاطر ، وأن « نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل » قد حمله النسيم الى قلبي فأنعشه ، وإلى أنفي فملأه عرفاً شذيا » — هذا ما قاله يعقوب ايها السادة ، شأن كل عاشق إذا سرت « نسمة عطرة » وَجد ريح معشوقه فيها ، وإذا ومض « البرق » ظن أنه وميض ثغره ، واذا سمع « تغريد الأطيار » تخيل أنه صوت حبيبه ، واذا لمس « ثوب قطيفة » ، تصور أنه لمس جسمه ، واذا رآى « غصناً معتدلا » خال انه قوامه ، وهكذا ... وهذا التنوع من التطورات لا يدركه إلا أهل الحب كما قال :

لايعرف الشوق إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

وبعبارة اخرى : كان يخيل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، أن يوسف ملأ قلبه ، ثم فاض عنه الى جميع الكائنات التي بين يديه ، فكان يرى في « صفحة السماء »صورة يوسف ، ويسمع في «تغريد البلابل والشحارير » صوت يوسف ، ويستشرق من « لألأ الشمس » نور يوسف ، ويتراآى له من « باقة الورد والياسمين والفل » لون يوسف ، ويستروح في « النسيم العطير » رائحة يوسف ، ويرى في « بريق السماء » ثغر يوسف ، وفي « الماء الرقراق » رقة عواطف يوسف ،

لقد فصلت « العير » وحمل الصبا رائحة ابنه ، فهاج وجده وحنينه وأخذ يعانق الهواء ، ويضمه اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين يديه .

واختم كلامي هذا بتوجيهات عديدة ربما نقدر أن نفهم بها كلام سيدنا يعقوب عليه السلام ، ونوردها فيما يلي :

تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميص الكتان

التوجيه الأول — لقد اثبت الشعراء ان للحب خصائص ، منها « تواصل الأرواح » لاسيما عند القرب ، ومنها « خفق القلوب » عند مرور الأحبة ، ومنها « تخيل صورة » المحبوب ، ومنها « تنسم ريحه »، كلما هبت الصبا ؛ والمحب يتحسس

بما لا يتحسس به سواه ، وعليه فلا غرابة في أن سيدنا يعقوب تنسم ريح ولده عابقة من القميص – على القول بأن القميص لباس – فللحب سيال يخترق الصرة التي فيها القميص ، كما تخترق الكهرباء والحرارة الأجسام .

وعلى هذا المذهب الذي نحا اليه الشعراء وردت عنهم منظومات كثيرة منها قول بعضهم :

أيا جبلي « نعمان » بالله خليّا نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها
فان الصبا ريح متى ماتنسمت على نفس مهموم أزالت همومها

ولمعاصرنا الأديب السيد أحمد عبيد الدمشقي :

وزهرة راق منها منظر عجب إذا نقطت بندىً كالدر منتثر
قد فاتها الأرج الزاكي ولو علقت بمن أحب لفازت بالشذا العطر

ولجميل بثينة :

أيا ريح الشمال أما ترَيني أهيم وإنني بادي النحول
هبي لي نسمة من ريح « بثْن » ومنّي بالهبوب الى « جميل »

ولعلية ابنة المهدي العباسية أخت هرون الرشيد :

ومُغتربٍ « بالمرج » يبكي بشجوه وقد غاب عنه المُسْعدون على الحب
إذا ماأتاه الركب من نحو أرضه تنشّق يستشفي برائحة الركب

وقال بعضهم :

واني لأستشفي بكل غمامة يهب بها من نحو أرضك ريح

وقال آخر :

ألا يانسيم الصبح مالك كلما تقربت منا فاح نشرك طيبا ؟
كأن سليمى نُبِئت بسقامنا فاعطتك ريّاها ، فجئت طبيبا

وقال البحتري :

ورقّ نسيم الريح حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبّة نُعّما

ومن ميمية البوصيري :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشم

التوجيه الثاني — ربما ان الله تعالى كان أرسل على الحقيقة ، رائحة قميص يوسف عليه السلام مع نسيم الصبا ، وان الآله القدير الذي أوصل صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر بالمدينة — الى قائد جيش المسلمين «سارية» بن زُنَيم ، وقيل ابن رستم الجُلحي ، وهو في نهاوند (١) لهو قادر على أن يوصل ريح قميص يوسف من آخر حدود مصر الى فلسطين ، وقد قرأنا فى الصحف السيارة أنه وقف رجل وامرأة في لندن فى غرفة « مختبر » تحتوي على آلة نقل الصورة (تليفيزيون) المدهشة التي تحمل الصورة « كما يحمل الراديو الصوت » الى مسافة الوف الأميال ، فشوهدت صورتها في غرفة « مختبر » آخر ، في بلدة قريبة من نيويورك . فكما نؤمن بهذه الحوادث المستندة على آلات وأعمال فنية ، يجب أن نؤمن بالحوادث التي أخبر بها خالق الفنون والآلات .

تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسساً معنوياً

التوجيه الثالث — قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ، ثقة منهم بفهم

---

(١) وفي هذه القصة كرامتان ، احداهما ان عمر (رض) اطلع وهو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند ، وان العدو اعد له كميناً في الجبل ، والثانية انه ناداه « ياسارية الجبل » فأسمعه ، كذا روى هذه القصة البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من المؤرخين .

المخاطب من أصحابهم عنهم ، كما جوزوا أن يقولوا : « ذُقتُ » لما ليس يطعم ، وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : « ذقْ » و« كيف ذُقته ؟ » أي وجدت طعمه ، قال الله تعالى : ﴿ ذُقْ إنك أنتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ (٤٤:٤٩)، وقال تعالى ﴿ فأذاقها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخوفِ ، بما كانوا يَصنَعُون ﴾(١٦:١١٢) وقال تعالى : ﴿ فذاقوا وَبالَ أمرِهم ﴾ (٥٩:١٥) ثم قالوا : « طعمتُ » لغير الطعام ، كما قال العَرْجيّ :

فإنْ شئتُ حرّمتُ النساءَ سواكم وإنْ شئتُ لم أطعَم نقاخاً ولا بَرْدا(١)

فنظيره ههنا قول سيدنا يعقوب : « إني لأجد ريح يوسف » حال كون كل من يوسف، وقميصه ليس له رائحة ، وإنما هو مجاز عن تحسسه بابنه تحسساً معنوياً على الوجه الذي يفهمه هو ، ويعلمه الله تعالى.

اقتباس يعقوب ريح يوسف بدون وساطة الحواس

التوجيه الرابع — ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلمَ من الموجودات بشراً أو غير بشر ، وهذا الاقتباس يكون بدون وساطة الحواس وبدون الاستنباط العقلي ، كما شاهده بعض الأطباء الماديين ، الذين كانوا ينكرون مثل هذا ، فانه روى عن مريض كان يعالجه ذلك الطبيب في مصر القاهره انه — أي المريض — قال : « إن فلاناً — وذكر قريباً له في الاسكندرية — يريد أن يسافر الآن إلى مصر ، لأجل أن يعودني في مرضي »، ثم أن هذا المريض عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ، ثم الوقت الذي وصل فيه الى محطة مصر ، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب ، وكان ذلك الطبيب ينتظره لاستبانة المكاشفة ؟؟..

(١) فقه اللغة ، والنقاخ كغراب : الماء البارد والنوم في العافية والامن ، والبرد :النوم.

وكان من اخبار هذا المريض انه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ، ويخرج من دمه مايبلغ وزنه كذا ، فكان كما قال !!.

هذه حكاية المريض ، فلم لايجوز أن يقتبس سيدنا يعقوب عليه السلام ريح ولده يوسف ، كما اقتبس هذا المريض ريح قريبه ؟ اللهم ان هذا جائز عقلاً ومروي نقلاً ..

وفي صحيح مسلم ، ان « أنس بن النضر » قال يوم أُحُد : « واهاً [1] لريح الجنة ، أجده دون أُحُدٍ » فقاتل فيه حتى قتل ، وقد ورد في الحديث الصحيح: « إن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائه عام » ، فكل هذا وما اليه يحمل على ماسبق.

ادراك يعقوب رائحة يوسف الهاماً بقلبه

التوجيه الخامس — تعلمون ان الادراك يكون حسياً ، أي بإحدى الحواس الخمس ، ويكون معنوياً ، أي بالقلب ، وأما الأول ، فلأن الله جعل في العين ، قوة باصرة ، كما جعل في الأذن ، قوة سامعة ، وفي الانف قوة شامة ، وفي الجلد قوة حاسة ، وفي اللسان قوة ذائقة .

وأما الثاني ، وهو ادراك القلب ، فهو انكشاف صورة المعلوم للانسان ، بحيث تكون نسبته إلى القلب ، كنسبة المرئي إلى العين مثلاً ، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى ، كما تبصر العين وتعمى ، قال تعالى : ﴿ فإنها لاتَعْمَى الأبْصارُ ، ولكنْ تَعْمَى القُلوبُ التي في الصدورِ ﴾ (٢٢:٤٦) ، فالقلب يرى ويسمع ويشم ويذوق ويحس ، بل هذه القوى فيه ، أبلغ من قوى الحواس الخمس ..

والخلاصة : الادراك نوعان ، إدراك بالحس ، وإدراك بالبصيرة ، فادراك

---

(١) واها كلمة تحنن وتلهف .

الحس وقوعه على نفس المحسوس أو مثاله الخارجي ، كرؤية وجه الانسان أو رؤية مثاله في المرآة والماء والصورة الشمسية ، وأما الادراك بالبصيرة ، فوقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي ، فيكون ادراكه له بمنزلة إدراك العين مثلاً ، للصورة الخارجية ، أو الأنف مثلاً « للريح » الخارجية ، وقديقوى سلطان هذا الادراك الباطن ، بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه ، فيغلب حكم القلب على حكم الحس ، فيستولي على السمع والبصر والأنف ، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج ، وكذلك يشم « ريحه »، وهو في النفس والذهن فقط ، لكن لغلبة الشهود ، وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب ، واستيلائه على القوى ، صار كأنه مرئي بالعين ، مسموع بالاذن ، مشموم بالأنف ، بحيث لا يشك المدرك في ذلك ، ولا يرتاب البتة ولا يقبل عذلا : وحقيقة الأمر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية ، تابعة للمعتقد .

فذلك الذي أدرك بعين القلب أو سمع القلب أو « أنف » القلب ، انما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فانّ شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ، ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والأرض ، فانه لو ظهر لها ، لتدكدكت وأصابها ماأصاب الجبل ، وكذلك شاهدُ نورِ العظمة في القلب ، إنما هو نور التعظيم والاجلال ، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والاكرام ، وهكذا هنا شاهدُ « ريح » يوسف ، ليس هو نفس رائحة يوسف ، ولكنه مثاله في العطر والشذا ، وأما نفس رائحته وحقيقتها ، فهي وراء ذلك ؛

فهذه الأمور التي قد يدركها الانسان ، انما هي شواهد تقوم بقلبه ، كمايقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها ، وهذا هو الذي وجده انس بن النضر (رض) يوم أُحُد ، لما قال : « واهاً لريح الجنة ، اني أجد ريحها دون أُحُد » ومن هذا قوله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »

— قالوا : وما رياض الجنة ؟ — قال : حِلَقُ الذكر » ، وقوله : « مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنه »، فهو روضة لأهل العلم والايمان ، لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة ، حتى كأنها مرئية لهم رأي العين ؛ ولكن إذا قصد المنافق هناك ، لم يكن ذلك المكان في حقه ، روضة من رياض الجنة ، ومن هذا حديث : « الجنة تحت ظلال السيوف » (انتهى ملخصاً من بعض كتب الصوفية).

وبناء على ماتقدم فلا مانع من أن المقصود من كلام يعقوب عليه السلام ، انه أدرك بقلبه إلهاماً رائحة يوسف ، ويقصد من تلك الرائحة « الأثر » من آثاره، كما يقال : « هذا الثوب أو هذا الكتاب أو السيف من رائحة فلان » اي هو اثر من آثاره ، فكأنه يقول : إني لقد القي في روعي وصار عندي وجدان قلبي ، من طريق الالهام ادركت به اثراً من آثار ولدي يوسف ، وهو القميص المزمع ان يكون عندي قريباً ».

جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوم تنويماً مغناطيسياً الاشياء

التوجيه السادس — للانبياء أحوال ، يغيبون فيها عن الناس الحاضرين ، ليجدوا ماغاب عن حواسهم ، من قبيل مايحصل عند المنوم تنويماً مغناطيسياً ، وهذا النائم يرى البعيد ، كما يرى القريب ، وتسمى تلك الحالة « بالرؤيا الواضحة »، وفيها يشعر الانسان ايضاً بالاشياء ، وان كانت عيناه مغمضتين ، بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه ، فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ كانون الاول سنة ١٩١٣ م ، انه نومت فتاة قبطية تنويماً مغناطيسياً ، فكانت تقرأ الساعة بمعدتها امام القضاة ، وكانت ترى الاشياء من قفاها ، ورأت مابيد أحد المحامين ، وعيناها معصوبتان ، ويد المحامي مقبوضة . فاذا تقرر هذا ، فهذه الحالة التي كانت حصلت ليعقوب عليه السلام ، ليست بأقل من حالة المنوم تنويماً مغناطيسياً ، بل هي أقوى وأرقى بكثير ، ومن النوادر التاريخية التي لاتبعد صحتها ، ماروي ان عمر رضي

الله عنه ؛ كان يخطب بالمدينة ، فصاح في اثناء خطبته : « ياساريةَ الجبلَ ، ياسارية الجبلَ ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ، ثم عاد الى الخطبة ، حتى قال فيه بعض الصحابة : « إنه جُنّ » ، ولما سئل رضي الله عنه عن ذلك ، قال بانه رآى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الاعاجم على أبواب « نهاوند » فصاح بقائدهم ليتحصن بالجبل ، وبعد ذلك جاءت الاخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون ، لولا أن « سارية » القائد ، سمع مع بعضهم هاتفاً يرشدهم الى الجبل ، فدهش الناس لذلك ، وعلموا منه مقدار نفس عمر وكبر روحه ، وهذه من اعظم مناقبه ، رضي الله عنه .

شواهد على ادراك الرائحة بالالهام القلبي

التوجيه السابع — كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه « زيد »(١) قتل في جيش اليمامة (٢) فكان عمر يقول : « ماهبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد » ولهذا قال أبو العلاء المعري من قصيدة له في كتاب اللزوميات :

والقلب يَغْرَى (٣) بما تُهدِي الرياحُ له
تحملها الريحَ من زيد إلى عمرا

فما كان يفهمه العرب في كلام عمر (رض) هو الذي ينبغي أن نفهمه في هذا القول الذي صدر من سيدنا يعقوب عليه السلام ، فالقول واحد ، فيجب أن يكون المعنى واحداً .

---

(١) القول انه اخوه مصرح به في « الاغاني » وفي « منهاج السنة » خلافاً لما فى ديوان ابي العلاء المعري من انه ابنه .

(٢) ارسل ابو بكر هذا الجيش في خلافته تحت قيادة خالد بن الوليد لبني حيفة في اليمامة حيث ارتدوا وآمنوا بمسيلمة .

(٣) من غري الرجل بكذا : اولع به ولزم ذكره .

ونظير هذا ما في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ، في أخبار « عروة بن الورد » وأحاديثه الحسان ، وقد كان مشهوراً بالسرقة والاحسان . رَوَى أنه جاء ليلاً ليسرق شيئاً ، فكمن في كَسْرِ بيت رجل ، كان غائباً عن زوجته ، فأتاها عبد زوجها ، وكان أسود — بعلبة فيها لبن ، وقال لها : « اشربي » — فقالت : « لا . . أو تبدأ » ، فبدأ الأسود فشرب . و « عروة » ينظر ، ثم جاء رجلها ، ودعا بالعلبة ليشرب ، فقال حين ذهب ليكرعَ : « ريح رجل وربّ الكعبة » ، يتهمها باتخاذ خِدن ، فقالت امرأته : « وأيّ ريح رجل تجده في انائك غير ريحك؟!» ثم صاحت فجاء قومها ، فأخبرتهم خبره وقالت : « يتهمني ويظن بي الظنون » ، فأقبلوا عليه باللوم ، حتى رجع عن قوله ، ثم أوَى الرجل إلى فراشه ، فوثب عروة الى فرس ذاك الرجل ، فذهب به ، فركب الرجل فرساً عنده اخرى ، وجعل يركض وراءه ، فلما انقطع عن البيوت ، قال له « عروة » : « أيها الرجل قف ، أنا عروة بن الورد ، وقد رأيت الليلة منك عجباً ، فأخبرني به وأرد اليك فرسك » — قال : « وما هو ؟ » — قال : « شممتَ ريح رجل في إنائك ، وقد رأيت أن الرجل حين آثرته زوجتك بالإناء ، وهو عبدك الأسود ، فقلت ريح رجل ، فلم تزل زوجتك تثنيك عن هذه حتى انثنيتَ ، فرأيتك في هذه الخصلة أكمل الناس ، ولكنك تنثني وترجع ! » فضحك الرجل وقال : « إن الذي رأيت من صرامتي وحسن فراستي ، فهو من قِبَل أعمامي ، ورأيت من ضعفي وعدم ثباتي ، فهو من قِبَل أخوالي ، وهم بطن من خزاعة ، والمرأة التي رأيت عندي ، امرأة منهم ، وأنا نازل فيهم ، وأنا منذ الآن لاحق بقومي ، وخارج عن أخوالي هؤلاء ، ومُخَلّ سبيل المرأة !!! » — فقال عروة : « خذ فرسك راشداً » — قال : « ما كنتُ لآخذه منك ، وعندي من نسله جماعة مثله ، فخذه مباركاً لك فيه ! » .

وفي الأغاني أيضاً: حدث عروة بن الزبير قال: سأل «كلابُ» بنُ أمية ابنَ الأسكر: «أي الأعمال أفضل في الاسلام؟» — «فقيل له: الجهاد»، فسأل عمرَ بن الخطاب فأغزاه في جيش مع أبي موسى الأشعري، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت عنه غيبة «كلاب» قال:

أناديه فيعرض في آباءٍ فلا وأبي كلاب ما أصابا
تركتَ أباكَ مُرعَشَةً يداه وأمك ماتسيغ لها شرابا
وإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا

وطالت غيبة «كلاب»، فأُهتِرَ (١) «أميةُ» وخلط جزعاً عليه، ثم أتى عمرَ يوماً، وهو في المسجد، وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه، ثم أنشأ يقول:

أعاذل قد عذلتِ بغير قدرٍ ولا تدرين عاذل ما ألاقي
فإما كنتِ عاذلتي فردّي «كلاباً» إذ توجّه للعراق
فتى الفتيان في عسرٍ ويسرٍ شديد الركن في يوم التلاقي
فلا وأبيكَ ما باليتَ وجدي ولا شغفي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليكَ إذا شتونا وضمّكَ تحت نحري واعتناقي
فلو فلق الفؤادَ حطام وجدٍ(٢) لهمّ سوادُ قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق رباً له دفعُ الحجيج الى بُساق(٣)
وأدعو الله مجتهداً عليـــه ببطن الأخشبين(٤) الى دُفاق(٥)

---

(١) اهتر الرجل: فقد عقله من كبر او مرض او حزن.

(٢) حطام الوجد: الحزن الذي يكسر القلب.

(٣) بساق: جبل بعرفات.

(٤) الاخشبان: جبلا مكة.

(٥) دفاق: واد.

إنِ « الفاروقُ » لم يردد « كلاباً » إلى شيخان[١] هامُهُما زواقي[٢]

قال فبكى « عمر » بكاءً شديداً ، وكتب بردّ « كلاب » إلى المدينة المنورة، فلما قدم دخل إلى عمر ، فقال له : « ما بَلَغَ من برّك لأبيك ؟ » ـ قال : « كنت أوثره وأكفيه أمره ، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً ـ أغزرَ ناقةٍ في ابله واسمنَها، فاريحها[٣] واتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها[٤] حتى تبرد، فاحتلب له فأسقيه » ، فبعث عمر إلى أميّة من جاء بـه اليه ، فأدخله يتهادى[٥] ، وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : « كيف أنت يا أبا كلاب ؟ » ـ قال : « كما تراني يا أمير المؤمنين » ـ قال : « فهل لك من حاجة ؟ » ـ قال : « نعم ، كنت أشتهي أن أرى كلاباً ، فأشمُّه شمة ، واضمّه ضمة قبل أن أموت » ـ فبكى عمر ثم قال : « ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى » ، ثم أمر « كلاباً » أن يحتلب لأبيه ناقة ، كما كان يفعل ، ويبعث اليه بلبنها ، ففعل ، فناوله عمر الإناءَ وقال : « دونك هذا يا أبا كلاب » ،فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال:« نعم والله ياأمير المؤمنين، أني لأشمُّ رائحة ولدي كلاب من هذا الاناء !!! » ، فبكى عمر وقال : « هـــذا كلاب عندك حاضراً قد جئناك به » ، فوثب إلى ابنه وضمّه اليه وقبّله ، وجعل عمر يبكي ومن حضره ، وقال لـكلاب : « الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ، ثم شأنك بنفسك بعدهما » ، وأمر له بعطائه ، وصرفه مع أبيه ، فلم يزل معـه مقيماً ، حتى مات أبواه !!!

ومن هـــذا القبيل قول امرأة « كعب بن الأشرف » : « إني لأسمـــع

(١) شيخان : هذا على لغة من ينصب ويجر المثنى بالألف

(٢) زقى الصدى : صياح ،والهام جمع هامة ، والصدى قيل هو طائر صغير يخرج من رأس الميت (على زعمهم) .

(٣)اراح الابل : ادخلها في المراح أي المأوي

(٤)اخلاف :جمع حلف بالكسر وهو صرع الناقة

(٥)التهادي : مشي فيه ثقل وتمايل وضعف

صوتاً ، كأنه صوت دم » ، وذلك ليلة قتله ، حينما ذهب اليه « محمد بن مَسلمة » ، فدعاه ليلاً ، فنزل كعب اليه ، فقتل .

فما يفهم العرب في سماع امرأة كعب صوت الدم من لفظ محمد بن مسلمة ، وفي شم أمية رائحة ولده كلاب من الاناء ، وفي شم زوج المرأة ريح رجل في علبة اللبن ، وفي شم سيدنا عمر رائحة أخيه زيد في كل ريح تهب من جهة اليمامة ـ مايفهمه العرب في هذا كله يجب أن نفهمه نحن في قول سيدنا يعقوب « اني لأجد ريح يوسف » ؟

انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع الريح

التوجيه السابع ـــ تعلمون ان المخلوقات قسمان: أجسام كثيفة وأرواح لطيفة، وان الارواح هي المؤثرة في الاشباح ، فاللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي كل ما يطرأ عليه ، ومن ذلك الفرح والحزن ، والرجاء واليأس ، والنمو والحركة ، والنور والظلمة ، والقبض والبسط ، والسمع والصمم ، والشم والخَشَم (١) ، والحر والبرد ، إلى غير ذلك .

خذ مثلا اليك :

١ً ـــ الهواء الذي لولاه لما عاشت هـذه الأحياء ، الهواء « روح » ولذلك كان من اسمائه إذا تحرك « الريح » ، وأصلها « رِوْح » بكسر الراء ، ولأجل الكسر قلبت الواو ياء .

٢ً ـــ الماء الذي منه كل شيء حي ، هو مركب من روحين لطيفين ، وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ، ولكنه الى الثاني أقرب .

٣ً ـــ الكهربائية ، فهي من الأرواح اللطيفة ، وناهيك بفعلها في الأشباح ،

---

(١) الخشم : بطلان حس الشم .

فهذه الموجودات اللطيفة التي تسمى أرواحا ، هي التي تحدث معظم التغيير الذي نشاهده في الكون ؛

إذا تمهد هذا نقول : إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل لسيدنا يعقوب رائحة يوسف ، مع بعض المخلوقات اللطيفة كالريح . فاخبر بذلك .

نحن نعلم أنه يصعب على كثير من الشبيبة العصريين الاعتقاد بأن رائحة قميص يوسف ، وهي من الأعراض قد انتقلت مع الهواء المتحرك من بلد إلى بلد آخر — يستصعبون هذا جموداً على العادات ، ولو كان لهم دليل عقلي على عدم ذلك ، لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم الا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ، ومنه مالا يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ؛ ونحن نقول : إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات ، قد يكون لها سبب خفيّ ، لم يقفوا عليه ، وشم سيدنا يعقوب رائحة يوسف لا ينزل عن ذلك ، وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقةً لنظام الأسباب ، لان الأسباب الظاهرة ليست واجبة وجوباً عقلياً مضطرداً ، وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ، ويعده مستحيلاً ، لأنه لم يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة ، كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر ، الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حُدّث به عقلاء الغابرين ، لعدّوه من خرافات الدجالين .

اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة

التوجيه الثامن — يقولون « نطقت الحال بكذا » ، وأن هذا استعارة مكنية ، بأن شبهت الحال بإنسان ذي نطق ، وحذف لفظ المشبه به وهو الانسان ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو النطق ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت

مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الانسان ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به وهو النطق ، قالوا : « وهذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به الا" تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار النطق للدلالة استعارة تصريحية تبعية » ، إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون « ريح يوسف » من هذا القبيل ، أعني استعارة مكنيه مرشحة ، وتقريرها أن يقال : شبه يوسف بالغيث ، وحذف لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الريح ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به ، وهو « الريح » ، ثم هذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار « الريح » للأَمَرَةِ والعلامة ، استعارة تصريحية أصلية ، وعليه فيكون المعنى : إني أجد — من الوجدان — علامة يوسف الشبيه بالغيث وقبل الختام نقول : من عجائب تفاوت أفهام البشر ، انه لا يزال الكثيرون ينكرون من أخبار الرمل مالم يألفوا ولا يرون المعروف منها إلا ما عرفوا ، وإذا قيل لهم فيه أو في مثله : إنه قد اكتشفه « المسيو » فلان ، أو « المستر » فلان ، أو « الهر" » علا"ن ـ قبلوه مذعنين ، وقالوا : إنه الحق المبين ، مع أن علم الكيمياء ، وعلم الكهرباء ، ونحوهما من العلوم الكونية ، قد وصلت اليوم إلى درجة ، لم يعد يستغرب معها شيء من أخبار علم الغيب ، لا سيما إذا كان المخبرون أخصائيين في هذا القبيل ، مثل الأنبياء والأولياء ؛

هذا ما فتح به الفتاح الكريم ، وفوق كل ذي علم عليم .

الاحفاد ينتقدون جدهم

آ(٩٥) ﴿ قالوا : تاللهِ إنّكَ لَفِي ضَلالِكَ القديم !!! ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخامسة والتسعون ، فقام الشيخ عبد الحق الطمومي [١] وقال :

ما كاد سيدنا يعقوب يتفوه بقوله : « إني لأجد ريح يوسف » أمام أحفاده الذين كانوا حاضرين حوله ، حتى بادروه مؤنبين منتقدين بنفس كبيرة ، وصوت جهوري ، و (قالوا) له (تالله) التاء ههنا حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قول جدهم « إني لاجد ريح يوسف » ،أو من استمراره على ذكراه إياه مع طول العهد (إنك)بإجداه (لَ) مستمر حتى الآن (في ضلالك) في ذهابك عن جادة الصواب ، المعروف أنت به منذ(القديم) منذ ولادة عمنا يوسف حتى الآن ؛ بسبب إفراطك لمحبته ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، في حين أنه قد مضى وفات ، وصار في عالم الأموات .

حقاً إنه ليدهشنا أيها السادة هذا الانتقاد بل التأنيب ، وإنا لندهش بنوع خاص ، كلما تصورنا أنه صادر من حفدة سيدنا يعقوب ، الذين لم يكونوا أقل انتقاداً عليه من أبنائه القائلين : « إن أبانا لفي ضلال مبين » بل كانوا مثل آبائهم حذو القذة بالقذة ، لأنهم تلاميذهم ، أخذوا عنهم دروس الملاحظة والنقد ، بل لعمري لقد فاتوا في القحة والبهت آباءهم من ثلاثة وجوه .

١ً ـــ الحلف باليمن الغموس ، وأما آباؤهم فانما طعنوا طعناً خلواً من اليمين .

٢ً ـــ المواجهة ، فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا

---

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

في غيبته ، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة ، وخاطبوه به خطاباً ، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها ، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً ، ولم يحتملوا أن يسمعوا منه رأيه الذي رآى ، قال الشاعر :

وقد أبرك من يرضيك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستتراً

٣ ـ تسجيلهم على جدهم بانه عاش ـ مع الأسف ـ في ضلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق ـ الى أن جاء فلسطين ـ إلى أن شُرِّد منها ـ الى مصر ـ الى هذا الوقت ، أي أنه في ضلال طيلة (٣٩) سنة ، ولذلك وصفوه « بالقديم » .

عدم الرد على السفيه اوجب لامتهانه من الرد عليه

وأما جدهم ، فلما سمع ذلك من أحفاده ، كبر عليه انتقادهم ، وهب جسمه ، وتمرمر في داخله ، وتنهد تنهداً عميقاً ولم يجبهم بحلوة ولا مرة ، كما كان أجاب أولاده الصلبيين ، قائلاً : (إنما أشكو بثي وحزني الى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون) بل اغتفر لهم حديثهم وخشونتهم ، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة ، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتمال ، أو كأنه سكت ولم يجبهم ، لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه ، وإن يكن مصيبة من المصائب ، لكن لاقيمة لمصائب الحياة ، بعد مصابه الذي كان نزل به ، بفقدان يوسف ، وتسريق بنيامين ، واحتباس رأوبين ، فلم يعلق جدهم أهمية على كلمتهم هـــذه ، بل سكت ، وفي سكوته مايغني عن الجواب ، فلعمري ان سكوته عن مجاوبتهم أوجب لامتهانهم من الرد عليهم :

قال الشاعر

قد أفلح الساكت الصموت فربما كلمـــة تميت
ما كل نطق له جواب جواب مايكره السكوت

وقال :

وأبعدُ من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقال :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل

وإن كان مثلي في محلٍّ من العلى سكت إذاً حلماً وصفحاً عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

وقد قيل : « ما تسابّ اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الاسفل » لذا لم يجبهم جدهم على قولهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » وقال « حذيفة بن بدر » لرجل: « أيسرك أن تغلب شر الناس ؟ قال نعم ، قال لن تغلبه حتى تكون شراً منه » ، وشتم رجل حكيماً ، فقال :« أ َسكُتُ فلست أدخل فى حرب ، الغالب فيها شر من المغلوب » ،

ومنه نتعلم أنه لا ينبغى لنا أن نكافىء السفيه على سفهه بمثله ، فإنا إن فعلنا ، قضينا له على أنفسنا ، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه ، فان كان أحدنا لا بد منتقماً ، فليكن مثلُه مثلَ « الأحنف بن قيس » ، إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُعلاً على أن يُغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ، ويُلحّ في ذلك إلحاحاً محرجاً ، والأحنف ساكت ، لا يقول شيئاً ، حتى ضاق بالرجل أمره ، فانقلب إلى قومه باكياً نادباً ، يأكل إصبعه أكلاً ، ويقول : « والله ما سكت عني إلا لهواني عليه » .

أحفاد يعقوب

وقبل الختام ، رب سائل يسأل : إذا كانت أولاده الاثنا عشر غائبين عنه : ثلاثة منهم بمصر ، وتسعة في الطريق مع العير ، فمن هم هؤلاء الناس الذين خاطبهم سيدنا يعقوب عليه السلام ؟ والجواب إنهم حفدته ، وهم أولاد أولاده ؛

فلابنه « رأوبين » أربعة أولاد ، ولابنه « شمعون » ستة أولاد ، ولابنه « لاوي » ثلاثة ، ولابنه « يهوذا » ثلاثة أيضاً،ولابنه « دان » ولد واحد ،ولابنه « نفتالي » أربعة ولابنه« جاد » سبعه ، ولابنه « أشير » أربعة،ولابنه «يساكر» أربعة بنين ، ولابنه « زبولون » ثلاثة ، ولابنه « بنيامين » ستة (تك ٤٦:٩-١٨) (والسنن القويم) .

فهؤلاء الحفـدة الخمسة وأربعون ، كلهم كانوا حوالي جدهم يعقوب عليه السلام بفلسطين ؛

هذا عدا الإناث ، وربما كان الإناث أيضاً ، خصوصاً بنات « ليئة » لهن دخل كبير في الانتقاد على أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام .

البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فلمّا أنْ جاءَ البَشيرُ ، ألقاهُ على وجهِهِ فارتَدَّ بصيراً ! قالَ : ألمْ أقُلْ لكم:إني أعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمُونَ ؟﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والتسعون ، فقام لسان الحق الحمصي وقال :

(فلما أن جاء البشير) وهو الابن الرابع يهوذا ، حاملاً قميص أخيه يوسف الرسمي المصنوع من الكتان ، دخل خيمة أبيه يعقوب ، ثم سلم ، فقال له أبوه : ما وراءك ؟ قال : « كل خير ... بشارتي عليك ، الرائد لا يكذب أهله ، يوسف حيّ » ثم أخرج القميص و (القاه على وجهه) على وجه أبيه يعقوب وعلى عينيه ، أي عرّضه لوجهه حتى رآه (فارتد) أي صار ـ لأن ارتد تأتي في اللغة العربية

فعلاً ناقصاً بمعنى صار ، فتكون من اخوات « كان » ـ (بصيراً) عالماً بالقلب ،عارفاً بما عليه يوسف ، لأنه قبل ذلك لم يكن عالماً بما لولده من جاه ومنصب .

ويجوزان المعنى : لما جاءالبشيرالقى القميص الكتان على وجه يعقوب وعلى عينيه ، فعوفي من شدة فرحه وسروره ، فرجع مبصراً ، هذا إذا حملنا « القميص » على اللباس الحكومي الرسمي ، فان حملناه على القميص المعنوي وهو المنصب على وجه الاستعارة ، كان قوله (ألقاه على وجهه) ترشيحاً للاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، ولا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار لمعنى يلائم المشبه ، كأن يقال هنا : إن معنى (ألقاه على وجهه) عرفه به ، أي القاه على ذاته وأحاطه به علماً ، (قال) لهم أبوهم ، بصوت التقريع واللوم ، يا بني ، لم يزل فكري عالقاً بالجملة التي كنت أرسلتها لأسماعكم (ألم أقل لكم) سابقاً ، «اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟ » ثم ألم أقل لكم : « إني لأجد ريح يوسف ؟ »ـفمقول القول محذوف،لأنه معلوم للمخاطبين ـ وعليه فقوله:(إني أعلم من الله مالا تعلمون) كلام مبتدأ ، لم يقع عليه القول ، ويحتمل أن المعنى:ألم أقل لكم سابقاً « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » وعليه فهو هو مقول القول ، وإذا جرينا على الاحتمال الأول ، وقفنا على كلمة « لكم »،وبدأنا بقوله:إني أعلم..الخ وإذا جرينا على الاحتمال الثاني لم يجز الوقف على كلمة « لكم » ، بل يجب وصل الكلام بعضه ببعض لقوة الارتباط بين القول والمقول .

(جيد)

(فلما أن جاء البشير .. الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ ابراهيم الأزهري[١] :

وصول البشير والقاؤه القميص على وجه يعقوب

سبق أن أولاده الصلبيين انتقدوه حين تولى عنهم وقال :« يا أسفاً على يوسف وابيضت عيناه من الحزن » فقالوا له:« تالله تفتأ تذكر يوسف ،حتى تكون حرضاً، أو تكون من الهالكين » فقال لهم : « إنما اشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وسبق وما بالعهد من قدم — أنه قال :«إني لأجد ريح يوسف» فقامت أولاد أولاده عليه ، وانتقدوه على كلامه انتقاداً مراً،وما هي إلا سويعات قليلة ، حتى وصلت العير ، فاستعجلوا البشير الذي يحمل قميص يوسف وهو يهوذا بالذهاب والتقدم إلى أبيهم ،لينبئه برجوعهم ويبشره بحياة يوسف ومركزه الرسمي، وفيما يعقوب جالس في خيمته إذا بالبشير « يهوذا » قد دخل عليه وهو يصيح صياح الفرح قائلاً له : لتهنأ بحياة يوسف ، وانه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » وهذا هو لباسه الرسمي الذي يدل على نوع رتبته في البلاط الملكي المصري !

فلم تكد تموجات هذا الصوت تدرك طبلة اذن والدهم حتى انفتح صدره ، وانتعشت آماله وحيي رجاؤه ، فأطرفه بالقميص الكتاني ، وألقاه على وجهه ، فأبدل من ابيضاض عينيه الناتج عن الحزن ، فارتد بصيراً ، وبرح الخفاء ، وظهر الصبح لذي عينين ، اذ تبدل مرضه بالصحة ، وضعفه بالقوة ، وحزنه بالفرح ، وبكاؤه بالضحك ، وتبلبل أفكاره بالطمأنينة ، وإنكسار قلبه بالجبران ، وأسفه بالرجاء ، فارتقى نظره الى دور السلامة كأنما في اضعاف هذا القميص جميع عقاقير

---

(١) نسبة إلى الجامع الأزهر في القاهرة (مصر) .

الصحة ، وكل قطرات الشفاء ، أو كأنما هو حلةمن حلل الجنة ، من لبسها عوفي من كل سوء ، ومن هذا القبيل استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة أرض المحبوب ، كما قال :

وإني لاستشفي بكل غمامـــة تهب بها من نحو أرضـك ريح

والتعبير بارتداده بصيراً تواً عقب إلقاء القميص على وجهه ، تصوير للقاريء الكريم ، لما كان في ذلك الموقف الرهيب ، من انقلاب سريع وتطور مدهش .

ومالبث يعقوب أن قال لأبنائه وأحفاده ، بلسان الفرح أو الاحتجاج،سامحكم الله ، ياأولادي وياأحفادي ، ألم أقل لكم سابقاً ولاحقاً ، اني أعلم من أسرار غيب الله مالا تعلمون ؟ وليس المخبر بالعلم كالراجم بالظنون ، فـــلم أكن أنطق بذلك جزافاً ، ولم أكن كالحاكي (الفونوغراف) ينقل الصوت بلا شعور ولا إرادة ، بل كنت أتكلم معكم بكلام أقصده قصداً ، وأفهم معناه جيداً ، وأشعر بمراميه، وأتأكد اقتراب وقوع مضمونـــه لامحالة ، لأنني لا أتكلم إلاّ عن الله تعالى ، ولكني كنت أجمل لكم القول إجمالاً ، ولم أقله لكم بالتفصيل ، لأنه ما كل ما يعلم يقال ، وأما الآن فقد زالت الرغوة ، وبدا الصريح .

(فلما أن جـاء البشير ... الخ)

— ٣ —

وقال لطفي باشا النابلسي :

خصائص قميص البشارة ورده بصر يعقوب

حكي انه اجتمع في بعض الأزمنة ملوك الأقاليم ، من الصين والهند وفارس والروم ، وقالوا : « ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدوّن عنه على مدى الدهر»:

فقال ملك الصين : « أنا على مالم أقل ، أقدر مني على رد ماقلت ».

وقال ملك الهند : « عجبت لمن يتكلم بالكلمة التي إن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أو بقته »

وقال ملك فارس : « أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ، وإذا لم أتكلم بها ، ملكتها » !.

وقال ملك الروم : « ماندمت على مالم أتكلم به قط ، ولقد ندمت على ماتكلمت به كثيراً ».

إذا كان الأمر هكذا ، فكم ندم أولاد يعقوب عليه السلام وأولاد أولاده على كلامهم السابق الذي أوقعهم في الخجل ، وسجّله عليهم التاريخ في باب السباب والشتائم والوقاحة ، ولهذا قال تعالى (فلما أن جاء البشير) يحمل على يده نعمة الخالق الى المخلوق .. يحمل على يده النبأ العظيم الذي كان يعقوب يستشرف اليه منذ (٢١) سنة ، يحمل ليعقوب السرور والغبطة والفرح والجذل ، يحمل ليعقوب الحياة الجديدة ، حياة اللقاء بعد الفرقة ، حياة ثلج الصدر بعد الحرقة ، يحمل ليعقوب نبأً أن فريسة « الذئب » هو في قيد الحياة ... يحمل ليعقوب نبأً أن العبـــد المملوك أصبح مالكاً .. وأن نزيل الجب أصبح فوق العرش ... يحمل ليعقوب أن ابن البادية ، الذي كان يرعى الغنم ، قد أصبح اليوم يرعى رعيةً له هي أهل مصر . يحمل ليعقوب أن صاحب الأحلام ، قد آن للكواكب أن تخر له سجداً ، وأخيراً يحمل ليعقوب اللباس الرسمي مع الرتبة السامية الموجهة عليه من لدن مليك الديار المصرية ، وعند ذلك ألقاه على وجه هذا الشيخ البائس ، وبما في هذا « القميص » من البلاسم الشافية لجراح العيون ، ومن القطرات الممتازة المزيلة لغشاوتها البيضاء ، نشط وأحس بحركة لايعبّر عنها الا بالمجرى الكهربائي ، فارتد بصيراً ، لأن صحة بصره شرعت تتراجع اليه ، وجعل نشاطه يدب فيه دبيباً ، وابتدأت عيناه تقبلان على الشفاء ، فما مضى أقل مدة يمكن فيها عادة الشفاء

إلا وقد عوفي وشفي ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، كما يقال تزوج زيد فولدله ، فهذه الفاء هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ ثمَّ شقَقْنا الأرضَ شقاً ، فأنبتْنا فيها حبّاً وعِنباً وقَضْباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائقَ غُلْباً ، وفاكهةً وأبّاً ﴾ (٨٠: ٢١ – ٣١) ، وقوله : ﴿ والذي أخرجَ المرعى ، فجعَلَه غُثاءً أحْوى ﴾ (٨٧: ٧و٨) وقوله : ﴿ أصابَها وابلٌ فآتتْ أُكُلَها ضِعْفَين ﴾ (٢: ٢٦٥) ، وقوله : ﴿ فأنزَلنا بِهِ الماءَ ، فأخرجْنا بهِ مِنَ كلِّ الثمراتِ ﴾ (٤٣: ٥٦) وقوله ﴿ خلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً ، فجَعَله نَسَباً وصِهْراً ﴾ (٢٥: ٥٤)

تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه

وبهذا يكون الله قد صدّق قول يوسف : « يأت بصيراً » بالفعل ، فيوسف من عباد الله الذين اذا أرادوا أراد ، كما ان الله أيضاً بمجيء البشير بالقميص صدّق بالفعل قول يعقوب « إني لأجد ريح يوسف »، فيعقوب من الذين إذا وجدوا الشيء تلميحاً ، وجدوه فيما بعد صريحاً .

أثر المحبوب قد يسبب الشفاء والمعافاة . لا سيما متى كان ذلك الأثر يبشر باللقاء، كما في هذه الحادثة ، وعلى العكس ربما ان اثر المحبوب قد يسبب الغشيّ فالموت، إذا كان ينذر بعدم اللقاء .

وبعد فمن غرائب التاريخ ، ونوادر الحوادث ، ان الذين يحملون في هذه المرة « القميص » الحاضر . الذي يشير إلى حياة يوسف ، وقد نشأ منه سرور ابيهم ، هم الذين كانوا حملوا « القميص » الماضي ، الذي كان يشير إلى موت يوسف، وقد نشأ عنه حزن أبيهم!!...

واخيراً أختم كلمتي هذه بالتعليقات التالية :

العلم يقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر يعقوب بالقاء القميص عليه

١ — أتى على الانسان حين — وهو يعتقد ان الضياء الساطع في ظلام الليل لا يكون إلا من طلعة القمر ، او من لهب النار ، فاذا آنس تحت جناح الليل نوراً يتألق بمكان بعيد ، لم يرتب في انه بهرة قمر ، او شعلة نار ، فلم يشعر إلا وقد انضم الى القمر والنار عنصر من عناصر الإنارة وهي « الكهرباء » فلو لم يخترع التنوير بالكهرباء ، وكان فيما نقل من معجزات الرسل إنارة بعض الاجرام من غير ان تمسه نار ، لقال الذين في قلوبهم مرض ، إن الإنارة إنما تنشأ عن لهب النار ولا سبيل الى تحقق الأثر ، متى فقد سببه .

٢ — زعم بعض المرتابين في المعجزات أن قطع المسافة الشاسعة ، كما بين « المسجد الحرام » إلى « المسجد الأقصى » في ليلة واحدة أو بعض ليلة — أمر لا يحتمله الإمكان ، ولا يتقبله العقل ، ولكن هذا الأمر الذي كانوا يذكرونه بوصف المحال قد كشف العلم الصحيح عن إمكانه ، وأخرجه للناس في جملة الكائنات المبصَرة ، فهذه سكة الحديد التي قيل فيها :

هذا «وَبُورُ البر» أكبر حجة إن تنكرِ الاسراءَ « للمختار »
إن كان صنع هـذا العبد سيَّرَهُ فعلام تنكر صنعة « القهار »

بل إذا تمكن المخلوق باختراع « الطائرة » أن يجعلك تقطع المسافة القاصية في مدة وجيزة ، فماذا يكون شأن قدرة الخالق التي هي أبدع تقديراً وأحكم صنعاً ؟..

٣ — كان الفلاسفة يعتقدون أن الوزن هو من خصائص ما يوصف بالخفة والثقل من الأجسام ، وقالوا : « لا نفهم لوزن الأعراض معنى يعقل » ، وماراعهم إلا أن صنع بعض العلماء « ميزان الحرارة والبرودة » وأراهم أن وزن الأعراض

هو من قبيل الممكنات ، وأن للوزن طرقاً غير ما تعرفه الباعة في الأسواق .

٤ — لو كان النبي ﷺ قال: « إن في هذا الماء الذي تشربونه حيوانات تذهب وتجيء » ، ولم يكن قد اخترع المنظار المكبر (مكرسكوب) لأنكر ذلك كثيرون من ضعفاء الايمان ، ولكن الاكتشافات الجديدة جعلت ذلك ممكناً ، بل من الحقائق الراهنة .

إلى غير ذلك مما يفوقه ، ولا يأتي عليه الاحصاء ، فيجب علينا الايمان بأنه حينما ألقي القميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً ، فذلك ممكن ، والله قدير على كل شيء . (مرحى)

طلب الاستغفار

ا (٩٧) ﴿ — قالوا : يا أبَانا استَغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا ، إنَّا كُنا خاطِئينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية السابعة والتسعون ، فقام فيض الله الكرمي وقال :

(قالوا) أي ابناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة، وقد تزاحمت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل : (يا أبانا) نعم ، قلت لنا : إنك تعلم من الله مالا نعلم، ولكنا — مع الأسف — كنا في سبات عميق ، فأنت غير كاذب ولا مُكذَّب ، ونحن الخطأة الأثمة ، ما من ذلك بد ، وحيث قد اعترفنا (استغفر لنا ذنوبنا ، إنّا كنا خاطئين) ، خاطئين أولاً بارتكابنا جرماً يستحق العقاب ، وخاطئين ثانياً بافترائنا حادثة ليس لها نصيب من الصحة، وخاطئين ثالثاً بقطعنا رحم أخينا ، وخاطئين

رابعاً بعقوقنا لك والحاقنابك الأذى والحسرة والفكرة ، وخاطئين خامساً بحقارتنا لأنفسنا بتلك الأعمال الشائنة ؛

وبالجملة نحن حشو الخطيئة واعضاء الجريمة ،والهيكل العظمي للحوب الكبير، فتكراراً ومراراً نقول : (استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) .

(قالوا : يا أبانا استغفر لنا .. الخ)

— ٢ —

وقام ابو الخير اللدي وقال :

ابناء يعقوب يطلبون من أبيهم ان يستغفر لهم ذنوبهم

تقدم أن أباهم قال لهم : « ألم أقل لـكم إني اعلم من الله مالا تعلمون ، فما كنت تنبأت به هاهو قد حصل »، ـ قالوا : « نعم ، ذلك العتبى » ـ قال : « فاذن : الفريقين الآن قد تفاهمنا واتفقنا وارتفع الخلاف من بيننا » ـ قالوا : « يا أبانا »ـــ قال : « قد سمعت » ـــ قالوا « استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين إننا لا نقدر أن نصف خجلنا منك ،وخطأنا اليك وإلى الله،لما سببناه لك من البث والحزنوالحسرة والأسف ، مع البكاء والسهر والفكر ، لإبعاد ابنك عنك ، وتشريده من وطنه، نحن مدينون لك وإلى الله ، وقد خطئنا اليك وإلى السماء ، وأنت تعلم إنّا ما كنا في موطن منذ عقلنا ألا أنـّا نعرف فيه أمرنا ، غير موطننا هذا ، فكأنما هجمناعليه متسرعين ، بدون حردٍ ، ولا إعمال روية ، وبلا نظر في العواقب ، وكأنالقضاء السماوي جعلنا آلة لتنفيذ ذلك الأمر ، الذي رأينا اليوم عاقبته حميدة ، والحمد لله ، ولقد قيل : « النتيجة تبرر الواسطة » ، ومع كل هذا ، ورغماً عن كل ما نقول ، فنحن من حيث أننا لم نكن نقصد خيراً ، بل شراً،نعترف بالخطأ ، نعترف بالحوب

الكبير ، تعترف بالذنوب إلى الله وإلى أبينا وأخينا ، فلا..ولا .. وإنّا..وإنّا ..».
واليك المواد التاليه على الآية الكريمة :

الشفاعة وأنواعها وحكمها

المادة ١ — اتخذوا أباهم شفيعاً بينهم وبين ربهم ، لأن شفاعة أهل التقى لأهل التقى مشروعة مأذون فيها مرجوة الإجابة ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ، ورَضِيَ لهُ قولاً ﴾ (٢٠ : ١٠٩) ، وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لمن ارتضى ، وهم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون ﴾ (٢١ : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذين يَدْعونَ مِنْ دُونِهِ الشفاعةَ ، إلا مَنْ شَهِدَ بالحقِ ، وهم يعلَمون ﴾ (٤٣ : ٨٦) وقال تعالى : ﴿ يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً ، لا يتكلَمون إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ، وقال صواباً ﴾ (٧٨: ٣٦ و ٣٧) وقال تعالى: ﴿ لا يَملِكون الشفاعةَ إلا مَنْ اتخذَ عند الرحمنِ عَهْداً ﴾ (١٩ : ٨٨) ، فهذا موطن الشفاعة المثبتة، التي شرطها الإذن للشافع ، والرضا عن المشفوع له ؛

وأما الشفاعة المنفية ، فهي شفاعة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة الباطلة ، أو كان المشفوع له من أهل الشرك أو الكفر ، فهذه لا جرم هي الشفاعة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ ويَعبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم، ويقولون : هؤلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللهِ ، — قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعلَمُ في السمواتِ ولا في الأرضِ ؟!! سبحانه وتعالى عما يُشرِكون ﴾ (١٠ : ١٨) وقوله تعالى : ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المُجرِمونَ ، ولم يكنْ لَهُم مِنْ شُرَكائِهِم شُفَعاءَ ، وكانوا بِشُرَكائِهِم كافرين ﴾ (٣٠ : ١٢ و ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أمْ اتخَذُوا مِنْ دون الله شُفَعاءَ ؟ قل : أوَلَوْ كانوا لا يَملِكون

شيئاً ولا يَعقِلون ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له مُلْكُ السموات والأرض ، ثم اليه تُرجعون ﴾ (٣٩ : ٤٣ و ٤٤) وعلى ذلك تحمل باقي الآيات التي تنفي الشفاعة وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ، ولا يُقبَلُ منها عدلٌ ، ولا تنفعها شفاعةٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢:١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفِقوا ممّا رزقناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ ، لا بيعٌ فيه ، ولا خُلّةٌ ، ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢ : ٢٥٤) ، فبهذا يجمع بين الآيات التي ذكرت فيها الشفاعة نفياً واثباتاً ، ويعلم أن شفاعة سيدنا يعقوب لأولاده هنا هي من قبيل الشفاعة المثبتة ، والله تعالى أعلم .

سبب طلب الاخوة الاستغفار من ابيهم ولم يطلبوه من اخيهم

المادة ٢ — هنا يتساءل المتسائلون : لماذا لم يطلبوا الاستغفار لانفسهم من أخيهم ، وإنما طلبوه من أبيهم فقط ؟

وجوابنا عنه ما يلي :

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين ، ومن جهة أخرى أباهم ، رأوه (طبعاً) أهلاً لأن يسألوه الدعاء لهم ، وأما سيدنا يوسف فلما كان من جهةٍ أخاهم الأصغر ، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلاً مدنياً ، وحاكماً ادارياً ، ووزيراً مالياً ، ولم يعلموا أيضاً أنه نبي — لم يطلبوا منه الاستغفار ، ولكن ذكروا له ما يَسُرّ الرجال المدنيين ، والحكام الاداريين ، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران ، فقالوا له : « لقد آثرك الله علينا » ومع أنهم لم يروه (في نظرهم) أهلاً أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فقد رآى هو شخصه أهلاً لذلك ، لأنه أعرف بنفسه منهم ، فقال : « يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرحمين» .

مذهب السلف والطوائف الاسلامية الاخرى في النجاة والايمان

المادة ٣ — طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم ، ليكونوا من الناجين ، فان العبد لا ينجو بالايمان فقط ، ولكن به وبترك سيىء الأعمال ، وفعل صالحها ، والتوبة إلى الله تعالى ، وهذا هو مذهب « السلف » خلافاً « للمُرجئة » — وهم طائفة يُرجئون الأعمال ، أي يؤخرونها ، فلا يقيمون للأعمال الصالحة وزناً في الخلاص ، وإن كان لها ثواب ، وإنما الخلاص بمحض الإيمان ، كما لا يقيمون وزناً للمعاصي في الهلاك ، وإن كان عليها عقاب ، وإنما الهلاك بالكفر فقط ، وعليه فهم يقولون : المؤمن يستحق الجنة بالايمان فقط ، دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر ، دون بقية المعاصي ، وكأن مصدر هذا الخلاف ، الخلاف فيما هو الايمان ، فالسلف الصالح يقولون : « الايمان هو اعتقاد وقول وعمل » وهؤلاء يقولون : « الايمان هو الكلمة والعقد ، دون الاعمال » — « والخوارج » يكفرون مرتكب الكبيرة ، لجعلهم العمل من الايمان ، فهم بعكس المرجئة و وأما « المعتزلة » فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطى بين المؤمن والكافر ، وانه يخلد في النار ، ولكن عذابه دون عذاب الكافر .

تعليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع

المادة ٤ — رب سائل يسأل : لماذا قالوا : (ذنوبنا) بصيغة الجمع ، مع أنه ذنب واحد ؟ وجوابنا عن دلك من ثلاثة وجوه :

١ً — أنهم اتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم ، لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب ، فهو نظير: ركب القوم دوابهم ، ولبسوا عمائمهم .

٢ً — لأن ذلك الذنب الواحد مربع في الحقيقة ، باعتبار أنهم خطِئوا إلى

الله ، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى اشخاصهم وضمائرهم ، وشريعتي العقل والنقل .

٣ً — إن الذي اجترموه ليس هو ذنباً واحداً، بل هو ذنوب كثيرة :حسدوا أخاهم ، بغضوه من غـــير ما جرم ، ضللوا أباهم ضلالاً مبيناً ، تآمروا على قتل أخيهم أو طرحه أرضاً أو القائه في غيابة الجب ، وأخيراً قرروا هـذه المشورة النهائية ، لعبوا على أبيهم دوراً مهماً ، نصبوا أمامه الا حبولة فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه وقالوا له : وإنا له لناصحون ، ولكن غشوه ، وعدوا أنهم سيحفظونه، وأخلفوا وعدهم ، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء ، ألقوه فعلاً في غيابة الجب ولم يرحموه ، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم ، بل والرحم التي بينهم وبين أبيهم ، عقوا بذلك أباهم ، أحزنوا بذلك بنيامين ، بكوا كذباً ، قالوا أكله الذئب كذباً ، جاؤا على قميصه بالدم كذباً ، أقر بعضهم بعضاً على الكذب كذباً ، إلى غير ذلك مما يظهر للمتأملين ، فلهذا قالوا : (استغفر لنا ذنوبنا) بصيغة الجمع ، وكان أقل هذا الجمع ثمانية .

لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم

المادة ٥ — طلبوا الاستغفار من أبيهم لأن ذنبهم هذا لم يكن ظلماً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم فيكفي فيه استغفارهم لانفسهم بأنفسهم — بل كان ظلمهم تعدى إلى ايذاء أبيهم ، من حيث أنه أب ، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لاسباب جوهرية ، وحِكَمٍ عالية يعرفها هو ، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ماصدر منهم،أن يظهروا ذلك لأبيهم ، ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه ، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم تعديهم عليه وعلى أخيهم وأخيهم ، فان

التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس ، لا تكون مقبولة ولا صحيحة ، إلا بعد استرضاء صاحب الحق .

وهناك وجه آخر في طلبهم من أبيهم الاستغفار لهم ، وهو أن مشاركة الناس بعضهم لبعض في الدعاء مسنونة ، وان من سنته تعالى ، أن يتقبل من الجماعة ، باسرع مما يتقبل من الواحد ، فدعاء الجماعة أرجى للاجابة ، وإن كان كل داع موعوداً بالاستجابة ، وإنما كانت المشاركة في الدعاء ، أرجى للقبول ، لأن الداعي للناس يؤدي هـذه العبادة بسببهم ، أي أن ذنوبهم تكون هي السبب في شعوره واحساسه بالحاجة إلى الله تعالى والخضوع له والاتحاد المرضي عنده، فكأن حاجتهم حاجته ، فإذا كان يعقوب (ع) هو الداعي والمستغفر لأولاده اولئك التائبين مع استغفارهم هم ، فذلك من اشتراك قلبه الشريف مع قلوبهم بالحاجة إلى تطهير الله لهم من دنس الذنب، وطلب النجاة من عقوبته ، وناهيك بقرب أبيهم يعقوب (ع) من ربه ، والرجاء في استجابة دعائه .

فان قلتم أين مشاركتهم لأبيهم في التوبة والاستغفار ، حتى يتم هـذا التوجيه الذي ذكرتـه ؟ قلت طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم مع قولهم « انا كنا خاطئين » هو توبة واستغفار ، فمعنى كلامهم : ياأبانا ، هانحن أولاء نعترف بذنوبنا وخطأنا ، ونستغفر لذلك ربنا ، فشاركنا في هذا الالتجاء والخضوع ، نعم ، نحن نعلم أن الله أقرب من حبل الوريد لعباده ، لكنا نريد من هذا أن نقر لك أولاً بخطأنا معك ومع الله ، ونريد ثانياً أن يكون طلب المغفرة لنا من الخالق ، بلسان المخلوق الذي كنا قد أخطأنا اليه ، ليكون ذلك أدعى الى مغفرة الله لنا ، فان الله أكرم من كل ماسواه .

« اصوات متزاحمة من المؤتمر »

(مرحى) (قالون) (جيد) (أحسنت) (ليعش جميع أهل الله ، لأجل خاطرك ياأستاذ)

تسويف الاستغفار

آ (٩٨) (ـ قال : سوفَ أستَغفِرُ لكم رَبّي ، إنّه هُوَ الغفورُ الرحيمُ)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الثامنة والتسعون ، فقام ابو الفضل الطنطاوي وقال :

سمع منهم أبوهم توبتهم وطلبهم الاستغفار فـ (قال) لهم : وإن يكن هذا منكم إنما كان بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة ، فلا عليكم ، أما أنا فلا موجدة في قلبي نحوكم ، لأن الأيام ، تمحو الآثام ، ولأني أب ، والأب يحن بطبعه لأولاده ـ على مافيهم ـ ؛ هما يومان ياأبنائي ، وهما قميصان ، فمنذ ٢١ سنة جاءني « قميص » ينعي اليّ يوسف ، واليوم جاءني « قميص » يحمل بشرى حياته وعزّه ، نعم نعم ، منذ ٢١ سنه حُمِل اليّ « قميص » أبكاني فابيضت عيناي ، واليوم حُمل اليّ « قميص » ردّني بصيراً ، والدنيا كلها ماضية ، والحمد لله على كل حال ، والله يغفر لي ولكم ولجميع من كان مخلوقاً من الماء والطين ، فهذا ما كان من جهة حقي ،لاسيما وغريمكم يوسف ، غفر لكم ورضي عنكم ، فأنا إذن لا يصح لي أن أتقاعس عن مسامحتكم ،لئلا يقال : « رضي الخصمان وأبى القاضي » ، وأما من جهة حق الله تعالى فإنيْ والله (سوف استغفر لكم ربي) أذاتَكُمْ ، فهو حقيق بالمغفرة،خليق بالرحمة (إنه هو الغفور الرحيم) وكفى ! فهو تعالى يُقيل عثرة الخاطئين ، وينهضهم من كبوتهم .

وهنا ملاحظات :

اسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده

الملاحظة الأولى — أجابهم بالتسويف والمهادة لأسباب :

١ً — ليتعرف حالهم في صدق التوبـة وإخلاصها ، لأنه مامن شيء يفنى في الطبيعة ، وإنما الاشياء تتبدل مظاهرها .

٢ً - لحينما يذهب الى المعبد الذي كان علمّه بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين الى العراق الى خاله « لابان»(١) ، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلاً من « القدس » وعلى الشمال منها على جبل افرايم ، وبعبارة أوضح : هذا المكان يسمى « بيت إيل » وهو الى شرقي خط يمتد من « القـدس » الى « نابلس » على بعد واحد من كلتا المدينتين ، ويسمى اليوم « بتّير ».

٣ً — لحينما يصل في طريقه لمصر الى « بئر السبع » فيدخل المعبد الذي كان بناه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام (٢) وهناك يستغفر لهم ، لأنـــه لايرى أنسب وأقرب لاجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني ، فكأنه رآى أن طِلْبَتهم هذه سابقة لمكانها ، ومكانها هو هذا المعبد ؛ قال أبو الطيب المتنبي :

ومِنَ الخيرِ بطءُ سَيْبكَ عَنّي أسْرَعُ السُحبِ في المسيرِ الجهامُ

أي تأخر عطائك عني يـــدل على كثرة ذلك العطاء ، لأن اسرع السحائب سيراً أقلها ماءً .

٤ً — لبعدما يجتمع بيوسف ويراه قد صفح عنهم تماماً ، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه ، ولم يبق الا حق الله تعالى ، فلا يكون بعدُ مانع من استغفار الله تعالى لهم .

---

(١) انظر تك ٢٨ : ١٠ـ١٩

(٢) انظر تك ٢١ : ٣٣ و ٣٦ : ٢٥

٥ً — أخر ذلك جرياً مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والتأني في سائر الأمور مطلقاً .

٦ً — لحين تكون فيه الاجابة أقرب ، كما قال تعالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحارِ ﴾ (٣:١٧)، لأن النفس تكون حينئذ أصفى ، والقلب أفرغ من الشواغل ، كما نقل عن بعضهم انه قال : « لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق في الأسحار — ماأحببت البقاء في هذه الدار ».

٧ً — شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الانسان مصراً على الذنب ، وبما أن أباهم لم يرهم في حال تدل على الاقلاع والندامة بالمرة ، بخلاف يوسف ، فانه ربما يكون قد رآهم ، بحال تدل على الاقلاع والندامة ، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف ، فرأى انه لامانع شرعاً من أن يطلب لهم المغفرة ، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا ذلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع ، لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حريتهم مع أخيهم « وزير المالية » و« عزيز مصر » و « وكيل الملك » فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح ، وندمهم الخالص ، لاسيما وقد سبق أنه رأى منهم الحيل ، وجرب عليهم الختل ، وأنهم يظهرون خلاف مايبطنون .

٨ً — يرى بعض الناس — ولعل سيدنا يعقوب منهم — أن الوعد بالخير أفضل من اعطائه بغتة ، مثلاً : « منصور بن زياد » كلّم « يحيى بن خالد »في حاجة رجل ، فقال له : « عِدْهُ عني قضاءَها » — فقال منصور بن زياد : « وما يدعوك الى العِدَة مع القدرة ؟» — فقال :« هـــذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجحها لم تتحدث النفس بسرورها، إن الوعد مَطْعَمٌ ، والانجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام ، كمن وجد رائحته ، وتَطَعَّمه ثم طعمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المُصْطَنَع حسن موقع ، ولطف محل ».

وقال بعض البلغاء : « دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ».

هل وفى يعقوب بوعده لأولاده بالاستغفار لهم

الملاحظة الثانية — سمعنا أن سيدنا يعقوب وعد أبناءه بالاستغفار ، ولكن لم يبلغنا انه استغفر لهم ربه كما وعد ، والجواب عن ذلك : اننا نتأكد يقيناً وقوع ذلك منه ، لأن وعد الحُرّ دَين ، وكما أن الله لايخلف الميعاد ، فمظاهر أمره عليه الصلاة والسلام كذلك ، ولا يسعنا أن نعتقد في سيدنا يعقوب الا انه كما قال أبو الطيب المتنبي :

أمضى ارادَتَه (فسوف) له قَدٌ ... واستقرب الأقصى (فثَمٌّ) له هُنا

أو كما قال :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

هجرتا يعقوب

الملاحظة الثالثة — نعلم من التاريخ أن يعقوب عليه السلام هاجر من فلسطين التي هي مسقط رأسه ووطنه الأصلي — هجرتين ، الهجرة الاولى للعراق ، وهذه كانت شخصية ، أي بشخصه فقط ، حينما كان أبوه في قيد الحياة، وكانت «للخوف» من شر أخيه « عيسو » وهرباً من أن يقتله ، ومدة هذه الهجرة كانت ٢٠ سنة ؛ والهجرة الثانية لمصر ، وهذه كانت عمومية ، بجميع الأسرة ، وكانت — طبعاً — بعد وفاة أبويه ، « إسحاق عليه السلام ، وليئة رحمها الله » ، وهذه الهجرة كانت لدفع ونفع : أي لدفع الجوع والانتفاع بالغذاء ، وان شئتم قلتم : كانت رَهباً ورَغباً ، أي رهبة من القحط ، ورغبة في لقاء يوسف ؛

وبعبارة أخرى : كانت هذه الهجرة كمن رمى حجراً ، فأصاب صيدين ، أو

كمن هرب من النار إلى الجنة ، أو كمن خرج من البدو إلى مملكة متمدينة أكثر من كل ممالك العالم ،ومدة هذه الهجرة (١٧) سنه،ثم توفي عليه الصلاة والسلام.

هجرة الأنبياء

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر نقول : كانت هجرة نبينا ﷺ من مكة للمدينة هجرة خوف من أهل الاولى ، وأمن عند أهل الثانية ، وهجرة سيدنا ابراهيم كانت هجرة اضطهاد من أهل العراق ، وهكذا كانت هجرة المسيح عليه السلام من فلسطين إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وهجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ، وهجرتا لوط عليه السلام الاولى مع عمه سيدنا ابراهيم من العراق إلى فلسطين ، وهجرته الثانية من سدوم وعمورة إلى صوعر .

مخلفات سلالة ابراهيم في أرض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر

الملاحظة الرابعة — قضي الامر ورحل اسرائيل بأسرته جميعاً للديار المصرية فسجل التاريخ في تلك الساعة أنه قدتم جلاء سلالة ابراهيم عليه السلام عن أرض الميعاد (سورية الطبيعية) بعدما كانوا أقاموا فيها ٢١٦ سنة شمسية ، أعني من سنة (٢٥٤٤ إلى سنة ٢٨٣٨) شمسية قبل الهجرة ، ولم يتركوا فيها وراءهم مِلْكاً، سوى تلك المقبرة ، مغارة المكفيلة (الغار الشريف) ، وهي تحتوي إذ ذاك خمسة قبور ، لابراهيم وزوجه (سارة) ، ولاسحاق وزوجه (رِفقه) ، ولامرأة يعقوب (ليئة) ، وكان لسيدنا يعقوب قطعة حقل . مِلْكاً له في شكيم [1] (نابلس) .

هذا كل ما ملكوه في تلك السنين الكثيرة، لأنهم لم يكونوا لينظروا إلى أمور الدنيا ، ولكن كان اهتمامهم بأمور الآخرة !! (مرحى)

(١) « تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٤ : ٣٢)

الفصل الخامس

السفرة الرابعة والاخيرة لمصر

يوم اللقاء

آ (٩٩) ﴿ ... فلما دَخَلوا على يُوسُفَ ، آوَى اليهِ أبَوَيْهِ ، وقالَ : ادخُلوا مِصْرَ « إنْ شآءَ اللهُ » آمنينَ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية التاسعة والتسعون ، فقام رفيق الكرام الرملي وقال :

أمر يعقوب أولاده بالتهيؤ والأخذ في معدات السفر، تسرعاً وشوقاً للقيا ولده يوسف ، فلذلك تهيئوا وقاموا قاصدين مصر ، وما أن صاروا في حدودها ، حتى رأوا يوسف قد أمر بنصب الخيام عند هذه الحدود ، للقيا أبويه (ولمـاء دخلوا) أي أبواه وإخوته (على يوسف) وقد أخذ مجلسه في سرادقه جالساً على عرشه ، قام فسلم على أبويه ، سلام الابن على والديه ، ثم (آوى) أنزل وضم (اليـه) في خيمته (أبويه) أباه يعقوب وأمه المجازية « بلهة » وهي مربيته وحاضنته بعد موت أمه « راحيل » وهو ابن عشر سنين، ومن حيث كونه استقبلهم في مضرب خارج مصر ، وقد أراد الجميع النهوض والقيام بعدما أخذوا حظهم من الراحـة (قال) لهم (ادخلوا مصر) أنتم وذراريكم (إن شاء الله آمنين) على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً ، حتى ولا من ملوك مصر، آمنون من أن يلحقكم ضرر ما من جهتي بالجرم السالف ، لا سمح الله تعالى ، لأنني غفرت لـكم ؛ آمنون من كل المكاره والمخاوف قاطبة من كل أحد .

(فلما دخلوا على يوسف ... الخ)

—٢—

وقال ابو الفيض الخليلي :

سفرة يعقوب واسرته لمصر

كان اخوة يوسف اخبروا أباهم بمـــا عليه يوسف ، ونقضوا له جملة حاله ، وما أوتيه من سمو ورفعة ، فأمرهم أبوهم بتحضير وسائل السفر بما يمكن من السرعة لشدة اشتياقه للقاء ولده يوسف على حد قول القائل :

حديثه أو حديث عنه يطربني ... هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا

كلاهما حسن عنـــدي أسرُّ به ... لكن أحلاهما ماوافق النظرا

ولما هيأوا أنفسهم للرحلة من فلسطين لمصر ، ركبوا دوابهم وقد أطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً .

وداع يعقوب لفلسطين

وكأني بيعقوب لما وصل لمنتهى حدود فلسطين ومبدأ حدود القطر المصري ، وقف يودع فلسطين بما معناه :

« أنا اليوم في آخر ساعة من ساعات وجودي فيك يافلسطين ، وأول ساعة من ساعات حلولي بالديار المصرية ، فسلام لك يافلسطين المحبوبة ، سلام لك أيتها الأرض التي تشخب حجارتها لبناً وعسلاً ، سلام لك يامدفن إبراهيم وساراي وإسحاق ورفقـة . والوداع الوداع ... الوداع . »

لقاء الشيبتين

وكان يوسف عليه السلام قد أرسل فرساناً وحرساً لاستقبال أبيـه الشيخ

وجلس هو في فسطاط أعد له ، جلس يتوقع مجيء أبيه ، وهو على أحر من الجمر ، وأخيراً وصلت الأسرة الاسرائيلية إلى فسحة الفسطاط ، وفي طليعتها نبي الله يعقوب عليه السلام .

ولما دخل يعقوب الفسطاط ،ووقعت العين على العين ،ولمس القلب القلب ، نظر في وجه « عزيز مصر »وتفرّس فيه ، وقال مستفهماً « يوسف ؟.. — فقال له مستفهماً أيضاً : والدي ؟.. — قال نعم ؛ — قال : ابني ؟.. — قال أبي ؟.. قال : نعم .. ولعل الله بعثك من الموت بمعجزة لنجاتنا وسرورنا — قال : سأكون خادمكم أجمعين — فقال يعقوب : الحمد لله على انفراج الأزمة برؤية ولدي ، فاذا مت الآن فاني أتوسد التراب قرير العين ناعم البال » .

وكأني بحاضنته « بلهة » تبادلت معه عبارات التحية والسلام والشوق قائلة : « ولدي يوسف ؟.. قال : « أمي بلهة » ؟.. — قالت نعم ، قال : أهلا وسهلا »

ولاتسل عن يعقوب وماحل به من دواعي الفرح التي أنسته جميع عوامل الحزن ، إذ نظر نظرة عوضت عليه كل أحزانه وبلباله ؛ والمسافر عليل ، دواءه الوصول ؛ .

وهنا يحتاج القارىء إلى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها من ساعات العمر ، إذ دخلوا على يوسف وهو على حال عظيم من الرقي والسؤدد ، والتمكن في أرض مصر،وعندئذ تمثلت له السعادة عبداً رِقّاً ، ولقد كان المشهد مشهداً بهيجاً ، وكان الجيش والناس حوالي ذلك الحفل ، زرافات ووحداناً ، وكوكبة بعد كوكبة ، ثم قدمت لهم المرطبات والمنعشات الطيبة ، واستراحوا من وعثاء السفر:

والقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

ولا تسل عن فرح يوسف بمجيء أبويه اليه ، ولاتسل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ؟

ثم قال لهم يوسف : هـا قد حللتم أهلاً ، ووطأتم سهلاً ، ادخل ياوالدي « صوعن » العاصمة بل جميع الديار المصرية آمنـاً مطمئنـاً من الفراق والتهويش والتشويش ، وادخلوا يا أخوان الصفا مصر . وانتم آمنون من كل مقاومة وتكدير لأني سبق وقلت : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين » .

واليك التعليقات التالية :

حال يعقوب عند رؤيته يوسف

أولاً ــ كأنك بيعقوب عليه السلام وقع بصره على ولده فبسم وبكى ، وحمد ربه واشتكى ، وقال في نفسه : « أواه من الماضي ، وشكراً لله على الحاضر » . وعندي أنه لاشيء يصور حالته هذه مثل قول ابن نباتة المصري يهنىء السلطان الأفضل ، ويعزيه بوالده المؤيد :

هناءٌ محا ذاك العزاءَ المقدّما فما عبس المحزون حتى تبسّما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لايمتاز ذو السبق منهما
نردُّ مجاري الدمع والبشر واضح كوابل غيث في ضحى الشمس قدهمى

مبدأ التاريخ العبراني

ثانيـاً ــ دخلوا على يوسف سنة ٢٣٩٣ ش . ق . هـ (أي سنة شمسية قبل الهجرة) واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر ، وهذا مبدأ تاريخ العبرانيين وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥ سنة) ثم بعده خرجوا من مصر على يد قائدهم سيدنا موسى (سنـة ٢٦٠٨ ش.ق.هـ) ثم افتتحوا بلاد « سورية » على يد قائدهم النبي يوشع بن نون عليه السلام ، ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة لبلاد كنعان وفلسطين ، التي هي أرض « الميعاد » حسب توراتهم .

من هي ام يوسف التي اواها اليه

ثالثاً ـ الكتاب الكريم يقول : « آوى اليه أبويه » وانه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب ، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر ؟ قيل هي أمه الحقيقية « راحيل » ، ولكن ورد في كتب المؤرخين تبعاً لسفر التكوين ، أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين ، ودفنت على طريق إفراته « بيت لحم » ، وأقام سيدنا يعقوب نصباً على قبرها ، وكان موقع قبرها معروفاً لحد أيام صموئيل وشاؤل (١صم ١٠ : ٢) وهو من الأماكن الفلسطينية ، التي يزورهـا اليهود والمسيحيون والمسلمون بدعوى التبرك به ... وقد زاره السائح « مندريل » (سنة ٢٣١٩ ق.هـ) ، واتفاق العموم على أن ذلك المقام هو قبر « راحيل » ، لاسبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن ما ورد في التاريخ يعضده من كل وجه .

وقيل : إن أمه التي حضرت لمصر هي « ليئة » اخت « راحيل » . لأن الخالة أم ، كما أن العم أب ،وقدسمى النبي عمه « العباس » أباه ، وقال تعالى : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (٢ : ١٣٣) ، ولكن ورد في التواريخ تبعاً لسفر التكوين أن « ليئة » ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر ، ودفنت في الغار الشريف .

وقيل ان المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهة » جارية أمه ، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، لاسيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين لخيمتها ، والمربية أو الرابّة تدعى أماً ، لقيامها مقام الأم ، كما كان « هرون الرشيد » يدعو « عَبادة » امرأة يحيى البرمكي ـ أماً له ، لأنها كانت أرضعته وهذا هو الصحيح ، وقد ورد في الحديث ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي» لأن « أم أيمن » كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة « آمنة » من حين أن كان عمره ست سنين ، الى أن انتقل الى بيت جده « عبد المطلب » وكان ، روحي له الفداء ، يبرها مبرة الأم ، ويكثر زيارتها ، وكان عندها كولدها ، كانت رضي

الله عنهـا مولاة لأم رسول الله ﷺ ، ثم صارت مولاة لرسول الله بالميراث ، وهكذا كان الحال في « بلهة » ، وكانت أولاً مولاة « لراحيل » أم يوسف ، ثم صارت مولاة لولدها يوسف بالواسطة ، أي بواسطة صيرورتها مولاة لأبيه يعقوب ، ث أن راحيل وهبتها له ليفترشها .

يعقوب يرحل عن ارض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف

رابعاً ـ رحل يعقوب عليه السلام من أرض الشام مع أنها أرض الميعاد ، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، حباً بولده يوسف «بجيرانها تغلوا الديار وترخص» قال بعضهم :

أمر على الديار ديار ليـــلى ... أقبـل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلـــبي ... ولـكن حب من سكن الديارا

وقال العرجى :

نبث حولاً كامـلاً كلـــه ... لانلتـــقي إلا على منهج
الحج إن حجت ، وماذا مِنَى ... وأهلُهُ ؟ إن هي لم تحجج

الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، والمؤجِر قبل المؤجَر ، وأخيراً قال تعالى : « رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنّة » (٦٦ : ١١)

كيف قابل يوسف ابويه عند دخولهما عليه وكيف عاملهما

سادساً ـــ عندنا أن يوسف قابل أبويه مقابلة تتراوح بين مراعاة مركز الحاكمية ، ومراعاة الادب ، ودليلنا على الشق الأول قوله تعالى : « فلما دخلوا على يوسف » فدخولهم ـ بما فيه أبواه ـ عليه في فسطاطه يشعر بأنه لم يخرج منــه لاستقبالهم ، وكذلك قوله تعالى : « آوى اليه أبويه » يشعر أنه كان عاملهم إذ ذاك معاملة رحمة ، معاملة راحم لمرحوم ، معاملة حاكم لمحكوم ، معاملة أمير لرعية ؟

ودليلنا على الشق الثاني قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش » ، يشعر أنه عامل أبويه إذ ذاك معاملة الاجلال والاكبار ، معاملة رعية لأمير ، معاملة ابن لأب ، فافهموا أسرار كتاب الله ، والسلام عليكم . (مرحى)

خطبة الوئام والسلام

آ (١٠٠) ﴿ ... ورفَعَ أَبَوَيْهِ على العَرشِ ، وَخَرُّوا لـه سُجَّداً ، وقال : يا أَبَتِ ، هـذا تأويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ ، قد جَعَلَها رَبِّي حَقاً ، وقد أحْسَنَ بي إذ أخرَجَني مِنْ السِجنِ ، وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ ، مِنْ بَعدِ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي ، إنَّ رَبِّي لطيفٌ لِمَا يشاءُ ، إنه هو العليمُ الحكيمُ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المتممة للمئة ، فقام ابو الفتح الحلبي وقال:

(و) بعد أن دخل يوسف وابواه واخوته مصر ، وعبروا دار الحكومة ، (رفع أبويه على العرش) ليجلسا عليه معه ، ويشركهما معه في الجلوس على سرير الحكم ، سرير وكيل الملك ، وأما اخوته فقـد طأطأوا رؤوسهم (وخروا له سجداً) لأنهم لم يروا أنفسهم أكبر من أن يسجدوا له ، ولم يروا يوسف وكيل الملك أصغر من أن يكون مسجوداً له ، ولأن هذا هو شكل التحيـة الذي كانت الرعية تؤديه للملك ، ولمن كان قريباً من منزلته كوكيله ، فهو قاعدة متبعة قديماً في مصر والصين والفرس والكلدان والهند وعند العبرانيين ، كما رواه لنا التاريخ الشرقي ، ونقله أصحاب السير والأخبار ، ثم عندئذ وقف يوسف خطيباً في أبويه واخوته (وقال : يا أبت ، هذا) الحال الذي تراه اليوم ، في هذه الجلسة التاريخيـة ، هو

(تأويل رؤياي من قبل) أي منذ ٢١ سنة (قد جعلها ربي حقاً) فأصبح المنام يقظة ، والحلم علماً ، والظن يقيناً والقول فعلاً ، فهذا هو « الشمس » ـ وأشار الى أبيه ـ وهذه هي « القمر » ـ وأشار الى أمه بلهة ـ وهذه هي المجرّة المؤلفة من الأحد عشر كوكباً ـ وأشار الى إخوته ـ وهذا هو الحقير المسجود له ـ وأشار الى شخصه الكريم (وقد أحسن) سبحانه وتعالى (بي) إحساناً مزدوجاً (إذ أخرجني من السجن) على الصورة التي أحب ، بريئاً ، شريفاً ، نقي الذيل، أبيض الوجه (وجاء بكم من البدو) العراء ، على الصورة التي تحبون ، وكان هذا كله (من بعد أن) وقعت تلك الحادثة العتيقة ، وهي أنه قد كان ـ مع الأسف ـ آن (نزغ الشيطان) أفسد وأغرى وأثار داعية الشر (بيني وبين إخوتي) فعاضنا الله عن ذلك ، بالصفاء والمحبة والالفة ، ولا ريب أن هذا كله بتدبير الرب (إن ربي لطيف لما يشاء) اذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه ، ودبر له طريقاً دقيقة ، فاذا هو حاصل ، وان كان في منتهى البعد عن الحصول (إنه هو العليم الحكيم) والعبرة بالخواتيم .

هذا هو النطق الذي قام يوسف في تلك الجلسة التاريخية ، والقاه على الحاضرين وكان يتكلم وعواطفه تتكلم معه ، وقلبه يتهلل فرحاً ، وقد وقع صوت هذا النطق على قلب يعقوب عليه السلام وقوع الماء الزلال على قلب الظمآن .

ورفع أبويه على العرش ... الخ

— ٢ —

وقام السيد فضل الله الغزي وقال :

مصداق رؤيا يوسف الثانية

ليعفني القارىء الكريم من وصف ما كان عرا سيدنا يعقوب عند تلاقيه مع

ابنه يوسف ، من الغبطة والسرور ، وما كان جد ليوسف حينـذاك من الفرح والنشاط ، فذلك مالا يقع في الامكان ، ولا تناله قدرة كاتب ، ولا فصاحة خطيب ولو لم يكن يعقوب نبياً ، لو لم يكن هو ذلك الثابت الوقور الرصين ، الذي لاتزعزعه حوادث الفرح والترح ــ لما احتمل لذة سماع البشرى ، بسلامة ابنه وأنه وكيل ملك مصر ــ لما احتمل ذلك بدون أن يغمى عليه من الفرح والغبطة ــ لما احتمل لذة رؤية ولده جالساً على العرش ، دون أن يغيب عن الوجود ، من شدة سروره وحبوره ــ لما احتمل سماع الخطاب التاريخي ، دون أن يملأ تلك الجلسة بكاء ، على حد « من عظم ماقد سرني أبكاني » ، وكيف لا .. وهو لا يشعر إلا وولده المحبوب قد خرج من بين أنياب « الذئب » الى عرش الوزارة بمصر ــ من الغيبة الى الحضور ــ من الموت الى الحياة ــ من رعي الاغنام الى رعي المصريين ــ من بدو فلسطين ، الى حاضر الكنانة ــ وبالجملة من لاشيء ، الى كل شيء !!!..

أقول : عند وصول يعقوب وأبنائه الى دار الحكومة المصرية ودخولهم قاعة العرش التي فيها يوسف ، رفع يوسف أبويه على العرش الذي كان قد استوى عليه ، أي على سرير الوزارة وحاكمية الديار المصرية كعزيز لمصر ووكيل عن مليكها الريان ، وقد كانت هذه الساعة عند سيدنا يعقوب هي أهنأ ساعات العمر وأسعدها ، فغفر للدهر من أجلها جميع سيئاته عنده ، بل نسي عندها انه ذاق شيئاً من طعم الحزن والألم ، وأما إخوة يوسف ، فقد خروا له سجداً ــ (هكذا قاله ابو حيان في بحره ، وكل من أرجع الضمير للاخوة والأبوين جميعاً ، فقـــد اعتزل الفهم الصحيح)ــ خروا له سجداً ، والخنوع والذل يتمشيان في أعضائهم ، واستسلموا بين يديه بجدهم وحديدهم ، مع أنهم فيما تقدم منذ ٢١ سنة لم يكونوا راضين بما هو أقل من ذلكم جداً ، وهو أن يكونوا في المنزلة الثانية من محبة أبيهم اليهم ، خروا له سجداً ثم جلسوا محيطين به مثل إحاطة الهالة حول القمر ، جلسوا في

صمت عميق ، جلسوا وهم مأخوذون مسلوبون بما غمرهم من الخجل والحياء ، ويا ما أعظم هذا المقام الرفيع ؛ وذكر رفعه لأبويه العرش ، وخرور إخوته للسجود أمامه ، يكفينا في تصوير مافي هذا المقام من دهشة ورهبة وجلال ، وهذا مصداق رؤيا يوسف الثانية المذكورة في القرآن المجيد ، وهي سجود الأحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، كما انه بمجيء إخوته الأحد عشر عنده ، في السفرة الثانية ، وسجودهم له حصل مصداق رؤياه الأولى ، المذكورة في سفر التكوين ، وهي ان حُزَمهم الإحدى عشرة سجدت لحُزمته ، وبهذا وهذا تم انتصاره على إخوته ، الذي هو من قبيل انتصار المحسود على حاسديه ، أو انتصار الفرد على الجماعة ، أو انتصار المشرد المطرود ، على مُشرِّديه وطارديه.

وأما أبناء اخوة يوسف ، النجباء الكرام !! . فمكثوا غير بعيد ، ينظرون لعمهم جالساً على عرشه وبجانبه أبواه ، وتحفه إخوته ساجدين لعظمته ، وعندئذ اعتقدوا أن الذي يبين درجات الناس إنما هو المجالس ، واجتماع الناس بعضهم ببعض.

واذا ماخلا الجبان بأرض　ذكر الطعن وحده والنبالا

ولا بد انهم في هذه الحالة تذكروا قولهم لجدهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » فخجلوا بينهم وبين أنفسهم ، وهنا وجد يوسف مكان القول ذا سعة ، فقام فيهم خطيباً وقال موجهاً الكلام الى أبيه : « ياأبت الشيخ الوقور المحترم ، تراني لم أذهب بالخيال بعيداً ، ولا أزيدك علماً أن هذا الحال الذي وقع أمامك ، هو مصداق رؤياي التي رأيتها سابقاً في صباي منذ ٢١ سنة ، وهومصيرها ومرجعها لا أقل ولا أكثر ، وهي الرؤيا التي علقنا عليها آمالاً جساماً ، وكنا نتفائل بها خيراً ، وكنا نقول ، ليس بكثير على الأيام أن يصبح حلمنا يقظة ، وآمالنا حقيقة راهنة ، فهاهو ذا قد جعلها ربي حقيقة واقعة ، حيث جاءت كفلق الصبح ، أصفى

من طلعة القمر ، ليس دونـه سحاب ، فصدق بذلك فالنا ، وصحت أحلامنا وآمالنا ، فالحمد لله على آلائه ، وله الشكر على نعمائه ، وقد أحسن سبحانه بي احساناً متصلاً بذاتي ممازجاً لنفسي ، إذ أخرجني من السجن ، سجن الظلم على الوجه الذي أحبه وتحبه، وأرضاه وترضاه، نقياً ، طاهر الذيل ، ناصع الجبين، وجاء بكم من البداوة وشظف العيش ، لمصر التاريخية العظيمة بآثارها الخالدة ، المتمدينة المتحضرة ، زهرة ممالك العالم .. جاء بكم من البدو الذي قيل فيه : « من بدا جفا [1] » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده عن الناس ، جاء بكم من البدو الى الحاضرة ، ذات الأنس والاجتماع ، وضروب الأشكال وأنواع المسرات ، ثم الف بين قلوبنا من بعد أن نزغ الشيطان وأثار داعية الشر ودخل في الفساد بيني وبين اخوتي ، وقد ذاب وتلاشى هذا النزغ في الهواء ، أمام اتفاقنا ومحبتنا بعضنا لبعض ، عملاً بالوصايا السماوية ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً ، فألَّفَ بين قلوبِكم ، فأصْبَحتم بِنِعْمَتِهِ إخواناً ﴾ (٣:١٠٣) ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ انه لطيف لما يشاء، لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ، ينفذ فيه مشيئته ، لطيف التوصل لما يريد ، بدقة ومهارة وخفة ورشاقـة ، يتلطف لاستخراج الأمر الذي يريده ، وقريب منه :﴿ وليَتَلطَّفْ ولا يُشعِرَنَّ بكم أحداً ﴾ (١٨:١٩) ، فمن لطفه تعالى أن سخرني لاعالة الناس في أيام السغب والمجاعة وبنوع أخص : باعالتكم وقد بلغت اسرتكم الـ ٧٥ شخصاً ، ومن لطفه تعالى انـه أطفأ النائرة [1] وسكن الثائرة [2] وذهب بالعداوة بيننا ، وأبدلها بالمودة في القربى ، والرحمة مع ذوي الرحم ، ومن لطفه انه لم يحرمني منكم ، ولم يفجعكم بي ، بل حفظنا جميعاً ، ثم زاد

---

(١) حديث شريف .

(٢) النائرة العداوة (٣) الثائرة الغضب

في لطفه بنا ، فنظمنا في سلك هذه الجلسة التاريخية ، وسيكون جامعاً بيننا في هذا القطر الواحد ، تحت سماء واحدة ، الى ماشاء الله ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، ولنسدل عليه الستار وليأت لنا المستقبل بما نحب ، بقوة الله تعالى ، إنـــه هو العليم الحكيم .

هذه هي الخطبة « النُورية »[1] اللطيفة ، خطبة الوئام والسلام بينه وبـــين اخوته ، كانت منه في مقابلة خطبتهم « التارية »[2] التي في (ع٨ــ١٠) التي كانوا ألقوها وتبادلوا فيها الآراء يوم المؤآمرة على يوسف . (أحسنت)

(ورفع ابويه على العرش ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد نعمة الله الدمشقي الميداني [3] :

بحثي في الآية الكريمة على التعليقات التالية :

(اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وبسطه فيه في جلسة السلام)

(١ آ) ــ نرى يوسف عليه السلام ، قد اندفع في خطابه الذي القاه بحضور أهليه جميعاً كالسيل المنهمر ، ورزق نشاطاً أيما نشاط ، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدي العزيز فوطيفــار حينما قالت زليخا : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ، فاننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً ، إذ قال : (هي راودتني عن نفسي) وسكت ، فأين ذلك الانقباض والاختصار في القول ، من هذا التبسط والاندفاع فيه ؟ فهو قـد أنشأ هنـا خطاباً أطنب فيه أيمــا إطناب .

---

(١) نسبة الى النور (٢) نسبة الى النار
(٣) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

ولعل السر في هـذا الاطناب هو سروره وفرحـه بأبيه وذويه ، والسر في اختصاره فيما سبق ، حصره وانقباضه ، لكونه كان عبداً خادماً ، ويعجبني ههنا قول القائل :

في انقباض وحشمة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غـير محتشم

وأيضاً اين مقامـه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخـدوم ؟ واين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم ؟ وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهليه ، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه ؟ وأخيراً أين مقامه وهو صبي يافع ، من مقامه وهو رجل كهل ؟

(مصداق قول يوسف ومصداق قول ابيه)

(٢) — يقول هنا سيدنا يوسف : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ يريد أن هذا مصداق قوله سابقاً : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً .. الخ ﴾ .

واما مصداق قول أبيه له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. ﴾ فقد اجتباه بالنبوة والرسالة كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسفُ مِن قبلُ بالبيّناتِ ، فما زلتمْ في شـــكّ مما جاءكم به ، حتى إذا هلكَ ، قلتم : لنْ يبعثَ اللهُ مِنْ بعدِه رسـولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، وأما مصداق قوله : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فقد أول حلمي الساقي والخباز ، وحلمي ملك مصر ، هذا رأي الجمهور في معنى « تأويل الأحاديث » وأما على رأي البعض ، من أن « تأويل الأحاديث » مغازي[1] مطلق الكلام ، فقد علمه الله مصائر جميع الكلام وأغراضه ، ومخارجه ومـداخله ، وكل ما يرمي اليه القول سواء أكان حديث منام أو حديث يقظة ، وسواء أكان كلاماً أخروياً ، أو دنيوياً ، سياسياً أو اجـــتماعياً أو اقتصادياً ، الى

(١) جمع معزى .

آخر فنون الكلام ، والدليل على ذلك كله أعمال يوسف الواقعة الثابتة التي قام بها في تدبير المملكة المصرية .

وأما مصداق قوله « ويتم نعمته عليك » فقد تمت بخروجه من السجن ، الى كرسي وكالة المملكة ، وأنه صار « وزير مالية مصر » و « عزيزها » وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين، حتى سماه « الريان » « صفنات فعنيح » ومعناه على ما قيل « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » والمعنى على كل من هذه التفاسير ، أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وانقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة ، الى زمن القحط ، ومن اتمام نعمته عليهانه تزوج امرأة شريفة وهي « أسنات » بنت كاهن « أون » وهي قرية « بيت شمس » على ستة أميال من القاهرة ، وفي الشمال الشرقي منها ، وكان أبوها واسمه « فوطي فارع » من كبار رجال الدين المقدمين في نظر حكومة مصر ، وقد رزق منها ولدان هما « منسّى » و « أفرايمْ » وكل هذا الذي بلغه يوسف لم يكن إلا بالعناية الالـهية ، فلذلك يعد من أمثلة اتمام نعمة الله عليه ، لا سيما متى تصورنا نبوته ورسالته ومنصبه الجليل .

واما مصداق قوله « وعلى آل يعقوب» فقد صار بخروجهم فيما بعد من أرض السخرة والعبودية ، ثم بدخولهم الشـــام أرض العز والحرية ، حيث استولوا عليها على يد موسى ، ثم على يد « يشوع بن نون » وقيض الله لهم قضاة يحكمونهم ، ثم آتاهم الله الملك ، وجعل في سلائلهم النبوة والكتاب ، وأنزل على موسى منهم التوراة وعلى داود الزبور ، وعلى المسيح الانجيل ، وفضلهم على عالمي زمانهم ، حيث كانوا موحدين ، وأما باقي أهل عصرهم ومواطنيهم من الامم فكانوا وثنيين .

(الإحسان يتعدى بالباء وبإلى)

(٣ً) — تعليقاً على قوله « أحسن بي » الإحسان يتعدى بالباء وبإلى ، فيقال أحسن اليه وأحسن به ، وكذلك أساء اليه وأساء به ، قال الشاعر : « أسيئي

بنا أو أحسني لاملومة » ، والأول أبلغ ، لأن من احسن به الله هو من يتصل به برّه ، وحُسن معاملته ، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه ، وعدم انفصال عنه ، وأما من أحسن الله اليه ، فهو الذي يسري بره ، ولو على بعد ، أو بالواسطة ، إذ هو شيء يساق اليه سوقاً ، ونظيرماهنا قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ (٢:٨٣)

(معنى « البدو »)

(٤ً) ــ تعليقاً على كلمة « البـدو » يجوز أن يكون ذلك مصدراً ، لأنه يقال : « بدا يبدو بَدْواً » إذا أقام أو نزل في البادية ، والواقع ان يعقوب وأولاده وأهله جميعاً كانوا من أهل الخيام ، من ساكني البادية غالباً ، وقد يكون ساكناً في الحاضرة مثل « قرية أربع » أو « بئر السبع » أو « سيلون » ولكن ذلك قليل، ويقال للمقيم في البادية : « باد » كقوله تعالى : ﴿ سواءً العاكفُ فيه والبادِ ﴾ (٢٢ : ٢٥) وجمعه « بادُون » كما قال تعالى : ﴿ لو أنهم بادُونَ في الأعرابِ ﴾ (٣٣ : ٢٠) ، ويحتمل أن « البدو » هنا بمعنى البادية ، وهي خلاف الحاضرة ، والنسبة اليها بَدَويٌّ ، وههنا أتذكر قول القائل سراج الدين الورّاق مورياً :

«وبي»من «البدو» كحلاء الجفون « بَدَتْ »
في قومها كمهاة بين آساد
فلو « بدت » لحسان « الحُضر » قمن لها
على الرؤوس وقلن : الفضل « للبادي »

فقوله : « وبي من البدو » أي البادية ، وقوله « بدت » أي ظهرت . ويقال بدا من باب سما أي ظهر ، وقوله « الحُضر » جمع حاضر أي ساكن في الحاضرة،وهو كفارس وفُرْس ، وقوله « للبادي » هو موضع التورية ، ومعناه المقيم في البادية بقرينة « البدو » ومقابلته بالحُضْر ، أو معناه الظاهر بقرينة « بدت » ، ويحتمل

ايضاً أن كلمة « البدو » اسم لموضع بالشام قرب « وادي القرى » كان به منزل « علي بن عبد الله بن عباس » وأولاده (رض) ، كما في « النهاية » .

معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة

(٥) — النزغ دخول في أمر لإفساده ،نزغ أفسد وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري ، نَزَعَ وَنَزَحَ وَنَزَقَ وَنَزَعَ ونَسَغَ وَنَخَسَ وَنَخَرَ ونَفَرَ ونَكَزَ ووَكَزَ وهَمَزَ وطَعَنَ ، الفاظ متقاربة المعنى ، وأصله اصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالابرة والمهماز والرمح ، أو ما يشبه المحدد كالاصبع. ويقال : نزع ونزغ بين الناس ؛ والمراد من نزغ الشيطان ، اثارته داعية الشر والفساد في النفس ، بداعية غضب أو شهوة ، حيوانية أو معنوية بحيث تتقحم بصاحبها الى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهماز ، لتسرع في العدو ، وغلب استعماله في الشر فقط ، وبناء عليه فنزغ الشيطان ، افساده وإغراؤه ، يحمل على التفريق بين الجماعة المؤتلفين ، وهذا هو عين الشقاوة ، وأما مايروونه من حديث « اختلاف أمتي رحمة » فقال الحافظ السخاوي : « زعم كثير من الأئمة ، أنه لا أصل له » ، وهذا القول هو الصواب ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ ولا تكونوا كالذينَ تفرَّقوا واختَلفوا ، مِنْ بعدِ ما جاءَتهم البيِّناتُ ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (٣ : ١٠٥) وكيف يقال : الاختلاف رحمة ؟ والله تعالى يقول: ﴿ ولا يزالونَ مُختَلِفِين إلا مَنْ رَحمَ ربّك ﴾ (١١ : ١١٩)والثابت بالشرع والعقل والتجربة ، ان الاختلاف نقمة ، وبسببه تفرقت الكلمة ، وذهبت الريح والشوكة ، الى أن وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف ، وذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا ، تقع في قبضة الأجانب ، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك ، فأين الوحدة والاخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف .

توجيه النزغ للشيطان

(٦ً)ـــ وجّه دفة النزغ الى الشيطان ، مع أن «الكيد» إنما وقع من إخوته ، لطفاً منـه وأدباً معهم ، وأيضاً فهو وجّه فكره للسبب الأول الأساسي ، وهو الشيطان ، وأما أبوهم عليه السلام فنظر للسبب الأول ، ولمن سيتأثر منـه ، فقال : « فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » .

أدب يوسف في التعبير وأمثلة من أدب تعابير القرآن

(٧ً)ـــ يقول يوسف : «من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي» ولم يقل مثلا : من بعد أن تآمر عليّ اخوتي ، أو : من بعد أن القاني إخوتي في الجب ، أو : من بعد أن لعب الشيطان على إخوتي ، بل عبر بتلك الجملة الذهبية التي فاه بها أمام إخوته ، لأنهـا عبارة رقيقـة مُعَزّية ، تنعش البائسين ولا تذل عزة السامعين ، ولا تجرح عواطفهم ، وهذا أدب مشروع في التعبير ، ولطيف جداً ، وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة منه كقوله : ﴿ لا تقولوا : راعنَا ، وقولوا : انظُرْنا ﴾ (٢ : ١٠٤) وهو خطاب للمؤمنين إذ نهـاهم الله تعالى عن أن يقولوا للنبي ﷺ كلمة « راعنا » لما فيها من سوء الأدب وأمرهم بكلمة آأدب وألطف منها وفيها المعنى الذي كانوا يريدونه منها وهي « انظرنا » ، ﴿ كانا يأكلان الطعامَ ﴾ (٥ : ٧٨) والكلام هنا عن المسيح عليه السلام وأمه ، وقوله عز وجل كانا يأكلان الطعام كناية عن أنهما بحاجة الى الغذاء والى الهضم والى دفع الفضلات .. أي أنهما مفتقرين الى مايقوم بأودهما كسائر أفراد نوعهما وجنسهما ، في قوله : « يأكلان الطعام » من أدب اللفظ ولطف التعبير مافيه ، ﴿ فجعلهم كَعصْفٍ مأكول ﴾ (٥ : ١٠٥) فالعصف المأكول كناية عن التبن الذي تأكله الدواب ثم تروثه ، وقد عبر القرآن الكريم بذلك لما فيه من الادب والحشمة ، ﴿ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافقٍ ، يخرجُ مِنْ

بين الصُّلْبِ والترائبِ ﴾ (٨٦ : ٦ و ٧) الماء الدافق كناية عن المني، وخروجه من بين الصلب والترائب كناية عن خروجه من مجرى التناسل ، وهي من الالفاظ التي تتضمن الأدب الرفيع ، ﴿ وَثيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٧٤ : ٤) فتطهير الثياب كناية لطيفة عن نظافتها من النجاسات ، والكلام موجه الى النبي ﷺ ، ﴿ وأقرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ (٧٣ : ٢٠) فاقراض الله كناية لطيفة عن أداء الزكاة الى الفقراء ، ﴿ واهجُرهُم هجْراً جميلا ﴾ (٧٣ : ١٠) فالهجر الجميل كناية لطيفة عن المخالفة والابتعاد ، ﴿ إنا خلَقْناهُم مِمّا يَعْلمون ﴾ (٧٠ : ٣٩) كناية لطيفة عن النطفة التي يُستحى من ذكرها .

﴿ يُذَبّحون أبناءَكم ويَسْتَحيونَ نساءَكم ﴾ (٢ : ٤٩) ، فيستحيون يطلبون حَيّ المرأة ، وهو فرجها ، فعبر بكلمة « يستحيون » لما فيها من الأدب ونطف العبارة ،[1] ﴿ أُحِلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرّفَثُ إلى نسائكم ... فالآن

معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم »

(١) وههنا سأل بعض اعضاء المؤتمر الرئيس ان يوضح لهم ويبسط هذا البحث ، وهو بحث « استحياء النساء » الذي جاء في الآية فقال : « يستحيون نساءكم » معناه : يطلبون « حيهن » وهو فرج الآدمية ، كما أن « الحيـا » فرج الحيوان من ذوات الخف والظلف والسباع ، ويترجح هذا المعنى في الآية بأمور سبعة :

١ ــ لو كان المقصود من قوله : « يستحيون نساءكم » يستبقوهن ، لكان يستغنى عنه بالاقتصار على ذكر تذبيح الأبناء .

٢ ــ نسمع ربنا سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٢:٤٩)، ولاريب أنه أراد من البلاء مجموع الأمرين : تذبيح الأبناء ، واستحياء النساء ؛ وماهو هذا البلاء العظيم في استبقاء النساء ؟ لعمري انه نصف رحمة بأهلهن ، ورحمة كاملة بنفس هؤلاء النساء المستبقيات ، فماذاك إلا أن لاستحياء هؤلاء النساء معنى آخر به يكون استحياؤهن بلاءعظيما ، وما ذاك الا المعنى الذي ذهبنا اليه .

٣ ــ لو كان المراد من الاستحياء ، الاستبقاء ، لعبر بقوله : « يحييون » لأنه أخصر ، كما قال : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٥ : ٣٥)　=

باشروهُنّ ،وابتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لكم﴾ (١٨٧:٢)،في هذهالآية ثلاثلطائف : الأولىهي أن أصل «الرفث» الفحش في الكلام ، وأراد منه الوقاع، والثانية أصل «المباشرة» مماسة ظاهر البشرة أي الجلد ، والمراد منه أيضاً الوقاع ، الثالثة ،يريد

٤ ـ لو كان الغرض من الاستحياء الاستبقاء ، لعبر « بالبنات » بدل تعبيره بالنساء ،الذي يغلب استعماله في المرأة الكبيرة ، موافقة للواقع ، لأن المصريينما كانوا يستبقون النساءالكبيرات بل البنات الصغيرات ، كما ان اليهود بمصر ما كانوا يستسهلون تمكين المصريين من بناتهم ، ولكن بنسائهم فقط ، لانهم تعلموا استسهاله من اصولهم ـ على ذمة التوراة ـ وعلىهذا فيشبه أنيكون في الآية الكريمة ، استخدام على مذهب ابن مالك ، وهو أن يطلق لفظ له معنيان ، محفوف بقرينتين ، فالسابقة تتطلب أحد المعنيين ، واللاحقة تتطلب المعنى الثاني ، فهذا اللفظ هنا هو « يستحيي » يحتمل أن يراد به : يستبقي بقرينة قوله سابقاً « يذبح » ويحتمل أن يراد منه : يطلب « حي » المرأة بالزنى ، بقرينة قوله لاحقاً : « نساءكم » .

٥ ـ الزنا هو لزيم التوثن ، كما يعرف تماما بمراجعة كتب التاريخ القديمة ، لاسيما أسفار التوراة وتاريخ الكلدان وأشور ، وغيرها من الكتب التي تحكي حوادث الامم الوثنية العتيقة، وأنه لأمر معلوم أن المصريين وثنيون ، ومثلهم الاسرائيليون بمصر في ذاك التاريخ ، فلابدأن تكون وثنية الطرفين قد أوقعتهم في شبكة الزنا ، لان الزنا والشرك اخوان ، كما هو المعروف عند جميع الوثنيين ، حتى وثنيي العرب والهند ، وحتى أهل الصين واليابان لليوم .

٦ ـ هذه القصة ذكرت في القرآن في ستة مواضع ، ولم يأت في موضع واحد منها لفظ: يحييون أو يحيي أو نحيي أو استحيوا ، فلو كان المراد الاستبقاء ، لكان عبر ـ ولو في محل واحد من هذه المحال الستة ـ بدون سين وتاء ، طلباً لتنشيط القارىء والسامع والكاتب بالتبدلات والتغييرات في اللفظ ، كما هو عادة القرآن .

٧ ـ سنة القرآن باطراد ، انه متى أراد المعنى المقابل للاماتة ، أن يعبر عنه « بأحيا » ، بدون سين وتاء ، كما أن سنته المطردة ، أن يقابل تذبيح أو تقتيل أبناء اليهود بمصر ، بمادة « الاستحياء » أي بالسين والتاء دائما ، فلم هذا الاختلاف المطرد ياعجباً ؟ ! اذا لم يكنلنكتة، وتلك النكتة هي مافهمناه ؟

هذا بسط القول في هذا البحث الدي ذكرناه استطرادا وجواباً اسؤال السائل ، والله اعلم . آه

(رئيس المؤتمر)

بقوله ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ (٢:١٨٧) المواقعة في...، لا في...، لأن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من النسل، إنما يكون بالمواقعة الأولى؛ ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ (٢ : ٢٣٥) والسر هنا كناية لطيفة عن النكاح، ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ (٢ : ٢٣٧) المس هنا كناية عن النكاح، وهي من ألطف وآدب الكنايات، يقول القرآن عن التابوت حين أتي به من عند الفلسطينيين لموقع بني إسرائيل ﴿تحمله الملائكة﴾ (٢:٢٤٨) وهذا التعبير أأدب وألطف من عبارة «تحمله البقر» التي عبرت بها توراة اليهود، ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ (٣:٦٣) ولم يقل فإن الله بفسادكم عليم، ﴿فالصالحات، قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (٤:٣٣) فالغيب هنا هو ما يستحى من اظهاره، أي حافظات لكل ماهو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، ومنه مايكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولاسيما حديث الرفث، فما بالك بحفظ العرض، فهذه الكناية من دقائق كنايات النزاهة، تقرأها فرائد العذارى جهراً، ويفهمن ماتومي اليه مما يكون سراً، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق، ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾ (٤:١٥) هو كناية في غاية الحشمة عن اللواطة، بمقابلة قوله قبله ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم.. الخ﴾ (٤:١٤) الذي هو عبارة عن السحاق، ﴿وكيف تأخذونه، وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ (٤:٢٠) يقال أفضى اليه بسره، وأفضى إلى امرأته باشرها، وهو كناية لطيفة عن الوقاع، أو معناه، خلص بعضكم إلى بعض ذلك الخلوص الخاص بالزوجين، واتصل بعضكم ببعض ذلك الاتصال الذى يكون في الخلوة، وهذا من حسن نزاهة القرآن في التعبير وأدبه العالي في الخطاب، ﴿وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى

والمساكين والجارِ ذي القربى والجارِ الجُنُبِ، والصاحبِ وابنِ السبيلِ ﴾ (٤:٣٥)، فالسبيل الطريق، وليس للطريق ابن، فهو كناية عن «اللقيط» لأن اللقيط حيث لم يعلم له أب ينسب اليه، نسب للطريق الذي وجد فيه؛ ﴿ ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ منكم ﴾ (٤:٢٤) العنت بحسب الأصل الشقة والفساد، وهو هنا كناية عن الزنى، ﴿ أوْ جاءَ أحَدٌ منكم مِنَ الغائطِ أو لامَسْتُمُ النساءَ ﴾ (٤:٢٤) فالمجيء الإتيان والغائط هو المكان المنخفض من الأرض كالوادي والجورة، هذا هو حقيقة الكلام، ولكن هو كناية عن قضاء الحاجة، وخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بذلك كناية كما هي سنة القرآن في النزاهة بالكناية عما لا يحسن التصريح به، وسبب هذه الكناية أن أهل البوادي والقرى، بل جميع المسلمين وقت نزول الآية لم يكن لهم مراحيض، بل كانوا يقصدون بحاجتهم الأماكن المنخفضة لأجل الستر والاستخفاء عن الأبصار، وكذلك قوله: (أو لامستم النساء) هو كناية لطيفة عن الوقاع، ﴿ إنَّ الذينَ يَرْمُونَ المحصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ، لُعِنوا في الدنيا والآخرة، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ (٢٤:٢٣)، فهذا «الرمي» كناية لطيفة عن القذف بالزنا، ﴿ أتأتُونَ الذُّكرانَ مِنَ العالمين؟ ﴾ (٣٦:١٦٥) فالإتيان كناية عن اللواطة، ويوجد في كتاب الله تعالى من الكنايات اللطيفة مالا يحصى، كما ويوجد في الحديث الشريف وفي كلام الأدباء وحكاياتهم مايشبه ذلك، وفيما ألقيته على مسامعكم الكفاية.

عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية

(٨ً) — تعليقاً على قوله «وجاء بكم مِنَ البَدْوِ» اذ اعتبر يوسف مجيء أبويه وأخوته من عيشة البداوة الى عيشة الحضارة، ذات الأنس والحبور والحياة الاجتماعية والسرور، إحسان به، هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك ﴿ قل مَنْ حرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لعبادِهِ، والطيباتِ مِنَ الرزق؟ قل هي

للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ، خالصةً يومَ القيامةِ ﴾ (٧ : ٣١) ، وإذا كان الله يقول : ﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرضِ جميعاً ﴾ (٢ : ٢٩) فهل المسلم خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين ؟ وإذا كان الله يمتن على عباده بالظلال والكهوف والثياب التي تستر العورة كما قال : ﴿ واللهُ جعل لكم مما خلق ظِلالاً ، وجعلَ لكم مِنَ الجبال أكناناً ، وجعلَ لكم سَرابيلَ تقيكم الحرَّ ﴾ (١٦ : ٨١) فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن ، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة ؟ . . وإذا كان الله قدامتن على أهل البوادي بجمال الحيوانات كما قال : ﴿ ولكم فيها جمالٌ ، حين تريحونَ ، وحينَ تسرحونَ ﴾ (١٦ : ٦) فكم تكون منته على الناس ، بما حوته المدن من مظاهر السرور ، ومجالي شرح القلوب ؟ . .

نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني

(٩) — تعليقاً على قوله تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ وبذلك وأمثاله نال يعقوب شرفاً دنيوياً ، وفخراً زمنياً ، عطفاً على شرف نبوته ، وفخر رسالته ، فكان حاله مع ابنه كحال « أبي الصقر » مع « شيبان » في قول ابن الرومي يمدح أبا الصقر الشيباني وزير المعتمد العباسي :

قالوا : « أبو الصقر » من « شيبان » قلت لهم
كلا ، لعمري ، ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفاً
كما علت برسول الله « عدنان »

مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح

(حسب رأي الأناجيل) لأمه

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أدب يوسف عليه السلام مع أبويه ، إذ اعتبر

حاضنته كأم، وأعطاها واجبات الأم الحقيقية،ورفعها مع أبيه نبي الله على العرش، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله، كلهم يقومون بواجباتهم نحو ربهم، ثم نحو آبائهم وأمهاتهم، وأمثلهم في هذا الأدب،سيدنا المسيح عيسى عليه السلام، خلافاًللنصارى الذين ينسبون له عدم احترامه لأمه،واهانتها مراراً أمام الناس، إذ مرة جاءته تطلب منه مساعدة أهل العرس في «قانا»، فقال لها أمام الحاضرين والحاضرات: «ما لي ولك يا امرأة» (يو ٢ : ٤) فرجعت بالطبع مكسورة الخاطر، كسيفة «البال» وا أسفاه! ويقولون: «فلما رآى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً — أي عند الصليب — قال لأمه: يا امرأة، هو ذا ابنك، ثم قال للتلميذ: هو ذا أمك» (يو ١٩ : ٢٦)، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من قلة الأدب — حاشا سيدنا المسيح من ذلك، إذ ناداها بقوله: «يا امرأة»، كأنها أجنبية منه، وكأن القواميس ضاقت عليه، حتى أنه لم يجد فيها سوى كلمة «يا امرأة» التي تشعر بالجفاء واليبس، ويقولون: «فيما هو يكلم الجموع، إذ أمه واخوته قدوقفوا خارجاً، طالبين أن يكلموه،فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات، هو أخي واختي وأمي» (مت ١٢ : ٤٦ ـ ٥٠)، فقابل أعمال المسيح عليه السلام هذه مع أمه على ما في الاناجيل بقول القرآن الكريم: ﴿ وَوَصَّيْنا الإنسان بوالدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أمُّهُ وهْناً على وَهْنٍ، وفِصالُه في عامَيْنِ: أنْ اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ، إليّ المصير، وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشركَ بي ما ليسَ لك به عِلْمٌ، فلا تُطِعْهما، وصاحِبْهما في الدنيا مَعْروفاً، واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليّ، ثمّ إليّ مَرجِعُكم،فأُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾ (٣١:١٤و١٥)، وقوله: ﴿ وقضَى ربُّك أنْ لا تعبُدوا إلاّ إيّاه، وبالوالدين إحساناً — إلى قوله — فلا تَقُلْ لهما: أُفٍ، ولا تَنْهرْهما، وقل لهما قولاً

كريماً ، واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرحمةِ ، وقل ربِّ ارحَمْهُما كما ربَّياني صغيراً ﴾ (١٧ : ٢٣ و ٢٤) ، والقرآن الشريف ، قد كذب الاناجيل في هذه الدعوى أيضاً حيث نقل عن المسيح أنه قال: ﴿ وبَرّاً بوالدتي ولمْ يَجْعَلْني جبّاراً شقياً ﴾ (١٩ : ٣٢) ، أي لم يكن عاقاً لها ولا قاسياً عليها ، ولا على غيرها ، بخلاف ما يفهم من الاناجيل ، فإن حسن معاملة يوسف مع « بلهة » مربيته ، التي لما اعتبرها كأم له ، رفعها مع ابيه على العرش — من معاملة المسيح لأمه الحقيقية ؟ على ذمة تلك الاناجيل ، ولكنا نبرأ إلى الله تعالى من مطاعنهم هذه ، ولا نعتقد إلا بما ورد في القرآن من أنه لم يكن عاقاً لها ولا عديم الاحترام ولا قاسياً ولكنه كان باراً بها ، ومطيعاً لها .

ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعد ما القى يوسف خطاب الوئام

(١٠) — نخال أنه بعدما خرَّ له إخوته سجداً، ساد السكوت في تلك الجلسة الرهيبة ، لا يبدأ أحد بكلام ، حتى لقد يحاذر أحدهم إذا فاجأه السعال أن يتنحنح ؛

هم صامتون ، والقلوب تتناجى وتتفاهم ، وضرباتها أصوات حية ، تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح ، واستغرقوا في ذكريات الزمن الماضي وحوادثه ، فتمثلت لكل فريق حاله كما هي ؛ فأما إخوة يوسف فتذكروا حسدهم لأخيهم ، فتوآمرتهم عليه ، وما زالت تتسلسل الأفكار في ذهنهم ، حتى الساعة التي حضروا فيها الآن جميعاً باهليهم بين يديه ،

وأما يعقوب عليه السلام فاخذ يتذكر جميع ما جرى له منذ المنام الذي قصه عليه يوسف ، إلى لقائه إياه وهو حيٌّ ، بل وهو « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » والحاكم على نهر النيل بالوكالة عن الملك الريان .

وأما يوسف فقد تمثلت له حاله في تلك الجلسة كما هي ، فتذكر ما مرّ به من الأهوال منذ حداثته ، حتى وصوله إلى هذه الجلسة وسجود اخوته له، فترك من هذه الذكريات مالا ينبغي ذكره ، فقام ملخصاً الباقي في هذا النطق الذي ألقاه كخطيب مفوه .

(١١ً)— سمعنا يوسف يتكلم ويخطب ويأتي بالشيء الكثير ، وأما أبوه، فلم نسمع منه حين اللقاء ، كلمة واحدة ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب قول العامري عاشق ليلى :

وإني لينسيني لقاؤكِ كلما لقيتك يوماً أن أبثكِ ما بيا

معنى السجود والخرور وحكمهما في الدين

(١٢ً)— حمل بعضهم السجود هنا على أعظم مظاهره ، وهو وضع الجبهة على التراب ، ولا بأس بهذا المعنى هنا ، بل هو من الحسن بمكان ، وقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس . من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير ؛

نعم . نعم، نعلم من مراجعة «أسفار العهدين ، القديم والجديد» والكتب التاريخية القديمة أن السجود للمخلوق، بدون أن يتضمن شعوراً دينياً عبادياً ، كان جائزاً في الأديان السابقة ، منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد السيد المسيح، وأما السجود الذي يقصد به العبادة ، فهو عندهم غير جائز ، لأنه عمل وثني ، ولكن دين الاسلام يمنع السجود لغير الله مطلقاً ، سواء أكان عبادياً أو احترامياً ، احتياطاً وتحفظاً .

وحمل بعضهم هذا السجود على معنى آخر ، وهو التطامن والخضوع والانقياد كما هو معناه لغة ، ويكفي في الخرور أن يكونوا قد تطامنوا نحو الأرض ، كما يفعله بعض متمدني أهل اليوم ، عندما يريدون تعظيم إنسان ذي مقام عال .

ولما كان المقام يقتضي البسطة في الكلام نقول : قد يتجوز بالسجود عن

الانقياد لقدرة الله وارادته ، وله أمثلة ، أحدها قوله تعالى : ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالُهم بالغدوّ والآصال ﴾ (١٣ : ١٦) ، يصح أن يحمل هذا كله على السجود المجازي ، وأن يحمل في حق العقلاء على السجود الحقيقي ، وفي حق الظلال على السجود المجازي ويكون فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز .

ثانيها قوله تعالى : — ﴿ ولله يَسجدُ ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكةُ ﴾ (١٦ : ٤٩) .

ثالثها — قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنّ اللهَ يسجدُ له منْ في السموات ومَنْ في الأرض ، والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ مِنَ الناس ، وكثيرٌ حَقّ عليه العذابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، وهذا إن حملته على السجود المجازي في الجميع صح ، لأن الكل منقادون لقدرته وارادته وان حملته على السجود الحقيقي فيمن يعقل وعلى المجازي فيما لا يعقل ، كنت جامعاً بين حقيقة شرعية ومجاز لغوي ، كما قرره « عز الدين بن عبد السلام » فههنا في هذه السورة يجوز أن يحمل السجود من اخوة يوسف على المعنى الحقيقي الشرعي ، وهو وضع الجبهة على الأرض لأنه كان جائزاً في شريعتهم ، وأن يحمل على السجود اللغوي ، وهو الانقياد والطاعة ، ولا ينافي قوله : « وخروا » ، لأن الخرور ، لا يجب أن يكون معناه دائماً النزول من علو الى سفل ، بل قد يستعمل في مطلق السقوط وقد يطلق على الاسترخاء ، كما نبه على كل ذلك في القاموس ، وقال في التاج ، يقال : خرّ ، إذا عثر بعد استقامة ، وفي التنزيل : ﴿ وخَرّ راكعاً وأنابَ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ،وفي الأساس ، يقال : « شجرة ساجدة : مائلة ، والسفينة تسجد للرياح : تطيعها وتميل بميلها ، وسجد البعير : طمأن رأسه لراكبه » فالخرور لا يقتضي السجود بوضع

الجبهة على الأرض ، بل قد يستعمل فيما قد يصل به الانسان الى حالة الركوع ، ولذلك نرى أبا حنيفة وأصحابه استشهدوا بهذه الآية في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود ، وأما قوله : ﴿ إنَّ الذين أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبلهِ ، إذا يُتْلى عليهم ، يَخِرّونَ للأذقانِ سُجَّداً ، ويقولون : سُبحانَ رَبِّنا ، إن كان وعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولا ؛ وَيَخِرّون للأذقانِ يبكونَ ، وَيَزيدُهم خُشُوعاً ﴾ (١٧ : ١٠٧ - ١٠٩) فلا يجب فيه أن يكون السجود وضع الجبهة على الأرض ، بل يجوز أن يكون معنى السجود الخضوع والانحناء بالرأس للأذقان ، فقوله : « ويخرون للأذقان » أي يسترخون وينحنون لجهة الأذقان ، خُضَّعاً خُشَّعاً ، وتكرير يخرون للاذقان ، يفيدنا أن الخرور وقع منهم مرتين ، مرة في بدء سماع تلاوته عليهم ، قبل قولهم : « سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » ، واخرى في أثناء تلاوته عليهم بعد هذا القول ، ولكن كانوا في هذه المرة الثانية يبكون لقوة ما اعتراهم من الخشوع .

البدو وسكناهم وشهادتهم

١٣ — في الحديث الشريف : (ساكن الكفور كساكن القبور) ،وسكنى البدو تعد أنزل جداً من سكنى القرى ، بَلْهَ المدن ، حتى أنه كان في الاسلام من رجع بعد الهجرة الى موضعه من البدو ، من غير عذر ، يعدّونه كالمرتد ، فكان يحرم على المهاجر تركه هجرته ، ورجوعه للبادية ، ويعدّ ارتداد المهاجر أعرابياً من الكبائر ، ولكن كل هذا كان قبل فتح مكة ، فلما كان الفتح سقط فرض الهجرة ، وصارت السكنى في البدو جائزة ، إنما مع الكراهة ، وذلك لما فيها من البعد عن العلم والدين والنور ، ففي الحديث « لاتجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ، فكرّه شهادة البدوي ، لما فيه من الجفاء في الدين ، والجهالة بأحكام

الشرع ، ولأنهم في الغالب لايضبطون الشهادة على وجهها ، واليه ذهب مالك ، والناس على خلافه . ـ احسنت احسنت ـ

حسن الختام

آ(١٠١) رَبِّ ! قد آتَيْتَني مِنَ المُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، فاطِرَ السموات والأرضِ ، أنتَ وَليّي في الدنيا والآخرة ، تَوَفَّني مُسْلِماً ، وألحِقْنِي بالصالحين ﴾

افتتحت المجلسه وتليت الآية المئةوالواحدة ، فقامالسيدالفراتي وقال :

قال يوسف مخاطباً الباري عز وجل (ربّ) كم أنا مدين لك ، حيث (قد آتيتني) حظاً (من الملك) بمصر في مملكة مليكها « الريان » (وعلمتني من تأويل الاحاديث) أحاديث المنام ، وأحاديث اليقظة ، يا (فاطر) ياخالق على غير مثال سبق (السموات والأرض) ـ والفطر هنا الاختراع والابتداء ، وبابه نصر ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : « كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها » ـ (أنت وليي) متولي أموري (في) داري (الدنياوالآخرة) أوفي أولى أحوالي وأخراها (توفني مسلماً) فللآخرة خير للعبد من الأولى (وألحقني) عند نزول الحمام بي (بالصالحين) في الملأ الأعلى وكفى ، فلست أسألك بعد ذلك شيئاً مع علمي بدوام افتقاري اليك .

دينهم ، ثم كتبه لهم كاتب منهم ، نشأ في السبي والأسر بين الوثنيين بعد عدة قرون ، فنقص منه وزاد فيه ، ولم تعرف المصادر التي جمع منها ما كتبه ، معرفة صحيحة ، كل هذا كان خفي على علماء المسلمين عدة قرون بعد انتشار العلم فيهم.

(٥) جعل الله تعالى الآية على صحة رسالة النبي ﷺ علمية ، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين ، وهي إتيان رجل أُميّ عاش بين الاميين، إلى ما بعد سن الكهولة ـ بكتاب فيه أعلى العلوم الآلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين ، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه ـ ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها ، وأسلوب أشد إعجازاً .

(٦) ويوجد في القرآن،إخبار عن الغيب المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرضِ ، وهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون في بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأمرُ مِنْ قَبلُ ومِنْ بَعدُ،ويومئذٍ يفرَحُ المؤمنونَ بنَصْرِ اللهِ﴾(٣٠: ٢-٥) وقد ظهر صدق ذلك بعد بضع سنين من نزول الآية،وكان أبو بكر الصدّيق(ض) راهن بعض المشركين على صدق الخبر ، فربح الرهان ؛

ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل كما قال : ﴿ إنّا نحن نَزّلنا الذّكْرَ وإنّا له لَحافِظونَ ﴾(١٥ : ٩) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا منكم وَعمِلوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأرضِ ، كما استَخلَفَ الذينَ مِنْ قَبلِهم ، وَليُمَكّنَنّ لهم دِينَهم الذي ارْتَضَى لهم ، ولَيُبَدّلَنّهُم مِنْ بعدِ خَوفِهِمْ أمْناً ، يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بِي شَيئاً ﴾ (٢٤ : ٥٥) وقد أنجز الله وعده .

الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً لذاته

التعليق السادس ـ هذه الآية (ع ١٠٢) بحث من بحوث أصول الدين ، وهو

الاستدلال على النبوة ، ولم يكد يتعرض له هنا قصداً ولذاته ، ولكن ذُكر بعد تمام القصة اليوسفية استدلالاً بها على صحة النبوة ، فهو بحث ذكر بالعَرَض ، ولذلك اختصر جداً ولم يُطَوَّل فيه ، إذ ليس المقام مقام استدلال ، وانما هو مقام قصص وتاريخ .

هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ

التعليق السابع — غني عن البيان ان هذه السورة مكية ، واليهود والنصارى لم يسكنوا مكة ، ولو كانوا قد سكنوها ، لكان لكل منها حيّ خاص ، ولكان لكل فريق معبد خاص ، يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم ، وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة عند اليهود والنصارى ما يشير أقل إشارة إلى وجود شيء من ذلك .

نعم ربما أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى « خيبر » ليجلبوا منها حليّ آل « أبي الحقيق » التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك .

كذلك كان « كعب » بن الاشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى « بدر » وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ، ويحدثنا الواقدي » أنه وجد في مكة عبد من اليهود كان اسمه « عبد الدار بن جبر » سمع سورة يوسف ، فكان لها وقع شديد في نفسه فأسلم ودخل في ذمة النبي ﷺ ، ولما بلغ الخبر مشركي مكة ، أوسعوه ضرباً ؛

نعم إن بعضاً من أفراد اليهود سكنوا الطائف ، وفي مدن أخرى من الحجاز غير مكة ، ومع ذلك كانوا قليلين ، وقد كان بعض أفراد النصارى من أحرار وعبيد ساكنين في مكة ومختلطين بأهلها ، ولكنهم مع ذلك قليلون جداً .

هذا كل ما قدر عليه الأجانب أن يثبتوه لكي يخيلوا للناس أن النبي ﷺ

ربما كان سمع ما يتعلق باليهود والنصارى كقصة يوسف ونحوها من بعض هؤلاء المذكورين .

تكرر المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات اخرى

التعليق الثامن إن المعنى الذي حوته هذه الآية قد تكرر في عدة آيات ، منها ما أُمِرَ النبي أن يقوله : ﴿ قُلْ : هو نَبَأٌ عظيمٌ أنتم عنه مُعْرِضونَ ، ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بالمَلأِ الأعلى إذْ يَختَصِمُون ، إنْ يُوحَى إليَّ إلاّ أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ (٣٨ : ٦٧ ـ ٧٠) يشير بذلك لما ذكره عقبه على الأثر من المقاولة بين المَلَك النائب عن الله تعالى وبين إبليس ، وهذان الفريقان هما المراد « بالملأ الأعلى » والمراد من كونهما ملأ أعلى ، أنهما من العالم الروحاني لا الجسماني ،

وقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ وما كنتَ بجانب الغَرْبِيِّ إذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأَمْرَ ، وما كنت مِنَ الشاهدين ، ولكِنَّا أنْشَأْنا قُروناً فتطاوَلَ عليهم العُمُرُ ، وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا ، ولكنَّا كنا مُرسِلين ، وما كنتَ بجانبِ الطورِ إذْ نادَينا ، ولكنْ رحمةً مِنْ رَبِّكَ ، لتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهم مِنْ نذيرٍ من قَبْلِكَ ، لعلّهم يَتَذَكّرون ﴾ (٢٨ : ٤٤ ـ ٤٦) ، قال ذلك بعدما قص على نبيه ﷺ قصة موسى عليهما السلام ،وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحِيهِ اليك ، وما كنتَ لديهم إذْ يُلقُون أقلامَهم أيُّهُم يكفُلُ مريمَ ؟ وما كنتَ لديهم إذْ يَختصِمون ﴾ (٣ : ٤٤) ، وقوله تعالى بعد ما فصّل قصة نوح مع قومه : ﴿ تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها اليك ، ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ من قَبْلِ هذا ﴾ (١١ : ٤٩) .

المكر الثابت والمكر المقدر بقدر العمل المرافق له

التعليق العاشر ــ قوله « وهم يمكرون » جملة حالية ، ولم يقل « ماكرين »

حتى تكون حالاً مفردة ، لأنه يوجد فرق كبير في المعنى بين هذه الحال الجملة ، والحال المفردة ، فمعنى « وهم يمكرون » أن المكر وصف ثابت لهم في نفسه ، وقد أجمعوا أمرهم في حال تلبسهم به ، ولكنهم هم مكرة أيضاً قبل ذلك وبعده ، ومعنى « ماكرين » ان المكر كان وصفاً لهم حال إجماعهم أمرهم فقط ، فهو تابع لإجماعهم أمرهم ، مقدر بقدره ، تقول مثلا : « جاء زيد وهو راكب » ومعناه ان الركوب وصف ثابت له في نفسه ، وقد جاء هو في حال تلبسه به ، وتقول : « جاء زيدٌ راكباً »ومعناه أن الركوب كان وصفاً له حال المجيء .فهو تابع للمجيء مقدر بقدره فإذا تقرر هذا المعنى ، فليهنأ اليهود الصهيونيون الذين هم ذرية هؤلاء « المكرة » الموصوفين هنا بدوام المكر !!!

من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة

التعليق الحادي عشر — هذه الآية والآيات التسع التي تليها ، أتى بها بعد تمام القصة اليوسفية ، لأن عادة القرآن المجيد هكذا ، إذ بينا تراه يتكلم في التاريخ لا يلبث أن يخرج عنه إلى موضوع « التوحيد » وأدلته ، وبينا تراه يتكلم في الشريعة لا يعتم أن يحكي عن « التوحيد » وآياته ، وبينا تراه يتكلم عن محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، إذا هو ينتقل لذكر « التوحيد » ، الأمر الذي نفهم منه ، أن بيان « التوحيد » هو أهم شيء في نظر القرآن ومنزله والمنزل عليه ، ولا ريب أن الغرض الحقيقي من رسالة النبي ﷺ ، ونزول القرآن عليه هو رفض عبادة الأوثان والثالوث ، وهجر الاعتقاد بذلك ، والحرص على الاعتقاد بالوهية واحدة ، خلافاً للعرب ، وبربوبية واحدة . خلافاً للنصارى ، كما أن القرآن يحرص جد الحرص ، على الاعتقاد بيوم الدين ، والعمل بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، ولعمري كأنَّ النبي ﷺ كان يحس أن عقيدة العرب بالأوثان ، وعقيدة النصارى بالثالوث — كأنها إبرة تنخسه في جسمه ، وتشكه في رأس قلبه ، فلذلك ولكون

ربه كان يسارع في هواه ، اعتنى القرآن الجيد كثيراً وكثيراً جداً ، بالطعن في تلك العقائد الوثنية الزائفة .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك)

— ٢ —

وقال الحاج محمد الصومطري [1] :

طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والأنبياء

« هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة باللغة العربية ، هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ، وانه ليس لجبريل منه إلا تبليغه عن الله ، كما أن الرسول ﷺ ليس له منه إلا تبليغه ، فجبريل تلقاه من الله بالصفة التي تليق به تعالى ، ولا يعلمها من خلقه إلا جبريل ، ثم محمد ﷺ تلقاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه إلا محمد وأمثاله من الأنبياء الذين تلقوا مثله عن جبريل ، ثم الصحابة سمعوه من النبي ، ثم سمعه منهم التابعون ومن تبعهم إلى عصرنا، وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصواتنا البشرية .

وقد اخترع البشر في العصر الأخير ، وسائل لأداء الكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يعقلها أهل العصور السابقة، كالتلغراف السلكي واللاسلكي والراديو والتلفون وكل منها مظهر من مظاهر الكلام النفسي ووسائل ادائه ، ويسمى كلاماً حقيقياً لا مجازياً ، وينسب كل كلام إلى من صدر عنه ، وكان مجلى كلامه النفس ، فالجملة من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بألسنتهم وأقلامهم وبآلات التلغراف والتلفون والراديو وكل منهم يقول « إنها كلام زيد » ،ومن يرى في القرطاس : « قفا نبك من ذكرى

(١) نسبة الى جزيرة صومطرة في البلاد الاندونيسية .

حبيب ومنزل » يقول إن هذا كلام امرىء القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي انسان يقول ذلك ؛ ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ، ثم كتب في الدفاتر وقرأه الناس : ان لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وأن الذي أنشد على الناس فيه هو كلام المنشد ، وأن معناه فقط لامريء القيس ، أو ان ما تمثل من هذا النظم في امريء القيس هو شعره ، وما نقرأه في الكتب أو من حفظنا لمعلقته هو كلامنا ، ولا أن هذا كلامه مجازا ، وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وانه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها الا النقل لكلام غيرهم ؛

وإذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لا يختلف مدلولها عن مدلول ما في أنفسهم ، فالله تعالى أقدر منهم على ابلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس ، بما يليق باستعداد كل منهم ، فلا غرو من أن يكون لوحيه للملائكة ، صفة غير صفة وحيه للرسل من البشر ، فيما يكلمهم به بغير واسطة المَلك ، وأن يكون لما يسمعه النبي من الملاك صفة غير صفة ما يسمعه الملك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره ، لا يختلف باختلاف طرق ادائه وتبليغه ، كما نعرفه في الكلام المسموع بالآذان والمقروء في الصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ، ومثله المرسوم في الهواء أو ما تكيف به الهواء ، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلى كلام الله تعالى في الألسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف ، وفي اللوح المحفوظ وفي انفس الملائكة والبشر — لا يخرجه عن كونه كلامه تعالى ، ولا يقتضي أن تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى ، مشابهة لصفة الكلام في أنفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه للملائكة ولموسى ومحمد ﷺ كتكليم بعضنا لبعض ولكن مؤداه واحد ، فالذي نقرأه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد

ﷺ فتلقاه عنه بهذه اللغة المربية ، وهذا الأسلوب المعجز ، الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية » .

(عن مجلة المنار)

طبيعة اكثر الناس عدم الايمان

آ (١٠٣) ﴿ وما أكْثَرُ الناسِ « وَلَوْ حَرَ

بمؤمِنِين ﴾ .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وثلاثة ، فقام الهمام احمد اليافي وقال :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : إنني قد أطلعتك يا محمد على انباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، (و) مع هذا (ما اكثرالناس) عموم الناس ، أو أهل مكة خاصة ، (ولو حرصت بمؤمنين) حيث تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فأنت ولو استهلكت في سبيل ايمانهم ، واستقتلت في الحصول على تصديقهم إياك ، وطار قلبك شعاعاً على ذلك ، فالا كثرية هم جهنميون لا يؤمنون برسالتك ولا بالتوحيد ، لأن في قلوبهم مرضاً :

قال الشاعر :

ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريض يجـــد مراً به الماءَ الزلالا

وقال البوصيري رحمه الله :

قدتنكرالعينُ ضوءَ الشمس من رمد وينكــر الفم طعم المــاء من سقم

كما أن البدن إذا مرض ، لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ والارشادات .

وفيما يلي تعليقان على الآية:

تأسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس

أولاً — هذا قول الله تعالى لرسوله ، وهو أعلم المرسلين وأخلص المخلصين ، في ارشاده ونصحه للخلق ، فاذا كان هو كذلك ، فليتأس به الناصحون ، الذين تصدروا للارشاد بإخلاص ،ولا يحزنوا من عدم إفادة إرشادهم لكثير من الناس وليعلموا أن عدم النفع له سببان: فساد في الواعظ يصرف الموعوظ عن سماع مايقول وفساد في الموعوظ يجعله غير مستعد للانتفاع بما يسمع ، ولو جاءه جميع المرسلين .

المؤمنون أقل من الكافرين

ثانياً — مقتضى هذه الآية أن المؤمنين أقل من الكافرين ، ولذلك شواهد :

١ً — قوله تعالى : ﴿ قال : أ رَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عليَّ ،لَئِنْ أخَّرتَنِ إلى يومِ القِيامةِ ، لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ — إلاّ قليلاً ﴾ (١٧:٦٢) أي لاستأصلنهم بالاغواء — من احتنك الجرادُ الأرضَ إذا جرد ما عليها أكلاً ، وأحنَكَ الشاتين : أي أكلها جميعاً — .

٢ً — قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرُهُم مؤمنينَ ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسل لهم نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يعلم من سورة الشعراء .

٣ً — قال تعالى : ﴿ فلمّا أحَسَّ عيسى منهمُ الكفرَ ، قالَ : مَنْ أنصاري إلى اللهِ ؟ - قال الحواريّون : نحنُ أنصارُ اللهِ ،آمنّا باللهِ واشهَدْ بأنّا مُسْلِمون﴾ (٣ : ٥٢) والحواريون كانوا اثني عشر فقط ، ارتد منهم « يهوذا الاسخريوطي»

فبقي أحد عشر ؛ فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الايمان ، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية، فالمسلمون اليوم يعدون (٣٦٠) مليوناً ، ولكن عدد المسيحيين اليوم (٤٢٠) مليوناً،وعدد الوثنيين(٥٠٠)مليوناً،وهؤلاءواولئك وان كانوا مؤمنين بالله إلٰهاً ، لكن النصارى آمنوا به إلٰهاً أباً ، وبالمسيح إلٰهاً ابناً وبالروح القدس إلٰها ناطقاً بالأنبياء ، قالوا : « والكل إلٰه واحد !!!... » ، وأما الوثنيون فأشركوا في الألوهية : أي العبادة ، دون الربوبية:أي الخالقية ،فالخالق عندهم رب واحد ولكن المعبود عندهم ، هو وغيره من الوسطاء .

(مرحى)

إخلاص النبي ﷺ في دعوته

آ (١٠٤) ﴿ وما تَسأَلُهُمْ عليهِ مِنْ أَجْرٍ ، إنْ هُوَ إلاَّ ذِكرٌ للعالَمِين ﴾

استمرت الجلسة منعقدة ثم تليت الآية المئة وأربعه ، فقام برهان الحق النابلسي وقال :

(وما تسألهم) يا محمد (عليه) على ما تحدثهم به وتذكرهم (من أجر) أي من جعالة ولا أجرة ولا جزاء ، أي لا تريد منهم منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار (إن هو) هذا الذي تحدثهم به (إلاّ ذكر) عظة من الله (للعالمين) عامة ، وحثّ على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ، يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

واليكم الملحوظات التالية :

تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن

الملحوظة (١) — تكرر ذكر هذا البحث في القرآن الكريم عشر مرات :

فاولاً — قال تعالى خطاباً لخاتم النبيين : ﴿ قلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أجْرٍ فهو لكم ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على اللهِ ، وهو على كلّ شيءٍ شَهِيدٍ ﴾ (٣٤ : ٤٧)

ثانياً — قال تعالى خطاباً لجنابه الأعظم: ﴿ قلْ ما أسألُكم عليه من أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ ، إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالَمين ﴾ (٣٨ : ٨٦) .

ثالثاً — قال تعالى خطاباً لنور العالم ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجْراً ، إنْ هو إلاّ ذِكْرَى للعالَمين ﴾ (٦ : ٩٠) .

رابعاً — قال تعالى خطاباً لسيد الأنبياء : ﴿ أم تسألُهم أجراً ، فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ ؟ ﴾ (٥٢ : ٤٠) .

خامساً — قال تعالى خطاباً لفخر الانسانية: ﴿ قل لاأسألُكُم عليه أجراً، إلاّ المودةَ في القُربَى ﴾ (٤٢ : ٤٣) أي لكني إنما أقصد مودتي لقرباي ،فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البديع اللطيفة ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح ، بتقدير دخولها في صفة الذم المنفيه كقوله تعالى : ﴿ لا يَسمَعونَ فيها لَغْواً ولا تأثيماً ، إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ (٥٦ : ٢٥ و ٢٦) وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

ولا عيب فيه غير أن خدوده بهنّ احمرار من عيون المُتَيَّم

والدليل على ما جرينا عليه في معنى هذه الآية ما نقلناه لك من الآيات الأربع

المخاطب بها سيد الكائنات ، التي تنفي عنه طلب الأجر من الناس من أساسه ، بالمرة من كل وجوهه ، وخير ما فسرته بالوارد .

سادساً — وهكذا قال نوح: ﴿ وماأسألكم عليه مِنْ أجْرٍ ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على رب العالمين ﴾(٢٦ : ١٠٩).

سابعاً — وهكذا قال هود : ﴿ يا قَوم لا أسألكم عليه أجراً ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على الذي فطرَني ، أفلا تعقلون ؟ ﴾ (١١ : ٥١) .

ثامناً — وهكذا قال صالح : ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجْرِيَ إلاّ على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٦٤) .

تاسعاً — وهكذا قال شعيب : ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ،إنْ أجرِيَ إلاّ على ربِّ العالمين ﴾ (٢٦ : ١٨٠) .

عاشراً — وهكذا قال حبيب النجار :﴿ إتّبِعُوا مَنْ لا يَسألُكم أجْراً، وهم مُهتَدون ﴾ (٣٦ : ٢١) يعني بذلك رسل المسيح إلى أنطاكيه .

الاخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها

الملحوظة (٢) — هذه الآية تسير إلى اخلاص النبي ﷺ في دعوته ، إذ الغاية من « الدعوة » صلاح العالم ، وانتظام شئونه على منهاج السعادة ، فاذا وجّه الداعي قصده إلى هذا الغرض ، بدون نظر إلى منفعة مادية ، بل ولا معنوية تعود عليه ، استقام على الطريقة ، وقضى حياته في سيرة راضية ، وكان كلامه مقبولاً جداً ، وإذا انحرف عن هذا القصد ، ولو قِيدَ أنملة ، رأيته يضطرب في حال دعوته ، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح ، أينما تصرفت ، وقد حكي التنزيل أن شعيباً (ع) قد برّأ نفسه ورفّعها عن أن تؤمّ غرضاً من« الدعوة » سوى الاصلاح قال : ﴿ إنْ أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطَعْتُ ﴾ (١١ : ٨٨) ، فتشوّف

« الداعي » إلى ما في أيدي القوم ، وتطلّعه إلى أن ينال من ورآء إرشاده شيئاًمن هذه الحياة ، قادح في صدقه ، وداخل بالريبة في إخلاصه .

معنى « العالمين »

الملحوظة (٣) — كلمة « العالمين » جمع عالَم وهم الناس كما يدل عليه استعمال القرآن ، في مثل : ﴿ لِيكون للعالَمين نذيراً ﴾ (٢٥ : ١) وقول لوط : ﴿ أتأتون الذُّكرانَ مِنَ العالَمين ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦٥) أي الناس ، فهو على هذا مشتق من العالم ، ولذلك جُمع جَمع مذكر سالم .

الفصل الثاني

تقريع الغافلين عن التفكر في آيات الله

آ (١٠٥) ﴿ وكأَيٍّ مِنْ آيةٍ في السموات والأرضِ ، يَمُرُّونَ عليها ، وهم عنها مُعْرِضونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وخمسة فقام نعمة الله الجنيني (١) وقال :

يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات ،من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات،وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهه ومختلفات ، في الطعوم

(١) نسبة الى جنين من بلاد فلسطين .

والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، فقال تعالى : (وكأيّ) وكم (من آية) علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والأرض) مروا و (يمرون) وسيمرون (عليها) ويرون فيها العجب العاجب (وهم) أي الناس (عنها معرضون) مع أن الحقيقة بنت الفكرة والنظر بريد الصواب ، ولكن التفكير والتدبر عند هؤلاء ضائع ، وهم انما يعيشون في الدنيا كالأنعام ، يأكلون ويشربون ولا يتفكرون ، مع أن هذه الآيات كثيرة ، يُحصَى النمل ولا تُحصَى ، وتُستقصَى الحركات والسكنات ولا تُستقصَى ، قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر — الى آثار ماصنع المليكُ
غصون من زبرجد شاهدات — بأن الله ليس له شريك

وقال أبو العلاء المعري :

كل يسبح فافهم التقديس في — صوت الغراب وفي صياح الجد جد[1]
أما المجاوز فارعة وتوقه — واستعف ربك من جوار الملحد
ليس الذي جحد المليك وقد بدت — آياته ، بأخ لمن لم يجحدِ

وكأي من آية ...

— ٢ —

وقام الشيخ المحقق اليماني وقال :

اسمحوا لي أيها السادة باسماعكم بضعة مواد على هذه الآية العظيمة :

تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية الدالة على توحيد الاله

المادة (١) — قوله : « وكأي من آية . الخ » ـ أي لم يكن كل أمرهم أنهم

(١) الجد جد طوير قفاز يشبه الجراد ويقال له صرار الليل .

لم يستدلوا بما ذكر في (آ١٠٢) من دليل النبوة، بل يعطف على هذا ويزاد عليه أنهم أضافوا الى عدم الاهتداء بدليل النبوة، عدم الاهتداء بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم الى توحيد الإله في الالوهية، كما وحدوه في الربوبية، أي فهم مع هذا الاعراض عن النظر في دليل النبوة، معرضون عن الكثير من الآيات الكونية، الدالة على أن الرب الواحد، هو الحقيق بالألوهية وحده، وأنه لايجوز أن يدعى غيره، ولا أن يعبد سواه، لأن الربوبية والألوهية متلازمتان، فالآيات الدالة على أن الرب واحد، دالة أيضاً على أنه هو الإله وحده، ولولا اعراضهم عن النظر في ذلك، والتأمل فيه عناداً من رؤسائهم، وجموداً على التقليد من دهمائهم، المانع من النظر والاستدلال، لظهر لهم ظهوراً لايحتمل المراء، ولايقبل الجدال. وأصل «الاعراض» التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه.

تقريع اهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل ابصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات

المادة (٢) — هذه الآية الكريمة، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، كما أنها للناس عامة، وهي تقريع لمن عطلوا أبصارهم عن ادراك صحائف الوجود، وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة، وكم جاء في القرآن الكريم أقوال من هذا القبيل كما في قوله تعالى: ﴿لهم قلوبٌ لا يَفقَهون بها، ولهم أعيُنٌ لا يُبصِرُون بها، ولهم آذانٌ لا يَسمَعون بها، أُولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ، أُولَئِكَ هم الغافلون﴾ (٦ : ١٧٨).

النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله

المادة (٢) — آيات الله التي في السموات والأرض كثيرة جداً، فمنها نوع عتيق، ومنها نوع جديد، فمن آيات الأرض من النوع العتيق أن النمل يرى الانسان

قاصده ، أو ماشياً قريباً منه ، ولا يترك عمله الذي هو فيه ، ولا يجفل ولا ينثني لذعر ، ولا يخاف من غدر،مع ان الانسان بالنسبة للنمل كالجبل ، ولو اننا تصورنا جبلاً يمشي على الأرض ، ويكاد يصادم الانسان ، لهلع إذا رآه ، ومات قبل أن يقرب منه ، فما ذاك إلاّ لان الله تعالى أودع في قلب النمل من الشجاعة والثبات على العمل ما لم يودعه في قلب الانسان ، وإن ذلك من أعظم آيات الله في أرضه ،

ومن آيات الأرض ، ثبوتها إذ لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وذلك في قوله تعالى : ﴿ وألْقَى في الأرضِ رواسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكم ﴾ (١٦ : ١٥).

ومنها ان كل شيء حي فهو من الماء،حتى الجماد فإن له حياةً قائمة بماء «التبلور» وذلك في قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍ ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها ما كشفه علماء النبات من تلاقح النبات ، وأنه أزواج : أي ذكر وانثى والله تعالى يقول : ﴿ فأخْرَجْنا به أزْواجاً مِنْ نباتٍ شَتَّى ﴾ (٢٠ : ٥٣) ويقول : ﴿ ومِنْ كُلِ الثَمَرَاتِ جَعَلَ فيها زَوجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٣ : ٣) ويقول: ﴿ ومَنْ كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوجَيْنِ لعلكم تَذَكَّرون ﴾ (٥١:٤٩)، ويقول : ﴿ سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها مما تُنبِتُ الأرضُ ، ومن أنفسِهِم ، ومما لا يَعْلَمون ﴾ (٣٦ : ٣٦) .

ومنها كون الرياح تلقح النبات ، بنقل أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات بعضها إلى بعضٍ فتثمر بالتلقيح ، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ وأرسَلْنا الرياحَ لواقِحَ ﴾ (١٥ : ٢٢) ، ولما علم الافرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن من المستشرقين وهو المستر « اجتيري » الانكليزي الذي كان معلم العربية في جامعة اكسفورد بانكلترة : « إن أصحاب الإبل ــ يعني العرب ــ قد عرفوا ان الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً » (نقل ذلك السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة « صفوة الاعتبار ») .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك إلا من القرآن الكريم .

ومن آيات الله تعالى عظمة « الشمس » وكوكب « الشعرى » بالنسبة إلى الأرض ، فان هذه الأرض إذا نحن قدرناها تقديراً نسبياً بحجم الحمصة ، تكون مساحة « الشمس » بالنسبة اليها كمساحة مائدة مستديرة، طول قطرها ذراع فرنسية؟

ومساحة سطح كوكب « الشعرى » الذي قال الله فيه :﴿ وأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (٥٣ : ٤٩) تبلغ مئه ذراع فرنسية ؟ بالقياس إلى تلك الحمصة .

ومن آيات الله تعالى ، أن جميع هذا العالم الشمسي يدور في الثانية الواحدة بسرعة عشرين الف ذراع فرنسية ، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ والشمسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ (٣٦ : ٣٨) ، فتأمل هذا التنكير في قوله : « لمستقر » فهو يشعرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتومة ، فما الشمس بمؤلهة إذا كان لها استقرار، بل هي محدثة فانية، ثم قوله « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق ، بل هو « لها » .

ومن آيات الله تعالى « المجرّة » وهي سطح هائل في غاية العظم ، وهي محيطة بالسماء ، وتسبح فيها الوف من العوالم .

ومن آيات الله تعالى أن يمدد درجات الليل والنهار . واصباً ودائماً ، ثلاثمئة وستون ، كما ذكر ذلك علماء الميقات ، وقد أشير لذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) ، فان عدد « رفيع » بحساب الجُمّل هو ما ذكر ؛

وهل سمعت « بحَمام الزاجل » ؟ خذ حمامة من مُطَيَّرها ، واحملها إلى آخر حدود اقليم ما واطلقها ، فترجع إلى مُطَيَّرها، فما هي هذه الحاسة التي تدفع الحمامة إلى بيتها من مسافة الوف الاميال ؟ ليست حاسة السمع ولا النظر ، ولا شيء من الحواس الخمس ، هي حاسة لا نعرفها ، لأنها ليست فينا .

ومن آيات الله الباهرة، أن ما تأخذه الأرض مطراً وثلجاً تردّه بخاراً ، وذلك بحسب الاحصاء الأخير ١٦ مليون طن في الثانية وبيانه مذكور بالتفصيل في الكتب المختصة .

ومنها الطير كما قال تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوا إلى الطيرِ فوقَهم صافاتٍ ويَقبِضْنَ ؟ ما يُمسِكُهُنَّ إلاّ الرحمنُ ، إنّه بكلّ شيءٍ بصيرٌ ﴾ (١٩:٦٧) فمن آيات توحيده وعجائب قدرته مايرونه في كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستعلائها في طبقات الجو ، مع أنها أجسام ضخمة ، كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض ، ولكنه تعالى بباهر قدرته وعجيب صنعه وحكمته ، خالف في أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى ، لائقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط ، فمن فعل هذا ياترى ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟

حقاً إنه ما أمسكها إلا الرحمن الذي رحم هذه الحيوانات ، فيسّر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان ماحفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها ، ولا بدع ، فهو تعالى بكل شيء بصير ، يعطي كل شيء من خَلْقه القُوَى والسُنَن اللازمة له ، والمتوقف عليها ابقاؤه ، وقد اتفق العلماء على أن السبب في استمرار الطيور طائرة ، يرجع إلى تَقَعّر أجنحتها وتحدّبها ، وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في

طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها ، ولعمري إن طيران الإنسان ، لهو من الآيات الحديثة العجيبة أيضاً كطيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى مسألة « الطيران » في جوّ السماء . لذكره القرآن الكريم ، لأهل ذاك العصر ، ولكن قبل اختراعه كيف يذكره لهم ، وهم لا يعرفونه ؟ وكيف يحيلهم على مجهول لهم قد ينكرونه ؟ ولعمر الحق إنه لا فرق بين طيران الطير ، وطيران الإنسان ، في أن كلاً منها أثر من آثار قدرة الله وعجيب صنعه في خلقه ، « طار الطائر » بقوى ونواميس مودعة في تركيب جسمه ، وهي من الله ، و « طار الإنسان » بقوى عقله وعلمه وملاحظته وصبره وثباته وشجاعته ، ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه هي من صنع طيارته ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، أمنا بالله وما أنزل الينا من عند الله !!!... (١)

ومن آياتنا نحن أهل اليوم — النظارات المقربة ، التي هي عبارة عن عدسيات بللورية ، ضمن انبوب طويل ، بها نرى النجوم البعيدة عنا مليارات من الأميال كأنها قريبة منا جداً .

ومنها ان قليلاً من المياه الغالية في مرجل ، تستطيع جر قطار ضخم ، بقوة لا يستطيعها جواد ولا مئة جواد .

ومنها أن مواد كيماوية في وعاء يمتد منه شريط نحاسي، وهو ما يسمى « تلغرافاً » يجعلنا نتخاطب مع أقاصي الأرض إلى أقاصيها كأننا واقفون بعضنا إزاء بعض ،

(١) الكلام لمعاصرنا الاخ الشيخ عبد القادر المغربي .

ومن آيات الله تعالى، طريقة التصوير الضوئي «فوتوغراف» بامساك الظل، وهي مذكورة في آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ الى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّـــلَّ ؟ ولو شاء لجعَلَهُ ساكِناً .. ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلا .. ﴾ (٢٥ : ٤٥) فتأمل قوله ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ فان هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر كائن لامحالة .

ومن آيات الله تعالى ، ما اكتشفه العلماء من أن مادة الكون هي « الأثير »، والله تعالى يقول في بدء الخليقة : ﴿ ثم استوى الى السماءِ وهي دُخانٌ ﴾ (٤١ : ١١).

ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي ، والله تعالى يقول في السموات والأرض : ﴿ كانتا رتْقاً ، فَفَتَقناهما ﴾ (٢١:٣٠).

ومنها المذياع « الراديو » الذي ينقل الصوت والغنة الى مئات الأميال .

ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون

المادة (٣) — هذه الآية الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله تعالى ، فلهـذه الآية وأشباهها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقـــل الى النظر لما في العالم من الظواهر، قال تعالى : ﴿ أو لم يَنْظُروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ ، ومـــا خَلَقَ اللهُ من شيءٍ ﴾ (٧ : ١٨٤) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرْ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ ﴾ (٨٦ : ٥) وقال :﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ الى طعامِـه ، أنـَّا صَبَبْنا الماءَ صبّاً ، ثم شَقَقنا الأرضَ شقّاً ، فأنْبَتْنا فيها حَباً ، وعِنَباً وقَضْباً وزَيْتُوناً ونَخْلاً ، وحَدائِقَ غُلْباً ، وفاكهةً وأبّاً ، مَتاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٨٠:٢٤—٣٢) ، وقال تعالى: نَّ فيخلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ

الذين يَذْكُرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنُوبهم ، ويتفكرون في خَلْقِ السموات والأرض : رَبَّنا ماخلقْتَ هـذا باطِلاً ، سُبحانَكَ ﴾ (٣:١٩١) وقال تعالى : ﴿ ومِنْ آياتهِ خَلْقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسِنَتِكم وألوانِكم ﴾ (٣٠:٢٢) إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا الضرب من الآيات بعث العقلَ على النظر في الكون ، وكان له أثر في نمو الحياة العقلية .

فالله تعالى لا يريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم ، والاعتراف بوجود الصانع ووحدانيته انقياداً أعمى ، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكر في آيات الكون ، قال : ﴿ أفلَمْ يَسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلونَ بها ، أو آذانٌ يَسمَعونَ بها ﴾ (٢٢:٤٦)

العقل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى وكل من لم يستعمل عقله ، فكأنما رفض نعمة هذا المنعم ، ولنضرب لكم مثلاً : إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها ونستفد منها ، بل رميناها ، فاننا نهين صديقنا بهذه المعاملة ، فالصديق رمز عن الله تعالى ، والهدية هي العقل ، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا ، والاعتقاد بأمور تنافي العقل ، دليل عدم تحكيم عقولنا فيما نعتقد ، وعدم استعمال عقولنا فيما يجب أن نعرف ونعتقد ، إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ، إذا كان باستطاعتنا إهانته ، ولكن لا نستطيع أن نهينه تعالى جل وعلا .

التوحيد في الربوبية والإشراك في الألوهية

آ (١٠٦) ﴿ وما يؤمنُ أكثَرُهُم بالله الا وهُم مُشركون ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وستة ، فقام الشيخ مأمون من علماء القنفذة (١) وقال :

قال تعالى مخاطباً سيدالرسل (ومايؤمن أكثرهم) أي أكثرالناس أو أكثر

(١) القنفذة من بلاد الجزيرة العربية

أهل مكة ، في إقرارهم بالله وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض ، (إلاّ وهم مشركون) مع عبادة الله عبادة الوثن — لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً ، لكنهم مع الأسف كانوا يشركون في عبادة الوثن ، فهم موحدون في الربوبية ، مشركون في الألوهية ، تعرف منهم وتنكر .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ١ —

ثم تابع الشيخ مأمون كلامه قائلاً :

متى يعبر القرآن بلفظ « الأكثر » و « الكثير »

لقد عبر القرآن « بالأكثر » في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ لأنه كان يوجد في أهل مكة من يؤمن بالله ، وليس فيه شيء من الشرك ، وذلك « كأمية بن ابي الصلت » و « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة » وغيرهم من الحنفاء ، وأيضاً فالمعروف من طبيعة البشر من أهل كل دين أنهم على ثلاثة أقسام : قسم يميلون الى الغلو والتشدد في الدين ، وآخرون معتدلون ، وقسم ثالث متساهلون يميلون الى الفسوق والعصيان ؛ والقرآن لم يحكم على أمة بمثل : ضلال ، فسق ، هدى ، إيمان ، بنص عام يستغرق جميع الأفراد ، بل تارة يعبر «بالكثير» ، وتارة يعبر « بالأكثر» كما هنا ، واذا أطلق أداة العموم يستثني ، كما قال في بني اسرائيل : ﴿ ثمّ تَوَلّيتُم إلاّ قليلاً منكم وأنتم مُعرِضُون ﴾ (٢ : ٨٣) ، وقوله فيهم : ﴿ فلا تؤمنون إلا قليلاً ﴾ (٤ : ٤٥) ، أو يحكم على البعض ابتداء كما في قوله : ﴿ ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بقنطارٍ ، يُؤَدِّهِ إليك ، ومنهم مَنْ إنْ تأمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ ﴾ (٣ : ٧٥) ، وقال تعالى فيهم : ﴿ ومن قوم موسى أمةٌ يَهدونَ بالحقّ وبهِ يَعدِلون ﴾ (٧ : ١٥٩) ، وقال فيهم وفي النصارى: ﴿ منهم أمّةٌ مُقتَصِدَةٌ ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلون ﴾ (٥: ٦٦) ، فقد أثبت لبعضهم

عدم التولي ، ثم أثبت للبعض الإيمان ، ثم للبعض الأمانة ، ثم للبعض الهداية بالحق والعدل ، ثم للبعض الاقتصاد — أي الاعتدال في الدين — وقال تعالى : ﴿لكِنِ الراسِخون في العلمِ منهموالمؤمِنون ، يُؤمِنونبما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (١٦١:٤) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الإيمان المخلصين الذين يتحرون الحق ، هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم ، فالقرآن يعلمنا أنه مامن أهل دين إلا وفيهم الغث والسمين ، فيهم الفاسق والمتشددوالمعتدل؛ ولكن المفسّر المتشيع لأمته ، الذي لم يختبر غيرها ، ولم يكن عارفاً بطبائع الملل ، وحقائق الاجتماع البشري ، لايكاد يتصور أن الإيمان والاخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته ، فهو يطبق الآيات على اختياره واعتقاده .

القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال

وجملة القول إن القرآن يبين حقائق ماعليه الأمم ، في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، وان الدقة التي نراها في تحرّيه الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ولا غيره مما يسمى بالأسفار المقدسة، فاذا جمعنا ماحكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر والبدع عليهم ، في عصر ظهور الاسلام ، لما انتشر الاسلام ذلك الانتشار السريع .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ٢ —

كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية

وقام السيد الحضرمي من علماء حضرموت وقال :

سبق لأخي الشيخ مأمون أن قال في مقدمة الكلام على تفسير مجمل الآية أن

المراد بكلمة « أكثرهم » أكثر الناس أو أكثر أهل مكة ، على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المعدودين من الموحدين « اسماً »و«جغرافياً» أو بحسب « هوياتهم » و « سجل نفوسهم » فترى الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الأنبياء ، يرجون الله ويرجون بعض الأنبياء أو الأولياء ! ! يقدمون نذورهم لله ولسواه ! ! يحلفون بالله وبغيره، يدعون الله وسواه !!وكثيراً مانسمعهم يهجرون الله مقتصرين على ماعداه !!

فيقولون : الله ياسيد ، الله يابدوى ، الله والسيد البدوي ، الله ياامام ، الله والامام عليّ ، الله ياسيد عبد السلام ، الله والنبي ، الله يانبيّ ، الله ياحسين ، في حفظ الله والسيد ، في حفظ الله والنبي ، هذا نذر لله وللنبي ، لله عليّ نذر ولك ياسيدي عبد السلام إن صار كذاوكذا ، هذا نذر لله وللسيد البدوي ، أقسم بالله وبسيدنا الحسين ،بالله العظيم وبالامام علي، وحياة السيدة زينب ، وحياء اللهوالنبي، وحياة الباز والله .

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ماسواه فيقولوم :

يا سيد ، يا بدوي ،يا إمام ، يا سيدي عبد السلام،يا نبي ، يا باز ، هذا الخروف للسيد البدوي ، وهذا الجدى لسيدي الدسوقي ، وهذا العجل لسيدي عبدالسلام، وهذا الكبش للسيدة زينب .. والخ، ولك يا سيدي يا بدوي عليّ خروف إن شفي ولدي ، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة ؛ ثم يقولون : وحياة سيدنا هاشم ، وحياة سيدنا الحسين ، وحق الامام عليّ ، وحياة السيد البدوي ، وحياة عبد القادر الجيلاني،وحياة الباز ، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاءالمتعالمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين .

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكراً مصحوباً بالوثنية والالحادويحرصون على سوآل الأنبياء والأولياء وأشباه الأولياء،والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفاً ، والجبان على دمه ولو فاسداً .

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين

هذا وان في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين ، ولكن (مع الاسف) وجد فينا من حشويي العلماء من طمس هذه الحقيقة ، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم ، وأما المسلم فلا يصيبه منه أدنى غبار ، ولا أصغر شرار ، ولو كان المسلم متلبساً بكل ما أنكره كتاب الله ، كما بالعكس جعل كل ما يحمده القرآن خاصاً بالمسلم ، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك المحامد ، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى ، فما كان فيه من قبيل المدح ، فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتقريظ من حاز لقب « مسلم » سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة ، وما كان فيه من قبيل الطعن ، فما كأنه إلا قصائد ذم دبجت لهجو جماعة اسمهم « غير المسلمين » سواء كانت أعمالهم صالحة أو طالحة . وبهذا حصل تنفير قارئي القرآن غير المسلمين من الاسلام ، كما حصل للمسلم غرور وخدعة ، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . (لافض فوك)

(إلا وهم مشركون ...)

— ١ —

وقال العلامة المغربي [١] :

أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال

الشرك ثلاثة أنواع : (١) الشرك في الربوبية (٢) الشرك في الألوهية وهو الشرك الأعظم (٣) النفاق أو الرياء وهو الشرك الأصغر

---

(١) نسبة الى بلاد المغرب العربي

(١) أما الشرك في الربوبية فهو أن يعتقد أن مع الله رباً آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدبير الكون ، وهذا النوع ليس مقصوداً في الآية ، بل هو قليل جداً في عرب مكة وفي مشركي العرب قبل الاسلام وفي أيام خاتم النبيين ، لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الصانع ، وبأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ولكنهم كانوا مشركين باتخاذ الشفعاء والتقرب إلى الوسائط من المقربين وتسويتهم برب العالمين ، في التعظيم والتوجه بالدعاء والالتجاء .

(٢) والشرك في الألوهية ، ويقال له الشرك الأعظم ، فهو أن يقدم فرداً من أفراد العبادة لغير الله ، وذلك كالسجود والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والسوآل والنذر ، وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله ، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة التي نحن بصددها ، ولهذا النوع مظاهر في كلام العرب، فكان يظهر منهم في التلبية ، إذ جاء في الصحيحين ان المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وفي صحيح مسلم انهم إذا قالوا :[« لبيك لا شريك لك ». قال رسول الله ﷺ: « قَدْ ، قَدْ » أي حَسْبُ حَسْبُ ، لا تزيدوا على هذا] .

وكان يظهر منهم في الدعاء حين يدعون في الرخاء بعد ما كانوا وقت البلاء موحدين ، قال تعالى : ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعُوا الله مُخلِصين له الدِّينَ، فلما نجَّاهم إلى البرِّ إذا هُمْ يُشرِكون ﴾ (٢٩ : ٦٥) .

واليوم يظهر من جهلة المسلمين في الدعاء مطلقاً ،في حيني البلآء والرخاء ،فتراهم وهم في البر لا يخشون شيئاً ، يقولون : يا محمد،يا سيد يا بدوي ، يا خضر أباالعباس، يا سروجي ، يا عبد القادر الكيلاني ، يا إمام عليّ ، كما تراهم وقد جاءتهم ريح عاصف : ﴿ وجاءَهُم الموْجُ مِنْ كل مكانٍ وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعُوا الله مُخلِصينَ له الدينَ: لَئِنْ انجيْتَنَا من هذه لَنَكونَنَّ مِنَ الشاكرين،

فلما أنجاهم إذا هم يَبغُون في الأرض بغير الحق ﴾ (١٠ : ٢٢) وبهذا تعلم ان مشركي هذه الأيام، شر مكاناً من مشركي الأيام القديمة، فالمشركون القدماء كانوا إذا تضايقوا في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، ولكن مشركي اليوم لا يدعون الله في هذا الحال مخلصين له الدين، بل نسمعهم يقولون: يا سيد يا بدوي، وآخر يصرخ: يا نبي الله، وقوم ينادون: يا عبد السلام الاسمر، وآخرون: ياحسين، وغيرهم: يا دسوقي .. الخ الخ مما لا يحصى ولا يستقصى كل قوم لهم من يصرخون له ويلجأون اليه؛

وقد يظهر الشرك الأكبر في بعض الاعمال الوثنية، فإن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت: «دخل عبد الله فجلس إلى جانبي فرآى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ - قالت قلت خيط رُقِيَ لي فيه - فأخذه فقطعه، ثم قال: إنَّ آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُقى والتمائم والتولة شرك» رواه أحمد، وفي لفظ لهما «الطيرة شرك» [1].

(٣) وأما النوع الثالث من الشرك، وهو النفاق أو الرياء، ويقال له الشرك الأصغر، وهو حين يعمل الانسان رياء الناس، فهو مشرك بعمله ذلك، قال تعالى: ﴿ إنَّ المنافقينَ يُخادِعونَ اللهَ، وهو خادِعُهم، واذا قاموا إلى الصلاةِ، قاموا كُسالى، يُراؤُنَ الناسَ، ولا يَذْكرونَ اللهَ إلاَّ قليلاً ﴾ (٤ : ١٤١)، وفي الحديث: ﴿ يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه ﴾ رواه مسلم، وروى أحمد: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم، الشرك الأصغر، - قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ - قال: الرياء».

(١) الرقى جمع رقية، وهي العوذة مع النفث.
والتمائم جمع تميمة، وهي الخرزة تنظم في الخيط ويربط في العنق.
والتولة كهمزة وعتبة خرز ايضاً يعلق على المرأة لكي يحبها زوجها.
والطيرة كعنبة وكسيرة ما يتشاءم به من الفأل الرديء.

(إلاّ وهم مشركون)

— ٢ —

وبعد أن انتهى العلامة المغربي من بيان أنواع الشرك أضاف قائلاً ليسمح لي السادة الأفاضل أن اعلق على قوله تعالى (إلاّ وهم مشركون) بالتعليقات التالية :

الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك

(١) — يوجد فرق كبير بين الجاحد النافي لوجود الاله، كالطبيعي والمادي والدهري ، وبين المشرك ؛ لأن الأول ناف للاله بتة ؛ وأما الثاني فهو مثبت ، يعتقد أن الله موجود وأنه هو الخالق ، يشرك معه غيره في العبادة فقط والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سألتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السموات والأرضَ ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرْ ؟ لَيَقُولُنَّ الله ، فأَنَّى يُؤفَكُونَ ؟.. ولَئِنْ سألتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعدَ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قلْ الحمدُ للهِ ، بل أكثَرُهم لا يعقِلونَ ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣). وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سألتهمْ : من خَلَقَهُم ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فأنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ (٤٣ : ٨٧) وقوله جل شأنه : « قلْ مَنْ يَرْزُقكُم مِنَ السماءِ والأرضِ ؟ أمْ مَنْ يملِكُ السَّمْعَ والأبصارَ ؟ ومن يخرِجُ الحيّ مِنَ الميتِ ، ويخرجُ الميتَ مِنَ الحي ؟ وَمَنْ يُدَبِرُ الأمرَ ؟ فسيقولونَ اللهُ ؛ فقل أفلا تعقِلونَ ﴾ (١٠ : ٣١) وما الى ذلك من الآيات الكثيرة التي تنطق بأن وثنيي العرب في الحجـــاز ما كانوا مشركين شيئاً في الربوبية ، ولكن كانوا مشركين في الألوهية ، فكانوا يسجدون لغير الله ، ويرجون ويخافون ويسألون ويدعون أوثانهم ، ويستغيثون بآلهتهم ، ويحلفون بها وينذرون لها ، ويتكلون عليها ، وكل ذلك عبادة لغير الله ، فاذاً قد اتخذوا لهم إلهاً غير الله ، وهم مأمورون أن يشهدوا : (أن لا إله « أى لا معبود بحق » إلا الله).

تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية

(٢)ـ قوله تعالى :«إلا وهم مشركون» يعني بهم أهل مكة إذ كانوا يقدمون لأصنامهم النذور ، ويحلفون بها ، ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها ، الى غير ذلك من أنواع العبادات ، وكان هذا مع ايمانهم بالله ، أي بوجوده ووحدته في الربوبية وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، القائم بتدبير هذا العالم، وهذا النوع من الشرك قد نشأ في أمتنا ، فبنينا للاولياء الهياكل والاضرحة في مساجدنا ، ودعوناها مع التعظيم والتذلل ، وسجدنا وركعنا لها ، ونقول اننا لم نقصد بذلك العبادة ، يعني اننا لا نسمي هذه الاعمال عبادة ، بل ننتحل لها اسما آخر . فنقول انها «استشفاع» وهذه جناية على اللغة ، تضم الى الجناية على الدين .

الاصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق

(٣) ــ الأصل في النصارى هو التوحيد ، فما كانوا ليؤمنوا إلا بالله وحده ، كما قال المسيح عليه السلام:« وهذه هي الحياةُ الابديةُ ، أنْ يعرفوك أنتَ الإلـه الحقيقي وحدك ، ويسوعَ المسيح الذي أرسلته »(يو ١٧ : ٣٠) ولكن الشرك طرأ لهم في الربع الاول من الجيل الرابع ، فصاروا يعتقدون بالله أباً إلـها قديماً، وبالمسيح ابناً متولداً من الآب ، وهو إلـه قديم من إلـه قديم ، ويؤمنون بالروح القدس ، إلـهاً متولداً من الآبِ والابن ، ومجموع الثلاثـة إلـه واحد ، هـذا هو ثالوثهم الأقدس ، وهذا ما رتبوه أيام الملك قسطنطين الوثني ، وخلَفه من ملوك الرومان ، وهو طور جديد لم يعرفه المسيح وحواريوه عليهم السلام ، وتشكيل لدينهم بشكل من أشكال وثنيتهم السابقة،مؤلف من تقاليد وثني الهندوس والصين والمصريين والأوربيين القدماء ، كما بين ذلك علماء اوربا الأحرار .

هـذا وإن من المعلوم أن الله تعالى أرسل قبل المسيح عيسى رسلاً بشرائع

مخصوصة ، نخص من بينهم موسى ، لوجود بقية من اتباعه ، ولاعتراف المسيح عيسى بناموسه ، وإقراره بشريعته ، وانه جاء مكملاً لها فقط ، ولو سألنا قومه اليهود عن أصل شريعتهم ، وعن اعتقادهم في الله ، المبني على دعوة موسى ، لأجابوا بالتوحيد المطلق ، المجرد عن التثليث والأقانيم ، أخذاً من كتبهم ، فهنا نقول : هل هذه هي دعوة موسى؟ وانها كانت للتوحيد المطلق ، أو أن قومه غيروها بعدما كانت بالتثليث ؟ لا شك أنهم سيقولون بالأول،أي إن دعوة موسى كانت للتوحيد، وعليه نقول: هل كان موسى يجهل ما يجب اعتقاده في مولاه،الذي أرسله واصطفاه؟ أو كان يكذب على قومه ، فيدعوهم إلى أن الله واحد فقط ، وهو يعلم انه ثلاثة في في واحد ، أو واحد في ثلاثة أقانيم ، أو كان يستعمل التورية في أساس الرسالة ، إذ معرفة الله أصل كل دين ، وأساس كل رسالة وشريعة سماوية ؟؟ سيقولون إنه كان يعلم أنه واحد في ثلاثة (أي يعلم التثليث) ولكن لم يؤمر بتبليغه ، لأن الشرائع تأتي على قدر العقول ، فنقول لهم : إن المعهود في تاريخ البشر ، هو ميلهم إلى الوثنية والتعدد ، وهؤلاء قدماء المصريين والأشوريين والكلدانيين واليونان والهنود ـ كان تعدد الآلهة ، معروفاً بينهم وآخذاً حده ، فلو أتى موسى قومه ، ودعاهم على قدر العقول ، لكان الأليق به أن يدعوهم إلى التثليث ، ويقلل تعدد الآلهة نوعاً ما ، خصوصاً وقد كان ظهوره ، في مدة مجد المصريين ، وتعدد الآلهة عندهم أشهر من أن يذكر . فهذا قول لا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إن قضية التثليث غير معقولة، فيجب الايمان بها اتباعاً للوحي، نقول: فلم لم يدع اليها موسى والانبياء ، ما دام لا يشترط فيها العقل ولا الاستعداد ؟

الاعتقاد بقدرة الاولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله

(٤)ـ يدعي البعض أو يعتقد ان الاولياء والصالحين في قبورهم يضرون وينفعون ، ويحيون ويميتون ويعطون ويمنعون ، وانه يتوسل الى الله تعالى بذواتهم

ويدعى تعالى بواسطتهم ، لا وحده ، وهو شرك محض . إذ لا نافع ولا ضار الا الله ، وانه لا يتوسل اليه تعالى إلا بما شرعه لعباده في كتابه ، وعلى لسان رسوله من الفرائض والسنن ، وانه لاسبب لقضاء الحاجات ، وجلب النافع ودفع الضار إلا ماهدى الله الناس اليه من سننه المطردة في خلقه ، كما انه لا فاعل الا الله ، ولا يدعى معه أحد سواه ، وان التوسل بالاولياء والصالحين ، انما يصح بمعنى الاهتداء بهديهم المبين ، ولله أن يكرم من عباده من شاء ، ولكن لا يصح ان تكون الكرامات والخوارق ، كصنعة من الصناعات ، في أيدي الأولياء ، والحق انه ليس لهم من الامر شيء ، وانه لايكلف مؤمن ان يعتقد بولي مخصوص ، ولا بكرامة لولي معين مطلقاً ، ولكن على المؤمن أن يعتقد بانه يوجد أولياء وتوجد لهم كرامات ..

ويقولون بأن للاولياء « ديواناً » يجتمع فيه الاحياء والميتون منهم ، فما أقروا عليه ، فهو الذي يقع في الكون ، فنقول: اذا كان اولياء المسلمين وانصار الدين ، هم المتصرفون في الاكوان ، لايجري فيها الا مايجرونه ، ولا يستقر الا مايقررونه فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ؟ وما بال الاسلام يخذل الآن ، باتفاق الاحياء منهم والاموات ؟؟؟

فضل الله على عباده وأقسامه

(٥) - « يعتقد البعض أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، التي منها السر والمدد ، ويقولون كما أن الغني يعطي الفقير شيئاً من رزقه المادي ، فلا مانع أن يمده بشيء من رزقه المعنوي » ، غير أن الحقيقة هي أن فضل الله على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس في استطاعة البشر بذله أو البذل منه ، كالايمان والمعارف الوجدانية ، ومنها مايسميه الصوفية « بالأسرار » فانهم قالوا : انها أمور ذوقية ، لايعرفها إلا من ذاقها . فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب .

تحريم سؤال الاولياء ذوي الاضرحة شيئاً مادياً او معنوياً

(٦)ـ هذا ولا يصح أن نسأل الاولياء أصحاب الاضرحة شيئاً ما ، لاماديا ولا معنويا ؟ إذ كيف نسألهم ماقطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، ومالا يبذل من ذلك بحسب الاسباب والسنن الإلهية ، وما يبذل ؟ فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى ، والانتقام من الاعداء ؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه ، والمصلون واقفون يدعون له ، يشهدون له بالاسلام ، ويقولون : « اللهم ان كان مسيئاً ، فتجاوز عنه ولقه برحمتك رضاك ، حتى تبعثه آمناً برحمتك ياأرحم الراحمين » . فكل مسلم من أبي بكر الصديق الى اليوم ، يدعى له يوم يموت ويصلى عليه بهذا الدعاء ونحوه فهل يعقل أن يدعى للميت بالامس يوم موته ، ولكنه متى قبر تدعوه النـــاس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة ؟ !

هذا ولم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا نقل عن ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين ماندعيه بعض المشايخ من أن سيدي فلانا من الصالحين .وسيدي فلاناً من الاولياء ، هم أصحاب سر ومدد ، ون تلامذتهم في حياتهم ، وأتباعهم بعد مماتهم ، يتوسلون بهم الى الله تعالى ، ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ، ولم يكلفنا الله باتباعهم بل باتباع كتابه وسنة نبيه ، وهدى أصحاب نبيه ، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة ، وكانوا به خير العاملين ، وبسيرة السلف الصالح لأنهم أعلم الناس بها .

وأما كلام الصوفية المتأخرين ، فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، الذين سلكوا هذه الطريقة الى نهايتهـــا ، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضلّ . وقد قال الشعراني في بعض كتبه : « أنه سأل شيخه الخواص :

لماذا يطلب من الناس تأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع ، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء ؟ فأجابه : لأن الأنبياء معصومون ، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائماً والأولياء ليسوا بمعصومين ، فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين » .

التوسل بجاه الانبياء والاولياء

(٧)ـ لسائل أن يسأل : ألا يجوز أن نضيف كلمة «جاه » الى الانبياء والأولياء عند التوسل بهم ؟ والجاه هو القدر والمنزلة ، وكل واحد من الأنبياء ، له قدر ومنزلة عند ربه ، قال تعالى في موسى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٣٣ : ٦٩). وقال في عيسى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾. (٣ : ٤٥) وقال تعالى :(واتخذ الله ابراهيم خليلاً) (٤ : ١٢٤) وغني عن البيان ان من اصطفاه الله للخلة، لا بد أن يكون وجيهاً في نظره ، وإلا لم يكن فيه أهلية للخلة ؟

فنقول في جوابه : المفهوم العرفي للفظ (الجاه هو السلطة ، وان شئت قلت : نفوذ الكلمة ، يقال : فلان اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجـــاه لدى الامير او الوزير مثلا ، فزعم زاعم ان لفلان جاهاً عند الله بهذا المعنى اشراك جلي "لا خفي" ، وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدر ، والتوسل بلفظ الجاه ، مبتدع بعد القرون الثلاثة من الهجرة ، وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول والسلف الصالح ، وأما ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٣ : ٦٩) فليس معناه ، انه وجيه عليه ، وانما معناه انه وجيه عنده ، وفرق كبير بين قولك (فلان وجيه علي وفلان وجيه عندي ، فالوجاهة الاولى معناها السلطة والنفوذ ، والوجاهة الثانية معناها انه في حكم الله ذو قدر ومنزلة .

الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره

وقد يحتج البعض على جواز التوسل بمارواه الترمذي بسنده الى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : (إن رجلا ضرير البصر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعُ الله ان يعافيني — فقال : إنْ شِئْتَ دعوتُ ، وان شِئْتَ صَبَرْتَ ، فهو خير لك — قال : فادعه ، — فأمره أن يتوضأفيحسن الوضوء، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمد ، نبي الرحمة ؛ اني توجهت بك الى ربي ، ليقضي لي في حاجتي هـذه ، اللهم فشفعه فيّ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب) ، فنقول أولا : قـد وصف الحديث بالغريب ، وهو مارواه واحد ، والمسألة داخلة في باب العقائد ، لا في باب الأعمال، ذلك ان الأمر فيها ، يرجع الى سؤال صورته : هل يجوز أن نعتقد أن واحداً سوى الله ، يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجاتنا ، أولا يجوز ؟ والكتاب صريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله تعالى : ﴿ ويَعبدونَ من دون الله مالا يَضُرُّهم ولا يَنفَعُهم ، ويقولون هؤلاء شُفَعاؤنا عندَ الله ﴾ (١٠ : ١٨) ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة: ﴿ واياكَ نَستَعينُ ﴾ (١ : ٤) ، فلا استعانة إلا به ، وقد صرّح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعاً ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساساً للرسالة المحمدية ، ونحن لا يمكننا أن نتخذ حديثاً من أحاديث الآحاد ، دليلا على العقيدة ، مهما قوى سنده ، فان المعروف عنـد الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد الا الظن ، ﴿ إنّ الظنّ لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ (١٠ : ٣٦) وفي الختام نذكر قوله تعالى : ﴿ واذا سألَكَ عِبادي عَنّي ، فإني قريبٌ ، أجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعانِ ﴾ (٢ : ١٨٦) وقال الشيـخ محي الدين بن العربي ، شيخ الصوفية في صحيفة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته ، عندالكلام

على هذه الآية : « ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا الله انه قريب وخبره صدق » .

واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى

(٩) — ان واجب الوجود — وهو الله تعالى — واحد ، وهذا هو توحيد الربوبية ، وكذا مستحق العبادة — وهو الله سبحانه — واحد ، وهـــذا هو توحيد الألوهية ؛

فالمستحق للعبادة هو واجب الوجود ، وواجب الوجود هو المستحق للعبادة، وهو الله تعالى ، ولا تصدق العبارتان الا عليه تعالى ، وإن اختلفا في المفهوم ؛ هذا هو مقتضى الشرع والعقل والمنطق والانصاف ، ولكن مشركي العرب المعاصرين لخاتم الانبياء وقبله أيضاً . لم يعقلوا ولم ينصفوا ، فهم مع قولهم بأن واجب الوجود واحد ، قد اعتقدوا غلطاً تعدد المستحق للعبادة ؛

أو نقول قد صرفوا كثيراً من أنواع العبادة لغير الله ، ومثل ذلك مثـــل شعب لايعرفون لهم الا ملـكا واحداً ، هو الذى يرتب لهم المعاشات، وهو الذي يوليهم الولايات ، وهو الذي يغدق عليهم بالخيرات ، وهو الذي يمنع عنهم الغارات، الى غير ذلك ، ونظام هذا الملك أن يكون له الخضوع والركوع ، له الاكبار الملوكي والاجلال السلطاني ، له الذل والخنوع ، ولا يطلب شيء من غيره ؛ هذه ونحوهـــا هي شارات هذا الملك وخصائصه التي أراد أن ينفرد بها عما سواه ، فاذا صرف الشعب شيئاً من هذه الاشياء لغير مليكه ، فقد خانه وأشرك معه غيره من الوزراء في مزاياه وخصائصه ، ولو اعتقد بأنه ليس له سلطان سوى المليك،

فلا يمنع عنه تسميته — الـكلام عائد للشعب — أنه أشرك مع مليكه سواه ، ولا يمنـع عنه العقاب .

ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الايمان في حديث البخاري

(١٠) — جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى: « أخرجُوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » ، فيخرجون منها، قد اسودّوا ـ الحديث » ، فهل المؤمنون ايمان ربوبية ، المشركون شرك ألوهية ـ يشملهم هذا الخروج ، لأنه يصدق عليهم أن في قلوبهم مثقال حبة من خردل من ايمان ؟ والجواب عن ذلك : يراد بمثقال حبة الخردل من الايمان في حديث البخاري المثقـال للايمان الخالص ، الذي لا يشوبه مثقال خردلة من شرك ، جمعاً بينه وبين قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفرُ أنْ يُشْركَ به ، ويَغْفرُ ما دونَ ذلك لمَنْ يَشاءُ ﴾ (٤:٤٧و١١٧) وقوله تعالى : ﴿ وقال المسيحُ : يابني اسرائيلَ اعبدوا اللهَ ربي وربّـكم ، إنّه مَنْ يُشرِكْ باللهِ ، فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ، ومأواهُ النارُ ، وما للظالمينَ مِنْ أنصار ﴾ (٥:٧٥) ، وقال تعالى في سياق محاجة ابراهيم لقومه في التوحيد والشرك ﴿ الذين آمنوا ولم يُلبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمْنُ ، وهم مُهتَدونَ ﴾ (٦:٨٢) وقد فسر النبي ﷺ — الظلم هنا — بالشرك ، وهو نكرة في سياق النفي ، يفيد أن الأمن من العذاب المقيم ، الذي أعده الله للمشركين ، خاص بمن آمنوا إيماناً لا يشوبه شيء ما من الشرك ، وإن كان مثقال حبة من خردل ، وحينئذ فلا مندوحة من حمل حديث البخاري المسئول عنه — على مايتفق مع هذه الآيات ، هـذا هو المراد من الحديث ، وإن لم يكن هذا هو المراد من الحديث ، كان معارضاً لمـا ذكرنا من الآيات ، ولا يمكن ترجيحه عليها ، أو إرجاعها اليه ، والقولَ بأن مثقال حبة من خردل من إيمان مشوب بالشرك ، ينجي صاحبه من النار بعد دخولها ، ويجعله من أهل الجنة ، لم يقل به أحد من المسلمين ، بل أجمعوا على أن الشرك بالله ، لا يغفر منه شيء ، ولا

شك أنه يصدق على مشركي العرب في زمن البعثة ، أنه كان في قلوبهم إيمان كحبة الخردل أو أعظم ، كما هو مقتضى آيتنا اليوسفية وماشابهها من الايات القرآنية ، فلو كان الإيمان بوجود الله ، مع اتخاذ شركاء له منجياً ، لكان مشركوا العرب في الجاهلية – ناجين حتماً ، ولا قائل به من أهل الإسلام .

المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من المشرك

(١١) — المعطل المنكر لوجود الله تعالى ، لايسمى مشركاً ، ولكنه شر من المشرك ، فاذا كان الله لايغفر لمن يؤمن به بأنه الخالق الرازق ، إذا توجه لغيره ودعاه من دونه ، ولو ليقر به إلى الله زلفى ، فهل يغفر لمن جحده مطلقاً ؟

حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الالوهية

(١٢) — من تلوث من مسلمين اليوم بشيء من شرك الألوهية ، ولا يسمي نفسه مشركاً ولا فعله شركاً ، ولكنه يسمي نفسه متوسلاً متشفعاً متقرباً ، كما أنه يسمي فعله ، توسلاً وتشفعاً وتقرباً ، وهو مسكين جاهل لم يقصد الشرك ، فاهماً أنه شرك ، ولكنه وقع فيه بجهله ، لأنه لايعتقد أن ما يفعله شرك ، وهذا يجب أن يُعلَّم ، حتى تقوم عليه الحجة .

شرك النصارى في الربوبية والالوهية

(١٣) — النصارى لايقولون بتعدد واجب الوجود صريحاً ، ولكن لهم فيه فلسفة لاتعقل ، وهي التوحيد مع التثليث ، ومع ذلك فهم مشركون في الربوبية ، من جرآء قبولهم التشريع من رؤسائهم ، فيحلون لهم ويحرمون ، وكل النصارى لذلك يقبلون ؛ وأما شركهم في الألوهية ، فهو أيضاً واقع ، ماله من دافع ، لأنهم يعبدون المسيح عيسى ، وليس أقنوم الابن فقط الحالّ في جسد المسيح ، بل

يعبدون أيضاً جسد المسيح ، أعني إنهم يعبدون المسيح كله ، الحاوي للاهوت والناسوت — على رأيهم — ، فهم مشركون في الألوهية قطعاً وليس من هذه الجهة فقط ، بل هم أيضاً مشركون في الألوهية ، من جهة أنهم يقدمون أنواعاً من العبادات ، كالسجود والركوع والنذور والأصوام — للسيدة مريم عليها السلام.

الطوائف المنسلخة عن الاسلام بسبب شركها بالله او بالتشريع

(١٤) — يوجد في مشركي المسلمين اليوم ، من أشركوا بالله بعض آل بيت نبيه بالعبادة والدعاء ونحوهما ، ومنهم من أشركوا بالتشريع أيضاً ، كأصناف الباطنية وآخرهم البابية والأزلية والبهائية ، ومن هؤلاء من أنسلخ من اسم الإسلام كما انسلخ من معناه ، ومنهم من حافظ على انتحال اسمه ، مع لقب مذهبٍ أو طريقة أو طائفة ، ولو على سبيل التقية .

المشرك من يدعو الاصنام او من يدعو الصالحين

(١٥) — إن بعض المشركين ، بل الغالب من أفرادهم اليوم ، يزعم أن جميع الايات التي جاء فيها تقبيح الشرك وتوبيخ المشركين ، هي خاصة بالأصنام بمعنى الجماد ، مع أننا لو تتبعنا هذه الايات ، التي جاءت في شأن الشرك والمشركين ، لوجدناها مصرحة بأن المشركين فريقان : فريق يدعو الأصنام المجعولة تماثيل لعباد الله الصالحين ، وفريق يدعو الصالحين غير ناظر إلى التماثيل ، فمما جاء في تسفية أحلام الفريق الأول قوله تعالى : ﴿ أتعبُدون ماتَنْحِتُون ؟ ﴾ (٩٥:٣٧) وقوله : ﴿ ماهذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفونَ ؟ ﴾ (٥٢:٢١) ، ومما جاء في التشنيع على الفريق الثاني قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ يدعو مِنْ دُونِ اللهِ — مَنْ لا يَستَجيبُ له إلى يوم القيامةِ ؟ وهم عن دُعائهم غافلون ، وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادَتِهم كافرين ﴾ (٤٦:٥و٦) وقوله:

﴿ قل ادعوا الذين زَعمتُم مِنْ دونه ، فلا يملكون كَشْفَ الضُرِّ عنكم ، ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعونَ ، يَبْتَغُونَ إلى رَبهم الوسيلةَ أيهم أقربُ ، ويَرجُونَ رحمَتَهُ ويخافون عذابَه ﴾ (١٧ : ٥٦و٥٧) وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِنْ دون اللهِ آلِهةً ، ليكونوا لهم عِزاً ، كلاّ ، سيَكفُرون بعبادَتِهم ويكونون عليهم ضِداً ﴾ (١٩ : ٨٢و٨٣) وقوله تعالى : ﴿ والذين يَدعونَ مِن دونِ اللهِ ، لا يَخْلُقُون شيئاً ، وهم يُخلقونَ ، أمواتٌ غيرُ أحياءٍ ، وما يَشعُرونَ أيّانَ يُبعَثون ؟ ﴾ (١٦ : ٢٠و٢١) فهل يعقل بأن الأصنام بمعنى الجماد تتصف بهذه الصفات ، التي وصف بها المدعون في هذه الايات ، التي جاءت بشأن الفريق الثاني ؟ لا ريب أنه لا يعقل أن يتصف الجماد بالغفلة أو بضدها ، أو يتصف بالعداوة وضدها ، أو بالكفر وضده ، ولا يتأتى أن تبتغي الجماداتُ الوسيلة إلى ربها ، وأن ترجو رحمته ، وتخاف عذابه ، ولا يمكن أن تكون الأصنام بمعنى الجماد ، ضداً على المشركين يوم القيامة ، ولا يتصور أن يوصف الجماد بموت أو حياة ، أو شعور ببعث ، فمن عنده أدنى مسكة من عقل ، يدرك أن جميع هذه الصفات ، لا تنطبق على الأصنام بمعنى الجماد ، بل لا تنطبق إلا على المقربين من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين .

(مرحى مرحى)

انذار المشركين بالله

آ(١٠٧) ﴿ ... أفَأمِنُوا أنْ تأتيَهُمْ غاشِيَةٌ منعذابِ اللهِ ، أو تأتِيَهُمْ الساعةُ بَغْتَةً ، وهم لا يَشعُرونَ ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئةوسبعة ، فقام الامام القلقيلي وقال:

قتل الانسان ما أكفره (أفأمنوا) أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله (أن تأتيهم غاشية) أي نقمة أو وقيعة أو عقوبة تغشاهم بحيث تغمرهم وتجللهم ،

فيكونون حشوها (من عذاب الله) وعقابه في الدنيا (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي هلاكهم الذي يعقبه خلاص الموحدين من شرهم، (وهم لا يشعرون) باتيانها فوق رؤوسهم، فهل هم آمنون من ذلك؟ حال كونهم تحت وقوع شيء منه في القريب العاجل، فما عليهم إلا أن ينتظروا المعركة المقبلة، ويعدوا لها المدة، إن جوزوا لأنفسهم مقاومة سوط النقمه الالهية.

(أفأمنوا ان تأتيهم غاشية . . . الخ)

— ١ —

وتابع الامام القلقيلي كلامه قائلاً:

الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها

إن الساعة في قوله ﴿أو تأتيهم الساعة﴾ هي فيما نختاره ساعة «بدر»، فان صناديد قريش وزعماء المشركين، قد هلكوا جميعاً في وقعة بدر وغيرها، ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم، أو نقول إن غزوة بدر هي من أشراط تلك الساعة، وإنما ساعتهم هي ذلهم واضمحلالهم وهلاكهم التام، وفناؤهم العام، بحيث لايبقى منهم ديار، ولا نافخ نار، قال تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿قل أرأيتَكُمْ إنْ أتاكم عذابُ اللهِ، أوأتتْكم الساعةُ، أغيرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كنتم صادقينَ؟ بل إياهُ تَدْعُونَ، فَيَكشِفُ ماتدعونَ اليه إنْ شاء، وتَنسَوْنَ ما تُشرِكون﴾ (٦:٤٠و٤١).

قال شيخنا الغواص: هذه «الساعة» هي ساعتهم الصغرى، التي تحققت في غزوة بدر ونحوها، ولا يجوز أن يرادبها الساعة الكبرى، لأن الساعة الكبرى لاتكشف لا عن المشركين ولا عن غيرهم، ولا يشاء الله كشفها، لأنها أمر حتم لا بد منه، وقال تعالى في سورة الحج المكية: ﴿ولا يزالُ الذينَ كَفَروا في

مِرْيةٍ منه ، حتى تأتيَهُم الساعةُ بغتهً ، أو يأتِيهم عذابُ يومٍ عقيم ، المُلْكُ يومئذٍ لله ، يَحكُم بينهم ، فالذين آمنوا وَعملوا الصالحاتِ في جناتِ النعيمِ ، والذين كفَروا وكذَّبوا بآياتِنا فأولئك لهم عذابٌ مُهين ﴾ (٢٢ : ٥٥-٥٧) قال شيخنا العارف بالله ، لايزال أهل مكة الكافرون في شك من أمر الرسول الى أن تجيء ساعة انحطاطهم وهلاكهم في غزوة بدر ، وتعاظم أمر المسلمين وتعالي شأنهم ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم بافتتاح المسلمين مكة وانتصار أهل الإيمان عليهم ومن ذلك اليوم يكون الملك لمظهر أمر الله ومنبع سلطانه وهو سيد الخليقة (ص) ولخلفائه من بعده ، وقد حكم النبي وخلفاءه بين الناس ، فالمؤمن العامل في نعيم ورفاه ، والكافرون من أهل مكة ويهود يثرب في ذل وهوان ، وقال تعالى في سورة الزخرف المكية: ﴿ وإنه لَعِلمٌ للساعةِ ،فلا تَمتَرُنَّ بها،واتبعونِ ،هذا صِراط مُستَقيمٌ ﴾ (٤٣ : ٦١) قال شيخنا ولى الله : المسيح هو علامة على ساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ونقلها الى بنى اسماعيل ، ولذلك كان قال لهم : ﴿ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه ﴾ (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا تَمتَرُنَّ بها، واتبعونِ ،هذا صراطمستقيم ﴾ (٤٣ : ٦١) .

ويجوز أن يكون المسيح « علماً للساعة » ساعة هلاكودمار وسقوطوانحفاض اليهود ، بسبب كفرهم به ، وايذائهم له ، وساعة ارتفاع ورقي النصارى ، بسبب ايمانهم وتصديقهم له ، أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية ، ونرى متى ومرقس ولوقا ، بعد أن نقلوا ماوصفه المسيح من أهوال الساعة وقيامتها ، قالوا نقلا عن المسيح : (الحق أقول لكم لايمضيهذا الجيل حتى يكون هذاكله) (مت ٢٤ : ٣٤ مر ١٣ : ٣٠ لو ٢١ : ٣٢) .

وفي الحديث: ﴿ بعثت أناوالساعة كهاتين ﴾ وأشار الى إصبعيه السبابة والوسطى ،

أي متقارب بين متلاصقين كهاتين الاصبعين: أي أن ظهوره (ص) علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به، وارتفاع ورقي من آمن به في الدنيا، وفي البخاري: «اذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة - قيل: وما إضاعتها يارسول الله؟ - قال: اذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة»، وفي البخاري أيضاً «إن من اشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها أو ربها، وأن ترى الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان، وأن يكثر شرب الخمر والزنا» وكل ذلك وقع فعلاً، فهذه الأشراط هي أشراط للساعة الصغرى وهذه الساعة هي لناس وعلى ناس، فلناس ساعة علو وارتقاء ومنعة، وعلى ناس ساعة انقراض واضمحلال، وعلى الأول ساعة ضعف وفتور.

ومن أمثلة استعمال لفظ الساعة في معنى الساعة الصغرى، مافي الحديث الذي ذكره صاحب الأساس: «إذا رأيت مكة بُعِجَتْ كظائمَ وساوى بناؤها رؤوس الجبال، فاعلم أن الساعة قد أظلت [1]».

(أفامنوا ان تأتيهم غاشية .. الخ)

— ٢ —

وقال الفاضل البيساني [2]:

الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الاخروية

أضم صوتي الى صوت أخي الإمام القلقيلي حفظه الله وأقول:

(١) ليس أن لفظ «الساعة» متى أطلق ينصرف للساعة الكبرى دائماً، بل قد يكون مرادا منه «الساعة» الصغرى، والحكم في ذلك القرائن، والقرينة هنا على أن «الساعة» هي الساعة الصغرى قرنها بغاشية من عذاب الله وانتظامها

١ - بعجت: حفرت فيها آبار كثيرة، وكظائم جمع كظيمة وهي بئر بجنب بئر بينهما مجرى في بطن الارض.

٢ - نسبة إلى بيسان من بلاد فلسطين.

في سلك واحد ، فكما ان هذه الغاشية هي في الدنيا ، فكذلك هذه « الساعة » تحصل لهم في الدنيا ، فآيتنا هذه في أنها تحتوي على مواعيد دنيوية هي نظير ماقال تعالى في سورة الاعراض المكية : ﴿ أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيهُم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتيهم بأسُنا ضُحى ،وهم يلعبون ؟أفأمِنوا مكْرَ اللهِ ؟ فلا يأمنُ مكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرون ﴾ (٧ : ٩٦ -٩٨) وقال تعالى ، في سورة النحل المكية : ﴿ أفأمِنَ الذينَ مكروا السيئاتِ أنْ يَخسِفَ اللهُ بِهم الأرضَ ؟ أو يأتيَهم العذابُ مِنْ حيثْ لايَشعُرون ؟ ﴾ (١٦ : ٤٥) ، وقال في سورة الإسراء المكية : ﴿ أفأمِنتُم أنْ يخسِفَ بكم جانبَ البَرّ ؟ أو يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ ثم لاتجدوا لكم وكيلاً ﴾ (١٧ : ٦٨)وقال في سورة الملك المكية : ﴿ أأمِنتُم منْ في السماءِ أنْ يخسِفَ بكم الأرضَ ، فإذا هي تمورُ ؟ أمْ أمِنتُم منْ في السماءِ أنْ يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ فستعلمون كيفَ نَذيرِ ﴾ (٦٧ : ١٦ و ١٧) .

الحشر الدنيوي

٢ ـ وكما أن لفظ « الساعة » يرد لمعنى يحدث في الدنيا وهو الانقلابات والاضطرابات التي تحصل مفيدة لقوم ضارة بآخرين ، فكذلك لفظ « الحشر » يأتي لمعنى يحدث في الدنيا ، ويأتي للحشر الأخروي ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فحشرَ فنادى ، فقال أنا ربكُم الأعلى ﴾ (٧٩ : ٢٣ و ٢٤) فهذا الحشر كان باسم فرعون الخروج « منفثا » لعبيده القبط ، فهو حشر دنيوى . ومثله قوله تعالى: ﴿ وحُشر لسليمانَ جنودُه ﴾ (٢٧ : ١٧) ، وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ هو الذي أخرج الذينَ كفروا من أهل الكتابِ من ديارهم لأول الحشرِ ﴾ (٥٩ : ٢) ومعنى أول الحشر ، ان هذا اول حشرهم من المدينة الى الشام ،وآخر حشرهم إجلاء « عمر » إياهم من خيبر الى الشام، واللام في قوله « لأول » هي

اللام في قولك : جئته لوقت كذا ، وكتبت لعام كذا ، ولشهر كذا ، فهي التي تصحب التاريخ ، وقال تعالى : ﴿ والطيرَ محشورةً ﴾ (٣٨ : ١٩) فحشر الطير لداود وحشر بني النضير في الشام ، وحشر الجنود لسليمان وحشر القبط لمنفتا ، كل ذلك حشر دنيوي .

النشر والحساب الدنيويان

(٣) ـ وكذلك لفظ « النشر » يأتي لمعنى دنيوي كما في سورة الفرقان : ﴿ وهو الذى جَعَلَ لكم الليلَ لِباساً ، والنومَ سُباتاً ، وجَعَلَ النهارَ نُشوراً ﴾ (٢٥ : ٤٧) أي جعل النوم موتاً ، والنهار عيشة وحياة بعد الموت .

وكذلك « الحساب » يكون في الدنيا ويكون في الآخرة ، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ وإنْ ما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهم ، أو نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا ﴾ لا عليك ﴿ الحسابُ ﴾ (١٣ : ٤٢) وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية : ﴿ اقْتَرَبَ للناسِ حسابُهم ، وهم في غَفْلَةٍ مُعرِضُونَ ، ما يأتيهم مِنْ ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمَعُوهُ وهم يلعبون لاهِيَةً قلوبُهم ﴾ (٢١ : ١ ـ ٣) ، فالناس هنا هم مشركوا اهل مكة كما قال ابن عباس وهو اصطلاح القرآن يعبر « بالناس » عن أهل مكة المشركين وبأهل الكتاب عن اليهود والنصارى ، وبالمؤمنين عن اتباع النبي المسلمين ، وكما هو صريح نفس هذه الايات التي إنما ذكرت أحوال المشركين وأقوالهم خاصة ، فان الذين غفلوا عن حسابهم ، ثم لما نبهوا أعرضوا ، وأتاهم الذكر فاستمعوه وهم يلعبون ، ذاهلين عنه وقالوا ما قالوا ـ إنما هم المشركون من اهل مكة لأن السورة مكية ، فهذا « الحساب » الذي اقترب إنما هو حسابهم فقط ، لا دخل لغيرهم فيه ، وهو حساب خاص ، يتجلى في مجازاتهم واهلاكهم في الدنيا ، في مثل غزوة بدر وفتوح مكة وغيرهما .

الحساب العام الاخروي

(٤) ـ واما « الحساب العام » في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين وأهل الكتاب وجميع العالمين ، فهو المذكور في مثل قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (١٥ : ١٢) ، فما في سورة الأنبياء يفيد أنه قرب جداً وقت محاسبة ومجازاة واهلاك هؤلاء المشركين في حالي غفلتهم ثم إعراضهم عن الذكر ، وفي حال أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون ، ذاهلين عنه ، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال ، ويساعد هذا الفهم قوله تعالى على الاثر : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون ؟ ! ﴾ (٢١ : ٦) أى أنهم لا يؤمنون كما لم تؤمن القرى التي أهلكناها قبلهم ، أي فحينئذ لا بد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم ، كما كنا أهلكنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضاً .

الصراط والعذاب والعقاب والاجر والثواب الدنيويات

(٥) ـ وكذلك « الصراط » يطلق على الصراط الدنيوي بمعنى الطريق، وقد ذكر بهذا المعنى في القرآن اكثر من ٤٥ مرة ، ويطلق على الصراط الأخروي ، وليس له ذكر في القرآن ، ولكنه مذكور في الأحاديث ، وكذلك « الميزان » يطلق على الميزان الدنيوي كما في قوله تعالى : ﴿ وأفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ (٦ : ١٥٢) وقد ذكر هذا في القرآن تسع مرات ، ويطلق على الميزان الأخروي وقد أشير له في مثل قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ (٧ : ٧) .

وكذلك « العذاب والعقاب » وضده « الأجر والثواب » يكونان في الدنيا والاخرة ، كما يعلم من كثير آيات الكتاب الكريم .

الميعاد الدنيوي

(٦) — وكذلك لفظ « الميعاد » يأتي لمعنى في الدنيا ولمعنى سيحدث في الاخرة ومن مُثُل الأول ما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ يقولُ المنافقونَ والذينَ في قلوبهم مَرَضٌ : ما وَعدَنا اللهُ ورسولُه إلا غُروراً ﴾ (٣٣ ١٢) قال « معتب بن قشير » حين رأى الأحزاب : « يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فَرَقاً ، ماهذا الا وعد غرور » فهذا وعد دنيوي ، ومثله ما في قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنونَ الأحزاب ، قالوا : هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولُهُ ﴾ (٣٣ : ٢٢) وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ فإمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ، فإنّا مِنْهم مُنتَقِمُون ﴾ — في الآخرة — ﴿ أو نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْناهم ﴾ — من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر — ﴿ فإنّا عليهم مُقْتَدِرون ﴾ (٤٣ : ٤١ و ٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ فرَدَدْناهُ الى اُمِّه كي تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكنَّ أكْثَرَهم لا يَعلَمون ﴾ (٢٨ : ١٣) ، فوعد الله هنا هو قوله : ﴿ إنّا رادّوهُ اليكِ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ وَعْدَ اللهِ ، لا يُخلِفُ اللهُ وعدَهُ ، ولكنَّ اكثَرَ الناسِ لا يَعلَمون ﴾ (٣٠ : ٦) يشير لوعد الله أن يغلب الرومُ الفرسَ في بضع سنين وقد وقع سنة ٦٢٥ ميلادية .

وقال الملائكة في أهل سدوم وعمورة وإهلاكهم :

﴿ إنَّ مَوعِدَهُم الصُبحُ ﴾ (١١ : ٨١) ، وقال تعالى في شأن المؤمنين مع المشركين في غزوة بدر : ﴿ ولَوْ تواعَدْتُم لاخْتَلَفْتُم في الميعادِ ﴾ (٨ : ٤٢) وقال تعالى : ﴿ ولا يَزالُ الذينَ كفروا تُصيبُهم بما صَنَعوا قارِعةٌ ، أوْ تَحِلُّ قريباً من دارِهم ، حتى يأتِيَ وَعدُ الله ، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد ﴾ (١٣ : ٣١) ، وعد الله هنا فتح مكة ، وكان الله قد وعد النبي بذلك وقال تعالى :

﴿ ويقولون متى هـذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين — قل : لـكم ميعادُ يومٍ ، لا تستأخِرن عنه ساعةً ولا تستَقْدِمون ﴾ (٣٤ : ٢٩ و ٣٠) ، فهذا الميعاد دنيوي وقع في غزوة بدر ، ولفظ اليوم يراد منه السنة ، كما وقع كثيراً بهذا المعنى في العهد العتيق والعهد الجديد ، وغزوة بدر كانت في نهاية السنة الأولى من الهجرة الشريفة ، وبهذا المعنى وعلى هذا التفسير انطبق الجواب على السؤال ، فهم سألوا عن وقت الوعد وتحديده ، فأجيبوا بأن تحقيق هذا الوعد يكون بعد يوم من الهجرة .

البعث الدنيوي

(٧)ـ وكذلك لفظ « البعث » قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قول صموئيل ﴿ إنَّ اللهَ قد بَعَثَ لـكم طالوتَ مَلِكا ﴾ (٢ : ٢٤٧) وقوله تعالى : ﴿ بَعَثْنا عليـكم عِباداً لنا أُولِي بأسٍ شديد ﴾ (١٧ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وبَعَثْنا منهم اثْنَيْ عشَرَ نَقيباً ﴾ (٥ : ١٣) .

الآخرة والجزاء الدنيويان

(٨)ـ وكذلك لفظ « الآخرة » قد يجيء مستعملاً في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ الآخرة : لِيَسُوؤوا وجوهَكُم .. الخ ﴾ (١٧ : ٧) أي المرة الآخرة ، وقولهم : ﴿ ما سَمِعنا بهـذا في المِلَّةِ الآخِرةِ ﴾ (٣٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ فأخَـذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخرةِ والأُولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) أي كلمتيه ، فالآخرة هي ﴿ أنا رَبُّكم الأعلى ﴾ (٧٩: ٣٤ ، والأولى هي ﴿ ما عَلِمْتُ لـكم مِنْ إلهٍ غيري ﴾ (٢٨ : ٣٨) .

وكذلك لفظ « الجزاء » قد يأتي لمعنى دنيوي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأعرَضُوا فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ ، وبَدَّلناهم بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ مِنْ سِدْرٍ قليلٍ ، ذلك جَزَيْناهم بما كَفَروا ، وهل

نُجازي إلاّ الكَفُور ؟[1] (٣٤:١٦و١٧) وقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حَرّمْنا كلّ ذي ظُفرٍ ، ومن البقر والغنم حَرّمنا عليهم شُحُومَها ، إلاّ ما حَمَلَتْ ظهورُها أو الحوايا أو ما اختَلَطَ بعظمٍ ، ذلك جَزَيْناهم بِبَغْيِهِم ، وإنا لصادقون ﴾ (٦:١٤٦) وقولها تعالي : ﴿ إلاّ آلَ لوطٍ نَجّيناهم بسَحَرٍ نِعمةً من عندِنا ، كذلك نَجزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (٥٤:٣٤و٣٥) .

الحياة بعد الموت في الدنيا

(٩) — وكذلك لفظ « الحياة » بعد الموت ، قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين خَرَجوا مِنْ دِيارِهم وهم ألوفٌ ، حَذَرَ الموتِ ، فقال لهم اللهُ : موتوا ، ثم أحياهم ؟ ﴾ (٢:٢٤٣) قوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لا من قلة ، فقد كانوا الوفاً ، أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن ، فأماتهم الله بإمكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين ، أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا موتاً معنوياً ، بما أتوه من سبب الموت المادي الطبيعي ، وهو تمكين المحارب من أقفائهم بالفرار ، فَفَتَكَ بهم وقَتَل أكثرهم ، ثم أحياهم حياة معنوية ، بأن أعاد اليهم استقلالهم ، حيث قد جمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم ، فعادت لهم وحدتهم القوية ، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل الفرقة والعبودية ، إلى عز اجتماع الكلمة والاستقلال كذا قاله الاستاذ الامام وكما في قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا استَجيبُوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم لما يُحْيِيكم ﴾ (٨:٢٤) وقوله : ﴿ أوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيَيْناهُ وجعلنا له نوراً يمشِي به في الناس كمَنْ مَثلهُ في الظُلماتِ ليسَ بخارجٍ منها ؟ ﴾ (٦:١٢٢) . (مرحى)

---

(١) الاكل : الثمر ، الخمط والاثل والسدر شجر .

الفصل الثالث

الدعوة الى الايمان بالدليل

آ(١٠٨) ﴿ قُلْ : هذه سَبِيلي : أَدْعُو الى اللهِ على بصيرةٍ ، أنا وَمنْ اتَّبعَني ، وسُبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المُشْرِكينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وثمانية ، فقام المدقق اللدي وقال :

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمد ﷺ: أخبر الناس يامحمد و (قل)لهم: (هذه) السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي (سبيلي) أي طريقي ومسلكي وسنتي ونهجي (أدعو) الناس (إلى) دين (الله) وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أن لا آله إلا الله ، وحده لاشريك له ، هذه سبيلي التي أحيا فيها وأموت عليها ، أدعوهم دائماً حتى يدفع الحق الباطل ، أدعوهم حال كوني (على بصيرة) ودليلٍ قاطعٍ ، وحجة واضحة غير عمياء (أنا ومن اتبعني) — فكل من اتبعه كذلك يدعو إلى مادعا اليه الرسول ، على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي — (وسبحان الله) أي وأنزه الله عن الشركاء وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه : ﴿ سُبحانَهُ وتعالى عما يقولون عُلواً كبيراً ، تُسَبِّحُ له السموات ُ السَّبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ ، وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ ،ولكنْ لا تفقَهونَ تَسْبيحَهُمْ ، إنه كانَ حليماً غفوراً ﴾ (١٧:٤٣و٤٤) ، (وما أنا مِنَ المشركين) لاشرك ربوبية ولا شريك ألوهية .

(قل هذه سبيلي ، أدعو . . . الخ)

— ١ —

وتابع المدقق اللدي قوله بسرد المواد التالية على الآية :

التقليد في الدين باطل

المادة (١) — البصيرة الحجة الواضحة والمقيدة ، ومنه : ﴿ بل الانسانُ على نفسِهِ بَصيرةٌ ﴾ (١٤:٧٥) أي هو حجة وشاهد ؛ يقال جوارحه بصيرة عليه : أي شاهدة ؛ ومنه (اجعلني بصيراً عليهم) أي شاهداً ؛ فالنبي والقرآن دائماً يستدل على قدرة الله تعالى وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا ﴾ (٢٢:٢١) وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنه ليستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات ، والافضاء إلى المنافع ؛ فالتقليد في الدين باطل ، لأنه ينافي أصل العلم باليقين ، فان المقلد في الدين هو من يعتمد في دينه على قول من يثق به من أهله وقومه أو معلمه ، وليس على علم وبصيرة فيه .

النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للايمان

المادة (٢) — نعلم من قوله ﴿ أدعو إلى اللهِ على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أن النبي ﷺ ومثله المؤمنون ، جميعهم كانوا على بصيرة ، فليس عندهم شيء من الشك ، بل هم من أهل العلم ، ومن هذا نعلم أن الأمر بالسؤال في قوله تعالى في سورة النحل المكية : ﴿ وما أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ إلاّ رجالاً نوحي اليهم ، فاسألوا أهلَ الذِكرِ إنْ كنتم لا تعلمونَ بالبَيِّنات والزُبرِ ﴾ (٤٣:١٦ و٤٤) إنما هو للكفار من وثنيي العرب ، الذين قالوا ﴿ هل هذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكم ؟ ﴾ فكان جواب الله اليهم بهذه الآية ، فالمخاطبون هنا بتوجيه

السؤال لغيرهم مخصوصون ، وهم جهلة العرب الوثنيين ، والشيء المسئول عنه هنا مخصوص ، وهو أن الرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ ماذا كانوا ؟ هل رجالاً أو ملائكة ؟

وكذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ مِمَّا أنزلنا اليك فاسألْ الذين يقرؤُن الكتابَ مِنْ قبلِكَ ، لقد جاءكَ الحقُ من ربِّكَ ، فلا تكونَنَّ من المُمْترينَ ، ولا تكونَنَّ مِنَ الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (١٠:٩٤و٩٥) فهذا الخطاب إنما هو للشاك في صدق هذا الكتاب الذي أنزل لأجله ولأجل هدايته ، وأما النبي ﷺ فلم يكن شاكاً أبداً كما قال : ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتَغِي حكماً ، وهو الذي أنزلَ اليكم الكتابَ مُفصّلاً ؟ ﴾ (٦:١١٤) وقال : ﴿ إني على بيّنةٍ مِنْ ربّي ﴾ (٦:٥٧) وقال : ﴿ إنْ اتّبِعُ إلاَّ مايُوحى إليَّ إني أخافُ إنْ عصَيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾ (١٠:١٥) ، فتوجيه الخطاب إذاً في آيتي « فاسألوا . . . »الخ و« فإن كنت . . . الخ »هو لغير العالم وللشاك في صدق القرآن المجيد الذي أنزله الله لهدايته: أي إن كنت أيها الانسان تشك فيما أنزلناه اليك بواسطة نبينا « فاسأل الذينَ يقراؤنَ الكتابَ مِن قبلِك » أي المحققينَ منهم هل يكن مذكوراً في كتبهم مجيء نبي وكتاب يجب الايمان بهما ؟ حقاً « لقد جاءك » أيها الانسان مطلقاً بواسطة نبيك : « الحقّ مِن ربّكَ ، فلا تكونَنَّ مِنَ المُمترينَ ، ولا تكونَنَّ مِنَ الذينَ كذّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ » أيها الانسان « مِنَ الخاسِرِينَ » .

وكون التنزيل يقصد به الناس أيضاً موضح في آيات كثيرة كما في آية : ﴿ وهو الذي أنْزَلَ اليكم الكتابَ مُفَصّلاً ﴾ (٦:١١٤) وآية : ﴿ وأنزلنا اليكَ الذِكْرَ لِتُبيّنَ للناسِ ما نُزّلَ اليهم ﴾ (١٦:٤٤) وآية : ﴿ اتّبِعُوا ما أنزِلَ اليكم مِن ربكم ﴾ (٧:٢) وآية : ﴿ ياأيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من

ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مُبيناً ﴾ (١٧٣:٤) وآية : ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذِكرُكم ﴾ (٢١ : ١٠) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، ويظهر جلياً صدق هذا المعنى الذي نذهب اليه من قوله تعالى بعد آيات من قوله : « فإن كنتَ في شكٍّ . . » الخ ﴿ قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شكٍ من دِيني ، فلا أعبُدُ الذينَ تعبُدونَ من دونِ اللهِ ، ولكن أعبُدُ اللهَ الذين يَتوفاكم ، وأُمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين ﴾ (١٠ : ١٠٤) كذا أفاده بعض المصريين من العلماء .

دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية

المادة (٣) — قام النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى عبادة الحق ، وقرّر ان للعالم إلها واحداً بريئاً من كل ماينسبون اليه من كل مالا يليق به ، أثبت ذلك بالحجج البينات ، وأمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ، ونهى عن التقليد ، وحض على النظر في الموجودات .

دعاهم بالحجج العقلية ، لتوحيده تعالى ، وإلى دين « العدالة » بين الغنيّ والفقير ثم « المساواة » في الحقوق المدنية والقضائية والسياسية والدينية ، ثم « الأخوة » بين المالك والمملوك .

تلك الأمور التي لم يهتد اليها الناس في « الغرب » إلا بعد أن وصل اليهم شعاع من نور الاسلام في « الشرق » ، فأرجع البصر إلى تاريخ أوربا قبل الاصلاح الديني بـ « لوثر » وقبل الاصلاح السياسي « بالثورة » الفرنسية ، لتعرف ما كانوا عليه ، نعم إن النبي صلوات الله عليه وسلامه أتى بجميع الأخلاق الفاضلة المعتدلة ، والعبادات الصالحة والمعاملات الكاملة ، والمبادىء السليمة ، والسياسة القويمة ، وغيرها مما كان السبب في إصلاح أمر الانسان ، وتحريره من العبودية ، وإنقاذ العقل من الأسر ، ورده إلى مملكته ، ليحكم فيها بالقسط ، فنهض « الشرق » نهضة

سريعة عالية ، لم يعهد لها مثيل في التاريخ ، ثم امتدت إلى « الغرب » .

اكثر دعاة اهل اليوم هم على غير بصيرة

المادة (٤) — النبي عليه الصلاة والسلام، كان يدعو الى الله على بصيرة وهكذا خلفاءه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين ، ولكن من المؤسف ، أن أكثر دعاة أهل اليوم ،هم على غير بصيرة ، لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين ، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية، وعلّموا الجهال تعاليم خادعة ، لبّست الغيّ بالرشاد ، كما علموهم التأويلات الباطلة ، التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر « توحيداً » ، وإنكار الأسباب « إيمانا » وترك الأعمال المفيدة « توكلا » ، ومعرفة الحقائق « كفراً وإلحاداً » وإيذاء المخالف في المذهب « ديناً » والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات « صلاحا » . واختبال العقل وسفاهة الرأي « ولاية وعرفاناً » والذلة والمهانة « تواضعاً » ، والخنوع وقبول الضيم « رضى وتسليما » ، والتقليد الأعمى لكل متقدم « علما وايقاناً » .

دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين

المادة (٥) — مفعول « أدعو » محذوف إيداناً بالعموم، أي أدعو كل الناس حملاً على الآيات الأخرى ، الدالة على عموم بعثته ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلاّ كافة للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ (٣٤ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ (٢١ : ١٠٧) ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي بَعثَ في الأمّيّينَ رَسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويُزَكيهم ، ويعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ، وآخرينَ منهم لمّا يلحقوا بهم ، وهو العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٦٢: ٢)، فقوله وآخرين الخ: معناه يعلّم آخرين

غير العرب ، من جميع الأمم الأخرى ، فإنهم صاروا من العرب ، لأن بـــلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، وقد اختلطوا بالعرب بالزواج وغيره ، حتى صاروا منهم في كل شيء ، ولذلك قال : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهـم) أي لم يتجنسوا بالجنسية العربيـة الآن ، ولم يلحقوا بهم بعد ولكنهم سيلتحقون بهم فيما بعد في كل شيء « ﴿ إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدةً ﴾ (٢١ : ٩٢) والمقصود إن بعثـة النبي العظيم عامـة ، وأما سائر النبيين ، فـكانت رسالتهم خاصة ، بقوم دون آخرين ، ومنهم المسيـح عيسى ، ولا يلتفت الي دعوى المسيحيين ، من أن المسيـح مرسـل لعموم الخلق ، فإن لانجعل في أيديهم ينطق بلسان المسيـح بقوله : ﴿ لم أرسَل إلا الى خراف بيت إسرائيل الضالة ﴾ (مت ١٥ : ٢٤) ، وهو حصر صحيح ، ولا ينافيه قول انجيل مرقس : (واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها) « مر ١٦ : ١٥ » لأن اللام في «للخليقة » لا يصح أن تكون للاستغراق ، لأنه يدخل فيها حينئذ الحيوان الأعجم والنبات والجماد،فيتعين أن تكون للعهد ، ولا معهود إلا خراف إسرائيل الضالة ، وبهذا يرتفع التناقض ويلتئم كلام الإنجيل مع قول القرآن الكريم: ﴿ ورسولا الى بني إسرائيل ﴾ (٣ : ٤٩)

الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى

المادة (٦) ـــ كلمة « أدعو » من الدعوة وهي الطلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قد أجيبَت دَعوَتُكُما ﴾ (١٠ : ٨٩) ، وقوله : ﴿ له دعوةُ الحق ، والذينَ يدعونَ مِن دونِـهِ لا يَستجيبونَ لهم بشيء ، إلا كباسِطِ كفّيه إلى الماءِ ، لِيَبلُغَ فاهُ ، وما هـو ببالغِـهِ . وما دعاءُ الكافرينَ الا في ضلالٍ ﴾ (١٣ : ١٥) ، وقوله : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ ، إذا أنتم تخرُجون (٣٠ : ٢٥) ، وقوله : ﴿ رَبنا أخرنا إلى أجـلٍ قريبٍ نجب دَعوتَكَ ونتبع الرُسلَ ﴾ (١٤ : ٤٤) وقول نوح : « اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم

دُعائي إلا فراراً » (٧١ : ٥ و ٦) فكل ذلك بمعنى الطلب ، سواء أكان طلباً من العبد الى الله ، وهو مانسميه دعاء كما في الاية الأولى ، أو طلب الانسان من الأوثان ، بمعنى دعائهم أيضاً ، وهو مافي الاية الثانية ، أو طلب الله أن يَخرجَ الميتُ من قبره ، وهو مافي الاية الثالثة ، أو الطلب من الانسان أن يؤمن ، كما في الايتين الرابعة والخامسة .

وأما « الإدعاء » مثل أدعى عليه كذا ، بمعنى زعم أنه له ، سواء أكان حقاً أم باطلا ، فمصدره أو الاسم منه « الدعوى » وذلك كما في ﴿ فما كان دَعواهم إذ جاءَهم بأسنا ، إلا أن قالوا : إنا كناظالمين ﴾(٧ : ٤) ، أي ما كانوايدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ، إلا اعترافهم ببطلانه .

وقد يطلق لفظ « الدعوى » على « الدعوة » بمعنى الدعاء ، كما في : ﴿ قالوا : ياويلنا ، إنا كنا ظالمين ، فما زالت تِلك دَعواهم .. الخ ﴾ (٢١ : ١٥) فتلك إشارة إلى « ياوَيْلنا » ، فهوى دعوى ، بمعنى الدعوة ، وكما في ﴿ دَعواهم فيها سبحانك اللهمَ وبحمدِ كَ .. الخ ﴾ (١٠ : ١٠) ، فدعواهم هنا : دعاؤهم ، لأن « اللهم » نداء لله ، ففيه أيضاً إطلاق الدعوى على الدعوة .

الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة

المادة (٧) – قوله : ﴿ أدعو الله على بصيرة ﴾ أي بحجة واضحة غير عمياء. لأن الرجل الثَّبْتَ ، لا يتكلم إلا بثبتٍ ، قال: ﴿ادعُ الى سبيلِ ربكَ بالحكمةِ والموعِظةِ الحَسنةِ ، وجادِلهم بالتي هي أحسنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) فالدين إنما يَقوم بالحجَة ، لا بالسيفِ والقوة ، كما قال : ﴿ لا إكراهَ في الدينِ ، قد تَبيّنَ الرشدِ منَ الغي ﴾ (٢ : ٢٥٦) وقال : ﴿ لكم دينُكم وليَ دينِ ﴾ (١٠٩ : ٦) وكذلك نوح عليه السلام قال : ﴿ ياقومِ ، أرأيتم إن كُنتُ على بيّنَة من

ربي ، وآتاني رحمة من عنده، فَعُمِّيَتْ عليكم، أنُلزِمُكُموها وأنتم لها كارهون (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى عن لسان نبيه الكريم : ﴿ قد جاءكم بصائرُ من رَبِّكم ، فمن أبصرَ فلنفسه ، ومَن عَمِي فعليها ، ومَا أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال : ﴿ فذَكِّر ، إنما أنتَ مُذَكِّرٌ ، لستَ عليهم بمصيطر ﴾ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) الى غير ذلك من الايات الكريمة ، التي تفيد أن الإسلام إنما قام بالدعوة ، لا بالسيف والقوة .

وأما حديث : (أمِرتُ أن أقاتِل الناسَ، حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم ، وأموالهم ، إلا بحقها) ، فانما ورد في مشركي العرب، الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم ، وما أذِنَ للمسلمين بقتالهم إلا بعد أن آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم،وقعدوالهم كل مرصد، ووقفوا في سبيل الدعوة ، فلم يكن الإذن إلا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ، والغرض من الحديث ، بيان أن قول « لا إله إلا الله » ، كاف في حقن الدماء ، وان لم يكن القائل لها من المشركين معتقداً ، لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر، ولأن القصد من الاكتفاء بالاسلام ظاهراً ، أن لا يؤذوا المسلمين ، ولا يقفوا عقبة في طريق انتشار الدين ، لأن القصد أن تكون الجزيرة « معملاً » لأنوار كهرباء الاسلام ، تمتد منها أسلاكه الى كل المعمورة ، ولا يناسب أن يكون في الجزيرة من يحول دون امتداد هذه الأنوار الى باقي الجهات ، ومما يؤيد قولنا : إن الحديث خاص بالمشركين ، وان كان لفظه عاماً ، رواية النسائي له بلفظ (أمِرتُ أن أقاتلَ المشركين) ، ولأن « الناس » بحسب اصطلاح القرآن ، يقصد بها غالباً أهل الشرك ، وقد علمت أن المراد بيان غاية القتال ، لا مشروعيته ، وأن سببه الدفاع وتأمين الدعوة ، ومنع الفتنة ، لا إكراه على الدين المنفي بنص القرآن العظيم .

الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم — و بيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)

(المادة ٨) — الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم ، إذا كفوا أذاهم عن المسلمين، وانما نتعرض لهم إذا تعرضوا لنا بالأذى ، لأن كل إنسان ، حر فيما يعتنق من الأديان ، وأما حديث « من بدّل دينه فاقتلوه » فسببه أنه كان المرتد من مشركي العرب ، يعود بعد ردته ، الى محاربة المسلمين وايذائهم ، وهو مطلع على عوراتهم وقلة عددهم وعددهم ، ويعرف مواطن ضعفهم ، فمشروعية قتله ، أظهر من مشروعية قتال جميع المشركين ، المحادين للاسلام ، وكان بعض اليهود ، ينفر الناس من الاسلام ، باظهار الدخول فيه ، ثم باظهار الارتداد عنه ، ليقبل قوله بالطعن فيه كما ورد : ﴿ وقالت طائفةٌ مِنْ أهلِ الكتابِ : آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجهَ النهار ، واكفُروا آخِرَهُ ، لعلهم يَرجعون ﴾ (٧٢:٣) فاذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد ، فانهم يرجعون عن كيدهم هذا ، فالظاهر أن الأمر بقتل المرتد ، كان لمنع شر المشركين من العرب، وكيد الماكرين من اليهود ، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر ، وهي التي تسمى في عرف أهل عصرنا ، سياسة عرفية عسكرية .

منع النبي ﷺ بعض المسلمين من اكراه اولادهم المتهودين على الاسلام

(المادة ٩)— إن خير دليل على أن الاجراء الآنف الذكر لم يكن لاضطهاد الناس في دينهم ، هو أن بعض المسلمين أرادوا أن يكرهوا أولادهم المتهودين — على الاسلام — فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك بوحي من الله ، وكان ذلك عند جلاء بني النضير ، والاسلام في أوج قوته ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿لا إكراهَ في الدينِ ، قد تَبيَّنَ الرُشدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ (٢٥٦:٢) ، لأن سبب نزول هذه الآية ما روى أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : كانت

المرأة تكون مقلاة — أي لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها ؛ إن عاش لها أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : ﴿لا نَدَعُ أبناءَنا﴾، فأنزل الله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له « الحصين » كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي صلوات الله عليه وسلامه : ألا استكرههما ، فانهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ ﴾ — فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير ، « انه حاول إكراههما ، فاختصموا الى النبي ﷺ ، فقال يارسول الله ، أيدخل بعضي النار وأنا انظر ؟ » ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية — تهويد أولادهم ،ليعيشوا، وأن المسلمين بعد الاسلام ، أرادوا إكراه من لهم من الأولاد الذين تدينوا بدين أهل الكتاب — على الاسلام — فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي صلوات الله عليه وسلامه ، قال عندما أنزلت : (قد خير اللهُ أصحابكم ، فان اختاروكم ، فهم منكم ، وان اختاروهم ، فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه — وفيهم من يظن أنهم من أوليائه — أنه قام بالسيف والقهر ، فكان يُعرَض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه ، حكم السيف فيه حكمه ، هكذا قال أعداء الدين، ومنهم البروتستانت وبعض الجهلة من أتباع الدين ، ومنهم من له عمامة بيضاء على رأسه .

وهنا نسأل فنقول : هل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان السيد الأعظم . يصلي مستخفياً ، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من التعذيب ، ولا يجدون رادعاً من المسلمين يردعهم ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون إن ذلك الاكراه وقع في المدينة ، وأكثر

أهلها أسلم طوعاً قبل أن يهاجر النبي اليها ، وقد أعز الله الاسلام بأهلها الأنصار وهذه الآية نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فان غزوة بني النضير ، كانت في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة ، نقض بنو النضير عهد النبي فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلن يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه باكراه اولادهم المتهودين — على الاسلام — ومَنَعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك هو أول يوم ، خطر فيه على بال بعض المسلمين، الاكراهُ على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه : ﴿ لا اكراه في الدين ﴾ (كذا حرره بعض المعاصرين).

مرتبتا الدعوة الى التوحيد

المادة (١٠) — قوله :﴿ ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، أي ندعو الكافر الى التوحيد ، والمسلم الموحد الى فعل الخير وترك الشر ، فللدعوة مرتبتان:

المرتبة الاولى — هي دعوة هذه الأمةِ سائرَ الأمم الى التوحيد والاسلام ، وان يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهذا مطلوب منا بحكم جعْلِنا أمةً وسطا وشهداء على الناس ، وبحكم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وبحكم قوله في وصف المؤمنين :﴿الذينَ إنْ مَكناهُم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، وأمروا بالمعروفِ ، ونَهوا عن المنكر﴾ (٢٢:٤١) ، فالواجب دعوة الناس الى الاسلام أولاً ، فان أجابوا، فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والمرتبة الثانية — هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ولهذه المرتبة صورتان ، الصورة الاولى ،

الدعوة العامة الكلية ، وانما يقوم بها خواص الامة ، العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه ، وهم المشار اليهم بقوله تعالى : ﴿ فلولا نَفَرَ مِنْ كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ، ليتفقهوا في الدين ، ولِيُنذِروا قومَهم ، إذا رَجعوا اليهم، لعلهم يَحْذَرون ﴾ (٩:١٢٣) ، والصورة الثانية ، الدعوة الخاصةالجزئية ، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فيه العالم والجاهل،وهومايكون بين المتعارفين ، من الدلالة على الخير ، والحث عليه عند عروضه ،والنهي عن الشر، والتحذير منه ، وكل ذلك من التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدر .

جاء في الحديث « المؤمن مرآة المؤمن » رواه الطبراني في الأوسط ، والضياء من حديث أنس ، ورواه البخاري في الادب المفرد ، وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة ﴿ والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه ﴾ ،وفي الحديث : « لتأمُرُنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم » ، وفي الحديث : « من رأى منكم منكراً ، فليغيرّه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال ﷺ : « إذا رأى الناس المنكر ، فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » رواه ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وصححه .

الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل

المادة (١١) — قوله : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ يعني انه يدعو الى توحيد الله الذي أثبته العقل بالدليل ، ولكنه لم يعرف كنهه ، وليس يدعو الى ما ينفيه العقل ، ويجزم بعدم إمكان تحققه ، كأن يدعو الناس أن يؤمنوا بأن بعض الأنبياء إله كامل ، وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، لأن

هذا الدعاء ، ليس على شيء من البصيرة ، يدعو الى توحيد الله الذي أثبته النص والنقل في التوراة والزبور والأنجيل والقرآن المجيد ، وليس يدعو الى ما هو خال عن البصيرة ، مما لم يثبت نقلاً صريحاً ، كالقول بثلاثة أقانيم ، فان هذا إنما هو شيء ناتج عن اجتهاد مجتهدي النصاري في المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ ب. م ولا يجوز الاجتهاد مع وجود النص .

علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم

المادة (١٢) ـــ قولـــه : ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ : ولذلك فنحن أتباعه اليوم ندعو الناس الي الله بفهم كلامه والتأسي برسوله مع البصيرة . أي الدليل والبرهان، ندعو المسلمين الى الأهتداء بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، كل بقدر استطاعته ، لكن طالب الاهتداء إذا كان من العامة ، أمكنه أن يسأل العلماء عما يجهل عند الحاجة اليه ، لا عن رأيهم وفهمهم لكلام المقلدين فقط ، بل عن حكم الله ورسوله في الحادثة ، ولا يلزمه أن يبحث عن الدليل عندما يريد أن يعمل عملا ؛ لأن الله يقول : ﴿ لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلاّ ما أتاها ﴾ (٦٥ : ٧) ، ويقول : ﴿ لِأُنذِرَكُم به ومَنْ بَلَغَ ﴾ (٦ : ١٩) .

الفصل الرابع

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الانبياء

آ(١٠٩) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ، نوحي اليهم ، من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الارض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟!)

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وتسعة فقام الفقيه الدمشقي وقال: كان قوم نوح يقولون : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ (٢٣: ٢٤) ، وكذلك عاد وثمود : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم : أن لا تعبدوا إلا الله — قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾(٤١ : ١٤) ، وكذلك أهل مكة طلبوا أن يرسل اليهم ملك ، كما قال تعالى في سورة الأسراء المكية : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا ان قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ ! — قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾(١٧: ٩٤ و ٩٥) ، وكذلك نفر من اليهود : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ (٦ : ٩١).

هذا ولما قال أهل مكة ما قالوه كغيرهم ، قال تعالى لنبيه ﷺ (وما

أرسلنا من قبلك) يا محمد (إلا رجالاً) لا ملائكة (نوحي اليهم من أهل القرى) وهي المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم « بالعواصم » — وهذا من قبيل قياس الحاضر من الماضي — (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين لك يا محمد (فينظروا كيف كان عاقبة) آخر أمر (الذين من قبلهم) يعني الأمم المكذبة ، فيعتبروا ، فانهم متى وقفوا على ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى (ولدار الاخرة خير للذين اتقوا) الذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه (أفلا تعقلون ؟) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

(أفلم يسيروا في الأرض ... الخ)

— ١ —

وتابع الفقيه الدمشقي كلامه معلقاً على الآية بما يلي :

تطبيق القول على الواقع

التعليق الأول — سبق أن الله تعالى بما قص عليهم من سيرة يوسف واخوته — علمهم بالقول ، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به ، نبههم إلى النظر في الامور الواقعة فقال : ﴿ أَفَلَمْ يسيروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبلِهِمْ ﴾ وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ فَسِيرُوا في الأرضِ فانظُروا كيف كان عاقِبةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) أي أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت في الأمم الماضية ، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ، وكان ذلك يجري بأسباب مضطردة ، وعلى طرائق مستقيمة ، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ، وأن من ينحرف

عنه يخذل ، فليسيروا في الأرض ، ولْيَسْتَقْرُوا ما حلّ بالأمم ، ليحصل لهم بذلك العلم الصحيح التفصيلي، لأن السير في الأرض،والبحث عن أحوال الماضين، وتعرّف ما حلّ بهم ، هو الذي يوصل إلى معرفة سنن الله في خلقه ، والاعتبار بها كما ينبغي ، نعم إن النظر في التاريخ ، وسماع قصص الماضين ، يعطى الانسان من المعرفة . ما يهديه إلى تلك السنن ،ويفيده عظة واعتباراً ، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح

التعليق الثاني — لأجل الترغيب في السير في الأرض للنظر في أحوال الأمم، ولأجل الاعانة على السياحة ، لرؤية الآثار وسماع الأخبار ، أمر الله بالاحسان الى السائح في قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ، واليتامى والمساكين ، والجارِ ذي القُربى ، والجارِ الجُنُبِ ، والصاحِبِ بالجَنْبِ ، وابنِ السبيلِ ﴾ (٤ : ٣٥) فابن السبيل ـ في قول ـ هو السائح الرحالة ، في غرض صحيح غير محرّم ، سواء أكان دينياً أو اجتماعياً أو سياسياً،أو علمياً أو اقتصادياً ، ففي هذه الآية بل الآيات تنبيه إلى أصل عظيم من أعظم أصول العلم التي تُستفاد من السياحة،واختبار أحوال الأمم وعواقبها ، وهذا العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة ، هو المعبر عنه في هذا العصر « بعلم الاجتماع » .

أهل القرى وأهل البوادي والأعراب

التعليق الثالث — قلنا المقصود من القرى في قوله « من أهل القرى » المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم بالعواصم ، وإنما كان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة ، لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا ، فالرسل تبعث من أهل المدن والأمصار ، لأنهم أعقل من أهل البوادي ، وأرق طباعاً وألطف

عريكة ، واعلم وأحلم من أهل العمود ، بخلاف أهل البوادي ، الذين هم من أجفى الناس طبعاً وأخلاقاً ، أما أهل الريف والسواد فإنهم أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي » ، وقد وردت في أهل البوادي آيات كثيرة ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ الأعرابُ أَشَدُّ كُفراً ونِفَاقاً ، وأجْدرُ أنْ لا يَعْلَموا حدودَ ما أَنزلَ اللهُ على رسولِهِ ، واللهُ عليمٌ حكيم ، ومِنَ الأعرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغْرَماً ويَتَرَبَّصُ بكم الدوائِرَ ، عليهم دائِرةُ السَّوْءِ ﴾ (٩ : ٩٨). واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ قالتِ الأعرابُ آمنَّا ـ قُلْ : لم تُؤمِنوا ، ولكنْ قولوا : أسْلَمْنا ، ولمَّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكم ﴾ (٤٩ : ١٤) . واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وجاء المُعَذِّرُون مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم ، وقَعَدَ الذين كَذَبوا اللهَ ورسولَهُ ، سيُصيبُ الذين كَفَروا منهم عذابٌ أليمٌ ﴾ (٩ : ٩١) ـ المُعَذِّر من عَذَّر في الأمر إذا قصّر فيه وتوانى ولم يجدّ ، وحقيقته ان يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له ـ قرن هؤلاء المعذرين بالمنافقين ، ووعد كلاً بالعذاب الأليم ، وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المُخَلَّفونَ مِنَ الأعراب : شَغَلتنا أموالنا وأهْلونا ، فاستْغفِر لنا ، يقولونَ بألسِنَتهم ما ليس في قُلوبِهم ـ قلْ : فَمَنْ يملِكُ لكم مِنَ اللهِ شيئاً ؟ إن أرادَ بكم ضَرّاً أو أرادَ بكم نَفْعاً ، بل كان اللهُ بما تعملون خبيراً ، بل ظَنَنْتُم أن لن يَنقَلِبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم ، وظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْءِ ، وكنتم قوماً بُوراً ﴾ (٤٨ : ١٠و١١) .

الاستدلال بالقياس الاستقرائي على صحة الدعوة

التعلق الرابع ـ تقدم أنه قال : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ،

أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ ، فهذه دعوى صورتها: أنهم إن لم يؤمنوا صارفيهم هكذا وهنا استدل على صحة هـذه الدعوى بالقياس الاستقرائي ، ومعلوم أن القياس الاستقرائي أعلى مرتبة من جميع القياسات التي تثبت بها حقائق الأشياء ، فإذا ثبت لدينا شيء بواسطته ، لايسعنا إنكاره ، وإذا أنعمنا النظر نرى أن علم أكثر أشياء هذا العالم ، وعلم حوادث الدهور الغابرة والأزمنة الماضية — إنما حصل لدينا بواسطة الاستقراء ؛ خذ اليك مثلاً : نحن نقول الآن : إن الإنسان منـذ خلق يأكل بفمه ، وينظر بعينيه ، ويسمع باذنيه ، ويشم بأنفه ، ويتكلم بلسانه ، فإذا ادعينا خلاف هـذا نكون قد نفضنا أيدينا من النتائج القطعية الثابتة لدينا من الاستقراء .

الانبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي

التعليق الخامس — قوله : « إلا رجالاً نوحي اليهم » ، يراد بهذا الحصر الرد على مزاعم ثلاث :

فأولاً — الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية ، كما هو مذهب اليهود والنصارى ، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين ، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً ، لكنه غير مراد ههنا .

وثانياً — الرد على مشركي العرب ، إذ قالوا : ﴿ لولا أنزلَ عليه مَلكٌ ؟ ﴾ (٨:٦) ، ﴿ أو جاءَ مَعَهُ مَلكٌ ﴾ (١٢:١١) ، ﴿ لن نُؤمِنَ لك حتى ... تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ (٩٢:١٧) وهذا قد يكون مراداً ههنا .

وثالثاً — الرد على من يقولون إن الأنبياءهم سياسيون محنكون ، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ، وهـذا مايعتقده ويزعمه في نبينا بعض مشركي العرب ، كما يعتقده اليوم أهل أوربا ، أي

أنهم يعتقدون أن النبي القرشي ، قام بما قام به ، بحنكته وسياسته ، لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته به ، ومثل الافرنج في هذا الرأي ، كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء نصارى الشرق ، فدعوى أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحنكته أي بتجاريه ، هي أكبر شبهتهم على الإسلام ، حتى أنهم لولاها لكانوا مسلمين ، ومن هؤلاء الدكتور « شميل » اللبناني الشهير ، إذ يقول من أبيات يمدح بها النبي ﷺ : « رجل الحجا رجل السياسة والدّها » ومنهم البرنس « كايتاني » الإيطالي ، فإنه ألف كتاباً في تاريخ الإسلام ، ذكر فيه آن مزية النبي (ص) هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك ، وهو يعتبر أن ماتم على يديه ، إنما كان بالدهاء والسياسة وسمو الأفكار وعلو الأخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال ، « كبسمارك » و « نابليون الأول » وإن ما ادعاه من النبوة ، وماجاء به القرآن ، لا تأثير لهما في نفسها ، وإنما التأثير له هو بنفسه وبهما ، لأنه استخدمها في تأثير سياسته .

هذا ملخص ما كان يعتقده بعض مشركي العرب ، ثم صار أهالي أوربا يعتقدونه ويقررونه ويشرحونه ببسط ، فالله تعالى يرد عليهم ، بهذه الآية وأمثالها فيقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ ،أي ما كان الرسل إلا رجالاً عاديين ، إنما امتازوا عن باقي الرجال وتأيدوا بالوحي السماوي .

نعم الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا بد أن يكون الرسل من ذوي الفصاحة وقوة الحجة والعارضة ، ومن أهل الفطانة والذكاء ، ولكن مجرد هذا لا يعلو بهم عن أمثالهم من الرجال الفصحاء الفطناء الأذكياء ، أقوياء الحجة شديدي العارضة وانما الذي بهم عن الرجال ، ويميزهم عنهم ، هو الوحي والتأييد الالهي السماوي ، فهذه هى الخاصة التي تعلو بهم إلى الثريا ، ويمتازون بها عن كل من عداهم ، من فصحاء وأذكياء كل الرجال .

وعليه فيكون معنى الاية حينئذ وما أرسلنا من قبلك رجالاً، يكون جل أو كل اعتمادهم ونجاحهم ، على أخلاقهم ومزاياهم الشخصية ، أو على حسن سياستهم وحنكتهم ودهائهم ، . . كلا . . وإن هذا وحده لا يفيد ، ولكن إنما أرسلنا رجالاً جل اعتمادهم أوكله على الوحي ، الذي نسدد به خطاهم ، وبه نرشدهم ونثقفهم ونؤد بهم ، وبه ننصرهم ونعضدهم ونؤيدهم ، فالخاصة التي يمتازون بها عن باقي الرجال العقلاء الفطناء ، ويعلون بها على الفصحاء والبلغاء ، ويتشرفون بها فوق كل السياسيين والمحنكين والحكماء ، هي الوحي ، كالقرآن مثلاً ، فالقرآن هو السبب في نجاح النبي المختار ، وفي هداية المسلمين .

تطمين محمد ﷺ بالنصر

آ(١١٠) ﴿ . . . حتى إذا استَيْأَسَ الرُّسُلُ ، وظَنُّوا أَنَّهم قد كُذِبوا ، جاءهم نَصْرُنا ، فَنُجِّيَ مَنْ نشاءُ ، ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القومِ المجْرِمينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية المئة وعشرة ، فقام الاستاذ الخوارزمي (١) وقال :

« حتى » هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام « فكأنه قيل : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم (حتى إذا) حمي الوطيس ، وقامت الحرب على ساق و (استيأس الرسل) وقنطوا من نصرهم العاجل في الدنيا ، فهماً منهم أنهم سوف ينصرون في الاخرة (وظنوا أنهم قد كذبوا) — فيه قراءتان ، فان قريء بالتخفيف على البناء للمجهول فمعناه : ظنوا أنهم كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم

(١) نسبة الى بلدة خوارزم في تركستان .

بأنهم ينصرون ، أو ظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم ، وهـذا نظير قوله : ﴿ أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنة ولما يأتِكم مَثَلُ الذين خَلوا مِنْ قبلكم : مَسَّتْهُم البأساءُ والضَّراءُ وزُلزلوا ، حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه : متى نصرُ اللهِ ؟ ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ﴾ (٢١٤:٢) .

وإن قُرِيء بالتشديد على البناء للمجهول أيضاً فمعناه : ظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذّبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر — وعند ذلك (جاءهم) أي الرسل (نصرنا) فجأة ، من غير احتساب (فنجي من نشاء) عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون المطيعون ، لأنهم الذين يستأهلون نجاتهم (ولا يرد بأسنا) عذابنا في تلك المعركة (عن القوم المجرمين) مهما أعدوا لها العدة ، بل يحيط بهم من كل جانب .

(حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا .. الخ)

وقال الشيخ عبد الرحمن رياض الحيدر آبادي : عندي على هذه الاية التحقيقان التاليان :

الله سبحانه وتعالى يطمن محمدا ﷺ بأنه ناصره في دعوته

التحقيق الاول — لقـد كان النبي ﷺ يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه ، والحق يسطع نوره ، وهم يعمون عنه ،حتى قال الله له : ﴿ فلَعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يُوحى اليك وضائِقٌ به صَدْرُكَ ، أنْ يقولوا : لولا أُنزِلَ عليه كَنْزٌ أو جاء معه مَلَكٌ ، إنما أنتَ نذيرٌ ، واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾ (١١ : ١٢) وقال له : ﴿ قد نَعلَمُ إنَّهُ لَيَحزُنُكَ الذي يقولونَ ، فإنهم لا يُكَذِّبونَكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يَجحَدُونَ ، ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبلِكَ ، فَصَبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا ، حتى آتاهم نَصرُنا ، ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله

ولقد جاءكَ منْ نبأ المرسَلينَ ، وإنْ كانَ كَبُرَ عليك إعراضُهم ، فإنْ إستَطَعْتَ أنْ تبتغي نَفقاً في الأرضِ ، أو سُلماً في السماءِ ، فتأتيهمْ بآيةٍ... ولو شاءَ اللهُ لجمَعَهُمْ على الهدى، فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلينَ ﴾(٦ : ٣٣-٣٥) وقال تعالى : ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفَتحُ ، ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً ، فسبِح بحمْدِ ربكَ واستغْفِرهُ إنه كانَ تواباً ﴾(١١٠:١-٣) وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ، مايدل على النبي ﷺ كان يضجر ويقلق من استبطاء نصر الله للحق ، الذي بعث به نبيه ، بل فيه شيء من السهو عن وعدالله بتأييد دينه ، وليس ذلك من التنقص الذى يعاب به الأنبياء ، فان كل مخلوق لا يعلم من غيب الله مايعلم الله ، لا بد أن يمسه هذا الضجر ، ويصيبه هذا القلق ، وتأخذه الشدة بهذا النسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده ، ولكن الله جل شأنه يعده على أقرب المقربين اليه ، كما قالوا : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها

التحقيق الثاني — الأظهر المنطبق على قواعدالعقائد ،أن المرادباستيآس الرسل يأسهم من ايمان قومهم ، وفى قوله تعالى (كُذبوا) بضم الكاف، قراءتان سبعيتان احداهما بتشديد ذال (كذبوا) ولا إشكال فيها ، غير ان الظن فيها بمعنى اليقين لانه قد يستعمل في الفصيح بهذا المعنى وبمعنى الوهم ، وبمعنى حديث النفس ، والقرائن هي التي تعين المعنى المراد ، والقراءة الثانية بتخفيف ذال (كذبوا) ، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان : أحدهما ان الضمير في (ظنوا) لأقوامالرسل: أي ظن الأقوام انهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم ، وثانيهما ان الضمير للرسل ، و (كذبوا) هىنا ، معناه : كذبتهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم ، أي خابت آمالهم فيهم ، من كذبته نفسه . اذا منته الأماني وخيلت اليه من الآمال مالا يكاديكون ، قال فيالاساس: (وكَذَبَ نفسه ،وكَذَبَتْهُ نفسه.

اذا حدثته بالاماني البعيدة والامور التي لا يبلغها وسعه ومقدرته)، والمعنى حتى اذا يئس الرسل من ايمان قومهم وظنوا : أي يقنوا أن امانيهم في ايمانهم وآمالهم في قبولهم الدعوة ضائعة ، جاءهم نصرنا، وورد أن عائشة (رض) كانت تنكر قراءة التخفيف ، كما في صحيح البخاري من طريق عروة بن الزبير ، وقد علمت أن العلماء خرّجوا هذه القراءة على معنى مستقيم والله تعالى أعلم .

هذه كلمتي القيتها على أسماعكم الشريفة ، وما اشبهني بمن قيل فيه :

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا

فانني أيها السادة أجنبي عن لغتكم ، وأنتم الأصل والأهل .

(مرحى مرحى ولا فض فوك).

الفصل الخامس والاخير

العبرة من قصص الرسل مع اقوامهم

آ(١١١) (لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب ، ما كانَ حديثاً يُفْترى ، ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيْهِ ،وتَفصيلَ كلِّ شيءٍ ، وهُدًى ورَحْمةً لقومٍ يُؤمِنُون)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة واحدى عشرة ، وهي الآية الاخيرة في السورة ، فقام الفهامة الشيخ احمد من علماء « عليكرة » في الهند وقال:

يقول الله تعالى : بذاتي حلفت (لقد كان في قصصهم) أي في خبر المرسلين مع قومهم وذويهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، وكيف نصرنا.

المظلومين على الظالمين (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول، فان تاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكريات (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) يكذب ويختلق من دون الله (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية ، كصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزبور ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ، ويشير لما وقع فيها من نقصان ، ويحكم عليها بالتقرير لأكثرها ، والنسخ لبعضها (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والأخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المستقبلة ، المجملة والتفصيلية ، والأخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهته عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان (هدى ورحمة) وبياناً ونعمة (لقوم يؤمنون) تهتدي قلوبهم من الغي الى الرشاد ومن الضلال الى السداد .

(لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب)

—١—

وقال السيد نور الدين من علماء سنغافورة (١) ههنا مواد جميلة المسالك على هذه الفقرة من الآية الكريمة جمعناها من هنا وهناك وهنالك واليك بيانها:

محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة

المادة (١) — قال « بوسورت سميث » في كتابه « حياة محمد » « من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن « محمداً » أسس في وقت واحد ، ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجليل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة ، مع أنه أمي

(١) نسبة الى بلدة سنغافورة في شبه جزيرة مالاقا جنوب الهند الصينية

وما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ، ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد » وقال الدكتور « موريس » الفرنسي « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته يد العناية الأزلية لبني البشر ».

الغاية من قصص القرآن

المادة (٢) — قص علينا القرآن أحسن القصص ، ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من أمراض الجهالة ، وارشاداً لتقويم شؤون البشر ، وتهذيب نفوسهم ، واصلاح معاشهم ومعادهم ، وليس الغرض من تلك الأقاصيص ، سرد تواريخ الماضين ، وذكر شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للعظة والاعتبار ، ولهذا لا يبالى فيها بالتكرار ، ولا يستهجن معها الاطناب بعد الايجاز ، أو الايجاز بعد الأطناب ، ولا أن تسرد غير مُراعى فيها تعاقب الوقائع ، ولا ترتيب الحوادث ، فالقرآن يذكر القصة في مواطنها ، بأساليب متغايرة ، أو صور متقاربة . ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه ، والى هذا يشير قوله تعالى هنا : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ وجاءَكَ في هذه الحقُ ، وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنين ﴾ (١١ : ١٢٠) .

هذا ولم تتكرر قصة يوسف لأنها قصة محزنة مؤسفة ، ولأن فيها من ذكر ما يتعلق بالعرض والناموس مالا يتفق مع التكرار .

الغاية من ذكر الأنبياء وقصصهم في القرآن

المادة (٣) — ورد قوله تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبياً : ﴿ أولئك الذين هَدى اللهُ ، فَبِهُداهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ (٦ : ٩١) فالغرض من ذكر الأنبياء وحوادثهم القدوة بهم في التبليغ واقامة الحجة والصبر على التكذيب مثلاً ، والصبر على إيذاء

أهل العناد ، والأقارب والأباعد ، واعطاء كل حال حقها ، من مكارم الأخلاق ، وأحاسن الأعمال ، والفائدة موجودة دائماً في كل قصص ، حتى في قصص يوسف مع امرأة العزيز وسيرة عشقها له ، ومراودتها إياه ، ثم في سيرة عشق النسوة المصريات لجماله ، فان ذلك كله قد اقترن بما يدفع الانسان عن التدهور في مثل هذه الوهدات التي تنزل بالنساء الى الحضيض الأسفل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورَحمةٌ للمؤمنينَ — الى أن قال — ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً ﴾ (١٧ : ٨٢) وقال تعالى : ﴿ واذا ما أُنزِلتْ سورةٌ ، فمنهم مَنْ يقولُ: أيُّكمْ زادَته هذه إيماناً ؟ فأما الذينَ آمنوا فزادَتهمْ إيماناً وهمْ يستبشِرونَ وأمّا الذين في قلوبِهم مَرَضٌ فزادَتْهم رِجساً الى رِجسِهِم ، وماتوا وهم كافرون ﴾ (٩ : ١٢٥و ١٢٦) فكل أحد يرغب في سماع هذه القصة ،لتحريك المحبة المذمومة،أو يرغب عن سماعها، دفعاً لهذه المحبة، فهو مذموم ، وانما الممدوح من يحب سماع تلك السيرة لما حوته من العبر والذكر ، وما يستفاد من عواقب العشق السيئة ،وكذا كل من أحب أن يسمع هذه السورة لتعلم ضروب الحيل،فهو مذموم، ولكن الممدوح من يتدبر بعض هذه الحيل بما اشتملت عليه من النتائج السيئة ، والبعض الآخر بما شمله من العواقب الحسنة ، وهكذا كل من لذّ له أن يسمع ما انطوت عليه من الحسد والعقوق وقطع الرحم والختل والكذب والقساوة وخلف الوعد فهو مذموم ، وانما المشكور من قرأ ذلك وعلم ما فيه من نتائجه السيئة وعواقبه المكروهة ، ثم التوبة منه الى الله والى الناس الممكور بهم .

وليس ماذكر خاصاً بسورة يوسف ؛ فقد ذكر الله تعالى في غير هذه السورة أحوال الكفار والفجار واللوطية والفراعنة والظلمة ، ثم الشرك بأنواعه ، والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ونقض العهود وخلف الوعود ، الى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله.

والصد عن سبيله ، فهذ الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والكفريات وأنواع الفسوق، وكله مذكور في كتاب الله تعالى، ولكن ذكره محفوف بالنهي والترهيب وبيان سوء المغبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات

المادة (٤) — القرآن ليس بتاريخ ، كما هو الشأن في سفر التكوين ،وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك والأيام وعزرا والخ والخ فإن هذه الأقاصيص ، هي تاريخ محض جاف خال عن العبرة .

القرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة بين الناس ، ولذلك نص نصاً صريحاً ببراءة الأنبياء الكرام ، الذين رماهم « أهل الكتاب » بالكبائر . راجع القرآن وقوله :﴿ وما كَفَرَ سُليمانُ . ولكنَّ الشياطينَ كفروا ﴾ (٢ : ١٠٢) وهو رد على توراة اليهود التي تنسب لسليمان — حاشاه — عبادة غير الله .

راجع القرآن وقوله : ﴿ قالوا : ما أخلفْنا مَوْعِدَكَ بملْكِنا ، ولكنَّا حُمِّلْنَا أوْزاراً منْ زِينةِ القومِ فقذَفْناها فكذلك ألقى السامِرىّ ،فأخرَجَ لهم عِجلا جسداً له خوارٌ ـ فقالوا : « هذا إلهكم وإله موسى فنسيَ » أفلا يرَوْنَ أنْ لا يرجعُ اليهم قولا ، ولا يملِكُ لهم ضَرّاً ولا نَفْعاً؟ ولقد قال لهم هرونُ منْ قبلُ : « ياقومِ إنما فُتِنتُم به وإنَّ ربَّكُمُ الرحمنُ ، فاتبعوني وأطيعوا أمري » .. ـ قالوا : لَنْ نَبْرحَ عليه عاكِفِينَ حتى يَرجعَ الينا موسى » ... قال : ياهرونُ ما مَنَعَكَ إذْ رأيْتَهُم ضلُّوا ألاّ تتّبِعَنِ ؟ أفعَصَيْتَ أمري ؟ .. ـ قال : « يا ابنَ أمَّ لا تأخُذْ بلِحيتي ولا برأسي ، إني خشيتُ أنْ تقول : « فرَّقتَ بين بنى اسرائيل ، ولم ترقُب قولي » ـ قال : « فما خطبُكَ ياسامريّ ؟» ـ قال : « بَصُرتُ بما لم يَبصُروا به ، فقَبَضْتُ قبضَةً مِنْ أثرِ الرسول ، فنَبذْتها ، وكذلك سَولتْ لي نفسي » ـ قال : « فاذهبْ

فإن لك في الحياة أن تقول: «لا مساس»[1] وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا» (٢٠ : ٨٧ - ٩٧) فهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين يقولون إن هرون هو الذي صنع لهم العجل الذهبي (خر ٣٢ : ١ - ٦).

القرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم الا ما فيه عبرة، وما به تغذية النفوس بالصلاح والاستقامة وتحصين الاخلاق والآداب — بسياج الفضيلة، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول مافيه افساد للأخلاق وتعليم للرذيلة، اقرأ ماجاء في (تك ٩ : ٢٠ — ٢٧) عن ترجمة حياة نوح، وما جاء في (تك ٢٧ : ٢٥) عن سكر الانبياء، وماجاء في (خر ٢٩ : ٤٠) و (لا ٢٣ : ١٣) عن إيجاب تقريب الخمرة للرب، وما جاء في (٢ صم ٦ : ١٩) عن سقي داود الخمرة لمن أصعد تابوت الرب إلى مدينة داود وما جاء في (يو ٢ : ٧ — ١٠) عن تحويل المسيح الماء خمراً وتقديمها للضيوف وما جاء في (مت ٢٦ : ٢٧) عن شرب المسيح الخمرة وأمره تلاميذه أن يشربوا منها، وما جاء في (تك ١٩ : ٣٠ — ٢٨) عما فعله لوط مع ابنتيه،

(١) المراد من قوله « لا مساس » أنه كان في شريعة موسى عليه السلام ان الذي يرتكب خطيئة كبيرة، يعد كأن به داء معديا، فينفصل عن سائر الشعب، خارج المحلة، باعتبار أنه نجس. وكان عندهم يجب عليه أن يعلن مرضه ذلك، بثيابه واشارته وكلماته، وذلك بأن تشق ثيابه، ويكشف رأسه، ويغطي شاربيه، ويطرد من المحلة أو المدينة الى الخارج، ويلزم أن يصرخ متى رأى أحداً مقترباً اليه، فيقول: لامساس لامساس، أو يقول: نجس نجس، ويبقى على هذا الحال الي أن يتاب عليه، فيرجع ويختلط بالناس، وتختلط الناس به، ويعاشرهم ويعاشرونه، وهذا قريب من « الهجر » المشروع في الاسلام، لمرتكبي الكبائر، كما في قصة « كعب بن مالك » و « زرارة بن الربيع » و « هلال بن أمية » المشار اليهم في قوله تعالى : [وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، ان الله هو التواب الرحيم] (٩ ١٩) اهـ.

فأي عبرة في سرد ذلك للقارئين ؟ وما هو منفعته للسامعين ؟ بل ماهي الحكمة وما هي العبرة في ذكر جريمة لوط — حاشاه من ذلك — التي أتت في كتبهم كأنها أمر عادي ، وكأن لوطاً لم يرتكب منكراً ، حتى لم يذكر أن الله وبخه أو عاقبه على ذلك ، أو أنه تاب من ذنبه ، بل العجيب أن الكتاب المقدس ، سماه باراً تقياً (٢ بط ٢ : ٧ — ٩) ، فأي عبارة أتى بها الكاتب لبيان شناعة هذا العمل الفظيع ، واستقباحه له ، أو وجوب التوبة منه ؟ وقد قالوا إن الحكمة في ذكر هذه القصة وأمثالها هي إظهار درجة قبح شرب الخمر ، وبيان ماتؤدي اليه ! ! ! ونحن نقول إنما افتجر اليهود هذه القصص تبريراً لشرورهم الكثيرة ، وعصيانهم لله مرات عديدة ، واعتذاراً بها عن جرائمهم وآثامهم المتكررة المستمرة إلى اليوم .

القرآن لايذكر من تاريخ داود ، إلا مافيه عظة وعبرة لأولي الألباب ، ولكن سيرة داود عند اليهود والنصارى ، معروفة مشهورة ، وقساوته وظلمه ، لامثيل لهما — حاشاه — ، اقرأ ما جاء في (٢ صم ١٢ : ٣١) و (١أي ٢٠:٣) عن نشره أسرى بني عمون بالمناشير ونوارج الحديد والفؤوس ، وما جاء في (١مل١٥ : ٥) عن تعريضه أوريا الحثي وزناه بزوجته ، وماجاء في (١صم٢١:٢) من كذبه وتعليمه الكذب ، وما جاء في (١ صم ١٨ : ٢٥ و ٢٧) من قتله ٢٠٠ من الفلسطينيين ليتزوج ابنة شاول ، وما جاء في (١ مل ٢ : ٨ و ٩) من وصيته لابنه سليمان وهو محتضر بقتل رجل ، وما جاء في (٢ صم ١٣ : ١ — ١٤) من حزنه على ابنه «أمنون» حينما قتل ، مع أنه فسق باخته بعد أن خدعها خدعة دنيئة ، وما جاء في (٢ صم ١٤ : ٢٤ و ٢٨) من أن داود حقد على ابنه أبشالوم الذي قتل أخاه « أمنون » انتقاماً لاختها ؛ وداود هذا ، هو الرجل الذي نصت كتبهم على أنه كان باراً ، وان جميع أعماله مرضية عند الله تعالى ، وكلها مستقيمة ، في عيني الرب ، وطبق وصاياه ، (١ مل ١٥ : ٥) .

قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق

المادة (٥) — لانرى قصه من قصص القرآن ، إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، وإرشاد ونصح ، وتبصرة وتذكرة ، ونرى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخية التي لا لزوم لها ، ولا معول عليها ، وبالأولى تراه يعرض عما ذكرته توراة اليهود ، التي بين أيديهم ، من الحوادث المخجلة الشائنة ، التي نوهنا بالشيء الكثير عنها .

لا فائدة من درس التاريخ ان عدل به عن العبرة

المادة (٦) —درس التاريخ أن عدل به عن العبرة ، كان شغلا بلا فائدة ، وضياع وقت وحياة بلا ثمرة ، و « العبرة » مشتق من عبور البحر ، فينقل قاريء التاريخ حال غيره على نفسه ، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه ، أو بأسرته أو بأمته ووطنه ، وبدينه ودنياه ، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية ، قال تعالى : ﴿ ماترى في خَلقِ الرحمنِ مِنْ تفاوتٍ ﴾ (٦٧ : ٣) وقال : ﴿ كذلك قال الذين مِن قبلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تشابَهَتْ قُلوُبهم ﴾ (٢ : ١١٨) ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ فليس تحتَ الشمسِ مِنْ جديدٍ ﴾ (جا ١ : ٩) ، ويقول العلماء : « التاريخ يعيد نفسه » ، وقد غفل الناس عن تلك العبرة ، جهالة بالقصد ، ورمياً للفحوى ، ورضى بالقشور ، وابتعاداً عن أسرار البلاغة : جاء الخطاب بلسان العرب ، وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها ، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها ، أو المعاني دون مغزاها ، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ، ذكر له قصصاً تشبه حاله ، فيردعه عن غيه ، فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام ، وتثير في القلب حمية

وإقداماً ، أو خيفة وإحجاماً أو صلاحاً واستقامة ، فيزول المراء ، ويرتفع الغطاء فان المثل في مغزاه ، كالسهم في مرماه .

قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة

المادة (٧) — إن جمال قصة يوسف ، سائق لما به السعادة ، وهو حفظ الأخلاق ودوام الثقة بالله تعالى ، وانتظار الفرج منه ، فإذا قرأ القاريء ، أن يوسف كان عفيفاً ، حين راودته زليخا لكي يخالطها ، تشوق القاريء الذكي التقي أن يكون كيوسف ، عفة وأمانة ، وكذلك يقلده في العفو عمن ظلمه ، وسماح من تعدى عليه ، بل في نفعه وتشريفه ، ويقول في نفسه : إن هذه الأخلاق اليوسفية ، كانت عاقبتها النبوة والملك ، فهكذا من قلده في أخلاقه ، تكون عاقبته الولاية والرفعة .

ليس المقصود من قصة يوسف ، أن نلوم إخوة يوسف على حسدهم له، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لاخوتنا ، وليس الغرض أن نتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيهم ، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا ، ويغدر بعضنا ببعض ، وليس المطلوب أن نعترض على أخوة يوسف وقتما نراهم قد قطعوا الرحم ، وقذفوا بأخيهم في غيابة الجب ، وإنما المطلوب أن نعترض على أنفسنا وقتما تحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمنا وأقاربنا .

كما أنه ليس بالاخبار بلقيا يعقوب لولده يوسف ولم شمله به ، واجتماع الأسرة الاسرائيلية جميعاً ، في صعيد واحد ، مطمئنين مسرورين ، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين ، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً ، تحت راية واحدة ، وتحت إمام واحد .

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

المادة (٨)— لقد كان في قصص يعقوب وأولاده عبرة،فليعتبر بذلك هؤلاء الناس ، الذين اقتصروا على معرفة الفروع الفقهية ، وظنوا أن الحلال والحرام ، كافيان في الإسلام ، وكم تركوا العظة بآيات كثيرة ، بحجة أنها نزلت في الكفار أو المنافقين ، فلا لزوم للتأمل فيها والاتعاظ بمراميها .

ليقيسوا حالهم على حالهم، وليقيس كل من كان اليوم من ذرية النبي ﷺ أو غيره من الصحابة ، كأبي بكر أو عمر (رض) — نفسه على أولاد يعقوب ، ويعلم أن كل من كان من السلالة المحمدية أو البكرية أو العمرية مثلاً ، فهو بين شيئين ؛ إن كان من الصالحين المتقين ، كان على قدم يوسف عليه السلام ، وإن كان من المذنبين ، احتاج للتوبة وكان على قدم اخوة يوسف رحمهم الله تعالى ، فيوسف واخوته كلهم من سلالة بيت نبوة ؛ لكن يوسف إنما انتفع باستقامته وتقواه ، كما أن اخوته إنما انتفعوا بتوبتهم إلى الله ، وهكذا كل من كان اليوم من سلالة الحسين أو الحسن أو أبي بكر أو عمر (رض) أو نحو ذلك ، لا ينفعهم عند الله العمل الصالح والتقوى ، والسيرة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ وقلْ اعملُوا ، فَسَيرى اللهُ عَمَلَكم ورسُوله والمؤمنونَ ، وستُرَدُّون إلى عالم الغَيْبِ والشهادة فَيُنَبِّئُكم بما كنتم تعملونَ ﴾ (٩:١٠٦) وقال : ﴿ يا أيها الناسُ ، إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى ، وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ ، لِتَعارفوا ، إنَّ أكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾ (٤٩:١٣) ، وقدقال تعالى : ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترَحُوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلهم كالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، سواءً محْياهم ومماتهم؟ ساء ما يَحكمون ! ﴾ (٤٥ : ٢٠) ، وهذا استفهام إنكاري ، يقتضي الانكار على من يحسب ذلك ويظنه ، وإنما يُنكر على من حسب وظن الخطأ صواباً ، والباطل صحيحاً .

فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء الذي ينزه الله عنه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أم نجعلُ الذينَ آمنوا وَعمِلوا الصالحاتِ ، كالمُفسدينَ في الأرضِ ؟ أم نجعلُ المتّقينَ كالفُجارِ ﴾ (٣٨:٢٨) وقوله تعالى : ﴿ أفنَجعَلُ المسلمينَ كالمجرمينَ ، مالَكم ؟ كيف تحكمُون ؟ ﴾ (٦٨ : ٣٥) وبالاجمال ، فالتسوية بين الأبرار والفجار ، والمحسنين والظالمين ، وأهل الطاعة وأهل المعصية — حكم باطل يجب تنزيه الله عنه ، فإنه ينافي عدله وحكمته ، وهو سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفين ، فهو يسوي بين المتماثلين كقوله تعالى : ﴿ أكُفّاركم خيرٌ من أولئِكم ؟ أم لكم براءَةٌ في الزُّبرِ ؟ ﴾ (٥٤ : ٤٣) وقوله : ﴿ كدَأبِ آلِ فِرعونَ والذينَ من قبلِهم ﴾ (٣:١١) ، فالشريف الهاشمي التقي النقي الصالح ، هو كيوسف ، والشريف الهاشمي الذي خرج عن الحد ، ثم تاب وأناب إلى الله وحسنت حاله ، هو كأخوة يوسف .

(الله أكبر الله أكبر)

(ما كان حديثاً يفترى)

— ١ —

وتابع السيد نور الدين السنغافوري كلامه فقال :

ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير

المراد من قوله ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ : أن قصص القرآن ، ليس مخترعاً ولا مفترى بدليل وجود أمثاله بين الناس قبل نزوله ، فهو وأن اختلف قليلاً في بعض التفصاصيل أو الجزئيات — عما يرويه الناس ، إلا أنه موافق في الجملة والجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون ، ان النبي اخترعه بعقله ، بل اسألوا عنه.

أهل الكتاب ، تجدوا أنه معروف بينهم ، ومروي في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند أهل الكتاب من قبل ، لا يضعف حجته ، كما يتوهم « المبشرون » بل هو من أعظم مايصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يستنتجن القاريء من هذه الآية ، أن قصص القرآن ، يجب أن لايختلف عن قصص التوراة والانجيل في شيء ما . . كلا . . إذ لو كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، لما قال تعالى: ﴿ إنَّ هـذا القرآن يَقُصُّ على بني اسرائيلَ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ (٢٧:٧٦) ، فقصصه قـد يختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لهـا في بعض الجزئيات ، كما قلنا .

ويقال أيضاً « ما كان حديثاً يفترى » من قبيل الخرافات والأساطير التي في أسفار الغير ، ولكنه كان بالعكس هادماً لتلك الخرافات والأساطير ، التي خلقتها تلك العصور اليهودية ، والعصور الستة قبله ، وكان مصدقاً لـما تقدمه من الكتب خلا مازيد فيها أو حذف منها ، أو فسد بسبب الترجمة السيئة ، وكذلك خلا الكتب « الأبوكريفية » — أي التي ليست قانونيـة — الموجودة في الترجمـة السبعينية ، التي قبلتها الكنيسة البابوية بين الكتب الملهمة .

(ولكن تصديق الذي بين يديه)

— ١ —

وقال المدقق اللدي :

ليسمح لي السادة أن أعلق على هذه الفقرة من الآية الكريمة بالتعليقات التالية:

القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد

أولاً — القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخاص واتقاء الشرك ،

صغيرة وكبيرة ، واثبات النبوات والرسالات ، وما يغذي ذلك الإيمان ويقويه ، ومن ترك الفواحش والمنكرات ، وعمل الصالحات .

القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين

ثانياً ـ القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه ، التي هي المقصد من ارسال جميع الرسل ، لايختلفون فيها ، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها ، وهدايتهم بها ، وترقيتهم في معارجها ، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، خذ اليك مثلاً على ذلك : المقصد من جميع الحكومات هو العدل ، وإنما تختلف الدول في القوانين المقررة له ، باختلاف أحوال الأمم ، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ، ما كان عليه من قبله ، إذا كان يوافقه في جعله مُقَرِّراً للعدل ، مقيماً لميزانه بين الناس ، كما كان أو أكمل ، وهو في هذه الحال يسمي مصدقاً لما بين يديه لا مكذباً ولا مخالفاً ، فالقرآن قرر نبوة ابراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم ، وصدقهم فيما جاءوا به عن الله تعالى ، ووبخ الأقوام المدعين اتباعهم ، على إضافتهم لبعض ماجاءوا به ، وتحريفهم للبعض ، وزيادتهم في بعض المواضع ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين ، وهو التوحيد ، فثلثوا واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، فتصديق القرآن لما بين يديه ، لاينافي مانعاه عليهم من الاضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط .

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثاً ـ القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد ، وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات ، وتهذب الأخلاق ، وفي الكليات الخمس ، وهي

« حفظ الدين » بعدم الردة والكفر ، و « حفظ النفس » بعدم الانتحار وقتل الناس ، و « وحفظ المال » بعدم السرقة والربا والغش والخيانة ، و « حفظ النسب » بالتباعد عن الزنا ، و « حفظ العقل » بان لايتعاطى مسكراً ولا مخدراً ، هذه هي الكليات الخمس ، التي هي مشروعة في كل دين ، وموصى عليها في كل كتاب .

القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الاصليين

رابعاً – القرآن مصدق لدين اليهود ودين النصارى الأصليين ، فان ديننا هو عين دينهم ، مع مزيد بيان ، واصلاح يقتضيه ترقي البشر ، ومع إزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين ، وماهي من الدين في شيء .

القرآن مصدق للكتب السماوية الاصلية

خامساً — القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، ولكن وجد في هذه السورة ، في القصة اليوسفية ، ماهو مغاير للقصة في سفر التكوين الموجود عند اليهود والنصارى ، مابين زيادة في السيرة عما هو في سفر التكوين ، ونقصان في السيرة عما هو في السفر المذكور ، ولا يهولكم ذلك ، فالقرآن نزل مهيمناً على كتب اليهود والنصارى ، ومصححاً لها ، فما حكاه القرآن كان صحيحاً ، وما نفاه كان ليس بصحيح ، وما سكت عنه كان غير مهم ، لأن التوراة دخلها مادخلها من التحريف والزيادة والنقصان ، وأما قوله تعالى : ﴿ وكيف يحكمونكَ وعندَهم التوراةُ فيها حُكمُ اللهِ ؟ ﴾ (٥:٤٦) ونحو ذلك مما يحتج به دعاة النصرانية ، على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود ، هي ما أنزله الله تعالى على موسى ، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف – فهو احتجاج ضعيف ، لأنه لايجوز للانسان أن يأخذ من القرآن مايوافق هواه ، ويرد مايخالفه جدلاً ، فالمؤمن

يؤمن بالكتاب كله ، والكتاب يبين لنا أن عندهم التوراة ، وأن فيها حكم الله ، في القضية التي تحاكموا فيها الى النبي ﷺ ، وهي قضية رجم الزاني المحصن ، وقد صدق الله تعالى ، وهو أصدق الصادقين ، ولكنه يبين لنا مع ذلك في نفس الكتاب أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه (٤ : ٤٥) ، وأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٤) ، وكذا النصارى نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) ، وأن اليهود إنما اوتوا نصيباً من الكتاب (٣ : ٢٣) ، إذ أضاعوا منه نصيباً آخر ، وقد صدق الله أيضاً في ذلك كله ، فقوله : ﴿ وعندهم التوراة ﴾ (٥ : ٤٦) لا يجب أن يعنى التوراة الصحيحة ، بل يجوز أن يراد بها التوراة ولو محرفة أو مزيدة أو ناقصة ، فكل ذلك يصدق عليه أنه توراة ، ولا تنس ههنا قوله تعالى: ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني اسرائيلَ أكثر الذي هم فيه يَختلفون ﴾ (٢٧ : ٧٦)

شواهد من التوراة الحالية على ان فيها زيادة

هذا ولما خرجت امة القرآن بالقرآن من الأمية ، وعرفوا تاريخ اهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ، ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك ، كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ، إذ ظهر لهم أن اليهود كانوا فقدوا التوراة التي كتبها موسى ، ثم لم يجدوها ، وانما كتب لهم بعض علمائهم ما حُفظ منها ممزوجاً بما ليس منها ، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك، فان فيها ما نصه : (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها ، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا ، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ، ليكون هناك شاهداً عليكم ، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة ، هو ذا وأنا بعدُ حيٌّ معكم اليوم ، قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتي ؟ اجمعوا اليَّ شيوخ أسباطكم وعرفاءكم ، لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات ، وأُشهد عليهم السماء والأرض، لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون ، وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم ، ويصيبكم الشر في آخر الايام ،

لأنكم تعملون الشر أمام الرب ، حتى تغيظوه بأعمال أيديكم - فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد الي تمامه) (تث ٣١ : ٢٤ - ٣٠) وههنا ذكر النشيد في (تث ٣٢) .

ثم قال الكاتب بسفر التثنية : (فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب ، هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بني اسرائيل بهذه الكلمات ، قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات ، التي أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكي توصوا بها أولادكم ، ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم ، بل هي حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التي أنتم عابرون الأردن اليها لتمتلكوها) (تث ٣٢: ٤٤ ٤٧) ، فلا شك ان هذا الخبر أي كتابة موسى للتوراة زائد على التوراة ليس منها .

وثانياً — خبر موت موسى ، وكونه لم يقم في اسرائيل نبي مثله بعد ، أي إلى وقت الكتابة ، فقد ورد في سفر التثنية (وصعد موسى عن عربات موآب الى جبل نبو ، الى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالي ، وأرض أفرايم ومنسى ، وجميع أرض يهوذا إلي البحر الغربي ، والجنوب والدائرة بقعة اريحا مدينة النخل إلى صوغر ، وقال له الرب : هذه هي الأرض التي اقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً : انسلك اعطيها قد أريتك اياها بعينيك ، ولكنك إلى هناك لا تعبر ، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفن في الجواء في أرض موآب ، مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، وكان موسى بن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ، ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى ، ويشوع بن نون كان قد

امتلأ روح حكمة ، إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو اسرائيل ، وعملوا كما أوصى الرب موسى، ولم يقم بعدُ نبيّ في اسرائيل مثل موسى) (تث ٣٤ : ١ - ١٠) فهذا الخبر عن موت موسى معدود عندهم من التوراة ، وما هو في الحقيقة من التوراة المنزلة على موسى ، التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل هذا الخبر كتب كغيره بعده ، وقد ظهر تأويل علم موسى في بني اسرائيل ، فانهم فسدوا وازاغوا بعده كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ، ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء أخذوا ما كتبوه ، على أنه فقد أيضاً ، وقد قالوا : (إن « حلقيا » الكاهن وجد سفر شريعة الرب وسلمه إلى « شافان » الكاتب، فجاء به شافان إلى الملك » (٢ أي ٣٤ : ١٤ - ١٦) ، قال صاحب دائرة المعارف العربية: « إنهم ادعوا أن هذا السفر الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ، ولا دليل لهم على ذلك ، على أنهم أضاعوه أيضاً » ثم إن « عزرا » الكاهن الذي (هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم اسرائيل فريضة وقضاء) (عز ٧: ١٠) قد كتب لهم الشريعة بأمر « أرتحشستا » ملك فارس ، الذي أذن لبني اسرائيل بالعودة إلى اورشليم.

التوراة الحالية كتبت بعد السبي

وعلى ذلك فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي، كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها، وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى ، مع أنها هي أصل دين النصارى وأساسه ؛ وقد قال صاحب كتاب « خلاصة الأدلة السنية ، على صدق أصول الديانة المسيحية » ما نصه :« والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما [illegible]ب « بختنصر » الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جارياً بين اليهود

هو أن الكتب المقدسة فقدت، وأن « عزرا »الكاتب ، الذي كان نبياً، جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة ، وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية » انتهى بحروفه .

الرد على القول بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية

ولقد نعلم أنهم يجيبون من يسأل : من أين جمع « عزرا » الكاتب تلك الكتب، بعد فقدها ، وانما يُجمَعُ الموجود؟وعلى أي شيء اعتمد في اصلاح غلطها ؟فيجيبونه قائلين : « إنه كتب ما كتب بالالهام ، فكان صواباً » !!

ولكننا نقول : هذا الالهام مما لا سبيل إلى إقامة البرهان عليه ، ولا هو مما يحتاج فيه إلى جمع ما في أيدي الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، ولو كتب «عزرا» بالالهام الصحيح ، لكتب شريعة موسى مجردة من الأخبار التاريخية، الزائدة على التوراة، ومنها ذكر كتابة موسى لها ، وأنه أمر بوضعها في جانب التابوت ، ومنها ذكر موته ودفنه وعدم مجيء مثله ؟

وقد بين بعض علماء أوربا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة واحد فقط ، وليس من غرضنا الآن أن نطيل في ذلك ، وإنما نقول : إن الذي بين يدي القرآن ، الذي أتى القرآن مصدقاً له — هو ما أوحاه الله إلى موسى ليبلغه قومه بالقول والكتابة ، وأما سفر التكوين الذي عند القوم المشتمل على قصة يوسف ، فهو سفر تاريخ مشتمل على ما هو صحيح وغير صحيح.

(الله اكبر)

« وتفصيل كل شيء .. »

— ١ —

وقال الشريف المكي :

القرآن يذكر كل شيء مهم من امور الدين

يقول القرآن الكريم : وتفصيل كل شيء ، أي كل شيء يحتاج اليه في الدين، لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس ، بعد أدلة العقل ، وهذا نظير ما قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٤٤) مع أن الألواح إنما هي ثلاثة أو اثنان ، جرياً على قول اليهود وعلى قول من قال : « أقل الجمع اثنان » ، وكانت من حجر ، وهل لا تسع إلاّ بعض الشيء ، ولكن المقصود من كلة « وتفصيلاً لكل شيء » مهم يحتاج اليه في الدين ، وذلك الكلمات العشر وما اليها ، فالدين هو نقطة كثرها الناس ،

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كان سألني بعض مبشري البروتستانت : كيف تقولون إن القرآن كان « تفصيل كل شيء » كما في آخر آية من سورة يوسف ، وكيف يقول القرآن إن ألواح موسى مكتوب فيها من كل شيء ، وفيها التفصيل لكل شيء ، مع أن تلك الألواح الحجرية الثلاثة على قولكم أو الاثنان على قولنا لا تسع كل شيء ، لا جملة ولا تفصيلاً ؟

فاجبته بقولي : المقصود كل شيء مهم يحتاج اليه في الدين ، ثم ماذا تقول فيما هو في آخر انجيل يوحنا « وأشياء أخر كثيرة ، صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يو ٢١ : ٢٥) ثم ماذا تقول فيما ينقل عن موسى أنه قال لبني اسرائيل : « وهو ذا أنتم اليوم كنجوم

السماء في الكثرة » (تث ١ : ١٠) ، وماذا تقول في قول سفر القضاة : « وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالين في الوادي ، كالجراد في الكثرة ، وجمالهم لا عدد لها ، كالرمل الذي على شاطيء البحر في الكثرة » (قض ٧ : ١٢) ، وماذا تقول فيما ينقل عن المسيح : « وأنتِ يا كفرنا حوم المرتفعة إلى السماء » (مت ١١ : ٢٣) ، وماذا نقول فيما هو في سفر يوحنا « هو ذا العالم قد ذهب وراءه » أي وراء المسيح (يو ١٢ : ١٩) ، ومما يقرب من قول يوحنا هنا قول جامعة سليمان : « لعمل كتب كثيرة لا نهاية » (جا ١٢ : ١٢) فما قاله مفسروكم في مثل هذه الأقوال نقوله في آيات القرآن الكريم ، مع انك سمعت الجواب عن آيات القرآن الكريم ، ولله الحجة البالغة .

(احسنت)

(وهدىً ورحمةً ، لقوم يؤمنون)

— ١ —

وقال الشيخ القبرصي [١] :

القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة

القرآن في نفسه هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وإن لم يستعمله ، فهو دواء له بالقوة ، وكذلك الهدي ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به ، وبالقوة لمن لم يهتد به ، والهدى في الأصل مصدر هَدَى يَهْدِي هُدَىً ، فمن لم يعمل بعلمه ، لم يكن مهتدياً ، كما في الأثر : (من ازداد علماً ولم يزدد هدى . لم يزدد من الله تعالى إلا بعداً) ، ولكن سمى هدى ، لأن من شأنه

(١) نسبة الى جزيرة قبرص الواقعة في البحر الابيض المتوسط غربي شاطىء البلاد السورية.

أن يهدي ، وههنا ثلاثة أشياء : فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل الهادي هو الله تعالى، والقابل هو قلب العبد ، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ، فالله سبحانه يهدي خلقه هدي ، كما يقال دلهم دلالة ، وأرشدهم إرشاداً ، وبين لهم بياناً ، والمقصود أن المحل القابل هو قلب العبد المتقى المنيب إلى ربه ، الخائف منه ، الذي يبتغي رضاه ، ويهرب من سخطه ، فاذا هداه الله بكتابه ، وصل أثر فعله الي محل قابل ، فيتأثر به ، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظه بالوجود والفعل والقبول ، وإذا لم يكن المحل قابلاً ، وصل اليه الهدى فلم يؤثر فيه ، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فانه لا يؤثر فيه شيئاً ، بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده ، كما قال تعالى في حق الآية التي كان نزلها : ﴿ فأماالذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يَستبشرونَ ، وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهم ﴾ (٩ : ١٢٥و١٢٦) وقال : ﴿ ونُنزِّلُ مِنَ القرآنِ ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يَزيدُ الظالمينَ إلاّ خَسَاراً ﴾ (١٧: ٨٢) ، فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ، ولعدم آلة الهدى تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلاّ عند اجتماع هذه الثلاثة ، وقد قال سبحانه : ﴿ ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خَيراً لأسمَعَهم ، ولو أسمَعَهم لتَوَلَّوا وهم مُعرضون ﴾ (٨ : ٢٣) فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء ، وهو إسماع قلوبهم ، وإفهامها ماينفعها ، لعدم قبول المحل ، فإنه لاخير فيه ، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه ، والميل اليه والطلب له ، والحرص عليه ، والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ، فوصل الهدى اليها ووقع عليها ، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية ، التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فلا هي قابلة للماء ولا للبنات ، فالماء في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له ، ثم أكد هذا المعنى في

حقهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (٨:٢٣) أي أنهم مع عدم قبولهم وقلة فهمهم ، فيهم آفة أخرى ، وهي الكبر والأعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به ، فالهدي في حق هؤلاء ، هدى بيان وإقامة حجة ، لاهدى توفيق وارشاد ، فلم بتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، وأما المؤمنون فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ، ولأولئك هدى بلا رحمة .

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

— ٢ —

وقال السيد الدمشقي :

القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه

يقول الله تعالى إن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لأنهم هم الذين يفهمونه فيعملون به فينتفعون ، وأما من لا يفهم كتاب الله ، فنفسه « حمارية » كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التوراة ، ثم لم يَحْمِلوها ، كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً ﴾ (٦٢:٥) ، وكذلك الذين يولون مدبرين عن درس كلام الله القرآن ، هم في نظر الله تعالى حمير ، كما قال تعالى : ﴿ فما لَهُمْ عن التذكرِ مُعْرِضِينَ ؟ كأنهم « حُمُرٌ » مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٧٤ : ٤٩ — ٥١) ، وأما من يفقه الكتب السماوية كالقرآن مثلا ، ولكنه لا يعمل حسبما يعلم ، فهو عالم السوء ونفسه « كلبية » ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿ واتلُ عليهم نَبأَ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلَخَ منها ، فأتبعَهُ الشيطانُ فكان الغاوين ، ولو شِئْنا لرفعناهُ بها ، ولكنه أخْلَدَ الى الأرض ، واتبعَ هواهُ ، فمَثَلُهُ كمثلِ الكلبِ : إن تحمِلْ عليه يلهثْ ، أو تتركْهُ يَلهثْ ﴾ (٧ : ١٧٤ و ١٧٥) .

الهدى هو الدعوة والدلالة والبيان

والهدى يكون بمعنى الدعوة والدلالة والبيان ، سواء وصّلَ أم لم يوصل ، وهـذا يشترك فيه المؤمن والـكافر ، كقوله تعالى ﴿ وأمّا ثمودُ فهَدَيْناهُم فاستحبّوا العمى على الهدى ﴾ (١٧:٤١) ، ويكونُ بمعنى جعل الإنسان مُهتَدياً ، أي بمعنى الدلالة الموصلة، وهذا يختص بالمؤمنين ، وهو المطلوب في قوله: ﴿ اهْدِنا الصِراطَ المُستَقيمَ ﴾ (١ : ٥) وبقوله في وصف الكتاب : ﴿ هُدى لِلمُتّقينَ ﴾ (٢:٢) ثم قوله : ﴿ أولئكَ على هُدَى مِنْ ربهمْ ﴾ (٢:٥) وقوله هنا في الآية : ﴿ وهدىً ورحمةٌ لِقومٍ يؤمنونَ ﴾ ، وقد شرع الله لنا ، أن نسأله ذلك في كل صلاة ؛ وهو أفضل الدعاء ، وأفرضه وأجمعه لـكل خير ، وكل أحـد محتاج الى الدعاء به ، فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد ، في كل صلاة . (الله أكبر)

انتهى الجزء الثاني

وهنا وقف كاتب سر المؤتمر واختتم جلسات المؤتمر باسم السيد رئيس المؤتمر ثم القى كلمة تناسب المقام ، شاكراً فيها المحاضرين الأكارم على مابذلوه من مشقة وجهد في سبيل كتاب الله العظيم ، واعداً إياهم بدعوتهم إلى عقد مؤتمرات تفسيرية لسور أخرى من القرآن الكريم ، ثم انفض عقد اجتماعهم وهم يهنئون بعضهم بعضاً على حسن الختام [١] .

(١) غير اننا نذكر بملء الأسف والأسى ان المنية قد عاجلت السيد كاتب السر ، اذ تغمده الله برحمته ورضوانه في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى لسنة ١٣٥٥ هـ الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) لسنة ١٩٣٦ م .

(ابن المؤلف)

فهرس الجزء الثاني من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع :

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الثاني

الصحيفة والموضوع :

جدول الأخطاء المطبعية وتصويبها في هذا الجزء (الثاني)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٤٣	١٣	ولو	لو
٧٤٦	٤	الفرصة	الفرجة
٧٥٢	٨	والعقل	والفعل
٧٥٣	٢٣	العظيمة	العظمية
٧٥٥	١٤	لشركهم	بشركهم
٧٥٥	١٥	قض ٦ : ٦٥	قض ٦ : ٢٥
٧٥٥	٢٣	حيدون	صيدون
٧٥٦	١٥	تراقيم	ترافيم
٧٥٦	٢٤	ونبوا	وبنوا
٧٦١	٤	وملحاؤهم	وصلحاؤهم
٧٦٣	١٥	أذربجيان	أذربيجان
٧٦٤	١٥	الغَيبْ	الغيبِ
٧٦٨	٧	(٢ : ٢٧٦)	(٢ : ١٧٦)
٧٧٥	١١	وعشية	وعشيهْ
٧٧٥	١٣	نِعمتَي	نعْمتِيَ
٧٨٤	١٧	عليها كثيرة	عليها في مواضع كثيرة
٧٨٥	٧	تلبيسونَ	تُلبِسونَ
٧٨٥	٩	مُصيدقاً	مُصَدقاً
٧٨٥	١٥	يا أيها آمَنوا	يا أيها الذين آمَنوا
٧٨٨	٤	حبان	حيان
٧٩١	١٧	منه ، أو ما شاءوا	منه ، أو منشقان منه ، أو ما شاءوا

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٩٢	١٤	أخرجناه	أخرجاه
٧٩٤	١٩	مثرات	مترات
٧٩٤	٢٠	متراث	مترات
٧٩٨	١٥	اوزمية	اورمية
٧٩٨	١٧	الاقسوسيّ	الافسوسيّ
٧٩٩	١٢	الفراعنة في التوثن	الفراعنة وثنيين على طريقة الفراعنة في التوثن
٨٠٠	٢	بقوله عز وجل	كما في قوله عز وجل
٨٠٠	٤	ولا يَتّخذُ	ولا يتّخذَ
٨٠٠	٢١	الأدبية	الادبية
٨٠١	٢	أدبية	أدبية
٨٠٢	١٢	أصحابُ	أصحابَ
٨٠٣	٢	شركاءٌ	شركاءُ
٨٠٦	٥	وإنّ كان	وإنْ كان
٨٠٦	١٤	فهم	منهم
٨٠٨	١	القامة	القيامة
٨٠٨	٣	يبين	يبّن
٨٠٨	٥	(أع ٢٠ : ٢٢	(أع ٢ : ٢٢
٨٠٨	١٦	وتطيعوني	وتطيعوني » آه
٨١١	٤	إن الحكمُ	إنْ الحكمُ

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨١٧	٨	ودائماً	دائماً
٨١٧	١٢	بُنْيا َنهُمْ	بِنيَاتِهِم
٨١٨	٧	من قبل	من قبيل
٨٢١	٢٠	يسمعانه	يسمعان
٨٢٢	١٦	أداء	داء
٨٢٣	٨	و َتقَصَّى	وتفصَّى
٨٢٣	١٤	الكري	الكردي
٨٢٤	١٧	السؤآل	والسوآل
٨٢٤	٢٠	كما	وكما
٨٢٥	٤	َنشركَ	ُنشركَ
٨٢٦	١٥	أدن	أدنان
٨٢٩	١١	َليَضِلّونَ	َليُضِلّونَ
٨٣١	١١	« بنو »	« نبو »
٨٣٢	٤	بصراحة	بالحزم والصراحة
٨٣٢	١٥	« مجللث »	« مجلث » أو «ملحب»
٨٣٤	٦	شعر	شعرا
٨٣٧	١٠	« فانون »	« قانون »
٨٤٥	٢٠	يوسف	يوسف
٨٤٧	١٨	والجوانح	والجوائح
٨٤٨	١٦	يبحلون	يبخلون
٨٤٨	٢١	خبار	إخبار

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٥١	١٩	الصدي	الصدى
٨٥٢	٢١	الله خالقٌ	الله خالقُ
٨٥٣	١٢	أنَ	أنّ
٨٥٣	١٣	إنَ	إنّ
٨٥٤	٤	يوم القيمةَ	يوم القيمةِ
٨٥٤	٢٢	سيُغلَبون	سَيَغْلِبُون
٨٥٥	٥	« امية بن خلف »	« أُبَي بن خلف»
٨٥٥	٧	« اميّة بن خلف »	« أُبَي بن خلف»
٨٥٥	٨	فزوده	فزده
٨٥٥	٩	وزادوه	وزاده
٨٥٦	٦	رُؤُيايَ	رُؤْيايَ
٨٥٧	١٥	ورقيمة	ورقيقة
٨٥٧	٢٠	نائية	نابتة
٨٦٤	٤	من عبرت	من عبرّتُ
٨٦٥	٥	هو جمع	قلت هو جمع
٨٦٩	٢٢	(يستقاد من رؤياه)	(كما يستفاد من رؤياه)
٨٧٠	١٨	أمّةٍ	أمّةٍ
٨٨٠	١٦	أنت وَزَوُجك	أنت وَزَوَجك
٨٨٣	٧	الرؤية	الرؤيا
٨٨٥	٢	لشأن	بشأن
٨٨٩	١٥	قد مُتشم	قدّ متشم

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٩٠	٢٠	الحمم	الِحَمام
٨٩٢	٧	قضى يوسف	قفّى يوسف
٨٩٤	١٩	هذه المرة بقول « الشرابيّ »	هذه المرة أيضاً كحظه في سابقتها، أو لعله اكتفى في هذه المرة بقول « الشرابيّ »
٩٠٢	١٩	باتهامه	باتهامها
٩٣٩	٤	وأزلقه	وأزلفه
٩٤١	١٤	أو نفصه	أو نقصه
٩٦٤	١١	لحريم	لحزيم
٩٦٥	٧	وطمع	وطمع
٧٦٨	١٢	خزائن	خزائن الملكة
٩٧٩	٨	بصبيان	تصبيان
٩٩٠	١٤	بيوثيل	بتوثيل
٩٩١	٦	اخوةٌ	اخوة
٩٩٣	٨	للمثارين	للممتارين
٩٩٧	١٠	فعنيع	فعنيح
٩٩٩	١٥	وقالَ	قالَ
١٠٠١	٧	للقرآن	للقراء
١٠٠٢	١٧	وقام	وقال
١٠٠٧	٨	على	من
١٠٢٢	٢١	جملوا	اجملوا
١٠٢٣	٧	المتمدنية	المتمدينة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٠٢٤	٩	(فلما رجعوا	(فلما رجعوا)
١٠٢٨	١٨	صمن	ضمن
١٠٤٥	٦	الفَرَر	الفَـرَر
١٠٥٦	١٣	أمرَهم	أمرُهم
١٠٥٦	١٤	لا حاجةٌ	إلاّ حاجةً
١٠٥٦	١٥	عليمٍ	عِلْمٍ
١٠٥٦	١٥	كثر	أكثرَ
١٠٦٤	٤	مؤذِنٌ	مؤذّنٌ
١٠٧١	١٨	قبول بنيامين	قبول بنيامين التسريقْ
١٠٧٢	١	التسويق	التسريق
١٠٨١	٢٣	وادى الفضا	وادى الغضا
١٠٨٠	١	يرددون	يردون
١٠٨٨	٨	كـلِ	كُلٌّ
١٠٨٩	١٩	يوحي	بوحي
١٠٩١	١	كيد تكويني راجع	كيداً تكوينياً راجعاً
١٠٩٥	١٢	مارق	سارق
١١٢٣	١٣	العّلات	العلاّت
١١٣٥	١٣	« العيرة »	« العير »
١١٤٢	٢٢	فأقيا	فأتيا
١١٥٣	١١	دون تترك	دون أن تترك
١١٧٠	٣	واسرق	واسترق

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١١٧٠	١٣	وَلْيُمخِّصَ	وَلِيُمَحِّصَ
١١٧٩	١٣	ربّكم	ربُّكم
١١٨٠	١٦	يُعْلِمونَ	يُعَلِّمونَ
١١٨٦	١٨	العبرانين	العبرانيين
١١٨٨	١٢	المتمدنية	المتمدينة
١٢٠٦	٨	« الابان »	« لابان »
١٢١٣	١٧	من أذكره	من أن أذكره
١٢١٥	٦	تَرجعون	تُرَجعون
١٢١٩	٣	(٥ : ٦٩)	(٥ : ٦٦)
١٢٢٠	٦	ياللخجلة	يا للخجالة
١٢٣٣	١٣	دَبُر	دَبْرَ
١٢٥٠	١٣	بَصر بعمله	بَصُرَ بعمله
١٢٥٤	١٥	لولده يوسف	لداوه يوسف ثم فقده له
١٢٥٤	١٩	من ابيضاض أو فقد حسن الرؤية	من فقد الذاكرة البصرية فقدا روحياً نفسانياً
١٢٥٧	٥	فاص	ناس
١٢٦٢	١٦	لوارمه	لوازمه
١٢٦٦	٨	لهوا	لهو
١٢٦٧	٢١	المخوّ	المحزّ
١٢٧٢	٨	رشده آلهي	أرشدهُ ألنُّهى
١٢٨٢	١٣	(إني أجد)	(إني لأجد)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٢٩٢	١٨	ورأيت من	وما رأيت من
١٣٣٢	٢٣	جمع معزى	جمع مغزى
١٣٣٩	١٣	الكتابة	الكناية
١٣٦٧	١	ومملكتاهم	ومملكتيهم
١٣٦٧	٥	ومملكتاهم	ومملكتيهم
١٣٧٧	١٢	فالأخبار	فالإخبار
١٣٨٢	٢	الجيد	المجيد
١٣٨٤	٢	عند	عنه
١٣٨٨	١٥	تسير	تشير
١٣٩٠	١٤	فارعة	فارعه
١٣٩٢	١	على	من
١٣٩٥	٢٠	تلعرافاً	تلغرافاً
١٣٩٩	٨	غيرهما	غيرها
١٤٠٥	١٢	في النصارى	في دين النصارى
١٣٠٧	٤	لحاجات	الحاجات
١٤٠٧	٤	المانع	النافع
١٤٠٩	٨	الأنباء	الأنبياء
١٤٠٩	١٥	بخاه	بجاهه
١٤١١	٥	واحذ	واحد
١٤١٢	١٢	يُشرِكْ	يُشْرِكْ

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٤١٢	١٨	وحينند	وحينئذ
١٤١٣	١١	مسلمين	مسلمي
١٤١٤	١٧	تسفية	تسفيه
١٤١٥	٢٢	عقوية	عقوبة
١٤١٩	٤	الاعراض	الاعراف
١٤٢٠	٣	مخشورة	محشورةً
١٤٢٠	١٢	ذللك	ذلك
١٤٢١	١٧	وأفوا	وأوْفـُوا
١٤٢٣	٣	تستاخِرن	تستأخِرونَ
١٤٢٤	٥	وقولها	وقوله
١٤٢٤	٩	حَذَرُ	حَذَرَ
١٤٢٤	١٧	والعودية	والعبودية
١٤٢٧	١٦	هل يكن	هل لم يكن
١٤٢٨	٦	اللهَ الذين	اللهَ الذي
١٤٢٩	١٦	إيدانا	إيذاناً
١٤٣٠	٩	فان لا نجمل في	فإن الانجيل الذي في
١٤٣١	١٣	فهوى	فهو
١٤٣٤	١٠	أولادهم	أولادهن
١٤٣٩	٤	من الماضي	على الماضي
١٤٣٩	٥	(فينللروا كيف	(فينظروا كيف
١٤٤٣	١٢	به القرآن	به من القرآن

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٤٤٣	١٢	استخدمها	استخدمها
١٤٤٣	٢١	عن الرجال	عن كل الرجال
١٤٤٧	٣	يقنو	أيقنوا
١٤٥١	٢	فهذ الباب	فهذا الباب
١٤٥٩	٢	صغيرة وكبيرة	صغيره وكبيره
١٤٦٢	١٤	عن عربات	من عربات
١٤٦٣	٧	التوواة	التوراة
١٤٦٧	٢٠	القرح	الفرح
١٤٦٧	٢٢	للبنات	للنبات
١٤٦٨	١٥	التذكر	التَّذْكِرَة
١٤٦٨	١٩	فكان الغاوين	فكان من الغاوين
١٤٧١	١٨	والوهية	والالوهية

وقد يوجد اخطاء اخرى لا تخفى على القارىء اللبيب

انتهى